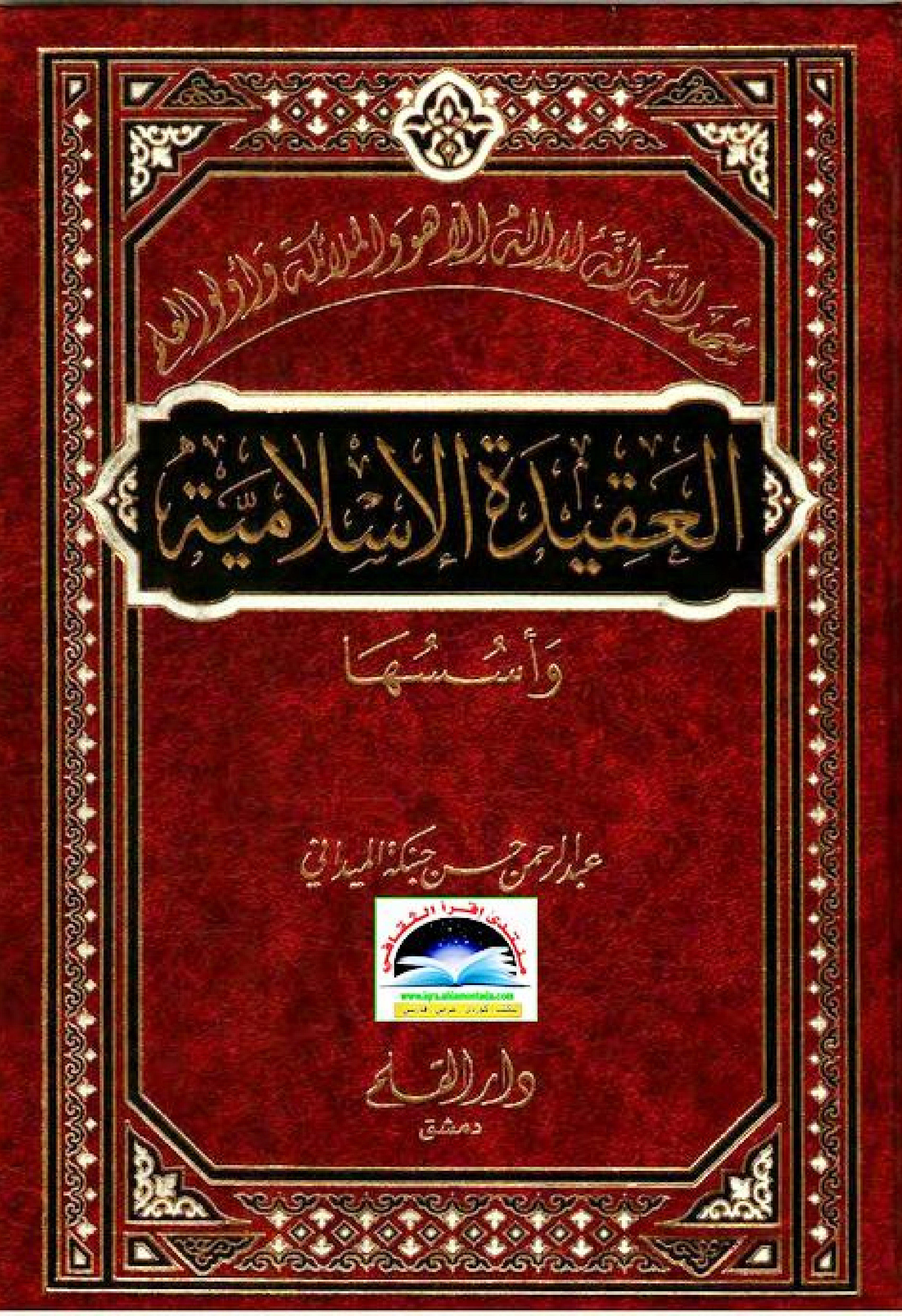

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم
العقيدة الإسلامية
وأسسها
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
دار القلم
دمشق


منتدى إقراء الثقافي


العقيدة الإسلامية
وأسسها

الطبعة الرابعة عشرة
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

في سلسلة طريق الإسلام

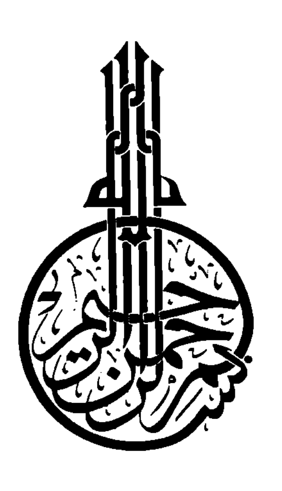
١

العقيدة الإسلامية

وأسسها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني





عقيدة المسلم

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، وتوابعها الاعتقادية.

السبيل لهذه العقيدة

الأسس الفكرية السليمة، والبحوث العلمية القويمة، والإحساسات الفطرية الصادقة، والأخبار اليقينية الثابتة.

الإهداء

● إلى جناب سيدنا رسول الله ﷺ حامل رسالة الإسلام شريعة ومنهاجاً، إيماناً وإسلاماً وإحساناً.

● إلى روح والدي العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنَّكة الميداني، الذي أَسَّس في فكري أصولَ الاعتقاد، وغرسَ في قلبي شجرة الإيمان، وحُبَّ تطبيقِ شرائع الإسلام وأحكامه، ودرَّبني منذ نعومة أظافري على ممارسة المعرفة السليمة، والقيام بواجبات الدين، تغمَّده الله برحمته الواسعة.

● إلى أئمة المسلمين وعُلمائهم الأعلام الذين أفدتُ من علومهم. أهدي كتابي هذا سائلاً المولى عزَّ وجل أن يجعل ما يقضي به من نفع في صحائفهم، مع ما يتفضل به عليَّ من أجر عنده، إنه جواد كريم.

مكة المكرمة في ١٦ من ذي القعدة ١٤٠٩ هجرية.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَانِيَة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى سائر أنبياء الله ورسله الطيبين الطاهرين.

وبعد: فأقدم للقرّاء الباحثين عن أصول الإسلام الاعتقادية، الطبعة الثانية من كتابي: «العقيدة الإسلامية وأسسها»؛ بعد أن أجريت عليه تنقيحات، وبعض تعديلات وإضافات، شاكراً لمن أفادني بملاحظاته من أهل العلم الذين اطلعوا عليه، داعياً لهم بحسن المثوبة، سائلاً الله تعالى أن يلهمنا جميعاً الصواب والسداد فيما نقول، وفيما نكتب، وفيما نفكر، وفيما نعتقد، حتى نظفر بأجر العمل والاجتهاد، وأجر إصابة الحق. ومن طلب الحق ورضوان الله هانت عليه نفسه، ولم يأخذه بالإثم كِبْرٌ ولا تعصُّب، ولا تقليد أعمى، ولا عزّةٌ وعلوٌّ في الأرض.

وأرجو ممّن يطلع عليه من أهل العلم والنظر أن يزوّدني بملاحظاته ــ إن وجد فيه ما يستحقّ إبداء الملاحظة ــ وسأكون له من الشاكرين، وسأكون ــ إن شاء الله ــ للحقّ الذي يبيّنه لي رجّاعاً، مع الاعتراف له بفضل التذكير أو التوجيه أو النقد. على أنَّ كثيرين من أهل العلم الذين اطلعوا عليه، قد أكرموني بالتقريظ والثناء، ووضعوه موضع القبول، وقرّروه على طلابهم، وأوصوْا بالرجوع إليه.

ولا يخفى على القارىء أنني قد بسطت العقيدة الإسلامية في هذا الكتاب بسطاً ملائماً لأسلوب العصر؛ واستفدت من المعارف والعلوم الحديثة لدعم قضايا الإيمان، وأغضيت النظر عن الخلافات المشوِّشة للعقيدة، والتي لا طائل تحتها. واعتمدت في بيان العقائد وأدلتها على القرآن الكريم والسنّة المطهرة، وما جاء فيهما من حجج وبراهين، ولم ألتزم مذهباً معيناً من مذاهب أهل الاعتقاد، إلاّ مذهب أهل السنّة والجماعة بشكل عام. وطريقةُ السلف الصالح هي الطريقة التي رأيتها أقرب لسلامة الفطرة، وصفاء الفكرة، وبُعدها عن التعقيدات الفلسفية المتشعبة، التي تكثر متاهاتها وكبواتها.

اللّهم إنا نسألك أن تلهمنا الصواب، وترزقنا الاعتقاد الذي يرضيك، والإيمان الصـادق الصحيـح، المقرون بما يقتضيه من عمل صالـح، ولك الحمد ربّنا والمنّة.

دمشق في ٢٧ رمضان المبارك ١٣٩٧هـ.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأُولَى

﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾.

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والصلاة والسلام على جميع رسل الله، حَمَلة لواء التوحيد بين الأمم، وقادة الخلق إلى الحق.

إن أكبر طاقة كونية تستطيع أن تسخِّرها قوة بسيطة ذات إرادة عاقلة؛ متى هديت هذه الإرادة العاقلة إلى أسباب تسخيرها، والتصرف بكوامن قواها. هذا هو ناموس الكون المستمر.

وإنما يتحكم بالإرادة العاقلة فكرة، وهذه الفكرة تكون هي السر الفعال في توجيه الإرادة التي تحرك القوى الهائلة من مغمزٍ يسيرٍ في جانب من جوانبها؛ يهدي إليه بصر نافذ، أو تجربة واختبار.

وأفضل ما يكون الإنسان وأكمل أن تهيمن على إرادته الحرة فكرة حقة خيِّرة؛ توجهه إلى طلب الخير والحق والجمال، فيُسخر ــ بحسن تصرفه وكمال إدراكه ــ قوى الكون الكامنة، في نشر الحق والخير والجمال، في مجال نفسه والمجتمع الإنساني، ليحقق بإرادته إرادة فاطر الكون وفق الناموس الذي طبع كونه عليه، إرادة الرب الأعلى فيما أمر ونهى، بطريق الحقيقة الحتمية التي تدركها العقول، أو بطريق الشريعة المبلَّغة على لسان الرسول.

ولما كان للفكرة هذا الأثر العظيم في وجود الإنسان وحياته، كانت الأسس الفكرية في حياته ــ التي تُمثّل عقائده ــ أول ما يجب العناية به عناية بالغة النهاية؛ لأن كل تصرف من تصرفاته سيصبح أدنى إلى كمال السلامة، متى انضبطت هذه الأسس في نفسه، وبنيت على

الحق، كما أنه سيصبح منحرفاً أو شاذاً أو موغلاً في الشر والفساد، متى اضطربت هذه الأسس في نفسه، أو كانت فاسدة مبنية على الباطل.

ولما كانت العقيدة الإسلامية في مركز الحق الذي لا تشوبه شائبة ــ وليس بعد الحق إلا الضلال ــ كانت حَرِيَّة بعرضها على الفكر الإنساني؛ عرضاً خالياً من التعقيد، بعيداً عن المصطلحات الكثيرة، سهلاً ميسراً مناسباً لمختلف مستويات البشر، لتكون الأساس الإصلاحي الأول للناس كافة. فالعقيدة السليمة متى رسخت في الفرد استقام سلوكه في حياته، والعقيدة السليمة متى أظلّت مجتمعاً إنسانياً انضبط ذلك المجتمع وارتقى إلى ذروات الكمال الإنساني. وقد دلت التجارب أن صلاح سلوك الفرد يتناسب طرداً مع مدى سلامة أفكاره ومعتقداته، وأن فساد سلوك الفرد يتناسب كذلك مع مدى تضاؤل العقائد السليمة في كيانه الفكري، واحتلال العقائد الفاسدة في محالِّها. ومثلُ الفرد المجتمعُ بالنسبة للمعتقدات التي تسود الجانب الاجتماعي فيه، يتناسب ارتفاعه وهبوطه مع سُلَّم العقائد السليمة الصالحة، ودَرَكِ المعتقدات المريضة الفاسدة.

وبعد: فهذا كتاب في العقيدة الإسلامية سميّته: «**العقيدة الإسلامية وأسسها**»، أقدمه لكل أخ في الإسلام، ولكل شريك في الإنسانية، ليطلع فيه على فقرات مبسطة من الفكر الإسلامي في جانبه الاعتقادي، أشرح فيها أركان العقيدة الإسلامية، متبعاً في عرضها منهج القرآن الكريم، في عرضه مبادىء الإسلام وعقائده، بالأسلوب الذي تفهمه الجماهير الإنسانية، متى خطت في التأمل والنظر المتجرد السديد بعض الخطوات المستطاعة لأكثر المستويات البشرية، راجياً أن يدعو لي بحسنى، ثم يقدمه لأخ يتوسّم فيه الخير ليقرأه ويطلع على سلامة منهج التفكير الإسلامي في تأسيس أسسه؛ وترسيخ عقائده وقواعده. وأكرم هدية يهديها لي أخ منصف ــ بعد الدعوة الصالحة ــ إصلاح خطأ يمر به، أو تقويم هفوة يعثر عليها، أو زيادة حسنة يضيفها إلى حاشيته، ينفع بها القارئين، وينتفع بها عند رب العالمين.

وإني لم أقصد في تقديمي هذا الكتاب للقراء الكرام شهرة أو ثروة، ولكني كنت أعددته لطلاب المرحلة الثانوية من المدارس الشرعية في القطر السوري، وفق المستوى الفكري الذي يستطيعونه. وألقيته على طلاب الثانوية الشرعية بدمشق خلال الأعوام الدراسية الهجرية من ١٣٨١ وحتى ١٣٨٥هـ؛ فصادف استحساناً وقبولاً عند من درسه أو اطّلع عليه، وألحَّ عليَّ الكثيرون أن أقدمه مطبوعاً لشباب هذا العصر، المتطلع بتجرد للمعرفة المقترنة بأدلتها المنطقية، وبراهينها السديدة، وفق المنهج العلمي السليم، والأسلوب البياني المعاصر، ثم وجدت أن من الخير نشره لعل الله أن ينفع به، وقد زدت فيه زيادات أكملت فيها بعض جوانبه حينما دفعته للطبع.

والشكر لله على ما تفضل به عليّ وعلى والدي فضيلة العلامة الشيخ «حسن حبنّكة الشهير بالميداني» الدمشقي حفظه الله وجزاه عني وعن المسلمين خير الجزاء. ولوالدي يعود فضل تربيتي وتأديبي، وتعليمي علوم الإسلام، وانتظامي في سلك طلاب علوم الشريعة الإسلامية في مدرسته الشرعية؛ التي أسسها وربّى طلابها وعلمهم بنفسه حتى آتت أُكُلَها طيبة مباركة. وقد كنت أحد من تعلم في حلقاتها، وتربّى في كنفها، واسم هذه المدرسة (معهد التوجيه الإسلامي) وهي قائمة في حي الميدان من مدينة دمشق الشام. وقد تخرجت منها في سنة ١٣٦٧هـ، ثم أُسند إليَّ فيها تدريس علوم الفقه والأصول والتوحيد والمنطق والبلاغة وغيرها من العلوم الشرعية والعربية والعقلية حتى سنة ١٣٧٠هـ. ثم التحقت بالأزهر الشريف وانتسبت إلى كلية الشريعة في سنة ١٣٧١هـ، وتابعت الدراسة فيها حتى حزت الشهادة العالية من الكلية المذكورة (ليسانس في الشريعة) في سنة ١٣٧٣هـ؛ ثم شهادة العالمية مع إجازة التدريس (دبلوم في التربية وعلم النفس) في سنة ١٣٧٤هـ. وعدت إلى دمشق إذ عُيِّنت مدرساً لمادة التربية الدينية، في ملاك وزارة التربية والتعليم من سنة ١٩٥٤م وحتى أواخر سنة ١٩٦٠م. ثم انتقلت إلى ملاك وزارةالأوقاف وتسلمت فيها مديرية التعليم الشرعي المحدثة بموجب القانون ٢٢٦ لعام ١٩٥٩م؛ فتسنى لي أن أقوم بخدمة المدارس الشرعية في سورية، وأن أعمل على تنظيم شؤونها. والله أسأل أن يسدد خطاي، ويلهمني الخير، ويوفقني لما فيه رضاه، ويكسبني شرف النهوض بالمدارس الشرعية من النواحي العلمية والمسلكية والتوجيهية والإدارية والمالية؛ وأن يوفق قارىء كتابي هذا إلى نشر العقيدة الإسلامية التي هي الأساس الأول في البناء الفكري الإسلامي للإنسان، وهي الأساس الأول في تقويم سلوك الفرد والمجتمع الإنساني، تقويماً يبلغ به ذروة الكمال الإنساني، إذا هو حمل الإسلام كله، دون أن يفرق ما بين وحدات أركانه وأحكامه، وأوامره ونواهيه. فالفرد بحمله لكل الإسلام علماً وتطبيقاً يحتل مركز الإنسان الكامل لا محالة، وكذلك المجتمع الإنساني إذا حمل الإسلام كله علماً وتطبيقاً احتل مركز المجتمع الإنساني الكامل لا محالة.

فاللهم نسألك عقيدة خالصة مطابقة للحق الذي أنزلته، وسلوكاً صالحاً مطابقاً للدين الذي ارتضيته لنا، اللهم منك التوفيق والفضل، ولك النية والعمل، وعليك الثواب والأجر، ولا حول ولا قوة إلا بك.

دمشق في ١١ من رمضان المبارك لسنة ١٣٨٥هـ
الموافق لمطلع سنة ١٩٦٦م.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الباب الأوّل

في المقدّمات

الفصل الأول : النفس والعالم.
الفصل الثـاني : العالم مادي مشهود وغيبـي «ميتافيزيك».
الفصل الثالث : أهمية العقيدة وثبوتها.
الفصل الرابـع : الإسلام والإيمان.

الفصل الأول
النَّفسُ وَالعَالم

لا بد لنا قبل البداية في الموضوعات الأساسية للعقيدة من أن نقدم بعض المسلَّمات التي يتوقف على فهمها وإدراكها والتسليم بها فعلاً كثير من المعتقدات.

ومن هذه المقدمات: كشف النقاب بشكل منطقي واضح عن مدى إمكانات الملكات النفسية للإنسان، وعن مدى قدرة الملكات على الصلة بخفايا الكون وكشف ما فيه.

(١)
قوة الإنسان الإدراكية

في داخل الإنسان قوة إدراكية كبيرة ولكن مُدْرَكَاتِها لا تنبع من داخلها وإنما تأتيها من العالم الخارجي عنها. ولهذه القوة الإدراكية في الإنسان منافذ تطل منها على العالم الخارجي ألا وهي (الحواس الخمس): حاسة البصر، وحاسة السمع، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، وحاسة اللمس. كما لها صلات أخرى تطل منها على عالم النفس وهي تتمثل بحاسة الانفعالات: كالرضا والغضب، والحب والكراهية، وحاسة الألم، وحاسة التوازن، وحاسة الشهوات، إلخ...

فبمقدار ما تنقل هذه الحواس من حقائق للقوة الإدراكية تستطيع أن تتخيل وتدرك، وتحلل وتركّب، وتستنتج القواعد العامة، وتقيس الأشباه والنظائر على بعضها، ولا تستطيع شيئاً غير ذلك ولا أكثر من ذلك.

فالعميان مثلاً الذين يولدون وهم فاقدو الأبصار، مهما أوتوا من الذكاء لا يستطيعون أن يتصوروا في مخيلتهم شيئاً عن الألوان مهما حاولنا أن نقرب لهم ذلك بالتشبيه والتمثيل، حيث لم يسبق لهم أن اتصلوا بإدراك حقيقة أي لون من الألوان عن طريق البصر.

فلو قلت لهم: أبيض، أحمر، أخضر، أزرق، أو نحو ذلك، لم يستطيعوا أن يتخيلوا

صورة لهذه الألـوان أبداً مـا لم تنفتح نافـذة أبصارهم عـلى الوجـود فيروا الأشيـاء الملونة فعـلاً معروضة أمامهم؛ وإذ ذاك يدركونها ويتخيلون أشباهها ونظائرها.

وكذلك الذين يولدون صماً لا يستـطيعون أن يتخيلوا عن الأصـوات شيئاً مهـما أوتوا من الذكاء حتى تفتـح نافذة أسماعهم على الوجود فيستمعوا إلى الأصوات.

ومثل ذلك الطفل الصغير قبل البلوغ مهما أوتي من نبوغ لا يستطيع أن يتصور شيئـاً عن الغريزة الجنسية؛ ولا يزال في تكهنات غير صادقة عنها حتى تدب فيـه الغريـزة بشكلها المـركَّز، وكل إنسان ــ رجلاً كان أو امرأة ــ لا بد أنّـه مرَّ بهـذه المرحلة بـالذات فهـو يسلّم بذلـك دونما جدل. وهكذا سائر العواطف والانفعالات لا نستطيـع أن ندرك حقيقتها ما لم نمرَّ بتجربة لها.

ونحن جميعاً لا نستطيـع أن نتخيل طعماً من الطعوم لم يسبق لنا أن تذوقنـاه حتى نأتي بـه ونتذوقه فعلاً، وهكذا بقية الحواس في الإنسان.

ونستخلص ممـا سبق: أن النفس إنما تـدرك الأشياء المنتشـرة في هذا الكـون الكبـير عن طريق منافذها التي تـطلُّ منها عـلى العالم، ولـولاها لم تـدرك من الوجـود الخارجي عنهـا شيئاً، ولبقيت في جهل كامل. وقد أشـار القرآن إلى هـذه الحقيقة المسلَّم بهـا في قولـه تعالى في سـورة (البقرة ٢):

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢)
النقص في أجهزة الحس لدينا

وما يدرينا لو مُنحنـا بعض حواس أخـرى ــ غير التي هي داخلة في تـركيبنا ــ لاكتشفنـا من حولنا أشياء كثيرة هي مُغَيَّبة الآن عنا لأننا لا نحس بها، إذ لا توجد لـدينا الحـاسة الخـاصة التي نتمكن بوساطتها أن نكتشفها وندركها؟

أليس في هذه الأجهزة التي تدل على درجات الحرارة، وعـلى درجات الضغـوط الجويـة، وعلى مقادير الكثافة ــ إلى غير ذلك من أجهزة مختلفـة ــ ما يشـير إلى نقص كبير في حـواسنا؟! وقـد كـان من الممكن عقـلاً أن نؤتى الحـواسَّ التي نـدركُ بهـا مـا تتحسس بـه هـذه الأجهـزة وتدل عليه.

كيف بنا لو أوتينا قوة الإحساس بالمعادن من وراء الحجب؟ فإذا مررنا بمعدن الحديد أحسسنا به دون أن نراه كما يحس به المغناطيس، أو بمعدن الذهب أو الفضة أو الماس أو نحوها، أحسسنا بها وهي في داخل جبالها، وفي طبقاتها من الأرض. ألسنا نكون أوسع في حواسنا مما نحن عليه الآن لو كان الأمر كذلك؟! أليس في المخلوقات الأخرى من الإحساسات ما ليس فينا؟

فما أكثر نقصنا! على أننا أكمل من غيرنا في الخلق!!

(٣)
حدود الحواس

أما حواسنا التي هي السبيل الوحيد لنا للتعرف على الوجود من حولنا؛ فهي منافذ قصيرة المدى، محدودة كمّاً وكيفاً.

وقد اكتشف العلم الحديث أن الفضاء مملوء بالصور التي لا نستطيع أن نشاهدها بأبصارنا لفقد الانسجام والتوافق بين وضعها ووضع أبصارنا؛ كما أنه مملوء بالأصوات التي هي فوق مستوى سمعنا أو دون مستواه ونحن لا نسمع من ذلك شيئاً. كما استطاع العلم الحديث أن يكتشف الأجهزة الخاصة التي باستطاعتها التقاط الأصوات والصور من الجو؛ لتنقلها إلينا بعد أن تحولها إلى صور وأصوات تتناسب مع مستوى ووضع أسماعنا وأبصارنا.

فإذا جزمنا بأن مكاناً ما مثلاً لا يوجد فيه أي صوت ــ لا بشكل ظاهر ولا بشكل خفي ــ نعجز عن إدراكه؛ ثم جيء إلينا بالأجهزة القادرة على التقاط الصوت الخفي من نفس ذلك المكان، ثم أديرت بحيث تلتقط الصوت وتنقله لنا، لكان ذلك تكذيباً لنا فيما ادعينا سابقاً، وبرهان الحس الجديد المشاهد فيها أعظم شاهد. ولا يخفى ما يتضمنه الكشف الجديد من الإعلان عن جهلنا في جزمنا السابق؛ وفي إلقائنا الأقوال التي نؤكدها ونجزم بها جزافاً، دون روية أو عقل نافذ للحقيقة، بصير بالكوامن.

وحيث إن حواسنا ــ كما أوضحنا ــ محدودة كماً وكيفاً، فلا يصح لنا ــ عقلاً ولا واقعاً ــ أن ننكر أشياء من حقائق الكون ــ مهما كان نوعها ــ إنكاراً باتاً قطعياً لمجرد أننا لم نرها ولم نسمع صوتها ولم نتصل بها بأية حاسة من حواسنا؛ إلا أن نقيم دليلاً عقلياً وبرهاناً واضحاً يسلّم به المنطق السليم.

أما الادعاء بأنها غير موجودة لأننا لم نحس بها فذلك أمر ترفضه العقول رفضاً باتاً، كيف لا ونحن نعلم حقاً ــ من ألوف التجارب اليومية ــ أن حواسنا محدودة كمّاً وكيفاً؟!

فمن حيث الكمّ، متى تجاوز البعد المسافة التي تسمح لنا بالإحساس ظهر عجز حواسنا عن إدراك الأشياء.

فحاسة البصر مثلاً التي هي أبعد حواسنا مدى، كلما تباعد عنا الشيء المرئي صغر حجمه في أبصارنا، حتى تنعدم الرؤية تماماً بسبب البعد.

وكذلك حاسة السمع.

أما حاسة اللمس فشروطها أشد لأنها تحتاج إلى الالتصاق المباشر.

ومن حيث الكيف لا بد من مرافقة شروط خاصة لكل حاسة فينا حتى نستطيع بوساطتها إدراك الأشياء المعروضة على حسِّنا.

فحاسة البصر فينا مثلاً تحتاج في رؤية الأشياء إلى الضوء، ومتى انعدم الضوء وحل الظلام الدامس انعدمت الرؤية تماماً. وكذلك متى صغرت الأشياء المرئية إلى المراتب الدنيا في الصغر، لم نستطع رؤيتها إلا بوساطة المجاهر المكبرة إلى عشرات المرات أو ألوفها أو ملايينها.

وهنالك أشياء كثيرة جداً في واقعنا نؤمن بها إيماناً قوياً دون أن نتصل بها عن طريق الحواس اتصالاً مباشراً، وإنما نؤمن بها عن طريق الاستنتاج.

مثلاً: تسمع وأنت في داخل غرفتك طرقاً على الباب فتستنتج بلا تردد أن طارقاً ما يطرق الباب عليك دون أن تراه أو تسمع صوته؛ ذلك لأنك تعلم يقيناً أن الباب لا يدق نفسه بنفسه، فتقول: لا بد أن يكون هنالك طارق طرقه.

ولا بد أن ألفت النظر هنا إلى خرافة يتحامق بها بعض صغار العقول من الملحدين فيقولون: إننا لا نسلم بوجود أشياء لا نحس بها. كأنهم يتصورون أن حواسهم تستطيع أن تكشف كل شيء من حولهم! والعلم في كل يوم يكتشف أشياء جديدة هي من حولنا، بل هي داخلة في تركيبنا، والناس في أجيالهم العديدة، وقرونهم المديدة، لم يحسوا منها طوال الزمان الغابر شيئاً. وكم يسهمون بأنفسهم بسبب إنكارهم لها ـ لو أنكروها ـ في الإعلان عن ضآلة أفهامهم، ومنتهى جهلهم، إنهم يبرهنون على أنفسهم في هذا بأنهم جهلاء، صغار العقول، مجازفون في إنكار حقائق الكون القائمة دلائلها فيه!!

وهذه قصة طريفة في هذا الباب:

لقد رد طفل صغير بإشراق فطرته على بعض هؤلاء المتحامقين من الملاحدة رداً لاذعاً، فيه التهكم والإقناع معاً. قال المتحامق: نحن لا نؤمن بوجود أي شيء حتى نراه، ولا نسلم به

حتى نشاهده. وجعل يضرب الأمثلة الواهية على ذلك، إلى أن توصل إلى موضوع وجود الله فقال: نحن لم نشاهد الخالق فهو إذن غير موجود. فقام الطفل الصغير المنصت في زاوية مجلس هذا المتحامق الملحد فقال له: يا أستاذ نحن كلنا لم نر عقلك الذي تفكر به فأنت إذن لا عقل لك؛ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين.

(٤)
الخيال وحدوده

ولدينا في مُركب قدرة الإدراك زاوية خاصة قادرة على تخيل أشياء غير موجودة أمامنا وفق هذا التركيب التخيلي. لكننا مهما حاولنا أن نتخيل صورة ما من الصور، ومهما سبحنا فيها مع الأوهام الخرافية، فإننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نضم أجزاء موجودة فعلاً في الكون بعضها إلى بعض، وهذه الأجزاء قد أدركناها فعلاً عن طريق حواسنا، ولكننا بهذا التخيل ضممنا هذه الأجزاء الموجودة بشكل متباعد فتخيلناها على شكل وحدة متماسكة في صورة.

فأنبغ الشعراء، وأبرع الأدباء، وأحذق القصاصين الخرافيين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً ما لم يدركوا بحواسهم أجزاءه متفرقة في الكون من حولهم. ولنضرب لذلك مثلاً صورة خيالية خرافية نحاول أن نتخيلها:

صوت تجسد على شكل حيوان غريب له عشرون جناحاً، جناح من عطور، وآخر من طعوم، وثالث من ورق الشجر، ورابع من ذهب، وهكذا. . . وله أعين يرى منها في وسط كل جناح، وكل عين عبارة عن بركة من لبن أو عسل أو ماء، وهكذا. . . ثم بالِغ ما شئت في وضع هذه الصورة الخيالية، حتى إذا رأيت نفسك قد أغربت وأبدعت، عُد لنحللَ لك كل جزء من أجزاء هذه الصورة الخيالية، ثم لنرده إلى أصله من الكون، ولنضعه في مكانه، لنريك أنك لم تستطع أن تتخيل أية جزيئة من الجزيئات ــ صغيرة كانت أو كبيرة ــ إلا وقد أدركتها بحاسة من حواسك في شيء من موجودات الكون.

ونستنتج مما سبق: أن خيالنا محصور حصراً تاماً فيما تدركه حواسنا، فنحن مهما أوتينا من قدرة خيالية فلا نستطيع أن نتخيل حقيقةً ما من الحقائق ما لم ندرك نموذجاً عنها بحواسنا.

ومن ذلك يستحيل علينا أن نتخيل حقيقة الدار الآخرة وما فيها في صورة؛ لأننا لم نتصل بأي شيء مما فيها عن طريق أية حاسة من حواسنا. وكذلك يعسر علينا أن نتخيل حقيقة تكوين الملائكة والجن وأمثال ذلك من مخلوقات بعيدة عن مجال حسّنا.

وحقيقة الذات الإلهية أبلغ من ذلك، فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقةً ما لذات الخالق العظيم الذي لم نتصل بذاته العليّة بحاسة من حواسنا؟! ولذلك قال العقلاء قديماً: (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك).

(٥)
العقل وحدوده

العقل مقيد بعالم الحس لا عمل له في الحكم على عالم الغيب (الميتافيزيك).

ذلك لأن القوة العاقلة فينا التي تجمع بين المصورة والذاكرة والمخيلة والذكاء، تقوم بعملها الجبار في التحليل والتركيب، والجمع والتفريق، واستنتاج القواعد العامة والكليات، وقياس الأشباه والنظائر على بعضها، بعد أن تنقل الحواس المختلفة إلى المصورة أشرطة مشاهداتها في الكون: شريطَ المرئيات، وشريطَ المسموعات، وشريط المذوقات، وشريط المشمومات، وشريط الملموسات، وشريط الوجدانيات الداخلة في الإنسان، ثم تكون أحكامها مقيدة بحدود هذه الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس.

وهذه القوة العاقلة فينا لا تستطيع أبداً أن تصدر أحكامها على مغيبات لم يعرض أمامها شريط مسجل عنها، لأن كل حكم تحكم به إنما تقوله متأثرةً بواقع أشرطة الحواس التي جاءتها. وقد يختلف عالم الغيب عن عالم الحس كل الاختلاف فلا يمكن الحكم عليهما بالتشابه، والقاعدة الثابتة عند العلماء: (أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره).

فعالم الغيب لا تستطيع عقولنا أن تحكم على شيء فيه بإثبات أو نفي استقلالاً ذاتياً، إلا أن يأتيها خبر يشهد العقل بإمكان وجوده وبصدق ناقله، وعند ذلك تسلم بمضمونه تسليماً تاماً دون مناقشة أو اعتراض.

وحيث إن عالم الحس فينا محدود فالعقل فينا محدود أيضاً من وجهين:

* **الوجه الأول**: محدود بين شيئين هما الزمان والمكان. لذلك يسأل العقل دائماً: متى؟، وأين؟

ذلك لأن جميع الأشياء التي اتّصل بها حِسّنا لا بد أن توجد في مكان، وأن يجري عليها زمان، ولا يستطيع العقل أن يتصور أو يتخيل موجودات لا أمكنة لها، أو أشياء لا يجري عليها

زمان. علماً بأن من الأصول المقررة عند جميع العقلاء الواعين المنصفين، أن ذات الله تعالى لا يجري عليها زمان، وليست بحاجة إلى مكان، لأن الله هو خالق الزمان والمكان.

* **الوجه الثاني: محدود حينما يعلن عجزه عن التسليم بواحد من احتمالين في الكون لا ثالث لهما.**

فمثلاً: يتساءل كل إنسان عاقل بينه وبين نفسه: هل هذا الكون متناهي الحدود، أو غير متناهي الحدود؟

وهنا دعنا نجرِ وراءالتصور. فأول ما يصادفنا إذا انطلقنا من الغلاف الأرضي فراغ، ثم بعده بؤرة لمجموعة من النجوم، وبعد ذلك بؤرة لمجموعة أخرى من النجوم، وبعد ذلك الانطلاق من المجرة التي تعتبر أرضنا شيئاً صغيراً جداً فيها، وبعد ذلك مجموعاتِ أخرى من المجرات.

ولننتقل إلى التسمية بالسماء الأولى، ثم الثانية، إلى السابعة، إلى الكرسي، إلى العرش، ولندع للفكر أن يسبح ما شاء له الوهم أن يسبح. ثم بعد ذلك لا بد أن يصل العقل أخيراً إلى نقطة يظل فيها حيران عاجزاً عن التفكير، لا يستطيع أن يقتنع باللانهاية، ولا يستطيع أن يسلِّم بالنهاية.

فإذا قال لنفسه: انتهى الكون، قال له وهمه: وماذا بعد النهاية؟ وإذا قال لنفسه: الكون لا نهاية له، قال في نفسه: كيف يكون شيء لا نهاية له؟!

ثم هو مضطر ــ عقلاً ــ أن يتردد بين هذين الاحتمالين، ولا ثالث لهما، وهو لا يسلِّم بواحد منهما، وما ذلك إلَّا لأن العقل محدود.

فإذا كان العقل عاجزاً عن فهم أشياء في الكون من حوله، وعاجزاً عن الإحاطة بصورتها الحقيقية، فهو عن إدراك صورة لحقيقة الأمور الغيبية التي هي وراءالطبيعة أضعف وأعجز.

وإذا كان العقل محدوداً كما رأينا، فكيف يستطيع أن يحيط بالله سبحانه؟! وهو عز وجل غير محدود!!

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في بيان أن العقل محدود:

(إن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه).

وقال الإمام الغزالي عليه رحمة الله:

(ولا تستبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراءالعقل طور قد يظهر فيه ما لا يظهر في العقل)[1].

وبما سبق تتلخص لدينا الحقائق التالية:

١ ـ إن حواسنا التي هي طرق العلم لدينا محدودة لا تتناول كل شيء موجود.

٢ ـ إن قدرة التخيل فينا محدودة في حدود ما يردنا عن طريق الحواس.

٣ ـ إن عقولنا محدودة لا تستطيع أن تدرك جميع الحقائق الكائنة إدراكاً واضحاً وإن اضطرت إلى التسليم بها عقلاً.

وللأستاذ علي الطنطاوي كلام جيد حول هذه الحقائق في مقال: (بحث في الإيمان) بكتابه (فِكَر ومباحث).

□ □ □

---

(١) وللغزالي استدراك جميل على هذه الحقيقة في خاتمة الفصل الأول من كتابه (المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى)، خلاصته: أن ما وراء العقل قد يكون بعيداً عن تصور العقل وتوهمه بعداً بالغ النهاية، لأن العقل محجوب عنه في حدوده التي لا يستطيع أن يتعداها، لكنه لا يمكن أن يكون وراء العقل أشياء يحكم العقل حكماً قاطعاً باستحالتها. فهناك فرق كبير: بين ما لا يدركه العقل فهو لا يتناوله بنفي ولا إثبات لأنه ليس من الأمور التي يتناولها بأحكامه، وبين ما يحكم العقل قطعاً بنفيه أو إثباته. فمن الأشياء التي لا يمكن أن يكون وضعها فيما وراء العقل، على خلاف وضعها في أحكام العقل القاطعة لأنها من المستحيلات العقلية: أن يكون لله تعالى شريك، أو أن يكون في مقدور الخالق جل وعلا أن يخلق مثل نفسه، أو أن يجعل الحادث قديماً، أو ما أشبه ذلك.

الفصل الثاني
العالم غيبيّ ومشهود

(١)
ينقسم العالم إلى مادي مشهود، وغيبي «ميتافيزيك»

الشرح:

كل الأشياء التي اتصلت بها حواسنا هي في عرفنا أشياء مادية، لأننا شهدناها شهوداً حسياً، ولا يشك بوجودها إلا فاقد الحس.

ولكن العالم مشحون بالأشياء الكثيرة العجيبة التي لم نتصل بها عن طريق حواسنا، وهذه الأشياء موجودة حقاً، ونؤمن بوجودها، وإن كانت غائبة عن شهودنا، ونسمي هذه الأشياء بعرفنا أموراً غيبية أي غائبة عن عالم الحس فينا. وقد تكون بواقع حالها أشياء مادية من نوع آخر، ويمكن شهودها من قِبَلنا لو تهيأت لنا شروط مشاهدتها والإحساس بها، أو لو وجدت لدينا الحاسة المناسبة التي نتمكن بوساطتها من كشف صورها والإحساس بذواتها.

والإجابة قريبة منا جداً حينما نتساءل عن مثال لبعض هذه الأشياء من العالم الغيبي «الميتافيزيك».

هذه أرواحنا السارية في أجسامنا؛ لا نسمعها ولا نراها ولا نلمسها ولا نشمها ولا نذوقها ومع ذلك فهي موجودة فينا حقاً، نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص، بل بها نحس، وبها نألم، وبها نسر، وفيها بقاؤنا.

ونحن وإن لم نُحسَّ بأرواحنا إحساساً ظاهراً، فقد آمنا بها استدلالاً من آثارها فينا، بل علمنا بها أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل.

وهناك قوى كثيرة منبثة في عالمنا إنما ندركها من آثارها:

فمثلاً: قطعتان من حديد متشابهتان تماماً وزناً وشكلاً ولوناً ولمساً بحيث لا نستطيع أن

نـدرك بحواسنـا أي فرق بينهـما؛ أمّا إحـداهما فمشحـونة بقـوة مغناطيسيـة وأما الأخـرى فغـير مشحونة بمثل هذه القوة. ثم إذا وجهنا حواسّنا بدقة إلى هاتين القطعتين، فإننا لا نسـتـطيـع أن ندرك الشحنة المغناطيسية الموجودة في إحداهما عن طريق أي منفذ من منافذ الحس فينا.

لكننـا نجد أن المشحـونة بـالمغناطيس تجـذب الحديـد إليها بقـوة، والأخرى عـديمـة من قوةالجذب، فندرك عن طريق الاستدلال العقلي البـدهي وجود هـذه القوة الـزائدة في الحـديدة المشحونة بالمغناطيس.

ثم إن هذه الروح التي بين جنبينا، والتي يعتبـر علمنا بهـا من أولى خطوات علمنـا بعالم الغيب، بل هي أدنى مراحل العالم الغيبـي بالنسبة إلينا، باعتبار اشتمال أجسامنا عليها، ومـع ذلك لا تستطيـع عقولنا أن تدركها على حقيقتها، أو تعرف صورتها وماهيّتها.

ذلـك أن الاستدلال العقـلي أو الشعور الفـطري قد يشـير إلى وجود الشيء الغـائب عن الحسّ فيعلم الإنسـان بوجـوده بداهـة؛ وقد يـدرك بعض صفات لـه بالبـداهة أيضـاً، ولكنـه لا يستـطيـع أن يتكهن كيف تكون حقيقتـه، فهناك مـلايين الاحتمـالات الممكنـة في العقـل، فكيف يستطيـع أن يخصص واحداً منها دون مرجـح؟

بل لا يصـح عقلاً قياس عالم الغيب على العالم المادي المشهود، لاحتمال تغـايرهمـا في كل شيء، في الماهيّات، وفي الصفات الخاصة، وفي الأعراض.

ونحن لم نتصل بعالم الغيب عن طريق أية حاسة من حواسنا.

ثم إننا كما أدركنا بالبداهة وبـالاستدلال وجـود أرواحنا «أو سر الحيـاة فينا»؛ فقـد أدركنا بـداهة وعن طـريق الاستدلال من الآثـار وجودَ خـالق الكـون العـظيم، أو (الله). وكـما أننـا لا نستطيـع أن نتخيل صورةً ما لحقيقة أرواحنا ــ وهي أدنى مراحل عـالم الغيب بالنسبـة إلينا، بل هي داخلة في تركيبنا، وجسمُنا قفص لها ــ؛ فكيف نستطيـع أن نتخيل حقيقة ذات الخالق العظيم؟! بل كيف يصـح لنا عقلاً أن نبحث في كنهها؟! وقد علمنـا بداهـة أن الله بكل شيء محيط، ونحن لم نحط بشيء منه، عدا إدراك وجوده وبعض صفاته العظمى!!

(٢)
الوحي: هو الطريق الوحيد لتعريفنا بحقائق الأشياء الداخلة في عالم الغيب

الشرح:

ومن خلال ما سبق ــ وبعد تسليمنا بأن عالم الغيب لا تستطيع عقولنا وهي مستقلة أن تدرك شيئاً من الأشياء الداخلة فيه ــ ندرك حقاً أن عقولنا مفتقرة في إدراك الأشياء الداخلة في عالم الغيب إلى معلومات خارجة عنها، نظراً لما علمنا من أن عقولنا بشكل مستقل لا تستطيع أن تتصور، أو تتخيل، أو تحلل وتركب إلا في حدود الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس. وعالمُ الغيب لم يتصل بنا شيء منه عن طريق الحس الذي يشعر به كل الناس، فلا تستقل عقولنا بإدراك شيء منه.

وهذه المعلومات الخارجة عن مجال تصورات العقل لو ترك لنفسه؛ لا يتأتى العلم بها إلا عن طريق من هو داخل في عالم الغيب أو متصل به.

ومن ثم ينتقل بحثنا إلى التأكد من صدق خبر الذي ينقل لنا عن عالم الغيب بعد أن اتصل به.

وبعد البحث علمنا أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام صادقون بلا مرية في جميع ما ينقلونه إلينا.

وعلمنا أنهم ــ بصفاء أرواحهم، وطهارة نفوسهم، واختيار الله لهم رسلاً للبشر ــ اتصلوا بالوحي من عالم الغيب، فالوحي يبلغهم بعض الحقائق المغيبة عنا بشكل يقيني واضح، وهم يبلغوننا ما نقلوه عن الوحي بشكل يقيني واضح أيضاً. وما علينا ــ بعد أن علمنا صدقهم وتأييدهم من قبل الخالق العظيم بالمعجزات وخوارق العادات ــ إلا أن نؤمن بما أخبروا به، ونسلّم تسليماً، دون مناقشة أو اعتراض.

ثم بعد أن نؤمن ــ جازمين ومسلِّمين بما جاءنا عن طريق الوحي الصادق ــ يجب علينا عقلاً أن نقف عند حدود النص الذي نقله الرسول لنا عن الوحي؛ دون أن نزيد عليه شيئاً من التخيلات أو التصورات، ودون أن نتلاعب فيه بتأويلات تعسفية، إلا أن ينكشف لنا شيء من الغيب بطريق من الطرق المنطقية السليمة المقبولة عقلاً، وذلك بالكشوف العلمية الثابتة بيقين، التي يتطور إليها العلم بسبب استخدام الطاقات الكونية الكامنة. فعندئذ يصح لنا أن نقرر ما انكشف لنا منه وأن نثبته. أما من دون ذلك فلا، لأن كل زيادة أو تخيل، أو تأويل

تعسفي، إنما هو تحكم في الأمور الغيبية بالباطل، حيث لا مستند لذلك من إدراك حسي، أو استنتاج عقلي، أو نص موحى به.

ومما سبق نستخلص ما يلي:

(أ) أن عقولنا ــ بحسب حالتها الراهنة التي فُطرت عليها ــ مفتقرة في إدراك عالم الغيب إلى الوحي.

(ب) أنه يجب علينا الوقوف في المغيبات عند النص الموحى به.

(٣)
الأمور التي كانت من المغيبات فأصبحت من الأمور المادية المشهودة

وأما الأمور التي كانت غيباً عنا في الكون ثم استطعنا الوصول إلى معرفتها عن طريق الكشوف العلمية اليقينية، أو البحوث النظرية المتبع فيها المنهج العلمي السليم، بالنظر إلى ما تطور إليه العلم المعاصر من إمكان استخدام الطاقات الكونية الكامنة، فإنها أمور خرجت عن كونها من الغيوب إلى كونها من الأمور الداخلة في العالم المادي المشهود.

مثال ذلك: لو استطاع البحث العلمي ــ عن طريق التجربة والاختبار واستخدام بعض القوى الكونية ــ أن يتصل بالجن مثلاً اتصالاً عادياً، لأصبح أمر الجن من الماديات المشاهدة، التي كانت غيباً لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الوحي، فتقدم العلم فتناولها بكشفه فصدّق ما كان يثبته الوحي.

وكذلك لو استطاع الإنسان بالبحث العلمي واستخدام الطاقات الكونية الكبرى أن يصل إلى أي كوكب سماوي؛ لأصبح أمر هذا الكوكب وما فيه من جملة الأمور المادية المشاهدة لنا، لا من الأمور الغيبية البعيدة عن مجال إدراكنا الحسي.

ومثل ذلك التوصل إلى معرفة الأسباب الكونية التي تحدد مثلاً ساعة نزول الأمطار، أو تكشف عن حالة الأجنّة في بطون أمهاتها بالمناظير أو الأشعة أو أجهزة التصوير أو غيرها. فإن ذلك يخرجها عن كونها غيوباً يعتبر الحديث عنها من قبيل الرجم بالغيب، إلى كونها أموراً مادية مشهودةً يصح الحديث عنها كغيرها من الماديات المعروضة على مجال إدراكنا الحسي؛ وذلك بالنظر إلى الأسباب والوسائل التي استخدمت للاطلاع على حقائقها.

(٤)
تقسيم العالم في القرآن

ولقد قسم القرآن الكريم العالم بالنسبة إلى المخلوقات إلى قسمين:

(أ) عالم الغيب.

(ب) عالم الشهادة.

على التقسيم نفسه الذي أوضحناه في الاستدلال العلمي. وقد جاءت النصوص القرآنية تشير إلى هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) ﴾.

الغيب: كل أمر غائب عن مجال إدراكنا الحسي حسب العادة.

الشهادة: كل أمرنستطيع أن نتوصل إلى شهوده بالوسائل الحسية فينا حسب العادة.

ونلاحظ في النصوص القرآنية أن الله تعالى يقدم الغيب على الشهادة، والحكمة في ذلك أن الأمور المغيبة عنا لا تتناهى سعة ومدى، أما الأمور التي يمكن لنا أن نتوصل إلى شهودها ومعرفتها فهي أمور يسيرةقليلة. قال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾.

(٥)
قسم من الغيب استأثر الله بعلمه

وهناك قسم من الأمور الغيبية التي لا تستطيع حواس المخلوقات ولا مداركهم إدراكها؛ قد تفرَّد الله بعلمها، واستأثر بها لنفسه، فلم يُطْلِع عليها أحداً من خلقه في الأرض ولا في السماوات. وإلى هذا القسم أشار القرآن بقوله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

التحليـــل:

العالم بالنسبة إلى المخلوقات ينقسم إلى قسمين:

١ ـ **عالم الشهادة:** ويمثله في الرسم التقريبي ـ الذي تشاهده في أسفل الصفحة ـ البقع المضيئة البيضاء وهي قليلة جداً بالنسبة إلى العالم الغيبي اللانهائي ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾.

٢ ـ **عالم الغيب،** وهو قسمان:

(أ) قسم قابل لأن يكون من عالم الشهادة إذا تهيأت للمخلوقات شروط مشاهدته: ويمثله في الرسم التقريبي البقع الدكناء وهو قسم أكبر نسبياً من عالم الشهادة.

(ب) قسم غير قابل لأن يكون من عالم الشهادة، لأنه مما استأثر الله بعلمه لنفسه: ويمثله في الرسم التقريبي سائر البقع السوداء، على اعتبار أن هذه البقع السوداء غير محدودة النهايات، وما في الرسم مقطع صغير من كرة غير متناهية.

وهناك أشياء: تكون من عالم الغيب بالنسبة إلى الإنسان أو غيره من المخلوقات، لكنها قد تكون من عالم الشهادة بالنسبة إلى الجنّ أو الملائكة أو مخلوقات أخرى.

وقد يسمى ما غاب عن إحساسات بعض الناس غيباً وذلك بالنسبة إليهم فقط، وهذا الغيب عن بعضهم قد يكون أمراً عادياً مشهوداً بالنسبة إلى غيرهم، فلا يسمّى الاطلاع على شيء من ذلك بوساطة وسائل إنسانية من قبيل الاطلاع على علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

شكل تقريبي يمثل عالم الغيب وعالم الشهادة بالنسبة للمخلوقات

الفصل الثالث

أهميـة العقيـدة وثبوتهـا

(١)
أهميـة العقيـدة

يتسم سلوك الحيوان بأنه مظهر من مظاهر دوافعه وغرائزه المنضبطة فطرياً بحدود حاجاته ومصالح جسده؛ فإذا أُشبعت حاجاتُه كفَّ وعفَّ، وقلَّما يتجاوز الحيوان حدود ما ينفعه إلى ما يضره، وذلك بكوابح فطريّة من غريزته.

أما الإنسان: فقد جعلت غرائزه ودوافعه وأهواؤه وشهواته رعيَّةً تحت سلطة إرادته الحرة، ومنح بالإضافة إلى إرادته عقلًا يمكن أن يدرك فيه خيره وشره، وما ينفعه وما يضره، ليكون الموجّه لإرادته والمحرك لعواطفه. فإذا استرشدت إرادته بعقله وكان إدراكه للأمور صحيحاً سليماً، استقام سلوكه بمقدار سلامة وصحة إدراكه للأمور. وإذا تخاذلت إرادته فخضعت لجمهور أهوائه وغرائزه وشهواته ودوافعه ومطالب نفسه، كان كالأنعام بل كان أضل سبيلاً، لأن هذه العناصر في نفسه لا كوابح لها من أصل فطرتها، بعد أن منح الإنسان البديل عن هذه الكوابح من عقله وسلطان إرادته. وحين تصبح هذه العناصر هي الحاكمة على إرادة الإنسان، وهي صاحبة السلطان، تأخذ به إلى إفراط يضره ويهلكه أو تفريط يضره ويهلكه.

وحين نلاحظ أنواع سلوكنا العادي في الحياة نجد أن إراداتنا تتصرف بتوجيه من مفاهيمنا الثابتة في نفوسنا؛ وهذه المفاهيم الثابتة تمثل فينا مجموعة عقائدنا في الحياة.

ما الذي يجعلنا لا نضع أيدينا في النار؟

هذا سؤال نجيب عليه بأن لدينا مفاهيم ثابتة عن النار، وهذه المفاهيم توجه إراداتنا إلى أنواع خاصة من السلوك تجاه النار.

إننا نعتقد أن النار تحرق، ونعتقد أن الحريق إذا مسَّ أجسادنا آلمنا وأخسرنا من أجسامنا ما نحن بحاجة ماسة إليه، وكل ذلك مكروه لنا.

لذلك فإننا نوجه إراداتنا للكفّ عن كل تصرف نكره نتائجه وعواقبه.

ما الذي يجعلنا لا نشرب كأساً لذيذة نشتهيها إذا سقط فيها سم قاتل؟

ونجيب على هذا السؤال أيضاً بمثل إجابتنا على السؤال السابق.

من هذا ندرك أهمية مفاهيمنا الثابتة (وهي مجموعة عقائدنا) في توجيه إراداتنا إلى أنواع من السلوك نتصور أنها تجلب لنا مصلحة أو نفعاً أو لذة، وهذه أمور نحبها؛ أو نتصور أنها تدفع عنا مفسدة أو مضرة أو ألماً، وهذه أمور نكرهها.

والمفاهيم متى غدت ثابتة راسخة في نفوسنا، واطمأنت قلوبنا إليها، وأصبحت عواطفنا تتأثر بها، واقترنت بإرادة التصديق بها، كانت عقائد راسخة لدينا. وهذا المستوى من رسوخ المفاهيم مع طمأنينة القلب إليها وتأثر العواطف بها، واقترانها بإرادة التصديق بها، هو ما يطلق عليه لفظ (الإيمان) ومشتقات هذا اللفظ.

وهذا الإيمان هو الركن الأساسي الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم؛ لأنه هو الجذر الأول في بناء شخصيته، وهو العنصر الأساسي المحرك لعواطفه والموجّه لإرادته. ومتى صحت عناصر الإيمان في الإنسان استقامت الأساسيَّات الكبرى لديه، وكان أطوع للاستقامة على طريق الحق والخير والرشاد، وأقدر على التحكم بأنواع سلوكه، وضبطها فيما يدفع عنه الضر والألم والمفسدة، العاجل من كل ذلك والآجل، وفيما يجلب له النفع واللذة والمصلحة، العاجل من كلّ ذلك والآجل.

وهذا ما يطلبه منا الإسلام.

وقد أدرك حديثاً الباحثون من غير المسلمين قيمة العقائد في توجيه سلوك الإنسان، فبدأوا يتحدثون عنها تحت عنوان: «أيديولوجيات». ولكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى المستوى الذي وصل إليه الإسلام، إذ هو يبني في الفرد المسلم إيماناً، لا يضارعه ولا يشابهه أي عنصر اعتقادي (أيديولوجي) يحاولون غرسه في نفس الفرد من أفرادهم.

* * *

(٢)
العقيـدة وثبوتهـا

معنى العقيدة:

إننا نعتقد بوجود أشياء كثيرة من ذوات وصفات أو بتعبير آخر: (من جواهر وأعراض)؛ وتجد قلوبنا مطمئنة بما نعتقد به ليس فيها أدنى شك، كاعتقادنا بوجود ذواتنا وصفاتنا، وكاعتقادنا بوجود أشياء كثيرة من حولنا في الأرض والسماء، ولو جاءنا الناس كلهم يحاولون تشكيكنا فيما نعتقد به لم يؤثروا بنا أي أثر.

ذلك لأن علمنا بهذه الأشياء تحول من ساحة الإدراك الحسي إلى خزانة العلم والمعرفة في عقولنا؛ بسبب تكرار عملية الإدراك للصور الواردة من عالم الوجود الخارجي عن ذواتنا.

ثم بمرور الزمن وتوارد الشواهد والأدلة التي تصدِّق علمنا ــ ولو من غير شعور ظاهري منا ــ، يتغلغل علمنا هذا في خزائن علومنا ومعارفنا إلى أعمق المراكز وأثبتها في داخلنا، وعندئذ يكون علماً راسخ الأسس ثابت البنيان متين القواعد.

ومتى استقر فينا العلم هذا الاستقرار الراسخ، نرى أنه أصبح يوجه كثيراً من تصرفاتنا وأفعالنا، ويحرك كثيراً من عواطفنا دون شعور ظاهري منا.

ذلك أنه كما انعقدت أفكارنا وعقولنا على معرفته معرفةً غير قابلة للتشكيك، انعقدت عواطفنا عليه انعقاداً يصرِّف أفعالنا وحركاتنا، وحبنا وبغضنا، بطريقة شعورية أو بطريقة لا شعورية.

ومتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حدٍّ أصبح يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا حمل اسم (عقيدة).

الطرق التي تؤدي إلى تركيز معتقدات في نفوس الناس:

ولكنّ هناك كثيراً مما يعتقده الناس قد يبلغ في نفوسهم هذا المبلغ الأسمى من تحريك العواطف وتوجيه السلوك؛ دون أن يدخل إلى أعماق الأنفس من طريق سليمة واضحة، أو منهج علمي صحيح.

فعلينا إذاً في المسلك العلمي السليم أن نبحث في سلامة الطريق التي توصل إلى أعماق نفوسنا أية عقيدة من العقائد.

فإذا كانت طرقاً سليمة قاطعة كانت معتقداتنا مَرْضية مقبولة، جديرا بها أن تتمركز في أعماق النفس، وأن توجّه السلوك وتحرّك العواطف.

وإذا كانت ظنوناً غالبة وضعناها في موضع الظنون الغالبة، القابلة للتعديل والتبديل والنسخ عند ورود اليقين أو الظن الأقوى، ولا نسمح لها أن تتمركز في مراكز العقائد الراسخة التي لا تقبل التعديل أو التبديل.

وإن كانت شكوكاً وخيالات وأوهاماً أو تقاليد عمياء رفضناها رفضاً باتاً، ولم نقبل أن تنتقل من مجال الوهم والخيال إلى خزائن العلم، فضلاً عن انتقالها إلى مراكز العقيدة.

بل يجب على العقلاء إذا استولى وهْمٌ أو تقليد أعمى على نفوسهم، وأصبح يحرك عواطفهم ويوجه سلوكهم، أن ينسخوا ذلك من نفوسهم وأفكارهم، فإنه ليس صاحب حق في هذه السكنى الشريفة.

ومن ثَمَّ نرى أن المعتقدات تسلك إلى نفوس الناس من عدّة طرق: منها ما هو منطقي سليم، ومنها ما هو مقبول مع تطرُّق الاحتمال إليه، ومنها ما هو مزيَّف مرفوض.

(أ) فأما المنطقي السليم: فما يسلك مسالك اليقين.
(ب) وأما المقبول الذي يتطرق إليه الاحتمال: فما يسلك مسالك الظنون الغالبة.
(ج) وأما المزيف المرفوض: فما يسلك مسالك الشكوك والأوهام والتقاليد العمياء.

الشرح:
ونحاول أن نعالج لك شرح هذه الطُرق بشيء من التفصيل مع ضرب الأمثلة على ذلك.

الطريق المنطقي السليم:

ولنبدأ من هذه الطُّرُق بالمنطقي السليم الذي يسلك مسالك اليقين وتثبت به عقيدة صحيحة.

أولاً:
سبق لنا في المقدمة أن ضربنا أمثلة مما يَرِد إلى ساحة إدراكنا من العالم الخارجي عن طريق الحواس؛ ورأينا أن التسلسل مرّ فينا على الوجه التالي:

(أ) تنقل حواسُّنا صورة الأشياء إلى ساحة الإدراك منا، ويتكرر ذلك عدَّةَ مرات مع

يقيننا بسلامة حواسنا، وقد يضاف إلى ذلك شهادةُ توافقِ الناس في الإحساس نفسه.

(ب) ينتقل إدراكنا الحسي من ساحة الإدراك الظاهر إلى خزائن العلم الثابت والمعرفة المتمكنة.

(ج) ثم يتغلغل ذلك العلم في أعماق نفوسنا، حتى يصبح قادراً على أن يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا.

(د) وعند ذلك يكون عقيدة راسخة.

مثال ذلك: اعتقادنا بوجود أنفسنا، وبوجود الأرض من تحتنا، وبوجود السماء من فوقنا، وبوجود أشياء كثيرة تفوق الحصر، واعتقادنا بأن النار محرقة، والشمس مضيئة، والماء له صفة السيلان ينحدر من أعلى إلى أدنى، إلى غير ذلك.

ونرى أن هذا المسلك مسلك منطقي سليم، ويفيدنا العلم اليقيني، لأنه يعتمد على شهادة الحس وبداهته.

ونستطيع أن نسميه: (مسلك الإدراك الحسي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ).

ثانياً:

ونرى أن أفكاراً كثيرة تصل فينا إلى مرتبة العقيدة الجازمة التي تحرك العواطف وتوجه السلوك؛ دون أن تنتقل كما هي من ساحة الإدراك إلى العلم فالاعتقاد، بل تُعامَل في داخل أفكارنا بالتحليل والتركيب والاستنتاج، ثم تتبلور هذه النتائج بصورة علم جديد.

ثم بعد تكرار الشواهد لعملية التحليل والتركيب والاستنتاج في مختلف الأمثلة والحالات النفسية؛ ينتقل هذا العلم الجديد المستنتج استنتاجاً إلى مراكز العقيدة في أعماق الأنفس.

ومثال ذلك كثير من علومنا ومعارفنا التي نعتقد بها اعتقاداً جازماً، وهي من العلوم التي توصلنا إليها عن طريق الاستنتاج بمسلك منطقي رياضي.

كاستنتاجنا مثلاً: بأن عدد الألف أكثر من عدد المئة، وأن الكل أكبر من الجزء، وأن حاصل ضرب ٥ في ٦ = ٣٠. وهذا يفيدنا العلم اليقيني قطعاً فالاعتقاد الراسخ.

وكذلك كثير مما نستنتجه في حياتنا الدائمة من خلال بعض الظواهر التي نُحِسُّ بها: كعلمنا بأن طارقاً ما طرق الباب علينا حينما نسمع حلقة الباب تطرق، وأن سبباً ما قذف الحجر حينما نرى أن الحجر مرّ في الفضاء واستقر في فناء الدار.

وأن متعمداً بيَّت أمراً ما حينما نرى انفجاراً وقع في مكان محروس، لا توجد فيه متفجرات ولا يحتمل أن يكون من سبب آخر.

فكل هذه الاستنتاجات في حدودها المعقولة نرى أنها تفيدنا العلم اليقيني أيضاً؛ ثم تنتقل من خزائن العلم إلى مراكز الاعتقادات.

ونستطيع أن نسمي هذا المسلك الثاني:
(مسلك الاستنتاج العقلي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ).

وهذان المسلكان هما الوسيلتان الواضحتان لاكتسابنا المعارف والعلوم المقترنة ببراهينها؛ التي تقدم نفسها للمناقشة والاعتراض، والأخذ والردّ، في كل جزئية من جزئياتها.

حَثُّ القرآن على استخدام مسلكي الإدراك الحسي القاطع والاستنتاج العقلي القاطع من مسالك اليقين:

ولقد حث القرآن الإنسان على استخدام هذين المسلكين من مسالك اليقين الأول والثاني في آيات كثيرة.

فمنها ما يدفع الحواس الظاهرة والباطنة إلى إدراك الحقائق المعروضة في الكون. ومنها ما يهزُّ العقل هزّاتٍ عنيفةً للبحث والتفكير، والنظر والاعتبار، والمناقشة والفهم.

فمن ذلك الآيات الكثيرة التي تدعو الإنسان إلى النظر في السماوات والأرض، إلى النظر في تكوين نفسه، كقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

وكقوله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٨﴾ ﴾.

وكقوله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

ومن ذلك الآيات الكثيرة التي تحث على التعقل والتفكر وتمجّدهما:
كقوله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

وما أكثر الآيات التي تُختتم بقوله تعالى: ﴿**أفلا تعقلون**﴾، وقوله تعالى: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾.

وقد قرر الله سبحانه أنه هيأ لجهنم كثيراً من الجن والإنس الذين عطّلوا حواسَّهم وعقولهم؛ بقوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

كما نوّه سبحانه بتحسر أهل النار وندامتهم إذْ أهملوا أسماعهم وعقولهم في الدنيا؛ بقوله ــ حكاية عنهم وهم يُعَذَّبون في النار ــ في سورة (الملك ٦٧):

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾.

سحقاً: أي بعداً لهم عن رحمة الله.

ثالثـاً:

عرفنا مما سبق كيفية اكتسابنا علوماً يقينية بالمسلكين الأول والثاني، وكيف تتحول هذه العلوم اليقينية إلى اعتقادات راسخة.

وهناك مسلك ثالث يأتي عن طريق الخبر الصادق:

فقد يقوم برهان العقل على أن مُخْبِراً ما ــ فرداً كان أو جماعة ــ صادق قطعاً فيما يخبر به؛ فيمرُّ خبره على مراكز الإدراك للتأكد من صورة الخبر وفهم المراد منه، ثم ينتقل مباشرة فيكون علماً يقينياً، ثم يتحول إلى مراكز الاعتقادات فيكون عقيدة راسخة. ونستطيع أن نسمي هذا المسلك الثالث: (مسلك الخبر الصادق، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ).

الشرح:

(أ) كلنا نعلم علماً يقينياً بوجود بلاد ــ مثلاً ــ اسمها الصين، دون أن نرى هذه

البلاد ودون أن نستطيع بطريق العقل استنتاج وجودها، وإنما وصلت إلينا الأخبار المتواترة بوجودها. وكذلك نعلم علماً يقينياً بقيام الحرب العالمية الأولى، ونحن لم نحضر هذه الحرب، ولم نشاهد وقائعها، وإنما علمنا بها عن طريق الأخبار المتواترة. ولو جاءنا رجل فقال لنا: لم تقع حرب عالمية أولى، أو ليس في الدنيا بلاد الصين، لكذبناه بلا أناة، لأن خبره باعتباره آحاداً لا يقوى في أنفسنا على تضعيف الأخبار المتواترة.

ومن هذا نرى أن الأخبار المتواترة تفيدنا العلم اليقيني بداهة، لأنه مستقر في نفوسنا أنه لا يمكن عقلاً أن تتفق على الكذب هذه الكثرة الكاثرة من المخبرين؛ الذين اختلفت أحوالهم، وتباينت أغراضهم، وهم في حالة لا يجمعهم معها على الكذب جامع.

فنحن نجد أنفسنا مضطرين عقلاً أن نقبل خبرهم، ونعتقد به حقيقة واقعة غير قابلة للشك، وإلا حرمنا أكثر العلوم والمعارف، وحُرمنا إدراك أية حقيقة من حقائق التاريخ.

(ب) كما ثبت لدينا عقلاً صدق خبر الرسول فيما يخبر به عن الله تعالى من أحكام ومن أمور الغيب؛ وأن خبره يفيدنا العلم اليقيني قطعاً، لأن الرسول مشهود له من قبل الله بلسان حال المعجزة التي يجريها الله على يديه أنه صادق فيما يخبر به عن ربه؛ لأنه يخبر عن وحي ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾، وكل ما يأتي به الوحي حق لا شك فيه.

وجلّ عقائدنا التي نعتقد بها في ديننا قد جاءتنا عن طريق الوحي، نطق بها الرسول الصادق المؤيد من الله بالمعجزة.

فيجب عقلاً تصديق الرسول في كل ما يخبر به من أحكام الشريعة ومن أمور الغيب؛ والاعتقاد به اعتقاداً جازماً باعتباره يفيدالعلم اليقيني، سواء أخبر به في نص آية من كتاب الله، أو أخبر به بكلام من عنده، لا فرق في ذلك مطلقاً، لأن الله في كتابه شهد له بأنه لا ينطق عن الهوى.

فأصحاب الرسول الذين عاصروا الرسول ﷺ ما كانوا يفرقون قطُّ في التسليم بما يبلغه الرسول إليهم من أحكام وغيوب بين آية قرآنية يرويها وبين حديث يقوله من عنده.

وأما بالنسبة إلينا فحيث لم نسمع من الرسول ﷺ مباشرة بل سمعنا ممن رَوَوْا عنه ـ والذين رَوَوْا عنه ليسوا بمعصومين ـ؛ وجدنا أنفسنا بحاجة إلى أن نفرق بين ما نقل إلينا عن الرسول ﷺ بطريق متواتر يفيد العلم اليقيني؛ وبين ما نقل إلينا عنه بطريق الآحاد الذي لم يبلغ مبلغ التواتر، ولا يفيد العلم اليقيني.

وبعد البحث والاستقراء رأينا أن كتاب الله تعالى بكل ما فيه منقول إلينا بطريق التواتر الذي يفيد صدق النقل عن الرسول قطعاً؛ وذلك يفيدنا العلم اليقيني بأنه كلام الله، ومن ثَمَّ فمضمونه القطعي يفيدنا العلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ.

وأما أحاديث الرسول ﷺ فبعضها القليل منقول عن الرسول بطريق التواتر، فهو يفيدنا صدق النقل عن الرسول كالقرآن سواءً بسواء، ومن ثم فمضمونه القطعي يفيدنا العلم اليقيني به، فالاعتقاد الراسخ، كالقرآن أيضاً.

ولكنَّ أكثر أحاديث الرسول منقولة إلينا بطريق الآحاد، فإن كانت صحيحة أفادتنا غلبة الظن في صدق نقلها، ومن ثم أفادتنا غلبة الظن في العلم بمضمونها القطعي، وقد نعتقد بمضمونها اعتقاداً دون مرتبة اعتقادنا بما جاءنا عن الرسول بالتواتر.

إلا أن بعض أحاديث الآحاد التي تتضمن شيئاً من العقائد، قد تلقتها الأمة الإسلامية في عصورها الأولى بالقبول من غير نكير؛ فارتفعت بذلك إلى مرتبة المنقول بالتواتر، بالنظر إلى أن مضمونها قد أخذه المسلمون بالقبول من غير نكير، فكان ذلك تواتراً بالمعنى، فيفيد نفس ما يفيده المتواتر باللفظ.

ولا بد من أن نلفت النظر إلى أنه قد يكون الخبر قطعياً كالقرآن أو الأحاديث المتواترة، ولكن دلالة النص القرآني أو النص الحديثي المتواتر دلالة غير قطعية؛ لأنه يحتمل التأويل إلى عدَّة معان مثلاً، ولم نتمكن نحن من ترجيح بعضها على بعض بدليل قاطع، وإنما رجَّحْنا بعضَها على بعض بالظنّ الغالب. فلا يفيد إذ ذاك مضمون هذا النص العلم اليقيني الجازم، ومن ثَمَّ يصعبُ أن يتحول إلى عقيدة راسخة، ومن ثَمَّ فلا يصح لنا أن نُلزم بالاعتقاد به إلزاماً قطعياً أو نُكفِّر من لا يعتقد به.

ومن خلال الإيضاح السابق يتلخص لدينا ما يلي:

(أ) أن الاعتقاد بصدق القرآن الكريم واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكِرُ أنه كلام الله كافر.

(ب) أن الاعتقاد بما دلّ عليه القرآن دلالة قطعية من أحكام وغيوب واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر ذلك كافر.

(ج) أن الاعتقاد بأن الأحاديث المتواترة واردة قطعاً عن الرسول ﷺ واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر ذلك كافر.

(د) أن الاعتقاد بما دلت عليه الأحاديث المتواترة دلالة قاطعة من أحكام وغيوب واجب عقلاً وشرعاً؛ ومنكر ذلك كافر.

(هـ) أن أحاديث الآحاد التي تلقَّتْها الأمة الإسلامية في عصورها الأولى بالقبول من غير نكير؛ حكمها حكم الأحاديث المتواترة.

(و) أنه يكفر من أنكر عقيدة ثبتت بنص قطعي النسبة إلى رسول الله ﷺ؛ قطعي الدلالة على تلك العقيدة.

وأما من أنكر عقيدة ثبتت بدلالة ظنية في نص قطعي الثبوت، أو ثبتت بدلالة قطعيَّة في نص ظنِّي الثبوت كالأحاديث الآحاد، أو بدلالة ظنية في نص ظني الثبوت، فإنه لا يكفر بذلك. ولكنه إذا كان الظن غالباً ولم ينكر المنكِر وفق حجة واضحة فإنه يكون فاسقاً عاصياً.

الإسلام ومنهجه في الاعتماد على الأدلة النقلية والتثبت من الأخبار
أو
(الإسلام ونظرية البحث العلمي في المستندات الإخبارية):

ولمَّا كان الخبر الصادق أصلاً كونيّاً، وقاعدة إنسانية لا مندوحة من الاعتماد عليها في الحياة الاجتماعية؛ للتعرف على كثير من الحقائق التي لا يمكن لكل فرد أن يباشر معرفتها بنفسه عن طريق الحس، أو عن طريق الاستدلال العقلي، فقد اعتمدت الشرائع الربانية عليه اعتماداً كليّاً في نقل الأخبار الإلهية للناس، وتبليغهم الأحكامَ والتكاليفَ الربانية، وغير ذلك، كما اعتمدت على الخبر في تحصيل كثير من العلوم التي توصل إليها العلماء بمسالكهم المنطقية؛ وأمرت بسؤال أهل الذكر. قال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: فاسألوا العلماء بتواريخ الأنبياء والرسل وأحوال الوحي إليهم؛ يجيبوكم بمثل ما نقرره لكم.

كما أمر الله تعالى نبيه بسؤال الذين يقرأون التوراة، للتأكد من صحة ما ينزل عليه من أخبار الرسل السابقين إن كان في شك من الأخبار التاريخية عن الرسل وأقوامهم. والغرض من أمر نبيه بمثل هذا السؤال التعريض بتوجيه الشاكّين من أهل الكتاب لمثل هذا السؤال؛ ليتأكدوا من الحق الذي جاء به القرآن.

قال تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

حتمية صدق الخبر:

ولكن الإسلام وضع منهجاً سليماً للتحقق من سلامة الأخبار وصدقها، فاشترط لحتمية صدق الخبر أن يأتي عن أحد مسلكين:

المسلك الأول: أن يَرِدَ الخبر على لسان الرسول، وقد أحاط الله الرسل الذين يبلِّغون عن الله بوضعٍ يجعل التسليم بنقولهم وأخبارهم قضية حتمية عند المنصفين من العقلاء؛ ذلك بما صانهم به من العصمة عن الكذب وسائرالمعاصي، وبما أيدهم به من المعجزات الباهرات، التي لا يأتي بها أو بمثلها إلا رسول مؤيَّد من عند الله، ومصدَّق من قِبَلِه بلسان حال المعجزات.

وإليك أمثلةً وأدلةً قرآنية:

١ ــ فيدُلُّ على هذا المعنى ما جاء في قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، كما أوردها القرآن الكريم.

قالت ثمود لصالح فيما حكاه الله عنهم في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وأمام هذا المطلب الحق، الذي يدلُّ على أنهم يطالبونه بالبينة على أنه صادق فيما يبلغ عن ربه؛ استجاب الله لمطلبهم، فأرسل لهم معجزة الناقة، وتوعَّدهم بالعذاب إذا هم كذبوا بعد هذا التأييد من الله بها.

قال صالح فيما حكاه الله عنه في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

٢ ــ كما وضع الله المشركين الذين يَدْعُون من دون الله في مأزق حرج من المناقشة الحرة المنطقية؛ وفسح لهم مجال إقامة الدليل على ما يدّعون بالخبر الصادق، إذا هم عجزوا عن إقامة الدليل على ما يدَّعون عن طريق المشاهدة الحسية، أوعن طريق الاستنتاج العقلي. وذلك في قوله تعالى ــ يعلِّم رسوله ﷺ ــ في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

ألا ترى أن هذه الآية قد علمت الرسول كيفية مطالبة المشركين بالدليل الحسي أو الدليل العقلي؛ على إثبات هؤلاء الشركاء الذين يدعون من دون الله بقوله تعالى: **﴿أروني ماذا خلقوا**

من الأرض﴾؟! أي: أثبتوا لي بدليل المشاهدة الحسية أو بدليل الاستنتاج العقلي من خلال الظواهر الأرضية؛ ذلك الشيء الذي خلقوه من الأرض، حتى استحقوا بخلقه أن تجعلوهم شركاء لله!!

ثم علّمه كيفية مطالبتهم بدليل الخبر الصادق على إثبات هؤلاء الشركاء الذين يدعون من دون الله؛ بقوله تعالى: ﴿أم لهم شرك في السماوات، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾.
أي: فإن عجزتم عن إقامة الدليل الحسي أو العقلي، وادعيتم شركتهم في السماوات ــ وهي بعيدة عن مجال حسكم واستنتاجاتكم ــ فإننا نقبل منكم الخبر الصادق عن كتاب سماوي منزَّل قبل القرآن الكريم، أو الخبرَ الصادقَ عن بقيةٍ من علم مأثور عن رسول من رسل الله يتلقى عن الوحي.

٣ ــ أخذ اليهود يعترضون على سيدنا محمد ﷺ أن يأكل لحوم الإبل، ويشرب ألبانها، ثم يزعم بعد ذلك أنه على دين إبراهيم، فقال لهم النبي ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نُحلّه، فقال اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام.

فنزلت الآيات من سورة آل عمران تعلّم الرسول كيفية مناقشتهم ومطالبتهم بالْخَبَر الصادق على ما يزعمون؛ وبإحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين.

قال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

إسرائيل: هو سيدنا يعقوب عليه السلام.

فجاءت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا أيَّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟

فقال رسول الله ﷺ: أَنْشُدُكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرِّمنَّ على نفسه أحب الطعام والشراب إليه؛ وكان أحبَّ الطعام إليه لُحْمَانَ الإبل، وأحبَّ الشراب إليه ألبانها؟!.

فقالوا: اللهم نعم.

المسلك الثاني: أن يخبر بـه جمع من النـاس يستحيل في مقيـاس العقل السليم اتفـاقهم على الكذب.

ويلحق بـه ما تواردت عليه مجموعة من شواهد النقول الإخبارية، ودلائل الآثار الأرضية والكتابية، وبعض الاستنتاجات النظرية، حتى يصبح التسليم بمضمون الخبر أمراً حتمياً لا شك فيه لدى العقلاء المنصفين، وحتى يصل في نفوسهم إلى درجة اليقين، كخبـر الجمـع من الناس الذين يستحيل عقلاً تواطؤهم على الكذب.

وهذا المسلك أصل مقطوع به شرعاً وعقلاً، وبه حفظ الله القرآن الكريم من التحـريف والتبديل، إذ تكفّل بحفظه في قوله تعالى في سورة (الحِجْر ١٥):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

أما الاعتماد على دلائل الآثار: فيمكن الاستئناس لـه بقوله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

وأمـا الاعتماد عـلى الخطوط والكتـابات: فنستـطيـع الاستدلال لـه بأمـر القرآن لنـا بأن نكتب عقود مُدَايناتنا لتثبيت الحقوق لأربابها؛ وذلك في قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۝٢٨٢﴾.

أرجحية صدق الخبر، والاحتياطات في تحديد شروط نقـل الأخبـار بحسب موضوعـاتها:

لقد أقر الإسلام الناس على أخبارهم فيـما بينهم، شريـطة توافـر دلائل تـرجيـح الصدق فيهـا، ووضـع لذلـك منهجاً سـديداً لتحـرّي الصدق في الأخبـار، ونفي ما كـان منهـا كـذبـاً واضحاً، أو مشكوكاً بأمره، أو مشتبهاً بكذبه.

واشترط لأرجحية صدق الخبر أن يتوافر في كل راوٍ له شرطان:

الشرط الأول: العدالة: وهي أن لا يعهد على الراوي الكذب والمعصية الظاهرة.

الشرط الثاني: الأهلية الفكرية لتحمل الأخبار ونقلها على وفق ما حملها، دون نسيان أو اضطراب. ويُعْرَفُ هذا الشرط عند أهل الحديث بالضبط.

وقد صنف الإسلام الموضوعات التي تتضمنها الأخبار في عدة مراتب، وجعل لكل مرتبة منها شروطاً للتثبّت من الخبر، بحسب أهمية موضوعه وبحسب النتائج التي تترتب عليه. وفي الفقرة التالية إحصاء لمراتب الأخبار: سواء كان المطلوب فيها أن يكون الصدق حتمياً، أو راجحاً وفق منهج علمي محدَّد، أو راجحاً في القناعة الخاصة للشخص المنقول له الخبر.

مراتب الأخبار وشروط أرجحية الصدق فيها، بحسب أهمية موضوعاتها والنتائج التي تترتب عليها:

الذي يظهر لنا من الإحصاء الشرعي في تقسيمات مراتب الأخبار، أنها تقع في ست مراتب، ولكل من هذه المراتب شروط محددة للتأكد من صدق الخبر فيها، وهي كما يلي مرتبة من الأعلى إلى الأدنى:

المرتبة الأولى: النقل عن الوحي، وشرطه النبوة المستجمعة لصفتي العصمة والتأييد بالمعجزة، وقد سبق شرح ذلك في فقرة حتمية الخبر.

المرتبة الثانية: مرتبة نقل الأخبار التي بلّغها الرسل، المتضمنة إثبات عقيدة من عقائد الدين، أو أصل من أصوله الأولى، أو سورة من سور القرآن، أو آية من آياته، ونحو ذلك مما يكفر جاحده.

وهذه ينبغي للتثبت من صحة الخبر فيها وصدق الرواية، أن تنقل بالتواتر اللفظي أو المعنوي، أو ما هو في قوة التواتر، لأن موضوعاتها من الموضوعات التي يجب ـ بحسب مركزها من الدين وتكفير جاحدها ـ أن يتوافر عليها النقل بالتواتر، أو ما هو في قوته.

فإذا لم تنقل بالتواتر أو ما هو في قوته، مع وجود الدواعي لنقلها به، لم يَسُغ لنا أن نحلها في مركز الأمور التي يكفر منكرها، لأن من يحكم عليه بالكفر والردة، يُحكم عليه بإهدار الدم لزوماً.

وقد سبق مضمون هذه المرتبة في فقرة حتمية الخبر.

المرتبة الثالثة: مرتبة الاتهام بالزنى.

وهذه المرتبة ينبغي للتثبت من صحة خبر الاتهام فيها أن يتوافر على نقله والشهادة به

أربعة شهداء؛ مشروط في كل منهم أن يستجمع صفات العدالة والضبط، وانتفاء التهمة، وفق البيانات الموضّحة في كتب الفقه.

وقد اشترط الإسلام الشهداء الأربعة في خبر الاتهام بالزنى نظراً لأهمية موضوع الخبر؛ ونظراً لأن النفوس فيه يتجسّم لديها الظن به، حتى يصل إلى مرتبة التحقق دون أدلة مادية فتشهد به؛ ونظراً لما يترتب عليه أيضاً من هدم الأسر وإقامة الحد الشرعي، والخزي والعار والفضيحة لمن تثبت عليه التهمة.

قال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سياق حديث الإفك في سورة (النور ٢٤):

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

المرتبة الرابعة: مرتبة إثبات الحقوق بين الناس بعضهم على بعض، وتتضمن هذه الحقوق: الحقوق المادية والأدبية والجنائية ونحوها.

وهذه المرتبة ينبغي للتثبت من صحة الخبر فيها أن يشهد بالخبر رجلان ذوا عدل من المسلمين؛ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان[1] ممن يرضى المسلمون من الشهداء. ويشترط في كل شاهد أن تتوافر لديه العدالة والضبط، وانتفاء التهمة، وفق البيانات الموضّحة في كتب الفقه.

قال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ . . . ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

---

(١) ينبغي ملاحظة أنه قد اتفق الفقهاء على عدم قبول شهادة النساء في الحدود، لأنّ الحدود تدرأ بالشبهات، وأنّ أكثر الفقهاء على أنّ شهادتهنّ لا تقبل أيضاً في القصاص، سواء انفردن أو مع مشاركة الرجال، وانفرد ابن حزم فذهب إلى قبول شهادة النساء مطلقاً على أساس أن كل امرأتين تساويان في الشهادة رجلاً.

وقال تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾.

المرتبة الخامسة: مرتبة النقول العادية التي تتضمن أخباراً علمية أو تاريخية؛ أو رواية لحديث عن رسول الله ﷺ يتضمن مواعظ وآداباً وأحكاماً عملية، أو أخباراً عن بعض الأمور التي ستحدث في المستقبل، كأشراط الساعة، وأحوال يوم القيامة وما أشبه ذلك.

وهذه المرتبة يكفي للتثبت من صحة الخبر فيها أن يرويها راوٍ واحد يشترط فيه توافر صفتي العدالة والضبط، وفق البيانات الموضحة في علم مصطلح الحديث.

وما أكثر الشواهد في النصوص الإسلامية على الاكتفاء بنقل خبر الواحد في حدود هذه المرتبة؛ ما لم تقم التهمة على المخبر، وعندها يحتاج إلى معزِّز يعزِّز خبره.

المرتبة السادسة: مرتبة النقول والأخبار التي تتناول مصلحة الشخص الذي يرد إليه الخبر في أمر من أمور دنياه؛ دون أن تتضمن هضماً لحق آخر أو اتهاماً له، كأن تتضمن مثلاً التحذير من خطر لا ضرر من الاحتياط في الحذر منه ولو بالظن الضعيف.

وهذه المرتبة يكفي فيها انفتاح النفس لقبول صحة الخبر والاقتناع به، دون النظر في حالة المخبر وصفته، لأن موضوعه لا يتطلب أكثر من اتخاذ الاحتياطات والأسباب اللازمة لدفع الخطر أو الفرار منه.

ويمكن أن نستأنس لهذا بما جاء في القرآن الكريم في حكاية فرار موسى عليه السلام من مصر بعد قتله الرجل من أتباع فرعون، ثقة بخبر الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يخبره بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه.

قال تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾.

ويلاحظ أن هذه المرتبة هي التي يعتمد عليها الناس في أكثر أمورهم الشخصية؛ من تجارات وصناعات وزراعات، وأمور سياسية وعسكرية، وأشباه ذلك. وعلى قدر تفاوت الناس في دقة ملاحظاتهم، ومحاكماتهم لما يعرض لهم من أمور الدنيا، ينالهم التوفيق، ويحالفهم النجاح فيها بالنظر للأسباب الدنيوية الظاهرة.

خـاتمـة :

هذه هي الخطوط العـريضة لمنهـج الإسـلام في الاعتماد عـلى الأدلة النقليـة والتثبّت من الأخبار؛ عرضتها مجموعة في نسق فكري متماسك، وأمـا تفصيلاتهـا الجزئيـة وأمثلتها فمـوزّعٌ بيانها في كتب أصول الفقـه، وأصول الحـديث، وكتب الفروع الفقهيـة، وبهذا الجمـع يتضـح للباحث إشراقة بديعة من سمو المنهج العلمي في الإسلام.

رابعــاً:

إذا عرفنا المسالك الثلاثة السابقة التي تفيدنا العلم اليقيني في عقيدة ما، وعرفنا أنه يمكن لنا أن نقيم بواحد منها الحجة القاطعة على المنكـرين، فلا يفـوتنا أن ننبّـه على أن هنـاك مسلكاً رابعاً قد يصلـح للمعتقِد نفسه، ولكنه لا يغنيه في إقامة الحجة على الآخـرين، إلا إذا كان من الأمور التي يشهد الناس بصدقها.

ألا وهو (مسلك الإضاءة الفطرية، والإشراق الروحي).

فإننا نرى أن هناك كثيراً من الأفكار التي تصـل إلى مرتبـة العقيدة الـراسخة؛ بمـا لها من تأثيرات، تصـل إليها دون أن تمرّ بمراحل الإدراك الحسي فالعلم فالاعتقاد؛ ودون أن تمر بمراحل الاستنتاج العقلي فالعلم فالاعتقاد؛ ودون أن تمر بمراحل الخبر الصادق فالعلم فالاعتقاد.

ولكنّهـا تتخذ طـريقاً آخـر إلى مراكـز الاعتقادات، فقـد تتخذ طـريق الإضاءة الفـطرية والإشراق الروحي، دون أن يستطيـع صاحبها إقامة الدليـل المادي عـلى ما يعتقـد بـه، وكثيراً ما يكون صـادق الفطرة والإشـراق، بدليـل موافقـة إشراقـه الخاص لنتـائـج مسالـك الآخرين البرهانية اليقينية.

بـل ربما يكـون ذوقه وإحسـاسه بحقـائق الأشياء، أدقّ وأوضـح من إحسـاس المستنتـج استنتاجاً فكرياً، ذلك باعتبـار أن هذا المسلك إذا صـدق صاحبـه فيه، ووضـح لـديه وضـوح الذائق العارف؛ كان إشراقـه نابعـاً من صفاء نفسٍ، وطهارة قلب، وتجـرد عن شوائب المـادة والشهوات والأنانية، فيستشف صاحبه من لمحات الغيوب بعض المنـح الربانية له الخاصة بـه.

وهـذا المسلك إذا كان الاعتمـاد فيه على الفطرة السليمـة، في الحـدود التي يشتـرك بهـا وبالتذوق عن طـريقها كـافة النـاس أو أكثرهم، فهـو مسلك صادق النتـائـج قطعـاً، وتقام بـه الحجة نظراً لتوافق فطر الناس في تذوقه ومعرفته. أما إذا كان الاعتماد فيه على الفطر النادرة في هباتها الخاصة، التي لا يشترك فيها إلا أناس قليلون موهـوبون، فـإنه مسلك يصلـح لصـاحبه

فقط، دون أن يقوم دليلاً على الآخرين، ودون أن يشتط بـه صاحبه حتى يخرج عـما وردت به نصوص الشريعة؛ وإلا كان وسواساً من وساوس الشياطين.

ومن هذا نرى أن بعض الصالحين يدرك بفطرته، وإشراق روحه، ما لا يـدركه كثير من عُلماء الإدراك الحسي، والاستنتاجات العقلية.

ونستطيـع أن نطبق هذا على أشباه القصة المشهـورة (قصة الفخـر الرازي والمرأة المؤمنة العجوز):

مرّ الفخر الرازي في الطريق وحوله أتباعه وتـلامذتـه الكثيرون، فـرأته عجـوز مؤمنة في جانب الطريق، فسألت عنه فقـالوا: هـذا الفخر الـرازي الذي يعـرف ألف دليل ودليـل على وجود الله تعالى؛ فقـالت: لو لم يكن عنـده ألف شك وشـك لما احتـاج إلى ألف دليل ودليـل. فنُقلت كلمتها هذه إلى الفخر الرازي عليه رحمة الله، فقال: اللهم إيماناً كإيمان العجائز!!

ومن هذا نرى أن هذه المرأة المؤمنة قد أدركت بإشراق روحهـا، وصفاء فـطرتها، وجـود الله وكمال صفاتـه، ولم تحتـج إلى مناقشـات كثيرة، ولا إلى ردّ شكـوك، وتمركـزت في أعماقهـا عقيدة صحيحة سليمة، لا تستطيـع قـوة في الدنيـا أن تزحـزحها، وكـان طريقهـا إلى عقيدتهـا وإيمانها طريقاً مقبولاً منها، وصحيحاً لا شائبة فيه.

وقـد حثّ القرآن عـلى تلمُّس هذه الفـطرة الصـافيـة في داخلنـا بقـولـه تعـالى في سـورة (الروم ٣٠):

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

الطريق المقبول الذي يتطرق إليه احتمال البطلان:

ونُثنِّي بـالـطريق المقبـول الـذي يتـطرق إليـه الاحتمـال، وهـو مـا يسلك مسـالـك الظنون الغالبة:

والآن وبعد أن عرفنا مسالك اليقين الأربعة السابقة، نلاحظ مسالك مشـابهة لهـا ولكنها دونها في المرتبة، فلا تنال درجة القطعية التي تنالها نتائج مسالك اليقين، ولكن الفكـر يرتضيهـا ويقبلها باعتبار أن الظن يرجّح كونها حقاً، موافقة للواقع.

فمثلاً:

قد لا يبلغ الإدراك الحسي مبلغ التحقق لنقص بعض شروط الإدراك الحسي، ولكنه يغلب على الظن صدقه.

وقد لا يبلغ الاستنتاج العقلي مبلغ اليقين، ولكنه يغلب على الظن أنه حق بالنظر إلى أماراته الظاهرة.

وقد لا يبلغ الخبر مبلغ القطعية لأنه غير متواتر، ولا هو في قوة المتواتر؛ أو لأنه لم يبلِّغه الرسول المؤيد من الله بمعجزة؛ أو لأنه لم يبلغه عن الرسول عدد بلغ حد التواتر، ولم يقترن به ما يفيد قطعية معناه، ولكنه يغلب على الظن أنه صدق.

وقد لا يصل الإشراق الروحي في داخل النفس المشرقة مبلغ الوضوح والتحقق، ولكنه يغلب على الظن صدق الإشراق.

وفي كل ما سبق نسمي النتائج (ظناً غالباً).

ونسمي تلك المسالك التي تؤدي إلى الظَّنّ الغالب (مسالك الظنون الغالبة).

وقد رأينا أن مسالك الظنون الغالبة لا تؤدي إلى علم يقيني، ومن ثَمَّ فلا يصح أن تتحول الظنون إلى عقائد جازمة راسخة، غير قابلة للتعديل أو النسخ، بل تدخل في زاوية العلوم الظنية، ويجري الاعتقاد بها، والعمل بموجبها، حتى يأتي ما يُعدلها أو يزيلها. ولا يعتبر منكرها جاحداً ولا كافراً، وقد نعتبره فاسقاً، وذلك حينما لا يوجد عنده حول العقيدة نفسها دليل آخر؛ شكَّل في نفسه ظناً غالباً آخر يعتذر به عند ربه.

مثال ذلك: الأحاديث الآحاد في بعض أمارات الساعة وبعض شؤون الغيب، ونحو ذلك.

العمل بالظن الغالب في فروع الأحكام الشرعية:

وهذا المسلك يُكتفى به في إثبات فروع الأحكام الشرعية العملية، التي تعتمد على اجتهادات المجتهدين واستنباطاتهم. فمن أصول عقيدتنا الثابتة بيقين أنه يجب شرعاً العمل بها وفق ما انتهى إليه الاجتهاد، وإن اختلف المجتهدون في النتائج التي توصّلوا إليها، لأن الغرض منها تحقيق معنى عبادة الله بالصورة التي يرضاها منا، وقد رضي منا حتماً أن نعبده تعالى بالصورة التي يصل إلى تحديدها اجتهاد المجتهدين منا؛ الذين توافرت لديهم أهلية الاجتهاد والبحث في مصادر الشريعة، كما هو مقرر في علم أصول الفقه.

الطريق المزيَّف المرفوض:

وقد آن لنا أن نُثَلِّث ببيان الطريق المزيف المرفوض، وهو ما يسلك مسالك الشكوك والأوهام والتقاليد العمياء.

وهنا نرى أنه قد تسلك المعتقدات إلى قلوب الناس طريق الشكوك، أو الأوهام والخيالات، أو التقاليد العمياء، فتصبح عقائد في أنفسهم، لها نفس التأثيرات السابقة، دون إدراك حسي، أو حجة عقلية صادقة، أو إشراق روحي واضح، أو ظنون غالبة. وإنما تتمركز في مركز الاعتقادات الفعالة تحت تأثير وهم برّاق، أو خيال محبَّب ــ وهذا لا يكون بحال مسلكاً صحيحاً ترتضيه العقول السليمة، بل هو مسلك زائف باطل ــ أو تحت تأثير تقليد محض من التقاليد غير المبصرة. كقولهم فيما حكى الله عنهم في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أمَّة: طريقة، ديانة.

وهذا المسلك أيضاً (مسلك التقليد في العقائد) مسلك زائف باطل، لأن المقلد قد أعد نفسه أن يسلك سنة التقليد بعصبية ممقوتة، سواء كان من يقلده عالماً أو جاهلاً، محقاً أو مبطلاً، منصفاً أو ظالماً.

ولذلك نعى الله على المقلِّدين وذمَّ طريقتهم بقوله سبحانه في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

تلخيص عام:

ونستطيع بهذا الجدول الموضَّح في الصفحة التالية، أن نجمع لك خلاصة هذه الفقرات التي شرحناها تحت عنوان: (العقيدة وثبوتها).

العقيدة في أعماق الإنسان لها طرق ثلاثة إلى داخل نفسه

الطريق الأول	
طريق اليقين، وفيه: أربعة مسالك	وهذا هو الطريق الحق في التعرف على الحقائق واكتساب الاعتقادات: ١ ـ مسلك الإدراك الحسي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ. ٢ ـ مسلك الاستنتاج العقلي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ. ٣ ـ مسلك الخبر الصادق، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ. ٤ ـ مسلك الإشراق الروحي، فالعلم اليقيني، فالاعتقاد الراسخ.
الطريق الثاني	
طريق الظنون الغالبة	وهذا الطريق له نفس مسالك طريق اليقين مع عدم بلوغها درجة القطعية، وإنما تصل إلى حد غلبة الظن. وهذا طريق مقبول إجمالاً في العمل وفي العقيدة غير الجازمة، الكافية لدفع الإنسان إلى العمل؛ حتى يأتي ما ينقض نتائجه، أو يُعدِّلها، أو يظهر فسادها.
الطريق الثالث	
طريق الأوهام والشكوك والتقاليد العمياء	ولهذا الطريق مسالك كلها وهمية وخيالية براقة، تعتمد على خداع وهمي، أو على عصبية ممقوتة. ولذلك فهو طريق مرفوض لا يقبله أي ذي عقل سليم ومنطق منصف.

(٣)
أعظم مطالب الإنسان في الحياة

اتفق الباحثون من الفلاسفة وأهل الملل والنحل وأصحاب المذاهب وكل ذي فكر معتبر في الحياة؛ على أن بلوغ السعادة أعظم مطلب ينشده الإنسان في الحياة. ويبحث الناس عن الوسيلة التي يمكن أن تحقق لهم السعادة المنشودة:

فيتصورها طلاب المال بجمع أوفر نصيب منه، فيجرون وراء تحصيله وجمعه، ثم يكتشفون بالتجربة أن المال ربما كان سبباً لمتاعبهم وشقائهم، وأنه ليس هو الجسر الموصل إلى السعادة. ويتصورها طلاب الجاه والسلطان بالظفر بأكبر نصيب منهما، فيجرون وراءهما ويتقاتلون من أجلهما، فإذا ظفر منهم ظافر بما يريد، لم يجد أن الجاه والسلطان من أسباب ظفره بالسعادة المنشودة، وربما اكتشف بالتجربة أنهما كانا من أسباب متاعبه وآلامه الكثيرة، وأنه قد اجتاز جسراً إلى غير الغاية التي ينشدها.

وهكذا نجد طلاب اللذة والاستمتاع بالشهوات، ينتهون بعد التجربة إلى أنها لم تحقق لهم السعادة المنشودة، وقد تجلب لهم آلاماً ومتاعب كثيرة مقيمة، وأن لذّاتهم كانت بمثابة رذاذ يبرِّد حرارة حاجات النفس، ثم يجف هذا الرذاذ بسرعة، ولا يبقى منه إلا الذكرى، وقد يخلّف عواقب سيئة مؤلمة، إذا لم يكن محدوداً بحدود المصلحة العاجلة والآجلة، وبحدود الخير الذي أذن الإسلام به.

ولدى الملاحظة نجد أن المؤمنين بالإسلام يحسّون بمشاعر السعادة في قرارة نفوسهم، ويذوقون حلاوة طمأنينة القلب، وإن لم يكن لديهم ما يحبّون من مالٍ أو جاهٍ أو سلطان، وإن لم ينالوا ما يشتهون من لذّات جسدية في الدنيا. ويشعرون أيضاً بهذه المشاعر السعيدة الحلوة، وإن كانت أجسادهم تُعاني آلاماً مُرَّة، لأنهم يؤمنون بأن رضا الله يحفّهم، وبأن سعادة أخروية عظيمة دائمة مقيمة لا ترحل تنتظرهم، بفضل الله ورحمته، وأن غَمْراً من اللّذات وأنواع النعيم قد أعدَّ لهم في جنات الخلد. فهم يعيشون في أجواء هذه الرؤى الحلوة سُعَداء، وهم سيكونون بها يوم الدين في واقع تطبيقي، سعداء سعادة لا يستطيع التصور الحالي أن يصل إلى إدراك مستواها العظيم.

فالإيمان الذي جاء به الإسلام هو الكفيل بتحقيق أعظم ما ينشده الإنسان في حياته؛ إنها السعادة الخالدة العظمى، التي تبدأ في الحياة الدنيا بطمأنينةالقلب ورضاه، وبالأمل الحلو الدائم بالخلود السعيد المغمور بأعظم ألوان النعيم؛ وتنتهي بواقع تطبيقي نفسي وجسدي وروحي، يصيب فيه المؤمن من السعادة الخالدة ما هو فوق مستوى التصور والأمل.

(٤)

الـوجـود الإنساني في سـلوكه السويِّ الفكري والاعتقادي والإرادي والعملي

عـرفنا في البحـوث السابقـة كيف نكتسب المعارف والعلوم، وكيف ينبغي أن نُحـلَّ كل فكرة في مركزها اللائق بها بحسب مستواها الفكري، وأنه لا يصـح أن نحل الأوهام والشكوك في مراكز الظن الراجـح، أو اليقين، ولا أن نُحِلَّ الظنون الراجحة في مراكز اليقين، وأنه ينبغي أن لا يصـل إلى مركـز العقيدة الـراسخة إلا الحقـائق العلمية اليقينيـة، التي اطمأن القلب لهـا واعترف بمضمونها.

وبذلك يتضـح لنا أن العقيدة ينبغي أن ترتكز على ثلاث قواعد:

١ ــ الحقيقة العلمية (اليقين).

٢ ــ طمأنينة القلب لها.

٣ ــ الاعتراف والتسليم بمضمونها، وهو قرار إراديّ داخليٌّ بالتصديق.

فمتى صارت الفكرة بهذه المنزلـة عقيدة راسخـة صـح أن توجـه في الإنسان إرادتـه؛ ثم تقوم هذه الإرادة بدورها في توجيه الأمر والنهي إلى السلوك، معتمدة في الأمر على مبـدأ المنفعة العاجلة أو الآجلة، التي تُحدّدها العقيدة الراسخة المتفقـة مـع الشريعـة الربـانية؛ ومعتمـدة في النهي عـلى مبـدأ المضـرّة العـاجلة أو الآجلة، التي تُحـدّدهـا العقيـدة الـراسخـة المتفقـة مـع الشريعة الربَّانية.

ثم تمر أوامر الإرادة ونواهيها، مستخـدمة في طـريقها إلى السلوك بعض مـا يناسبهـا من العواطف؛ لاكتساب الشعـور باللذة والمسـرَّة لدى تنفيـذ الأعمال التي تـأمر بهـا الإرادة حسب توجيه العقائد.

هـذا في الأمور التي يمكن لـلإنسان أن يتـوصل فيهـا إلى حقيقة علميـة يقينية تتحـول في أعماق نفسه إلى عقيدة راسخة.

أما في الأمور الأخرى، التي لا يستطيـع الإنسان بحسب طاقاته أن يتوصل فيها إلى يقين، وكـذلك في الأمـور المعاشيـة التي تقضي المصلحة بسـرعة إنجـازها؛ فـإنــه يصـح أن تكتفي الإرادة بالتوجيهات التي تتلقاها من مركز الظنون الراجحة.

فـإذا كانت الأعمـال الداخليـة الفكريـة والإرادية في الإنسـان، قد سـارت في طـريقهـا السويِّ الذي أوضحناه، كان سلوكه في حياته ضمن الصراط المستقيم، وهو طريق الحق والخير

الذي يوصله إلى السعادة الدنيوية والأخروية، كما يُسْهِمُ بإيصال المجتمع الذي هو جزء منه إلى السعادة أيضاً.

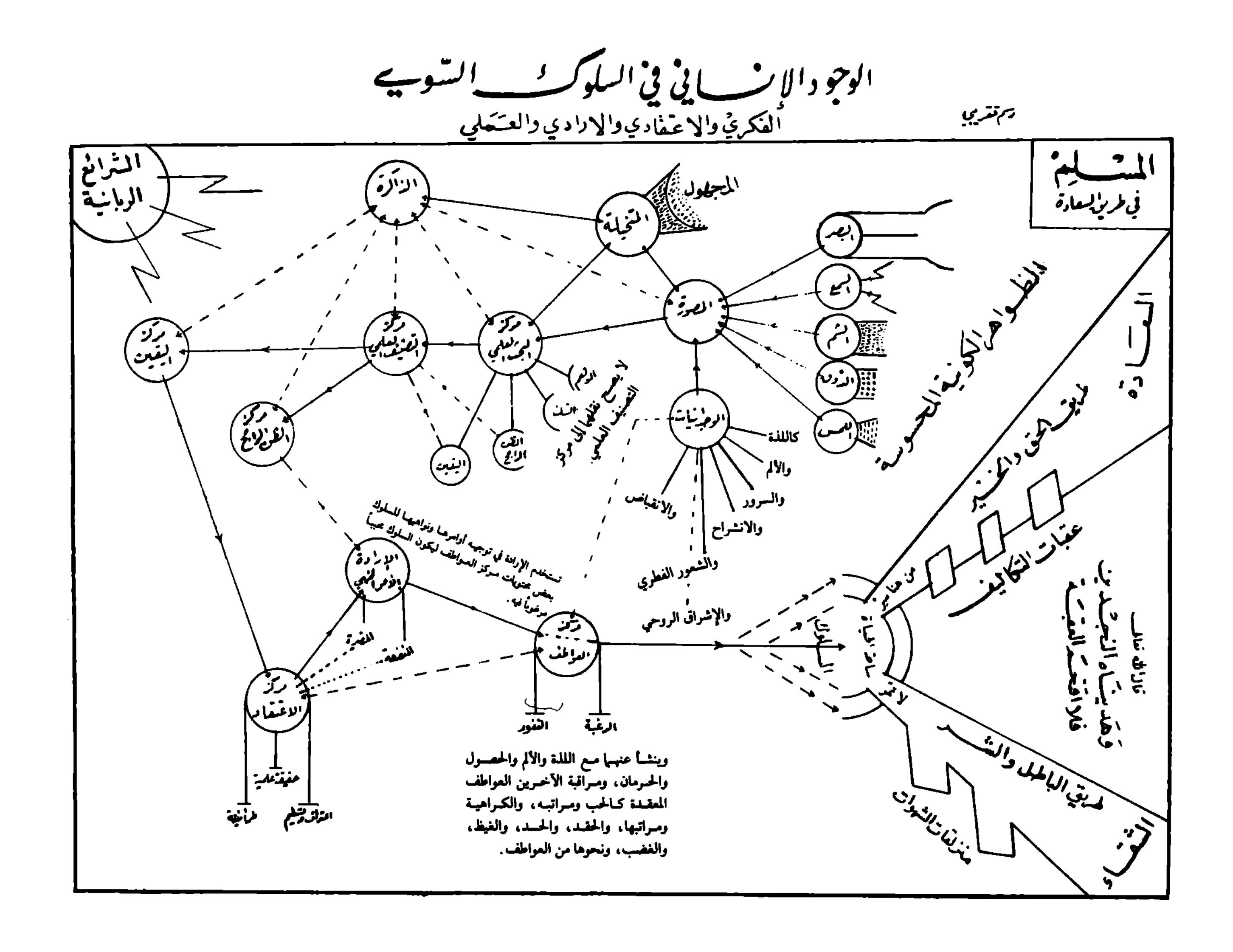
وإذا كانت الأعمال الداخلية الفكرية والإرادية في الإنسان قد سارت في غير طريقها السوي؛ كان سلوكه في حياته مؤدياً به إلى منزلقات سبل الشر والضلالة، وذلك يؤدي به إلى الشقاء الأبدي، وإن تمتع في حياته ببعض اللذائذ العاجلة.

أمثلة لسير الأعمال الداخلية في الإنسان في غير طريقها السويّ:

كأن تتحول التخيلات والأوهام والشكوك إلى عقائد موجِّهة للإرادة، فتسلك مسلكاً شاذاً في داخل نفسه إلى مركز العقيدة. وكأن تتحول التقاليد العمياء إلى عقائد موجِّهة للإرادة، فتسلك مسلكاً شاذاً في داخل نفسه إلى مركز العقيدة. وكأن تسيطر الشهوات والأهواء على مركز الإرادة في الإنسان، فتنساق الإرادة وفق رغبات الهوى الحيوانية الشهوية أو الغضبية، دون أن تتقيد بضوابط العقيدة الراسخة واليقين العلمي، أو الظن الراجح. وكأن تسيطر العواطف على مركز الإرادة أو مركز العقيدة، فتنساق الإرادة وفق دوافع العاطفة المسيطرة الرعناء. إلى غير ذلك من صور كثيرة تجري في داخل النفس، ناشئة عن شيوع الفوضى في مملكة نفس الإنسان، أو ناشئة عن سيطرة جمهورالشهوات على السلطة التشريعية فيه (مركز العقيدة ــ مركز الظن الراجح)؛ أو السلطة التنفيذية (مركز الإرادة)؛ أو عن شذوذ وخلل في عمل المراكز الفكرية.

ويجد القارىء رسماً تقريبياً للوجود الإنساني في سلوكه السوي: الفكري والاعتقادي والإرادي؛ يتضمن مراحل تحصيل المكتسبات الفكرية في الإنسان السويّ، ثم تَحوُّل الحقائق اليقينية إلى مركز اليقين، وتَحوُّل الأفكار التي فيها غلبة ظن إلى مركز الظن الغالب، ثم انتقال اليقينيات إلى مركز الاعتقاد الراسخ؛ متى أضيف إليها الطمأنينة القلبية والاعتراف والتسليم. كما يتضمن عمل الإرادة في داخل النفس الإنسانية، ووظيفة العواطف التي تتأثر بالوجدانيات بعوامل اللذة والألم تأثراً مادياً في المستوى الحيواني؛ وتتأثر بالعقائد تأثراً معنوياً سامياً في مستوى الكمال الإنساني. ثم إن العواطف متى تأثرت بالعقائد استطاعت أن تؤثر بدورها في الوجدانيات؛ فتُمِدُّها بالشعور باللذة والسرور إذا اتَّبع الإنسان متطلبات العقيدة السليمة، وتوجيهاتها في سلوكه؛ وتُمدّها بالشعور بالألم والانقباض إذا خالف الإنسان متطلبات العقيدة السليمة، وتوجيهاتها في سلوكه.

انظر الرسم التقريبي في الصفحة التالية:



الوجود الإنساني في السلوك السوي
الفكري والاعتقادي والارادي والعملي
رسم تقريبي
المسلم في طريق السعادة
الشرائع الربانية
الذاكرة
المتخيلة
المجهول
البصر
السمع
الشم
الذوق
اللمس
المصورة
الوجدانيات
كاللذة
والألم
والسرور
والانشراح
والانقباض
والشعور الفطري
والإشراق الروحي
مركز اليقين
مركز التصنيف العلمي
مركز البحث العلمي
مركز الظن الراجح
اليقين
الظن الراجح
الوهم
الشك
لا يصح نقلها إلى مركز التصنيف العلمي
الإرادة والأمر النهيي
تستخدم الإرادة في توجيه أوامرها ونواهيها للسلوك بعض محتويات مركز العواطف ليكون السلوك عبيا مرغوبا فيه.
القدرة
الضعف
مركز الاعتقاد
عقيدة علمية
طمأنينة
اعتراف وتسليم
مركز العواطف
النفور
الرغبة
وينشأ عنها مع اللذة والألم والحصول والحرمان، ومراقبة الآخرين العواطف المعقدة كالحب ومراتبه، والكراهية ومراتبها، والحقد، والحسد، والغيظ، والغضب، ونحوها من العواطف.
الظواهر الكونية المحسوسة
السعادة
طريق الحق والخير
عقبات التكاليف
من هنا
لا تمر
طريق الباطل والشر
منزلقات الشهوات
الشقاء

إيضاح الرسم التقريبي للوجود الإنساني في سلوكه السويّ:

وإليك الخطوات السليمة للأعمال النفسية الفكرية والاعتقادية والإرادية، ثم العملية السلوكية في الإنسان:

١ ـ تنقل مراكز السمع والبصر والشم واللمس والذوق إلى مركز المصوّرة أشرطة مشاهداتها من الظواهر الكونية المحسوسة.

فوظيفة هذه المراكز: نقل ما تحس به للمصورة.

٢ ـ ينقل مركز الوجدانيات الإحساسات الوجدانية إلى المصوّرة.

فوظيفة هذا المركز في العمل الفكري: نقل ما يحس به للمصورة.

٣ ـ تقوم المصورة بتسجيل ما يردها من الحواس الظاهرة والوجدانيات؛ كما تُمِدّ المراكز الفكرية الأخرى بالمواد الخام، نقلاً عمّا أدركته الحواس الظاهرة والوجدانيات، بنسبٍ من الوضوح والصدق تختلف باختلاف الأفراد.

فوظيفة المصورة:

(أ) تسجيل ما يردها من الحواس الظاهرة والوجدانيات.

(ب) إمداد المراكز الفكرية الأخرى بما لديها من مسجَّلات.

٤ ـ تقوم المتخيِّلة بتخيُّل مركبات جديدة تستمد مفرداتها من المصورة، أو من مراكز الفكر الأخرى، وتستمد الصورة التركيبية الجديدة من قدرتها الإبداعية الخاصة ناظرة إلى المجهول.

كما تقوم بإمداد مركز البحث العلمي بصور تخيلاتها الجديدة، لتوضع موضع البحث والدراسة.

فوظيفة المتخيلة:

(أ) تخيُّل مركبات جديدة، تنتزع أجزاءها من المصورة، أو من مراكز الفكر الأخرى.

(ب) إمداد مركز البحث العلمي بمبتكراتها التركيبية التي تخيلتها.

٥ ـ يقوم مركز البحث العلمي بتدقيق وتحقيق ما يرد إليه من المصورة، ومن المتخيلة، كما يقوم بأعمال الاستنتاج والاستنباط، ووضع القواعد الكلية للجزئيات، والتحليل والتركيب، واستخلاص النظريات، وتصنيف النتائج في مراتب بحسب مستواها في موافقة الحقيقة. وأدنى هذه المراتب (الوهم): وللوهم درجات بعضها فوق بعض؛ وأعلى درجات

الوهم يليها مرتبة (**الشك**): وهو ما استوى فيه الطرفان؛ وفوق مرتبة الشك مرتبة (**الظن**): وللظن درجات يرتقي بعضها فوق بعضٍ؛ ثم تأتي مرتبة (**العلم اليقيني**): وهو ما تم فيه التحقق من مطابقة المعلوم الفكري للواقع.

ثم ما كانت مرتبته في الوهم أو الشك فإنه يُرفض من الفكر، أو يوضع في زاوية من زوايا مركز البحث العلمي؛ لإعادة البحث فيه متى توافرت دلائل جديدة عليه.

٦ ـ وأما ما كانت مرتبته في الظن الراجح أو اليقين، فينتقل إلى مركز التصنيف العلمي؛ لينتقل الظن إلى (**مركز الظن الراجح**) ويستقر فيه، ولينتقل اليقين العلمي إلى (**مركز اليقين**).

فوظيفة مركز التصنيف العلمي: انتزاع الحقائق العلمية اليقينية، وانتزاع الظنون الراجحة من مركز البحث العلمي، وتوزيع كلٍّ إلى مركزه.

٧ ـ ثم يتحول اليقين بعاملي: الاعتراف الإرادي والتسليم، والطمأنينة القلبية، إلى (**مركز الاعتقاد**).

فيقوم مركز الاعتقاد بإنارة السبيل بين يدي الإرادة (**السلطة التنفيذية**) في داخل الإنسان؛ ليرشدها إلى ما فيه النفع العاجل أو الآجل، وإلى ما فيه الضرر العاجل أو الآجل، وذلك لتصدر أوامرها ونواهيها للسلوك، متقيدة بما تَقَرَّر من حقائق لدى مركز الاعتقاد.

فوظيفة مركز الاعتقاد: تبصير الإرادة بالحقائق لتسير في سلطتها التنفيذية سيراً سويّاً؛ وذلك في كل الأمور التي توافرت فيها معتقدات راسخات.

٨ ـ وإذا لم يكن لدى الإنسان عقيدة راسخة حول أمر من الأمور العملية: الدينية أو المعاشية؛ واقتضت الضرورة أو المصلحة أن يسلك فيه طريقاً ما، صحّ للإرادة أن تتلمس الأفضل، بحسب ما توصلت إليه الأعمال الفكرية من نتائج، وأن تسترشد بما في مركز (**الظن الراجح**).

فوظيفة (**مركز الظن الراجح**): تبصير الإرادة بأفضل الوجوه التي حققها الفكر، لتسير في سلطتها التنفيذية سيراً أقرب إلى النجاح، وذلك في الأمور التي لا تتوافر فيها عقائد راسخة.

٩ ـ (**مركز الإرادة**): توجه الإرادة أوامرها ونواهيها للسلوك النفسي أو الظاهر، ومن السلوك النفسيّ التصديق بالحق أو رفض التصديق به، والتصديق بأي فكرة أو عدم التصديق بها. ومن السلوك النفسيّ النيّات، وتعتمد في أوامرها على ما قررت العقيدة أو الظن الراجح

أن فيه منفعةً عاجلة أو آجلة؛ وتعتمد في نواهيها على ما قررت العقيدة أو الظن الراجح أن فيه مضرةً عاجلة أو آجلة؛ ثم تستخدم في أمرها ونهيها بعض ما يناسب ذلك من مركز العواطف.

فوظيفة مركز الإرادة:

(أ) توجيه الأمر والنهي لتنفيذ السلوك وفق قاعدتي المنفعة والمضرة.

(ب) استخدام العواطف المناسبة في كلٍّ من أمرها ونهيها للسلوك.

١٠ ــ (مركز العواطف): يقوم مركز العواطف بمساعدة الإرادة في توجيه السلوك؛ وفق الأوامر والنواهي التي تصدرها.

وعند ذلك يتم سلوك الإنسان السوي منسجماً مع عقيدته، أو مع أسلم الطرق وأفضلها بحسب ما تَقَرَّرَ لدى مركز الظن الراجح.

ويلاحظ أن العواطف تتأثر بالوجدانيات كما تؤثر فيها، وتتأثر العواطف أيضاً بالعقائد كما تؤثر فيها. فيَجْرِي في كل ذلك تفاعل يمكن الاستفادة منه في دفع الإنسان إلى الخير، وذلك إذا سلمت قيادة الإرادة، وسلمت أعمال مراكز الفكر.

فوظيفة العواطف في وضعها السليم:

(أ) مساعدة الإرادة في توجيه السلوك وفق الأوامر والنواهي التي تصدرها.

(ب) تغذية مركز العقيدة لتكون العقائد السليمة متيقظة فعالة.

(ج) تغذية مركز الوجدانيات لتصعيد النفس من البهيمية إلى الكمال الإنساني؛ وذلك في حالة انسجامها وتفاعلها مع العقائد السليمة.

١١ ــ أما (السلوك): فتتحدد وظيفته بالقيام بواجب الإصلاح والاستقامة في الحياة؛ وتأدية أحسن العمل.

قال الله عز وجل في سورة (الملك ٦٧):

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾.

(٥)
الأحكام العقلية والأحكام العادية

الأحكام العقلية :

كل ما يتصوره الفكر لا يخلو أن يكون واحداً من الأقسام الثلاثة التالية :

القسم الأول: هو ما يقبل العقل إمكان وجوده وعدمه، ولو في حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، وضمن شروط معينة، وطبق أنظمة خاصة.

وهذا القسم يسمى : **(جائز الوجود)** أو **(ممكن الوجود عقلاً)**، لأن وجوده أو عدمه ليس واجباً في العقل ولا مستحيلاً.

القسم الثاني: هو ما يوجب العقل عدمه، ولا يجيز إمكان وجوده في أية حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، مهما تسامح في تخيل الشروط المناسبة لقبول وجوده معها.

وهذا القسم يسمى : **(مستحيل الوجود عقلاً)**.

القسم الثالث: هو ما يوجب العقل وجوده، ولا يجيز إمكان انعدامه في أية حالة من الحالات التي يتصورها الذهن، مهما تسامح في تخيل الشروط المناسبة لقبول عدمه معها.

وهذا القسم يسمى : **(واجب الوجود عقلاً)**.

الأمثلـة :

أولاً ــ أمثلة ممكن الوجود عقلاً :

١ ــ نحن البشر موجودون على سطح الأرض بشكل واقعي، ولكن العقل يرى أنه كان من الممكن ألّا نكون موجودين. فوجودنا إذن أمر ممكن عقلاً لا واجب.

كما أنه كان من الممكن أن نكون على غير هذه الصورة التي نحن عليها، أو مزوَّدين بغير الطاقات التي نحن عليها، فاتّصافنا بصفاتنا التي نحن عليها أمر ممكن عقلاً لا واجب.

٢ ــ النار محرقة أمر مشاهد في الكون، فإذا تركنا العقل يفكر ويتأمل في العلاقة بين النار والإحراق، فإنه لا يرى أي ارتباط عقلي خاص بين الإحراق وبين النار، إلّا أنه تكررت لديه في المشاهدة العادية للموجودات مشاهدة أن النار تحرق، فأثبت لها هذه الصفة من المشاهدة، وأسند الأمر إلى أن المنظم لهذا الكون أعطاها هذه الصفة.

أما العقل بذاته فلا يرى مانعاً عقلياً من أن تكون النار غير محرقة لو وجدت كذلك؛

أو أن تكون المواد التي تلامسها النار فتحرقها غير قابلة للاحتراق، وذلك لأنه لا يوجد ارتباط عقلي بين النار وبين الإحراق.

إذن: فكون النار محرقة أمر ممكن في العقل وليس بواجب.

٣ ـ الأحياء التي نشاهدها إذا ماتت لا تعود إلى الحياة بعد موتها بحسب العادة المألوفة؛ لكنّ العقل لا يمنع من أن تعود الأجساد إلى الحياة بعد موتها، ولو أننا لم نشاهد بأعيننا ميتاً رجع حيّاً، جُلُّ ما في الأمر أن العقل يوجب لعودة الحياة وجود القوة المكافئة التي تتولى هذه الإعادة.

إذن: فالعودة إلى الحياة بعد الموت أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل.

٤ ـ اجتياز الإنسان المسافات البعيدة في أقطار الأرض أو السماء بطرفة عين أمر ممكن عقلاً، ولو أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بحسب العادة، لكنّ العقل لا يمنع من أن يحصل هذا الاجتياز، إذا تهيأت الشروط الملائمة، ووجدت القوة المكافئة له. فهو إذن: أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل.

٥ ـ رفع جبل كبير وتثبيته في الجو بين السماء والأرض أمر ممكن عقلاً، ولو أننا ننكر ذلك بحسب مجرى العادات.

لكنه إذا تهيأت القوة المكافئة لرفع الجبل أمكن حدوث ذلك. فرفع الجبل أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل في حكم العقل.

٦ ـ انقلاب الجماد إلى حيوان أمر ممكن عقلاً، ولو أننا بحسب العادة المستمرة لا نشاهد جمادات تنقلب إلى حيوانات، لكن العقل يحكم بأنه متى تهيأت الشروط الملائمة لهذا التحويل أمكن حصوله.

فهو إذن: أمر ممكن عقلاً وليس بمستحيل.

٧ ـ وهكذا كل موجود ـ سوى الله تعالى ـ: فوجوده وصفاته، وكذلك انعدامه وانعدام صفاته، أمور ممكنة عقلاً وليس شيء منها ـ في حكم العقل المجرَّد ـ بواجب في العقل ولا مستحيل.

ثانياً ـ أمثلة مستحيل الوجود عقلاً:

١ ـ الشيء الواحد من جهة واحدة، وفي مكان محدد، وزمان محدد، وبصفة معينة؛ يستحيل في حكم العقل أن يكون موجوداً ومعدوماً معاً، مهما حاولنا أن نفترض الفروض

البعيدة، ونتسامح في تخيل الشروط الملائمة. فالعقل لا يقبل جواز ذلك بحال، لأن الوجود والعدم وصفان متناقضان تمام التناقض، فمتى ثبت أحدهما انتفى الآخر لا محالة، ومتى انتفى أحدهما ثبت الآخر لا محالة. وجمع المتناقضين في شيء واحد، من جهة واحدة، في مكان واحد، وزمان واحد، أمر مستحيل عقلاً.

أما إذا انفكت الجهة أو اختلف الزمان فإنه لا استحالة، وذلك لعدم افتراض جمع المتناقضين معاً.

فقد يكون الشيء الواحد موجوداً في زمان معدوماً في زمان آخر، وموجوداً في مكان منعدماً وجوده في مكان آخر، وهكذا.

٢ ــ الجزء من الشيء الواحد يستحيل عقلاً أن يكون أكبر من كل ذلك الشيء؛ لأن الكل مشتمل على جميع حدود الجزء وزيادة جزء آخر أو أجزاء أُخَر؛ فكيف يكون الشيء وحده أكبر منه مضافاً إليه شيء آخر، مع احتفاظه بحدوده دون تغيير شيء فيه؟! إنه لا يمكن أن يكون مثلاً عدد الخمسة أكثر من عدد العشرة بحال من الأحوال؛ لأن العشرة هي خمسة أضيف إليها خمسة أخرى.

٣ ــ الدجال له عين عمياء، وهذه العين العمياء يستحيل عقلاً أن تكون عمياء وأن تكون أيضاً في الوقت ذاته من الدجال نفسه بصيرة غير عمياء.

إن العقل يحكم باستحالة ذلك، لأن في القضية دعوى اجتماع نقيضين مع اتحاد الشخص صاحب العين، والعين والزمان في توارد النقيضين اللّذين متى وجد أحدهما انعدم الآخر لا محالة؛ ومتى انعدم أحدهما وجد الآخر لا محالة.

٤ ــ من القواعد الفلسفية العقلية:

(أ) **(يستحيل عقلاً اجتماع النقيضين في شيء واحد وزمان واحد)**. ولهذه القاعدة تطبيقات كثيرة.

(ب) **(ترجيح أحد المتساويين تساوياً تاماً على الآخر من غير مرجِّح مستحيل عقلاً)**. ولهذه القاعدة تطبيقات كثيرة أيضاً لا تخفى على المتأمل.

(ج) **(توقُّف وجود الشيء على وجوده نفسه، أو توقف انعدام الشيء على انعدامه نفسه، أمر مستحيل عقلاً)**.

مثال ذلك: كأن تقول: والله لا أدخل الدار حتى آخذ منك ألف درهم، ثم تقول عقب ذلك لمخاطبك نفسه: والله لا آخذ منك ألف درهم حتى أكون داخل الدار.

فقد علّقت دخول الدار على أخذك ألف درهم من مخاطبك، ثم علقت أخذ الدراهم منه على كونك داخل الدار، فأصبحت القضية مستحيلة الحل، وذلك لتوقف الشيء على نفسه.

مثال آخر: ادعى مدعٍ أن شيئاً معدوماً قد أوجد نفسه من العدم، قلنا له: هذا مستحيل عقلاً.

وذلك أنه لا يمكن أن يوجِدَ نفسه ـ حسب الادعاء ـ ما لم يكن موجوداً، لأن الإيجاد يحتاج إلى قوة موجودة، ولا يمكن أن يكون موجوداً ـ حسب الادعاء ـ حتى يوجد نفسه، فتوقّفَ وجود الشيء المعدوم على وجوده نفسه، وهذا مستحيل عقلاً.

وقد يخفى هذا التوقف في بعض صوره على بعض الناس متى كثرت الوسائط بين الشيء وبين توقفه على نفسه؛ ومن أمثلة ما كثرت فيه الوسائط: أن نفترض أربعة أشخاص هم: خالد وسعيد وأحمد ومروان، عرض عليهم أن يساهموا في مشروع خيري، فقال خالد: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له سعيد، ثم قال سعيد: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له أحمد، فابتدر أحمد وقال: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له مروان، فقال مروان بهدوء: والله لا أبذل لهذا المشروع حتى يبذل له خالد.

وهكذا توقف بذل خالد للمشروع على أن يبذل هو، وذلك بعد أن دارت القضية بالوسائط ورجعت إليه، وامتنع الكل من البذل.

وهذا ما يسمى في عرف علماء الفلسفة والمنطق (بالدور السبقي)، ويعرّفونه بتوقف الشيء على نفسه، وهو مستحيل عقلاً.

٥ ـ العقل يحكم بأن الله واحد لا شريك له وذلك بالبراهين والأدلة الكثيرة، فوجود شريك لله تعالى مكافىء له أمر مستحيل عقلاً، لا يمكن قبوله بحال من الأحوال، وسيأتي الاستدلال على ذلك في مباحث وجود الله تعالى وصفاته العليّة.

٦ ـ دفع مغالطة:

إنّ عدم القدرة على فعل المستحيل ليس عجزاً، بل المستحيل عقلاً غير صالح أصلاً لأن يوجد.

وتُطرح مغالطة حول المستحيل عقلاً وعدم تعلّق إرادة الله وقدرته به. وهذه المغالطة تقول: أيعجز ربنا تعالى عن فعل المستحيل عقلاً، وهو القادر على كلّ شيء، وهو على ما يشاء قدير؟.

ونقول: إنّ طرح مثل هذا التساؤل ليس صحيحاً أصلاً في منطق العقل، وفيما يلي بيان ذلك:

لو قلنا: إنّ الله تعالى قادر على إيجاد المستحيل عقلاً، لكان هذا المستحيل ممكن الوجود، ولسقط القول بأنه مستحيل عقلاً، لكنه مستحيل عقلاً فلا تتعلّق إرادة الله وقدرته بإيجاده.

إنّ كلّ ما هو مقدور عليه ولو من قِبَلِ قدرة الخالق، فهو غير مستحيل عقلاً، وإنّ كلّ ما هو مستحيل عقلاً فهو غير صالح لأن يوجد بحال من الأحوال، فلا تتعلق قدرةٌ ما بإيجاده.

وعدم القدرة على فعل المستحيل عقلاً ليس عجزاً في القدرة، إذ العجز هو عدم القدرة على فعل ما يمكن وجوده، أمّا ما لا يمكن عقلاً وجوده فلا تتعلّق به القدرة أصلاً، وعدم تعلّقها به هو الكمال الذي ينسجم مع حقيقة المستحيل عقلاً.

فلو قال قائل: هل يعجز ربّنا تعالى عن إيجاد المستحيل عقلاً؟

فالجواب: إنّ إيراد مثل هذا التساؤل غلط فكري ناشىء عن عدم فهم المتناقضات. وذلك لأن المستحيل عقلاً لو كان صالحاً لأن تتعلّق به قدرة الخالق فتوجده لما كان مستحيلاً، لكن المفروض أنه مستحيل، فلزم اجتماع النقيضين، وهما: ادّعاء أنّ الشيء الواحد بذاته مستحيل الوجود وهو مع ذلك غير مستحيل الوجود. إنّ هذا تناقض مرفوض عقلاً، وبالبديهة العقلية.

إنّ العجز هوعدم القدرة على فعل ما لا يستحيل في العقل وجوده، أي هو ممكن الوجود عقلاً. أمّا المستحيل فعدم القدرة على فعله لا يُسمّى عجزاً، ولا يعتبر في منطق العقل عجزاً، بل الشيء المستحيل نفسه هو الذي لا يصلح لأن تتعلّق به أيّة قدرة لإيجاده.

وأمثّل لذلك بمثال تقريبي فأقول:

إنّ كلمة (ضرب) مؤلفة من ثلاثة حروف هي: (ض ر ب). ويمكن أن نرتب هذه الحروف نفسها دون زيادة ولا نقص مع فتح حركة الحرف بعدة وجوه، وهي بالحصر الوجوه الستة التالية:

«١ ـ ضرب ٢ ـ رضب ٣ ـ برض ٤ ـ ضبر ٥ ـ ربض ٦ ـ بضر». هذه هي الوجوه المحتملة الممكنة بالحصر العقلي. إذْ كل حرف من هذه الأحرف الثلاثة قد وُجِد في هذه الاحتمالات أوّلاً، وثانياً، وثالثاً.

فإذا قال لك قائل: أوجد احتمالاً لصياغة كلمة من هذه الأحرف الثلاثة غير الكلمات التي جاءت في الحصر، وإلاّ فأنت عاجز. كان جوابك: لست عاجزاً، إذْ لا يوجد في الحقيقة

احتمال سابع يمكن أن يُوجَد حتى أوجده، إن مثل هذا الاحتمال المطلوب غير متصوّر، وغير صالح لأن يوجد، إنّه مستحيل، باعتبار أنّ الاحتمالات الممكنة قد انتهت كلّها بهذه الكلمات الستّ، وستظلّ هذه الحقيقة أزليَّة أبديّة.

والأمثلة المناظرة لهذا كثيرة.

ثالثاً ــ أمثلة واجب الوجود عقلاً:

ينحصر وجوب الوجود في الخالق جلّ وعلا وفي صفاته العليَّة.

وقد قام الدليل العقلي على أن وجود الخالق العظيم واجب، وأنه يستحيل عدمه، لأن العقل لا يجيز بحال أن يكون العدم هو الأصل ضد الوجود، إذ لو كان الأصل لاستحال أن يتحول العدم بنفسه إلى وجود، بما فيه من ذوات وصفات وقوى. وسيأتي في مباحث وجود الله تعالى الاستدلالات المنطقية والعلمية على ذلك.

الأحكام العادية:

عرّفنا الأحكام العقلية فيما سبق، وتُناظرها تماماً الأحكام العادية، إلا أننا في الأحكام العادية لا نراقب ما يحكم به العقل بشكل مستقل؛ وإنما ننظر إلى النظام القائم بحسب العادة الجارية. **فالممكن في العادة:** هو كل أمر يصح أن يوجد ويصح أن لا يوجد بحسب مجرى العادات، لأننا نشاهد وجوده مرة وعدم وجوده أخرى.

فيمكن مثلاً: أن ينزل المطر في شهر كانون ويمكن أن لا ينزل. ويمكن أن تهب الرياح العاتية في الصيف ويمكن أن لا تهب. إلى غير ذلك من أمثلة لا تحصى.

والمستحيل في العادة: هو كل أمر يخالف القانون المتبع باستمرار في نظام الكون. وكثيراً مايكون هذا الأمر المستحيل في العادة أمراً ممكناً في العقل؛ لكن النظام المستمر في الكون ــ الذي لم نلاحظ تخلفه ــ جعل هذه الأمور من المستحيلات في مألوف الناس وما اعتادوا مشاهدته باستمرار دون تخلف؛ كإحياء الموتى، وتحويل العصا حيَّة تسعى.

والواجب في العادة: هو ضد المستحيل في العادة، وهو كل موجود لم نلاحظ في العادة تخلفه؛ كآثار قانون الجاذبية، ونظام خروج النبات من الأرض، إلى غير ذلك من أنظمة لم نشاهد تخلفها.

وهذا الواجب وجوده في العادة هو من الأمور الممكنة عقلاً.

(٦)
الأسئلة الكبرى الملحّة في نفس الإنسان

ثلاثة أسئلة تلحّ على الإنسان في داخله، وتضعه أمام مشكلات ثلاث، يتطلب حلّها. فإمّا أن يعيش في قلق وحيرةٍ تجاهها، وإمّا أن يطرحها عن فكره طرحاً كلياً ويعيش في دوّامة كما تُسيّره مطالب حياته؛ وإمّا أن يظفر بحلّها حلاًّ صحيحاً يطمئن إليه قلبه، وتهدأ إليه نفسه، فيسير في حياته بهديه.

السؤال الأول: من الذي أوجدني بعد أن لم أكن شيئاً مذكوراً؟.

السؤال الثاني: ما هي الغاية التي وجدت من أجلها مزوداً بخصائص: من عقل وإرادة حرّة وغرائز وأهواء وشهوات، في حياة ذات مسالك متشعبة فيها الخير والشر؟.

السؤال الثالث: إلى أين المصير بعد عبور جسر هذه الحياة، وما هي النتائج التي تترتب على أعمالي فيها؟

وقد أعطانا الإسلام الأجوبة على هذه الأسئلة الملحة، ولفت أنظارنا إلى الأدلة العقلية والبراهين الواقعية التي تدلّ عليها، وقدم لنا الحلّ لأكبرِ المشكلات المحيِّرة للإنسان في هذه الحياة.

فأبان لنا أن الله هو الذي خلقنا مِن العدم، وقدم لنا الأدلة على ذلك من ظواهر الكون ومن أنفسنا، وعرّفنا أن الله أزلي أبدي له كل صفات الكمال، وهو منزّه عن كل صفات النقصان.

وأبان لنا أن حكمة الله اقتضت أن يخلقنا بهذه الخصائص التي منحنا إياها؛ ليمتحننا ويبلو إراداتنا في ظروف هذه الحياة، وقدَّم لنا الأدلة المنطقية على ذلك، وهي الأدلة المستندة إلى حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

وأبان لنا أن وراءهذا الامتحان حكمة الجزاء بالثواب أو بالعقاب؛ وأن الجزاءالأمثل لا يكون في ظروف هذه الحياةالدنيا، وإنما ادَّخره الله لحياة أخرى تكون بعد هذه الحياة، فإليها يكون المصير. ووضع في أيدينا الأدلة المنطقية الدالةعلى ذلك، وهي الأدلة المستندة إلى حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

وحين يجد الإنسان الجواب الصحيح على هذه الأسئلة الثلاثة، تنحلّ لديه المشكلات الكبرى في تصوراته لهذه الحياة، وتتضح له معالم الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه.

وقد يتفرع عن هذه الأسئلة الثلاثة أسئلة أخرى ــ وتأتي العقيدة الإسلامية فتجيب عليها الجواب الصحيح، المقرون بالأدلة والبراهين المنطقية ــ منها الأسئلة التالية:

١ ــ من يبلّغنا عن الله مواد امتحاننا؟ والجواب: الرسول.

٢ ــ كيف يتصل الله بالرسول؟ والجواب: بالوحي.

٣ ــ هل ينزل الله لنا بيانات تكون فينا نصوصاً ينقلها خلف عن سلف؟. والجواب: نعم ينزل كتباً هي الكتب السماوية الربانية.

إلى غير ذلك من أسئلة.

(٧)
كيف أنشأ الإسلام القاعدة الإيمانية

من الواضح أن أسس القاعدة الإيمانية في الإسلام أسس فكرية علمية منطقية؛ ولذلك فإن الطريق إلى إنشاء هذه القاعدة إنشاءً صحيحاً، يجب أن يعتمد على منطق الفكر القويم، والعلم الصحيح، وهذا ما لجأ إليه الإسلام في إنشاء قاعدته الإيمانية.

وطريقة الإقناع القرآني بعناصر القاعدة الإيمانية، هي التي هدتنا إلى هذه الحقيقة. أما خطة الإنشاء فقد بدأت بتحرير أرضية النفوس من كلّ العقائد الباطلة، التي ليس لها أساس منطقي أو علمي، وذلك بوسائل الإقناع الهادىء، والمناظرة الحكيمة الخالية من التعصب الذميم، ومن كل ظلال له، وقد اعتمد الإقناع على الوسائل المنطقية العقلية والعلمية.

وعقب تحرير النفس من جذور العقيدة أو العقائد الباطلة، تنتقل الخطة إلى غرس أوليات العقيدة الإسلامية، في أرضيَّة نفسية حرة من الشوائب، ثم يجري تعهد الغراس بالتغذية والإنماء، وبإضافة العقائد التي تشتق منها، وتلزم عنها، وبالعمل على متابعة تحرير ما تبقى في أرضية النفس العامة من كلّ عقيدة باطلة، وغرس العقائد الصحيحة في أمكنتها، وتعهدها بالتغذية والإنماء.

وكان لأسلوب التدرج أثره العظيم في كلّ مرحلة من مراحل العمل، وهو الأسلوب الذي تقتضيه سنة الإنشاء السائدة على كل شيء في هذا الكون، وهي سنة الخالق في الخلق.

وأسلوب التدرج في إنشاء القاعدة الإيمانية يكون: بالبدء بما يقع منها موقع الأساس، وهو الإيمان بالله، وبوحدانيته، وبسائر صفاته العظمى. ثم الانتقال إلى ما يلزم عن هذا

الأساس الأول من عقائد، مع التدرج في ذلك وفق التسلسل المنطقي. والوسيلة الأولى إلى كلّ ذلك إقامة البراهين، والأدلة العقلية والعلمية المستندة إلى البَدَهِيَّات المسلَّمة لدى عقول المخاطبين: كقانون السببية المسيطر على أحداث الكون، وقانون حاجة الممكن إلى مخصِّص، وحاجة الحادث إلى محدث، وحاجة ظاهرة الإتقان إلى فاعل متقن، وحاجة ظاهرة العدل والحكمة إلى عليم عادل وحكيم. . وهكذا.

وبعد هذه الوسيلة الإقناعية تأتي وسيلتا: الترغيب بالمثوبة والترهيب من العقوبة، العاجل من ذلك والآجل.

ونظرة إلى عناصر القاعدة الإيمانية تكشف لنا أن: الإيمان بربوبية الله تعالى ووحدانيته في الخلق والأمر وسائر صفات الكمال يقع في المرتبةالأولى؛ فهو بمثابة الجذر الرئيسي الأوّل.

ثم يأتي في المرتبة الثانية توحيد الألوهية ـــ أي: إفراد الله تعالى بالعبادة ـــ باعتبار أنّ هذا هو اللازم الأول لتوحيد الربوبية؛ فمن هو الرَّب الواحد ـــ أي: الخالق الرازق المالك المربي المنعم ـــ هو الذي يجب أن يُفرد وحده بالعبادة إذ لا يستحقها غيره.

ثم يأتي بعد ذلك ما يلزم عن حكمة الخالق: فمن لوازم صفة الحكمة أنه لم يخلق هذا الخلق عبثاً، وهذا يهدي العقول الحصيفة إلى أن الإنسان بخصائصه المتنوّعة (العقل والإرادة والغرائز والشهوات) في مجال مفتوح؛ له أن يفعل فيه الخير والشر، إنما خلق للابتلاء، والابتلاء يستلزم قانون الجزاء، وإلاّ خلا من الحكمة وكان عبثاً.

وبما أن الحياة الدنيا هي الزمن المخصَّص لهذا الابتلاء بكلّ ظروفها وأحداثها؛ فلا بدَّ من حياة أخرى يكون فيها الجزاء الأمثل، وهنا يبرز لنا عنصر الإيمان باليوم الآخر.

أما ما يحدث في ظروف هذه الحياة الدنيا من جزاءات معجَّلة فالغرض منها: العظة أو التذكير، أو التربية أو التطهير.

ثم إن الابتلاء الأمثل يقتضي بيانَ موادِّهِ حتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره تجاه خالقه، لذلك اقتضت حاجة الإنسان أن يرسل الله له من يبين له موادّ امتحانه في ظروف الحياة الدنيا؛ حتى لا يكون له عذر يعتذر به.

وهذا يفتح آفاق الفكر إلى قبول ركن الإيمان بالرسل.

ثم نلاحظ أن من تمام الحكمة: أن يكون مع الرسل بيانات ثابتة في نصوص منزّلة، تكون دستوراً للناس يعملون به، ويهتدون بهديه، ولو انتهت حياة الرسل.

وهذا يفتح آفاق الفكر إلى قبول ركن الإيمان بالكتب.

ويتساءل الفكر الإنساني:
كيف يرسل الخالق الذي لا تدركه الأبصار رسلاً من البشر؟

وكيف يتصل بهم؟

وهنا كان لا بد من بيان ظاهرة الوحي وحقيقتها، وبيان إمكانه، وبيان وساطة الرسل من الملائكة. وكان لا بد أيضاً من التوثق من صدق من يدّعي أنه رسول الله، فاقتضى الأمر تأييد الرسل بالآيات الدّالّات على صدقهم، وهنا تبرز لنا ظاهرة المعجزات التي يؤيِّد الله بها رسله.

وترافق كلّ ذلك تفصيلات توضح أركان القاعدة الإيمانية وعناصرَها وأجزاءها، وكل ما لا بد منه لاستكمال صورة هذه القاعدة، أو ما يحسن أن تُستكمل به.

□ □ □

الفصل الرابع

الإسلام والإيمان

إن الاسم الديني الذي يجمعنا ـ شعوباً وقبائل وأقواماً ـ في أمة واحدة؛ إنما هو الإسلام. قال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ . . . ﴿١٩﴾ ﴾.

وقال أيضاً في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وقال أيضاً في سورة (المائدة ٥):

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . . ﴿٣﴾ ﴾.

فنحن مسلمون حيث كنا، ومن أي عرق انحدرنا، وبأية لغة نطقنا.

ولهذا الاسم حقيقة تتمثل بالمبادىء التي بُني عليها الإسلام، وبالمنهاج العملي الذي رسمه، وبالهدف والغاية التي حددها.

ومتى اعتنق الفرد هذه المبادىء، وارتضى لنفسه العمل بهذا المنهاج، صح أن يطلق عليه اسم: (مسلم)، وأن يُعتبر عضواً من أعضاء هذه الأمة الإنسانية الكبرى.

وعلينا أن نتفهم معنى كلمة الإسلام، في مفهوم هذه الديانة الربانية الحقة، حتى نقارن بينه وبين الأفراد المنتسبين إليه، ونعلم من هو الذي يصح أن يُطلق عليه هذا الاسم الشريف.

معنى الإسلام:

لكل مبدأ إنساني له حظ من النظر ثلاثة أطراف:

١ ـ فلسفة علمية: تهيمن على جوانب التفكير في الإنسان، ثم تتحول إلى عقائد راسخة، فتكون هي أساس هذا المبدأ.

٢ ــ مظاهر سلوكية: ترتبط بالأسس التي هي العقائد الموجِّهة، فتوجِّه الأقوال والأفعال والعادات والتقاليد على وفقها.

٣ ــ غايات وأغراض: تكون هي الهدف المنشود من اعتناق هذا المبدأ.

والإسلام بوصفه مبدأ إنسانياً ــ بل هو مركز القمة من المبادىء الإنسانية، لأن الله قد اختاره للناس ــ لا بد أن يكون له أطراف ثلاثة وهي:

(أ) فلسفة علمية: تُكَوِّن عقيدة المسلم.

(ب) مظاهر سلوكية: على وفق عقيدته.

(ج) غايات وأغراض: ينشدها من إسلامه.

ومفردات هذه الأطراف الثلاثة هي التي تعطي صورة كاملة عن حقيقة الإسلام؛ وهي التي تُصَحِّح لمن اتصف بها أن يُطلق عليه اسم (المسلم الكامل).

أما الطرف الأول، وهو الطرف الذي يكوِّن عقيدة المسلم، فلا بد ــ كما بيّنا في مبحث (أهمية العقيدة وثبوتها) ــ من أن يسلك إلى أعماق المسلم مسالك اليقين، فعقيدة المسلم لها فلسفة علمية، على أسس منطقية صحيحة، وطرق يقينية ثابتة.

وإذا نظرنا إلى العقيدة التي ينادي بها الإسلام من خلال نصوصه، وجدناها ترتكز على أصول ستة هي: الاعتقاد بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى.

وهذه الأصول هي المعلن عنها في كثير من الآيات والأحاديث؛ ومن وراء هذه الأصول فروع كثيرة.

وهذا الطرف الاعتقادي هو ما يسمى في الاصطلاح الإسلامي: (بالإيمان). وعلى ذلك جاءت الآيات الكثيرة تستعمل لفظة الإيمان ومشتقاتها: آمن، يؤمن، مؤمن. والإيمان يساوي في المعنى ما قررناه بأنه: الطرف الاعتقادي في المسلم.

وأما الطرف الثاني، وهوالطرف الذي يُحدِّد سلوك المسلم في أقواله وأفعاله، ومعاملاته وأخلاقه، وعاداته وتقاليده وفق عقيدته. فهو الموضَّح في المنهاج الإسلامي، الذي يعطي الصورة التامة لجميع المظاهر وأنواع السلوك في الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع الإسلامي، والدولة المسلمة.

وقد رسم هذا المنهاجَ ــ بشكليه: الإجمالي والتفصيلي ــ المصدران الإسلاميان الأساسيان

وهما: القرآن والسنة، وما يلحق بهما، فمنه ما هو من قبيل الأوامر، ومنه ما هو من قبيل النواهي.

فمن الأوامر مثلاً: الأركان العملية الخمسة الهامة، المصرَّح بها في كثير من الآيات والأحاديث، ويجمعها قول الرسول ﷺ:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

ومن النواهي مثلاً: المحرَّمات المصرَّح بها في مثل قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ﴿٣﴾ ﴾.

أهلَّ لغير الله به: ذبح على اسم غير الله. الموقوذة: المقتولة ضرباً. النُّصُب: وجمعه أنصاب: وهي الأصنام.

ونلفت النظر إلى أن هذا الطرف لا بد في صحته والاعتراف به من أن يكون مرتكزاً على الطرف الأول «الطرف الاعتقادي».

فلو وجد من غير أن يرتكز على الطرف الاعتقادي: فإن عرفنا ذلك بتصريح الشخص بإنكار العقيدة الإسلامية، كُلّها أو بعضها، لم يكن عملاً إسلامياً قطعاً، ولو شاكل في الصورة العمل الإسلامي. وإن لم نعرف ذلك اعتبرناه في الصورة عملاً إسلامياً، بالنظر إلى جهلنا بالبواطن، وعدم استطاعتنا أن نشق عن القلوب، ونكتشف ما فيها من عقائد، وأما في الحقيقة: فلا يعتبر عملاً إسلامياً، أو صفةً دالة على حقيقة المسلم، لأنه فقد جوهر العقيدة، التي هي شرط في صحة العمل.

ويدلنا على هذا أن أوّل رُكن من أركان الإسلام ـ الذي هو الشهادة بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ ـ أُخذ فيه لفظ الشهادة؛ ومعنى الشهادة: قول باللسان يوافق ما في القلب. فإذا قال بلسانه: «أشهد» وليس ذلك عقيدة في قلبه، كان كاذباً، وإذا كان كاذباً بطل لفظه، وكان عند الله منافقاً.

ولذلك لمّا شهد المنافقون لمحمد بأنه رسول الله، وقلوبهم لا تعتقد ذلك، كشف الله كذبهم وكذّبهم بهذه الشهادة.

قال تعالى في سورة (المنافقون ٦٣):

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾.

وعن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفضِ الإيمان إلى قلبه: لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتّبعْ عورةَ أخيه المسلم، يتّبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه ولو في جوف رحله» رواه الترمذي[1].

ومثل الكلام في ركن الشهادة الكلام في بقية أنواع السلوك الإسلامي؛ حيث إن النية ـ بمعنى الغاية والهدف من العمل ـ شرط في كل عمل إسلامي؛ وبهذه النية يكون العمل صحيحاً مقبولاً عند الله، أو باطلاً مرفوضاً. والنية الصحيحة لا بد أن تكون مرتكزة على العقيدة؛ وقد صرح القرآن بأن أعمال الكافرين كالرماد، وكالسراب، وكالهباء المنثور، لا يقبل الله منها شيئاً. ومن ذلك قوله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾.

وأما الطرف الثالث، فهو الطرف الذي يُحدّد الغايات التي ينشدها المسلم من إسلامه، في الطرفين السابقين الاعتقادي والسلوكي.

فإذا نظرنا إلى تحديد غاية المسلم، فإنّنا نرى أن غايته تتسلسل وفق المراحل الثلاث التالية:

المرحلة الأولى: إن المسلم حينما يبحث بعقله ـ الذي هو أكرم منحةٍ فيه ـ حتى يعرف

---

(١) من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٠٤٤).

ـه من دلائل الكون، إنما يسعى لتكميل نفسه بالمعرفة، وكمال النفس بالمعرفة من أعظم أنواع السعادات. ومتى عرف الله، وعرف عظمته، وكمال صفاته، آمن بكل ما يأتيه عن الله من علوم الغيب، وتجدَّد عنده الشوق لتحقيق الغاية الثانية وهي ما في المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: السعادة ببلوغ كمال الخلق الإنساني، فيسرع المسلم ــ الذي اجتاز مرحلة البحث للمعرفة ــ بكل طاقاته لحمد الله والثناء عليه بكمالاته؛ والثناءُ: هو الاعتراف بالتعظيم بصفته. كما يسرع لشكر الله على نعمه بالعبادة؛ والشكر: هو الاعتراف العملي للمنعم بإنعامه.

ومن ثَمَّ يُذْعِن لأوامر الله ونواهيه طاعةً له، لأنه الخالق العظيم، والرب القادر على كل شيء، العادلُ في أحكامه. وبذلك تتحدد غايته من أنواع سلوكه الإسلامي، بغاية الغايات وهي ما في المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: السعادة بابتغاء مرضاة الله تعالى في كل الأمور. وفي ابتغاء المسلم الحامد الشاكر مرضاةَ الله تحقيقُ جميع صور السعادة لنفسه، وفكره، وحياته، في الدنيا دار الابتلاء، وفي الآخرة دار الجزاء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى غاية تكميل النفس وتحصيل السعادة بالمعرفة؛ بآيات الحث على النظر في آلاء الله، وصرح بأن من لم يكمل نفسه بهذا الكمال العلمي، باستخدام وسيلة النظر الذي هو العقل، فهو وفاقد العقل سواء. صرح بذلك في مثل قوله تعالى يصف الكافرين في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

كما أشار القرآن إلى غاية تكميل خلق الإنسان بتزكية نفسه، وبإبعادها عن خساسة الجحود والكنود، في مثل قوله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

زكّاها: طهرها من الذنوب بالتزام الطاعة لله. دسّاها: غمرها بمعصية الله، حتى اختفى جوهرها واستعدادُها الطيب لكمال الخلق الإنساني.

وفي الآيات التي تصف الكافر بأنّه كَنُود جاحد لنعم الله عليه، كقوله تعالى في سورة (العاديات ١٠٠):

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾.

وكقوله تعالى في سورة (عبس ٨٠):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾.

كما أشار كل من: القرآن المجيد والحديث النبوي الشريف، إلى تحديد غاية مرضاة الله في أنواع السلوك الإسلامي. فمن القرآن قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٤﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة ٢): أيضاً:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ... ۝٢٦٥﴾.

وفي ذلك تحديد للغاية من السلوك بأن تكون ابتغاء مرضاة الربّ تعالى.

ومن الحديث قوله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ وإنما لِكُلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى اللهورسوله، ومن كانت هِجْرَته لدنيا يصيبها أو امرأة يَنْكِحُها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه».

قابلية أطراف الإسلام الثلاثة للتقصير والمخالفة، أو عدم قابليتها:

إذا عرفنا هذه الأطراف الثلاثة للإسلام: (الطرف الاعتقادي، والطرف السلوكي، والطرف الذي يحدد الغاية من العقيدة والسلوك)، فنقول: هل هذه الأطراف أو بعضها قابل للتقصير والمخالفة، أو غير قابل لذلك؟

ونُجيب على ذلك إجمالاً: بأن بعضها يحتمل شيئاً من التقصير والمخالفة، من غير أن يكسر ذلك قناة الإسلام في قلب الفرد المسلم؛ وبعضها لا يحتمل شيئاً من التقصير والمخالفة بحال من الأحوال، فإذا حصلت المخالفة أو التقصير فيه، كسرت قناة الإسلام في قلبه، واعتبر في صف أهل الكفر حتى يتوب.

ونشرح هذا الإجمال بتفصيل الأمر في كل طرف على انفراد.

١ ــ **أما الطرف الاعتقادي**: فلا هوادة في شيء منه بحال، فمن أنكر شيئاً من مفرداته الثابتة بيقين لم يكن مسلماً.

ذلك لأن عقيدة الإسلام لا تقبل التجزئة والتقسيم، فمن اعتقد بها كلها، صحت

عقيدته وكان مسلماً، ومن آمن ببعضها وكفر ببعضها، عاد الجزء الذي كفر به فنقض الجزء الذي آمن به؛ لأن عقيدة الإسلام بدأت من الإيمان بالله، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بكمال صفاته، وذلك يستلزم تصديقه في ملائكته وكتبه ورسله وأخبار الغيوب التي يخبر بها؛ فمن أنكر شيئاً من ذلك فقد أنكر كمال صفات الله؛ ومن فعل ذلك لم يكن بالله عارفاً، ولم يكن به مؤمناً.

وقد أشار القرآن إلى كفر اليهود إذْ آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه. قال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

كما لا يقبل هذا الطرف الاعتقادي التنازل عن مرتبة العلم اليقيني، والاعتقاد الراسخ، في كل جزء من أجزائه الثابتة بيقين. فمن تردّد ببعض ما ثبت فيها بيقين، أو اكتفى بغلبة الظن، لم تصح عقيدته. وهذا المستوى من درجة الاعتقاد، هو ما يسمى عند علماء التوحيد: (بالتصديق) أي: بالتصديق الإرادي بأركان الإيمان، لا بمجرّد العلم بها، فعلم اليهود بأن محمّداً رسول الله لم ينفعهم، لأنهم لم يريدوا الإيمان به.

هل الإيمان يزيد وينقص؟

وهنا يتساءل البعض فيقول: هل درجة الاعتقاد هذه تقبل الزيادة أو لا؟ ويعبّرون عن هذا المعنى بعبارة: (هل يزيد الإيمان وينقص)؟

وللإجابة على هذا التساؤل نحتاج إلى تقديم مقدمة؛ فنقول:

إنّنا نعلم مثلاً بوجود أشياء كثيرة عن طريق الاستنتاج العقلي؛ ونعتقد بها اعتقاداً راسخاً، ومع ذلك فإننا نجد أنفسنا تزداد اطمئناناً كلّما ورد علينا برهان جديد؛ يؤكد لنا نفس ما نعتقد به، ونعلم أن هذا البرهان الجديد لم يفدنا علماً جديداً، ولكن زاد طمأنينتنا بكون ما نعتقد به حقاً لا شبهة فيه، كما أنه زاد في وثوقنا بالأدلة السابقة، التي أفادتنا الاعتقاد بتلك الأشياء.

ثم إذا استطعنا أن نحصل على المشاهدة الحسيّة، وأضفنا دليل المشاهدة إلى دلائل

الاستنتاج العقلي، فإننا نرى أنفسنا ونحن نشعر بنهاية الطمأنينة، وبلوغ غاية ما يمكن أن نتساءل عنه، أو نبحث فيه.

ونستطيع أن نقول بعد هذا: إن هذه المراتب التي تَرَقَّيْنا فيها لم تفدنا اعتقاداً جديداً، وإنما كبّرت في أنفسنا صورة الاعتقاد السابق.

ولنا أن نمثل العقيدة الجديدة الراسخة في أنفسنا بالمولود الجديد، فالمولود الجديد يكبُر جسمه على مرِّ الأيام بسبب التغذية، ويصبح قادراً على الحركة، والعمل والإنتاج، كما يكبُرُ فكره بالتربية والتعليم، مع أنه لم يزد بكبره عيناً ولا يداً، أو أي عضو من الأعضاء.

ومثل ذلك العقيدة الجديدة الراسخة ـ كعقيدة الإيمان بالله تعالى ـ تولد في قلوبنا تامة الأعضاء والأركان كالوليد الجديد، ثم بمرور الزمن وتوارد الشواهد في حياتنا، وبتتابع التغذية بالأعمال الصالحة، والمراقبة لله تعالى، تنمو هذه العقيدة وتكبرُ في نفوسنا، حتى تصل بنا إلى مراتب الشهود، حتّى لو كشف الغطاء لم يزد يقيننا، وكلما كبرت عقيدتنا ونمت في نفوسنا، زاد تأثيرها في سلوكنا، وزاد إنتاجها في حياتنا، وزاد إسعادها لنا.

وبالمقابل: إذا حرمناها من التغذية، وغشّينا عليها بالمعصية، تضاءلت حتى تعود كيوم ولدت، عقيدة صحيحة مقبولة، ولكنها غير فعالة ولا منتجة، وقد يأتيها عارض من عوارض الشكوك الوهمية، والأمراض الشهوانية فيميتها.

وبهذا المفهوم وفي حدود هذه القيود التي قدّمناها نرى: أن الإيمان يزيد وينقص، تزيده الطاعات، وتَنقصُه المعاصي. ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى في وصف المؤمنين في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾.

كما يشهد له قول سيدنا إبراهيم عليه السلام لربه كما جاء في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

صُرْهُنَّ: صار الشيء يصيره، إذا أماله إليه وكذا إذا قطعه، فمعنى صرهن: أي أَمِلْهُنَّ إليك وقطعهن واخلط لحمهن وريشهن.

فإنّ إبراهيم عليه السلام زادَ قلبُه اطمئناناً بسبب المشاهدة الحسيَّة لإحياء الموتى، دون أن يزيد عقيدةً جديدة، أو يزيدَ في نفس العقيدة شيئاً غير الاطمئنان والوضوح والنمو.

٢ ــ وأما الطرف السلوكي فهو نوعان:

(أ) **النوع الأول**: ما يرتبط بالإقرار عن الجانب الاعتقادي. وحكمُه حكمُ العقيدة نفسها، لا هوادة فيه، إلا في حالات نادرة يعذر صاحبها بها:

كمن عاجله الموت قبل أن يُقِرّ بلسانه، وهو مذعن بقلبه ويُرِيد الإقرار بلسانه، وليس عنده مانع نفسي منه.

وكمن أُكره على لفظ الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان.

قال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

أما من لم يكن له عذر، ولم يقرَّ بلسانه، فإنه يظلُّ على الكفر ــ وإن عرف في قلبه العقيدة الحقة ــ لأنه لم يمنعه من الإقرار مع علمه بالحق إلا العناد، أو الخوف على بعض منافع دنيوية بزعمه.

(ب) **النوع الثاني**: ما يرتبط بفعل الواجبات، وترك المحرمات.

والتقصير أو المخالفة في هذا النوع، مع اعتقاد الوجوب بالنسبة إلى الواجب، والتحريم بالنسبة إلى المحرّم، من غير جحود ولا إنكار، لا يخرج عن الإسلام، ولكن يوقع بالفسوق والعصيان.

وهنا تتفاوت مراتب المسلمين بحسب طاعاتهم ومعاصيهم: فمنهم سابق بالخيرات بإذن الله: وهم الذين يؤدون الواجبات والمستحبات، ويتركون المحرمات والمكروهات. ومنهم

مقتصد: وهم الذين يؤدون الواجبات ويتركون المحرمات، ولكن يقتصدون في فعل المستحبّات وترك المكروهات. ومنهم ظالم لنفسه: وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ويشهد لهذا التقسيم قول الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات﴾ قال: «كلهم في الجنة»[1].

وأوضح القرآن الظالمين لأنفسهم من أمة محمد ﷺ بقوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

والتقسيم الذي جاء في سورة الواقعة هو للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم:

فالسابقون: هم المقربون، ثُلّة من الأولين وقليل من الآخرين.

وأصحاب الميمنة (اليمين): هم قسما المقتصدين والظالمين لأنفسهم، وهم ثُلة من الأولين وثلة من الآخرين.

وأصحاب المشأمة (الشمال): هم البقية الباقية الكافرة. ولا يخفى أن كل صنف من هذه الأصناف فيه فئات تتفاوت درجاتهم؛ ويتفاضلون فيما بينهم، على قدر أعمالهم، والمنح الإلّهية لهم، أو تتنازل دركاتهم بحسب أعمالهم وخذلان الله لهم.

ويشهد للتفاضل قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٢٥٣﴾﴾.

ويكون الارتقاء في دار النعيم بحسب الدرجة التي نالها من كان من السابقين، أو من أهل اليمين. ويكون تنازل دركات أهل العذاب بحسب جرائمهم وإساءاتهم ومعاصيهم.

---

(١) مشكاة المصابيح: رقم ٢٣٨٠، وقد رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور.

٣ ـ وأما طرف الغاية من الاعتقاد والسلوك فهو نوعان أيضاً:

(أ) النوع الأول: ما يوقع بالكفر لأنه يؤثّر على العقيدة. كقصد عبادة غير الله مع عبادة الله، وهذا شرك.

(ب) النوع الثاني: ما يحبط العمل ولا يكسر قناة العقيدة. كأن يقصد بفعل عبادة الله تعالى مثلاً غير وجه الله من الأغراض الدنيوية؛ التي يمكن أن تتحقق للفرد عن هذا الطريق، وهذا ما يسمى بالرياء.

ويجمل بنا ـ بعد أن أوضحنا أطراف الإسلام الثلاثة ـ أن نشبه الإسلام بالشجرة؛ فاسم الشجرة يطلق على جميع أجزائها: من جذورها، إلى ساقها، إلى فروعها الكبرى فالصغرى، ثم إلى أوراقها وإلى ثمارها وإلى الماء الساري فيها.

١ ـ فالجذور المتغلغلة في الأرض والواقعة تحت سطحها: تشبه الإيمان الذي يتغلغل في القلب، دون أن نستطيع الاطلاع عليه، وكشفه بيقين.

٢ ـ وما يظهر من الشجرة على سطح الأرض: يشبه الأعمال التي يعملها المسلم، بوصفها أثراً من آثار الإيمان المتغلغل في قلبه.

٣ ـ والساق المتصل بالجذور الملاصق لسطح الأرض: يشبه إعلان الشهادتين نظراً لاعتماد سائر ما يظهر من الشجرة عليه.

٤ ـ والفروع الكبرى في الشجرة: تشبه بقية أركان الإسلام الأساسية، وواجباته الحتمية.

٥ ـ والفروع الصغيرة المتشعبة وما حولها من أوراق: تشبه سائر أحكام الإسلام، وتعاليمه وأخلاقه، وآدابه ورقائقه.

٦ ـ والماء الساري في جميع أجزاء الشجرة من جذورها حتى فروعها الكبرى فالصغرى فالأوراق: يشبه النية التي يلاحظها المسلم دائماً، والسارية في كل عمل يعمله، سواء كان من الأعمال القلبية، أو من الأعمال الظاهرة.

٧ ـ والأزهار والثمار والأُكُل التي تؤتيها الشجرة كل حين بإذن ربها: تشبه الغايات التي سيحصل عليها المسلم لا محالة، وهي التي يهدف إليها في عقيدته وسلوكه ونيته في أعماله.

٨ ـ وكل شجرة لا جذور لها، لا حقيقة لحياتها، ولا ثمرة لها، وما هي إلّا صورة من

الصور، ورسم من الرسوم، وكل عرق وفرع لا يسري فيه ماء الشجرة، لا يمكن أن يكـون له نضرة ولا ثمر، وكذلك شجرة الإسلام في ذات المسلم.

٩ ــ قد تتعرض الشجرة للأعاصير والرياح، ولكن الشجرة الراسخة لا تزيدها الأعاصير والرياح إلا نمواً ورسوخاً؛ وكذلك شجرة الإسلام الراسـخ في القلب، لا تزيدها الريـاح الهوج إلَّا رسوخاً وإيماناً.

أما الأشجار الضعيفة في جذورها، المقلقلة في أصولها، الذابلة في فروعها، فأحرِ بهـا أن تحملها الرياح والأعاصير، وتُلْقِي بها في مكان سحيق.

١٠ ــ إن جذور الشجرة تنقل الغذاء من الأرض للشجرة، فتنمو هي وتنمّي شجرتها، وفــروع الشجـرة وأوراقهــا تمتص الغــذاء من الشمس والهــواء، فتعــود بــه حتى الجــذور فتغذيها وتنميها.

وكذلك شجرة الإسلام: فإن جذورهـا التي تمثل عقيـدة المسلم تُغذِّي سلوكـه وتقوِّمـه، على وفق المنهج المـرسوم في الإسـلام، ومثل ذلـك الأعمال الصـالحة الـظاهرة، والانخـراط في سلك الصالحين، يمنـح العقيدة طمأنينة وغذاءً، ويكسبها قوة ونماءً.

وبعد أن عرفنا الإسلام بأطرافه الثلاثةالتي شرحناها آنفاً، نتساءل فنقول:

هل لفظتا الإسلام والإيمان خاصتان بديننا الذي هو خاتمة الرسالات السماوية أم لا؟

بالرجـوع إلى النصوص القـرآنية والنبـوية، نـلاحظ أن الأديان السمـاوية كلُّهـا بحسب أصولها متفقة في جوهرها، وفي دعوتها إلى الخضـوع لله، والاستسلام لأحكـامه، وتشـريعاتـه، ويصـح فيها جميعاً أن نسميهـا (بالإسـلام)، وأن نسمي عقائـدها (بـالإيمان)، وفق اسم ديننـا الذي هو خاتمة الـرسالات السمـاوية، والنـاسـخ للعمل بمنـاهج الـرسالات الـربّانيـة السابقـة فيما جاء تعديل له أو تبديل.

وإنما ذلك بحسب أصولها المنزلة على الرسل، لا بحسب تحريفـاتها وتغييـراتها وأوضـاعها بعـد بعثة محمـد صلوات الله عليه؛ وإن أخـذت هذه الـديانـات السابقـة ــ بحسب اصطلاح الأتباع ــ أسماء أخرى كاليهودية والنصرانية.

ويشهد لهذا المعنى، ما نراه في القرآن الكريم من التصريـح بأن الـرسل السـابقين كـانوا يَدْعون أتباعهم إلى الإسلام؛ ويأمرونهم بالإيمان، فمن ذلك:

١ ــ قوله تعالى ــ حكايةً عن قول موسى لقومه ــ في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

٢ ـ وقوله تعالى ـ عن الحواريين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ـ في سورة (المائدة ٥):

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

٣ ـ كتب سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ كتاباً، وأرسله مع الهدهد، وفيه كما قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ولما وصلت ملكة سبأ إلى سليمان ودخلت الصَّرْح قالت كما في سورة (النمل ٢٧):

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

٤ ـ يوسف عليه السلام قال ـ كما حكى الله عنه ـ في سورة (يوسف ١٢):

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

٥ ـ إبراهيم عليه السلام ـ وهو الأب الأعلى لشطرين من سلالة الأنبياء: الشطر الذي تسلسل من ولده إسحق في بني إسرائيل؛ والشطر الذي كمن في العرب من ولده إسماعيل، حتى ظهر في محمد خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ قال الله في اسم ديانته في سورة (آل عمران ٣):

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

وقال تعالى أيضاً ـ ينسب الملة الحنيفية إليه، كما ينسب إليه تسميتنا بالمسلمين ـ في سورة (الحج ٢٢):

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

المعنى اللغوي للفظتي الإسلام والإيمان:

الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد، وهو مصدر أسلمَ يُسلِم فهو مُسلِم. وبين هذا المعنى، وبين المعنى الشرعي الذي سبق شرحه مناسبة ظاهرة؛ لأن الإسلام في الشرع ـ كما قدمنا ـ: هو الاستسلام والانقياد لله تعالى ظاهراً وباطناً.

الإيمان: هو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن.

قال في لسان العرب: اتفق أهل العلم من اللُّغويين وغيرهم على أن الإيمان معناه التصديق.

وبين هذا المعنى اللغوي، وبين المعنى الشرعي الذي سبق إيضاحه لكلمة الإيمان مناسبة ظاهرة؛ لأن الإيمان في الشرع ـ كما أوضحنا ـ: هو التصديق في القلب لكل ما جاء به رسول الله ﷺ، والاعتراف الإراديّ بكلّ ذلك.

تلخيص عـــام:

ونستطيع أن نلخص هذه البحوث التي عالجناها بإيضاح، تحت عنوان (الإسلام والإيمان) بما يلي:

١ ـ الإسلام: اسم لهذه الديانة الربّانية في طرفها الاعتقادي، وطرفها السلوكي، وطرفها الذي يُحدِّد غايةَ المسلم، فهو اسم عام.

٢ ـ الإيمان: يطلق على الجانب الاعتقادي من أطراف الإسلام؛ ولذلك نرى النصوص القرآنية حينما تذكر الإيمان تعلّقه بالقلب؛ وتضيفُه إلى ما يأخذ الصبغة العلميّة الاعتقادية.

كقول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴿٢٢﴾﴾.

وكقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴿٢٨٥﴾﴾.

وقد يطلق الإيمان على خصال الإسلام كلّها، باعتبارها من آثاره ومظاهره في السلوك.

٣ ـ لا يعتبر الإسلام إسلاماً صحيحاً عند الله ما لم يكن أثراً من آثار الإيمان القلبي؛ وما لم يكن مصحوباً بالنية التي تُصَحِّح العمل، والنيةُ الصحيحة من جواهر الإيمان، إذْ هي حركة إرادية داخليّة توجّهها القاعدة الإيمانية.

٤ ـ قد توجد صورة أعمال تحاكي أفعال المسلمين، ولكن لا تكون نابعةً عن إيمان

صحيح، فلا تعتبر هذه الأعمال في الحقيقة إسلاماً، وقد ينخدع الناظر إليها فيسميها إسلاماً، بمقتضى التشاكل بينها وبين الإسلام. على أنّنا في الأحكام الإسلامية إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، فمن أعلن الإسلام من غير إيمان فهو منافق.

٥ ــ الإيمان الصادق الراسخ في القلب لا بدّ أن يوجّه السلوك ويحرِّك العواطف؛ فيظهر له آثار عملية إذا سنحت الفرصة لذلك.

٦ ــ قد يوجد إيمان صحيح ولكن لا تسنح الفرصة للقيام بأي عمل ظاهري إسلامي؛ أو يخشى صاحبه من إظهاره على حياته، فيضعف عن إظهاره، فيكون إيماناً مقبولاً عند الله، لأن صاحبه مذعن به داخلياً، ولم يمنعه من إظهاره عناد ولا مخالفة.

٧ ــ قد يوجد علم بحقيقة المعتقدات الإسلامية، ولكن يصاحب ذلك إنكار، وصاحب هذا كافر، بل هو أشد من الكافر الجاهل، لأنه عرف وانحرف.

٨ ــ المطلوب في العقيدة لا يقبل النقصان، ومتى نقص حصل الكفر، والعقيدة كُلٌّ لا يقبل التجزئة، فمن أنكر بعضها كمن أنكرها كلها يعتبر كافراً.

٩ ــ الإيمان يزيد نمواً وكبراً حتى يصل إلى مرتبة الشهود بالطاعة والمراقبة، وينقص ذبولاً وهزالاً حتى يعود إلى مرتبة البدء بالمعصية والغفلة. ولكنّه لا يزيد إذا زاد جزءاً لم يكن من قبل، ولا ينقص إذا نقص جزءاً مطلوباً في الإيمان، فإذا نقص جزءاً مطلوباً بطل الإيمان أصلاً، كما هو موضح في الفقرة السابقة.

١٠ ــ مَثَلُ الإيمان والإسلام كمثل الشجرة وجذورها.

فالإسلام كلٌّ، والإيمان جزء منه، ولكن هذا الجزء هو الأصل في هذا الكل، ولكل منهما أثر في الآخر.

١١ ــ الإسلام اسم عام للأديان السماوية كلّها بحسب أصولها الصحيحة.

١٢ ــ ينقسم المسلمون إلى ثلاثة أقسام:

(أ) سابقون في الخيرات: وهم المقرَّبون.

(ب) ومقتصدون.

(ج) وظالمون لأنفسهم.

• • •

الباب الثاني

في الإلهيات

الفصل الأول : الإيمان بالله تعالى.

الفصل الثاني : صفات الله سبحانه، وأسماؤه الحسنى، ولواحقها.

الفصل الثالث : لا حكم إلا لله.

الفصل الأول

الإيمان بالله تعالى [1]

١ ــ وجود الخالق حقيقة ثابتة، والشعور به أمر فطري في الأنفس:

أول شعور يشرق في أعماق الإنسان، إذا تأمل في نفسه وفي الكون من حوله، شعوره

---

(١) ملاحظتان حول بعض ما جاء في هذا الفصل ينبغي لفت النظر إليهما:

الملاحظة الأولى: يجد القارىء في هذا الفصل لدى الاستدلال على وجود الله عزّ وجلّ استخدام ألفاظ وتعبيرات عن مفاهيم لا بُدَّ أن يبدأ بها الباحث المستَدِلّ، لينتقل منها إلى إثبات وجود الله عزّ وجلّ، مثل: «القوّة الكبرى المهيمنة ــ السبب ــ سبب الأسباب ــ العلّة ــ الشيء ــ واجب الوجود ــ ونحو ذلك» ومتى وصل إلى إثبات وجود الله عزّ وجلّ سقطت تلك العبارات والمفاهيم والألفاظ، ووجب عندئذٍ إطلاق أسماء الله الحسنى، وصفاته المأذون بإطلاقها عليه.

وأمّا تلك الألفاظ والتعبيرات والمفاهيم فلم تكن أكثر من جسور أو مركبات لفظية أو فكريّة لاجتياز مسافة المراحل الاستدلالية للوصول إلى الإثبات المقصود.

واستخدام هذه الألفاظ والتعبيرات والمفاهيم قد جرى على وفق الأسلوب القرآني الذي علّمنا الله إيّاه في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون﴾ فأطلق لفظ شيء للتوصل منه إلى إثبات الخالق عزّ وجلّ.

إنّ هذا الاستخدام الاستدلاليّ جائز بلا شبهة، لكن يجب بعد الوصول إلى إثبات وجود الله التقيُّد بما يجوز إطلاقه على الله عزّ وجلّ من أسماء وصفات.

الملاحظة الثانية: يجد القارىء في الأقوال المنقولة عن علماء الكون والطبيعة حول قضيّة الإيمان بوجود الله بعض تعبيرات ومفاهيم لا يصحّ إطلاقها على الله عزّ وجلّ بحسب ما استقرّ لدى علماء العقيدة الإسلامية.

وقد جاء إيرادها كما هي في أقوالهم بحسب مفاهيمهم لإثبات أن الفكر الإنساني المنصف لا بدّ أن تهديه نظراته في نفسه وفي الكون من حوله إلى الإيمان بوجود الله عزّ وجلّ، ولو أخطأ في فهم ذات الله وصفاته.

بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون، تمنحه التدبير والتنظيم، وتتصرف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، والتغير والتطور، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغييرات الحكيمة التي تجري فيه.

إن الإنسان ليشعر بهذه الحقيقة، ويؤمن بها إيماناً عميقاً، سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهاني على صدق هذا الشعور، أو لم يستطع، فدليل الفطرة، ودليل البداهة، شاهد حق يسبق الشواهد النظرية، وقد يكون أدق منها وأصدق.

وحسب الإنسان في إيمانه واعتقاده بشيء ما أن يوافق شعورُه الفطري في عمق وجدانه، وإحساسُه البَدَهي، النتائجَ النظرية التي يتوصل إليها الباحثون من علماء وفلاسفة، أو أن يتفق شعوره وإحساسه، مع الشعور والإحساس الصادق للكثرة الكاثرة من المجموعة الإنسانية.

بل ربما يقال: إن سلامة الفطرة الوجدانية، وصفاء الإحساس الخفي، من أهم الوسائل الأساسية في شعور الإنسان بكثير من البديهيات؛ واكتسابه كثيراً من المعارف الحقة، التي يعرفها الإنسان في أطوار حياته، وهذا ما أسميناه في مبحث «أهمية العقيدة وثبوتها»: (بمسلك الإضاءة الفطرية والإشراق الروحي).

وإذا قلنا: إن الشعور الفطري الوجداني في الإنسان بوجود قوة كبرى، مهيمنة على الكون خالقة عليمة حكيمة، من الدلائل الصادقة على وجود الخالق، فلنا على ذلك أمثلة كثيرة من واقع حياة الإنسان في تكوينه الفطري، حيث يوافق شعوره الفطري الوجداني ما هو كائن فعلاً، أو ما يجب أن يكون، بشكل لا يقبل الزيادة عليه، أو النقصان منه، بأي مقدار قلّ أو كثر، مهما تقدمت البحوث العلمية، والكشوف التجريبية.

إن كثيراً من علومنا ومعارفنا، ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري الوجدانيّ بها، ومهما تقدمت العلوم والمكتشفات، فإنها لا تزيدنا عنها شيئاً غير ما توصلنا إليه بفطرتنا.

= لكنه بعد أن يؤمن به فإنّه يجب عليه أن يستكمل المفاهيم كما جاءت في نصوص الدين، وأن يتقيّد بها، وأن يتقيّد أيضاً بالتعبيرات والألفاظ المأذون بها وفق مفاهيم نصوص الدين الثابتة.

فمن أمثلة ذلك:

انسياق الطفل الحديث الولادة بفطرته الأولى إلى ارتضاع ثـدي أمه، دون أن يتعلم ذلـك من معلم، ودون أن يدركه بدليل عقلي، أو حسٍّ ظاهر.

والأم تشعر بعاطفة الأمومة، سواء علمت أن السرّ في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية حتى يصبـح قادراً على الاستقلال بنفسه، أو لم تعلم.

كما أننا جميعاً مسوقون بإحساس الفطرة والغريزة إلى مطالب عيشنا، ولو لم ندرك الغرض من وراءهذا الإحساس.

إننا نحس بالجوع فنأكل، سواء علمنـا أن الأكل وسيلة من وسـائل حيـاتنا، أو لم نعلم. ونحس بالبرد فنتخذ الوقاية منه، سواء عـرفنا أن البرد عامل من عوامل الهدم في بناء جسدنا، أو لم نعرف.

ونحس بـالشهوة للحمـوض مثلاً، دون أن نعلم بـأنها ضروريـة لجسمنا، لتحلل المـواد الكلسية وغيرها من المعادن في الأطعمة، كي تتمثل في أجسامنا تمثلاً صحيحاً.

ونشعر بوجود روح فينا (أو سر حياتنا)، فنـدافـع عنها، ونحـرص على بقـائها، دون أن نحس بها بإحدى حواسنـا الظاهـرة، وقد لا يستـطيـع الكثير من النـاس أن يقيم البرهـان على وجودها، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها، ويعتقد بوجودها.

ثم ألسنـا نشعـر في داخلنـا بـالعـواطف والـوجـدانيـات: كـالحب والـبغض، والرغبة والكراهية؟!

فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في ذواتنا؟!

هل نستطيـع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها، وهي حق لا شك فيه؟!

إننا نشعر بالشهوة، ونشعر بالألم، فهل نستطيـع أن نثبت ذلكْ بأكثر من أننا نشعر به؟!

إن الشعور بها دليل على وجودها، ولكن كيف هي موجودة؟ هنا نحاول أن نبحث!

هذه بعض أمثلة، وهناك أمثلة أخرى غيرها لا تكاد تستقصى.

ومما لا شك فيه أن هذه الفِطَر، وهذه الإحساسات العميقة فينا، لم توجد فينا عبثاً، بل هي فطر صادقة موافقة للواقع الكوني، وموافقة لحاجاتنا. ومهما تقدم العلم فلن يستطيع الغض من أمر هذه الفطر، ولن يستطيع إهمالها أو الاستعاضة عنها إلا قليلاً، ما لم تكن الفطرة في الإنسان شاذة أو مريضة، والمريض الشاذ يجب علاجه.

ومن هذه الإحساسات الفطرية الصادقة فينا، إحساس الإنسان بوجود الخالق، وتلهفه دائماً لمعونته وإمداداته، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير ــ في نظامه وإتقانه، وما فيه من إبداع، وحياة وموت ــ إلى قدرته وعلمه وحكمته سبحانه.

إنه شعور فطري تشترك بالإحساس به جميع الخلائق المدركة؛ على اختلاف نزعاتها، ومستويات ثقافاتها: في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي منتديات المثقفين، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات.

إنه شعور مشترك بين جميع الناس: يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي، والإنسان المتحضر، والجاهل والعالم، والباحث والفيلسوف، والعبقري والمِفَنّ، والخبير في المعمل. كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق، أن القوة القابضة على ناصية كل شيء، العالمة بكل شيء، الحكيمة المريدة، لا شك فيها.

هذه هي صبغة الله في كل مخلوق مُدْرِك، وفطرته التي فطر الناس عليها. وفي الإشارة إلى هذه الحقيقة عن الله، قال الله تعالى في القرآن الكريم ــ حكاية عن الرسل ــ في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠﴾ ﴾.

وإعلاناً عن هذه الفطرة الوجدانية القائمة في الأنفس المدركة، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

إنها فطرة لا تنطمس إلّا في نفسِ مَنْ بالغ في الانحراف من الناس بدافع غير أخلاقي؛ ليرضي شيئاً في نفسه، فغشّى على مرآة فطرته الصافية، وشد عصائب الجهل والعناد على حسّه المضيء. وهكذا فقد تُظْلِم مرآة الفطرة في الإنسان، بدخان نار الشهوات، وبعض الغرائز النفسية العاتية المستكبرة، أو بسُحُب الشكوك المادية، فتختفي عنها بعض الحقائق الظاهرة في الكون.

وعند ذلك تدعو الضرورة إلى إقامة الأدلة النظرية، ليُزَال بها عن طريق العقل الظاهر، ما غُشِّي على مرآة الفطرة بظلمات الشهوات، والغرائز النفسية، والشكوك المادية. ونستطيع أن نُسمّي هذه العوارض الطارئة على مرآة الفطرة بـ: (أمراض الحاسة الفطرية الوجدانية).

٢ ـ العلم يوصل إلى الإيمان بالله، ثم إلى الإسلام بكل عقائده ومبادئه:

وإذا تركنا الفطرة ودليلَها، كان البحث العلمي ـ بما فيه من استدلال نظري، واختبار وتجربة في المادة وأسرارها وكوامنها ـ هو سبيلنا للتعرف على حقيقة وجود الخالق جل وعلا.

الحقيقة لا تخشى البحث:

إن البحث العلمي المتجرد عن الهوى والتعصب المذموم والعناد؛ لا بد أن يصل بالباحث إلى الإيمان بالله تعالى، وبصفاته الجليلة، وإلى كلّ مبدأ قرره الإسلام، وعلمنا به بطريق قاطع.

ولذا فإننا نرى أن الإسلام دفع الناس إلى العلم والمعرفة بإلزام وإلحاح، وقذف بهم إلى دق أبواب المعارف المغلقة، بكل وسيلة معقولة مقبولة، وبكل جرأة وشجاعة وتصميم. وحثّ كل فكر على البحث والتأمل والنظر، للوصول إلى المعرفة الحقة، ولم يجعل على العقول حجاباً ساتراً، لأنه لا يخشى على عقائده ومبادئه من أي بحث علمي سليم؛ ولأنه على يقين من أن البحث العلمي السليم، والتأمل والنظر السديدين البريئين من الهوى والتعصب الذميم، لا بد أن توصل أصحابها إلى النتائج نفسها التي قرَّرها الإسلام، ودعا إليها، ونادى بها في عقائده ومبادئه. فهو مطمئن من جهة أي بحث علمي يهدف إلى الحقيقة مهما كان نوعه؛ شريطة أن يكون منصفاً، بعيداً عن الهوى والتعصب الذميم، وذلك وفق القاعدة المشهورة بين العلماء: (إن الحقيقة لا تخشى البحث).

الصداقة بين الإسلام وبين البحث العلمي:

وهذا ما يجعلنا نرى الصداقة تامة بين الإسلام وبين البحث العلمي المتجرد المنصف؛ وأنه ليس بينهما أي تنافر أو اختلاف.

وحينما نلاحظ ـ في الظاهر ـ نوعاً من التخالف، بين بعض القضايا المقررة في علوم الإسلام، وبعض القضايا الأخرى المقررة فيما توصل إليه البحث العلمي، فذلك لا يعدو أحد ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إما لأن البحث العلمي لم يصل إلى مرحلة الحقيقة المقطوع بها في الموضوع الذي يخالف ما هو مقرر في علوم الإسلام؛ وعند ذلك نُسكت الدعوى الناطقة بأن هذا المخالف لما هو مقرر في الإسلام حقيقة علمية مقطوع بها؛ ونقول للبحث العلمي: تابع بحثك لتصل إلى الحقيقة، وستجد نفسك بين يدي الحقيقة المقررة في الإسلام.

الأمر الثاني: وإما لأن المنقول عن الدين الإسلامي ليس منقولاً نقلاً صحيحاً صادقاً؛ وفق المنهج المعتبر علمياً في نقل النصوص، وقد سبق بيان منهج الإسلام في تحقيق ثبوت النص.

الأمر الثالث: وإما لأنه وقع خطأ في تفسير النص الديني المقطوع به من قبل بعض المجتهدين؛ ومعلوم أن الحقائق الدينية الاعتقادية ليست مُلْزَمة بالنتائج المخطئة التي يتوصل إليها ذوو الرأي والاجتهاد والتفسير؛ حسب آرائهم واجتهاداتهم وتفسيراتهم غير اليقينية، ولا بدَّ أن نقول هذه الحقيقة بشجاعة.

أما الحقائق المقطوع بها في الدين، والنتائج التي يتوصل إليها العلم بطرقه اليقينية القاطعة، فإن بينهما تمام التوافق، ولا بد أن يلتقيا على نقطة من الحقيقة واحدة، ذلك لأن الحق لا يتعدد قطعاً في الأمور الاعتقادية، ولا في الكائنات الثابتة.

ومن الخطأ الكبير مقاومة البحث العلمي الإنساني، بل هو مخالف مخالفة صريحة للدعوة القرآنية إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء. ومن المكابرة التي لا يرضاها الإسلام بحال من الأحوال رفض الحقائق العلمية، لأنّها تخالف اجتهاداً لعالم من علماء المسلمين، وهذا الاجتهاد لا يحمل الإسلامُ مسؤوليّته، ولكنّ تبعة الخطأ فيه تكون على صاحب الاجتهاد نفسه.

ولمّا قام بعض من ينتسبون إلى مناصرة العلوم الدينية، واجتهادات العلماء فيها، ضدّ النظريات العلمية حول الكسوف والخسوف وغيرها، نهض الإمام الغزالي لتصحيح منهجهم في ذلك، فقال في كتابه (تهافت الفلاسفة):

«ومن ظنَّ أنَّ المناظرة في إبطال هذا من الدين، فقد جنى على الدين وضعَّف أمره، فإن هذه الأمورتقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة. فمن يطَّلع عليها ويتحقق أدلّتها إذا قيل له: إنَّ هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيه، وإنما يستريب في الشرع، وضرر الشرع ممّن ينصره لا بطريقه، أكثر من ضرره ممّن يطعن فيه، وهو كما قيل: عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل» ا. هـ. (١).

سعة صدر الإسلام للنقاش المنصف البريء:

ولما كانت عقيدة الإسلام ومبادئه في جانب الحقيقة، فإننا نرى الإسلام واسع الصدر لكل نقاش منصف بريء من الهوى والتعصب، يتقبل أيَّ نقاش متجرد يهدف إلى الحقيقة، كما يتقبل كل تأمل ونظر ومقارنة.

ولذا فقد طلب من المسلمين أن يكونوا في نقاشهم وجدالهم بالحق متحلّين بسعة الصدر؛ ورحابة النقاش، وعلَّمهم ما يلي:

أولاً: أن يبحثوا بتجرد ويقولوا للخصوم كما جاء في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثانياً: أن يجادلوا بالتي هي أحسن إذا ألجأهم الأمر إلى الجدل.

قال تعالى يعلِّم رسوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

وذم الجهلة الذين يجادلون بالباطل من غير علم. قال تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ﴾.

البحث العلمي يوصل إلى الإيمان بالله:

والنتيجة الحتمية للبحث العلمي المنصف في ظاهرة الوجود الكوني؛ أن يصل الباحثون إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى، وعظيم صفاته، وأن يشهدوا بذلك إذا كانوا متجردين منصفين.

---

(١) نقلاً عن كتاب «قصة الإيمان» للشيخ نديم الجسر.

وهذا ما أعلنه القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

ومتى وصلوا إلى هـذا الإيمان، وتحققـوا من هذه المعـرفة، فـلا بد أن يكـونوا أكثر الناس خشية لله تعالى. قال تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فالعلماء هم الذين يصلون ببحثهم وعلمهم إلى المعرفة الحقة، ومـع المعرفة الحقة تكـون بواعث الخشية.

ولذا مجّد الإسلام العلماء والباحثين، ومن النصوص الكثيرة في ذلك قوله تعـالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

ونهى عن اتباع ما لا علم للإنسان بـه. قال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

العالِمُ المادي متى تجاوز في تفكيره حدود ظواهر المادة، وصل حتماً إلى الإيمان:

وإنه متى سمـح العالم المادي الناظر في الطبيعـة لنفسه أن تتجـاوز حدود ظـواهر المـادة، وبدأ يتساءل عن تفسير لها وتعليل، وبدأ يفكر في غاياتها بتأمل وإمعان، وبدأ يبحث في النـظام الجامـع لها، وفي قوانينها الثابتة، فإنه لا بد أن يصل حتماً إلى الإيمان بوجود الخالق جلّ وعلا.

أمـا إذا حجز نفسـه في حدود ظـواهر المـادة فقط، ومنـع فكره من أن يجـول في التفسـير والتعليل والغاية، فإننا قد لا نرى في نفسه أثراً للتأملات الكبرى، ولكن نشهد شهادة حق أنـه

عطّل في فكره زاوية بحث كبرى، ورضي لنفسه بالجهل الكامل من هذه الناحية، معرضاً عن الحقيقة، مستهيناً بأمرها، مشغولاً بما يقدم للجسد مطالبه.

وهذا الفريق من العلماء الماديين الواقفين عند حدود المادة؛ هم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

ولكننا نلاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء ــ بما فيهم الباحثون الماديون ــ ما يفتأ الشوق إلى المعرفة فيهم ــ وهو أصل من أصول الفطرة الفكرية في الإنسان ــ ما يفتأ يلحّ عليهم بالبحث وتجاوز ظواهر المادة، ثم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة وجود الله تعالى؛ مهما حاولوا التهرب منها.

ولذلك ما نزال نطالع أقوال العلماء الكونيين، وأقوال الفلاسفة الباحثين، واعترافاتهم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم الفكرية، فنلاحظ فيها اعترافاتهم الخاشعة بالخالق الواحد جلّ وعلا.

إنها حقيقة وجود الله المنبثّة دلائلها في كل شيء، وقد فطر الله العقول والأفكار على إدراكها، ومنحها ما به تتوصل إلى اكتشافها، والموازين التي تزن بها الأدلة فتحقُّ الحقّ وتبطل الباطل.

٣ ــ دلائل وجود الخالق سبحانه منبثة في كل شيء:

لقد بث الخالق دلائل وجوده في كل شيء من الكون، فكلما تأمل العقلاء في هذا الكون الكبير، المتدفق حكمة وإبداعاً، تجدد لهم في كل تأمل جديد برهان جديد يشير إلى الخالق العظيم.

فالساذج من الناس: ينكشف له من الدلائل على وجود الخالق، والبراهين على وحدانيته وعظمته، دلائل تتناسب مع مستوى تفكيره وثقافته.

والذكي: يزيد في التأمل فيصل إلى الحقيقة نفسها، ولكن بدلائل أكثر وأدق وأعمق.

والفيلسوف الباحث: تضطره الحقيقة بعد البحث والتأمل، أن يعلن وجود الخالق المبدع، بمستوى من الأدلة أكثر عمقاً، وأدق فلسفة وغوصاً إلى أعماق أسرار الأشياء.

والعالم التجريبي: ينكشف له في كل تجربة صادقة، دليل جديد على ارتباط المادة بسبب أوّلي فعّال عليم مريد قادر؛ وهو الخالق سبحانه.

والعبقري: لا بد أن يصادف في مجال عبقريته مئات الأدلة التي تجعله يذعن في قرارة نفسه بوجود الخالق العظيم.

والفطري: بفطرته الصافية ووجدانه السليم، يتحسس ببساطة لا تعقيد فيها، فيشعر بأن لهذا الكون خالقاً كبيراً فيؤمن به.

فسبحان الخالق الذي جعل كلّ شيء في الكون يشير إلى وجوده وكمال صفاته!!

ولو أخذنا أفراد البشر منذ نشأة الإنسان حتى عصرنا هذا، لوجدنا أنه ما من إنسان استطاع أن يعيش وهو عاقل مدرك منصف؛ ثم يموت دون أن يعتقد بقوة مهيمنة على الكون تسيّره وتدبّر أمره، وإن تنازعته الشكوك والتساؤلات في مدّة من حياته.

فكبار علماء الدنيا وفلاسفة الكون في عصور التاريخ على اختلافها، يعتقدون بوجود الخالق سبحانه. وإليك طائفة من أقوالهم واعترافاتهم:

٤ ـ من أقوال علماء الكون والفلاسفة في الإيمان بوجود الخالق:

إليك بعض ما يؤنسك عن هذه الحقيقة التي عرضناها لك، من أقوال العماء والفلاسفة في العالم، لعلها تنفعك في المحاجَّة، وإن لم تزدك إيماناً بربك.

إن أقوال علماء الكون وفلاسفته، التي يعلنون فيها وجود الكائن الأعظم والمدبر الحكيم (الله) كثيرة، وهنا ننقل إليك طائفة منها:

جاء في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)[1] ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء الأميركيين في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون السائدة في العصر الحديث.

وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جلَّ وعلا، عن طريق ما وعوه من الأدلة الكثيرة، المنبثّة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وهو كتاب حسن في بابه، لأنه يُطْلِعُ القارىء على نوع من الأدلة الكونية؛ التي تفرض سلطانها على العلماء الماديين، من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية، فتقول لهم: **﴿أفي الله شكٌّ فاطِر السموات والأرض﴾**؟! فيقولون بتجرد وإنصاف وخشوع: آمنا بالله ربنا العليم الحكيم القدوس، خالق كل شيء، وهو على كل شيءٍ قدير.

---

(١) أشرف على تحرير هذا الكتاب: جون كلوفر مونسيا، وهو أمريكي صحفي، وترجمه للعربية: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، وراجعه وعلق عليه: الدكتور محمد جمال الدين الفندي.

كما يجد القارىء في الكتاب الرد الكافي على مروِّجي الإلحاد، الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الإيمان بالله، وأن العلماء الكونيين ملحدون.

إن هذه الدعوى خرافة يتلمظ بها مفترون دساسون مغرضون، فالعلم مؤمن ويدعو إلى الإيمان والمعرفة[1]، ولكن الجاحد هو الهوى والغرض الجانح، وهما اللذان يدعوان إلى الإلحاد والجهل، وطمس البصائر عن الحق، فراراً من ملاحظة عدل الله فيما يأمر به من خير، وما ينهى عنه من شر.

الأقـوال:

وإليك بعض مقتطفات من هذه المقالات، جمعتها لك مع شيء من التصرف:

(أ) جاء في المقالة الأولى من الكتاب، تحت عنوان (نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟)، كتبها «فرانك ألن» عالم الطبيعة البيولوجية:

إذا سلّمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟

هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال:

١ ــ فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهذا ما يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود.

٢ ــ وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وهذا مرفوض بداهة.

٣ ــ وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ليس لنشأته بداية ــ وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة لأزلية الخالق ــ لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حَدَثٌ من الأحداث، ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظَّم البديع على المصادفة عقلاً، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضاً.

---

(١) أ ــ اقرأ كتاب (قصة الإيمان) تأليف: الشيخ نديم الجسر، مفتي طرابلس ولبنان الشمالي. فقد اطلعت عليه وأنا أدفع هذا الكتاب إلى الطبع، فوجدت فيه فوائد جليلة للباحثين في أدلة الإيمان بالله تعالى، عن طريق الفلسفة والعلم والقرآن. وستجده يتنقل بك صاعداً في سلم التفكير السليم، على طريقة قصة رشيقة الحوار عذبة الأسلوب، حتى يصل بك إلى مرتبة عالية من الإيمان الفكري المركّز، طارداً عنك الشبهات، ومالئاً قلبك بالطمأنينة التامة لعقيدتك الإسلامية الحقة، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

ب ــ واقرأ كتاب (العلم يدعو للإيمان) تأليف: أ. كريسي موريسون، ترجمه للعربية: الأستاذ محمود صالح الفلكي.

٤ ــ وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض، وليس يَرِد على إثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلاً، فوجب الاعتماد عليه.

* * *

(ب) جاء في المقالة الثانية من الكتاب، تحت عنوان (اختبار شامل) كتبها «روبرت موريس بيدج» عالم الطبيعة، أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٣٤:

وجدنا أناساً موهوبين يحدثونناعن الغيب،يقولون إنهم رسل الله، وما حدّثونا به قسمان:

١ ــ قسم يقولون فيه: إن لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به.

٢ ــ وقسم يخبروننا به عن بعض أمور الغيب التي ستحدث.

أما القسم الثاني: فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين، وأيدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعاً، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً، فدلّ ذلك على صحة رسالتهم، وصدق أخبارهم، ووجب أن نصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته، وهو القسم الأول، لأن عقولنا لا تمنع منه، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبته.

ثم قال: (إن الإيمان بوجود الله من الأمور الخاصة التي تنبت في شعور الإنسان وضميره؛ وتنمو في دائرة خبرته الشخصية).

* * *

(ج) جاء في المقالة الثالثة من الكتاب، تحت عنوان (درس من شجرة الورد) كتبها «ماريت ستانلي كونجدن» عالم طبيعي وفيلسوف، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية:

جاء فيها ما خلاصته:

١ ــ إن كثيراً من الأمور التي نسلم بها إنما نعتمد فيها على الاستدلال المنطقي.

٢ ــ من أمثلة ذلك: ـ

كثير من استنتاجاتنا اليومية في حياتنا العادية.

العلوم الفلكية التي ليس بيننا وبينها اتصال مادي مباشر.

بحوث الذرة، واستخدام قوانين الكتلة والطاقة في استنباط صفات الذرة وتركيبها وخواصها؛ مع العلم بأن العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة، وقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما وصل إليه العلماء من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

ومن هذه الأمثلة وجود الله، فإننا نستطيع أن نصل إلى معرفته عن طريق الاستدلال المنطقي؛ الذي يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها.

٣ ــ برغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادي تأييداً كاملاً؛ لأن الدائرة التي تعمل فيها تقع في حدود المادة، فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي.

٤ ــ نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه؛ في عالم يفيض بالأمور العقلية، أن نصل إلى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة، تسيِّر هذا الكون وتدبِّر أمره.

وختم مقاله بما يلي:

(إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته. وعندما نقوم ــ نحن العلماء ــ بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، ــ حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ــ فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته.

ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خَلق الله وآثار قدرته).

* * *

(د) جاء في المقالة الرابعة من الكتاب، تحت عنوان (النتيجة الحتمية) كتبها «جون كليفلاند كوثران»، من علماء الكيمياء والرياضيات، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث:

بدأ مقالته بكلمة «لورد كليفن»، وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم: (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله). ثم شرع في مقالته، وهي تتلخص بما يلي:

١ ــ تقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) العالم المادي.

(ب) العالم الفكري.

(ج) العالم الروحي.

٢ ــ إن التطورات الهامة التي تمت في جميع العلوم الطبيعية، خلال السنين المئة الأخيرة ــ بما في ذلك الكيمياء ــ قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادة والطاقة.

وعند استخدام هذه الطريقة تبذل كل الجهود للتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة؛ التي تجعل النتيجة التي نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة.

٣ ــ أسهب في الأمثلة العلمية عن طريق الكيمياء، التي تثبت أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة ــ مهما صغر ــ لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً ناجماً عن المصادفة؛ بل كل شيء يسير وفق قانون يهيمن على سلوكه.

٤ ــ ثم قال: (فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟! أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟! لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً!!

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية، إذ إنّ لها بداية.

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم، على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية.

وتستطيع العلوم أن تُحَدّد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يُحَدِّد القوانين التي يخضع لها، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، متصف بالعلم والحكمة).

* * *

(هـ) جاء في المقالة الخامسة من الكتاب، تحت عنوان (فلننظر إلى الحقائق دون مَيْل أو تحيّز)، كتبها «إدوارد لوثر كيسيل» أستاذ الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو:

١ ــ أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله؛ زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية.

٢ ــ لقد عمَّت بلادَنا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدين، ولم تتخطَّ هذه الموجة معاهد العلم لدينا.

ولا شك أن الكشوف العلمية الحديثة، التي تشير إلى ضرورة وجود إلّه لهذا الكـون، قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله، والاتجاه إليه.

٣ ــ يرى البعض أن الاعتقاد في أزلية هذا الكـون ليس أصعب من الاعتقاد في وجـود إلّه أزلي.

ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الـرأي؛ فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً. ولا يقتصر ما قدمتـه العلوم على إثبـات أن هذا الكون بداية؛ فقد أثبتت ــ فوق ذلك ــ أنه بدأ دفعة واحدة، منذ نحو خمسة بلايين سنة. والواقـع أن الكون لا يزال في عملية انتشار مستمر، تبدأ من مركز نشأته.

٤ ــ لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعـطيهم العلوم من أدلة عـلى وجود الخـالق؛ بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الـذي ينظرون بـه إلى نتائـج بحـوثهم، ولو أنهم حَـرَّروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سوف يسلِّمون ــ دون شـك ــ بوجـود الله. وهذا هو الحلُّ الوحيد الذي يفسر الحقائق؛ فدراسة العلوم بعقل متفتّـح، سـوف تقودنـا ــ دون شك ــ إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله.

* * *

(و) جاء في المقالة السادسـة من الكتاب، تحت عنـوان (استخدام الأسلوب العلمي)، كتبها «وولتر أوسكار لندبرج» عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيـوية، وعميـد معهد هـورمل منـذ سنة ١٩١٩:

١ ــ أَرجـعَ هـذا العالِم في مقـاله فشـلَ بعض العلماء في فهمهم وقبولهم لما تـدل عليـه المبادىء الأسـاسـيـة التي تقوم عليهـا الطريقـة العلمية من وجـود الله والإيمان بـه، إلى أسباب لا صلة لها بالبحث العلمي، وخص بالذكر منها سببين اثنين:

الأول: ما تَتَّبِعه بعضُ الجماعات أو المنظمات الإلحـادية أو الـدولة من سيـاسة معينـة؛ ترمي إلى شيوع الإلحاد، ومحاربة الإيمان بالله، بسبب تعارض عقيدة الإيمان بـالله، مـع صالـح هذه الجماعة أو مبادئها.

الثـاني: المعتقدات الفـاسدة التي تجعـل الناس منـذ الطفـولة يعتقـدون بإلّـه على صـورة الإنسان، وعندما تنمو العقول بعد ذلك، وتتدرَّب عـلى استخدام الـطريقة العلميـة، فإن تلك الصورة التي تعلّموها منذ الصغر، لا يمكن أن تنسجم مـع أسلوبهم في التفكير، أو مـع منـطق مقبول. وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة (ينظر

الكاتب من خلال الديانة المسيحية الشائعة المحرَّفة)؛ وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي؛ نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية.

ومِنْ ثَمَّ فلا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات التي تدور حول وجود الله.

٢ ــ وبعد أن نبَّه هذا العالم في مقاله على ما سبق، وجّه إلى الاعتماد في الإيمان بالله على أساس روحاني، وأوضح أن الإيمان بالله مصدر للسعادة، لا ينضب في حياة كثير من البشر.

٣ ــ ثم قال: (أما المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله، فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلما وصلوا إلى كشف جديد في ميدان من الميادين؛ إذ أن كلَّ كشف جديد يدعم إيمانهم بالله، ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لأيادي الله في هذا الكون).

* * *

(ز) جاء في المقالة السابعة من الكتاب، تحت عنوان (الأدلة الطبيعية على وجود الله)، كتبها «بول كليرانس ابرسولد» أستاذ الطبيعة الحيوية، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أوج ريدج، وعضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية:

١ ــ بدأ هذا العالم مقاله بكلمة للفيلسوف الإنجليزي «فرانس بيكون» منذ أكثر من ثلاثة قرون:

(إن قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد، أما التعمق في الفلسفة فيردُّه إلى الدين). ثم أيّد كلمة هذا الفيلسوف بالشرح.

٢ ــ استدل على وجود الله تعالى بدليل اتفاق الناس في الشعور المشترك بوجوده؛ فقال:

(وقد لمس الناس عامة ــ سواء بطريقة فلسفية عقلية، أو روحانية ــ أن هناك قوة فكرية هائلة، ونظاماً معجزاً في هذا الكون، يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية؛ التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحيَّة، التي تتحرك أو تسير على غير هدى. ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلُّعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يُعَدُّ في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر، وتدبير أعظم، هي قوة الله وتدبيره).

٣ ــ ثم قال: (وبرغم أننا نعجز عن إدراكه إدراكاً كلياً، أو وصفه وصفاً مادياً، فهناك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدل أياديه في خلقه على أنه: العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوي إلى أقصى حدود القوة...).

* * *

(ح) جاء في المقالة السادسة عشرة، تحت عنوان (منطق الإيمان) كتبها «جورج هربرت بلونت» أستاذ الفيزياء التطبيقية، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا:

قال:

١ ـ (إنني أؤمن بالله، بل وأكثر من ذلك، إنني أَكِلُ إليه أمري، ففكرة الألوهية بالنسبة إليَّ ليست مجرد قضية فلسفية، بل إن لها في نفسي قيمتها العملية العظمى، وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية)!!

٢ ـ ثم بعد أن قرر مبدأ الأمور البديهية التي نقبل بها قبول تسليم وإيمان؛ قال:

(وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله، فوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية، والاستدلال بالأشياء على وجود الله ـ كما في الإثبات الهندسي ـ لا يرمي إلى إثبات البديهيات. ولكنه يبدأ بها، فإذا كان هناك اتفاق بين هذه البديهية وبين ما نشاهده من حقائق هذا الكون ونظامه؛ فإن ذلك يُعدُّ في ذاته دليلاً على صحة البديهية التي اخترناها).

٣ ـ ثم قسم الأدلة إلى أنواع فقال:

(والأدلة أنواع: منها الأدلة الكونية، ومنها الأدلة التي تقوم على إدراك الحكمة، ثم الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية.

فالأدلة الكونية: تقوم على أساس أن الكون متغيّر، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبدياً، ولا بد من البحث عن حقيقة أبدية عُليا.

أما الأدلة التي تبنى على إدراك الحكمة: فتقوم على أساس أن هناك غرضاً معيناً، أو غاية وراء هذا الكون، ولا بد لذلك من حكيم أو مدبر.

وتكمن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية؛ فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنما هو اتجاه إلى مشرِّع أعظم).

٤ ـ ناقش وضع الملحدين فقال:

(ويلاحظ أن للملحدين منطقهم، ولكنه منطق سلبي، فهم يقولون: إن وجود الله يستدل عليه بشواهد معينة وليس ببراهين قاطعة، وهذا من وجهة نظرهم يعني عدم وجوده تعالى.

إنهم يردون على الأدلة الكونية بقولهم: إن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر، بحيث يمكن أن يكون الكون أزلياً.

كما أنهم ينكرون النظام في الكون، ويرونه مجرد وهم.

وهكذا ينكرون الشعور النفسي بالعدالة، والاتجاه نحو موجّه أعظم.

ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله. ومن منطقهم أن الأدلة المقدمة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم.

وهناك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون بإله لهذا الكون لأنهم لا يرونه، ولكنهم لا ينفون وجود إله في كون أو عالم آخر غير هذا الكون؛ ولا شك أن هذا موقف مائع متضارب، لا يستند إلى أساس سليم.

فإذا قارنا بين الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العليّة، لاتّضحَ لنا أن وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن؛ وبعبارة أخرى: نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحد فيقيم إلحاده على العمى.

وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل، وأن العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحياناً عن مشاهدة الأدلة، فقد يكون ذلك راجعاً إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه).

* * *

(ط) وهكذا تتسلسل مقالات هؤلاء العلماء الثلاثين من كبار العلماء الماديين المنصفين؛ على هذا الأسلوب العلمي الذي يقرّرون فيه حقيقة وجود الله تعالى، وهم يعلنون خشوعهم وخضوعهم، بين يدي عظمته وقدرته وحكمته جلّ جلاله، مقتبسين من أدلة الكون التي لا تحصى، ما يقنعهم في إيمانهم بالله تعالى.

وقد عرض بقية أصحاب المقالات الأخرى ـ المثبتة في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ـ أدلتهم على وجود الخالق؛ كُلٌّ ضمن مجال اختصاصه العلمي، معتمدين فيها على الأسس التالية:

١ ـ الكون منظم بأبدع نظام وأدقه، وهو موافق في نظامه للحكمة بأرقى ما يمكن أن تكون، سواء في قوانينه العامة أو في شذوذاته.

٢ ـ لا يمكن أن يقبل العقل إحالة هذا النظام البديع على المصادفة، فوجب أن يكون منظماً بإرادة منظم ذي قوة لا نهاية لها، وحكمة لا يوجد أحكم منها، وعلم واسع محيط.

٣ ـ إن العلوم الإنسانية تؤيد أن لهذا الكون بداية وأنه قد بدأ بشكل مفاجىء؛ وكل ما له بداية فلا بد أن يكون له مبدىء خالق، لأنه لا يمكن أن يخلق نفسه بنفسه.

٤ ـ الخبرة الشخصية لكل إنسان تدلُّه على وجود الخالق.

٥ ـ لا يمكن أن تكون فكرة وجود الله خاطئة، وهي الفكرة التي يتفق على الشعور بها الناس على اختلافهم.

٦ ـ لا يوجد دليل واحد للمنكرين، ولكنّ لكل مثبت أدلة كثيرة من خلال ملاحظاته الخاصة، مهما يكن مستوى ثقافته، ومدى ذكائه.

* * *

وبعد أن عرضنا الأقوال المؤمنة لجمهرة كبار العلماء الماديين، الذين عاصروا النهضة العلمية الحديثة، ورافقوا تطوُّر العلم إلى أحدث مكتشفاته ومنجزاته ـ وهناك آخرون كثيرون، منبثون في مختلف المدن الكبرى، ومراكز الحضارة والعلم الحديث ـ نقدم إليك نماذج من أقوال بعض العلماء والفلاسفة الكونيين، ممن لهم شهرة كبرى في تاريخ العلوم الكونية، والفلسفة الإنسانية المنطقية.

(أ) من أقوال «تشاد والْسُنْ»:

(إن ما يُطلَب إلى أي إنسان، سواء أكان مؤمناً أم ملحداً، هو أن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون)!!

(ب) من أقوال العالم الطبيعي والكاتب اللامع «أوليفر وندل»:

(كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف؛ فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله).

(ج) العلامة «إلبرت آينشتين» صاحب النظرية النسبية ـ وهو حجة في الرياضيات وفي الطبيعيات ـ (مؤمن قوي الإيمان بوجود الله)؛ ومن أقواله: (إن أصحاب العبقريات الدينية في جميع العصور، قد عُرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة؛ ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية.

إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي: أن يوقظا هذا الشعور، وأن يستبقياه حيّاً في الذين تهيأوا له)[1].

(د) من أقوال «سير أرثر أدنجتون»، من أكبر العلماء الرياضيين في العالم: (إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث، وإن الكون أحرى أن يفسر بالنسب

---

(١) نقلاً من كتاب (الله) لعباس محمود العقاد.

الرياضية في عقل عاقل، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر، وهو الذي يدرك هذه النسب، ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة)[1].

(هـ) قال «هرشل»، وهو من فلاسفة القرن الثامن عشر: (إنه كلما اتسع نطاق العلوم، تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة؛ وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيؤون ــ بمساعيهم واكتشافاتهم ــ كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم؛ إعلاءً لكلمة الخالق)[2].

(و) وانظر إلى ما دوِّنَ من آراء «لسقراط» ــ عن تلميذه أفلاطون ــ من فلاسفة اليونان القدماء:

(هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذي لم يترك فيه شيء للمصادفة، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية، وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها، وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة.

من أين نشأ هذا النظام الكامل في تفرعاته؟ المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه! ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة!!

فلو أمكننا أن نقول: إنه من تلقاء نفسه، لصح لنا أن نقول:

إن ألواح «بوليكلت» و «زونكريس» حدثت من تلقاء نفسها!

وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التي تحتوي عليها الكائنات كثيرة؛ إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل، كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كله على المصادفة، فلا بد إذن من وجود عقل أعلى، وهو الصانع الوحيد.

لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع؛ الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال، بدون أي خطأ.

وهو حاضر غالب ــ أي عالم قادر ــ ومع هذا: فمن المستحيل إدراكه بالحواس، فهو كالشمس التي تمسُّ جميع الأبصار، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها). انتهى. من تاريخ التصوف للأستاذ «محمد علي عيني بك».

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هذا القول وما بعده من أقوال: نقلاً من كتاب «عقيدة المسلم» للأستاذ الشيخ محمد الغزالي.

(ز) وقد شرح « لا بلاس » دليل الحركة الكونية، وأبان قوة هذا الدليل في حسم الشبهات التي يثيرها الجاحدون فقال:

(أمَّا القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها؛ وثبّتت أقطار مداراتها، ونظّمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث إن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل.

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، والذي يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعدُّ ولا يحصى من المخاطر المحتملة؛ لا يمكن أن يحمل على المصادفات ــ في نظر «لا بلاس» ــ إلا باحتمال واحد من أربعة تريوليونات، وما أدراك ما أربعة تريوليونات؟! إنه عدد من كلمتين، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصي إلّا إذا لبث خمسين ألف عام يعدّ الأرقام ليلاً ونهاراً؛ على أن يعد في كل دقيقة ١٥٠ عدداً).

(ح) وقال «سبنسر» ــ وقد عرف عنه أنه غير متدين ــ:

(إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك، وأن الأديان كانت أول من قَبِلَ هذه الحقيقة العلوية ولقنها).

(ط) كتب «كميل فلامريون» في كتاب «الله في الطبيعة»: (إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات، فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود في كل شيء.

ليس هو سلطاناً يحكم من فوق السماوات، بل نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات.

ليس مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به. فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وكل لحظة من الزمان، أو أصح: هو قيوم لا نهائي، منزه عن الزمان والمكان، والتسلسل والتعاقب!!

ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك في صحتها؛ بل من النتائج القاطعة التي استنبطت من القواعد الثابتة للعلم؛ كنسبية الحركة وقدم القوانين.

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة، وآثار الحكمة المشهودة في كل شيء، المنتشرة كنور الفجر، وضياء الشفق في الهيئة العامة، لا سيا الوحدة التي تتجلى في قانون التطور الدائم، تدل على أن القدرة الإلهية المطلقة هي الحوافظ المستترة للكون، هي النظام الحقيقي، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية، وأشكالها ومظاهرها).

وكميل فلامريون: فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ولا يعرف الإسلام، ولكنه يعرف الله الواحد من إدمانه النظر في العلوم والأكوان، وأمثاله كثيرون.

وإن كنت ترى في كلامه بعض الأخطاء في صفة الله؛ فذلك لأن فلسفته الفكرية لم تقيدها ضوابط الوحي السماوي.

(ي) نشرت جريدة المصري القاهرية تلغرافاً أذاعته وكالة (رويتر) على العالم كله؛ جاء فيه:

نيويورك ــ ر ــ: استفتت مجلة «كوليرز» المعروفة، عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك وعلم الأحياء «البيولوجيا» والرياضة؛ فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة، تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود، ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له.

ويقول الدكتور «راين»: (إنه ثبت من أبحاثه في المعامل؛ أن في الجسم البشري روحاً أو جسماً غير منظور).

وقال عالم آخر: (إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم ــ وهو ما تسميه الأديان السماوية «الله» ــ هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية؛ وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود).

ويقول «أدنجتون»: (إن من وراء هذا الكون عقلاً مدبّراً حكيماً، هذا العقل هو الروح الأعظم، هو الله سبحانه وتعالى).

ويقول «آرثر كومبتون» ــ الحائز على جائزة (نوبل) في الكشوف الذرية ــ: (لست في معملي أعنى بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت، ولكني أصادف كل يوم قوى عاقلة، تجعلني أُحسُّ إزاءها أحياناً بأنه يجب عليَّ أن أركع احتراماً لها)!!

٥ ــ اختلاف الناس في ذات الخالق بعد الإيمان بوجوده:

وبعد أن عرفنا أن العقلاء المنصفين، كلهم قد استووا في الإشارة إلى خالق مدبر، وفي الإيمان بذي قدرة عظيم مهيمن، نلاحظ أنهم قد اختلفت مداركهم في تصور ذاته وتحديد صفاته.

فمنهم: من استطاع أن يفهم أنه لا بد أن يكون مجرداً عن مشابهة كل ما يدخل في نطاق الحس؛ وأن يكون مجرداً عن كل شيء مادي، أو يسري في المادة، أو تتصف به المادة، وأن يكون واجب الوجود، قائماً بذاته، لا إله إلا هو، لا يحتاج إلى مكان، ولا يجري على ذاته زمان.

وهذه الحقيقة عن ذات الخالق هي الحقيقة التي جاءت الديانات السماوية؛ لتُروي بها غُلة كلِ عالم باحث مفكر، ولتُطَمئِنَ بها كل ذي فطرة صافية طاهرة سليمة، وكل ذي عقل نافذ وقّاد، ولتصحح بها تصورات المجسِّمين الماديين، والمشركين الذين تنازعتهم الأوهام والتقاليد، واستحوذت عليهم الشياطين فشوَّهت صفاء فطرتهم، ولتحرّر بها العقول البشرية من قيود المحسَّات، وتنطلق بها إلى آفاق التجريد العقلي، حتى يكون الإنسان أهلاً لما كرّمه الخالق به، إذ منحه هذا العقل الذي يستطيع أن يدرك به وجود الخالق، وتنزهه عن مشابهة الحوادث، واتصافه بكل صفة من صفات الكمال.

وكان من هؤلاء الناس الذين آمنوا بوجود الخالق: صنف تخيل ذات الخالق بالمادة، أو بما يشابه الأجساد المادية، أو بالقوى السارية في ذرات المادة، بحسب قصر مداركه، وتقيده بواقعه الذي يحسه في نفسه، أو في الكون من حوله. ولو أن هذا الصنف أصغى بتفهم وتعقل، للمنطق الجلي الواضح الذي نزل به الوحي على الرسل؛ لم يقع بكل هذه التخيلات الباطلة، التي يرفضها العقل بقليل من التأمل والنظر المتجردين المنصفين.

٦ ــ الإلحاد والملحدون:

ثم لا نجد الإلحاد إلا عند مغفَّلين مضلَّلين، أو مقلدين متعصبين، أو مجرمين شهوانيين، أو مستكبرين مغرورين بالنزر اليسير الذي تعلموه من ظواهر الكون؛ فظنوا أنفسهم عرفوا كثيراً، وجهلوا أنهم ما غمسوا بعدُ أكفَّهم في شاطىء بحر صغير من بحور علم الكون.

وذلك أنه قد تطغى على الإنسان شهواته وملاذه وأنانيته، فيحاول أن يتهرب من بعض الحقائق التي يشعر بها في قرارة نفسه، إرضاءً لغرائزه وشهواته، التي أخذت صبغة الانحراف والشذوذ، أو إرضاءً لأنانيته في كبره واستعلائه، وحبه للسيطرة والإجرام.

ويصحُّ لنا إذا أمعنا النظر أن نقول: إن الإلحاد بالله وإنكار وجوده ــ بعد وضوح الدلائل، من خلال تأمل الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله ــ ليس إلا تهرباً من الفضيلة والحق والخير والجمال؛ لتبرير أعمال الرذيلة والظلم والقبح، وقلب الحقائق، وإرضاءً للنزوات والغرائز والشهوات الجانحة الجامحة.

هل يستطيع أذكى وأعلم ملحد في الدنيا أن يأتينا بدليل واحد مقنع يدل على عدم وجود الخالق سبحانه؟! إن الملحدين مهما اجتمعوا لذلك فلن يستطيعوا!

ما يضر الملحد لو عقل وأنصف ــ على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق؛ بحد زعمه الفاسد ــ أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها؛ لا في الظن، ولا في الوهم، فضلاً عن اليقين! وهذه القوة إذا تم الإيمان بها تجعل منه ومن الناس جميعاً سعداء فضلاء، يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم، والطمأنينة النفسية، والمحبة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة، وأنانيته الظالمة المستكبرة.

أليس يقوم في ظن الملحدين احتمال صدق دعوة الرسل الذين يكذبونهم؟! وماذا ستكون حجتهم بين يدي الله إذا قال لهم يوم القيامة: كذَّبتم رسلي، وأعرضتم عن البراهين التي بثثتها في الوجود، الدَّالة على وجودي، والدالة على عدلي، فحق عليكم عقابي؟!

بمثل هذا النوع من الاستدلال ناقش المؤمن من آل فرعون ــ الذي يكتم إيمانه ــ فرعون ومن معه؛ قال تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

إن الملحد ليلحد بالله الحق، ثم تراه يجري وراء أوهام تافهة لا حقيقة لها في الواقع، على توهم أن لديها بعض اللذائذ والشهوات النفسية، أو بعض الإصلاح الفردي أو الاجتماعي.

وفيما كتبه «أندور كونواي إيفي» ــ من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٤٦ ــ تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة):

(ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من الشك، لديهم بقعة عمياء أو بقعة مخدرة داخل عقولهم؛ تمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم ــ سواء ما كان منها ميتاً أو حياً ــ تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله. وكما قال آينشتين: «إن الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى؛ ليس تعيساً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة»).

ما هو شعور أكبر ملحد في الدنيا إذا تراكبت عليه الهموم والأحزان والمصائب؛ وصدمته المخاطر من كل جهة، فلم يجد سبباً مادياً ينقذه؟ أفلا تتيقظ فيه ــ في أشد الحالات ــ فطرته الأولى فينادي: أيتها القوة المهيمنة على الكون أسعفيني؟!

ماذا كان قول فرعون حين أدركه الغرق؟! إنه قال: آمنت برب موسى وهارون، آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل!!

إن تجربة إلقاء الملحدين في المخاطر والمآزق التي لا يجدون لدفعها سبباً مادياً؛ هي من أعظم التجارب التي تكشف عن فطرتهم الأولى السليمة الصافية، والتي دخل إليها ــ فيما بعد ــ دخيل الفساد والشذوذ والإجرام، منذ شذّوا وجنحوا عن الحق بشهواتهم وأنانياتهم.

إن هذه التجربة لتكشف عن فطرتهم، فيعلنون ــ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ــ أن الله وراء المادة، هو الواحد العليم، القادر المريد، المتصرف بكل شيء.

إنهم ينادون الله بعد إلحاد، ويلتمسون إنقاذه وعونه بعد كفر، ثم إن الله تعالى يقدّم لهم الدليل على وجوده وقدرته، واستجابته لدعوة المضطر إذا دعاه فينقذهم وينجيهم، حتى إذا وصلوا إلى شاطىء السلامة، ووضعوا أقدامهم على البر الآمن في نظرهم، إذا هم يكفرون، ويعودون إلى سيرتهم الأولى.

تلك هي نفوسهم المجرمة، التي لم تلحد بالله لأنها لم تجد الدليل على وجوده، ولكنها ألحدت به لترضي استكبارها وشهواتها، فهي لا تذعن إلى الله إلاّ في الشدائد والمآزق، فإذا أنعم عليها وأنجاها كفرت بأنعمه!!

وكذلك صوَّر الله حال الكافرين في قوله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

وفي قوله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

وحين يلحد الملحدون فإنهم لن يضرّوا الله شيئاً، ولكنهم يخسرون أنفسهم، ويخسرون سعادتهم، ويخسرون مجدهم وعزتهم وقوتهم في الحياة الدنيا، وهذا ما اعترف به عقلاء الشعوب التي كفرت بربّها.

قال الماريشال (بيتان) الفرنسي، بعد احتلال الألمان لبلاده في الحرب العالمية الثانية: (لقد حلَّت بنا الهزيمة لأننا ابتعدنا عن روح الله).

وقال الجنرال (ديغول) في مستهلّ عهده برئاسة الجمهورية في فرنسا: (إن فرنسا قد فقدت مكانتها كدولة عظمى، لأنها فقدت الإيمان بالله، وإنها لكي تستردّ مكانتها يجب أن تستردّ إيمانها بالله).

٧ ــ بعض المسالك النظرية التي تلزم العقل بالإيمان بوجود الخالق:

ولئن كان وجود الخالق من الأمور البدهية، المركوزة في فطرة الإنسان الوجدانية منذ نشأته الأولى، منذ بدأ يدرك نفسه والكون من حوله، كما سبق بيان ذلك، لكنه لا بدّ لنا من أن نسوق بعض البراهين النظرية، لعلها تستخدم وسيلةً للتعرف على صدق هذا الإحساس الفطري. ولإزالة ما يمكن أن يعرض على النفس من شكوك، تأثرت بها من واقع البيئة المادية التي وجد الإنسان فيها. ولإزالة الغشاوات التي تتعرض لها مرآة النفس من ظلمات الشهوات والغرائز المنحرفة؛ التي دبَّ إليها الشذوذ فأصبحت مستكبرة ظالمة.

وفيما يلي بعض الأدلة النظرية العقلية، التي تلزم العقل بالإيمان بوجود الخالق الواحد؛ المنزه عن كل ما لا يليق بكمال الألوهية: **﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾**، **﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾**.

* * *

الدليل الأول على وجود الخالق سبحانه

دليل الإلزام العقلي بين الوجود والعدم

١ ـ الأصل في الخالق الوجود فوجوده واجب.
٢ ـ والأصل في الكون العدم فوجوده ممكن.
٣ ـ ولا يمكن أن يكون السبب في إيجاد الممكن إلاَّ واجب الوجود.

ونسير في هذا الدليل على أربع مراحل:

المرحلة الأولى من الدليل:

لا يشك عاقل في الدنيا بأن الوجود يقابله العدم، وأنه لا ثالث بين الوجود والعدم، ولا ثالث وراء الوجود والعدم.

هذان اثنان إذا ثبت أحدهما انتفى الآخر لا محالة، وإذا انتفى أحدهما ثبت الآخر لا محالة.

وهنا نتساءل مع أنفسنا فنقول: أيهما الأصل؟ هل الوجود الذي يقابله العدم العام هو الأصل، أو العدم العام هو الأصل؟

وللإجابة على هذا التساؤل: لا بد أن نسلك مسلك افتراض أن أحدهما هو الأصل؛ ثم ننظر هل يتعارض معه ـ على أنه الأصل ـ ما ينقضه أو لا؟.

وعلى هذا فلنفرض أن الأصل لكل ما يخطر في الفكر وجوده هو: العدم.

ومعنى العدم: نفي ذات ما يخطر بالبال، ونفي صفاته. فلا ذات ولا قوة ولا إرادة ولا علم ولا حياة ولا أي شيء.

وبحسب هذا الافتراض نتساءل: كيف استطاع العدم ـ الذي هو الأصل ـ أن يتحول إلى الوجود؟ ألسنا نشعر بوجود أنفسنا؟ ألسنا نرى موجودات كثيرة من حولنا؟! والعدم معناه كما عرَفناه هو النفي العام لكل ما يخطر بالبال؛ فكيف يأتي من هذا العدم العام ذوات وصفات

وقوى، فتنطلق بنفسها من العدم إلى الوجود، وانطلاقها لا يكون إلا بقوة، والمفروض أن هذه القوة عدم أيضاً؟!

إنـه من المستحيل بـداهة أن يتحـول العـدم بنفسـه إلى الـوجـود، أو أن يـوجِـد العـدمُ أيَّ شيء.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (الطور ٥٢):

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: هـل انتقلوا من العدم إلى الـوجود من غـير خـالق؟ أم هـل كـانـوا هم الخـالقـين لأنفسهم في هذا الانتقال؟ وكلاهما من الأمور المستحيلة بداهة.

وهكذا: لو كان العدم هو الأصل العام لم يوجـد شيء من هذه المـوجودات التي لا حصر لها؛ ولذلك كان علينا أن نفهم حتماً أن الأصل هو الوجود.

وبهذا الدليل ثبت بشكل عقلي قاطـع أنه لا يصـحُّ أن يكون العدم هو الأصل.

وحيث كان الأمر كذلك، فقد ثبت بشكل عقلي قاطـع أيضـاً: أن الأصل هـو الوجـود، لأن الوجود ــ كما سبق ــ نقيض العدم ولا واسطة بينهما.

ثم نقـول: إنّ ما كـان هو الأصـل بـين شيئـين متنـاقضـين لا يحتـاج وجـوده إلى تفسـير أو تعليل؛ لأنه متى احتـاج وجوده إلى تعليـل لم يكن أصلاً، وإنمـا تطلب الأسبـاب والتعليلات للأشياء التي ليست هي الأصل.

وبهذا الاستدلال ظهر لدينا بوضوح شيئان:

(أ) أن الأصل هو الوجود.

(ب) أن الأصـل لا يتطلب في حكم العقـل سبباً ولا تعليـلاً أكـثر من أن يقـال: إنـه هو الأصل.

المرحلة الثانية من الدليل:

إذا كان الوجود هو الأصل لا محالة، فهل يمكن أن يكون لهذا الأصل بدايـة؟ وهل يمكن أن يلحقه العدم؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول:

١ ــ إن ما كان وجوده هو الأصل لا يصـحُّ عقلاً أن يكون لوجوده بدايـة؛ لأن ما كـان

لوجوده بداية، فلا بد أن يحتاج في وجوده إلى سبب أوجده، وما كـان كذلـك لا يمكن أن يكون وجوده هو الأصل.

٢ ـ إن مـا كان وجـوده هـو الأصـل لا يمكن أن يلحقـه العـدم؛ لأن كـل زمن لاحق نفرض أن يطرأ فيه العدم على ما أصله الوجود، نقول فيه أيضاً: لا يزال الـوجود هـو الأصل، ولا سبب لأن يطرأ عليه به العدم أبداً، لأنه لا يطرأ العـدم على أي مـوجود من المـوجودات، إلاّ بـوصف أن يكون العـدم فيه هـو الأصل، وإنمـا انتفى ذلك في زمن مـا بسبب من الأسبـاب، فهو ينتظر زوال السبب حتى يعود إلى أصله، وقد ثبت لـدينا أن العـدم من حيث هو مستحيـل أن يكون هو الأصل العام ضد الوجود.

ولذلك يستحيل عقلاً أن يطرأ العدم على وجودٍ علمنا أنه هو الأصل.

وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة في قوله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾.

فالحي الذي لا يموت هو من كان وجوده هـو الأصل، وكـذلك حيـاته وصفـات الكمال فيه، فلذلك لا يمكن أن يطرأ عليه العدم أو الموت.

المرحلة الثالثة من الدليل:

علمنا في المرحلتين السابقتين:

(أ) أن الوجود من حيث هو يجب عقلاً أن يكون هو الأصل.

(ب) أن ما كان وجوده هو الأصل استحال أن يكون له بداية، وأن يطرأ عليه العدم.

والآن: فلنلق نـظرة على المـوجودات التي تقـع تحت مجـال إدراكنا الحسي في هـذا الكون الكبـير؛ لنرى هـل تنطبق عليهـا فعلاً الحقيقـة الأولى، وهي أن الأصل فيها لـذاتهـا الـوجـود؟ أو ينطبق عليها ضدها، وهي أن الأصل فيها العدم؟

وهنا تبدو لنا حقيقة: أننا لم نكن ثم كنا، ونحن صنف ممتاز التكوين في هذا العالم. قال تعالى في سورة (التين ٩٥):

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾.

وأن أشياء كثيرةً كانت في طي العدم في أشكالها وصـورها، ثم وجـدت كما هـو مشاهـد لنا باستمرار.

كما تبدو لنا صورة التغيُّرات الكثيرة الدائمة، في كل جزء من أجزاء هذه المواد الكونية التي نشاهدها أو نحس بها؛ أو ندرك قواها وخصائصها.

فمن موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت، ومن تغيُّرات في الأشكال والصور، إلى تغيرات في الصفات والقوى، وكلٌّ ذلك لا يُعَلَّل في عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التي استفدناها من الكون نفسه؛ إلا بالأسباب المؤثرة التي تحمل سرَّ هذه التغيرات الكثيرة المتعاقبة في كل شيء من هذا الكون؛ على اختلاف جواهره وصفاته، سواء منها المتناهي في الصغر، أو المتناهي في الكبر.

ومن هذه الأسباب ما نشاهده، ومنها ما نستنتجه استنتاجاً، ولا نزال نتسلسل مع الأسباب، حتى نصل إلى سبب مجهول الذات هو سبب الأسباب الأول.

وهنا نقول: لو كان الأصل في هذه الموجودات المعروضة على حواسنا هو الوجود؛ لم تكن عرضة للتحول والتغير؛ والزيادة والنقص، والبناء والفناء، ولم تحتج صُوَر وجوداتها وتغيُّراتها إلى أسباب ومؤثرات.

وحيث إنها عرضة للتحول والتغير، وحيث إن قوانينها تفرض احتياجاتها إلى الأسباب والمؤثرات، لزم عقلاً أن لا يكون الأصل فيها هو الوجود، وإنما يجب عقلاً أن يكون الأصل فيها هو العدم.

لذلك: فهي تحتاج في وجودها إلى سبب موجد، وسنعرض إلى مبدأ السببية في دليل خاص.

وبهذه المرحلة من الدليل ثبت لدينا ما يلي:

(أ) أن الأصل هو العدم في جميع هذه الأشياء الكونية القابلة للإدراك الحسي؛ وكل ما شابهها في الصفات.

(ب) وحيث كان الأصل في جميع هذه الأشياء الكونية العدم: وجب عقلاً أن يكون لها سبب مؤثر، نقلها من العدم إلى الوجود في مرحلة وجودها الأول، ولا يزال يؤثر باستمرار في جميع صور تغيراتها المتقنة الحكيمة.

وقد عرض القرآن إلى حقيقة أن الأصل فينا العدم، وأننا لم نكن ثم كنا، في قوله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

ومعلوم بداهة أن المسبوق بالعدم لا بدَّ له من موجد أوجده، وخالق خلقه وصوَّره.

المرحلة الرابعة والأخيرة من الدليل:

علمنا من المراحل الثلاث السابقة الحقائق الثلاث التالية:

١ ـ أن الوجود من حيث هو يجب عقلاً أن يكون هو الأصل.

٢ ـ أن ما كان وجوده هو الأصل استحال أن يكون له ابتداء، وأن يطرأ عليه العدم.

٣ ـ أن هذه الأشياء الكونية المعروضة على حواسنا ومداركنا ـ والتي نحن جزء منها ـ وكذلك كل ما شابهها: الأصل فيها العدم، ويحتاج وجودها إلى سبب موجد.

وهنا نقول: حيث اجتمعت لدينا هذه الحقائق الثلاث التي لا مفرّ منها، ولا محيد عنها، فلا بدّ لنا من التوفيق بينها بشكل تقبله العقول قبولاً تاماً من غير اعتراض؛ وذلك لا يكون إلا وفق صورة واحدة لا ثانية لها، وهي أن نقول:

أولاً ـ لا بد عقلاً من وجود موجود عظيم: وجوده هو الأصل في الكائنات، وعدمه مستحيل، لذلك فهو (واجب الوجود عقلاً).

ثانياً ـ هذا الكون المشاهد ـ بما فيه من أرض وسماوات، ونجوم ومجرّات، وجامد ونبات، وأحياء وأموات ـ: الأصل فيه العدم، ولا بد لإخراجه من العدم إلى الوجود من سبب موجد.

ثالثاً ـ لا يكون السبب الموجد للكون بجميع ما فيه إلا موجوداً عظيماً، وجوده هو الأصل، وهو واجب الوجود.

وذلك هو: **(الله سبحانه وتعالى)**.

خاتمة حول هذا الدليل:

وبهذه الطريقة من الاستدلال يسقط نهائياً تساؤل المتسائلين: كيف وُجِد الله سبحانه؟ لأنه تساؤل لا يعتمد على منطق وعقل، ذلك أن مثل هذا التساؤل إنما يَرِد في موجود تثبت قوانينه وصفاته أن الأصل فيه العدم، فهو يحتاج إلى موجد حتى يوجده ويبدعه من العدم.

أما الموجود الذي يجب عقلاً أن يكون الأصل فيه الوجود؛ ولا يجوز عليه العدم، فلا يمكن أن يتعرض وجوده إلى مثل هذا التساؤل بحال من الأحوال. وإيراد تساؤل من هذا النوع يتنافى مع الحقيقة العلمية الثابتة وهي: أن الأصل فيه هو الوجود.

* * *

الدليل الثاني على وجود الخالق سبحانه

دليل الإمكان في الكون

بملاحظتنا لكل شيء في الكون: سواء كان من الأشياء المادية التي يمكن أن ندركها ببعض حواسنا، كالأرض والنجوم، أو كان صفة من الصفات القائمة في الأشياء المادية التي نستنبط وجودها بعقولنا، كالجاذبية الخاصة الموجودة مثلاً في حجر المغناطيس، وكالجاذبية العامة الموجودة مثلاً بين الكتل المادية، وكخواص المركبات المادية التي لا حصر لها في الكون، سواء في ذلك الظواهر الكيميائية أو الفيزيائية.

وبملاحظتنا لما نعقل عن جواهر الوحدات المستقلة المتحيّزة التي لا تدخل في نطاق إحساسنا؛ كالملائكة والجن، وكيفية تكوينها وأعراضها وصفاتها.

من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونيّة، ندرك بداهة في كل واحد منها أنه كان من الممكن عقلاً أن يتخذ صورة وصفة وحالة غير ما هو عليه الآن؛ فهنالك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات، لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

فالعقل لا يمنع من أن تتخذ مثلاً صورة غير الصورة التي هي عليها، وشكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حدّاً غير حدّها الواقع كمّاً وكيفاً. فتكون مثلاً أكبر مما هي عليه أو أصغر، أو مركبة غير التركيب الذي هي عليه، أو في حَيِّز من الكون وزمان من الدهر غير حيّزها وزمانها، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها، أو حركات ومدارات وسرعات مغايرة لما هي عليه.

كل هذا وأمثاله من الاحتمالات التي لا حصر لها، مما يجوِّزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية، التي لو كان تركيب الكون على وفقها لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

فما المانع مثلاً من أن يكون الليل والنهار سرمدين؟ وما المانع العقلي من أن يكون الإنسان على غير هذا الوضع القويم، أو أكبر أو أصغر مما هو عليه جسداً وهامة؟ وما المانع

من أن يكون العقل في البهائم، والنطق في العجماوات؟ وما المانع من أن تكون الأرض أدنى إلى الشمس والقمر من الوضع الذي هي عليه؟ أو غير ذلك من أشياء كثيرة.

فإن قيل: إن الحكمة تقتضي أن تكون هذه الأشياء كما هي عليه الآن؛ وإلاَّ اخْتَلَّ النظام وفسدت النتائج المرجوة من هذا الكون، قلنا: الحكمة صفة الحكيم، وذلك الحكيم هو الله تعالى.

ونقول من ناحية أخرى: حيث إن كلَّ شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه؛ فإن عقولنا لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك فلا بدَّ له من مخصِّص قد خصصه باحتمالٍ موافق للحكمة والإبداع والإتقان؛ من جملة احتمالات كثيرة. ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مُرَجِّح، أو القول بأن: موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة المصادفة، وكلاهما مستحيل عقلاً. ونحن بوصفنا عقلاء في هذا الكون؛ لا نقبل أن نلتزم المستحيلات بينما نرى أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبداً، ومن قوانينه رفض الترجيح بلا مرجِّح، ورفض احتمال المصادفة في نظام هذا الكون البديع. وأيُّ الأمرين أسلم، وأكثر قبولاً في العقل: هل إحالة هذا النظام الحكيم البديع في الكون إلى حكم المصادفة المستحيلة في العقل؟ أم إلى حكمة مخصِّص حكيم، قد خصص هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة؟!

وحيث ثبت لدينا احتياج هذه الممكنات إلى المخصص الحكيم؛ فإن عقولنا تحكم بشكل قاطع: أن هذا المخصص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلاً لأي احتمال من الاحتمالات الممكنة؛ التي تتعرض لها هذه الأشياء الكونية في نظر العقل.

وإنما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلاً، لا يقبل العقل ــ بحال من الأحوال ــ أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعاً آخر.

هذا الموجود الواجب الثابت في ذاته وفي صفاته، والذي يوجب العقل أن يسند إليه تخصيص هذه الممكنات في واحد من احتمالاتها الكثيرة؛ هو واجب الوجود، وليس بممكن الوجود حتماً (وهو الله تعالى)، وبذلك يثبت المطلوب.

ونستطيع أن نسمِّي هذا الدليل بـ (دليل الإمكان في الكون).

وقد أشار القرآن إلى دليل الإمكان في عدة آيات، منها:

(أ) قوله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

(ب) وقوله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

(ج) وقوله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

(د) وقوله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

(هـ) وقوله تعالى في سورة (الواقعة ٥٦):

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فقد بيّن الله سبحانه في هـذه الآيات وأمثـالها من القـرآن الكريم: أن الصـور والأنظمـة والأوضاع التي تشاهدونها في الكون، من الممكن أن تتخلف وتتغير، وأن تتحول من وجـود إلى عـدم، ومن وضـع إلى وضـع، وذلك بقـدرة الله تعالى. فـإذا أراد الله أن يسلب هـذه النـظم الحكيمة القائمة في الكون، وينجم عن ذلك الإضرار بحياة الناس في الأرض، فهـل يستطيـع أحد غير الله أن يثبتها على أوضاعها؟!

فلو جعـل الله الظل سـاكناً لا ينسخـه الضياء، ولـو جعل الله الليـل سرمـداً، أو النهار سرمداً، فماذا سيكون وضـع حياة الإنسان على وجه الأرض؟! لا شك أن ذلك سيكون خطراً محدقاً بالمجموعـة البشريـة، لأن النهار بشمسـه سبب دفئهم ورزقهم، والليل بسكـونه وظلمتـه لباسهم وراحتهم بعد المشقة والتعب.

ثم أليس من الممكن أن يُذهبَ الله هذا الخَلق ويأتي بغيره؟!

أليس من الممكن أن يغوّر الله الماء في الأرض، فلا يستطيع الناس له طلباً؟!

أليس من الممكن أن يجعلَ الله لزروع والثمار حطاماً، فيحرم الناس من أرزاقها؟!

أليس من الممكن أن يُنْزل الله الماء من السحاب مالحاً كدراً أجاجاً، غير صالح للشرب وري المزروعات؟!

إذا كان كل ذلك من الممكنات، فلا بد أن يكون وضعها القائم فعلاً ممكناً أيضاً، لأنه أحد الاحتمالات المقابلة للصور المفروضة، وإذا كان ممكناً، فلا بد أن يكون له مخصِّص قد خصصه بأحد ممكناته المحتملة، وهذا المخصص هو الموجد الذي أوجدها من عدم، إذ الأصل في جميع الممكنات العدم، ولا تخرج من العدم إلى الوجود إلا بموجد قادر حكيم: **(وهو الله سبحانه)**.

* * *

الدليل الثالث على وجود الخالق سبحانه

دليل التغير والسببية

ونسير في هذا الدليل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى من الدليل:

ننظر إلى الموجودات الكونية: سواء منها الموجودات المادية المدرَكة بالحسّ، أو الموجودات الأخرى الخارجة عن نطاق الإدراك الحسي؛ والتي نستنتج وجودها ببرهان العقل، فنلاحظ أن حوادث التغير لا تنفك عنها أبداً، فما من شيء في هذا الكون الفسيح، إلا هو في أوضاع من التغيرات الكثيرة بشكل مستمر.

فهذه التحاويل الكونية في المواد الكيميائية حوادث مستمرة؛ وهذه الأعراض في الظواهر الفيزيائية في تغير مستمر.

نرى ذلك في تحوُّل البزور إلى أشجار وثمار، ثم تحوُّلها إلى رماد أو هشيم يتفتّت، ثم يتحوَّل إلى عناصره الكيميائية والفيزيائية، البسيطة أو المركبة.

ونرى ذلك في تحوُّل الأغذية إلى دماء في الأحياء، ثم إلى نطف، ثم إلى أحياء أخرى لها وحدات مستقلة في صفاتها وأعراضها، وخصائصها وأعمارها وطباعها.

ونرى ذلك في الحركة الدائبة في هذه الكرات الكونية السابحة في أفلاكها؛ وفي عوالم المجرّات الكونية الكبرى، كما يذكر علماء الفلك.

ونرى ذلك في الحركة الدائبة في الذرات، كما يذكر علماء الذرّة في حديثهم عن الأليكترونات السالبة.

ونرى ذلك في تحول الصوت إلى كهرباء، والكهرباء إلى اهتزازات في الفضاء، ثم تعود كَرّتها الثانية حتى ترجع فتظهر أصواتاً في الأجهزة اللاقطة (الراديو).

ونرى ذلك في تبخر الماء وتجمعه سحباً، ثم تميّعه وهطوله غيثاً يحمل الخير والخصب لأرض مجدبة ميتة عطشى.

ونرى ذلك أيضاً في تحوُّل الفحم مثلاً إلى ألماس في الأزمان الطويلة، وتحوُّل الصخور بمرور الدهور من صفة إلى صفة، ومن وضع إلى وضع، بتأثير أنواع الحرارة والضغوط.

ونرى ذلك يومياً في تعاقب الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر وغروبهما، وظهور النجوم وأفولها.

ونرى ذلك في تعاقب الصيف والشتاء، والحر والبرد، كما نراه في الحياة والموت. ومعلوم أن الحياة أكبر ظاهرة من التحول عجيبة، يُولَد سرُّها مع الأحياء كميناً مجهولاً فيها، ثم يموت سرُّها مع الأحياء إذا ماتت.

إلى أشياء أخرى كثيرة لا تتناهى استقصاءً وحصراً. ومنها أشياء تكون حالة التغير فيها ظاهرة سريعة كالحيوان والنبات، أو بطيئة ـ لا تظهر لأنظارنا إلا بألوف السنين، أو بملايينها ـ كالتغيُّرات الكونية التي تظهر في عوالم النجوم، وفي الأجسام الجامدة الصلبة.

إننا نعيش إذن في عالم نستطيع أن نُسمّيه (عالم المتغيرات). وبعد هذه المقدمة المزودة بأمثلة كونية متعددة، نستطيع أن نمثّل حالة التغير هذه في كل جزء من الكائنات في هذا العالم المادي الفسيح؛ مبتدئين من لحظة تفكيرنا الآن، وراجعين بذلك إلى الزمان الماضي، على شكل متموج.



المرحلة الثانية من الدليل:

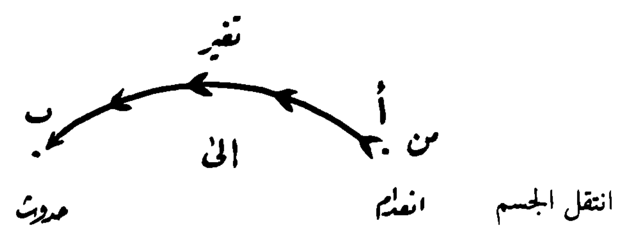
ثم نقول: إن التغير لا ينفك عقلاً عن معنى الحدوث، لأنه لو فرضنا أنه حصل تغير في المكان لجسم من الأجسام ـ مع العلم أن التغير المكاني هو أبسط أنواع التغيرات الكونية على الإطلاق ـ؛ ولنرمز للمكان الذي كان فيه هذا الجسم بنقطة (أ)، وللمكان الذي انتقل إليه الجسم بنقطة (ب)، ولنضع ذلك على الشكل التالي:



فالحادثة حادثةُ تغيُّرٍ مكـاني من نقطة (أ) إلى نقـطة (ب)، ونستطيـع هنـا أن نقول: إن الجسم قـد حدث وجـوده في نقـطة (ب) بعـد أن لم يكن، وانعـدم وجـوده من نقطة (أ) بعـد أن كان.

وبهـذا نرى أن هـذا التغير المكـاني الذي هـو أبسط أنـواع التغيـرات لم ينفـك عن معنى الحدوث في جهة والانعدام من جهة.

ونُعيد الشكل السابق بإضافة كلمـة «حدوث» إلى جـانب نقطة (ب)، وكلمـة «انعدام» إلى جانب نقطة (أ).



هذا في التغيرات المكانية، فكيف بالتغيرات الجوهريـة التي تتناول التغيـرات في التركيب والصفات والخواص وغير ذلك؟!

المرحلة الثالثة من الدليل:

وبملاحظتنـا للقوانـين العامـة لهذا الكـون ـ التي لم تتخلف في شيء منها، والتي هي من الأمور البدَهيّة في نظر الناس، وفي نظر العلم التجريبـي ـ نرى أنـه لا بد لكل تغير يحـدث في أي جـزء من أجزاء الكـون من سبب أثر فيـه تـأثيـراً يكفي لأن يُحوِّلـه ويُغَيّـره من وضـع إلى وضـع آخر.

ثم نقول: إن أبسط أنواع التغيرات وهوالتغير المكاني ـ كانتقال قـطعة من الصخـر مثلاً من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) ـ لا يسلِّم عاقل من العقلاء أن هذا التغير يحدث بنفسـه من غير سبب يؤثر في ذلك الانتقال؛ تطبيقاً لمبدأ السببية البدهي في عقولنا، والذي استنتجناه من قانون الكون الدائم. فلو وضعت في صندوقك المقفل مثلاً ما جمعته من نقود ذهبية في صُرَّة خاصة؛ ثم غبت عنه يوماً ورجعت إليه بعد ذلك، فلم تجد صُرَّةَ نقودك، وبعد البحث الشديد والتحري، وجدت نقودك كلَّهـا داخل صـرتك الخـاصة في صنـدوق جار لـك. ولما ثبتت أنها هي نقـودك وصرتك فعلاً، ادَّعى أمام القاضي أنها انتقلت إلى صندوقـه بنفسها، وادَّعى أنـه رآها تمشي في الهواء بنفسها متجهـة إلى صندوقـه، وما زالت العقبـات تُذلَّـل في الطريق دون وسـاطة أحـد،

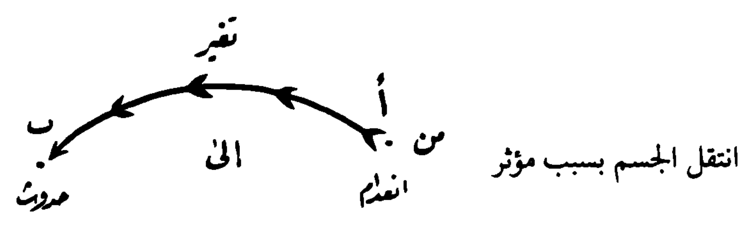
فتنفتح مغاليق الأبواب بنفسها، وتنشق الجدران بنفسها، ونحو ذلك من أخيلة خرافية، حتى وصلت إلى صندوقه ودخلت فيه، وهو لا يعلم من أين جاءته، وقد فرح بها، وظن أنها اختارته دون غيره!

لو ادَّعى من وجدتَ نقودك عنده هذه الدعوى فهل تصدقه؟ أو هل يوجد عاقل في الدنيا يصدّقه أو يسلِّم بما يقول؟!

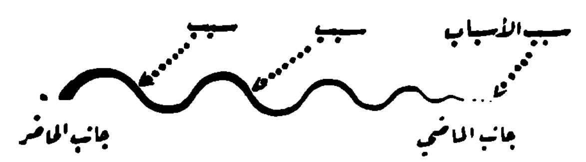
إن هذا التغير ــ وهو أبسط أنواع التغيرات ــ لا يسلم العقلاء أنه حدث بنفسه، فما بالك بالتغيرات الجوهرية في التركيب والتحليل، وتحول التراب إلى أغذية، والأغذية إلى أجسام حَيَّة متحركة دبت فيها الحياة؛ فأصبح منها المدرك العاقل ذو القوة الفائقة، التي يستطيع أن يفعل بها الأعاجيب، ويستخدم قوى الكون الكامنة، فيتصرف فيها تصرفات عجيبة. فلربما استطاع أن يطلق من مكامن القوى في الكون قوى تبدد المدن والقرى، وتزلزل الجبال الراسيات، وتثير التيارات في المحيطات!!

إن من المسلّم به أن كُلَّ هذه التغيرات الكونية لا بد لها قطعاً من سبب حقيقي: كامل القدرة صدرت عنه هذه القوى الكونية الكبرى، وتمت بخلقه هذه التغيُّرات الكونية الهائلة، والحوادث العجيبة. وكامل الحياة أيضاً دبت عنه صورة الحياة في الأجساد الحية. وكامل العلم صدرت عنه العقول القابلة للعلم والمعرفة. وكامل الحكمة صدر عنه كل أمر متقن محكم، إلى غير ذلك من صفات الكمال. ولا يمكن أن يكون هذا القادر الحي الحكيم العليم إلا منزهاً عن التغير والتحول والضعف. فلا بد أن يكون ثابتاً كامل الصفات، واجب الوجود في ذاته وفي صفاته، لئلا يلزم احتياجه إلى سبب آخر ــ بمقتضى التشابه بينه وبين عالم المتغيرات لو كان ذلك ــ وهو محال عقلاً. وهذا الذي هو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته: **(هو الله تعالى)**.

ولذلك نعيد الشكل السابق بإضافة السبب المؤثر قبل نقطة (أ):



وإذا رجعنا إلى إيضاح فكرة السببية في الخط المتموج، الذي رمزنا به إلى صورة التغيرات الدائمة في كل ذرة من هذا الكون ــ عند كلامنا على المرحلة الأولى من الدليل ــ لزمنا أن نضيف إلى جانب كل موجةِ تغيُّرٍ سبباً ما وفق الشكل التالي:



وبـذلك نـرى أنه لا بـد أن ننتهي في آخر الأمـر إلى سبب الأسباب؛ الـذي هـو السبب الحقيقي الأول في كـل حادثـة تغير، ولا يكـون هـذا إلّا واجب الـوجـود، كـامـل الصفـات: (وهو الله سبحانه وتعالى).

أمثلة من إقامة الحجة بمضمون هذا الدليل:

١ ــ وهذا الدليل نفسه هو الدليل الذي اعتمـد عليه أبـو حنيفة رضي الله عنـه؛ حينما أقام الحجة على الزنادقة مثبتاً لهم وجود الله تعالى:

فقد ذكر المؤرخون في مناقبه: أن بعض الزنادقة طلبوا إليه أن يجادلوه في الله، فـذكر لهم موعداً يأتي إليهم فيه لمجادلتهم، وإقامة الحجة عليهم بوجود الله سبحانه.

ولما حان الموعد تأخر عنهم رضي الله عنه، وهم ينتظرون، ثم قـدم إليهم بعد أن يئسـوا من مجيئه، فعاتبوه في التأخر، فقال لهم معتـذراً: لقد قـدمت إليكم في الموعـد المحدَّد، ولكنني لبثت طويلاً على شاطىء دجلة، بـاحثاً عن صـاحب زورق يجتاز بـي النهـر، فما وجـدت. ولما يئست وهممت بالرجوع، رأيت ألواحـاً من الخشب قادمـة بنفسها، وجعلت تنضم إلى بعضهـا حتى صارت بين يديَّ زورقاً حسناً، فركبته وقطعت به النهر، وقدمت إليكم الآن!

فقال الزنادقة جميعاً لأبـي حنيفة: أتهزأ بنا؟ وهل يمكن أن تأتي ألواح بنفسها كـما وصفت فتكون زورقاً؟!

فقال لهم: هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به! فإذا كنتم لا تصدقون أن زورقاً يصنـع نفسـه بنفسه، فكيف تريـدون مني أن أصدق، أم كيف تصـدقون أنتم في عقـولكم، أن هذا الكـون المتقن العجيب قد جرت حوادث تغيراتـه بنفسه دون خـالق عظيم؟! فبُهتَ الـزنادقـة، وقامت عليهم الحجة الدامغة، وأسلموا على يده رضي الله عنه.

هـذه القصة عـرضت لك فيهـا معنى ما جـرى بين أبـي حنيفـة ومجـادليـه؛ دون التـزام لحكاية الألفاظ.

٢ ــ إن فكـرة التغير والسببيـة قد قـامت في عقول أكـثر الفلاسفـة القدمـاء؛ فجعلتهم يؤمنون بواجب الوجود، ذلك أنهم رأوا أحوال الأرض وتغيُّراتها، فثبت لـديهم أنها بحاجـة إلى مؤثـر، وحكموا في فلسفتهم بـذلك. ولكن بعضهم لـما نظروا إلى الأفـلاك زعموا أن اتصـاف السماوات بمقاديرها، وأحيازها وأوضاعها وحـركاتهـا، أمر واجب لـذاته ممتنـع التغـير عن هذا

الوضع، فيستغني عن المؤثر! ثم لما أرادوا بيان المؤثر في أحوال الأرض وتغيراتها قالوا: نحيل ذلك على الأفلاك والكواكب والنجوم التي هي واجبة الوجود. ولما رأوا في الأرض الحياة والعقل لزمهم أن يقولوا: إن الأفلاك عاقلة حية، حتى استطاعت أن تمد أحياء الأرض بالحياة والعقل؛ ومن ثَمَّ قامت عندهم فكرة العقول العشرة، وما إلى ذلك من ضلالات!!

لقد ألزمهم التفكير من جهة الأرض بوجوب التسليم عقلاً بواجب الوجود، ولما جهلوا مشابهة السماء للأرض، ورأواها في حدّ نظرهم ثابتة الصفات، زعموا أنها هي واجبة الوجود فألَّهوا الأفلاك.

وهنا أرشدهم سيدنا إبراهيم عليه السلام في محاجّته لقومه، إلى مماثلة الأفلاك والنجوم وكل ما في السماء للأرض من تغيراتها؛ التي يقضي العقل بأنها حوادث تحتاج إلى مؤثر واجب الوجود، وأثبت لهم أن الربَّ تعالى ــ الذي هو واجب الوجود ــ غير هذه الأجرام السماوية التي يؤلِّهونها، بدليل أفولها وتغيّرها المشاهَد بالحِسّ. وقد حكى الله عنه ذلك في قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وكان إبراهيم عليه السلام من شيعة نوحٍ عليه السلام كما جاء في القرآن، أي: من أتباع ملّته مع من بقي في الأرض يومئذٍ على ملّة نوح، وكانت فلسفته في نظره العميق هي الطريق الذي هداه إلى محاجّة قومه ضمن مفاهيمهم ومسلّماتهم، وكان اصطفاء الله له بالنبوّة والرِّسالة بعد اكتمال شخصيته الممتازة، وجعله الله من أولي العَزْمِ من الرُّسل، وأثبت جدارته التامة لذلك.

٣ ــ قام هذا الدليل نفسه في نفس الأعرابي الذي قال ببداهته: (وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تَدُلّان على الواحد القدير).

٤ ــ قام هذا الدليل نفسه في عقول كثير من العلماء الماديين الطبيعيين، واستدلوا به على وجود الخالق جلّ وعلا.

ومنهم «أندرو كونواي إيفي» ــ من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرةالعالمية من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٤٦ ــ فقد كتب يقول تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة):

(إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأً قانون السببية، فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحية، والعقل البشري لا يستطيع أن يعمل إلاّ على أساس السببية، إنني أسلِّم أن لقانون السببية وجوداً حقيقياً).

التنبيه على دليل التغير والسببية في القرآن الكريم:

لقد نبَّه القرآن الكريم على معنى التغير الدائم، القائم بكل شيء في هذا العـالم، في كثير من الآيات الكريمة، التي تتضمن لفت النظر إلى وجود الله سبحانه، وإلى صفة خلقه للأشياء.

ولئن كنا عبَّرنا بلفظ السبب ومعنى السببية من وجهة النظر التي سقناها في الدليل؛ فإن الله سبحانه قد اختار في القرآن اللَّفظ الأدق في التعبير ـ والذي يتناسب مع صفة الألوهية ـ ألا وهو لفظ الخلق؛ ذلك أن السببية متى انتهت إلى العليم الحكيم المريد المختار القادر على كل شيء؛ كانت خلقاً، ويسقط عندئذٍ مفهوم السبب.

فلكل صورة من صور التغير في هذا العالم ـ الذي أسميناه عالم المتغيرات ـ خلق رباني؛ كان هو السبب الحقيقي في حدوث ظاهرة التغير، من وراء الأسباب الصورية.

وما أكثر الآيات القرآنية التي تشير إلى مضمون هذا الدليل بصيغة الخلق؛ لأن صيغة الخلق هي التي تتناسب مع الألوهية كما بيَّنا. ومن تلك الآيات القرآنية الكثيرة، قوله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴿١١﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾.

يزجي سحاباً: يسوقه سوقاً رفيقاً إلى حيث يريد. يجعله ركاماً: متراكماً فوق بعضه. الودق: هو المطر. السَّنا: شدة الضوء.

إننا نرى هذه الآيات ـ وأمثالها في القرآن الكريم ـ تتحدث عن التغيرات الكثيرة التي نشاهدها في هذا العالم، وتشير إلى أن هذه التغيرات لا بدَّ لها من سبب، وأن سببها الحقيقي

الأول لا بد أن ينتهي إلى معنى الخلق والإبداع، وذلك لا يكون إلا من صفات الخالق. وعلى طريقة الإيجاز القرآني واختصار سبيل الحجة، ذكرت الآيات القرآنية الخلق من أول الأمر.

فتحويل الأتربة بوساطة الماء إلى أغذية، والأغذية إلى دماء، والدماء إلى نُطَف، ثم تحويلها إلى بشر سوي منه الذكر ومنه الأنثى.

وإزجاء السحاب والتأليف بينه، وجعله ركاماً، وإخراج الودق من خلاله، وإنزاله على أرض دون أرض وفق المشيئة، وإضاءة البرق وسط السحب، وتقليب الليل والنهار، وتحويل الماء إلى دوابّ حية، وجعل الدوابّ على أنواع مختلفة، وأصناف متعددة.

كل هذه الأشياء ـ ونظائرها التي لا تحصى ـ صور من التغيرات الكونية الدائمة؛ التي تتطلب في نظر العقل سبباً مؤثراً. وقد عرفنا أنه متى انتهى السبب المؤثر إلى سبب الأسباب كان ذلك خلقاً لا محالة، لأنه لا يكون سبب الأسباب إلا قادراً عليماً، مريداً مختاراً حكيماً، وذلك: ﴿هو الله تعالى﴾. وكل أفعاله خَلْقٌ، لذلك فهو يخلق ما يشاء، وهو على كل شيءٍ قدير، ومتى وصلنا إلى معرفة الله عزّ وجلّ سقطت السببيّة ومفاهيمها، وثبتت في تصوُّراتنا صفات الله وأسماؤه الحسنى الواردة في النصوص والمفاهيم الدينيّة الثابتة.

* * *

الدليل الرابع على وجود الخالق سبحانه

دليل الإتقان في الكون

من أعظم ما يدهشنا في أنفسنا، وفي الكون من حولنا، هو هذا الإتقان العجيب، في الصنع والتركيب. فما نُدْرِكُ من شيء في الأرض ولا في السماء، إلا وهو في غاية الإتقان، مركَّبٌ أحكم تركيب يؤدي به إلى غايته التي خلق من أجلها؛ باعتباره جزءاً من وحدته التي هو أحد أجزائها، أو باعتباره فرداً في مجموعة هو واحد من نوعها، أو باعتباره مجموعة هي واحدة من جنس مجموعات كثيرة. كل ذلك في جملة هذا الكون الذي تنتظمه وحدة مهيمنة، لا يستطيع أي جزء منه أن يتحرَّر منها، أو يفلت من قانونها.

أليس من الإتقان العجيب هندسة هذا الكون في مخطط كواكبه ونجومه؛ بحيث إن أي تغيير فيه يؤدي به إلى الخلل والنقص، أو الخراب والفساد؟! سل عالم الفلك يظهر لك من دقائق إتقان الكون ما هو فوق الدهشة والحيرة.

أليس من الإتقان المدهش هندسة هذا الإنسان في خلقه وتكوينه؟! سل عالم التشريح عن مخطط جسم الإنسان وإتقانه وخواصه ومزاياه؛ يبين لك من صنعه عجباً يدهش العقول ويحيِّر الألباب.

أليس من الإتقان البديع المحيّر هذه المجموعات الكبرى في عالم الحيوان: سواء منها الطائر والسابح، والماشي والزاحف، بأنواعها المختلفة، المتقنة في أشكالها وأوضاعها، وألوانها وخواصها، وطبائعها وطرق عيشها، وكبيرها وصغيرها؟! سل عالم الحيوان عن عجائب الحيوانات وغرائبها، وإتقان تكوينها؛ يُبْدِ لك من أمرها عجباً يسلمك إلى الحيرة والدهشة في مدى حكمة صانعها.

أليس من الإتقان البديع المدهش هذه المجموعات الكبرى في عالم النبات: سواء فيها أشجارها وزروعها، هوائيّها ومائيّها، بثمارها وأزهارها، وأوراقها وأخشابها، ولَدْنِها وصُلْبها، بألوانها وأشكالها، وطعومها وروائحها وخواصها؟! سل عالم النبات عن النباتات، يشرح لك من أمرها ما يفجر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم؛ الذي أتقن كل شيء صنعاً.

أليس من الإتقان البديع تكوين الأرض: ببحرها ويابسها، بجبالها وأغوارهـا، ووديانها وسهولها، بصخورها ورمالها، وأتربتها ومعادنها، بينابيعها وأنهارها، بـألوانها وطـرقها، ببحـرها وبرّها، وصيفها وشتائها، بليلها ونهارهـا، بسيرهـا في فلكها ودورانها حـول محورهـا، بجميـع خواصها وصفـاتها؟! سـل عالم الجغـرافية، وعـالم الكيمياء، وعـالم طبقات الأرض، سـل عالم الطبيعة أيّاً كان اختصاصه، يظهروا لـك من إتقان تكـوين الأرض عجباً يهـديك إلى رشـدك، ويعرفك بوحدة الصانـع الحكيم، الذي أتقن كل شيء صنعاً.

إنه كلما تقدم العلم وازدادت المعارف التجريبية، تعرف الإنسان على دقـائق جديـدة من إتقان الصنـع في هذه الموجودات الكونية، وازداد إيماناً بالصانـع العظيم.

ثم إننا لا نرى ترتيباً متقناً محكماً في أي مركب من المركبات؛ إلاّ اسـتـدعـىٰ فـي أذهاننـا التفكير بمن أتقنه ورتّبه هذا الترتيب المتقن الحكيم.

ذلك أن احتمال الإتقان الموافق للحكمة في مركبات تزيـد أجزاؤهـا على عشـرة أجزاء؛ ذو نسبة عددية ضئيلة جداً بالنظر لـلاحتمالات الأخـرى غير المتقنـة التي تفوق كثـرتها الحصر، والتي يمكن أن تتألف هذه المركبات على وفقها، لو أنها كانت على سبيل المصادفة.

وإن عقولنا متى لاحظت مركباً على وجه الإتقان والحكمـة، فإنها لا شـك تفرض بـداهة أن متقناً ما، حياً عالماً قادراً مريداً حكيماً، قد أتقن ترتيبها.

كما أنها ترفض رفضاً قطعيّاً أن يكون ترتيبها قـد جاء عـلى طريقـة المصادفـة؛ لأن صورة الإتقـان على سبيـل المصادفـة في المركبـات ذات الأعداد الكبيـرة؛ من المستحيلات في مـألـوف العقلاء، كما أنها من المستحيلات أيضاً في نظر الحسّاب الرياضيين.

وفي الأمثلة القريبة البسيطة من حياتك:

تدخل إلى دار فترى أثاثها مرتّباً بنظام حسن موافق للمصلحة؛ فتقـول بداهـة: لا شك أن هذا الترتيب لم يأت عن طريق المصادفة، وإنما هو بفعل فاعل مختار ذي نظر صحيـح.

ويعرض عليك بائـع الساعات ساعـة لتشتريهـا، فتسأل أول مـا تسأل ــ بعـد أن يسرك شكلها ــ عن الصانـع الذي صنعها، لتعرف مستوى مهارته، وجـودة صناعتـه وخبرتـه، حتى تـطمئن على حسن سيـرها في المستقبـل، وعلى دقـة ضبطهـا للوقت، لأنـك تعلم أنـه يتـوقـف ما تطلبه منها من ضبط ومتانة على مقدار مهارة الصانـع وإتقانه ونصحه.

إننا نؤمن بالصانـع بداهة في كل الأمور الجزئية متى كانت موافقة للحكمة والمصلحة.

أفلا تؤمن بالصانع العظيم الحكيم، بالله رب العالمين، من خلال موجودات لا تحصى في هذا الكون، كل جزء فيها موضوع في مكان لو وُضع في غيره لتعطلت الحكمة منه، ولاختلت المصلحة، ولو وُضع غيره في مكانه لحصل الخلل أيضاً في الترتيب والنظام ووجه الإتقان؟!

إن إتقان الصنعة في هذا العالم الزاخر بالمتقنات، دليل واضح على الصانع المتقن الحكيم العليم، يشهده من الناس العالم والجاهل، الغبي والعاقل، الصغير والكبير، ويحكم به بداهة بأن الله حق، وهو على كل شيء قدير، وليس فوق حكم البداهة حكم لعاقل.

هذا عرض «لدليل الإتقان»، وقد سماه الكثيرون: «دليل العناية»، لأن ظاهرة الإتقان يلاحظ فيها أول ما يلاحظ عناية الله الحكيم العليم بخلقه، وتهيئته صور الإتقان المناسبة لمصالحهم، وأرى أنهما دليلان، دليل الإتقان، ودليل العناية، وذلك لأنّ الإتقان إذا كان لمصلحة ذي حياة يستفيد منه كان ذلك عناية به فيظهر عندئذٍ دليل العناية.

التنبيه القرآني على مضمون هذا الدليل:

ولقد جاء التنبيه على مضمون هذا الدليل بشكل مجمل في قوله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

كما جاء إيضاحه في كثير من آيات القرآن الكريم، على وجه فيه شيء من التفصيل والتنبيه على كثير من صور الإتقان البديع في هذه المتقنات الكونية؛ حيث لم يوجد شيء منه إلاّ متقناً محكماً.

منها قوله تعالى في سورة (النبأ ٧٨):

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

مهاداً: فراشاً للاستقرار عليها. أوتاداً: أي كالأوتاد للأرض لئلا تميد بنا. سباتاً: قَطْعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم. سراجاً وهاجاً: مصباحاً غاية في الحرارة وهي الشمس. المعصرات: السحائب. ماءً ثجاجاً: منصباً بكثرة. ألفافاً: ملتفّة الأشجار لكثرتها.

ففي هذه الآيات ــ من سورة النبأ ــ تنبيه على جزئيات كثيرة، يتجلى فيها إتقان صنع الله لمن تدبر وعقل.

ومنها قوله تعالى في سورة (عبس ٨٠):

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قُتل الإنسان: لُعن الكافر، أو عُذّب. فقدّره: فهيّأه لما يصلح لـه. قَضْباً: علفاً رطباً للدواب. حـدائق غُلباً: بسـاتين عـظاماً متكـاثفة الأشجـار. أبّـاً: كـلأً وعشبـاً، أو هو التبن خاصة.

وفي هـذه الآيات أيضـاً ــ من سورة عبس ــ صـورة كثيرة من صـور إتقـان صنـع الله؛ في خلق الإنسان، وفي خلق ما يحتاجه في حياته من طعـام نباتي، وطعـام حيواني، ومـا يحتاجـه في حياته من وسائل نقل حيوانية. إنها صور متكررة فيما نشاهد في هذه الأرض، ولكنّ فيها عبـراً كثيرة تنطق بعظمة متقنها وخالقهـا، لمن أراد أن يذّكـر، أو أراد أن يكون شـاكراً لنعم الله التي لا تحصى.

ومنها قوله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

بـروجاً: منـازل للكواكب السيّـارة. سراجـاً: شمسـاً. خِلْفـةً: أي يتعاقبان في الضيـاء والظلمة.

وهـاتان آيتـان من سورة الفـرقان فيهـما تنبيه عـلى مظاهـر إتقان صنـع الله؛ في الشمس والقمر والنجوم وتعاقب الليل والنهار، وفي هذا المظهر من مظاهر صنـع الله المتقن مجال واسـع لعلماء الفلك الباحثين.

هذا، ولا بأس أن أختم لك دليل الإتقان في الكون الـدال على وجـود الخالق العـظيم؛ بهذه القصيدة التي كنت نظمتها في ٢٤ من ربيـع الأول لسنة ١٣٨٠هـ تحت عنوان:

دلائل الإيمان في الكون

﴿والصبح إذا تنفس﴾

طوى الليلُ أستاره المسدَلَهْ ... ولفَّ ذوائبه المرسَلَهْ
وهبَّ ضياءُ الصباحِ العليلْ ... فعفّى رواسبه المهمَلَهْ
ومرَّ بأنفاسه كالحياةْ ... فأيقظَ أعينَنا المقفَلَهْ
وألقى الشذى في برودِ الندى ... على الزهرِ والأغصُنِ المخضَلَهْ
وذرَّ على الطيرِ نفحَ النشيدْ ... فغنتْ جماعاتُها المقبِلَهْ
فأمعنتُ في حسنهِ الباهرِ ... فآمنتُ بالخالقِ القادرِ

وفي الصبح للناظر المعتبرْ
روائع آيات رب البشرْ... فآمنت به

﴿والشمس وضحاها﴾

هي الشمسُ في خفرٍ تُشرقُ ... تكادُ على بعدها تعشقُ
تمدُّ على الأرضِ أسبابَها ... فيعلقُ بالزهرِ ما يعلقُ
تمرّ فتشطُر قلبَ السماءْ ... وأنهارُ أنوارِها تَدْفقُ
فتقسو على بلدٍ باللهيبْ ... وفي بلدٍ ناعمٍ ترفقُ
تجرُّ الحياةَ فتحيي البلادْ ... كأنَّ بها خالقاً يخلقُ
فأمعنتُ في سرها الباهرِ ... فآمنتُ بالخالقِ القادرِ

وفي الشمس للناظر المعتبرْ
روائع آيات رب البشرْ... فآمنت به

﴿والقمر إذا تلاها﴾

وجاءَ مع الليلِ نورُ القمرْ ... يناظِرُنا من خلالِ الشجرْ
يذكّرنا وجهُه بالحبيبْ ... ويَنْفَحُنا بالنسيمِ العطِرْ

يلذّ لنـا فـي هـداهُ السـرى ويحلو لنـا في سناهُ السمـرْ
أنـامـلُ أضـوائِـه فـتـنـةٌ تجسُّ المشاعـرَ جسَّ القـدَرْ
فتتركنا في بـديعِ الخيالْ نـقلِّب فـيـه بـديعَ الصـوَرْ
فـأمعنتُ في سحرهِ البـاهـرِ فـآمنتُ بـالـخـالقِ الـقـادرِ
وفـي البـدر لـلنـاظـر المعـتبـرْ
روائع آيات رب البشرْ. . . فآمنت به

﴿والنهار إذا جلاَّها﴾

أضـاءَ النهارُ وصحَّ العمـلْ ومزقتِ الشمسُ ثوبَ الكسـلْ
وأسـرعَ كـلٌّ إلـى رزقِـهِ يـكـابـدهُ بـلذيـذِ الأمـلْ
فتحظى بلحمِ الطيورِ النسورْ وتهنـأ بـالمتنـاتِ الجُعَـلْ[1]
ويسعدُ بالحرصِ جيشُ النمالْ ولـو أسكنوهُ بـوادي السَبَـلْ[2]
بـدائـعُ شـاهـدتُهَا في النهـارْ لهـا سببٌ بـالهـدى متصـلْ
فـأمعنتُ في سـرهـا البـاهـرِ فـآمنتُ بـالـخـالقِ الـقـادرِ
وفـيهـا لـذي الـنـظر الـمعـتبـرْ
روائع آيات رب البشرْ. . . فآمنت به

﴿والليل إذا يغشاها﴾

على صفحـةِ الأفقِ السـاهـرِ وفي ليلةِ البـاحثِ الشـاعـرِ
ومن نـظرةٍ تتحـرى الهـدى فتلقفُ كـلَّ هـدىً عـابـرِ
رأيـتُ الكـواكـبَ مبـثـوثـةً بمـظهـرهـا الفـاتنِ السـاحـرِ
بـإتقـان تَسيَـارِهـا في الـدجى تُـغَلْغِـلنَ في الأفـقِ الغـائـرِ
تنـاءتْ مدىً، وتـدانتْ هـدىً وردَّت سُـدىً نـظر النـاظـرِ
فـأمعنت في سـرهـا البـاهـرِ فَـآمنتُ بـالـخـالقِ الـقـادرِ
وفـي الليـل لـلبـاحث الـمـدَّكـرْ
روائع آيات رب البشرْ. . . فآمنت به

---

(١) الجعل: دويبة تألف القاذورات.

(٢) السَبَل: السنابل.

﴿والسماء وما بناها﴾

وألقيتُ عينَيَّ شـطرَ السمـاءْ   وما جَمَعَتْ من بديعِ الـرواءْ
وسرتُ مع الوهمِ ما شاءَ لي   وأرسلتُهُ سـابحـاً في الفضـاءْ
فجـالَ طـويـلاً بـأرجـائهـا   وأمعنَ في بـاعثـاتِ الضيـاءْ
ولمـا رأى المعجـزاتِ الكبـارْ   تجلّتْ بـإبـداعِ هـذا البنـاءْ
تـضـاءلَ حتـى رأى نَـفْسَـهُ   أمـامَ السمـاءِ كمثـلِ الهبـاءْ
فـأمعنتُ في صنعهـا البـاهـرِ   فـآمنتُ بـالـخـالقِ الـقـادرِ

سـمـاء بـهـا للفتـى الـمـعـتبـرْ
روائع آيات رب البشرْ. . . فآمنت به

﴿والأرض وما طحاها﴾

وطفتُ على الأرضِ من بَرِّها   إلى جـوهـا وإلى بحـرِهـا
بـأطـوادهـا عـاليـاتِ الـذرى   ودونَ الهضـابِ إلى غـورِهـا
وشـاهدتُ أنهـارَها الجاريـاتْ   ونبعـاً تفجرَ من صخـرِهـا
وشـاهـدتُ أشجـارَها بـاحثـاً   وقلّبتُ عَيني على جَـذْرِهـا
وحركتُ ضِرسي على حُلوِهـا   وحـركتُ سني على مُـرِّهَـا
ونقّلتُ جسـمي في بـردِهـا   وقلبتُ جسمي على حـرِّهـا
وأمعنتُ في صنعهـا البـاهـرِ   فـآمنتُ بـالـخـالقِ الـقـادرِ

وفـي الأرض للبـاحـث الـمـعـتبـرْ
روائع آيات رب البشرْ. . . فآمنت به

﴿ونـفـسٌ ومـا سـوّاهـا * فـألـهـمـهـا فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها﴾

لمستُ بنفسي فعـلَ الحيـاةْ   وأحسستُ فيها كمينَ المماتْ
ويُـدهشني النطقُ عنـد الكلامْ   ويـدهشني فهميَ الحـادثـاتْ
وأُدرِكُ أنـي سـمـيـعٌ بـصيـرْ   فـأعجبُ كيفَ أتتني الصفاتْ
وأعجبُ كيفَ يسيـرُ الـطعـامْ   فيمنـحُ جسمي غـذاءَ الحيـاةْ

وقــد أتمنى خفيفَ الأمــانـي فـأعجـزُ عن جَلَبِ الأمنيــاتْ
فـأمعنتُ في عَجْـزيَ الـظاهـرِ فــآمنتُ بــالـخــالقِ الـقــادرِ
وفـي النـفس للبــاحـث الـمـدَّكـرْ
روائع آيات رب البشرْ. . . فآمنت به

يـــا إلهي

عــرفتـكَ يــا ربِّ علمَ اليقينْ فـهبـني مــرتـبـةَ الْمُحْسِـنينْ
هـداني إليكَ جمـالُ الـوجـودْ وأرشــدني سيــدُ المــرسلينْ
تلوتُ بقــرآنـكَ المعجـزاتْ وشاهدتُ فيها الحكيمَ المبينْ
فسدِّدْ خطايَ إلى الصـالحاتْ وسِـرْ بـي إلى زمرِ المخلَصينْ
فــإنـي أحبُ نـبـيَّ الـهــدى حبيبَـك يـا ربِّ في العـالمينْ

□ □ □

الفصل الثاني

صفات الله سبحانه وأسماؤه الحسنى

مقـدمـة :

ظاهرة العمل المتقن تدل على صفة الإتقان لدى من قـام بـه، فالقصر الجميـل المتقن في بنائه، المتقن في هندسته، المتقن في أثاثه وتزيينه، يـدل بداهـة على أن من هنـدسه وأثثـه وزينه متقن، خبير بالهندسة، حَسَنُ الذوق في اختيار الأثاث، وتزيين القصور.

والمكنة الآليَّة التي تؤدّي عملها أداءً جيّداً، تدل بداهة على أن مبتكرها وصانعها ذو معرفة بالآلات الصناعية وهندستها، وذو مقدرة على الابتكار.

والإتقـان يستلزم: العلم والحكمة، والحكمـة هي حسن اختيار الاحتمـال الأفضـل من الوجوه المختلفة. ويستلزم أيضاً القدرة على التنفيذ.

فإذا بدت ظاهرة الإتقان في العمل، دلت هذه الظاهرة على أن من قام بهذا العمل لديـه من العلم والحكمة والقدرة على التنفيذ، بمقدار ما يتطلب هذا العمل من علم وحكمة وقدرة، على أقل تقدير.

وظاهرة العمل الكبير الضخم الذي يتطلب قدرة عظيمـة، تدل بـداهة عـلى أن من قام بهذا العمل الكبير، لديه من القدرة ما يكفي للقيام به، وقد يكون لديه أكثر من ذلـك. وحين يحتال إنسان فيصل إلى المكان الخفي الخاص بتحريك قوة كامنة؛ فيضغط عليه ضغطاً يسيـراً، أو يحرّكه تحـريكاً خفيفاً، فتنفجر بذلك قوة هائلة مدمـرة، أو صوت عـظيم، أو تتحرك آلات كثيرة ضخمة، فإننا ندرك أن هذا الإنسان يملك من قوة الحيلة والمعرفة بمكامن القوة والمواضـع الخفية لتحريكها؛ قدراً يكافىء العمل الذي قام به، لا سيما إذا استطاع تكريـر عمله في مختلف الظروف، وعند الحاجة، وحسب الغاية، وتأكدنا أن عمله لم يكن حركة عشوائية.

إذن: فالعمل الذي يحتاج إنجازه إلى قوة، يدل إنجازه على أن من قام به لو لم يملك هذه القوة لما استطاع أن ينجزه. ومتى اجتمعت صفات القدرة والعلم وحسن الاختيار في موصـوف واحد؛ كان ذلك دليلاً على أن هذا الموصوف حيٌّ لا ميت، ولا مادة عديمة الحياة.

وحين أرشد القرآن الناس فلفت أنظارهم إلى ظواهر هذا الكون؛ المملوء بالمتقنات العجيبة، والمحكمات الغريبة، والمصنوعات البديعة، التي لم توجد أنفسها بأنفسها، ولا تتحكم بذواتها بعد وجودها، فقد دلَّهم بذلك على أن متقنها ومحكمها ومبدعها وصانعها قدير عليم حكيم حي.

وقد دلَّهم على أنه يرعى كونه بالتدبير الحكيم دائماً، وذلك لأن تصاريف أحداث هذا الكون وحركاته الدائمة مقرونة بالحكمة والعناية، لذلك فلا بد أن يكون مدبِّراً لأمره، ولا يملك تدبير هذا الكون الكبير إلَّا محيط به حكمةً وعلماً وقدرةً، ومهيمنٌ عليه، ومسيطر على كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ فيه.

ومن كان كذلك كان هو المالك له، وهو الملك الحاكم على الأحياء فيه. وبهذا الترابط الفكري المقتبس من دراسة ظواهر هذا الكون، علمنا أن وراء هذه الظواهر خالقاً قديراً عليماً حكيماً مهيمناً، مدبِّراً للأمر كلّه، مالكاً ملكاً، يفعل ما يشاء ويختار، لطيفاً خبيراً، سميعاً بصيراً رحيماً.

وهكذا إلى سائر صفات الكمال لله تبارك وتعالى.

تفصيل الصفات والأسماء:

(الله): اسم علم في اللغة العربية على الذات الإلٰهية الجامعة لجميع صفات الكمال، والمنزهة عن أيَّةِ صفة من صفات النقصان التي لا تليق بكمال الألوهية والربوبية، ولذلك فهو أعظم أسمائه الحسنى.

ومن خواص هذا الاسم: أنه لم يسمَّ به غير الخالق جل وعلا، لا على سبيل الحقيقة، ولا على سبيل المجاز.

ولله تعالى في كل لغة اسم علم على ذاته، يجب تقديسه، واحترامه في تلك اللغة. فمن ذلك: (طانري ـ **Tanri**) في التركية، و(خداي) في الفارسية، و(ديو) في الإفرنسية، و(كَدْ ـ **god**) في الإنجليزية، وهكذا.

هذا، وبعد أن قام في أنفسنا دليل البداهة على وجود الله تعالى، وأدركنا ببعض البراهين العقليةِ والعلمية أن وراء هذه الظواهر الطبيعية قوةً كبرى؛ هي المهيمنة على الكون، والمحركة له، والمحكمة لنظامه، وأن هذه القوة هي المُمِدّة لكل القوى، وهي المنشئة من العدم، وهي التي إليها يرجع الخلق والأمر.

بعد إدراكنا لما سبق، لا بد أن يتفتح في أذهاننا وصف هذه القوة المهيمنة الكبرى بعدة صفات، نستطيع أن نستنتجها من خلال آثارها، وهي مستتبعة لصفات الحمد والتمجيد، هذا بالإضافة إلى المؤيدات النقلية التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، من وصف الله تعالى بعدة صفات، وتسميته بعدة أسماء وصفية، تستطيع عقولنا أن تدرك وجودها وكمالها وتنزيهها، وأول هذه الصفات هي صفة وجوده تعالى.

(١)
«صفة الوجود»

لقد قام دليل البداهة ودليل العقل ــ كما سبق ــ على وجود الله جل وعلا، فاعتقاد أن الله سبحانه موجود، اعتقاد ملزم لكل ذي عقل لفتت الشرائع نظره إلى هذه الحقيقة؛ ومن ينكر وجود الله أو يشك فيه بعد التأمل والنظر، فهو أحد شخصين: إمَّا مجرم معاند كنود مستكبر، وإمَّا فاقد العقل خالي التفكير.

ففي حكاية قول الرسل للأمم السابقة وهم يتعجبون من الشك في الله؛ يقول الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠﴾﴾.

ثم إن صفة وجود الله تعالى من أولى الصفات التي يثبتها العقل، وتدركها البديهة، وإن عجزت العقول والأفهام عن تصوُّر أو توهُّم حقيقة ذاته تعالى، وحقيقة صفاته سبحانه.

والوجود: نقيض العدم، وإدراك معناه بديهي لا يحتاج إلى توضيح، فكل ذي إدراك يدرك معنى وجود نفسه، كما يدرك معنى انعدام كثير من الأشياء غير الموجودة.

أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة الوجود لله تعالى:

وقد جاء في المأثور من أسماء اللها لحسنى أربعة أسماء تعود إلى معنى تحقق وجود الله تعالى؛ وهي: (الحق ــ النور ــ الظاهر ــ الباطن)، وفيما يلي شرح هذه الأسماء:

اسم الله (الحق):

الحق: هو الأمر الثابت الواجب الذي لا شك فيه، وهو ضد الباطل. فمعنى كون الله هو الحق: أنه هو المتحقق الثابت وجوده أزلاً وأبداً، الذي لا يتغير، ولا يتناقص، ولا يعرض لذاته شيء، وكل ما عداه من موجودات فهي موجودة بإيجاده لها، وهي في الأصل عدم

وباطل، «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أصدق كلمة قالها الشاعر العربي لبيد. قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾.

وقال تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۝١١٤﴾.

اسم الله (النور):

أي: ظاهر الوجود، بما نصب سبحانه من الدلائل على وجوده في كل شيء.

فيرجع اسم النور إلى معنى: ظهور وجوده، ببرهان البداهة والعقل، كما أن النور ظاهر للعيون بدليل الحس، وهذا أحد معاني هذا الاسم. كما يحمل معنى: أنه هو المظهِر لغيره، إذ يوجِد الأشياء من العدم، ويكشف خباياها بنوره للناظرين، فيرجع إلى صفة من صفات الأفعال الآتية.

قال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝٣٥﴾.

اسم الله (الظاهر):

أي: الظاهر وجوده وكمال صفاته، بما بثّ من الأدلة والبراهين في مخلوقاته على وجوده، فما من شيء إلّا وهو يحمل آيات وجوده سبحانه، ودلائل قدرته وعلمه، وطائفة من صفاته البالغة ذروة الكمال.

وثبت في الصحيح أن الرسول (ﷺ) قال: «أنت الظاهر فليس فوقك شيء». وعليه فقد يكون الظاهر بمعنى العالي الذي لا شيء فوقه.

اسم الله (الباطن):

أي: هو الباطن بحقيقة ذاته، إذ تعجز العقول والحواس بمقتضى تكوينها عن إدراك حقيقته جل وعلا، لأن الحواس والعقول صغيرة محدودة، والله سبحانه وتعالى كبير لا حدّ له.

قال تعالى مشيراً إلى اسميه الظاهر والباطن في سورة (الحديد ٥٧):

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي (ﷺ) قال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

وعليه فقد يكون الباطن بمعنى: أنه أقرب إلى كلّ شيءٍ من نفسه؛ بعلمه وقدرته.

(٢)

«صفة القدرة»

إننا ندرك بداهة أن الخالق العظيم الذي صدرت عنه هذه الموجودات الكونية ذات القوى الكبيرة؛ لا بد أن يكون هو ذا قوة وقدرة، ولولا أن يكون ذا قوة وقدرة، لم تصدر عنه أشياء لها قوى وقُدَر.

والقدرة: صفة وجودية من شأنها أن يكون لها أثر، كإيجاد الأشياء الممكنة، أو إعدامها، أو التصرف في الموجودات بجمعها، أو تفريقها، أو تحويلها، أو نحو ذلك.

وهذا المعنى هو ما نسميه: (بصفة القدرة)، فالله سبحانه وتعالى (قادر مقتدر). وقد وصف الله نفسه بهذه الصفة في القرآن الكريم في عدة آيات كريمات؛ منها قوله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾.

وقوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾.

وقوله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢﴾.

ولكن قدرة الله وقوته لا تشبه ـ من قريب ولا من بعيد ـ قدراتنا وقواتنا، لأن قدرته تعالى قدرة كاملة تتعلق بجميع الممكنات، غير مستمدة من شيء، إذ هي من صفات الألوهية، أما قدراتنا: فهي قدرات محدودة ناقصة، مستمدة من غيرها، إذ هي من صفات المخلوقات.

أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة القدرة لله تعالى :

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى تسعة أسماء تعود إلى معنى تحقق صفة القدرة الكاملة لله تعالى؛ وهي: (القوي ـ المتين ـ القادر ـ المقتدر ـ الواجد في «أحد معانيه» ـ العزيز ـ المقيت «في أحد معانيه» ـ مالك الملك ـ المَلِك ـ الوارث).

وفيما يلي شرح هذه الأسماء التسعة:

اسم الله (القوي):

أي: ذو القوة الكاملة، فلا يعجزه أمر ممكن في إيجادٍ أو إعدامٍ، ولا يمسّه نَصَب، ولا يلحقه ضعف.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾.

اسم الله (المتين):

أي: ذو المتانة الكاملة. والمتانة أبلغ من مطلق القوة، لأنها القوة الزائدة.

فمعنى المتين: هو الذي له كمال القوة التي لا تعارضها ولا تشاركها ولا تدانيها قوة؛ كما لا يعرض لها عجز ولا تعب ولا تناقص في التصرف بكل أمر ممكن.

قال الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

اسم الله (القادر):

أي: ذو القدرة الكاملة. والقدرة كما سبق: صفة من شأنها أن يكون لها أثر، كإيجاد الأشياء أو إعدامها، أو التصرف في الموجودات، بجمعها أو تفريقها أو تحويلها، أو أي أثرٍ ما فيها.

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ۝٦٥﴾.

اسم الله (المقتدر):

أي: ذو القدرة الكاملة. والمقتدر أبلغ من القادر، أخذاً من زيادة المبنى. قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾.

اسم الله (الواجد):

أي: ذوالجِدَة الكاملة، وهي الغنى بما يملك فيه قدرة التصرف، فلا يحتاج إلى مساعد ولا معين. فمعنى الواجد: القادر على التصرف بكل شيء وفق مراده، لأن كل شيء حاضر لديه مملوك له.

وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم الكريم، ويأتي عند صفة العلم أنه بمعنى العالم.

ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، ولكنه مجمع عليه.

اسم الله (العزيز):

أي: ذو العزة الكاملة. والعزة هي القدرة على التغلب، تقول العرب: عزّ إذا غلب، وفي المثل: (مَن عزّ بزّ) أي: من غلب سلب. فمعنى العزيز: الغالب الذي لا يُغلب، لكمال قوته وقدرته.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾.

اسم الله (المُقيت):

قال أهل اللغة: المقيت: الحافظ للشيء والشاهد والمقتدر. فيكون بمعنى المستولي القادر على كل شيء، وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

اسم الله (مالك الملك):

المُلك بضم الميم: وهو التصرف بالأمر والنهي. فمعنى مالك الملك: الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، لا مَرَدّ لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والمتانة، والقدرة والعزة والغنى.

قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

اسم الله (الملِك):

بكسر اللام: مأخوذ من المُلك بضم الميم. فمعنى أن الله الملك: أنه هو المتصرف بالأمر والنهي في كل شيء، فإذا قال لشيء: كن، وُجد ذلك الشيء حسب مشيئته تعالى؛ وأنه هو الحاكم الذي يرجع إليه تكليف عباده بالأمر والنهي، فينزل لهم الشرائع والديانات، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وهذا يرجع إلى كمال القدرة على التصرف بالممكنات، وكمال القدرة على تنفيذ المثوبة للطائعين، والعقوبة للعاصين.

قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴿١١٤﴾﴾.

وجاء في القرآن أيضاً اسم الله (المليك) وهو مثل (الملِك) وكلاهما من صيغ المبالغة: «فعيل وفَعِل».

اسم الله (الوارث):

أي: الذي يرجع إلى محض ملكه كل شيء ــ جعل هو لبعض عبيده تملكاً صورياً له ــ؛ والذي تعود إليه الأشياء المملوكة هي ومالكوها، مع أن الحقيقة أن ملك الله للأشياء كلها مستمر لا ينقطع، لأنه هو الذي له كمال القدرة على التصرف بها. فيرجع المراد من معنى الوارث: إلى أن لله سبحانه كمال القدرة على التصرف بكل شيء. ويظهر ذلك واضحاً لجميع المخلوقات، حينما لا يكون لأي مخلوق أية قدرة على التصرف بشيء مما كانوا يملكون فيه قدرة التصرف الجزئية الصورية بإقدار الله لهم؛ وذلك يوم يقول الله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم؟﴾، ويأتي الجواب: ﴿لله الواحد القهار﴾.

قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الحِجْر ١٥):

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

التسلسل الفكري للأسماء الحسنى التي تعود إلى صفة القدرة:

إن صفة القدرة العامة تلاحظ من عدة وجوه:

١ ــ فإذا لاحظناها من حيث كونها وصفاً للذات، دون تعلُّق بشيء، ودون مقارنة بقدرة أخرى: فهي القوة الحقيقية التي لا تستمد من شيء، ولا تضعف ولا تنقص، ومنها سُمِّي الله: (القوي).

٢ ــ وإذا قارنا هذه القوة بكل القوى الأخرى، التي مهما بلغت فإنها لا تستطيع أن تعارضها، أو تشاركها أو تدانيها: فهي بهذه الحيثية تسمَّى المتانة، ومنها سُمِّيَ الله: (المتين).

٣ ــ وإذا لاحظنا تعلق القوة بمقدوراتها، وإمكان التنفيذ: فهي القدرة الحقيقية، ومنها سُمِّيَ الله باسمين:

(أ) (القادر): إشارة إلى قدرته على التصرف الفعلي بالممكنات عند عدم المعارضة.

(ب) (المقتدر): إشارة إلى كمال قدرته على التصرف الفعلي بالممكنات ولو مع المعارضة، أخذاً من زيادة المبنى، علماً بأنه تعالى لا تقف أمام قدرته قدرة معارضة، وإنما ذلك من باب التنزل إلى مستوى مدارك المخلوقات.

٤ ــ وإذا لاحظنا أن قدرته تعالى قدرة ذاتية كاملة، لا تحتاج إلى مساعد ولا معين، وفي ملكها كل الممكنات: فهي الجِدَة الحقيقية، ومنها سمي الله: (الواجد).

٥ ــ ثم إذا لاحظنا قدرة الله سبحانه إلى جانب قدرة المخلوقات التي منحت الإرادة والاختيار: كانت القدرة عليهم ضد إراداتهم واختياراتهم عزة، ومنها سمِّي الله: (العزيز) أي: الغالب.

٦ ــ ثم من كان متصفاً بالقدرة الكاملة في مختلف وجوهها، وجميع متعلقاتها، بينما كل شيء عداه خاضع لتصرفه، مطيع بالقهر لإرادته، فذلك هو الذي له السلطان المطلق، والملك المطلق، أولاً وآخراً، ومن كان له هذا السلطان والملك بقدرته القادرة فهو لا شك (المقيت) وهو (مالك الملك) وهو (الملِك) وهو (المليك) وهو (الوارث)؛ ومن ذلك سمِّي الله بهذه الأسماء الخمسة.

أثر ملاحظة صفة القدرة لله تعالى بمراتبها المختلفة :

وأخيراً: فمن عرف أن الله هو القوي، المتين، القادر، المقتدر، الواجد، العزيز، المقيت، مالك الملك، الملك، المليك، الوارث، رجع في كل شيء إلى قدرته تعالى، متوكلاً عليه سبحانه، فلم يعظم عليه مطلب، بل يهون في نفسه كل أمر، لأنه ينظر إلى قدرة قادر عظيم يستمد منها العون والتوفيق؛ ويعتمد عليها في تحقيق ما يرجو من خير وقوة وسعادة.

(٣)

«صفة الإرادة»

إننا نلاحظ أنفسنا فنرى أن لنا إرادات جزئية محدودة، فإذا أردنا عملاً ما من الأعمال إرادة جازمة، توجهت قدراتنا في داخلنا إلى تنفيذ ما أردنا عمله، كما أننا إذا لم نرد عملاً ما، لم تتوجه قدراتنا إلى تنفيذ ذلك العمل. ونحن نعلم بالضرورة أن وجود صفة الإرادة فينا أكمل مما لو كنّا فاقدي الإرادة، نساق دون أن نشعر أن لإرادتنا تدخلاً في اتجاهنا.

هذا، وبعد أن آمنا بالفطرة وبالبراهين ـ كما سبق ـ أن الله هو خالقنا ومصوّرنا، فهل يمكن عقلاً أن يهبنا الخالق العظيم صفة الإرادة الجزئية المحدودة، ويكون هو غير مريد ولا مختار؟! بمعنى أن تكون أفعاله مكرهاً عليها، أو تجري منه بالطبع دون أن تكون له القدرة على التغيير والتبديل؟! إن هذا أمر مستحيل عقلاً، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

لذلك فإننا نعتقد أن صفة الإرادة ـ وهي من صفات الكمال عقلاً ـ لا بد أن تكون من صفات الله سبحانه وتعالى؛ الذي خلقنا ومنحنا صفة الإرادة الجزئية المحدودة.

ولكن ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن إرادة الله جلّ وعلا ليست مثل إراداتنا الصغيرة؛ المحدودة في نطاقها الضيق، بل هي إرادة شاملة، تتعلق بما يريده الخالق من جميع الأمور الممكنة عقلاً.

وقد وصف الله تعالى نفسه في القرآن الكريم بأنه مريد مختار؛ قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴿٦٨﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (هود ١١):

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾.

ملاحظة: الفرق بين صفتي القدرة والإرادة، أن الإرادة: صفة من شأنها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه في العقل، كالوجود والعدم، والمادية والمعنوية، والطول والقصر، والليونة والصلابة، والقبح والجمال، والذكاء والبلادة، ونحو ذلك مما لا يحصى. وأما القدرة: فهي صفة من شأنها تنفيذ ما خصصته الإرادة، كإخراج الممكن من العدم إلى الوجود فعلاً إذا توجهت الإرادة لإيجاده، أو صرفه من الوجود إلى العدم إذا توجهت الإرادة لإعدامه.

قال الله تعالى في سورة (النحل ١٩):

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾.

فهذه الآية تدل على أن تنفيذ الإيجاد إنما يكون بعد تخصيص الإرادة.

وقال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾.

وهذه الآية تدل أيضاً على أن جمعهم بقدرته تعالى إنما يكون بعد مشيئته.

أثر ملاحظة صفة الإرادة لله تعالى:

ثم إن من يلاحظ أن الله يفعل ما يشاء ويختار، ويراقب ذلك في نفسه باستمرار، ويضع نصب عينيه وقلبه أن إرادته تعالى غلابة، وأن مشيئة كل ذي مشيئة تابعة لمشيئته تعالى. إن من يلاحظ ذلك ويراقبه في حياته يعمل دائماً على أن يرضى ويحب ما أراده الله له ورضيه، من صحة أو مرض، من غنى أو فقر، من رفع أو خفض، من لذة أو ألم، مع سعيه في دفع أو رفع ما أمر الله أو أذن بدفعه أو رفعه، ثم يريح نفسه بالرضا عن مراد الله. وهو يسأل الله الخير حيث كان، ويعلم أنّه لا قدرة له ـ ولا لأحد غيره ـ على تحقيق مرادٍ لم يرده الله، أو دفع مراد أراده الله في كونه. وفي التحقق بهذا المقام بلوغ سعادة عظمى في الدنيا والآخرة، للفرد والمجتمع.

(٤)

«صفة العلم»

وإذا نظرنا إلى الإتقان العجيب، والإحكام الغريب، في هذا الكون الكبير، ولاحظنا أن ما يجري فيه بالتسلسل والتتابع، يجري وفق تنظيم رائع لا ارتجال فيه ولا مصادفة، كما أننا

إذا نظرنا إلى أنفسنا، وما فينا من قابلية للعلم والمعرفة، ونحن مخلوقون من ضعف، وعرفنا أن صفةالعلم فينا من صفات الكمال، وأن صفة الجهل وعدم المعرفة من صفات النقص.

إذا لاحظنا كلَّ ذلك أدركنا إدْراكاً يقينياً جازماً أن الخالق العظيم الذي أتقن خلق الكون وأحكمه؛ وخلق هذا الإنسان القابل للعلم والمعرفة، لا بد أن يكون هو بذاته علياً خبيراً، لا تخفى عليه خافية، ولذلك صدر عنه هذا الإتقان البديع، والإحكام الكامل، والدقة البالغة، في كل مخلوق من مخلوقاته.

وقد وصف اللهنفسه في القرآن الكريم بأنه عليم خبير، وبأنه محيط بكل شي علماً، وبأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وبأن علمه يتناول ما كان وما هو كائن وما سيكون.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٨٩﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

والآيات في هذا الباب كثيرة.

ملاحظة: ولا يغب عن إدراكنا أن علم الله سبحانه ليس كعلمنا؛ فعلمنا: قليل محدود، مكتسب من بعد جهل. أما علم الله جلّ وعلا: فهو علم شامل، محيط بكل شيء من الموجودات، أو غير الموجودات، الممكن وجودها، أو المستحيل وجودها، وهو غير مكتسب، ولا مسبوق بجهل، فالله سبحانه عليم بكل شيء من الأزل.

أسماء الله الحسنى التي تعود ـ بوجه عام ـ إلى معنى تحقق صفة العلم لله تعالى مع فروق في الدلالات:

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى ثلاثة عشر اسماً تعود إلى معنى تحقق صفة العلم الواسع الكامل لله تعالى؛ وهي: (العليم ـ اللطيف «في أحد معانيه» ـ الخبير ـ الشهيد ـ الحسيب «في أحد معانيه» ـ المحصي ـ الواجد «في أحد معانيه» ـ السميع ـ البصير ـ الرقيب ـ المهيمن «في أحد معانيه» ـ الواسع «في أحد معانيه» ـ المؤمن «في أحد معانيه»).

وفيما يلي شرح هذه الأسماء الثلاثة عشر:

اسم الله (العليم):

أي: ذوالعلم الكامل. والعلم: صفة من شأنها كشف الأشياء على حقيقتها. وعلمه تعالى: شامل لجميع المعلومات، محيط بها، سابق على وجودها، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الله تعالى في سورة (الحِجْر ١٥):

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

اسم الله (اللطيف):

أي: ذو اللطف الكامل. واللطف: هو قوة النفوذ إلى بواطن الأشياء وخفيّات الأمور مهما كانت دقيقة، فيعود إلى صفة العلم. فمعنى أن الله لطيف: أنه عليم بخفيات الأمور ودقائقها، لا تخفى عليه منها خافية.

قال الله تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

هذا أجلى معاني هذا الاسم، وسيأتي عند الأصناف التابعة لصفات أفعال الخالق أنه بمعنى خالق اللطف بعباده في أمورهم.

اسم الله (الخبير):

أي: ذو الخبرة التامة. والخبرة: نوع من العلم، وهي العلم بالخبايا الباطنة. فمعنى هذا الاسم: العليم ببواطن الأشياء، الذي لا يعزب عن علمه شيء، فما يجري من شيء خفيّ إلا

ويكون له به علم وخبرة، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن، ولا يخطر فيها خاطر، إلا ويكون عنده علمها، والعلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة.

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

اسم الله (الشهيد):

أي: ذوالشهادة التامة لكل شيء يمكن مشاهدته. والشهادة: نوع من العلم مع الحضور. فمعنى الشهيد: العليم بالأشياء علمَ شهود وحضور.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

اسم الله (الحسيب):

أي: المحاسب، أخذاً من الحساب وهو: العلم بالأعداد على اختلاف أحوالها، ولذلك فهو يحاسب على كل صغيرة وكبيرة. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النساء) أيضاً:

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾.

وسيأتي أنه بمعنى الكافي، فمن توكل على الله فهو حَسْبُه.

اسم الله (المُحْصي):

أي: المحيط بكل موجود جملةً وتفصيلاً، فلا تخفى عليه ذرة من ذراته، كما لا تخفى عليه حالة من حالاته، فيرجع إلى كمال علمه تعالى وعمومه. أو من الإحصاء: وهو الإحاطة بحساب الأشياء وما شأنه التعداد، ويرجع أيضاً إلى كمال علمه تعالى.

وفي معنى أنه محصٍ للأشياء، ومحيط بها علماً، قال الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

اسم الله (الواجد):

إذا كان من الوجدان وهو العلم، أخذاً من قولهم: وجدت فلاناً فقيهاً، أي: علمت كونه كذلك. ومنه قوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: علمه. وعلى هذا يرجع هذا الاسم إلى صفة العلم.

وهذا الاسم غير موجود في القرآن الكريم ـ كما سبق ـ لكنه مجمع عليه.

اسم الله (السميع):

أي: الكاشف لكل موجود بصفة السمع، وكشف الأشياء بالسمع نوع من العلم.

قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

اسم الله (البصير):

أي: الكاشف لكل موجود بصفة البصر، وكشف الأشياء بالبصر نوع من العلم. قال الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

اسم الله (الرقيب):

أي: الذي يراقب الأشياء وهو عليم بها، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ فيعود هذا الاسم إلى صفة العلم.

قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

اسم الله (المهيمن):

إذا كان من الهيمنة ـ بمعنى الرقابة والمشاهدة ـ: فيكون معنى المهيمن قريباً من معنى الرقيب، ويعود إلى صفة العلم. ومن هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى بوصف القرآن: ﴿ومهيمناً عليه﴾ أي شاهداً على الكتب السابقة. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾.

اسم الله (الواسع):

إذا كان بمعنى الواسع في علمه فيكون معناه: العالم، المحيط علمه بجميع المعلومات، كلياتها وجزئياتها، الموجود منها والمعدوم.

وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم.

وقيل: المراد سعة الصفات وعظمها، وأنه لا حدَّ لكمالها تنتهي إليه.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

اسم الله (المؤمن):

إذا كان مأخوذاً من الإيمان ــ وهو التصديق ــ فالمؤمن: هو البالغ منتهى العلم اليقيني في كل شيء، فليس لديه في أي معلوم ــ موجود أو معدوم ــ ظنون ولا شكوك. فيعود هذا الاسم إلى صفة العلم، فالله سبحانه هو المؤمن لأنه هو العليم بكل شيء على حقيقته.

وهذا المعنى هو أحد معاني اسم الله (المؤمن).

وذكروا في معنى هذا الاسم: أنَّه الذي يصدِّق رسله فيما ادَّعَوْه من الرسالة، ويؤيدهم بالمعجزات الشاهدة لهم. أو أنه الذي يؤمن عباده المؤمنين من عذابه.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾.

أثر ملاحظة صفة العلم لله تعالى والأسماء الحسنى التابعة لها:

ثم إن من يلاحظ صفة العلم لله تعالى وأسماءه الحسنى التابعة لها، ويتحقق لديه أن الله تعالى محيط بكل شيء علماً، وأن علم الله تعالى لا يقتصر على الظواهر، بل هو محيط بالبواطن والدقائق، ومباشر للخفيّات كلّها، فيعلم الأسباب والمسببات، ويعلم العلل والمعلولات،

ويعلم السبل التي تسير فيها دقائق كل شيء، كما يعلم ــ جل وعلا ــ السر وأخفى، فيعلم خلجات القلوب، وخطرات الأنفس، وما هو كائن وما سيكون.

إن من يلاحظ ذلك من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، يستطيع أن يُحَدِّد لنفسه منهج سلوكه في حياته، لأنه محاط من خارجه ومن داخله بعلم عليم، محيط بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا في الأنفس؛ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

إن من يلاحظ ذلك ويحسن مراقبته، لا بد أن يتحقق بالأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول: فهو لا يخشى أن يضيع عليه أي عمل من أعمال البر يأتيه مهما صغر، ولو أخفاه وبالغ في إخفائه، ولو كان عاطفة طيبة في النفس ــ كإرادة الخير للآخرين ــ أو نية صالحة في القلب، ولو لم يظهر لذلك أثر في التنفيذ.

إنه لا يخشى أن يضيع عليه ثواب أي عمل يعمله، لأنه يعلم أن الله به عليم، وأن من يعمل مثقال ذرة من خير، فلا بد أن يرى أجره وثوابه.

الأمر الثاني: وهو لا يستهين بأي عمل من أعمال الشر مهما صغر، ومهما حاول إخفاءه وبالغ في ذلك، ولو كان عاطفةً سيئة ــ كالبغض والحسد ــ، أو نية فاسدةخبيثة، ولو لم يظهر لذلك أثر في التنفيذ.

إنه لا يستهين بذلك لأنه يعلم أن الله به عليم، وأن من يعمل مثقال ذرة من شر، فلا بد أن يرى جزاءه وعقابه.

الأمر الثالث: ثم هو يتضح لديه الفرق الكبير بين علم المخلوقات وبين علم الخالق جل وعلا، فيتصاغر في نفسه، مهما بلغ علمه من سعة ونضج وتحقيق، ويتجلى له معنى قوله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾.

ومن ذلك يلاحظ الفروق التالية بين علم الخالق وعلم المخلوق:

(أ) فعلم المخلوقات محدود الكمية مهما كثر عدداً، أما علم الله تعالى فلا نهاية له.

(ب) وعلم المخلوقات محدود أيضاً في مجال كشف الظواهر المدركة بالحواس الظاهرة أو الباطنة؛ أو ما استنتج منها، أما علم الله تعالى فيتناول كل ظاهر وباطن، ولا يخفى عليه منها شيء.

(ج) وعلم المخلوقات مستفاد من الأشياء بعد وجودها، أما علم الله تعالى فغير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء في وجودها مستفادة منه.

(٥)

«صفـة الحيـاة»

إن حقيقة النظام الكوني تضطر الطبعيين إلى الاعتراف بوجود قوة مهيمنة على الكون؛ ولكنهم يسمون هذه القوة الكبيرة المجهولة «بالطبيعة»، ويغمضون عيونهم عن البحث العلمي الصحيح، فإذا سألتهم عن سرّ الكون قالوا: الطبيعة، ووقفوا حيارى جاهلين!!

أما العقلاء الذين ينير لهم بحثهم وإيمانهم طريق المعرفة، فإنهم يقولون: إذا كانت هذه القوة المهيمنة قادرةً على خلق الحياة بالأنفس الحية، كما هي قادرة على سلبها، والحياة من صفات الكمال التي تعتبر أساساً لصفات العلم والإرادة والحكمة، فلا يمكن أن تكون هذه القوة المريدة العالمة القادرة الحكيمة جامدة ميتة لا حياة لها؛ بل لا بد عقلاً من أن تتصف بصفة الحياة.

ولكن هذه الحياة التي يثبتها العقل والشرع لله تعالى لا يمكن أن تشبه ــ من قريب ولا من بعيد ــ حياتنا: فالحياة فينا لها بداءة ولها نهاية، وحياة الله أزلية أبدية. والحياة فينا تحتاج في استمرارها إلى مدد يمدّها، وإلى غذاء مادي يكون سبباً صورياً في بقائها، أمّا حياة الله جل وعلا فهي حياة صمدية مستقلة، لا تحتاج إلى شيء يغذّيها، ولا إلى مدد يمدها، لأن ما يحتاج إلى مدد يمده لا بد أن يكون ناقصاً، أما الله تعالى فهو الكمال المطلق في ذاته، وفي صفاته.

وقد وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه حيّ، قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾﴾.

أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة الحياة لله تعالى:

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى اسم واحد يعود إلى معنى تحقق صفة الحياة وهو: (الحي).

اسم الله (الحي):

أي: ذو الحياة. والحياة: صفة وجودية من شأنها أن تكون أساساً لصفتي العلم والإرادة.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴿٢٥٥﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (غافر = المؤمن ٤٠):

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أثر ملاحظة صفة الحياة لله تعالى والأسماء الحسنى التابعة لها:

ومن يلاحظ معنى أن الله هو الحي وهوالممد للحياة، ويلاحظ أن الحياة صفة كمال يسعى لها العقلاء، ويلاحظ إلى جانب ذلك وعد الله بالحياة للشهداء الذين يفضلون الشهادة على الحياة الدنيا؛ رغبة في إعلاء كلمة الله. إن من يلاحظ ذلك فلا شك تهون عليه التضحية بنفسه لتحصيل الشهادة، لأن وراء الشهادة حياة سامية، إنما يرقى إليها الشهداء ومن هم في مراتبهم. قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

ويسعى للخلود السعيد في الدار الآخرة التي هي الحيوان، وفيها الحياة الأبدية.

(٦)
«توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية»

إننا حينما نمعن الفكر في هذا الكون، نلاحظ وحدة نظامه من أبعد كوكب فيه عنا إلى أصغر ذرة من ذراته، ونلاحظ تسياره المحكم البديع دون خلل أو اضطراب أو فساد في أرضه وسمائه، في حركة نجومه وكواكبه، في وحدة نظام مجرّاته، في كل جامد أو متحرّك، في كل نامٍ أو ذي حياة، في ترابط بعضه ببعضه ترابطاً تاماً، مع أن كل جزء فيه يعمل في نطاقه ومجاله، دون أن يكون عمله هذا سبباً في فساد عمل أي جزء آخر من الأجزاء التي لا حصر لها في هذا الكون الكبير. فدراسة ظواهر الكون دلَّت على أن هذا الكون خاضع لقوانين واحدة، وأنه سائر ضمن خطط من الخلق لا تفاوت فيها. إن القوانين السائدة في الأرض هي القوانين السائدة في السماء، ثم إن الأرض وما فيها جزء مرتبط مع سائر ما في الكون، فهي خاضعة لنظام شامل، مسيطر على الكون كلّه.

وهذا يدلّ على أن الخالق المهيمن على الكون كلّه واحد، ولو أنه كان متعدداً لتباينت قوانين الكون ولتعارضت، ولانتهى الأمر بها إلى التصادم والفساد في الكون.

لذلك نعلم جازمين أن المهيمن على الكون كله، والمنظم له والموجه لكل جزء فيه، واحدٌ لا يشركه في أمره شريك. وهذا المعنى هو ما نسميه «بصفة الوحدانية» أو «توحيد الربوبية»، أي: إن الله واحد لا شريك له في الخلق والأمر والتدبير والملك، وغير ذلك من الصفات التي يدلّ عليها اسم الربّ.

وقد وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه واحد في ربوبيته لا شريك له؛ فقال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وقال تعالى ــ يعلِّم رسوله أن يقول للمشركين ــ في سورة (ص ٣٨):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٦٦﴾.

كما أقام سبحانه وتعالى الدليل العقلي على وحدانيته في ربوبيته؛ فقال تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾.

وفي هذا النص دليل على نفي الآلهة المشاركة في الكون الواحد، للربّ الخالق الواحد الذي لا ربّ غيره.

وقال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾.

وفي هذا النص دليل على نفي الآلهة في الأرض دون إلّه العرش، يشاركون الرّب في ربوبيته.

وقال تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾.

وفي هذا النص دليل على نفي الآلهة المتعددة في أكوان متعددة، هم فيها أرباب خالقون.

ومضمون الدليل في الآية الأولى (آية الأنبياء) ــ بعدما قررت الآية السابقة لها فكرة اتخاذ المشركين لآلهة من الأرض ينسبون إليهم إحياء الأموات (هم يُنْشِرون) ــ: أنه لو تعددت الآلهة الأرباب في الكون لفسد نظام السماوات والأرض، ولاختل تماسكهما القائم على وحدة نظام، ووحدة تسيير، وهذا من الأمور البدهية المشاهدة. لأن الإرادات الحرة إذا توجهت على مخلوق واحد فلا بد أن تتعارض، ومتى تعارضت تنازعت، ومتى تنازعت فسد نظام المخلوق، والكون كله مخلوق مترابط بوحدة نظام وتسيير ــ كما هو مشاهد ــ، فلو كان آلهة أربابٌ غير الله لفسد نظامه، واختل وجوده وبقاؤه. وقد تضمنت هذه الآية في استدلالها برهاناً قاطعاً على نفي فكرة تعدد الآلهة الأرباب؛ وهذا البرهان الذي أوردته هو ما يسمى عند علماء التوحيد: (برهان التمانع). وبهذا يثبت لدينا عقليّاً: أن الرب الخالق ــ المنعم الرازق، المحيي المميت، الذي بيده الخلق والأمر، والنفع والضر، والخير والشر، وهو الذي يبتلي ثم يحاسب ثم يجازي ــ واحد لا شريك له، ومن كان هو الربّ الخالق وحده لا شريك له، فهو الإله الواحد الذي يجب إفراده بالعبادة.

ومضمون الدليل في الآية الثانية (آية الإسراء): أنه لو كان مع الله آلهة تحكم وتتصرف، وتحيي وتميت، وترزق وتشفي، ومن أجل ذلك تستحق أن تعبد ــ كما يقول المشركون ــ، للزم أن تتخذ هذه الآلهة سبيلاً لمنافسة ومنازعة ومقاتلة إله العرش ــ الذي يعترفون به رباً خالقاً، ولا ينكرون وجوده وقدرته، ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى ــ؛ لأن الربوبية المتضمنة لكمال التصرف وكمال القدرة، لا تقبل الخضوع والاستسلام لربوبيةٍ فوقها.

أما وإنها لم تتخذ هذا السبيل لإله العرش، ورضيت بضعفها وإلهيّتها المزعومة في نطاق الأرض، فإن ضعفها هذا من أكبر الأدلة على أنها مخلوقة كسائر المخلوقات، وقد انتحلت لها الإلهية انتحالاً باطلاً، لا يصاحبه دليل تقبله العقول.

لذا: فالله منزه عن الشركاء، له الإلهية وحده، وله الربوبية وحده، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومضمون الدليل في الآية الثالثة (آية المؤمنون): أنه لو كان مع الله إله خالق آخر، لكان من أبسط النتائج البدهية أن يجمع كل إلهٍ خالقٍ مخلوقاته، ويذهب بها، متصرفاً فيها تصرفاً مستقلاً. ثم لَعَلا بعض الآلهة المتعدّدة على بعض ــ بمقتضى سيادة الألوهية واستقلالها ــ

وأن كل واحد لا بد أن ينفذ مراداته ولو تعارضت مع إرادة غيره. ومن ذلك ينشأ التنازع، ثم غلبة الأقوى على الأضعف، ومن ثَمَّ يقال: الأضعف لا يصلح لأن يكون ربًّاً، فليس هو بإله. ولكنّ كلّ ذلك غير واقع لأن الله واحد لا شريك له، وسبحان الله عمَّا يصفون.

وقد استخدم القرآن أيضاً بيانات خطابية غير برهانية للتنفير من الشرك، أوضح فيها أن عقيدة التوحيد أكرم للإنسان وأصلح له من عقيدة الشرك. ومن هذه البيانات الخطابية قول الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

متشاكسون: متعارضون لا يتفقون. سَلَماً لرجل: خالصاً له لا يشاركه فيه أحد.

أي: إنَّ عقيدة التوحيد تجعل الإنسان عبداً لإلـه واحد فقط، أمَّا عقيدة الشرك بالله فتجعله عبداً لآلهة متعدّدةٍ متشاكسةٍ، وأيها أكرم للإنسان: أن يكون عبداً لواحد فقط، أو عبداً لمتعدّدين؟!

إذا قسنا هذا بالأمثلة الإنسانية، وجدنا أنّ العبد الرقيق من الناس يفضل أن يكون ملكاً لرجل واحد، لا ملكاً لرجال متعدّدين متشاكسين لا يتفقون، لأنّ عبوديته للواحد أحبّ لنفسه وأكرم لها. فكيف يختار هؤلاء لأنفسهم عقيدة الشرك، مع أنّ عقيدة التوحيد هي الأكرم لهم، وهي العقيدة الحقة التي تدعمها الأدلة البرهانية؟!

وبأسلوب البيان الخطابي النفسي هذا ـ مع البيانات البرهانية السابقة ـ تمَّت محاصرة الإنسان المتجه للشرك محاصرةً تامَّة، فكريّاً ونفسيّاً، وبهذا الحصار تنقطع جميع أعذار المشركين.

ثمّ إنّ كون الله وحده هو الربّ الخالق المدبّر للأمر كلّه، ولا شريك له في ربوبيته، يستلزم عقلياً أن يكون هو وحده المستحق للعبادة، فلا يصحّ أن يُعبد غيره، وكلّ عبادة لغيره شرك به، وإفراد الله وحده بالعبادة دون سواه، هو ما يطلق عليه عبارة: (توحيد الألوهية). وبهذا يتمُّ الربط بين توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، ويشملها جميعاً لفظ: (الوحدانية).

وصفة الوحدانية هذه: من صفات الله التي نادى بها جميع الأنبياء والمرسلين دون

استثناء، وهي من الصفات التي تتقبلها بديهة العقل عند من لفت إلى الحقيقة الربانية أدنى نظر؛ وقد أعلنها جميع أصحاب الفلسفات المضيئة، وأقاموا عليها البراهين الواضحة، والحجج الدامغة.

لذلك فإننا في عقيدتنا الإسلامية: نؤمن إيماناً عميقاً راسخاً بأن الله وحده، لا شريك له، بيده الخلق، وبيده الأمر، وهو على كل شيء قدير.

وحيث إنه تعالى واحد، وبيده النفع والضر، فنحن لا نعبد غيره، ولا نشرك بعبادته أحداً.

وبذلك نستجمع في عقيدتنا:

١ ــ مبدأ توحيد الربوبية لله تعالى: فهو رب السماوات والأرض، لم يشركه في خلقها وتربيتها ومدِّها بالبقاء شريك.

٢ ــ ومبدأ توحيد الألوهية لله تعالى: فله تعالى الأمر والنهي، والحكم والقضاء، وهو الذي يستحق وحده العبادة، ولذا: فنحن نعبده وحده، ولا نشرك بعبادته أحداً. ومن توحيد الألوهية: عبادة الله وحده بما أمرنا أن نعبده به، على الشكل الذي أمرنا به، دون أن نخترع من عند أنفسنا عبادة لم يأذن بها. ومن توحيد الألوهية: أن نحكّم شريعة الله لنا في كلّ أعمالنا الفردية والجماعية، لأن الله سبحانه له الخلق، ومن له الخلق فله الأمر، وعبادة الله تكون بطاعته فيما أمرنا به وفيما نهانا عنه. وكلّ حكم على خلاف حكم الله يمثل استنكافاً عن طاعته في ذلك الحكم؛ فإذا كان ذلك طاعة لغير الله تعالى، فهو شرك بالله فيما هو من خصائص ألوهيته، وهو يمثل نقضاً جزئياً لتوحيد الألوهية، وإذا كان ذلك اتباعاً لهوى النفس، فهو لون من ألوان عبادة الهوى.

وأمام هذه الحقيقة من حقائق الألوهية التي نثبتها في عقيدتنا الإسلامية ــ وهي «أحدية الربوبية والألوهية» ــ تتضح نقطة خلاف كبرى بيننا وبين كثيرين من مثبتي الألوهية الضالين عن منهج الحق؛ وتتحدَّد أمامنا طريق من طرق الافتراق بيننا وبينهم.

أما إثبات أصل الربوبية فهم شركاء معنا فيه، ولكنهم افترقوا عنا:

(أ) إما بإثبات أرباب متعدِّدين غير الله تعالى يتقاسمون الخلق والتكوين، بينما نحن نثبت أن الله وحده هو الخالق ولا خالق سواه.

(ب) وإما بإثبات آلهة غير الله تعالى لهم نوع تصرف في أمور الكون، أو أَمَرَ الله عزّ وجلّ أو أَذِن بعبادتهم فهم يُقَرِّبون من يَعْبُدهم إلى الله زُلْفَى، فهم بذلك يستحقون العبادة مع الله

تعالى، بينما نحن نثبت أن الله وحده هو الإلـه الحق، المتصرف في كـل شيء، ولا يستحق أحد سواه العبادة، مهما كان شأنه، ومهما ارتفعت منزلته، ولم يأمر الله عز وجلّ ولم يأذن بعبـادة أحدٍ من دونه.

فالمجوس مثلاً: يعتقدون بالرب الثنائي.

والنصـارى: يجعلون الرب ثـلاثياً، مـركباً من ثـلاثة أصـول تجتمـع وتفتـرق في صـورة لا يمكن أن تهضمها العقول.

وبعض النـاس الوثنيـين: يعتقدون بـأرباب كثيـرة جـداً. وبعض الـوثنيـين الآخـرين: يعتقـدون بـالآلهـة المتصـرفـة التي تستحق العبـادة مـع الله تعـالى، فيعبـدونهم ليقضـوا لهم حوائجهم، أو ليقرّبوهم من الله زلفى.

وكلٌّ هذه المعتقدات: معتقدات باطلة مردودة، لا يمكن التسليم بها إلا في حالـة تعطيـل العقول عن التفكير، وشدّ الأفهام بعصائب من التقليد الأعمى، أو تغشيتهـا بحجب كثيفة من الهوى الجامـح، والغرض الجانـح.

أما عقيدتنا: فلا إله إلا الله، ولا رب ولا خالق سواه، ولا يستحق العبادة أحد غيره.

ولما كانت هذه عقيدتنا التي لا محيد عنها: فإننا نُكَفِّر كل من أشرك بالله، فجعل معه إلٰهاً آخر، سواء كان من أهل الأوثان، أو ينتسب إلى أي دين من الأديان السماوية؛ لأنـه بعقيدتـه هذه قد خالف قطعاً أصول الدين الذي ينتسب إليه، وناقض في اعتقاده الفاسد الباطل مبادئـه المنزلة الصحيحة.

ولمَّا كان الشـرك في العبادة يستلزم في مضمـونه عـدم توحيـد الربـوبية، اقتضت حكمـة تصحيـح عقيدة المشركين الرجوع بهم إلى الأدلة التي تثبت وجود الله وتفرده بالربوبية؛ لتكـون هذه العقيدة الصحيحة هي الأساس لتصحيـح الفقرة الثانية من العقيدة الإسلامية، وهي فقرة توحيد الألوهية، أي: إفراد الله الخالق وحده بالعبادة، وإثبات أنَّ أية عبادة لغيره شركٌ به جلّ وعلا، وكفرٌ بحق إفراده بالعبودية الذي يستلزم التشكك في تفرده بالربوبية وخصائصها في الخلق والرزق، والحياة والموت، والنفـع والضر.

أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة الوحدانية لله تعالى:

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: اسمان يعودان إلى معنى تحقق صفة الوحدانيـة لله تعالى؛ وهما: (الواحد ــ الأحد)، وفيما يلي شرح هذين الاسمين.

اسم الله (الواحد):

أي: المنفرد الذي لا شريك له، فهو وحده واجب الوجود في ذاته وفي صفاته، وهو وحده المستحق للعبادة.

قال الله تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

اسم الله (الأحد):

وهو كالواحد، وقد ورد في بعض الروايات أنه من أسماء الله الحسنى الـ (٩٩) المأثورة. وليس من الأسماء المجمع على أنها من التسعة والتسعين المشهورة؛ لكنه من الأسماء لله الواردة في الشرع قطعاً، قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾.

(٧)

«صفة مخالفته تعالى للحوادث»

وحيث كان من أظهر الأدلة العلمية والعقلية ــ التي أكدت لدينا وجود تلك القوة الخلّاقة وراء هذه الظواهر الطبيعية ــ هو أن كل ما في هذه الظواهر لا يصلح أن يكون هو بنفسه الربّ الخالق؛ لأنه متصف ــ كما نشاهد دائماً ــ بصفات تدل على أنه حادث، كصفات التغيّر والحركة، والزيادة والنقصان، والجمع والتفريق، والتناكح والتناسل، والضعف والعجز، والحاجة إلى أكل أو شرب أو نوم، أو غير ذلك مما نراه في موجودات كوننا المادي.

وحيث إننا نعلم أن كلَّ شيء حادثٍ لا بد أن يكون قد أوجده موجِد، وأحدثه محدث قبله، بدليل أننا لا نرى حدثاً يحدث في عالمنا المادي إلا وهو متأثر بسبب سبقه.

لذلك: فإنّنا نحكم عقلاً بأنه لا يمكن أن يكون الخالق العظيم الذي آمنا به؛ من نوع هذه الظواهر المادية التي تعتريها صفات الحوادث، أو مشابهاً لها، ولو بوجه من الوجوه.

فلا يمكن إذن أن يكون للخالق سبحانه زوجةٌ أو ولد، أو يكون بحاجة إلى أكل أو شرب أو نوم، أو مكان يوجد فيه، أو زمان يجري عليه، لأنه سبحانه هو خالق هذه الأشياء كلّها، فكيف يكون بحاجة لها، وقد كان الله ولا شيء معه؟!

ولو كان الخالق سبحانه يشبه شيئاً من هذه الظواهر المادّيّة؛ لكان هو أيضاً مثل هذا الشيء، في احتياجه إلى خالق يخلقه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا المعنى هو ما نُسمّيه بصفة: (مخالفته تعالى للحوادث) أو: (تنزهه تعالى عن مشابهة الحوادث).

وقد جاءت الديانات السماوية كلها توضح وتؤكد هذه الحقيقة في تنزيه الخالق سبحانه؛ ولذلك أجمعت على: أن الإله لا يمكن أن يتجسد في صورة إنسان، أو حيوان، أو جماد، أو يحلّ في جسد مادي، أو يكون له زوجة أو ولد، أو أن تأخذه سِنَة أو نوم، أو أن يأكل ويشرب، أو نحو ذلك من صفات المخلوقات، رداً على الوثنيين والمجسّدين والمشبهة، الذين يُشَبّهون الله سبحانه وتعالى بخلقه، فيكفرون بذلك.

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بقول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الصمد ١١٢):

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴿٢٥٥﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

ولما كان من صفات المخلوقات الدَّالَّة على حدوثها وأنّها بحاجة إلى محدث: أن لها بداءة

وأن لها نهاية؛ وجب أن يكون من صفات الخالق السلبية: أن لا بداءة له، وهذا معنى (القدم). وأن لا نهاية له، وهذا معنى (البقاء).

فمن صفات التنزيه لله تعالى: (القدم والبقاء)، بمعنى: أنه سبحانه لا بداءة له ولا نهاية. وفي الدلالة على ذلك جاء في أسماء الله الحسنى: (هو الأول والآخر) فالأوّل: هو الذي لا شيء قبله، والآخر: هو الذي لا شيء بعده.

وأمام هذه الحقيقة الثانية من حقائق الربوبيّة التي نثبتها في عقيدتنا الإسلامية ــ وهي «مخالفته تعالى للحوادث» ــ تتضح نقطة خلاف كبرى ثانية بيننا وبين كثيرين من مثبتي الألوهية الضالين عن منهج الحق؛ وتتحدَّد أمامنا طريق ثانية من طرق الافتراق بيننا وبينهم.

وتجمع هذه النقطة المبادىء الثلاثة التالية:

المبدأ الأول: مبدأ صمدية الله تعالى (أو صمدية الربوبية والألوهية).

المبدأ الثاني: مبدأ استحالة التولد بكل معانيه بالنسبة إلى الربوبيّة.

المبدأ الثالث: مبدأ انفراد الربوبية والألوهية بصفات الكمال.

وفيما يلي إيضاح لهذه المبادىء الثلاثة:

(أ) مبدأ صمدية الله تعالى:

والصمدية تعني معنيين اثنين:

المعنى الأول: معنى إيجابي وهو: أن الله سبحانه هو الذي يُصمد إليه؛ أي: يُرجع إليه في كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال. فهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهبة منه، إذا شاء أبقاها، ومتى شاء سلبها. لذلك فلا رجوع في أي مطلبٍ ــ لمن تدبَّر وعقل ــ إلاّ إلى الله تعالى.

المعنى الثاني: معنى سلبي وهو: أن الله سبحانه غني عن كل شيء، لأنه متصف بالكمال التام في كل شيء. فهو الموجود الذي له الوجود الذاتي ــ الذي لم يسبقه العدم، ولا يلحقه الفناء ــ إذ الأصل بالنسبة إليه سبحانه هو الوجود؛ فهو غني عن أن يمدّه بالبقاء أحد، كما هو غني عن أي شيء يتصل بمطلبٍ يعود عليه سبحانه بنفع أو فائدة، أو إرضاء شهوة، أو إشباع غريزة، لأن الله جلّ وعلا منزَّه عن كل ذلك. وأما الذي يحتاج إلى شيء من ذلك: فهو من أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؛ وهو مَنْ أصله العدم، وإنما وُجد بإيجاد الله له، على صورة مليئة بالغرائز الطالبة لحاجاتها، والطبائع المسوقة إلى أطوارها، من

تأليف وبناء، إلى تفريق وهدم، كما أنه لا يمتد بقاؤه إلاّ بـإمداد الخـالق له بـالبقاء؛ عن طـريق الأسباب التي هيأها له في بيئة وجوده، وعلى وفق حكمته تعالى التي نظم بها مخلوقاته.

وهذان المعنيان لمفهوم صمديـة الله تعالى يـوضّحان أسـاسين رئـيسَيْـن من أسس المفهوم الحقيقي للربوبية وللألوهية: ذلك أن الإِلّه الحق ــ الذي يؤمن به العقل بالبداهـة والاستدلال الـبرهاني ــ هـو: الغني بذاتـه وصفاتـه الذي لا يحتـاج إلى شيء. والكامـل في قـدرتـه وعلمـه وحكمته، الذي يفعل ما يشاء ويختار، والذي يرجع إلى قدرته وحده فعل كل شيء، وخلق كل شيء وتقديره.

وحيث يدرك العقلاء هذه الحقيقة لمفهوم الربوبيّة والألوهية، فإنهم ــ لا غرو ــ يـرجعون إليه تعالى في كل حاجة من حاجاتهم التي يرجونها، أو يُلحُّون في طلبها. فإن كانت من المطالب التي لها أسباب ماديّة معروفة: فإنهم يسألون الله تعالى أن ييسّر لهم أسبابها، ويسهّل لهم طرقها، ويدفـع عنهم العوائق والعقبات. وإن لم تكن لها أسباب مادية معروفة: فإنهم يـرجعون إلى الله تعـالى، سائلين أن يُحقّقهـا لهم كيف يشاء، وعـلى مـا يـريـد. ثم لا يشـركـون مـع الله أحـداً فيما يسألون، لأنهم يعلمون ويعتقدون اعتقاداً جـازماً أن الله هـو وحده القـادر على كـل شيء، وهو وحده الفعال لما يريد.

وتمكينـاً لهذه العقيـدة الإسلاميـة، فقد علّمهـا رسولُ الله ابنَ عمـه عبـد الله بن عبـاس ــ وهو غلام صغير ــ وقد كان راكباً خلفه.

فعن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال:

«يا غلام: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجـاهك، وإذا سـألت فاسـأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عـلى أن ينفعوك بشيء لم ينفعـوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قـد كتبه الله عليـك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف». (رواه أحمد والترمذي وهو حديث صحيـح).

وحيث يعلم المؤمن هـذه الحقيقـة، ويحيي في فكـره وقلبـه صمـديـة الله تعـالى، فـإنـه لا يرجـع في أي أمر من أمـوره إلاّ إليه سبحـانه، ولا يتقـرب بأي قُـربَـى إلا قربـى تُـدْنيه من طاعة ربه ومرضاته.

وتثبيتاً لحقيقة صمـدية الخـالق ــ من حقائق صفـات الربـوبيّة والألـوهية ــ نـزلت الآية الثانية من سورة (الصمد ١١٢)؛ وهي قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

أي: الله هو الغني في ذاته وفي صفاته غنًى تاماً، وهو الذي يُصمد إليه ــ أي يُرجع إليه ــ في كل أمر صغر أو كبر.

قال أبو هريرة في تفسير كلمة «الصمد»: هو المستغني عن كل أحد، المحتاج إليه كل أحد.

هذه هي عقيدة المسلمين في إحدى حقائق الربوبيّة والألوهية التي يؤمنون بها.

ونجد قسمين من الناس تقوم في أذهانهم مفاهيم خاطئة عن الألوهية، ويبعدون عن مفهوم صمدية الله تعالى بعداً كبيراً.

القسم الأول:

فقسم من الناس المثبتين لفكرة الألوهية ــ ولكنهم يخطئون في معرفة صفاتها على وجه الحقيقة ــ يجيزون في عقولهم ــ دون تفكير سليم ــ أن يكون للإلّه الذي يقدسونه مطالب وحاجات تشبه مطالبهم وحاجاتهم. كأنهم يفهمون أنه يمكن أن يكون للإلّه نفس مثل نفوسهم، وشهوات مثل شهواتهم! لذلك فهم يحاولون أن يتقربوا إلى هذه الصورة الباطلة عن الألوهية القائمة في أذهانهم؛ بما يتصورون أنه يحقق لها مطالبها النفسية أو الشهوانية.

ومن هذا القسم: الوثنيون، ومؤلّهو البشر أو بعض الأرواح الخفية. إذ يتقدمون بقرابينهم لآلهتهم، زاعمين أن آلهتهم تنتفع بها لأنفسها!! ويجهلون أن الإلّه الحق لا يمكن أن يكون إلّا غنياً غنًى تاماً، كما يجهلون أن فكرة القرابين في أساسها المشروع بمفهوم الديانات السماوية الحقة؛ إنما شرعت لتحقيق غايتين اثنتين:

١ ــ فهي نوع من الصدقات لسد قَرَم الفقراء والمساكين إلى اللَّحم، ويتكفل الله عن الفقراء بمثوبة المتصدقين، ومجازاتهم على إحسانهم الجزاء الأوفى.

٢ ــ كما أن في تقديم القرابين نوعاً من التربية النفسية على السخاء والتضحية، ومعالجة رذيلة الشح والبخل.

فهي إذن نوع من العبادات التي تساهم في إصلاح الأنفس، وتحقيق التكافل والتعاون المعاشي بين الناس، وفي تقوية روح الجماعة لديهم.

القسم الثاني:

وقسم آخر من الناس المثبتين لفكرة الألوهية على غير وجهها الصحيح؛ يجيزون في عقولهم أن يكون لغير الله الحق قدرة على الخلق والتقدير، وجلب بعض المنافع ودفع بعض المضار فيما وراء الأسباب التي جعلها الله جزءاً من النظام العام في هذا الكون الكبير.

لذلك فهم يجعلون مع الله شركاء، ويرجعون في مطالبهم إلى شركائهم، زاعمين أن هؤلاء الشركاء ـ الذين يدعون من دون الله ـ يقدرون على جلب منافع لهم، أو دفع مضار عنهم.

وما هذه المعتقدات الباطلة التي تدخل على أوهام بعض المثبتين لفكرة الألوهية بشكل عام؛ إلاّ حُجُباً من الجهل الفكري والعمى التقليدي، اللذين يتخذان لهما مكامن خطرة في النفس الإنسانية، ويلقيان عليها غشاوات خبيثة تتصلب بطول العهد، ومن ثم يتعذر أن تُستأصل من جماعةالتقليديين، إلا بتيار إصلاح جارف يحمل سلاحين: سلاح العلم المشرق الذي يستخدم العقل والفطرة والتجربة، وسلاح القيادة القوية الحازمة الحكيمة الرحيمة، التي تبتر سرطانات الشر والفتنة من أقصى خمائل جذورها، وتغسل رواسب الجهل بماء العلم الصحيح، وتعيد النفس إلى أصالة فطرتها الصافية، في إيمانها القوي بالله الحق الأحد الصمد.

(ب) مبدأ استحالة التولد بكل معانيه بالنسبة إلى الربوبيّة والألوهية:

لا بد قبل مناقشة الموضوع من أن نوضح ما هو التولد بمعانيه المختلفة:

أولاً: إننا نعرف من معاني التولد: التولدَ الذي نشاهده في المخلوقات ذات الحياة، وهو: انفصال جزء خاص من الأصل، يأخذ عوامل صورة الأصل ليكون فرعاً مشابهاً له، ثم ينمو على حساب البيئة حتى يداني أصله في صفاته وخصائصه.

فالتولد بهذا المعنى: صفة قامت في الأصل، على معنى: أنه انقسم منه جزء يحمل أهم صفاته وأبرز خصائصه؛ كما أنه صفة قامت في الفرع، على معنى: أنه جزء انفصل عن غيره، وهو يحمل أهم صفات ذلك الغير وأبرز خصائصه.

هذا معنىً من معاني التولد نشاهده في المخلوقات ذات الحياة. كما نشاهد نظيره تماماً في المخلوقات النامية الأخرى، كالنباتات على اختلاف أنواعها. وفكرة التولد بين المخلوقات الحية، والمخلوقات النامية الأخرى متشابهة، ما عدا فارق الحياة المدركة المريدة.

ثانياً: وإننا أيضاً نعرف من معاني التولد: التولدَ الذي ينشأ عن تفاعلات بين عناصر كيميائية تمّ التقارب بينها، فيتولد عنها مركبات جديدة بكل خصائصها. بحيث قد تنعدم صفات العناصر الأولى، أو تكمن، وتحدث صفات جديدة ظهرت من كمون واجتمعت، أو نشأت بسبب اجتماع هذه العناصر. والتولد الذي ينشأ عن حركات فيزيائية تقتضيها حالة من حالات التغير الطارىء على بعض الموجودات، وقد تتحوّل فيها المادة إلى طاقة من

الطاقات، أو تتكثف الطاقة فتعود مادة من المواد، وهذا المعنى للتولد: لا يكون إلا مصاحباً لحالة من حالات التغير والتحول؛ ويعود ـ في الحقيقة ـ إلى معنى الانقسام الجزئي، أو تغير التركيب بشكل كلي.

هذا، وبعد أن ألقيت ضوءاً مناسباً على معنى التولد، أدخلُ في مناقشة موضوع الرّبوبية والألوهية، واستحالة التولد بالنسبة إلى الرّب المعبود.

إن المفهوم الحق لمعنى الرّبوبية فالألوهية لا يمكن ـ على أية حال ـ أن يجتمع معه عقلاً أي معنى من معاني التولد.

كيف يجتمع مفهوم الرّبوبية ومفهوم التولد في شيءٍ واحد؟!

إن معنى الـرّبّ الإلّه الحق: أنـه الخالق الأول لكـل شيء. والخـالق الأول لكـل شيء: لا بد أن يكون الوجود هو الأصل بالنسبة إليه؛ ولا بد أن يكـون وجوده ذاتيـاً، لم يسبقه عـدم ولم يكن قبله أي شيءٍ؛ ولا يمكن أن يطرأ عليه حدوث أو تغير، ذلك لأن التغير معنى من معاني الحدوث ـ كما سبق بيانه ـ وإذا كان كذلك فكيف يكون هـذا الأصل في الـوجود متـولداً عن غيره؟! ولو كان متولداً عن غيره لكان ذلك الغير هو الأصـل، ولكان مسبوقاً بعدم، وإنما طـرأ عليه الوجود بعد أن لم يكن. وكل ذلك يتنـافى في العقل مـع مفهـوم الربـوبيّة، وكـل ذلك مما ترفضه بديهة العقلاء رفضاً باتاً. بيد أن الإيمان بـالله ـ بما فيـه من سموّ وحق وعلم يـدعمه ـ يخاطب العقل والعقلاء، قبل أن يلامس العواطف والوجدانات.

وكما أن الربّ الإلّه الحق يستحيل أن يكون متولداً عن غيره؛ فكذلك يستحيل في العقل أن يتولد منه غيره، بأي معنى من معاني التولد الذي سبق إيضاحها.

فالإلّه الحق: لا يمكن أن يلد كما تلد المخلوقات الحية، فلا يكون أباً، ولا يكون أمّاً.

والإلّـه الحق: لا يمكن أيضاً أن يتـولد عنـه أي شيء، على طـريقة انفصـال جزء منـه، أو على طريقة التحوُّل والتغير في الأصل.

والتولد، الذي يقوم على أساس الانفصال أو التغير، لا يكون إلا في المخلوقات الحادثة.

أما الربّ الإلّه الحق، الأول بلا بداءة، والآخر بـلا نهاية: فهـو واحد أحـد، غير قـابل للانقسام أو الانفصال أو التغير، لأن قابلية الانقسـام أو التغير تؤدي إلى انعـدام وحدة الأصـل وكيانها وتغير صفاتها، وهذا يستحيل عقلاً أن يكون في الرب الإلّه الحق جلّ وعلا.

أما ما يصدر عن الله تعالى من أشياء: فإنما يصدر عنه بالخلق والأمر، وهما عملان من أعمال قدرته تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

وأيضاً: فإنه لا يوجد ــ على أي تصور ــ وجه جامع يقارب بين مَنْ أصله الوجود الذي لا أوّلية له، وبين مَنْ أصله العدم وهي الأكوان الحادثة؛ حتى يتولد الثاني من الأول، للمنافاة التامة بينهما. وإنما الممكن عقلاً: هو أن يكون مَنْ أصله الوجود خالقاً لمن أصله العدم.

وبذا يتلخّص لدينا أن استحالة التولد بالنسبة إلى الرّبوبية فالألوهية تعني معنيين:

المعنى الأول: أن الربّ الإلّه الحق يستحيل ــ عقلاً وواقعاً ــ أن يكون له أصل وُلِدَ منه، أو تولد عنه. فوجود ذاته سبحانه ــ متصفةً بصفات الكمال كلّها ــ هو الأصل، وما كان هو الأصل في الوجود يستحيل أن يكون فرعاً عن شيء آخر.

المعنى الثاني: أن الربّ الإلّه الحق يستحيل أن يولد منه فرع، أو يتولد عنه فرع ــ بأي معنى من معاني التولد ــ؛ لأن ذلك ــ كما سبق ــ لا يكون إلا في المخلوقات الحادثة، وبصفات لا يقبل عاقل أن تكون للإلّه الخالق.

وأمام هذا المبدأ يقف المسلمون معلنين: أن الإلّه لا يمكن أن يكون له أب أو أم، أو ولد أو بنت، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. كما لا يمكن أن يكون قد تطوّر وجوده جلّ وعلا عن أصل آخر على طريقة التولد. ولا يمكن أن يكون قابلاً لأن يتولد عنه شيء آخر، بطريقة من طرق التفاعل الذاتي أو مع الغير.

وأما هذه الكائنات: فقد خلقها الله تعالى بقدرته القادرة، وإرادته الحكيمة، والله يخلق ما يشاء ويختار.

وفي حدود ضيقة من التفكير البدائي، المسوَّر بأسوار الماديَّة التي تدركها الحواس الجسدية، قام في أوهام بعض مثبتي الألوهية بشكل عام ــ من وثنيين، وكتابيين انحرفوا عن أصل دياناتهم الحقة ــ أفكارٌ متعددة تنسب إلى الله جلّ وعلا الولد، أو البنات أو الصاحبة، أو التولد المعنوي الآخر، أو غير ذلك من تحريفات لا تقبلها العقول الصافية السليمة! وقد دخلت عليهم هذه الأفكار في عصور من الجهل والتقليد، الذي لا بصر فيه ولا نظر.

وما هذه المعتقدات الباطلة إلا خروجاً عن جادة الإيمان الصحيح بالله، وانحرافاً إلى الجهل والكفر والضلالة.

ولذلك جاء الإسلام واشتد على هذه الأوهام بالحجة والبرهان، ليطردها من أفكار هؤلاء

التائهين عن طريق العقيدة الحقة، والذين تأثرت عقولهم وقلوبهم بمعتقدات موروثة باطلة، التزموها دون تمحيص ولا فكر صحيح قائلين: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾.

وقد جاء في سورة (الصمد ١١٢) إثبات أصلية الوجود لله تعالى، التي لا تقبل أن يلد أو أن يولد، في قوله تعالى:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

(ج) مبدأ انفراد الرب بصفات الكمال:

وذلك أن الربوبية لا يمكن عقلاً أن يوجد معها شيء يكافئها أو يدانيها، سواء في أصل الوجود، أو في كمال الصفات، وهذا هو المقتضى الحتمي لمعنى الرب الخالق للكون كله.

ولإيضاح هذا المبدأ من مبادىء الربوبية، لا بد أن نلتفت إلى هذا الكون الكبير، وإلى وجودنا فيه الذي لا يكاد يحسب له حساب، بالنظر إلى فسيح أرجائه التي تناهت سعةً وكبراً.

إنه ما من شيء نشاهده في هذا الكون الكبير إلّا له فيه أشباه ونظائر، وأشياء تكافئه وتماثله.

ما من شيء في الكون له جانب من القوة، إلّا له جوانب أخرى من الضعف، يمكن التغلب عليه منها.

نشاهد مثلاً: الكتل المادية ذات الأوزان الثقيلة التي لا تميد، كالجبال والبحار، ثم نرى في الكون بعض القوى ــ التي لم تكن في الحسبان ــ تستطيع أن تحرك هذه الكتل وتبدّدها، وتجعلها أثراً بعد عين.

ونشاهد أجساداً حية ضخمة، قد تحرك بقوتها الصخور، وتهز بحركتها البحور، وقد تخيف الألوف من البشر، ثم نرى حشرة صغيرة تتناول منها مكان ضعف فتلقيها صريعة، تنفض روحها من جسدها الذي هدمته على ضخامته، أو تجعلها تتقلب في آلامها وأوجاعها.

ونشاهد النار ولها قوة هائلة على إحراق الأشياء وصهرها، ثم نرى أن أشياء من الكون نفسه تستطيع بقوى مضادة فيها أن تخمد لهيب النار.

وهكذا نشاهد ملوكاً جبارين يتطاولون إلى مقام الربوبية، ويفرضون سلطانهم بالقوة والسلاح والإرهاب، ثم نرى بعض ضعاف القوم يزلزلون أركان عروشهم، ويلقون التيجان عن رؤوسهم، ويكنسون سلطانهم كنساً.

كما نشاهد مخترعات حديثة تستخدم بها قوى الكون الكامنة، ثم نلاحظ فيها أماكن ضعف يمكن أن يُقْبَض على ناصيتها منها، ونرى أن لقواها الهائلة الصادمة العنيفة، أضداداً يمكن مقابلة قواها بمثلها، أو تبديد طاقاتها وإفناؤها.

ثم اسبُر محصياً إن شئت كل ما في الكون الكبير، مما يمكن أن تشاهده فيه، أو تستنبط وجوده فيه، تجدهُ من هذا القبيل، ما من قوة في الكون إلا تماثلها قوة، وما من قوة إلا لها نقطة ضعف، وما من قوة إلا لها مكافىء وضدّ في هذا الكون الفسيح.

وقد قام دليل البداهة والعقل ــ كما سبق في مباحث الإيمان بالله تعالى ــ على أن هذا الكون كلّه مخلوق لله الواحد الأحد، الذي خلقه وأبدعه على هذا النظام الرائع، الذي يحمل في طياته دلائل أنه مخلوق لخالق جبار، قادر قاهر، عليم حكيم.

ومما لا شك فيه أن الإلّه الخالق هو من فوق هذا الكون وليس هو أي جزء فيه، ولو كان جزءاً من الكون لكان من الممكن أن يكافئه جزء آخر منه ــ وفق قوانين الكون المشاهدةفيه، وبحسب الاستقراء في كل شيء ــ وقد يكون ذلك المكافىء ــ ولو من جهة من الجهات ــ أصغر منه، وأضعف بوجه عام. ومتى وجد المكافىء أمكن أن يحتال عليه ويغلبه، أو أن تتعارض قواهما تعارضاً به يعطل كل طرف منهما الآخر، وبذلك يتعرض الكون للفساد والدمار، وكسر حزام النظام القائم على وحدة المنظِّم.

ومن البدهي أنه لا شيء من هذا الكون يصحُّ أن يكون ربَّاً خالقاً، ولا شيء من هذا الكون إلا هو مخلوق حادث. فالرب الخالق الحق إذن من فوق هذه الطبيعة كلها، كما أنه من المشاهد لكل ذي نظر، ومن الثابت بدلائل العلم، أن هذا الكون ــ من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة ــ محكوم بنظام واحد يهيمن عليه، والنظام الواحد لا بد أن يهيمن عليه منظم واحد؛ وذلك (هو الله الأحد).

هذا ما قام عليه دليل الفطرة وبرهان العقل، وهنا نقول: إن المحكوم بقوة لو كان عنده مِثْل تلك القوة لصارعها، وكل مخلوق حيّ مريد مدرك، لو كان عنده قدرة الخالق لاستطاع أن يبقي لنفسه الحياة ــ في أدنى المستويات ــ إذا أراد الله له الموت.

إن أعظم كائن مشاهَد لنا هو هذا الإنسان، لما يتمتع به من حياة وعلم وإرادة، وجزء من القوة يستطيع بها ــ مع عقله وحيلته ــ أن يسخر أكبر القوى الكونية من حوله لما يريد؛ في حدود الإمكانات من حوله.

فهل يستطيع هذا الإنسان أن يختار زمن ولادته، أو مكانها أو كيفيتها؟ أو أن ينتقي لنفسه أبوين كما يشتهي؟ أو أن يختار الصورة الحسنة التي يتمنى أن يكون عليها؟!

وهل إذا ولد ونما يستطيع أن يبدل من تكوينه، أو يتحكم بتغيير ذاته وصفاته؟!

وهل إذا طابت له الحياة يستطيع أن يجلب لنفسه الخلود في الدنيا؟

فإذا كان هذا الإنسان لا يستطيع شيئاً من ذلك، لأن قوة القدر من فوقه غلابة، علماً بأنه أقوى بحيلته وعلمه من الجبال، لأنه ـ باستخدامه بعض القوى الكمينة في الأرض ـ يستطيع أن ينسف الجبال، وهو أقوى بحيلته وعلمه من كل حيوان أو نبات أو جماد، لأنه يستطيع أن يسخر لنفسه كل أولئك، لكنه لا يستطيع أن يعارض القدر القاهر من فوقه في شيءٍ ما صَغُرَ أو كَبُر. فإذا كان هذا الإنسان ـ وهو أقوى بحيلته من كل شيء حوله ـ لا يستطيع بحال أن يكافىء قدرة القدر القاهر، فأي شيء آخر يكون كفواً لله الأحد، الخالق لكل شيء؟!

وإذا كان هذا الشيء المكافىء لله الأحد الذي يدَّعيه المشركون في داخل هذا الكون المادي؛ فإنهم أنفسهم أقوى منه، لأنهم قد منحوا العقل والإرادة، وتلك الأشياء مسيَّرة لا إرادة لها، منقادة طائعة للقضاء والقدر! وإن كان شيئاً آخر من وراء هذا الكون المادي، فما الدليل عليه، وقد قام دليل العقل والبداهة على أحدية الله تعالى؟!

وإن ادَّعوا أنهم هم أنفسهم المكافئون لله في قدرته كلّها أو بعضها، فليتخيَّروا ـ إن استطاعوا ـ ما يشتهون لأنفسهم من كيفية لذواتهم أو صفاتهم، وليدفعوا عن أنفسهم الموت إن قدروا، وما هم بقادرين، ولكنّهم مغلوب عليهم ـ شاؤوا أم أَبَوْا ـ بقضاء الله وقدره: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾.

وإذا كان الله جلّ وعلا من فوق هذا الكون، ومهيمناً عليه، ومسيطراً على كل شيء فيه بإحكام وإتقان وسلطان، وهو واحد لا شريك له، فمن البدهي الظاهر: أن الله ليس كمثله شيء، ولا يكافئه أحد. ولذا: فلا يصح الاعتماد إلاَّ عليه، ولا يقبل المؤمن العاقل الاتّكال إلاّ عليه سبحانه. كما يقوم بعبادته وحده لا يشرك معه أحداً، لأنه هو ذو القوة النافذة الغلابة، التي لا تماثلها قوة، ولا تكافئها قوة، ولا تدانيها قوة، وهو خالق كل القوى، ومتى شاء سلب من ذوات القوى قواها، وبدَّد جماعاتها، وأفنى عناصرها وأوصافها.

ولقد وقع في أوهام المشركين والوثنيين وبعض الجهلة ـ دون تفكير أو نظر سليمين ـ أن في الكون آلهة صغيرة، أو أشباه آلهة، تشابه الله جلّ وعلا في بعض قدراته، فهي شركاء له:

تضر وتنفع، تعطي وتمنع، تحيي وتميت، تسقي وتقيت، تؤيد وتنصر، تعفو وتغفر، تسر وتؤلم، تشفي وتسقم! مع أنه ما من إلَـه غير الله، وما من نافع غير الله، وما من ضار غير الله، ولا ناصر إلا الله، ولا غافر إلاّ الله، ولا شافي إلاّ الله، ولا محيي إلاّ الله، ولا مميت إلاّ الله.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

أسماء الله الحسنى العائدة إلى صفة مخالفته تعالى للحوادث:

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى سبعة أسماء تعود إلى تنزيه الخالق سبحانه عن مشابهة الحوادث؛ وهي: (السلام ــ القدوس ــ الغني ــ الصمد «في أحد معانيه» ــ الأول ــ الآخر ــ الباقي).

وفيما يلي شرح هذه الأسماء:

اسم الله (السلام):

أي: ذو السلامة من كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله. فهو سالم سبحانه من كل ما لا يجتمع عقلاً مع معنى الألوهية والربوبية، كمشابهة الحوادث. ومعلوم أن كل ما عدا الله تعالى ناقص في ذاته وصفاته وأفعاله، لذا: فلا يمكن أن يكون بينه وبين الله تعالى مشابهة حقيقية، ولو في وجه من الوجوه، أو جزء من الأجزاء.

قال تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾.

وقيل في معنى اسم الله (السلام): هو الذي يسلّم عباده المؤمنين من المكاره.

اسم الله (القدّوس):

القدوس: من أبنية المبالغة النادرة، مأخوذ من القُدُس ــ بضم الدال وإسكانها ــ وهو: الطهارة. فمعنى القدوس: المنزه عن صفات النقص التي لا تليق بالألوهية والربوبية، والمنزه عن مقتضيات الحدوث، والمنزه عن أن يدركه حسّ، أو يحيط به عقل أو وهم. والقدوس أبلغ من معنى السلام.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

اسم الله (الغني):

مأخوذ من الغنى: وهو عدم الحاجة إلى شيء. والله هو الغني: فلا يحتاج إلى شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وكل ما سواه مفتقر إليه، فهو يخالف الحوادث: بأنه الغني عن كلّ شيء، وهي الفقيرة في كل شيء إليه سبحانه.

قال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

اسم الله (الصمد):

إذا كان بمعنى الذي لا يطعَم، والمراد منه على هذا: أن الله سبحانه لا يشبه المخلوقات الحية في حاجتها إلى الأغذية، لإمداد بقائها على قيد الحياة المقدرة لها، وهذا أحد معاني هذا الاسم. ومن معانيه: أنه الذي يُصمد إليه في الحوائج، أي: يُقصد فيها. ومن معانيه أيضاً: أنه بمعنى السيد، قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾.

أسماء الله (الأول ــ الآخر ــ الباقي):

لما كانت الحوادث ذات بُداءة تحوجها إلى سبب يوجدها، فالله سبحانه لا بداءة له، ولما كانت الحوادث ذات نهايات ــ نظراً لأن بقاءها ليس من ذاتها، وإنما بقاؤها بإمداد الله لها بالوجود ــ فالله سبحانه وتعالى لا نهاية له؛ ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى هذه الأسماء الثلاثة.

ومعنى الأول: أنه لا بداءة له.

ومعنى الآخر: أنه لا نهاية له.

وقد فسرهما النبي ﷺ ــ كما ثبت في الصحيح ــ فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء».

ومعنى الباقي: الدائم الوجود، الذي لا يقبل الفناء، ولا يلحقه العدم، ولا بداءة لوجوده، ولا نهاية له. وذلك أن الله سبحانه منزه عن مشابهة الحوادث، فلا يجري على ذاته زمان، لأنه هو خالق الزمان، أي: هو خالق التغيرات التي يلاحظ معها فكرة الزمن.

قال الله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

وقال تعالى في معنى اسمه الباقي في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التابعة لمعنى مخالفته تعالى للحوادث:

ثم إن من يتحقق لديه من صفات الله تعالى أنه سبحانه مخالف للحوادث، ومنزه عن مشابهتها تنزيهاً تاماً، ثم يلاحظ تأكيد هذه الحقيقة من خلال أسماء الله الحسنى المأثورة، التي تعود إلى معنى مخالفته تعالى للحوادث، فيتبصر بمعنى أسماء الله «السلام والقدوس. والغني والصمد. والأول والآخر والباقي): فإنه لا يمكن أن يقع في خطأ تشبيه الله جل وعلا بمخلوقاته، أو تشبيه مخلوقاته به. ومن ثَمَّ فلا يمكن أن يتخذ غير الله إلَهاً، أو يعبد مع الله أحداً. أو يقع في تصوره أن الله بحاجة إلى شيء، أو بحاجة إلى أنواع عباداتنا: من صلوات أو صيام أو صدقات، أو أضاحي وقرابين، أو حج أو غير ذلك، بل يعلم بيقين أن هذه العبادات والتكاليف ما هي إلاّ لمصلحتنا، واختبار كمال عبوديتنا لله تعالى.

ثم إن المؤمن يراقب نفسه باستمرار، ويقيس مدى إيمانه وسلامة يقينه، بهذه الحقائق التي اتضحت لديه عن معنى الإلَهية ومعنى العبودية.

(٨)
«صفات أفعال الخالق سبحانه وتعالى»

ولما كان جميع ما في الكون من موجودات، وجميع ما يجري فيه من أحداث وتغيرات، أثراً من آثار الخالق سبحانه، ومظهراً من مظاهر أفعاله جلّ وعلا.

وبعد أن عرفنا من صفات الذات الربانية المقدار الذي يمكننا معرفته إجمالاً، فعرفنا: أنه تعالى حي، عليم، قادر، يفعل ما يشاء ويختار، وعرفنا: أنه تعالى منزّه عن كل ما لا يليق بكمال الألوهية والربوبية، من صفات وأفعال فيها نقص، أو يلزم عنها نقص.

بعد أن عرفنا كل ذلك، فلا بد أن يظهر لنا بوضوح: أن أفعال الخالق سبحانه متصفة بصفات كمال لا تحصى، تمثل حقيقة كمال الخالق في ذاته وصفاته.

فمثلاً:

هو الخالق: لأنه صدر عنه الخلق، وهو فعل من أفعاله.

وهو الرزاق: لأنه هو الذي يرزق عباده، وذلك فعل من أفعاله.

وهو العفوّ: لأنه يتجاوز عن سيئات عباده، وذلك فعل من أفعاله.

وهو المعزّ: لأنه ينصر ويرفع من يشاء من عباده، وذلك فعل من أفعاله.

وهكذا سائر صفات الأفعال لله تعالى.

ولا يفوتنا معرفة أن جميع أفعاله سبحانه وتعالى خَلقٌ، لأنه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، وما الأسباب إلا صور ظاهرة، يكمن فيها قضاء الله وقدره وخلقه.

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى نحو ستين اسماً يعود كل واحد منها إلى صفة من صفات الأفعال؛ وعلى طريقتنا في التنسيق نستطيع أن نُصنِّفها في سبعة أبواب:

الصنف الأول: ما يدخل منها في باب الخلق والإيجاد والتكوين العام؛ وهي: (الحكيم ــ الرشيد ــ الخالق ــ البارىء ــ البديع ــ المصور ــ الهادي «في أحد معانيه» ــ المبدىء ــ المعيد ــ الباعث ــ المحيي ــ المميت ــ الجبار ــ القهار ــ القيوم ــ الحفيظ ــ المؤمن «في أحد معانيه» ــ المهيمن «في أحد معانيه»).

الصنف الثاني: ما يدخل منها في باب رزق المخلوقات الحية؛ وهي: (الرزاق ــ المقيت «في أحد معانيه» ــ المغني ــ القابض ــ الباسط).

الصنف الثالث: ما يدخل منها في باب الهبة والعطاء، وهي: (الوهَّاب ــ البرّ ــ الكريم «في أحد معانيه» ــ الواسع «في أحد معانيه»).

الصنف الرابع: ما يدخل منها في باب الرأفة والرحمة، وهي: (الرحمن ــ الرحيم ــ الرؤوف ــ الودود ــ اللطيف «في أحد معانيه»).

الصنف الخامس: ما يدخل منها في باب الولاية والنصر، وهي: (الوالي ــ الولي ــ الوكيل ــ الحسيب «في أحد معانيه» ــ الصمد «في أحد معانيه» ــ الفتاح «في أحد معانيه» ــ المجيب «في أحد معانيه»).

الصنف السادس: ما يدخل منها في باب علاقة المكلَّفين بخالقهم، وهي: (الملك «في أحد معانيه» ــ الهادي «في أحد معانيه» ــ الحَكَم ــ العدل ــ المقسط ــ الحميد «في أحد معانيه» ــ الشكور ــ التواب ــ الغفور ــ الغفار ــ العفو ــ الحليم ــ الصبور ــ المنتقم).

الصنف السابع: ما يدخل منها في باب: أن جميع ما يجري من متناقضات وأضداد ومختلفات في جميع الخلائق؛ هو من أفعال الخالق سبحانه، وبقضائه وقدره، وهي: (الخافض ـ الرافع ـ المعز ـ المذل ـ المقدِّم ـ المؤخر ـ الجامع ـ المانع ـ الضار ـ النافع).

وتوجد صفات أخرى لله تعالى من صفات الأفعال: كالتكليم، والرضا والغضب، والمحبّة والكراهية. وهي ثابتة في الصحاح، إلّا أنها لم ترد في التسعة والتسعين المشهورة، فلم أوردها في هذا التصنيف.

ونسير في شرح هذه الأسماء الحسنى المأثورة باختصار، وفق هذا التصنيف الذي أوضحناه، وعلى الترتيب السابق نفسه.

* * *

الصنف الأول
وهو ما يدخل في باب الخلق والتكوين العام

(أ) إننا حيث علمنا أن الله سبحانه حي عليم، يفعل ما يشاء ويختار، فلا بد أن تكون جميع أفعاله سبحانه موافقة للحكمة، مطابقة للرشاد؛ لأنه عليم فلا جهل يحجبه عن الكمال؛ ولأنه قادر فلا عجز يمنعه عنه؛ ولأنه يفعل ما يشاء ويختار فلا شيء يجبره على النقص؛ ولأنه منزه عما لا يليق بالألوهية والربوبية فلا شهوة تزين له النقص وتصرفه عن الكمال. ومن هنا جاء في أسماء الله الحسنى: (الحكيم والرشيد).

اسم الله (الحكيم):

أي: ذو الحكمة، وهي الإصابة في التقدير، والإحسان في التدبير. ومن ذلك نرى جميع أفعال الخالق موافقة للحكمة، ولئن خفيت عنا الحكمة في بعض أفعال الخالق فذلك من قصور نظرنا، وضيق أفق تفكيرنا وتجاربنا، ومن تأثرنا بالعوامل النفسية والغريزية فينا.

قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾.

اسم الله (الرشيد):

أي: ذو الرشاد، والرشاد: موافقة الحق والصواب في جميع الأفعال. ومن ذلك نرى جميع أفعال الخالق موافقة لوجه الرشاد والحق، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم، لكنه مجمع عليه.

(ب) ولما كان الله سبحانه هو وحده واجب الوجود، ووجوده وحده هو الأصل، وكان كل ما عداه من موجودات إنما وجد بإرادته تعالى وقدرته، وهذا الإيجاد من العدم هو أعلى ما يطلق عليه اسم الخلق، كان هو الخالق لكل شيء. ومن هنا جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (الخالق).

اسم الله (الخالق):

مـأخوذ من الخلق، وأصله: التقـدير المستقيم، ومنـه قـولـه تعـالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. ويستعمل بمعنى الإبداع، وهو: إيجاد الشيء لا على مثال سابق، ومنه قوله تعـالى: ﴿خلق السماوات والأرض﴾.

قال تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

وجاء في القرآن من أسماء الله الحسنى (الخلاّق) بصيغة المبالغة للخالق.

(ج) ولما كان هذا الخلق صادراً عن حكيم رشيد، كان لا بـد أن يأتي أي مخلوق لـه في ذروة الكمال للغاية التي أعد لها؛ ومتى كان كذلك كـان هذا المخلوق مبـرءاً من أي نقص عن مرتبة الكمال بحسب الغاية التي أعد لهـا؛ ومتى كان المخلوق مبـرءاً من النقص المذكـور، كان خالقه هو البارىء له. ومن هنا جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (البارىء).

اسم الله (البارىء):

مأخوذ من البرء، وهو: خلوص الشيء عن غيره. وفاعل البرء في الخلق هو الذي جعـل المخلوقات كلها بريئة وخالصة من التنـافر المخـل بالنـظام؛ فهو أدل عـلى كمال الخلق من لفظ الخالق، فالله سبحانه هو الخالق البارىء.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

(د) ولما كان جميـع ما خلق الله قد خلقه على غير مثال سبق، وأبدعه إبـداعاً تـاماً، في صورته وشكله، وجميـع جوانب تكوينه، كان الخالق سبحانه هو المبـدع له والمصـور. ومن هنا جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (البديـع والمصور).

اسم الله (البديـع):

بمعنى المبدع، أي: الموجد للأشياء على غير مثال سبق، ودون إرشاد من أحد.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

اسم الله (المصور):

مـأخوذ من التصـوير، وهـو: التخطيط والتـزيين. والمـراد: أنه المبدع للصـور، والمـزين والمرتب لها.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

(هـ) ولما كان كل مخلوق مهيأً في التكوين العام إلى غاية أُعدَّ لها، كان لا بد من هدايته إلى سلوك السبيـل التي تؤدي به إلى الغـاية التي أعـد لهـا بـالـطبـع والاستعـداد؛ أو بـالفـطرة والغريزة، أو بالميل والإرادة. والله سبحانه هـو الذي خلق كـل شيء وهداه إلى غـايته، فهـدى الشجرة مثلاً إلى النماء والإثمار، وهدى الماء إلى السيلان والانحدار، وهدى الحيوانـات ــ على اختلاف أنواعها ــ إلى اكتساب أرزاقها، وجعل ذلك في فطرتها وغريزتها، وهـدى الإنسان إلى السعي والعمل بالإرادة والاختيار، فسبحان من خلق كل شيء وهدى. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الهادي).

اسم الله (الهادي):

مأخوذ من الهداية، وهي: الدلالة. سواء كان ذلـك بخلق الاستعداد الفـطري، أو عن طريق هبة الغـرائز، أو عن طـريق إقامـة الأدلة الكـونية الصـامتة، أو عن طـريق إقامـة الأدلة النـاطقة المبلغـة عـلى ألسنـة الـرسـل. والمقصـود من معنى اسم الله الهـادي في هـذا الصنف: هو ما كان عن طريق خلق الاستعدادات الفطرية وهبة الغرائز؛ فيكون معناه: المرشد لمخلوقاته إلى الغايات التي أعـدت لها بقضـاء الله وقدره. ومنـه قولـه تعالى في سـورة (طه ٢٠) ــ حكـاية لقول موسى في جوابه لسؤال فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ ــ:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله تعالى أيضاً في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

(و) ولما كان في هذه المخلوقات ما يستمر وجوده في خلقه وصورته إلى أجل ينتهي عنده، بالموت أو بتفريق أجزائه وتشتيت وحدته، ثم يخلق مرة ثانية على سبيل الإعادة، للجزاء والحساب أو غير ذلك، كان الخالق هو الذي بدأ خلقه، وهو الذي يعيده. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المبدىء والمعيد).

اسم الله (المبدىء):

مأخوذ من: أبدأ بمعنى: فعل الشيء ابتداءً، أو من أبدى بمعنى: أظهر. فالله سبحانه هو المنشيء للمخلوقات ابتداءً، والمظهر لها من العدم إلى الوجود.

اسم الله (المعيد):

مأخوذ من الإعادة، وهي: إرجاع الشيء إلى ما كان عليه. فالله سبحانه هو المعيد لما يشاء إعادته من مخلوقاته، بعد إعدام ذاته أو صورته.

وقد جاء في معنى أن الله يبدىء ويعيد قوله تعالى في سورة (البروج ٨٥):

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

(ز) ولما كان في ضمن الخلق بعث السواكن إلى الحركة، وبعث الموتى إلى الحياة مرة ثانية، كان الخالق الواحد هو الذي يبعثها. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الباعث).

اسم الله (الباعث):

مأخوذ من البعث، وهو: إثارة الساكن، وتغيير حاله. فالله سبحانه هو باعث الرسل بالأحكام والشرائع، وباعث الموتى إلى الحياة، وباعث النائمين إلى اليقظة، ونحو ذلك. قال الله تعالى في معنى أنه الباعث في سورة (النحل ١٦):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(ح) ولما كان من صور الخلق إلقاء الحياة في الجوامد، وسلب الحياة من الأحياء بالموت، كان الخالق الواحد سبحانه هو الذي يحيي ويميت. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المحيي والمميت).

اسم الله (المحيي):

أي: هو خالق الحياة، وواهبها لمن يشاء حياته.

اسم الله (المميت):

أي: هو خالق الموت في من سبق أن وهبه الحياة، ونازِعُ حياته منه.

قال تعالى في معنى أنه يحيي ويميت في سورة (الأعراف ٧):

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴿١٥٨﴾﴾.

(ط) ولما كان كل ما يجري على المخلوقات يجري عليها دون اختيارها، فهي توجد وتولد دون إرادتها، وهي تتصف بصفاتها دون اختيارها، ثم هي تموت وتفنى دون أن يكون لها رأي في ذلك أو مشورة، بل كل ما يجري عليها يجري بالجبر والقهر، والجابر والقاهر من فوقها هو الله سبحانه. لَمَّا كان ذلك، كان مما جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الجبار والقهار).

اسم الله (الجبَّار):

صيغة مبالغة للجابر مأخوذ من الجبر، وهو في الأصل: إصلاح الشيء مع القهر. ومعنى هذا الاسم: أن الله تعالى كثير الإصلاح للأشياء مع القهر.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وقيل في معنى الجبار: هو العالي الذي لا شيء فوقه. تقول العرب: نخلة جبَّارة، إذا كانت عالية طويلة جدّاً.

اسم الله (القهَّار):

صيغة مبالغة للقاهر، مأخوذ من القهر، والقهر: الغلبة. فمعنى هذا الاسم: أن الله سبحانه ينفذ مشيئته في خلقه بالقهر والسلطان.

قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

(ي) ولما كانت المخلوقات بحاجة في استمرار بقائها وقيامها في وضعها من الوجود إلى

الخالق الذي يقيمها، ويرعاها بالحفظ، كان الخالق سبحانه هو المقيم والحافظ لها، والمؤمّن لها من المخاوف، والمهيمن عليها. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (القيوم ــ والحفيظ ــ والمؤمن ــ والمهيمن).

اسم الله (القيوم):

صيغة مبالغة من القائم، ومعناه: القائم بنفسه، الذي لا يحتاج إلى شيء، والمقيم لغيره، إذ هو القائم بتدبير خلقه.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

اسم الله (الحفيظ):

مأخوذ من الحفظ، وهو: صون الشيء من الزوال والاختلال. فالله جلّ وعلا هو الحافظ للموجودات، والصائن لها من الزوال والاختلال في نظامها وتركيبها مدة بقائها؛ بحسب مشيئته سبحانه.

قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى: الرقيب المطلع، الذي يحصي أعمال عباده.

اسم الله (المؤمن):

إذا كان مأخوذاً من الأمن، كان معنى الاسم: أن الله سبحانه هو الذي يؤمّن عباده من المخاوف، فيدفع عنهم كل ما هو خطر عليهم، ويلقي في قلوبهم الطمأنينة والسكينة، ويدفع عنهم الخوف. وهذا التأمين قد يكون في الدنيا للمؤمن والكافر، وأمّا في الآخرة فلا أمن إلا للذين آمنوا، فهم الذين لهم الأمن يومئذٍ. فيعود ــ على هذا ــ إلى ما يقرب من معنى الحفظ والصيانة، بزيادة معنى إلقاء الطمأنينة في قلب من يرعاه بحفظه، ويكون بذلك اسماً من أسماء الأفعال. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم، وقد سبق أنه يعود إلى صفة العلم بحسب المعنى الآخر له، وهو الإيمان.

اسم الله (المهيمن):

مأخوذ من قولهم: هيمن الطائر إذا نشر جناحيه على فرخه صيانة له، فمعنى المهيمن على هذا: البالغ درجة النهاية في المراقبة والحفظ، وإلقاء الطمأنينة في قلب من يرعاه

ويحفظه. وقد سبق أنه يعود إلى صفة العلم إذا كان من الهيمنة: بمعنى الرقابة والمشاهدة.

قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب الخلق والتكوين العام:

وهكذا فإن من يلاحظ بتحقق ما تدل عليه هذه الأسماء الجليلة من معانٍ، وهي أسماء الله: (الحكيم، الرشيد، الخالق، البارىء، البديع، المصور، الهادي، المبدىء، المعيد، الباعث، المحيي، المميت، الجبار، القهار، القيوم، الحفيظ، المؤمن، المهيمن)؛ فلا بد أن تدفعه باستمرار إلى التبصر والإمعان في جميع المخلوقات، صغيرها وكبيرها، باحثاً عن أدلة وجود الله تعالى في كونه، من خلال إشارات هذه الأسماء.

فيلفته اسما الله «الحكيم والرشيد»: إلى عظيم حكمة الله ورشاده في مخلوقاته، وعظيم حكمته ورشاده في شرائعه المنزلة على رسله. فيجد فيها ما لا يحصى من دقائق الحكمة والرشاد، التي لا تصدر إلا عن حكيم رشيد عليم، وهو الرب العظيم، فيؤمن به ملء فكره وقلبه، بل ملء كل ذرة من ذراته.

وهكذا تلفته أسماء الله «الخالق البارىء البديع المصور الهادي»: إلى الدلائل العظيمة على الرب الأعلى، المنبثة في المخلوقات، وتنتقل به من تصميم أجزاء هذه المخلوقات في مقاديرها المحكمة، إلى تبرئتها من النقص في تكوينها، ثم إلى إبداعها على غير مثال سبق، ثم إلى تصويرها بأجمل صورة وأكملها ــ بحسب الغاية التي أعد كل مخلوق لها ــ ثم إلى هداية هذه المخلوقات إلى غايات تكوينها ونمائها، بالفطرة والغريزة، أو بالعلم والعقل. فيقرأ هذه الأدلة الكثيرة في مخلوقات، قراءة التأمل والتفكر والتدبر، قراءة البحث العلمي الدقيق، فيزداد إيماناً بالله كلما ازداد تأملاً وتفكراً.

وكذلك تلفته أسماء الله «المبدىء المعيد الباعث المحيي المميت»: إلى كمال قدرة الله تعالى في التصرف بالأشياء، بدءاً وإعادة، وحياةً وموتاً وبعثاً، وأن ناصية كل شيء في يده تعالى. فيخضع خضوع العبد المملوك، الذي لا حول له ولا قوة إلا بربه الذي منحه الوجود، وكتب عليه الموت، ووعده بالبعث.

ثم يلفته اسما الله «الجبار القهار»: إلى معنى أن تصرُّفَ الله بعبيده تصرف الإلزام والقهر، دون أن يكون لهم رأي في أنفسهم؛ أو في الكون من حولهم. فيسلم لقضاء الله وتصرفه في كونه، لأنه خالقه ومالكه، وخير للعبد، وأهدأ نفساً وأسعد قلباً وأكمل إيماناً له، أن يستسلم لله الجبار القهار، ويفوض له الأمر، ويسلّم له تسليماً، سواء في خلقه، أو في حكمه، أو في قضائه.

ثم تلفته أسماء الله «القيوم الحفيظ المؤمن المهيمن» : إلى حاجة الموجودات ــ بعد وجودها ــ إلى ربها في بقائها وقيامها في الوجود، بقيومية الله لها، وحفظه إيَّاها، وتأمين قلوب ذوي القلوب منها، وإفراغ الطمأنينة والسكينة عليها، بهيمنته جلّ وعلا. فيعود إلى ربه ملتجئاً إليه، طالباً عونه وإمداده، وحفظه وأمنه، ولا يلتمس أي شيء من ذلك عند غيره سبحانه، فهو الذي بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء.

* * *

الصنف الثاني
وهو ما يدخل في باب رزق المخلوقات الحية

ولما كان من جملة مخلوقات الله تعالى مخلوقات حية، قد ربط الله بحكمته أسباب حياتها ــ المقدرة إلى حين ــ بأسباب الرزق، كان تقدير الرزق وخلقه مما يُهِمُّ هذه المخلوقات الحية، وخصوصاً منها هذا المخلوق الذي وهبه الخالق العقل، وجزءاً من الإرادة والقدرة على الكسب، وأودع في نفسه الحرص على الحياة.

ولذا: كان لا بد من إبراز حقيقة تكفُّل الخالق برزق المخلوق الحي، تطميناً للعباد، فكما أنه القيوم والحفيظ هو الرزاق.

ومن ناحية ثانية: لما كان كسب الرزق في الصورة الظاهرة منوطاً بالسعي، كان لا بد من بيان حقيقة من حقائق الخلق والتكوين في الرزق، وذلك بكشف صفة من صفات أفعال الخالق، وهي: أنه هو الرزاق الحقيقي، وما الكسب إلا صورة من صور جلب الرزق المقدر بخلق الله وتكوينه ومشيئته.

وهنا تبرز لنا من أسماء الله الحسنى أسماء تعود إلى صفة من صفات أفعال الله؛ وتدخل في باب كبير مما يهم العباد، وهو باب الرزق، وهي مختلفة باختلاف مظاهر الرزق.

(أ) فبالنظر إلى جميع المخلوقات الحية، نرى أن الله قدَّر لها أرزاقها التي تكفل لها بإمدادها بوسائل حياتها إلى آجالها المقدرة لها. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الرزاق).

اسم الله (الرزاق):

مبالغة في الرازق، ومعناه: الذي خلق الأرزاق، وجعل في الأحياء الباعث على اكتسابها، وخلق فيهم أسباب التمتع بها. والرزق: يشمل المأكول والمشروب والملبوس، وكل ما ينتفع به الحيوان، ويشمل الأرزاق المعنوية كالعلم والهداية. فلا رزاق إلا الله تعالى.

قال الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾.

(ب) ولما كانت الأقوات من أعظم ما يهتم له الأحياء في أرزاقهم، كان لا بد من كشف أن الخالق هو الذي يخلق الأقوات، ويرزق عباده منها. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: «المقيت».

اسم الله (المقيت):

مأخوذ من القوت، أي: هو خالق الأقوات كلّها، وموصلها إلى مقتاتيها.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم، وقد سبق أنّه يكون بمعنى: المستولي القادر على كل شيء.

(ج) وفي باب الرزق يطمع الإنسان بالغنى والكفاية، وإذ كان الخالق هو المغني الذي لا مغني ولا كافي سواه، كان لا بد من إبراز صفة أنه المغني من صفات أفعاله سبحانه. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المغني).

اسم الله (المغني):

مأخوذ من الغنى، والغنى: الاكتفاء. فالله سبحانه: هو الممد بالغنى من شاء من عباده، على وفق حكمته، ومن عرف أن الله هو المغني استغنى بالافتقار إليه عما سواه.

قال الله تعالى في معنى أنه المغني في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(د) ولما كانت حكمة الخالق تقضي بأن يمتحن عباده بنوعين:

١ ــ بتقتير الرزق على بعضهم، ليمتحن صبرهم على الفاقة، وإيمانهم بأن بسط الرزق بيد الله، وأنه لو شاء بسطه.

٢ ــ ببسط الرزق على آخرين، ليمتحن إيمانهم بأنه هو الذي بسط لهم الرزق، وأنه لو شاء قبضه، وليمتحن شكرهم لفضله عليهم.

كان ممّا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (القابض والباسط).

اسم الله (القابض):

مأخوذ من القبض وهو لغة: الأخذ، والمراد التضييق. فمعنى القابض: المضيق لرزق من أراد من عباده، ويشمل القبضَ في مشاعر النفس من حواشيها حتى أعماقها حيث الفؤاد.

اسم الله (الباسط):

مأخوذ من البسط وهو لغة: التوسعة. فمعنى الباسط: الموسع لرزق من يشاء من عباده، ويشمل البسطَ في مشاعر المسرّة النفسية حتى عُمْقِ الأحاسيس القلبية.

قال الله تعالى في معنى أنه القابض الباسط في سورة (البقرة ٢):

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب رزق المخلوقات الحية:

وهكذا فإن من يلاحظ بتحقق ما تدل عليه أسماء الله: «الرزاق، المقيت، المغني، القابض، الباسط» ويتبصر بها بإمعان؛ فإنه لا بد أن يأوي ـ مع التفكر فيها ـ إلى ظلال الرضى والتسليم لله، ويطمئن على رزقه المكتوب له. ويقنع بما يؤتيه الله من دنياه، ولا يلجأ إلا إليه في طلب الرزق، ولا يسعى في جلبه إلا من حيث أمره الله من أبواب أحلّها، لأنه يعلم أن رزقه محتوم. وخير له أن يجني رزقه المحتوم له، المأمور بالسعي لكسبه، من طرق كريمة يؤجر عليها ويثاب، لا أن يجنيَه من طرق خبيثة يؤزر عليها ويعاقب، وهذه هي سبيل المؤمنين العارفين بربهم.

ويسعى لاجتلاب مسرّات نفسه وقلبه، وصرفِ مشاعر الانقباض عنهما، بمراضي الله والمواظبة علىٰ ذكره والأنس بمناجاته.

كما يعلن في عقيدته في باب الرزق، ما أعلنه سيدنا إبراهيم عليه السلام فيما يحكيه الله تعالى عنه. قال الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

الصنف الثالث
وهو ما يدخل في باب الهبة والعطاء

وإذا أمعنّا النظر في تكوين نفس هذا الإنسان المخلوق العجيب، وجدناه مزوداً بطبائع كثيرة منها: الطمع الشديد بتحصيل كثير مما يرى فيه تحقيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادية أو المعنوية، العاجلة أو الآجلة.

ولما كان تحقيق ما يرجوه هذا الإنسان مرتبطاً ـ في الواقع ـ بقضاء الله وقدره، ومرهوناً بإرادة الله وقدرته وخلقه، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، وجب أن يتوجه طمع العاقل المؤمن بالله ـ في تحقيق ما يريد من خير لنفسه أو لمن يحب ـ إلى من بيده القدرة على تحقيق مطالبه وحاجاته، وهو الله تعالى.

ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الوهاب ـ البرّ ـ الكريم «في أحد معانيه» ـ الواسع «في أحد معانيه»).

اسم الله (الوهّاب):

مأخوذ من الهبة، وهي: العطية الخالية من العوض والغرض، والوهاب: صيغة مبالغة للواهب. ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، إذ لا مالك في الواقع سواه.

قال الله تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾.

اسم الله (البرّ):

بفتح الباء، وهو: فاعل البر، بكسر الباء. والبِر: هو التَّوسُّع في العطاء. فالله سبحانه: هو ذو العطاء الواسع والفضل الجزيل، الذي يمنح عطاءه جميع الناس، محسنهم ومسيئهم.

قال الله تعالى ـ حكاية لقول أهل الجنة في الجنة ـ في سورة (الطور ٥٢):

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾.

اسم الله (الكريم):

إذا كان من كرمِ أفعال الله سبحانه، فهو بمعنى: البادىء بالنوال قبل السؤال.

قال الإمام الغزالي: الكريم: هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن وقعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفا عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك ـ لا بالتكلف ـ فهو الكريم المطلق، وذلك هو الله تعالى فقط.

قال الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾.

وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم.

ويأتي بمعنى كرمِ الذاتِ والصفاتِ: وهو شرفها ومقدارها العظيم.

اسم الله (الواسع):

مشتق من السعة، فإذا كان بمعنى السعة في العطاء فمعناه: الجواد الذي عمت نعمه، وشملت رحمته كل برّ وفاجر، ومؤمن وكافر، ففواضله شاملة، ومنحه كامله. وهذا أحد معاني هذا الاسم، وقد سبق أنه بمعنى الواسع في العلم أيضاً.

ويمكن أن يكون بمعنى الكبير المحيط بكل شيء أيضاً.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝١١٥﴾.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب الهبة والعطاء:

ومن يلاحظ باستمرار ـ ملاحظة تحقق وتبصر ـ ما تدل عليه أسماء الله: (الوهاب، البرّ، الكريم، الواسع)؛ ويلاحظ مع ذلك أن الله تعالى هو القادر الذي لا يعجزه شيء؛ فإنه لا بد أن يكون قلبه معلق المطامع بهبات الله وبره، وكرمه وسعة عطائه، منصرفاً عمن سواه من ذوي الحاجات. فذوو الحاجات مهما سخت نفوسهم، فإنهم بخلاء ممسكون أمام كثير مما يدخل في حدود مطامعهم، أو في حدود ما يحتاجونه ـ ولو احتمالاً وبعد حين ـ، إلا أن يقهروا نفوسهم بتكليفها العطاء والبذل.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ۝١٠٠﴾.

وحظ العبد المسلم المؤمن بالله من هذه الأسماء: أن يتخلق بشيء مما تدل عليه قدر استطاعة، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهاباً بَرّاً كريماً، واسع العطاء مما تفضل الله به عليه من مال أو جاه أو نفس، وذلك بالبذل السخي في أبواب البر التي حضّته على البذل فيها شريعةُ الله.

* * *

الصنف الرابع

وهو ما يدخل في باب الرأفة والرحمة

والإنسان ــ في جميع أطوار حياته ــ بأشد الحاجة إلى من يرحمه ويرأف به، ولا يملك الرحمة الحقيقية به ــ في دفع الضر عنه، وجلب الخير له، وإفاضة النعم عليه: ظاهرها وباطنها، جليلها ودقيقها، ماديها ومعنويها، عاجلها وآجلها ــ إلاّ خالقه، وخالق كل شيء في السماوات والأرض، ومن بيده ملكوتها.

ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الرحمن ــ الرحيم ــ الفتاح ــ اللطيف «في أحد معانيه» ــ الرؤوف ــ الودود).

اسم الله (الرحمن):

صفة مشبهة مأخوذة من الرحمة، ومعنى الرحمة في المخلوق: رقة في القلب، ولكن هذا المعنى لا يليق بالخالق سبحانه، فالمراد منها بالنسبة إليه أنها صفة تليق بجلاله سبحانه ولازمها الإنعام. فمعنى الرحمن: المنعم بجلائل النعم على مستحقها وغير مستحقها، والرحمة صفة لله تعالى تليق بجلاله سبحانه والله أعلم.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿١١٠﴾﴾.

اسم الله (الرحيم):

مأخوذ من الرحمة أيضاً كالرحمن، والمراد من الرحيم: المنعم بدقائق النعم وصغارها، على مستحقها وغير مستحقها، والله أعلم.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

اسم الله (الفتاح):

صيغة مبالغة للفاتح، ومعناه: الذي يفتح خزائن رحمته للناس.

فيفتح لهم برحمته أبواب النصر، ومنه قوله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

وهو ما فتح الله على رسوله به إذ نصره على أعدائه، كما فتح له أبواب الأرض.

ويفتح لهم برحمته أبواب المعارف والعلوم النافعة، كما يفتح لهم أبواب كل خير. قال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

ويفتح لهم رحمته بالحكم بالحق، ومنه قوله تعالى ــ حكاية لقول شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه ــ في سورة (الأعراف ٧):

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾.

أي: احكم بيننا وبينهم بالحق.

وقد جاء في القرآن اسم الله الفتاح، قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾.

اسم الله (اللطيف):

أي: خالق اللطف بعباده، وهو: الرفق، فهو سبحانه: يلطف بهم من حيث لا يشعرون، ويرفق بهم فيما تجري به المقادير.

قال الله تعالى ــ حكاية عن قول سيدنا يوسف عليه السلام ــ في سورة (يوسف ١٢):

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾.

وهذا أحد معاني هذا الاسم. وقد سبق أنّه يأتي بمعنى: العليم بخفيات الأمور ودقائقها، عند شرح الأسماء العائدة إلى معنى تحقق صفة العلم لله تعالى.

اسم الله (الرؤوف):

مأخوذ من الرأفة، وهي: شدة الرحمة. فالمراد من الرؤوف: أنه سبحانه هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها، ويتعهدهم بعنايته وجُوده وإحسانه وعفوه وغفرانه.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾.

اسم الله (الودود):

مأخوذ من الود، وهو: الحب.

ومحبة الله خاصة بصنف من عباده وهم المؤمنون الطائعون. قال الله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾. والمراد من محبة الله لعبده: زيادة إنعامه عليه، بجعله من أهل القربى عنده.

ويتضمن معنى الود من الإنعام ما لا يتضمنه معنى الرحمة أو الرأفة. وحين يحبّ اللَّهُ بعض عباده أو يودُّهم فهو يحبّهم بوصف يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى في سورة (البروج ٨٥):

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب الرأفة والرحمة:

ومن يلاحظ باستمرار ـ ملاحظة تحقق وتبصر ـ ما تدل عليه أسماء الله: (الرحمن الرحيم الفتاح اللطيف الرؤوف الودود)؛ ويلاحظ مع ذلك أن الله تعالى هو القادر الذي لا يعجزه شيء، فإنه لا بد أن يكون دائم الالتماس لرحمات الله بالدعاء له، والتوسل إليه بمختلف الأعمال الصالحة، ليكون أهلاً لرحمات الله وفتوحاته، وألطافه ورأفته به، ثم ليكون أهلاً لحب الله ووده له، وبذلك يرقى إلى غايات درجات القرب والمعرفة والاصطفاء.

وحظ العبد المسلم المؤمن بالله من هذه الأسماء: أن يتخلق بشيء مما تدل عليه قدر الاستطاعة البشرية، فيكون رحيماً بخلق الله، مؤيداً لأرباب الحق، ناصراً لأولياء الله، لطيفاً في معاملاته لخلق الله، رفيقاً بهم، مملوء القلب بالرأفة والرحمة، محباً لله، ومحباً لكل من يحبهم الله، ولكل ما يحبه الله.

* * *

الصنف الخامس

وهو ما يدخل في باب الولاية والنصر

ولما كان الإنسان عاجزاً عن كمال التدبير لأمره، ضعيفاً عن تنفيذ ما يريده، وهو بحاجة إلى قادر عظيم: يتولى تدبير أمره، وتنفيذ مراداته، ونصره على عدوه، ومساعدته في التغلب على كل عقبة تقف في طريق نجاحه. فهو بحاجة إلى ولي يتولاه، ووكيل يتوكل عليه فيرعاه، وكافٍ يكفيه، وصمد يرجع في أمره كله إليه، وناصر يفتح عليه بالنصر، يستجيب له إذا دعاه، ويسعفه إذا توسل إليه. ولا يملك ذلك كله ـ في الحقيقة ـ إلا الله الخالق القادر، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الوالي ـ الولي ـ الوكيل ـ الحسيب «في أحد معانيه» ـ الصمد «في أحد معانيه» ـ الفتاح «في أحد معانيه» ـ المجيب).

اسم الله (الوالي):

مأخوذ من الولاية، وهي: الملك للأشياء، والتصرف فيها بحسب المشيئة. ومالك الشيء يدافع عنه وينصره، فالله هو الوالي لنا، أي: مالكنا والمتصرف بتدبير أمرنا، وإذا استنصرناه ـ مؤمنين به مخلصين له مدافعين عن دينه ـ نصرنا وأيدنا. ومن عرف أن الله تعالى هو الوالي الحق، اكتفى بولايته ونصره، وسكن إليه في جميع أحواله ومهماته. ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم ولكنه مجمع عليه.

اسم الله (الولي):

مأخوذ من الولاية أيضاً، ولكنه أبلغ من الوالي. فمعنى كون الله ولياً: أنه المتكفل بأمور الخلائق كلها، والناصر لأوليائه على أعدائه، لأنه يتولاهم بتأييده ونصره.

ومن عرف أن الله هو ولي المؤمنين لم يتخذ غيره ولياً، وإنما يرجع في أمره كله إليه.

قال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

اسم الله (الوكيل):

أي: القائم بأمور عباده، وبتحصيل ما يحتاجون إليه؛ من توكل عليه كفاه، ومن استغنى به أغناه عما سواه.

ومن عرف أن الله هو الوكيل الحق في تدبير ما غاب عن عباده، وما حضر لديهم من أمر، اكتفى بالالتجاء إليه، ولم يتوكل إلاّ عليه. قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وقال الله تعالى ــ في حكاية قول الصادقين من أصحاب محمد ﷺ ــ في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة (الإسراء ١٧):

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

اسم الله (الحسيب):

إذا كان من الحَسْب وهو: الاكتفاء، فيكون معنى الحسيب: الكافي. فمن توكل على الله فهو حسبه، ولا يوجد كافٍ في الحقيقة إلا الله تعالى. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

وقد سبق أنه يأتي بمعنى: العليم بالأعداد والحساب، في الأسماء التابعة لصفة العلم.

اسم الله (الصمد):

هو الذي يصمد إليه في الحوائج ــ أي: يقصد فيها ــ إذ لا كافي في الحقيقة إلا هو. والرجوع إلى الله في كل أمر إنما يكون بوصف أنه سبحانه هو الوهاب بقدرته، والمدبّر بحكمته. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم الكريم.

ومن عرف أن الله هو الصمد لم يرجع في كل أمره لغيره، بل كان به غنياً، وبقضائه رضياً.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾.

اسم الله (الفتاح):

إذا كان من الفتح بمعنى النصر ـ أحد معاني الفتح الذي سبقت الإشارة إليه فيما يدخل في باب الرأفة والرحمة ـ فالفتاح: هو الذي يفتح على أوليائه بالنصر والتأييد. ومنه قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾.

ومن عرف أن الله هو الفتاح بالنصر، لم يستنصر إلا به سبحانه.

قال الله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦ ﴾.

اسم الله (المجيب):

مأخوذ من الإجابة، وهي: تلبية الطلب. وكون الله مجيباً: أي ملبياً دعوة الداعي إذا دعاه، ومسعفاً السائل إذا ما التجأ إليه واستدعاه. قال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ۝٦٢ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦ ﴾.

وقال الله تعالى ـ في حكاية قول النبي صالح لقومه ـ في سورة (هود ١١):

﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١ ﴾.

ومن عرف أن الله وحده هو المجيب لدعاء المضطر، القادر على كشف السوء عنه، فإنه لا يدعو غيره، ولا يلتجىء إلا إليه.

ملاحظة: لا بدّ مع التوكّل على الله والاعتماد عليه والاكتفاء به، في الأمور كلّها، والالتجاء إليه لتحقيق المطالب، من القيام بكل الأسباب المتاحة التي جعلها الله في كونه أسباباً لتحقيق مقاديره في كونه.

● فالتوكلُ على الله والاكتفاء به والالتجاء إليه وظيفة من وظائف الإيمان تتعلّق بالقلب والنفس ومشاعرهما، ومن شأنها أن تضاعف من طاقات العمل ثقةً بالله.

● والقيام بالأسباب وظيفة من وظائف الإسلام لله تعالى، وهي تتعلّق بأعمال الجوارح الكاسبة، سواء كانت جسدية أو فكرية، وعدم القيام بها تفريط ومعصية لله في أوامره ونواهيه.

الصنف السادس
وهو ما يدخل في باب علاقة المكلّفين بخالقهم

إن الله جل وعلا خلق مخلوقات كثيرة، وجعل من هذه المخلوقات أصنافاً حية، ووهب بعض هؤلاء الأحياء ـ التي لها قدرة السعي والحركة ـ العقل والإرادة في حدود ضيقة، وحيث وهبهم العقل والإرادة وجه إليهم التكليف بالأمر والنهي، أن يعرفوا خالقهم، ويسلكوا الصراط المستقيم الذي يضمن لهم السعادة.

(أ) وبما أن الله وحده هو الذي له الملك الحقيقي التام على عباده، وهو المتصرف فيهم بالأمر والنهي، جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (الملك).

اسم الله (المَلِك):

بكسر اللام من المُلك بضم الميم: أي المتصرف بالأمر والنهي في عباده.

قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ ﴿١١٤﴾﴾.

(ب) وإذْ كان الله هو الملك، ولا مُلك في الحقيقة لأحد سواه، وهو الذي له الأمر والنهي، وعلى عباده معرفته، والإيمان به وطاعته، فقد أنزل ـ بحكمته ورحمته ـ للناس الشرائع لهدايتهم إلى معرفته، وإرشادهم إلى صراط السعادة: فأمرهم فيها بالصالحات، ونهاهم فيها عن السيئات، وكلّفهم التزام الطاعة، واجتناب المعصية، فإذا فعلوا ذلك نالوا سعادة الدنيا والأخرى.

ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الهادي).

اسم الله (الهادي):

مأخوذ من الهداية، وهي: الدلالة والإرشاد، والمقصود هنا: الدلالة عن طريق إقامة الأدلة المبلّغة على ألسنة الرسل. فمعنى اسم الله الهادي هنا: المرشد لعباده، والمبين لهم

الصراط السوي. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم الكريم. وقد سبق له شرح في الصنف الأول: (الأسماء الحسنى التي تدخل في باب الخلق والتكوين العام).

قال الله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾.

(ج) ثم إن الناس جميعاً بين يدي هذا التكليف الرباني، أمام الحكم العدْل المقسِط.

ومن ذلك جاءت هذه الأسماء في المأثور من أسماء الله الحسنى:

اسم الله (الحَكَم):

بفتحتين، معناه: الحاكم الذي لا مرد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لأنه يضع الأحكام في مواضعها، بعلمه وحكمته.

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١١٤﴾.

اسم الله (العَدْل):

هو في الأصل مصدر أقيم مقام اسم الفاعل الذي هو العادل للمبالغة، فمعنى اسم الله العدْل: أنه البالغ في العدل غايته. فهو الذي لا يظلم أحداً في تقرير عقاب عليه لا يستحقه، أو بحرمانه من أجر هو له، بحسب وعده الصادق.

وفي معنى أنه عادل لا يظلم أحداً، قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾.

اسم الله (المقْسِط):

مأخوذ من أقسط: إذا انتصف للمظلوم، وأزال الجَوْر عنه. فيكون معنى هذا الاسم: الذي يعدل بين الخلائق فيما يجري بينهم من تظالم.

أما القاسط ـ المأخوذ من قسط بدون همز ـ فهو الظالم الجائر. لأن معنى قسط: جار.

فمن المقسط، قوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾.

ومن القاسط، قوله تعالى في سورة (الجن ٧٢):

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

وفي معنى أنه عدل مقسط، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

(د) ثم إن المكلفين ــ في واقع حالهم بين يدي التكليف الرباني ــ أقسامٌ ثلاثة:

القسم الأول ــ السابقون في الخيرات، وهم: المتوسعون في عبادة الله والعمل بمراضيه فوق الفرائض والواجبات، والملتزمون حدود شرائعه، مع تفاوت فيما بينهم. وهؤلاء سيجدون أنفسهم أمام طائفة من أسماء الأفعال لله تعالى، والذي جاء في المأثور منها: (الحميد «في أحد معانيه»، والشكور).

القسم الثاني ــ المقتصدون: وهم الذين يؤدون الواجبات ويتركون المحرّمات ولا يتوسعون في فعل النوافل وترك المكروهات، وهؤلاء كأهل القسم الأول تجاه طائفة من أسماء الأفعال لله تعالى.

اسم الله (الحميد):

فعيل بمعنى فاعل، أي: حامد. فيكون معناه على هذا: الذي يحمد أهل طاعته من عباده، ويثني عليهم بما عملوا من خير، ويسخّر لهم من يثني عليهم بين خلقه، تكريماً لقلوبهم الطاهرة، وأعمالهم الحسنة. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم الكريم.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

وسيأتي شرح هذا الاسم أيضاً عند صفات الحمد والتمجيد لله تعالى، وهو هناك بمعنى: المحمود بعظيم صفاته سبحانه.

اسم الله (الشكور):

صيغة مبالغة لشاكر، والشكر يأتي بمعنى: كثرة الثناء على الأفعال الحسنة، ومقابلة الحسنة بمثلها أو بأحسن منها. ومعنى كون الله سبحانه شكوراً: أنه كثيرُ الثناء على عباده في طاعاتهم، وأفعالهم الحسنة، والمغدقُ عليهم الثواب الجزيل، على العمل الضئيل، فضلاً منه ورحمةً.

قال الله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

القسم الثالث ـ الظالمون لأنفسهم: وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم من المؤمنين.

ذلك أن الناس ـ بوصف أنهم بشر ـ تغلبهم شهواتهم، فيقعون في مخالفته تعالى، وقد يكونون كارهين من أنفسهم ذلك، ولكن سلطان شهواتهم تغلّب على إراداتهم، حتى إذا قضوا دوافع الشهوة، ووقعوا بالمخالفة، ندموا على ما اقترفوا.

وقد ترك الله سبحانه لهؤلاء فرص التوبة والندم، حتى يصلحوا أنفسهم، ويغسلوا خطاياهم، وفتح لهم ـ بفضله وكرمه ـ أبواب التوبة والعفو والغفران، ينالون منها نصيباً حسناً، إذا استغفروا وتابوا إلى بارئهم.

ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (التواب، الغفور، الغفار، العفو).

اسم الله (التواب):

صيغة مبالغة للتائب، والتوبة لغة: الرجوع، يقال تاب العبد: إذا رجع إلى الندم والطاعة، ويقال تاب الله عليه: إذا رجع عليه بالقبول والغفران. فمعنى التواب بالنسبة إلى الله تعالى: أنه يرجع على من تاب من عبادة بقبول توبتهم، وغفران سيئاتهم.

قال الله تعالى في سورة البقرة (البقرة ٢):

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

اسم الله (الغفور):

صيغة مبالغة لغافر، وهو مأخوذ من الغفر: وهو الستر. فمعنى كون الله غفوراً: كونه كثير المغفرة، وهي: ستر ذنوب من شاء من عباده، وتجاوزه عنها، وصيانة المذنب عما استحقه من العذاب، بعد أن استغفر وتاب، فضلاً منه وكرماً.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

اسم الله (الغفار):

صيغة مبالغة أخرى لغافر، وقد تكون أبلغ من غفور لزيادة مبناها، والأصل في المعنى واحد.

قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

اسم الله (العفوّ):

مأخوذ من العفْو وهو: المحو وإزالة الأثر، ومنه قولهم عفت الريح آثار الديار: إذا أزالتها ومحتها. فالعفو عن الذنب: محوه وإزالة أثره، وهو أبلغ من المغفرة، لأنها ـ كما سبق ـ من الغفر: وهو الستر.

فاسم الله العفو: أي ذو العفْو، وهو ترك المؤاخذة على ارتكاب الذنب، وإزالة أثره من صحائف الأعمال.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

القسم الرابع ـ من هم دون الأقسام الثلاثة السابقة، إذْ تجرّؤوا على الله بالاستغراق في المعاصي والذنوب، وعدم الرجوع إلى الله تعالى بتوبةٍ أو ندم. وإذ يحمل هؤلاء أوزارهم على ظهورهم مكابرين معاندين، غير مكترثين ولا وجلين، سيجدون أنفسهم بين يدي: (الحليم الصبور) ثم: (المنتقم) الذي يعاقب على السيئة بمثلها.

اسم الله (الحليم):

أي: الذي لا يعجل بالانتقام من عباده المجرمين، ليفسح لهم مجالات التوبة والندم، وليقيم الحجة عليهم بأنهم لم يصلحوا قلوبهم وأعمالهم، بعد الحلم الطويل بهم. على أنه لا يعجل بتنفيذ العقاب مَنْ لا يخاف الفوت، كيف يخاف الفوتَ ربُّنا سبحانه، والأرض والسماوات جميعاً قبضته؟!

وفي معنى أنه تبارك وتعالى حليم، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ووصف الله نفسه بأنه حليم، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

اسم الله (الصبور):

فَعُولٌ من الصبر، والمراد منه بالنسبة إلى الله تعالى: عدم الاستعجال في العقاب والمؤاخذة، فيكون بمعنى الحلم. فمعنى الصبور: الذي لا يستعجل في مؤاخذة العصاة، ومعاقبة المذنبين، أو بمعنى أعم، وهو: الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى فعل الشيء قبل أوانه.

وهذا الاسم غير وارد في القرآن الكريم، ولكنه مجمع عليه.

اسم الله (المنتقم) أو (ذو انتقام):

وهو بمعنى: المعاقب للعصاة والمذنبين، الذين لم يستغفروا من ذنوبهم، فلم يشملهم عفو الله ولا غفرانه. وأصل النقمة: شدة كراهية القبيح.

ومن عرف أن الله سينتقم منه ويعاقبه إذا هو أصرَّ على مخالفته ومعصيته تعالى، ارتدع عن المعاصي، واستغفر وأناب.

وفي أنه تبارك وتعالى ذو انتقام، قال في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

وفي وصفه تبارك وتعالى بأنه منتقم، قال في سورة (السجدة ٣٢):

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب علاقة المكلفين بخالقهم:

ومن يلاحظ باستمرار ـ ملاحظة تحقق وتبصر ـ ما تدل عليه أسماء الله: (الملك ـ الهادي ـ الحكم ـ العدل ـ المقسط ـ الحميد ـ الشكور ـ التواب ـ الغفور ـ الغفار ـ العفو ـ الحليم ـ الصبور ـ المنتقم أو ذو انتقام).

ويلاحظ مع ذلك أن الله هو العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية، وهو القادر الذي لا يعجزه شيء، فإنه لا بد أن يخشع بين يدي الله معترفاً له بتمام الملك، راضياً بـأمره ونهيـه، ساعياً إلى مرضاته: فإذا جـاءه الهدى من ربـه اتَّبعه مـطمئن القلب، مسلِّماً تسليماً. وإذا حكم عليه بحكم رضي بحكمه، ولم يعقِّب عليه بغير الثناء والإجلال. ثم إذا سعى سعيه، علم أن الله لا يضيِّـع له أجر عمله لأنه العدل، ولا يظلمه مثقـال ذرةٍ لأنه المقسط، بـل سيمنحه عـلى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيـرة، لأنه تعـالى الحميد الشكـور، لذا فهو يضاعف من أعماله الصالحة لينال رفيـع الدرجات عند الله. على أنه إذا تغلبت عليه نَفْسُه فانزلق إلى المعصية، فإنه ما أسرع ما يعـود إلى الاستغفار، ويؤوب إلى النـدم والتوبـة، طامعـاً بتوبة الله عليه، وغفر ذنوبه والعفو عنها، لأنه يعلم أن الله هو التـواب، الغفور الغفـار العفو. كما أنه لا يغتر بتأخير معاقبة الله تعالى له، لأنه يعلم أن الله حليم صبور، يؤخـر العقوبة، ويمد في آجال فرص التوبة، ليعود المسيء إلى رشده، ويستغفر من ذنبه.

أمَّا إذا تمادى المسيء في غيِّه، فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه تعالى يمهل ولا يهمل.

ثم هـو لا يتجـرأ عـلى الله بـالعنـاد والاستكبـار، لأنـه يعلم أن الله منتقم قهـار، شديد العقاب.

* * *

الصنف السابع
مِنْ أسماءِ اللهِ الحُسنى التي تعودُ إلى صفاتِ الأفعال

وهو ما يدخل في باب: أن جميـع ما يجري من متناقضات، وأضداد ومختلفات، في جميـع الخلائق، هـو من أفعال الخالق سبحانه وبقضائه وقدره.

إذا لاحظنا جميـع ما يصيب الناس من خفض أو رفـع، وعز أو ذل، وتقـديم أو تأخـير، وجمع أو منع، وضر أو نفع، رأينا بوضوح أنـه من الله تعالى، وبقضـائه وقـدره. ومن هنا جـاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الخـافض ـ الـرافـع ـ المعِـز ـ المـذل ـ المقـدم ـ المؤخـر ـ الجامع ـ المانع ـ النافع ـ الضار).

وفيما يلي شرح هذه الأسماء:

اسم الله (الخافض):

اسم فاعل مأخوذ من الخفض، وهو: الإهانـة وتنزيـل المكانـة. فما يصيب الإنسـان من انحطاط وسقوط في درجته بين النـاس، فمن الله جل وعـلا، فهو سبحـانه الـذي يخفض أهل الكفر والمعصية ـ بما ينالهم من شقوةٍ ـ بسبب كفرهم ومعاصيهم.

اسم الله (الرافع):

اسم فاعل مأخوذ من الرفع، وهو: الإكرام وإعلاء المكانة. وما يصل الإنسان إلى مكانة رفيعـة بين النـاس إلاَّ بـرفـع من الله جـل وعـلا؛ فهـو الـذي يـرفـع أهـل الإيمـان والـطاعـة ـ بما يصيبونه من سعادة ـ بسبب إيمانهم وطاعاتهم.

وفي معنى أنه الرافع ـ وهو يتضمن أنه الخافض ـ قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

اسم الله (المعِزّ):

اسم فاعل من الإعزاز، وهو: إعلاء الشأن والتقوية. فما من عِزّ يناله الإنسان إلّا بإعزاز الله له.

اسم الله (المذِلّ):

اسم فاعل من الإذلال، وهو: إسقاط الشأن والإهانة والإضعاف. فما من ذلٍّ ينحدر إليه الإنسان إلّا بإذلال الله له.

وفي معنى أنه المعز والمذل، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

وأعلى أنواع العز: عز الطاعة والقرب من الله، وشر أنواع الذل: ذلّ المعصية والبعد عن الله.

اسما الله (المقدِّم والمؤخِّر):

مأخوذان من التقديم والتأخير، ويقعان: في الأزمنة والأمكنة والمنازل المعنوية. فما من تقديم أو تأخير ــ في الأزمنة أو في الأمكنة، أو في المنازل المعنوية ــ يجري لأحد من خلق الله، إلّا وهو حاصل بتقديم الله أو تأخيره. وأعلى أنواع التقديم: تقديم الله أولياءه، بتقريبهم إليه، وهدايتهم إلى معرفته. وأخس أنواع التأخير: تأخير الله أعداءه، بإبعادهم عن رحمته، وضرب الحجاب بينه وبينهم.

وهذان الاسمان غير مذكورين في القرآن الكريم، ولكنهما مجمع عليهما.

اسم الله (الجامع):

مأخوذ من الجمع، ويقع الجمع: في الأجزاء المتباعدة، والأمور المتفرقة. وكثير من صور الخلق في الأكوان إنما يتم بجمع المتفرقات جمعاً حقيقياً، وهو بفعل الله وقضائه وقدره، فالله هو الجامع، ومن ذلك: جمعُ الناس ليوم القيامة، وجمعُ الخيرات ومنحها لمن يشاء من عباده.

قال الله تعالى ــ حكاية لقول الراسخين في العلم ــ في سورة (آل عمران ٣):

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

اسم الله (المانع):

مأخوذ من المنع، وهو: حجز الأشياء. وكثير من صور حفظ المخلوقات في نظامها وأوضاعها من الخلل أو الفساد، إنما يتمّ بمنع المهلكات عنها، وبذلك تتم صيانتها، ويستمرّ بقاؤها، ولولا منع الله المهلكات عنها لفسدت واختلّ نظامها، وهذا ما يسمى بدفع البلاء، وما ذلك إلاَّ بخلق الله تعالى. كما أن من صور المنع: الحرمان من بعض الخيرات، وإنما يكون ذلك بخلق الله وقضائه وعدله وحكمته، ومنه دعاء الرسول ﷺ: **«اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»**، ومن المنع ما يكون للابتلاء أو التربية أو الجزاء.

ولم يرد في القرآن الكريم هذا الاسم، ولكنه مجمع عليه.

اسما الله (النافع والضار):

ومن صور المتناقضات التي تجري في الخلق، صور المنفعة والمضرة التي لا تدخل في مجال تكليف المكلفين: كالصحة والمرض، والعطاء والحرمان، والنقص والزيادة في الأموال والأنفس والثمرات. فما يجري شيء من ذلك وأمثاله إلاَّ بفعل الله وقضائه وقدره، فمنه ما يحصل لخلائقه من منفعةٍ، ومنه ما يصيبهم من مضرة، أما المضرة فبعدلٍ منه، وأما المنفعة فبفضل منه، وكلّ ذلك يقع بحكمة الله عزّ وجلّ، للابتلاء أو التربية أو الجزاء.

وفي معنى أنه النافع وأنه الضار: قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿١٦﴾﴾. أي: مع أن الله هو الذي يملك النفع والضر لجميع من خلق وما خلق.

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب: أن جميع ما يجري من متناقضات، وأضداد ومختلفات في جميع الخلائق، إنما هو من أفعال الخالق سبحانه وبقضائه وقدره:

ومن يلاحظ باستمرار ــ ملاحظة تحقق وتبصر ــ ما تدل عليه أسماء الله: (الخافض ــ الرافع ــ المعز ــ المذل ــ المقدم ــ المؤخر ــ الجامع ــ المانع ــ النافع ــ الضار)، ويلاحظ مع ذلك قدرة الله القادرة، وحكمته العالية، فإنه لا بدّ أن يقف في مقام العبودية التامة لله تعالى،

ويخشع أمام قهر الله القاهر فوق عباده، ويلتمس منه جلب كل خير، ودفع كل ضر، ويرضى بقضائه وقدره، ويعلم أنه الفعَّال الحقيقي في كل أمر يحدث: من رفع وخفض، وعزّ وذلّ، وتقديم وتأخير، وجمع ومنع، ونفع وضر، وأن جميع الأفعال التي تباشرها المخلوقات ــ وينتج عنها الآثار ــ إنما هي وسائل وأسباب صورية، لا تأثير لها في الحقيقة، فكم من سبب صوري بلا أثر! وكم من أثر بلا سبب من الأسباب الصورية! لأن من فوق كل ذلك الربّ القادر القاهر.

قال الغزالي: (فلا تظنن أن السم يقتل ويضر بنفسه، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه، وأن الملك والإنسان والشيطان، أو شيئاً من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما، يقدر على خير أو شر، أو نفع أو ضر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة، لا يصدر عنها إلاَّ ما سخر له) انتهى[1].

(٩)
«صفات الحمد والتمجيد لله تعالى»

وإذْ كان الله سبحانه هو المتصف وحده بما سبق من صفات الذات، وصفات التنزيه وصفات الأفعال، وكلها في نهاية المجد والعظمة، والعلو والكبرياء، وفي غاية السيادة والشرف والكرم، إذْ كان الله سبحانه كذلك: فهو الذي يستحق وحده منتهى الحمد والثناء عليه، بالعظمة والجلال، والعلو والكبرياء، وهو الذي يستحق التمجيد بمنتهى السؤدد، والشرف الحقيقي.

ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى ثلاثة عشر اسماً وهي:

(الكبير، المتكبر، العلي، المتعالي، الجليل، العظيم، الكريم «في أحد معانيه»، الماجد، المجيد، الحسيب «في أحد معانيه»، ذو الجلال والإكرام، الصمد «في أحد معانيه»، الحميد «في أحد معانيه»).

وفيما يلي شرح هذه الأسماء:

(أ) فلما كان الله سبحانه هو الكبير الحقيقي في ذاته، وما عداه ضئيل صغير حقير مخلوق له، جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (الكبير).

---

(١) من كتاب «المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى» عند شرح اسمي الله: (الضار والنافع).

اسم الله (الكبير):

مأخوذ من الكِبَر، وهو: ضد الصِغَر.

والله هو الكبير الذي لا نهاية لكبره: لأنه هو الكامل الواجب الوجود لذاته، وما عداه موجود بإيجاد الله له؛ ولأنه سبحانه هو الغني عن كل شيء، وما عداه في حضيض النقص والافتقار؛ ولأنه سبحانه هو المحيط بكل شيء علماً؛ ولأن قوته سبحانه أكبر من كل قوة.

والله هو الكبير: لأنه أكبر من أن تشاهده الحواس، أو تدرك حقيقة ذاته العقول.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

(ب) ولما كان الله سبحانه هو الكبير في الحقيقة، ولا كبير سواه، ولما كان الله سبحانه علياً بالحقائق على وجهها، كان من كمال علمه وتقديره لذاته، حقيقاً بأن يكون متكبراً، أي: مثبتاً لنفسه أنه هو الكبير، وأنه أكبر من كل كبير، لأن ما سوى الله تعالى مخلوق له. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (المتكبر).

اسم الله (المتكبر):

أي: الذي يعلم حقيقة ذاته، فيثبت لنفسه وصفه الحقيقي وهو: أنه الكبير. وهذا المعنى هو معنى التكبير بالنسبة إلى الله تعالى؛ وأما التكبير بالنسبة إلى غيره سبحانه: فهو ادِّعاء كاذب، وتكلف ممقوت، وخلق ذميم.

وقال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(جـ) ثم إذا وضعنا الموجودات في منازل معنوية، يعلو بعضها بعضاً، كان الله سبحانه هو العلي بذاته وصفاته وأفعاله، وما عداه سافل لا علو له، لأن ما لله سبحانه فمن ذاته، وأما ما لغيره فبهبةٍ من الله، وبخلق منه. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (العلي).

اسم الله (العلي):

مأخوذ من العُلُوِّ، وهو: ضد السفل. والمراد منه: علو الشرف والجلالة والكبرياء، وأنه

فوق خلقه، وأنه مستوٍ على عرشه. وهذا المعنى لا يستحقه ــ في الحقيقة ــ إلاّ الله تعالى.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

(د) ولما كان الله سبحانه هو العلي في الحقيقة ولا عليّ سواه، ولما كان الله سبحانه علياً بالحقائق على وجهها، كان من كمال علمه، وتقديره لذاته وصفاته وأفعاله، حقيقاً بأن يكون متعالياً، أي: مثبتاً لنفسه أنه هو العلي. ومن هنا جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (المتعالي).

اسم الله (المتعالي):

أي: الذي يعلم حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله، فيثبت لنفسه وصفه الحقيقي، وهو: أنه العلي. وهذا المعنى هو معنى التعالي بالنسبة إلى الله تعالى؛ وأما التعالي بالنسبة إلى غيره سبحانه: فهو ادِّعاء كاذب، وتكلُّف ممقوت، وخلق ذميم.

قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾.

(هـ) ولما كان الله سبحانه هو الكامل في صفاته وأفعاله ــ وما عداه ناقص ــ وهذا معنى الجلال، جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (الجليل).

اسم الله (الجليل):

مأخوذ من الجلال، وهو: الكمال في الصفات والأفعال. فالله سبحانه هو الجليل: لأنه هو وحده الذي له الجلال والكمال، في جميع الصفات والأفعال.

وفي معنى أنه الجليل، قال الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

(و) ولما كان الله سبحانه هو الكبير في ذاته، والجليل في صفاته وأفعاله، والعلي في شرفه ومقامه، وهذا منتهى معنى العظمة والكرم، جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (العظيم ــ والكريم «في أحد معانيه»).

اسم الله (العظيم):

أي: الذي له صفات الكبر والعلو والجلال، وبها كان عظيم القدر.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

اسم الله (الكريم):

مأخوذ من الكرم، بمعنى: رفعة القدر وعظم الشأن.

فهو هنا بمعنى: الرفيع القدر، العظيم الشأن، الموصوف بالصفات الجليلة.

قال الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا الاسم في الصنف الثالث، وهو: (ما يدخل في باب الهبة والعطاء).

(ز) وأي مجد وحسب أعظم من جمع هذه الصفات، مع بلوغ نهاية الكرم؟! ومن هنا جاء في المأثور من أسمائه الحسنى: (الماجد ــ المجيد ــ الحسيب «في أحد معانيه» ــ ذو الجلال والإكرام).

اسم الله (الماجد):

مأخوذ من المجد، وهو: بلوغ غاية الشرف، ونهاية الكرم.

وهذا الاسم غير مذكور في القرآن ــ بل المذكور فيه المجيد كما يأتي ــ ولكنه مجمع عليه.

اسم الله (المجيد):

صيغة مبالغة للماجد، ومعناهما واحد.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

اسم الله (الحسيب):

إذا كان مأخوذاً من الحَسَب بفتح السين، وهو: السؤدد والشرف، فمعنى الحسيب على هذا: هو المختصّ بشرف الألوهية والربوبية وجميع الكمالات. وهذا المعنى هو أحد معاني هذا الاسم الكريم.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤): ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾.

وقد سبق شرح هذا الاسم عند صفة العلم.

اسم الله (ذو الجلال والإكرام):

أي: هو الذي لا شرف ولا جلال ولا كمال ولا مجد ولا حسب إلّا وهو له سبحانه؛ كما لا إكرام ولا عطاء ولا هبة إلّا وهي صادرة منه تعالى.

قال الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾.

(ح) ثم إن من استجمع كل ما سبق من الصفات والأسماء كان وحده هو السيِّد، ومن عداه عبيد له، وكان وحده هو الذي يستحق الحمد والثناء. ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: (الصمد ــ الحميد «في أحد معانيهما»).

اسم الله (الصمد):

إذا كان بمعنى السيِّد، فالله سبحانه: هو السيد وكل من عداه عبيده.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

وقد سبق شرح هذا الاسم مع الأسماء الحسنى التي تعود إلى صفة مخالفته تعالى للحوادث.

اسم الله (الحميد):

إذا كان بمعنى المحمود، أي: هو الموصوف بجميع الصفات العلية التي يحمده بها الأولون والآخرون، ولا يصلح معها حمد غيره مثل حمده، كما لا يُثْنىٰ بها ــ حقيقةً ــ على أحد سوى الله تعالى، فهو المحمود بحق، وحمد من سواه حمد مجازي، تابع لحمده جلّ وعلا.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾.

وقد سبق شرح هذا الاسم في الصنف السادس وهو: (ما يدخل في باب علاقة المكلفين بخالقهم).

أثر ملاحظة أسماء الله الحسنى المتضمنة صفات الحمد والتمجيد لله تعالى:

ومن يلاحظ باستمرار ــ ملاحظة تحقق وتبصر ــ ما تدلّ عليه أسماء الله: (الكبير ــ المتكبر ــ العلي ــ المتعالي ــ الجليل ــ العظيم ــ الكريم ــ الماجد ــ المجيد ــ الحسيب ــ ذو الجلال والإكرام ــ الصمد ــ الحميد)، ويستعيد في ذهنه معاني سائر أسماء الله الحسنى؛ فإنّه لا بد أن ينصرف بكل قلبه، وفكره ولسانه، للثناء على الله بجميع محامده، ما علم منها وما لم يعلم، مؤكداً بذلك إيمانه بالله حق الإيمان، ومعرفته بجلائل صفاته، ومعترفاً له بالإلهية والربوبية، وواقفاً بالخشوع في مقام العبودية التامة للربّ الأعلى.

ولذلك كان من فرائض الإسلام الصلاة المكتوبة، ومن فرائض الصلاة قراءة الفاتحة المبتدأة بالحمد والثناء على الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

* * *

دليل تعيين الأسماء الحسنى التسعة والتسعين المشهورة، التي سبق تصنيفها وشرحها

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً ـ مائة إلاَّ واحداً ـ من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة: هو الله الذي لا إلٰه إلاَّ هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

رواه الترمذي والبيهقي «في الدعوات الكبير»[1].

وفي روايات هذا الحديث بعض تغيير في الأسماء.

---

(١) عن مشكاة المصابيح.

هل الأسماء الحسنى لله تعالى منحصرة في تسعة وتسعين؟

إن الأسماء الحسنى التسعة والتسعين السابقة هي الأسماء الحسنى المشهورة، أما أسماء الله فلا تنحصر بها ودليل ذلك:

ما رواه أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال:

«ما أصاب أحداً قطُّ هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وذهاب حزني، وجلاء همي وغمي، إلاَّ أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً. فقيل يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها». وقد أخرجه أيضاً أبو حاتم بن حِبَّان في صحيحه.

وقال الله عز وجل في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

فهذه الآية مطلقة لم تخصص أسماء الله بعدد، ولم يرد نص على الحصر.

فقد ورد في القرآن الكريم أسماء وصفيّة لله تعالى لم تدرج في التسعة والتسعين المشهورة التي سبق بيانها؛ ومنها: (المولى، النصير، الغالب، القاهر، القريب، الرب، الناصر، الأعلى، الأكرم، أحسن الخالقين، أرحم الراحمين، ذو الطول، ذو القوة، ذو المعارج، بديع السماوات والأرض، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، مولج الليل في النهار، ومولج النهار في الليل، ومخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي).

وقد جاء في رواية ابن ماجه لحديث أسماء الله التسعة والتسعين، أسماء ليست في الرواية المشهورة التي سبق ذكرها، وذلك بدلاً عن بعض ما جاء فيها، ومنها: (التام، القديم، الوتر، الشديد، الكافي، الدائم، المنور، المبين، الجميل، الصادق، المحيط، القريب، الفاطر، العَلّام، المليك، الأكرم، المدبر، الرفيع، ذو الفضل، الخلاق).

كما ورد في الأحاديث النبوية بعض أسماء أخرى لله تعالى، منها: (الحنان، المنان، السيِّد، الديَّان). ومنها: (جميل)، ففي الصحيح: (إن الله جميل يحب الجمال). ومنها: (رفيق)، ففي الصحيح: (إن الله رفيق يحب الرفق).

ومن ذلك يتبين لنا أن أسماء الله تعالى غير محصورة في التسعة والتسعين المشهورة؛ ولكن لهذه الأسماء المشهورة زيادةَ فضلٍ للتنصيص عليها بالذكر؛ أو لما فيها من جمع مختلف الصفات.

هل يجوز إطلاق أسماء على الله تعالى لم يرد الإذن بها في القرآن أو السنة؟

(أ) إن الأسماءالأعلام الموضوعة في اللغات لله تعالى يجوز إطلاقها عليه اتفاقاً.

(ب) أما الأسماء المأخوذة من الصفات أو الأفعال، أو أسماء المدح والثناء، فالمختار عند أكثر علماء أهل السنة: أنه لا يجوز إطلاق اسم منها على الله تعالى، ما لم يرد الإذن الشرعي بإطلاقه عليه سبحانه، وذلك خشية إطلاق أسماء على الله تعالى، توهم اتصافه سبحانه بما فيه نقص بكمال الألوهية وجلال الربوبية، وهذا هو معنى قولهم: **(إن أسماء الله توقيفية)**.

ولكن: وقع الاتفاق بين العلماء والفقهاء على إطلاق أسماء على الله تعالى، دون الإذن بألفاظها في النص الشرعي من قرآن أو سنة، لأنها تثبت لله كمالاً، ولا توهم اتصافه سبحانه بما فيه نقص بكمال الألوهية وجلال الربوبية، ومنها: (المريد ـ المتكلم ـ الموجود ـ الأزلي ـ الأبدي)[1].

* * *

---

(١) ذكره الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى» في الفن الثالث، اللواحق. ولكن السلفيين لا يقرّون إطلاقها على الله تعالى.

النصوص المتشابهات في صفات الله تعالى

كيف نفهم ما ورد في القرآن والسنّة من نصوص يوهم ظاهرها تشبيه الله سبحانه بالمخلوقات؟[1].

جاء في القرآن الكريم والسنّة الصحيحة نصوص تنسب إلى الله تعالى صفات يوهم ظاهرها أنّ الله يشبه في هذه الصفات خلقه؛ كالنصوص التي تثبت أنّ لله وجهاً، وأن لله يداً، وأنّ لله عيناً وعينين، وأنّ لله جنباً، وأنّ لله أصابع، وأنّ لله قدماً، وأنّ الله استوى على العرش، ونحو ذلك.

والسؤال الذي يعترضنا هنا هو:

هل هذه الأمور المنسوبة إلى الله تعالى في القرآن والسنة، صفات للّه تعالى وفق حقيقة ألفاظها المتصوَّرة في أذهان الناس؟ أو صفات لله تعالى وفق حقيقة كلية تدل عليها الألفاظ بالإطلاق العام، والجانب الأعلى منها يليق بجلال الله، لا تشبيه فيه ولا تجسيم؟ أو صفات لله تعالى مستعملةٌ في حقائق أخرى، مسمَّاة في لسان الشرع بهذه الأسماء، ولا نعلم حقيقتها على وجه التحديد؟ أو أنها مستعملةٌ لمعانٍ غير المعاني الظاهرة منها على وجه من وجوه المجاز، ونحن نستطيع أن ندرك هذه المعاني؟.

وفي هذه الاحتمالات الأربعة حصر لجميع الاحتمالات الفكرية التي يمكن أن ترد على مثل هذه النصوص، فهي:

١ ـ إمَّا حقيقة وفق ظاهر مدلولها اللغوي الذي يتصوّره الناس في أذهانهم.

٢ ـ وإمَّا حقيقة وفق دلالة لغوية صحيحة تليق بجلال الله عزَّ وجل.

٣ ـ وإمَّا حقيقة في الاصطلاح الشرعي لمعان لا نعلم حقيقتها على وجه التحديد.

---

(١) جرى تعديل في هذا البحث عمَّا في الطبعة الأولى، اقتضاه ورود وجهات نظر جديرة بالاهتمام، والأخذ بعين الاعتبار، سدد الله خطانا لما فيه رضاه، وصحّح عقيدتنا بالحق على ما يحبّ، وجمع كلمة المسلمين على البرّ والتقوى.

٤ ــ وإمّا مجاز تركت فيه حقيقة وضع اللفظ اللغوي إلى معنى آخر، بينه وبين معنى اللفظ في الوضع اللغوي علاقة من علاقات المجاز.

ولنبحث هذه الاحتمالات الأربعة في ضوء العقيدة الصحيحة التي عرفناها عن الله جلّ وعلا؛ وعن صفاته الكريمة فيما سبق من بحوث، فنقول:

(أ) الاحتمال الأول:

وهو أنها مستعملة في ظاهر مدلولها اللغوي الذي يتبادر منه إلى أذهان الناس معنى التجسيم؛ ومشابهة الخالق للمخلوق، وهذا احتمال باطل قطعاً، ولا يقول به إلاّ المشبِّهة والمجسِّمة. ودليل بطلانه: ما ثبت لدينا من أنّ الله تعالى ليس جسماً، ولا جسداً، وليس له من الصفات ما يستلزم الجسميَّة والجسديَّة، وليس له من الصفات ما يتنافى مع أزليته، أو ما يقتضي كونه حادثاً، ودلّ على بطلانه من النصّ قول الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وقد سبق إيضاح تنزيه الخالق عن كلّ نقص عند بحث صفات الخالق سبحانه وأسمائه الحسنى.

(ب) الاحتمال الثاني:

وهو أنّ هذه النصوص مستعملة على وجه الحقيقة، وفق دلالة لغوية صحيحة تليق بجلال الله عزّ وجل؛ لا تشبيه فيها ولا تجسيم، والألفاظ اللّغوية المستعملة فيها تطلق ويراد بها معنى أعلى يليق بجلال الله؛ وتطلق ويراد بها معنى أدنى يناسب واقع حال المخلوقات الحادثة.

وهذا الاحتمال لا اعتراض عليه مطلقاً من جهة العقيدة، ولا من جهة العقل، وهو الأحق بأن يستمسك به. والاعتراض عليه بأنه لا سند له من جهة الوضع اللّغويّ بالنسبة إلى بعض الألفاظ، يمكن دَفْعُه: بأنّ الأوضاع اللّغوية كلّها إنّما عرفت بالاستعمال، وكثير منها يدلّ ــ عن طريق الحقيقة لا المجاز ــ على معانٍ لا يستطيع الناس تصوّر ماهيتها، وقد يدركون منها معنىً أدنى. ويطلقونها لتدلّ على معانٍ فوق ذلك، حتى تصل إلى معانٍ تليق بالله عزّ وجلّ، مع أن الأذهان لا تستطيع تصوّر هذه المعاني على حقيقتها، كإطلاق لفظ الذات، ولفظ الوجود، ولفظ الحياة، ولفظ الرحمة، ونظير ذلك لفظ العلم، ولفظ القدرة. فهي في معانيها الدنيا: تطلق ويراد بها ما يناسب ما عليه المخلوقات من صفات، وفي معانيها العليا: تطلق ويراد بها ما يناسب صفات الله جلّ وعلا.

وهذا الاحتمال هو الاحتمال الـذي نصره الإمـام ابن تيميَّة، وابن القيِّم، ومن تبعهـما، وهي طريقة المحدِّثين، وكثير من أهل السنـة والجماعـة، وذكروا أنـه هو الحقّ الـذي لا يَصِـحُّ العدول عنه، ورأوا أنه هو مذهب السلف.

قالوا: هذا ما يدلّ عليه إثبات أنّ الله سميـع بصير، بعـد نفي مماثلة شيء لـه، في قولـه تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميـع البصير﴾.

(جـ) الاحتمال الثالث:

وهو أنّ هذه النصـوص مستعملة على وجـه الحقيقة لا المجـاز استعمالاً شـرعيّاً في معـانٍ تليق بجلال الله، وذلك بحسب الاصطلاح الشرعي.

أي: إنّ لله تعالى صفات خاصة، فمنها مثلاً صفة اسمها (اليد) حملاً للنصّ عـلى ما ورد فيه دون تأويـل، ولكن مع نفي المعنى الـذي يتبادر لأذهـان الناس ممَّـا لا يليق أن يكون صفـة للخالق سبحانه. ومنها صفة اسمها (الاستواء)، وصفة أخرى اسمها (العين)، وهكذا إلى آخر ما ورد من نصوص متشابهة من هذا النوع.

فهي صفات لله تعالى مستعملةٌ في الاصطلاح الشرعي لحقائق شرعيَّـة يعلمها الله، ولهـا آثار يمكن أن نفهمها، وليست مستعملة للدلالة على المعاني التي تدلّ عليها أوضاعها اللّغوية.

فليست بالنسبة إلى صفة (اليد) مثلاً كما نعرف من معناها في وضعها اللّغوي، وهي أنها العضـو المعروف من الجسـد، وليست بـالنسبـة إلى صفـة (الاستـواء) هـو مـا نعـرف من معنى الاستواء وهو الجلوس، وليست بالنسبة إلى صفة (العين) هـو ما نعـرف من معنى حاسَّـة البصر المعروفة، وهكـذا فليس المراد من هـذه الصفات هـو ما يتبـادر من وضعها اللغـويّ المعروف، ولكن لها وضعاً شرعيّاً آخر، يعلمه الله، ونحن لا نعلمه على وجه التحديد.

وهذا الاحتمال احتمال مرضي، لا مانع منـه عقلاً ولا شرعـاً، وقد قـال به كثـير من أئمة أهل السنة والجماعة.

وظاهر ما نقل عن السلف رضوان الله عليهم ـ وهم علماء الطبقات الثلاث: الصحـابة والتـابعين وأتبـاع التابعـين ـ في تفسير النصـوص، يفيد: أنّ الأخـذ بهذا الاحتمـال الثـالث، أو بالاحتمال الثاني هو طريقهم.

قال أهل التحقيق في طـريقة السلف: هي الـطريقة الأسلم، لأنها تعتمـد على تفـويض المعنى إلى الله تعالى، والتسليم له دون تأويل، مع إجماعهم على أنّ المعنى المتبادر الذي يدلّ على

التجسيم، أو الحدوث، أو أية صفة من الصفات التي لا تليق بالخالق سبحانه غير مراد قطعاً، لمعارضته لدلائل العقل والنقل.

سئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وعن محمد بن الحسن قال: اتفق الفقهاء على الإيمان بالصفات، من غير تفسير ولا تشبيه.

وعن أبي عبيد القاسم بن سلّام ــ فيما ثبت في النصوص من هذه الصفات ــ قال: هي عندنا حقّ، حملها الثقات بعضهم عن بعض، غير أنّا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسّرها، وما أدركنا أحداً يفسّرها[1].

وقال ابن عبد البرّ إمام أهل المغرب: روينا عن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والأوزاعي، ومعمر بن راشد ــ «في أحاديث الصفات» ــ أنهم كلّهم قالوا: أمرّوها كما جاءت. وقال أيضاً: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلّها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة، لا على المجاز، إلّا أنّهم لا يُكيّفون شيئاً من ذلك، ولا يحدّون فيه صفة محصورة[2].

وقال البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»: أمّا المتقدّمون من هذه الأمّة فإنهم لم يفسّروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب ــ (باب ما جاء في إثبات اليدين) ــ. وكذلك قال في «الاستواء على العرش»، وسائر الصفات الخبرية[3].

وإلى طريقة السلف انتهى أبو الحسن الأشعري في آخر ما كتب من مؤلفاته، وقد نقل الإمام ابن تيمية قسماً منها[4].

وقال ابن الصلاح: على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها، وإيّاها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامهم.

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية المجلد الخامس صفحة (٥٠) وما بعدها.
(٢) انظر المرجع السابق، صفحة (٨٦).
(٣) انظر المرجع السابق، صفحة (٨٩).
(٤) انظر المرجع السابق، صفحة (٩٣) وما بعدها.

وقال إمام الحرمين أخيراً في الرسالة النظامية: الذي نرتضيه ديناً، وندين به عقداً، اتباع سلف الأمة، فإنهم درجوا على ترك التعرّض لمعانيها.

(د) الاحتمال الرابع:

وهو تأويل هذه النصوص لمعانٍ تحتملها بوجه من وجوه المجاز المعروفة في اللسان العربي، والتي استعملها المصدران الشرعيان القرآن والسنة في كثير من نصوصهما.

وعلى هذا الاحتمال يمكن تأويل اليد مثلاً في قوله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴿١٠﴾﴾.

بأن المراد من اليد: القدرة، وقد استعمل لفظ اليد مجازاً عنها، وهذا استعمال شائع مقبول، ذلك لأنّ اليد محلّ لظهور لون من ألوان القدرة، أو المراد المعونة والرّعاية والحفظ والمشاركة في البيعة.

ويمكن تأويل العين في قوله تعالى ــ خطاباً لموسى عليه السلام ــ في سورة (طه ٢٠):

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾.

بأنّ المراد من العين: أنّ الله بصير، واستعمل لفظ العين مجازاً عن ذلك، أو أنّ المراد منها: الحفظ والرعاية والعناية، لأنّ العين في مألوف البشر هي وسيلة مراقبة الأشياء المطلوب حفظها ورعايتها والعناية بها، واستعمال العين في معنى الحفظ والرعاية والعناية استعمال شائع في اللغة العربية.

وعلى هذا النسق يجري تأويل جميع النصوص التي يوهم ظاهرها نسبة معانٍ لا تليق ــ بحسب ظاهرها ــ بكمال الألوهية والربوبية.

وهذا الاحتمال احتمال غير مرفوض إذا كان المعنى الذي أُوِّل إليه اللفظ موافقاً لأصول العقيدة الإسلامية.

وقد جرى على هذا الاحتمال كثير من خَلَف أهل السنة والجماعة، وطريقتهم تسمّى «بطريقة التأويل لمعنى يحتمله اللفظ، وفق أصول اللّغة العربية واستعمالاتها المشهورة»؛ وهي طريقة تجعل النصوص تدلّ على معانٍ مقبولة في مفاهيم الناس وتصوّراتهم عن صفات الله، التي هي منزهة عن الجسمية والحدوث ومشابهة الحوادث. وليس من موجب لتضليل أصحاب هذه الطريقة، على اعتبار أنّ فيها تعطيلاً لصفات أثبتها الشرع في نصوصه الصحيحة، لأنه يقال: إنما يكون التعطيل بعد إثبات معنى الصفة بشكل قطعي، أمّا حمل النصّ على بعض احتمالاته المقبولة شرعاً، وفق أصول اللغة العربية التي أنزل بها القرآن، فهو مسلك لا تعطيل

فيـه. وحين نـلاحظ أنّ كباراً من علماء المسلمين الـذين هم مرجـع للمسلمـين في علوم الفقه والتفسير والحديث قد أخذوا بهذه الطريقة، يتأكد لدينـا أنّ لهم رأياً لا يصحُّ أن نضللّهم فيـه، ما دام لهم وجهة نظر ذات حجة، ولها نظائر في الشريعة ممَّا اتفق المسلمون جميعـاً عليـه. ولئن كانوا مخطئين في هذا، فهم مجتهدون ضمن شروط الاجتهاد المقبول، ولهم أجر عـلى اجتهادهم الذي بذلوه ليصلوا إلى ما ينشدون من حقّ.

□ □ □

الفصل الثالث

لا حكم إلا لله

١ ـ الكون مخلوق لله ومملوك لله، فليس لأحد غيره تعالى أن يتصرف بشيء منه إلا بإذنه:

ولما كان هذا الكون مخلوقاً مملوكاً لله تعالى الذي خلقه، والملك الحقيقي يستلزم حق الانفراد بالتصرف، ونحن البشر جزء من هذا الكون المملوك لله، لما كان الأمر كذلك: فإنه ليس من حق أي أحد ـ غير الله ـ أن يتصرف في ملك الله بشيء مهما يكن ذلك الشيء إلّا أن يأذن له بذلك التصرف.

مثلاً: الأرض التي نسكنها، ونحرثها ونزرعها، ونستعمل خيراتها، ونتسلط على حيازة أموالها، ملك الله تعالى الذي خلقها، وليس لنا أن نفعل فيها شيئاً إلا كما أذن لنا، وضمن الحدود التي يَحُدُّها لنا.

فإذا أذن لنا مثلاً: أن نذبح حيواناً ونأكل لحمه، كان لنا ذلك بمقتضى الإذن، وإذا لم يأذن لنا أن نذبح حيواناً آخر ونأكل لحمه، لم يكن لنا ذلك بمقتضى عدم الإذن، لأن الملك ملكه، والأمر أمره، والإذن إذنه.

وإذا أذن لنا بشراب فلنا أن نشربه، وإذا لم يأذن لنا بشراب آخر فليس لنا أن نشربه، لأن الملك ملكه، والأمر أمره، والإذن إذنه.

وإذا أذن لنا أن نسلك طريقاً ما، أو نعمل عملاً ما، كان لنا ذلك، وإذا لم يأذن لنا بأن نسلك طريقاً آخر، أو أن نعمل عملاً آخر، لم يكن لنا ذلك، لأن الملك ملكه، والأمر أمره، والإذن إذنه.

فنحن إذن ملزمون بتتبع الحدود التي يحدُّها لنا خالق الكون ومالكه، وملزمون بالتقيد بمقتضيات الإذن الذي يأذن لبنا به في ملكه، وليس لنا أن نتجاوز هذه الحدود، ولا أن نتعدى

مقتضيات الإذن، وإلا كنّا عصاة معتدين على حق ملك المالك الخالق القادر، والمعتدي يعرض نفسه للعقوبة.

ومن ذلك: إذن الله لآدم وحواء لما أدخلهما الجنة أن يأكلا من ثمرها رغداً، إلا شجرة واحدة لم يأذن لهما أن يأكلا منها، فلما أكلا منها، خالفا مقتضى إذن الله لهما في ملكه فعصيا، فاستحقا عقوبة الله بإخراجهما من الجنة التي هي مخلوقة لله، مملوكة له.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

٢ ـ لله الخلق والأمر:

وبما أنّ الله هو خالقنا، وممدنا باستمرار الوجود، ورازقنا بعطائه المحمود، والمنعم علينا بجلائل النعم ودقائقها، والذي بيده نواصينا: ملكاً وتصرفاً، وحياةً وموتاً، فهو الذي يملك تحديد طريق سلوكنا في الحياة: فعلاً وقولاً واعتقاداً، وهو الذي بأمره يَحُدّ من حرياتنا التي منحنا إياها، ويُقيّد من شهواتنا التي هي من هباته لنا، وذلك رعاية لمصالحنا، وامتحاناً لطاعتنا في عبوديتنا له.

٣ ـ ليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله:

ومن ثَمّ فليس لنا أن نحكم لأنفسنا بالإباحة، إلاّ أن نعلم أن الله حكم لنا بها، وإلاّ كنّا مُشَرّعين على الله بغير علم، ولا إذن منه.

وكذلك ليس لنا أن نحكم بالتحريم، إلاّ أن نعلم أن الله حكم علينا به، وإلاّ كنا مُشَرّعين على الله بغير علم، ولا إذن منه.

ومثل ذلك الحكم بالوجوب وسائر الأحكام.

وهكذا: فليس لأحد مهما كان ذا منزلة في الدين أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله، وكذلك ليس لهيئة مهما كان شأنها أن تشرع من الدين ما لم يأذن به الله خالقنا، لأن مَنْ له الخلق فله الملك، ومَنْ له الملك فله الأمر، وبيده حق التصرف بمملوكه، وعلى المملوك أن يتحقق بوصف عبوديته لمالكه بالحق، فيطيعه فيما أمر، ولا يعصيه فيما نهى.

قال الله تعالى مثبتاً أن له الحكم في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وفي حكاية قول يوسف عليه السلام في دعوته لصاحبيه في السجن مثبتاً لهما أن لله الحكم؛ قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

فليس لأحد أن يعبد عبادة لم يأت بها حكم من الله أو إذن.

وفي التنديد بحكم غير الله، وفي بيان كمال حكمه في الحسن والعدل ورعاية المصالح، من غير ظلم ولا انحراف عن الصراط السوي، قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وفي نفي الإيمان عمن لا يُحكّمون رسول الله في خلافاتهم التي تجري بينهم آخذين حكمه بالرضا والتسليم، قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وحكم الرسول من حكم الله، لأنه مبلغ عن الله.

٤ ــ الكون مخلوق مطيع لقوانين الخلق الرباني وأنظمته بالقهر:

وإذا نظرنا إلى هذا الكون الفسيح وجدنا أن كل شيء فيه خاضع لقوانين الخلق الرباني وأنظمته التي أراد الله لكونه أن يسير عليها؛ فما من شيء يستطيع أن يتحرَّر من أنظمة الخلق الرباني وقوانينه قيد شعرة؛ لأنه مسيَّر بالقهر، دون أن يكون له إرادة أو اختيار.

ألسنا نرى مسيرة الكواكب والنجوم! فأيها يستطيع أن يخرج عن مداره ويغير نظامه، إلا أن يشاء الله له ذلك؟!

ألسنا نرى أنظمة الحياة والموت وقوانينها! فمن الذي يستطيع أن يغير شيئاً من هذه الأنظمة والقوانين إلا الله الخالق؟!

ألسنا نرى أنظمة الطبيعة وقوانينها، على اختلاف أوضاعها وأحوالها وأجزائها ومركباتها! فهل يستطيع شيء منها أن يُغيِّر من طبعه، أو يتحرَّر من قانونه؟!

قال الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

٥ ــ فهل يخضع الإنسان الممنوح جانباً من حرِّيَّة الإرادة لقوانين التكليف الرباني بالتسليم والطاعة؛ بعد أن خضع بالقهر لقوانين الخلق الرباني الجبريّة؟

وهذا الإنسان ــ وهو جزء صغير من هذا الكون الكبير ــ هو أيضاً خاضع بالقهر لقوانين الخلق الرباني وأنظمته الجبريَّة، في حياته وموته، وصحته ومرضه، ونموه وضموره، وأكثر جوانب تكوينه. إلاّ أن الله الحكيم العليم ترك له جانباً من الحرية والاختيار في إرادته لأفعاله الجسمية والنفسية؛ وذلك ليختبر فيه هذه الإرادة، وليلقي عليه مسؤولية هذا التشريف، بهذه المنحة العالية الغالية.

فهل يخضع هذا الإنسان لقوانين التكليف الرباني وأنظمته بالتسليم والطاعة، في الحدود التي منح فيها الحرية، كما خضع هو وسائر الكون لقوانين الخلق الرباني وأنظمته بالقهر والإجبار، فيما ليس له عليه سلطة لا في قدرته ولا في إرادته، ولو كان داخل ذاته، متذكراً دائماً هبة الله له، التي لو شاء لسلبها فجعله كالجماد أو كالنبات، لا خيرة له في شيء؟!

قال تعالى مثبتاً خضوع من في السماوات والأرض لقوانين الخلق الرباني الجبريّة طوعاً وكرهاً في سورة (آل عمران ٣):

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أما السماء والأرض فقد جاءتا لأمر ربهما طائعتين.

قال الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

وهل يربط هذا الإنسان إرادته واختياره بإرادة الله واختياره فيما شرع وكلّف، فيُحلّ ما أحلّ الله، ويُحرّمُ ما حرّم الله، ويتّبع شريعته لعباده، سالباً خِيرته الذاتية طاعةً لله، متجاوزاً نفسه وشهواته امتثالاً لأمر الله؟! وكذلك شأن المؤمنين.

وفي بيان أنه ليس من شأن المؤمن ولا المؤمنة أن يكون لهم اختيار إذا قضى الله ورسوله أمراً تكليفياً، وقضاء الرسول من قضاء الله، لأنه مبلغ عنه ومأذون من قِبَله، قال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

المراد من الأمر هنا الأمر التكليفي، أمّا الأمر التكويني فهو نافذ حتماً لا خِيرَةَ لأحدٍ فيه.

٦ ــ منحة الإرادة الحرَّة تستلزم إلى جانبها منحة العقل والعلم، والتمييز بين الخير والشر:

ولـمَّا وضعت إرادة هذا الإنسان في محيط من الابتلاء والاختبار الرباني لجانب الحرية التي مُنِحتها هذه الإرادة؛ لزم أن يكون للإنسان إلى جانب هذه الإرادة عقل يعي التكليف، ويستطيع التمييز بين الخير والشر. وكذلك خُلِقَ الإنسان ممنوحاً هذه الهبات، وهي:

(أ) الإرادة التي لها جانب من الحرية.

(ب) القدرة الظاهرة على تنفيذ بعض الأفعال التي يريدها، فتوجد بخلق الله.

(ج) العقل الذي فيه الاستعدادات العلميّة، التي منها الاستعدادات التالية:

١ ــ الاستعداد لمعرفة الحق والباطل.

٢ ــ الاستعداد لفهم التكليف، ووعي الأوامر والنواهي.

٣ ــ الاستعداد للتمييز بين الخير والشر، وإدراك الفضيلة والرذيلة.

٧ ــ شكر الله على نعمه واجب:

ومن جهة ثانية: إذا نظرنا إلى هذا الإنسان وما فيه من نعم ربانية عليه لا تحصى، وجدنا أن عليه واجباً نحو ربه تعالى الذي تفضّل عليه بالنعم، وهذا الواجب يتمثل بشكره تعالى على نعمه، والشكر يتحقق بالعبادة والطاعة.

وهنا يستوقفنا سؤالان: سؤال حول (العبادة)، وسؤال حول (الطاعة).

السؤال الأول (حول العبادة): كيف نعبد الله بالشكل الذي يرضاه، فلربما حدَّدنا لأنفسنا لوناً من ألوان العبادة لله تعالى، فكان هذا اللون مما لا يُرضي ربنا تعالى، فلا نكون بذلك قد عبدناه بالشكل الذي يرضاه؟

ألا يمكن لو تُركنا لأنفسنا نُحَدِّد شكل عبادتنا لربنا، أن نتصور أن الشكل الذي يرضي ربنا في عبادته: هو أن ندفن ـ مثلاً ـ أجسامنا بالرمال في الشمس الحارة الملتهبة؟ أو أن نغمسها في الثلج في شدة البرد القارس تعذيباً لها؟!

ألا يمكن لو تركنا لأنفسنا أن نتصور أن الشكل الذي يرضي ربنا في عبادته هو ـ مثلاً ـ أن نميت أنفسنا جوعاً وعطشاً؟ أو نقتل أنفسنا بأيدينا؟ أو أن نلقي بها في التهلكة؟ أو نترك كل عمل في الدنيا منقطعين في زوايا الإهمال والنسيان؟ أو أن نتضمخ بالنجاسات والقذارات، متأثرين بفلسفات شاذة تقوم في أذهاننا؟ أو أن ننغمس في ألوان شتى من حظوظ النفس كاللهو واللعب والغناء والرقص، أو أذى الناس والاحتيال عليهم بالمكر والتزوير، ونحو ذلك بزعم أن فيها عبادة لله تعالى؟ أو أن ننطلق بالإباحية المطلقة لكل شيء؟ إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره!!

يضاف إلى ذلك: أن كل واحد قد ينتحل لنفسه لوناً شاذاً من شهوات النفس، يزعمه عبادة لله تعالى، وهو كذاب أَشِرٌ، فينحلُّ مفهوم العبادة إلى معاني الفوضى والشهوة، والظلم والفساد.

وكل ذلك قد كان في الشذوذات الإنسانية أمثلة واقعية على انحراف الإنسان.

إذا كان كل ذلك ممكناً في حدود الانحرافات الإنسانية وشذوذاتها، فكيف لنا أن نعرف الشكل الذي يرضاه الله لنا في عبادتنا له؟

السؤال الثاني (حول الطاعة): كيف نعلم أوامر الله ونواهيه، ومنهج العمل الذي يرضاه لنا في حياتنا حتى نطيعه في سلوك هذا المنهج، والسير ضمن حدوده؟

ألا يمكن لو تُركنا لأنفسنا نحدد منهج حياتنا، أن نحدد ما لا يرضاه الله لنا بحال، لما فيه من شر وفتن، وفوضى وخراب لعالم الأرض؟!

ألا يمكن أن نحدد بالقوة منهجاً ظالماً، آثماً جائراً، لا حق فيه ولا عدل، متأثرين بالأغراض الخاصة، والشهوات الشخصية الجامحة الشاذة؟!

ثم كيف لنا ــ إذا استطاعت عقولنا أن تدرك بعض ما هو حسن وقبيح، وتدرك أن الحسن مما يأمر الله به، وأن القبيح مما ينهى الله عنه ــ أن نحيط علماً بجميع أوامر الله ونواهيه ومأذوناته، حتى نلتزمها ونطيعه فيها؟!

ألا يمكن أن تخالف مدركات عقولنا أمر الله ونهيه وإذنه؟ فكيف لنا بمعرفة ذلك؟.

الجواب لكلا السؤالين:

والجواب لكلا السؤالين واحد، هو أننا عاجزون عن أن نعلم ذلك بأنفسنا ومدارك عقولنا، دون الرجوع إلى علم آتٍ عن الله، لأننا ولا ريب سنخبط ــ إذا تُركنا لأنفسنا ــ خبط عشواء، في ليلة داجية ظلماء، نتبع فيه الهوى والشهوة، والظلم والطغيان.

فلا بد لنا إذن من طريق غير طريق ذواتنا، ومدارك عقولنا، يُعرِّفنا شريعة الله لنا في عبادتنا، ومناهج حياتنا، وأنظمة دنيانا.

وهذا الطريق قد حدَّدَهُ الله لنا بالرسالات السماوية التي تدارك بها عجزنا وضعفنا، فضلاً منه وكرماً، ووضع لنا فيها أسساً مقبولة لدى العقول السليمة، مسلَّمة لدى الطباع المستقيمة. وأنزل لنا في هذه الرسالات الربانية ما يضمن سلامة عبادتنا له، ووحدتها وفائدتها لنا، كما يضمن سلامة مناهج حياتنا، وأنظمة دنيانا على ما يُحِبُّ ويرضى، مع ضمان مصالحنا الدنيوية والأخروية. وقد وَضَعنا ــ جَلَّ وعلا ــ بهذه الشرائع في طريق الهداية الذاهب صعداً إلى قمة السعادة الخالدة، والمجد الباقي.

ومن ثم: فلا حكم إلا لله.

٨ ــ مبلغو شرائع الله:

وقد بلَّغ هذه الشرائع الربانية رسُلُ الله المصطفَوْن من الملائكة، الذين أرسلهم ليبلغوا رسل الله المصطَفَين من البشر، ليبلغ هؤلاء بدورهم الناس شرائع الله لخلقه، وليبينوا لهم كيف يعبدون الله، وكيف يطيعونه في أمره ونهيه، وكيف يتصرفون فيما هم فيه من ملك الله.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾.

٩ ــ خاتمة وتلخيص:

مما سبق نستطيع أن نستخلص الحقائق التالية:

١ ــ الكون مخلوق لله ومملوك له ﴿ألا له الخلق والأمر﴾.

٢ ــ ليس لأحد أن يتصرف في ملك الله إلا بإذنه.

٣ ــ الناس مخلوقون لله، فهم عبيده، وعليهم طاعته.

٤ ــ الناس مكلَّفون بعبادة الله شكراً على نعمائه، ولأنَّهم عبيدُه وخلقٌ من خلقه.

٥ ــ لا تصحُّ العبادة إلا بالشكل الذي يرضاه الله.

٦ ــ لا يمكن للإنسان أن يعرف ما يرضاه الله للناس من أنظمة ومناهج إلا عنه تعالى فيما شرع لعباده أو أذن لهم به.

٧ ــ لو ترك الناس لأنفسهم لانتحلوا ألواناً من العبادة لا يرضاها الله، ولافترقوا فيها.

٨ ــ لو ترك الناس لأنفسهم لظلموا وطغوا في تحديد مناهج حياتهم وأنظمتها.

٩ ــ لا يجوز للناس أن ينسبوا شرائع إلى الله لم تأتِ من طريق صادق عنه تعالى، أو يحكموا بأحكام لم تأت عنه جلّ وعلا، أو لم يأذنْ بها.

١٠ ــ الملائكة هم رسل الله للمصطَفَين من البشر، يبلغونهم شرائع الله.

١١ ــ الرسل من البشر هم رسل الله للبشر، يبلغونهم ما تحمَّلوه من شرائع عن الله.

• • •

الباب الثالث

الإيمان بالملائكة والجن

الفصل الأول : الإيمان بالملائكة.

الفصل الثاني : الجن والاعتقاد بوجودهم.

ولما كانت الملائكة سفراء التبليغ بين الله ورسله من البشر، كان الحديث عنهم في أركان الإيمان يستدعي التقديم على باب الإيمان بالرسل؛ وكذلك جاء الأمر مرتباً في نصوص أركان الإيمان من قرآن وسُنَّة.

ولما كان الجن مخلوقات غيبية عنا كالملائكة، يضاف إلى ذلك ما بينهما من وجوه تشابه في بعض الصفات، كان الكلام على الملائكة مستتبعاً الكلام على الجن، ولذلك ألحقنا الكلام عليهم بالكلام على الملائكة في هذا الباب.

الفصل الأول

الإيمان بالملائكة

(١)
الإيمان بهم من أركان العقيدة

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالملائكة. قال الله تعالى في صفة عقيدة المؤمنين في سورة (البقرة ٢):

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

وقال الله تعالى مثبتاً ضلال من يكفر بالملائكة في سورة (النساء ٤):

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

ولقد جاء الحديث عن الملائكة في القرآن الكريم بمناسبات مختلفة، في نحو خمسٍ وسبعين آية من نحو ثلاث وثلاثين سورة.

كما جاء في كثير من أحاديث الرسول ﷺ التنصيص على أن الإيمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الإسلامية؛ منها:

ما جاء في الحديث المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المتضمن أسئلة جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة ــ وقد جاء إلى مجلس الرسول ﷺ على صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، ولا يعرفه من أصحاب الرسول أحد ــ وفيه:

قال ــ أي جبريل ــ: فأخبرني عن الإيمان، قال ــ أي رسول الله ﷺ ــ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال ــ أي جبريل ــ: صدقت.

(أخرجه مسلم في صحيحه)

كما جاء فيها إثبات أن الرسول ﷺ قابل بعض الملائكة، وفي مقدمة الأحاديث المثبتة لذلك أحاديث بدء الوحي، واستمرار نزوله على الرسول صلوات الله عليه، وهي متواترة في معناها.

وقد بين الرسول صلوات الله عليه أن غير الأنبياء ـ من المؤمنين الأتقياء ـ يمكن أن يقابلوا الملائكة في أحوال خاصة.

فقد شكا حَنْظَلَةُ بن الرَّبيع للنبي ﷺ تغير حالة الإيمان التي تعتريه وهو في مجلس الرسول يذكرهم بالنار والجنة؛ وذلك حينما ينصرف إلى أهله ويعافس الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعات، وظن ذلك نفاقاً، فقال له الرسول ﷺ:

«والذي نفسي بيده: لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكم وفي طُرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً. ثلاث مرات».

(رواه مسلم)

فمن أنكر وجود الملائكة فهو منكر لكلام الله ورسوله، كافر لا محالة، إذ لا مجال للتأويل، فالنصوص واضحة صريحة قاطعة، والعلم بوجود الملائكة مما هو معلوم من الدين بالضرورة عند جميع المسلمين.

(٢)

الحكمة من الإخبار بوجودهم ووجوب الإيمان بهم

وقد اقتضت حكمة الله في البشر أن يرسل لهم رسلاً بشراً منهم، وأن يرسل لهؤلاء الرسل رسلاً من الملائكة يقومون بدور الوساطة والسفارة بينهم وبين الله؛ يبلغونهم رسالات ربهم، ويوحون لهم شريعة الله للناس، ليقوم الرسل من البشر بدورهم، فيبلغوا الناس ما أوحي إليهم. قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

كما اقتضت حكمة الله تعالى أن يسخر الملائكة لكثير من الوظائف يقومون بها في الناس: كنفخ الروح في الأجنَّة، ومراقبة أعمال البشر، والمحافظة عليهم، وقبض أرواحهم، وغير ذلك.

وحيث كان لهم كل هذه العلاقة بنا في كثير من أمور حياتنا، ومعاشنا وأعمالنا، يضاف إلى ذلك ابتلاء الله لنا بالإيمان بمخلوقات غيبية عنا، يخبرنا بها: أخبرنا الله بوجودهم، وكلفنا أن نؤمن بهم.

(٣)

عقيدة الناس بالملائكة قبل الإسلام

والناس أمام هذه العقيدة قسمان:

القسم الأول: وهم أتباع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء يؤمنون بالملائكة حتماً، ثقةً بأخبار الأنبياء والرسل، لأن الإيمان بوجود الملائكة أمر نادى به جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

القسم الثاني: وهم غير أتباع الأنبياء والرُّسل عليهم السلام، وهؤلاء كما يلي:

١ ــ فمنهم من لم يتعرض للملائكة بإثبات ولا نفي.

٢ ــ ومنهم من أثبت وجودهم، ومن هذا الفريق: الروحانيون ومعظم الفلاسفة القدماء.

أما الفلاسفة: فقد أثبتوا وجودهم عن طريق الاستدلال العقلي، وفق القسمة العقلية التي تصوروها في احتمالات الخلق.

وأما الروحانيون: فقد أثبتوا وجودهم عن طريق المكاشفة والمشاهدة، بمصادفات خاصة، أو برياضات روحية اتبعوها، والله أعلم.

٣ ــ ومنهم المادّيون الذين ينكرون كلّ الكائنات الغيبيّة.

(٤)

حقيقة الملائكة وصفاتهم

لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة إلا ما جاءنا عن رسول الله ﷺ؛ لأننا ــ بحسب العادة ــ لا نتصل بهم عن طريق الحس اتصالاً يفيد العلم اليقيني، حتى نكشف حقيقتهم ونَحدَّ تكوينهم، وحسبنا في العقيدة أن نقتصر على ما وردت به النصوص، دون أن نجري وراء التكهنات.

فمن صفاتهم الواردة الصفات التالية:

١ ــ أنهم مخلوقون من نور.

فعن عائشة، عن رسول الله ﷺ قال: (خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وُصِفَ لكم).

(رواه مسلم)

٢ ــ أن الملائكة قد يكونون معنا ولا نراهم.

فقد كان ينزل المَلَك (جبريل) عليه السلام بالوحي على رسول الله ﷺ، ولا يراه جلساء الرسول.

فعن أبي سلمة أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام، قالت: وعليه السلام ورحمة الله، وهو يرى ما لا أرى).

(متفق عليه)

وقد ورد أن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت تمتحن نزول الوحي على الرسول بإماطة الخمار عن رأسها: فإذا كشفت شعرها هدأت حالة الرسول، وإذا غطت شعرها عادت إليه الحالة، لعلمها بأن الملك جبريل لا يدخل بيتاً فيه امرأة مكشوفة الرأس. ولذلك قالت له لما حسرت عن رأسها: هل تراه؟ قال: «لا»، قالت: يا ابن عم اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

٣ ــ أن الملائكة قادرون على (التمثل) بأمثال الأشياء، و (التشكل) بالأشكال الجسمانية.

فقد ثبت ذلك بالقرآن الكريم وبالأحاديث الصحيحة، منها أن جبريل عليه السلام كان يأتي إلى مجلس الرسول أو غيره كما يلي:

(أ) على صورة إنسان مجهول:

● كما في حديث عمر بن الخطاب السالف الذكر: (بينما نحن جلوس عند رسول الله، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد)، فسأل الرسول عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة، وأجابه الرسول عنها بالتفصيل. وأخيراً بعد أن انصرف قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أتدرون من السائل؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

● وكما في قصة نزول جبريل عليه السلام على مريم وقد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، وتمثّله لها بشراً سوياً. قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩﴾.

(ب) أو على صورة إنسان معلوم:

فكثيراً ما كان يأتي مجلس الرسول على صورة دِحية الكلبي أحد أصحاب رسول الله، وقد كان رجلاً وسيماً.

وقد جاء التصريح بقدرة الملائكة على التمثل بالأشكال الجسمانية في القرآن الكريم في عدة قصص:

● منها قصة ضيف إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن الكريم. قال الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

وقد أوجس سيدنا إبراهيم منهم خيفة لأنهم لم يأكلوا من الطعام.

● ومنها قصة الملائكة الذين جاؤوا إلى نبي الله لوط عليه السلام، لإهلاك قومه، جاؤوه على صورة شباب مرد حسان، أطمعت بهم قوم لوط الذين يعملون السيئات. قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨﴾.

● ومنها قصة الملكين اللذَيْن تسوّرا المحراب على داود عليه السلام، في صورة رجلين خصمين. قال الله تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ۝٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ

خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

٤ ــ ومن صفاتهم أن لهم قدرات خارقة، فقد ثبت للملائكة في القرآن الكريم والسنة قدرات عجيبة، بإقدار الله لهم:

(أ) فمنهم على قلة عددهم يحملون عرش الرحمن. قال الله تعالى في سورة (الحاقة ٦٩):

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

على أرجائها: على جوانبها وأطرافها.

وفي الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال:

«أُذِن لي أن أُحَدِّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقة مسيرة سبعمائة عام».

(رواه أبو داود بإسناد صحيح)[١]

(ب) ومنهم من ينفخ نفخة يصعق لها من في السماوات والأرض. وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ:

«كيف أنعم وصاحب الصور قد الْتَقَمَه، وأصغى سمعه، وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمرُ بالنفخ؟!» قالوا: يا رسول الله وما تأمرنا؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

(رواه الترمذي)[٢]

(جـ) ورسل لوط عليهم السلام ــ وهم من الملائكة كما سبق ــ قلبوا أرض قومه عاليها سافلها دفعة واحدة، بسبب كفر هؤلاء القوم، وفعلهم السيئات. إلى غير ذلك من أنواع القوة...

---

(١) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٧٢٨)، وعن أبي داود: الحديث (٤٥٦٠) ورواه الضياء.

(٢) المصدر السابق: الحديث (٥٥٢٧).

٥ ــ ومن صفاتهم الطاعة لله تعالى، ومبادرتهم لامتثال أمره، وهذا معنى عصمتهم عن المعاصي.

وقد وصفهم الله بأنهم لا يستكبرون عن عبادته، ولا يتعبون فيها، وأنهم يسبحون ربهم دائماً من غير انقطاع، قال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

لا يستحسرون: لا يكلّون ولا يتعبون.

وحكاية لقول الملائكة في قصة خلق آدم قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقال تعالى مبيناً أنهم لا يعملون إلا بأمره في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٦ ــ ومن صفاتهم أنهم مقرَّبون إلى الله تعالى ومكرمون، قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

والذين عند الله هم الملائكة، والمراد من كونهم عند الله: أنهم مقربون إليه ومكرمون.

وقال تعالى في تكريمهم والردّ على من جعلهم أولاد الرحمن في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٧ ــ ومن صفاتهم أنهم لا يتناكحون، ولا يتناسلون، ولكنهم عباد الرحمن، أي: مخلوقون لله دون وساطة تناسل.

فقد ذم الله الكافرين الذين جعلوا الملائكة إناثاً، وتوعّدهم بكتابة شهادتهم الكاذبة، وسؤالهم يوم القيامة عن افترائهم، فقال تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٨ ــ ومن صفاتهم أن الله جعل منهم الرسل، للقيام بتبليغ الشرائع للأنبياء، أو للقيام بمهام أخرى. قال تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

٩ ــ ومن صفاتهم أنهم قادرون على الصعود والهبوط بين السماوات والأرض من غير تأثر بجاذبية أو تصادم.

قال الله تعالى في سورة (المعارج ٧٠):

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

والمراد من الروح: جبريل عليه السلام، وعطفه على الملائكة ــ وهو منهم ــ: من باب عطف الخاص على العام، إشعاراً بمكانته، ومقدار مهامه التي يقوم بها.

١٠ ــ ومن صفاتهم الخوف من الله تعالى، وإن كانوا لا يعصون، وعلى عبادة الله يقيمون.

قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴿١٣﴾﴾.

وفي وصفهم أيضاً بالخوف من الله، قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

١١ ــ ومن صفاتهم أنهم مخلوقون قبل هذه السلالة من البشر. والدليل على ذلك قصة خلق آدم الثابتة في القرآن الكريم، والتي فيها قول الملائكة يخاطبون الله تعالى: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾**، وأمرُ الله الملائكة بالسجود لآدم قد كان بعد أن أتم خلقه، وأثبت لهم ميزته، وطرفاً من الحكمة في خلقه.

١٢ ــ ومن صفاتهم أن منهم أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، أو أكثر من ذلك. قال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

وقد جاء في حديث طويل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم»، قال: فَيَحفُّونَهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...» إلى آخر الحديث.

(رواه البخاري)[1]

وفي الصحاح عن عائشة: أن الرسول ﷺ رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين، له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق: مرة ليلة عُرِج به إلى السماء عند سدرة المنتهى، وأخرى في أسفل مكة بمكان اسمه «أجياد».

(٥)

أعــداد الملائكة

والملائكة لا يُحصَون عدداً في علم المخلوقات، لكثرتهم الكاثرة، ولأنهم من جنود الرحمن: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾.

وقد جاء في الحديث النبوي في بيان كثرتهم قول الرسول ﷺ:

«أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلاّ وفيه ملك ساجد أو راكع»[2].

أطّت: أي صوَّتت لكثرة الملائكة فيها.

(٦)

أصناف الملائكة ووظائفهم

وقد جاء في النصوص الشرعية أن الملائكة أصناف، كما ثبت أن لكل منهم وظائف، وفيما يلي طائفة من ذلك:

١ ــ أكابر الملائكة: ومنهم جبريل وميكائيل «ميكال». وفي التنويه بهما قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

(١) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٢٢٦٧) باب ذكر الله عز وجل.

(٢) جاء هذا الحديث بروايات متقاربة الألفاظ عند الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وأبي القاسم الطبراني (انظر تفسير ابن كثير (٣١) من سورة المدثر)، والترمذي في (أبواب الزهد) باب قول الرسول ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

● أما جبريل عليه السلام: فهو صاحب الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام. وفي التنويه بوظيفته هذه وأمانته فيها، قال الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

كما بيَّن تعالى أفضليته: إذْ شرّفه فخصّه بالذكر، وقدمه في الترتيب على سائر الملائكة في القرآن الكريم، وجعله ناصراً لرسوله في معرض تهديد نساء الرسول إذا تظاهرن عليه؛ فقال الله تعالى في سورة (التحريم ٦٦):

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

وسماه الله روح القدس (أي: خلاصة الطهارة وأصلها وسرّها)، وذلك تكريماً له، فقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

ومدحه الله بستِّ صفاتٍ في معرض تبليغه نص القرآن لرسول الله صلوات الله عليه؛ فقال الله تعالى في سورة (التكوير ٨١):

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

فهو: رسول، وفي ذلك اصطفاء له بهذه المهمة من بين الملائكة. وهو: كريم، وفي ذلك تشريف عظيم له. وهو: ذو قوة. وهو: مكين عند الله: أي ذو مكانة عالية. وهو: مطاع بين الملائكة، وهذا يدل على رياسته. وهو: أمين في تبليغ رسالات ربه القولية والعملية.

● وأمَّا ميكائيل «ميكال»: فقد ورد أنه صاحب أرزاق العباد، الموكّل بها.

● ومن جملة أكابر الملائكة الذين وردت بهم الأخبار: إسرافيل وملك الموت، والمتداول على الألسنة أنّ اسمه «عزرائيل»، قال ابن كثير: (وقد سُمِّي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد). (انظر تفسير الآية (١١) من سورة السجدة).

* أما إسرافيل: فقد ورد أنه صاحب الصور، الذي ينفخ فيه بأمر الله النفخة الأولى فيهلك من في السماوات ومن في الأرض؛ إلا من شاء الله استثناءهم من الموت بهذه النفخة،

لأن الله يتولى قبض أرواحهم بدون وساطة نفخة الصور، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث إلى الحياة بعد الموت.

قال الله تعالى في بيان ذلك في سورة (الزمر ٣٩):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

الصور في اللغة: البوق. والصور المشار إليه في القرآن: مخلوق أعده الله ليكون به النفخ، لإهلاك الأحياء في السماوات والأرض عند قيام الساعة.

صعق: هلك، مات.

* وأما ملك الموت: والمشهور أنه عزرائيل كما سبق بيانه، فالظاهر أنه رئيس ملائكة الموت كما سيأتي.

٢ ــ حملة العرش: قال الله تعالى في سورة (الحاقة ٦٩):

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

٣ ــ الحافّون حول العرش: قال الله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

٤ ــ ملائكة الجنة: ففي وصف أهل الجنة قال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

٥ ــ ملائكة النار: «واسمهم الزبانية» وقد وصف الله سقر مبيّناً أن المشرفين على العذاب فيها تسعة عشر من الملائكة؛ فقال الله تعالى في سورة (المدثر ٧٤):

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴿٣١﴾﴾.

وفي تسمية ملائكة التعذيب بالزبانية مهدداً بهم الكافر المتعنت؛ قال الله تعالى في سورة (العلق ٩٦):

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾.

الزّبانية: عند العرب الشُّرَط، من الزَّبْن: وهو في اللّغة الدَّفْع.

ورئيس ملائكة النار وخازنها اسمه «مالك»، والدليل على ذلك في قوله تعالى ـ حكاية لما يقوله أهل النار وهم مقيمون في العذاب ـ في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٦ ـ الموكلون ببني آدم: وهؤلاء أصناف، ولكل صنف منهم وظائف، وفيما يلي طائفة منهم وردت بهم النصوص:

(أ) فمنهم الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنة، وكتابة مستقبل أعمالها وآجالها وأرزاقها وسعادتها أو شقاوتها.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق:

«إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات: فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح. . .» إلى آخر الحديث.

(رواه البخاري ومسلم)

(ب) ومنهم الملائكة الموكلون بمراقبة أعمال المكلفين، وحفظها وإحصائها، وتسجيلها وكتابتها في صحف الأعمال. وعندهم القدرة على علم جميع ما يفعله الناس، من خير أو شر، فيحصونه إحصاءً تاماً، دونما غفلة عن شيء منه، أو نسيان لشيء منه.

ولكل إنسان موكّلان من الملائكة بمراقبة أعماله وتسجيلها، وهؤلاء الملائكة الملازمون لنا هم معنا، ولكنهم غائبون عن إحساسنا. فنحن نؤمن بهم كما أثبتت الشريعة في نصوصها الصادقة، دون أن نزيد على ذلك شيئاً من تخيلاتنا، ما لم يرد به نص شرعي ثابت. فلا نبحث في كيفية كتابتهم، ولا في الوسائل الخاصة بهم لتسجيل أقوالنا وأفعالنا، ولا في الصحف التي يستخدمونها. كما لا نبحث في كيفية ملازمتهم لنا، لأنها أمور من الغيب تتناسب مع أوضاع الملائكة وأحوالهم المغيبة عن مجالات إحساساتنا المادية.

وقد أثبت القرآن هذا الصنف، فقال الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فهذه الآية الكريمة تثبت أن الله جعل للإنسان متلقِّيَيْن من الملائكة، يستقبلان ويتلقيان أقواله وأفعاله الحسنة والسيئة، تلقي معرفة وحفظ وتسجيل، أما أحدهما: فعن اليمين، وأما الآخر: فعن الشمال. وكل منهما قعيد: ملازم لا يفارق الإنسان بحال من الأحوال، لمراقبة أعماله وأقواله بمنتهى الدقة، وكلٌّ منهما عتيد: أعده الله لهذه المهمة، فهو حاضر للقيام بها كما أمره الله.

وقال الله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وهذه الآية أيضاً قد أثبتت أن الله تعالى قد وكَّل بمراقبة أعمال الناس ملائكةً حافظين أي: عندهم كمال القدرة على حفظ جميع أقوالنا وأفعالنا. وهم كرام: فلا يغيرون ولا يبدلون شيئاً مما نقول أو نفعل، فهم يلتزمون حدود أمر الله بتسجيل مشاهداتهم. وهم كاتبون أيضاً. كما أنهم ليسوا ــ فيما يقومون به من تسجيل وكتابة للأقوال والأفعال ــ آلات ميتة لا تعي ما تسجله أو تتلقاه، بل هم مدركون: يعلمون ما نفعل، ويعلمون مقاصدنا من أفعالنا، فهم يعلمون الطاعات ويعلمون المعاصي، وهم يعلمون ظواهر الأعمال، كما يعلمون خفاياها ودقائقها ومقاصدها.

(جـ) ومنهم المعقِّبات الحفظة: الذين يحفظون الناس ــ بأمر الله ــ من شر كل ذي شر خفي أو ظاهر، ومن أذى كل ذي أذى في خضم هذا الكون المشحون بالمخاطر، فلا يصيب الإنسان شيء منها إلا إذا كان فيه قضاء وقدر من الله تعالى: ﴿**قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾.

قال الله تعالى مشيراً إلى هذا الصنف من الملائكة في سورة (الرعد ١٣):

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿١١﴾﴾.

أي: للإنسان ملائكة يتعقبونه، لا يفارقونه بل يرافقونه من جميع الجهات، من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من المخاطر الظاهرة والخفية بأمر الله، وضمن حدود قضاء الله وقدره.

(د) ومنهم ملائكة الموت: الموكلون بقبض الأرواح.

وقد جاء التعبير عن هذا الصنف من الملائكة في القرآن الكريم بأنهم رسل الله تعالى للقيام بهذه الوظيفة؛ قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

لا يفرطون: لا يتوانون، أو لا يقصرون.

كما جاء التعبير عن الموكل بالإماتة في القرآن الكريم أيضاً بأنه ملك الموت؛ قال الله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقد يكون رئيس هذا الصنف من الملائكة عزرائيل، الذي سبق الحديث عنه بأنه من أكابر الملائكة، إن صحّ الأثر.

وقد قسم الله ملائكة الموت إلى قسمين: النازعات، والناشطات. قال المفسرون: النازعات: الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين بشدة وعنف وتعذيب؛ والناشطات: الملائكة التي تأخذ أرواح المؤمنين برفق ولين. قال الله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾.

٧ ــ الموكلون بأمور أخرى في هذا العالم الدنيوي:

وقد يكون من هذا الصنف: الصافات، والزاجرات، والتاليات ذكراً، والذاريات، والحاملات وِقراً، والجاريات يسراً، والمقسّمات أمراً، إذا فسرت بأنها زمر من الملائكة كما أورد ذلك طائفة من المفسرين في قوله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾.

ولكنّ الذي ترجّح لديّ أنّ ما في سورة (الذاريات) هي الرياح، وليست من الملائكة والله أعلم.

(٧)
تلخيص عـــام

ومن خلال ما سبق من نصوص واستدلالات نستطيـع أن نأخذ وصفاً جامعاً للملائكة، حسب مبلغنا من العلم عنهم.

فـالملائكـة: مخلوقات غيبيـة عنا، ذوات أجسام نورانيـة لطيفـة، لا نـراهم في الحـالات العادية، قادرون على التشكـل بالأشكـال الجسمانيـة المختلفة المـرئية لنا، ذوو قدرات خـارقة، لا حصر لهم، مقـربـون إلى الله، طـائعـون لا يعصـون الله مـا أمـرهم ويفعلون مـا يؤمـرون، لا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يأكلون ولا يشربون، إنما هم عباد مكرمون، يحملون رسـالات ربهم في العـالمـين، ويؤدون وظـائفهم في الأكـوان بحسب مجـرى الأقـدار، عـلى مـراد الله العزيز الجبار.

□ □ □

الفصل الثاني

الجن والاعتقاد بوجودهم

(١)

وجوب الاعتقاد بوجودهم

المسلمون كلهم يعتقدون بوجود مخلوقات غيبية عنا، لا نراها بحواسنا في الحالات العادية، اسمها (الجن)؛ لأن الله سبحانه في قرآنه، والرسول ﷺ في كلامه، قد أخبرا بوجودهم بشكلٍ قاطعٍ لا يحتمل التأويل.

وإن وجود مخلوقات غيبية عنا لا نُحسُّ بها، من الأمور الممكنة عقلاً، فلا يكون إنكار المنكر لها إلَّا تكذيباً للخبر الصادق، دون أية حجة أو برهان، وذلك لا يكون إلَّا من سمات الجاهلين أو الكافرين. قال الله تعالى مثبتاً خلقه للجن والإنس في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾.

وقال أيضاً في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣﴾.

وقد تعرض القرآن الكريم للحديث عنهم في نحو أربعين آية من عشر سور تقريباً.

كما خصص الله سبحانه سورة كاملة ذكر فيها قصة نفر منهم استمعوا للقرآن الكريم من تلاوة الرسول ﷺ، فآمنوا ثمَّ ولَّوا إلى قومهم منذرين (هي سورة الجن ٧٢).

وفي هؤلاء النفر نزل قوله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن

﴿ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

وكان هؤلاء النفر من جن نصيبين من ديار بكر قرب الشام، أو من جن نينوى قرب الموصل.

وقد جاؤوا إلى النبي ﷺ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر (بِنَخْلَةَ) ـ في طريق الطائف ـ (وهي قرية بينها وبين مكة مسيرة ليلة)؛ وكان يقرأ سورة العلق، وقيل: سورة الرحمن. وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ لم يشعر بهم في هذه الواقعة، ولم يقصد فيها إبلاغهم القرآن، وإنما صادف حضورهم وقت قراءته.

وقد تعدَّدت وقائع وفادة الجن إلى النبي ﷺ، ودلت الأحاديث على أنها كانت ست مرات.

منها: ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ الذي كاد يبلغ من شهرته مبلغ التواتر ـ: أن النبي ﷺ خرج ليلة الجنّ واصطحب معه ابن مسعود إلى مكان أعلى مكة، ثم ترك النبي ابن مسعود وأمره ألاَّ يجاوز مكانه، وانصرف عنه بعيداً بحيث يراه، ثم تجمع الجن على الرسول، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الإسلام، ثم ولَّوا إلى قومهم مؤمنين منذرين.

ومنها: ما رواه ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بتّ الليلة أقرأ على الجنّ واقفاً بالحجون»[1].

(٢)

عقيدة الناس بالجن

١ ـ أكثر أهل الملل والنحل ـ وخصوصاً أتباع الأنبياء ـ معتقدون بوجود الجن، باعتبار أن الأنبياء ـ وهم صادقون بلا مرية ـ قد أخبروا بوجودهم، ولا يتم إيمان المؤمن بالله إلاَّ بأن يصدق بجميع ما يخبر به رسوله.

٢ ـ ولكن كثر الجدل بين أهل الملل، وبين بعض فلاسفة القدماء ومتفلسفة المحدَثين، حول إثبات هؤلاء المخلوقات. ولا تعدو أدلة المنكرين أن تكون أدلة تافهة، لا تقوى على المناقشة لو سلموا بمبدأ صدق خبر الرسل، لأن هؤلاء ليس لهم من دليل على نفي وجودهم إلاَّ أن يقولوا: لم يثبت لنا وجودهم عن طريق حواسنا، فهم إذاً غير موجودين. وقد سبق في مباحث العقيدة وثبوتها سقوط مثل هذا الاستدلال، وأنه لا يصح الاعتماد عليه بحال من

---

(١) رواه ابن جرير بسنده، ويوجد في مكة مسجد في الحجون يقال له: مسجد الجنّ، والمشهور أنّه من المواضع التي لقي الرسول ﷺ فيها الجنّ، وتَلا عليهم فيها القرآن وأبلغهم رسالة الإسلام.

الأحوال، وأن مسالك اليقين غير منحصرة في الإدراك الحسي، فهناك مسلك الاستنتاج العقلي، وهناك مسلك الخبر الصادق، ويكفي لإثبات حقيقة من الحقائق، الاعتماد على أي مسلك يقيني منها.

ويظهر سقوط استدلال هؤلاء المنكرين ـ بشكلٍ خاص ـ بعد أن كشف العلم الحديث من خفايا الكون الشيء الكثير؛ وأظهر من القوى المعنوية الكامنة في هذا الكون ما يدهش العقول، ولا يزال العلمُ مطرداً في بحثه وكشفه، حتى كادت العقول أن تستسهل التسليم بالمستحيلات، فضلاً عن الممكنات.

علماً بأن وجود الجن أمر ممكن عقلاً كما قدمنا، وليس هناك أي دليلٍ عقلي يثبت استحالة وجودهم، وإنما يتوقف إثبات وجودهم على واحد من اثنين:

(أ) إما الكشف الحسي.

(ب) وإما الخبر اليقيني الصادق.

أما الكشف الحسي: فلم يثبت لنا به وجودهم بطريق قاطع يقيني، ولا نستطيع إثبات ذلك في الأحوال العادية بطريق قاطع يقيني أيضاً.

وإنما ثبت لنا وجودهم بطريق الخبر القاطع الصادق، فنحن نعتقد بوجودهم، ونسلم تسليماً دونما تردد أو اعتراض.

(٣)

حقيقة الجن

والجن ـ كالملائكة ـ لا نعرف من حقيقتهم إلاَّ ما جاءنا عن طريق الخبر الصادق؛ أي عن رسول الله ﷺ، لأننا لا نتصل بهم عن طريق الحس اتصالاً يفيد العلم اليقيني في مجرى العادات حسب أنظمة الكون حتى نعرف تكوينهم؛ وحسبنا أن نقتصر على ما وردت به النصوص.

ما ورد في بيان حقيقتهم وصفاتهم:

وقد ورد في النصوص الشرعية ما يبيِّن شيئاً من حقيقة تكوينهم، وطائفة من صفاتهم، ومن ذلك ما يلي:

١ ـ أنهم صنف غير صنف الملائكة: فهم مخلوقات سفلية، مخلوقون من مارج من نار، أي: من أخلاط نار صافية. وفي بيان العنصر الذي خلقهم الله منه، والعنصر الذي خلق الإنسان منه، قال تبارك وتعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

الصلصال: الطين اليابس الذي لم يطبخ، إذ له صلصلة وصوت إذا نقر، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار.

والجانُّ: هو أبو الجن كما ذكر المفسرون.

وفي احتجاج إبليس على ربه حين أمره بالسجود لآدم، قال فيما يحكيه الله عنه في سورة (الأعراف ٧):

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

زاعماً أن أصل النار أشرف من أصل الطين، وبرَّر بذلك استكباره عن طاعة الله في السجود لآدم.

٢ ــ أنهم مخلوقون قبل الإنس. والدليل على ذلك في قوله تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

الحمأ: الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوَّر. والسَّموم: الريح الحارة القاتلة، سميت بذلك لأنها تنفذ في مسام البدن.

وفي قصة أمر إبليس بالسجود واستكبار إبليس، وقول الله في حقه في سورة (الكهف ١٨):

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ... ﴿٥٠﴾﴾.

دلالة واضحة على أن الجن مخلوقون قبل الإنس.

٣ ــ أنهم يتناسلون ولهم ذرية. والدليل على ذلك في قوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

وأقر الله سبحانه ما ذكره النفر من الجن الذين استمعوا للقرآن من الرسول ﷺ حين ذكروا أن للجن رجالاً، ومتى كان فيهم رجال ففيهم إناث، وذلك يقتضي التناسل. قال تعالى في حكاية قولهم في سورة (الجن ٧٢):

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾.

يعوذون: يلتجئون.

فزادوهم رهقاً: أي زادوهم إثماً وتعباً وغياً، وتجرؤوا عليهم إذ عاذوا بهم.

قال المفسرون: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض؛ قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح، وكان يعني بذلك الجن الساكنين في ذلك الوادي، ولسان حال الجن يقول: إننا لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن نملك مثل ذلك لغيرنا.

٤ ــ أن من شأنهم أن يرونا من حيث لا نراهم. قال الله تعالى في صفة الشيطان وأتباعه ــ وهم من الجن ــ في سورة (الأعراف ٧):

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هذا في الحالات العادية، فلا يمنع إمكان رؤيتهم في حالات نادرة، أو بشروط خاصة.

٥ ــ أنهم مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة، ذات إرادة واختيار، فهم مكلّفون بالإيمان والعبادة، منهيُّون عن الكفر والعصيان. فكثير من خطابات التكليف والتحدي في القرآن الكريم يجمع الله فيها بين الجن والإنس؛ قال الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾.

وقال تعالى أيضاً في سورة (الأنعام ٦):

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

وقال تعالى في التحدي في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾.

٦ ــ أنهم قسمان: مؤمنون وكافرون. وهذا تابع لما منحهم الله إياه من الإرادة

والاختيار. والكافرون منهم شياطين، وهم جنود الشيطان الأول إبليس اللعين، الذي كان أول من عصى أمر ربه من الجن، وأول من كفر بنعمة الله منهم.

ويمكنك أن تستنبط ذلك مما حكى الله تعالى على لسان النفر من الجن؛ الذين استمعوا إلى القرآن من الرسول ﷺ وآمنوا به.

ففي الآيتين الأولى والثانية من سورة (الجنّ ٧٢) قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

وفي الآية الرابعة قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

أي: كان يقول لهم إبليس ذلك، وسموه سفيههم، والسفيه: ناقص العقل. والشطط: الظلم وتجاوز الحد في الغي.

وفي الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة قوله تعالى حكايةً عنهم:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

والقاسطون: هم الجائرون الحائدون عن صراط الحق.

فهذه الآيات تدل بوضوح على أن الجن فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون، وما ورد منها حكاية لقول الجن مع السكوت عن رده إقرار له.

٧ ــ أنهم يُحشرون يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم، فيثابون أو يعاقبون.

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

وقال الله تعالى مقرراً عقوبة الكافرين من الجن في سورة (هود ١١):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ولا تكـون العقوبـة إلاَّ بعد مخـالفة نـاشئة عن تكليف، ولا يكـون التكليف إلاَّ لمن كـان مستوفياً شروطه.

٨ ــ أن لهم قدرات كبيرة، ومهارات صناعية.

فقـد سخَّر الله لسليمان الجن يقومـون لـه بـأعمال البنـاء والغـوص في البحـار، والأعـمال الصناعية كالجفان الكبيرة والقدور الراسية، والأعمـال الفنية كـالتماثيـل والصور ــ وقـد كانت جائزة ثم حُرِّمت في الإسلام ــ إلى غير ذلك من أعمال كبيرة مختلفة.

قال الله تعالى في معرض امتنانه على سليمان عليه السلام في سورة (صٓ ٣٨):

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال الله تعالى ــ حكاية لقول أحد الجن من جنود سليمان الذين سخرهم الله له، حين قال الجني لسليمان: أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن تقوم من مقامك ــ في سورة (النمل ٢٧):

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ومعنى عفريت: قوي، ماكر.

وقـال الله تعـالى ــ في وصف أعمـال الجن الـذين سخـرهم الله لسليمـان، ومهـاراتهم الصناعية ــ في سورة (سبأ ٣٤):

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

الجفان: القصاع. والجوابي: حياض الماء، مفردها جابية.

٩ ــ أنهم كـانوا قبـل بعثة محمـد ﷺ يسترقـون السمع من أفـواه الملائكـة من السـماء؛ وينقلونها إلى قـرنائهم من الإنس في الأرض. وقـد ذكر ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: كان الجن يقصـدون السـماء في الفتـرة بـين عيسى ومحمـد، فيستمعـون أخبـار السـماء، ويلقونها إلى الكهنـة، فلما بعث الله محمداً عليـه السلام حُـرِست السماء، وحِيـلَ بين الشيـاطين وبـين خبـر السماء، وأرسلت الشهب عليهم. انتهى.

وقد ذكر الله هذا ــ حكايـة عن النفر من الجن الـذين آمنوا بـالرسـول الكريم ــ بقـوله تعالى في سورة (الجن ٧٢):

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

١٠ ــ أنهم يأكلون أكلاً لا نعلم كيفيته ولا ماهيته، وأن الله قد جعل زادهم في العظام وروث البهائم والفحم.

فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام، فإنها زاد إخوانكم من الجن».

(رواه مسلم والترمذي)

وعن ابن مسعود أيضاً قال: (لمَّا قدم وفد الجن على النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، انْهَ أمتك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو حُمَمَة[1]؛ فإن الله جعل لنا فيها رزقاً، فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك).

(رواه أبو داود وإسناده صحيح)

١١ ــ أن لهم قدرة على التشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية.

فقد جاء في طائفة من الأخبار ظهور بعض الجن للإنس بأشكال جسمانية مرئية لنا، ومنها ظهور بعضهم على صفة حية من الحيات الإنسية.

ومما ورد في ذلك ما رواه مالك في الموطأ عن أبي السائب؛ وهو يتضمن قصة فتى من الأنصار حديث عهد بعرس، رأى امرأته واقفة بين الناس فهيأ الرمح ليطعنها بسبب الغيرة، فقالت امرأته: ادخل بيتك لترى، فدخل بيته فإذا هو بحية على فراشه، فركز الرمح فيها، فاضطربت الحية في رأس الرمح، فخر الفتى صريعاً، فما ندري أيهما كان أسرع موتاً، الفتى أو الحية؟!

قال الراوي: فسألنا رسول الله ﷺ: فقال: «إن بالمدينة جناً قد أسلموا، فمن بدا لكم منهم فآذنوه ثلاثة أيام، فإن عاد فاقتلوه فإنه شيطان».

وقد كان الجن يظهرون لسليمان عليه السلام، ويسخرهم في أعمال جسيمة كما سبق، كما كان عليه السلام مسلَّطاً على تعذيب المسيئين منهم، فيقرنهم في الأصفاد، أي: يقيدهم في الأغلال كما ثبت ذلك في القرآن الكريم.

---

(١) الحممة: الفحم.

(٤)

هل للجن تأثير على أجسام الإنس؟

وإن يكن لخبثاء الجن بعض التأثير الجسمي على أحد من الإنس، فإنما يؤثرون على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم، من ذكر أو أنثى، أو يتعرض لتقبّل مسِّهم وتخبطاتهم، باستعاذته بهم والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر الله وتلاوة القرآن، ويتجافى عن التحصن بالأوراد المأثورة، والاستعاذات الدائمة بالله من شرورهم.

فقد علمنا الرسول ﷺ أن نستعيذ بالله من همزات الشياطين؛ ومن حضورهم، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا فَزِع أحدكُم في النوم، فليقلْ: أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون، فإنها لن تضره»[١].

ومنه ما رواه أبو داود وابن ماجه بإسنادٍ صحيح:

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الحشوش مُحتضَرة ـ أي: يحضرها الشياطين يترصدون بني آدم بالأذى ـ فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخُبُث والخبائث»[٢].

(٥)

هل يلقي الجن للإنس علوماً وأخباراً؟

أما العلوم والأخبار التي يمكن أن يلقيها الجن إلى قرنائهم من الكهان، فهي بحسب مواضيع هذه العلوم التي يلقونها:

(أ) فإن كانت من العلوم التي تتعلق بالأمور المشهودة، أو الإخبار عن الوقائع الماضية، فإنها أخبار تحتمل الصدق والكذب، وليس ببعيد أن يوجد في الجن كذابون، وقد أثبت الله أن منهم العصاة والكافرين. ومن جهة ثانية فإنه لا يصح الثقة بشيء من أخبارهم، لانعدام مقاييس تحديد الصادقين والكاذبين فيهم بالنسبة إلينا.

---

(١) من مشكاة المصابيح: الحديث (٢٤٧٧)، وأبو داود كتاب الطب ـ باب كيف الرقيا ـ، والترمذي أبواب الدعوات ـ باب إذا فزع أحدكم من النوم ـ.

(٢) من مشكاة المصابيح: الحديث (٣٥٧)، وأبو داود كتاب الطهارة ـ باب ما يقول إذا دخل الخلاء ـ.

(ب) وإن كانت من المغيبات فهي:

إمَّا أن تكون من المغيبات التي استأثر الله بعلمها، وهذه لا يمكن لإنس ولا جن معرفة شيء منها، ولا يكون التحدث بشيء منها إلَّا كذباً وافتراءً على الله، وارداً على لسان أحد القرينين من الإنس والجن.

وإما أن تكون من المغيبات التي قضي أمرها في السماء، وأصبحت معلومةً لذوي الاختصاص من الملائكة، كما أصبحت مُعَدَّةً لتبليغها للملائكة الموظفين بتنفيذ أمر الله فيها، وهذه قد جاء فيها عن رسول الله ﷺ ما يلي:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العَنَان ــ وهو السحاب ــ فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوجهه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[1]. (رواه البخاري). وللبخاري أيضاً عن أبي هريرة نحوه، مع تفصيل في كيفية استراق السمع، وشرح لكيفية التضليل بما يوحي به الشياطين إلى الكهان.

وهذا هو استراق الشياطين السمع من الملائكة بعد نزولها إلى جو الأرض، وليس هو استراقها السمع من السماء، كما كان دأبهم قبل بعثة محمد ﷺ الذي منعوا منه بالشهب.

وفي تكذيب من يلقي سمعه للشياطين، وإثمه الكبير، قال الله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

(٦)

هل للشياطين سلطان على الإنس في عقائدهم وإراداتهم وأعمالهم؟

أما أن يكون للشياطين سلطان على الإنس في عقائدهم، وتوجيه إراداتهم للأعمال السيئة، فذلك مما لا سبيل لهم إليه، لأن الله جل وعلا حجزهم عن ذلك، ولم يجعل لهم سلطاناً على بني آدم، لتكون إرادة الناس حرَّة في اختيارها طريق الخير، أو طريق الشر.

---

(١) من مشكاة المصابيح: الحديث (٤٥٩٤)، والبخاري كتاب (بدء الخلق) ــ باب ذكر الملائكة ــ الحديث (١٠، ٣) في الفتح، وأطرافه في (٣٢٨٨ ــ ٥٧٦٢ ــ ٦٢١٣ ــ ٧٥٦١).

ويخاطب الله رأس الشياطين إبليس، وأقدرهم على سلطان ــ إن كان للشياطين سلطان ــ فيقول تعالى في سورة (الحجر ١٥):

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أما عمل الشيطان في نفس الإنسان فينحصر بالوسوسة الخفية، وهذه تخنس وتتخاذل أمام حزم المؤمن وإرادته القوية الملتجئة إلى الله تعالى؛ بالاستعاذة والذكر والمراقبة. أما إخوان الشياطين فإنهم يستجيبون لوسوستهم، وينساقون معهم، فيتسلط الشياطين عليهم، فيمدونهم في الغي، ويزينون لهم الشر والضلالة، ولا يألون جهداً في ذلك، ويشهد لهذا قول الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

النزغ: الوسوسة. طائف من الشيطان: وسوسة منه بفكرة سيئة تمر على النفس. يمدونهم: يعاونونهم. لا يقصرون: لا يكفون عن إغوائهم.

كما يشهد بأن حدود عمل الشيطان إنما هي الوسوسة الخفية، والدعوة إلى الشر من داخل النفس: تبرّؤ الشيطان يوم القيامة من أنه كان ذا تأثير على الإنسان في إغوائه في الدنيا. ففي حكاية ما سيقوله الشيطان يوم القيامة، قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقد جعل الله في مقابلة وسوسة الشيطان ــ التي هي من دواعي الشر ــ داعياً للخير عن طريق ملك من ملائكة الرحمن، لإيجاد التوازن في امتحان إرادة الإنسان. فقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:

«إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لمة. فأما لَمَّةُ الشيطان: فإيعادٌ بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لَمَّةُ الملك: فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم

قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً﴾».

(رواه الترمذي)[١]

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مامنكم من أحد إلاَّ وقد وكِّل به قرينة من الجن، وقرينة من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وأياي، إلاَّ أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاَّ بخير».

(رواه مسلم)[٢]

وإلى هذا جاءت الإشارة في قوله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧ ﴾.

فالقرين الأول: هو الملك الموكل به. والقرين الثاني: هو الشيطان المقيَّض له.

هذا ما لدي عتيد: هذا ما هو مكتوبٌ عندي، حاضر لديّ مهيأً.

مريب: مشكّك بالحقّ مضلّل عنه.

ربنا ما أطغيته: أي لم يكن لي تأثير في طغيانه وكفره، ولكنني وسوست له وأغويته، وقد كان هو في ضلال بعيد، فأعنته على ذلك بالوسوسة والإغواء.

(٧)

خاتمة

ولا بد لنا قبل أن ننهي كلامنا عن الجن ـ باعتبار أن وجودهم في المخلوقات حقيقة جاءتنا عن طريق الرسول الصادق صلوات الله عليه ـ من أن نعرض إلى موضوع هام في هذا الباب.

ألا وهو موضوع الادعاءات الكاذبة التي يقوم بها بعض مدَّعي الاتصال بالجن،

---

(١) انظر الترمذي أبواب تفسير القرآن ـ من تفسير سورة البقرة ـ حديث «إن للشيطان لمة...».

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب (صفة القيامة والجنة والنار) ـ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كلّ إنسان قريناً ـ.

والافتراءات على الله التي يفترونها، فينسبون إلى الجن بعض علم الغيب، وينقلون عنهم كذباً يزعمونه من علم الغيب، ويتلاعبون بعقول السُذَّج من النساء وصغار العقول، أو يدّعون قدرةَ الجن على النفع أو الضرر، والجن أنفسهم لا حول لهم ولا طَوْل، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلاَّ أن يشاء الله.

وقد بيَّن القرآن أن أهل الجاهلية الذين كانوا يعوذون برجال من الجن لم ينفعوهم شيئاً، بل زادوهم غيّاً وضلالاً، وبعداً عن الأمن الذي يرجونه منهم.

كما نددت الأحاديث الكثيرة بالذين يصدقون الكهنة والمنجمين، ويعتمدون عليهم، ويرجون نفعهم، أو يخشون ضرهم، باعتبار أن ذلك شرك بالله، وإثم عظيم.

فعن بعض أزواج النبيّ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أتى عَرّافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[1]. (رواه مسلم)

وذكر في مشكاة المصابيح أنّها حفصة رضي الله عنها.

فهؤلاء المنجمون والمنجمات، والمشعوذون والمشعوذات، والساحرون والساحرات، الذين ينسبون إلى الجن النفع أو الضرر، ويتحدثون عنهم بالمغيبات: إنهم ــ وإن صدقوا في بعض ما يخبرون به ــ كذابون دجّالون، عصاة للّه والرسول، يريدون أن يستولوا على المغفّلين ضعفاء الإيمان، ليضلّلوهم، ويسلُبُوهُم أموالهم بغير حق.

فالاستعاذة لا تكون إلاَّ بالله، والاستعانة لا تكون إلاَّ بالله.

وإن يكن للجنّ شيء من القوة المادّية فيما بينهم، فقد صرفهم الله في مجرى العادات عن أن يكون لهم سلطان على الإنس في نفع أو ضر، إلاَّ أن يشاء الله شيئاً من ذلك، ولعل تسلّط بعضهم إنما يكون على من يستعيذ بهم، أو يتخوف منهم ويخشاهم، دون أن يلتجىء إلى الله مستعيذاً به من شرهم، ومن شر كل ذي شر.

• • •

(١) من مشكاة المصابيح: الحديث (٤٥٩٥)، وانظر مسلم بشرح النووي، كتاب (السلام) ــ باب: تحريم الكهانة وإتيان الكُهّان ــ.

الباب الرابع

الإيمان بالأنبياء والرسل

عليهم الصلاة والسلام

الفصل الأول : في وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، وفي شرح ألفاظ النبوة والرسالة والنبي والرسول.

الفصل الثاني : في الحاجة إلى الرسل، ووظائفهم ومهماتهم، وأن مهماتهم لا تتحقق بغيرهم.

الفصل الثالث : في دلائل الرسالة.

الفصل الرابع : في صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الخامس : في الكرامات.

الفصل السادس : موجز تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الفصل السابع : الرسالات السماوية: تعدُّدها ووحدة أصولها وتكاملها، وختمها برسالة محمد ﷺ.

الفصل الثامن : الوحي وأنواعه.

الفصل الأول

في وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل

وفي شرح ألفاظ النبوة والرسالة والنبي والرسول

(١)

الإيمان بالأنبياء والرسل من أركان العقيدة

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وكذلك الإيمان بجميع ما أنزل عليهم.

ففي صفة عقيدة المؤمنين قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾.

ويأمر الله نبينا محمداً ﷺ ويأمرُنا معه، فيقول تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾.

فعقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان برسله:

لأنَّ من مقتضى الإيمان بالله تصديق المؤيَّدِين بتأييد من عنده بمختلف صور التأييد الرباني؛ الذي لا يمكن أن يكون من الله تعالى إلا لِرُسُلِهِ الدالِّين عليه، والمبلِّغين لشريعته ودينِه بصدق.

ولأن من مقتضى الإيمان بالله تصديقَه في كل ما يخبرنا به، وهذا يقتضي الإيمان برسله الذين أخبر عنهم في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم إن الإيمان بواحد من الرسل لا ينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل الصادقين؛ فموجب الإيمان في الكلّ واحد.

لذلك يعلنُ المسلم دائماً وفق عقيدته ــ التي متى أخلّ بها كفر ــ: أنه لا يُفرِّق بين أحدٍ من رسل الله وأنبيائه في الإيمان، فهو يؤمن بهم جميعاً دون تفريق، ويعظمهم جميعاً، لأنهم أنبياء الله المصطَفَوْن عنده.

(٢)

معنى النبوة والرسالة والنبـي والرسول

جاء في النصوص الدينية إطلاق كلمات النبي والرسول والنبوة والرسالة على حقائق شرعية وفق الاصطلاح الشرعي.

لذا كان علينا أن نوضح معاني هذه الكلمات بحسب أوضاعها اللغوية، وفي الاصطلاح الشرعي.

(أ) النبــوّة:

١ ــ في اللغة: مأخوذة من النبأ، أي: الخبر. قال تعالى: **﴿عم يتساءلون * عن النبأ العظيم﴾**؛ أو من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، يقال: نبأ الشيء إذا ارتفع.

٢ ــ وفي الاصطلاح الشرعي: اصطفاء الله عبداً من عباده بالوحي إليه.

ولهذا المعنى الشرعي مناسبة ظاهرة مع كل من معنيي النبوة في اللغة: الخبر، والارتفاع.

* **فالنبـي**: عبد اصطفاه الله بالوحي إليه.

وصيغة نبـي (فَعِيل): تأتي بمعنى اسم الفاعل، كما تأتي بمعنى اسم المفعول.

أما المناسبة بين المعنى الشرعي لهذه الصيغة وبين كلٍّ من معنيَيْها اللغويين ــ الخبر والارتفاع ــ فكما يلي:

ــ فعلى تقدير أنها بمعنى اسم الفاعل: فهي على معنى أنه مخبِر بالغيوب التي يتلقاها عن الوحي، أو مرتفع عن غيره بسبب اصطفاء الله له بالوحي.

ــ وعلى تقدير أنها بمعنى اسم المفعول: فهي على معنى أنه مُنَبَّأ بالغيوب، أو مرفوع على غيره بسبب الاصطفاء بالوحي إليه.

(ب) الرسالة:

١ ــ في اللغة: التوجيه بأمرٍ ما، فالرسول هو الذي يُتَابع أخبار الذي بعثه، أو يقوم بما أمره به مُرْسِلُه.

٢ ــ وفي الاصطلاح الشرعي: تكليفُ الله نبياً من أنبيائه بتبليغ شريعته للناس.

* **فالرسول**: هو النبي المكلف من قبل الله بتبليغ شريعته لخلقه.

ــ وفي معنى الاصطفاء بالنبوة نجد عدة آيات في القرآن الكريم:

فمنها قول الله تعالى في وصف آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ويأمر الله سيدنا محمداً وكلَّ داعٍ من بعده أن يحمد الله ويسلّم على عباده الذين اصطفى، ثم يعرضَ على المشركين أدلة وحدانية الله وكمال قدرته، فيقول تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ــ وفي معنى الاصطفاء بالرسالة نجد عدة آيات أيضاً:

يخاطب الله تعالى موسى عليه السلام، ويخبره بأنه قد اصطفاه على الناس برسالاته، ويقصّ علينا ذلك فيقول في سورة (الأعراف ٧):

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ويبين الله لنا اصطفاءه الرسل من الملائكة ومن الناس: أما الرُّسُل من الملائكة فيرسلهم للأنبياء من الناس، وأما الرسل من الناس فيرسلهم إلى أممهم. فيقول تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

ويقول الله تعالى: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** في معرض التنديد بأكابر مجرمي القرى؛ الذين تعنتوا فقالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، وفي هذا الردّ دلالة على أن الرسالة لا تكون إلاّ لمن اصطفاهم الله لحمل رسالاته؛ وعلى أن الله ــ بعلمه وحكمته ــ

لا يصطفي لحمل رسالته إلا من هو جدير بحملها. قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ونستطيع أن نستنبط من النصوص القرآنية حول النبي والرسول، الأمور التالية:

أولاً: أن كلاً من النبوة والرسالة فيض إلهي، واصطفاء رباني، وأن أيّاً منها لا يكون أمراً يُكْتَسَبُ اكتساباً بالاجتهاد والرياضة، ولا بالدراسة والبحث، وهذا هو معنى الاصطفاء والاختيار والاجتباء.

ثانياً: أن الوصف بالرسالة مغاير للوصف بالنُّبُوَّة. ويشهد لذلك وصف الله بهما معاً، وفي هذا إشعار بتغاير مفهومَيْهما في الاصطلاح الشرعي، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾﴾.

كما يشهد له عطف أحدهما على الآخر عطف تغاير[1].

ثالثاً: أن الاصطفاء بالنبوة سابق على الاصطفاء بالرسالة، فلا يتمُّ الاصطفاء بالرسالة إلا لمن تمَّ اصطفاؤه بالنبوة، أي: بالوحي إليه كما سبق في التعريف.

ويدل على ذلك عدة نصوص، منها قوله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾.

وقوله ـ في حق سيدنا محمد ﷺ ـ في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾.

فهاتان الآيتان تشيران إلى أن النبوَّة تكون متحققة أولاً، ثم يأتي بعدها الإرسال. ونستطيع من هذا أن نفهم أنه قد تمرُّ على النبي مدّة يكون فيها مصطفىً بالنبوة قبل أن يُؤْمَر

---

(١) وذلك في قوله تعالى في سورة (الحج ٢٢): ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحْكِم الله آياته والله عليم حكيم﴾ (٥٢).

بالتبليغ فيكون في هذه المدة ــ بالنظر لواقع حاله ــ نبياً لا رسولاً، فإذا أمره الله بالتبليغ صار ــ في واقع حاله ــ نبياً رسولاً.

وذلك كالمدة التي كانت للنبي محمد ﷺ بين بدء الوحي وبين أمر الله له بالتبليغ:

في نحو قوله تعالى في سورة (المدثر ٧٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾.

وقوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾.

رابعاً: أن الله قد يقتصر على الاصطفاء بالنبوة بالنسبة إلى بعض الأنبياء، دون أن يأمرهم بتبليغ رسالته، وهؤلاء يمكن أن نسمّيَهُم أنبياء لا رسلاً. وعلى هذا فتكون مهمة النبي الذي لم يؤمر بتبليغ رسالة: العملَ والفتوى بشريعة رسول سابق له.

ويَدُلُّ على هذا: أننا إذا نظرنا فيمن تحدث القرآن عنهم بأنهم أنبياء، وجدنا بعضهم لم يؤمر بتبليغ رسالة إلى قومه، كما لم يُذكر في عداد الرسل، ويمكن أن نستشهد لهذا بمثل قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ ۝٢٤٦﴾.

وهذا النبي لم يُذكر في عداد الرسل، مع أنه قد جرى التنويه به وبقصته مع بني إسرائيل من بعد موسى، قال المؤرخون وتابعهم المفسرون: واسمه (صمويل = شمويل).

ويؤيد ذلك أيضاً الأحاديث النبوية التي تفرّق بين عدد الأنبياء وعدد الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما سيأتي بيانها إن شاء الله.

ومن ذلك يتبين أن كُلَّ رسول نبي، ولا يلزم أن يكون كلُّ نبي رسولاً.

وبالنظر إلى هذه الأمور السابقة التي نلاحظها في النصوص القرآنية حول الفرق بين النبي والرسول، ندرك السر البلاغي فيما يلي:

١ ـ ندرك السر البلاغي في الجم الغفير من النصوص القرآنية التي تتعرض إلى ألفاظ الرسول والرسل والرسالة، إذ تقترن بالمهام المتصلة بتبليغ الشريعة ودعوة الخلق إلى الحق.

٢ ـ كما ندرك السر البلاغي في الجم الغفير من النصوص القرآنية التي تتعرض إلى ألفاظ النبي والنبيين والنبوة؛ إذ تقترن بالأحوال والصفات والأحكام الخاصة المناسبة لمعنى النبوة الذي شرحناه، وهو الاصطفاء بالوحي.

وهذا التفصيل الذي عرضناه بأدلته في تحديد معنى النبي والرسول: هو ما عليه جمهور أهل التوحيد؛ وهناك آراء أخرى في الفرق بين النبي والرسول لا تخلو أدلتها من ضعف.

وحسبنا أن نفهم أن النبي: عبد اصطفاه الله بالنبوة، وذلك بأن أوحى إليه. وأنَّ الرسول: نبي اصطفاه الله، فكلفه تبليغ رسالته لخلقه.

□ □ □

الفصل الثاني

الحاجة إلى الرُّسُل وكون مُهمَّتهم لا تتحقَّق بغيرهم

(١)

حاجة الناس إلى الرسل

باستطاعتنا أن نتحقق حاجة الناس إلى الرُّسُل من عِدّة وجوه، ونعالج بعضاً منها فيما يلي:

الوجه الأول:

عرفنا في بحوث الإيمان والإسلام أن الغاية التي ينشدها المسلم من إسلامه تَتَنَقَّل في مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وهي السعي لتكميل النفس بالمعرفة. وكمال النفس بالمعرفة من أعظم أنواع السعادات الإنسانية، وإنما يتم ذلك بالتأمل والنظر السديدين، اللذين يوصلانه إلى معرفة الله تعالى، ومن عرف الله وعرف صفاته، وأنه هو الخالق المنعم الحكم العدل، انتقل إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: وهي طلب السعادة ببلوغ كمال الخلق الإنساني. وإنما يتم ذلك بالتحقق بالأمور التالية:

١ ــ بالإيمان القلبي بالله تعالى وصفاته العظمى.

٢ ــ بالاعتراف اللساني لله بالربوبية والألوهية وكمال الصفات.

٣ ــ بحمد الله والثناء عليه بجلائل الصفات والنعم.

٤ ــ بشكر الله على نعمائه، وذلك بعبادته حق العبادة على الوجه الذي يرضىٰ، وبطاعته في أوامره ونواهيه على وفق مراده، وبسلوك السبل التي حدَّدَها لنا في الحياة، واتّباع الشريعة التي ارتضاها لنا.

المرحلة الثالثة: وهي السعي لبلوغ الغاية القصوى التي هي السعادة الدائمة الخالدة، في الدنيا والآخرة. وإنما تتحقق هذه الغاية بابتغاء مرضاة الرب تعالى، في كل ما يستطيع الإنسان من أفعال وأقوال، وأفكار وإرادات وعواطف.

● أما سلامة المرحلة الأولى: فيحتاج الإنسان فيها إلى الرسل للفت نظره إلى الحق، وتسديد خطواته للوصول إليه من أقرب السبل.

● وأما التحقق بالمرحلة الثانية: فلا يتم إلا بمعرفة وجوه العبادة السليمة لله تعالى، ومعرفة حدود الطاعة لله في سلوك دروب الحياة، حتى تتحقق للإنسان السعادة المثلى، والمصلحة الفضلى، التي ترضي الله تعالى. ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أوامره تعالى ونواهيه، وقد اختار الله لنا أقرب السبل لمعرفة أوامره ونواهيه، وذلك باصطفائه الرسل من البشر يرسلهم إلى خلقه ليبلغوهم أوامر الله ونواهيه، ويُؤَيِّدُهم ببراهين المعجزات، التي تُبَرْهِن للناس أنَّهم صادقون فيما يخبرون عن الله جلَّ وعلا.

● كما أن التحقق بالمرحلة الثالثة على الوجه الأكمل: لا يتم إلا بمعرفة أن الله لا يقبل من العمل إلا ما ابْتُغِيَ به وجهه، ولا يكافىء على العمل ـ بمنح السعادة الخالدة ـ إلا إذا قُصِدَ بالعمل رضاه. ولا يمكن معرفة ذلك إلا بخبر عن الله تعالى، وقد اختار الله لنا الرسل ليخبرونا بذلك، وليخبرونا بأن من لم يتَّبع الرسل ويَهْتَدِ بهديهم، فقد حَقَّ عليه عقاب الله وعذابه.

ومما سبق يتضح لنا حاجة الناس إلى رسُل من عند الله، يهدونهم إلى سواء السبيل، ويبلغونهم أوامر الله ونواهيه، ويُعرِّفونهم بطرق الحلال والحرام، ويحذرونهم مغبَّة الجحود والمخالفة، ويخبرونهم بما أعدَّ الله من ثواب في جنته للمؤمنين الطائعين، وما أعتد من عقاب في ناره للجاحدين العاصين.

الوجه الثاني:

ولما كان الإنسان مخلوقاً على وجه يقتضي ـ بحسب حكمة الخالق ـ اختبار إرادته وسلوكه في الحياة؛ ولا يتم اختبار إرادته وسلوكه إلا بأن يوضع في مجال الاختبار الكامل، وذلك: بتعريفه بطرق الخير وطرق الشر. ثم بإرشاده إلى طرق الخير وحثه عليها، وترغيبه بالثواب إذا هو اختارها وسلك فيها، وبتنبيهه على طرق الشر، وتحذيره منها، وترهيبه من العقاب إذا هو اختارها وسلك فيها، ثم بتوجيه الأوامر والنواهي له، وتحديد طرق الحلال والحرام.

ولا يمكن معرفة أوامر الله ونواهيه، وطرق الحلال والحرام التي حدَّدها، إلا من جهته تعالى. وقد اختار الله أقرب السبل لمعرفة ذلك بأن أوحى إلى طائفةٍ من البشر اصطفاهم لحمل رسالاته للناس، وكمّلهم بالكمال الإنساني، وعصمهم عن المعاصي والذنوب والانحرافات في السلوك، وصانهم عن الخطأ في نقل أحكام الله وشرائعه للناس، وأيَّدهم بتأييد معجز من عنده.

ولو لم يرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، لكان للناس على الله حُجَّةٌ بأنه لم يرسل لهم من يبلغهم أوامر الله ونواهيه، وسائر شرائعه لخلقه، ويرغبهم بثوابه، وينذرهم بعقابه، حتى يعرفوا واجبهم نحو ربهم.

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

ومن ذلك يتضح لنا حاجة الناس إلى رسل يبلغونهم شرائع الله لخلقه..

الوجه الثالث:

الإنسان في نفسه كتلة من الغرائز والدوافع التي تتطلب إشباعها بأية وسيلة من الوسائل.

ففيه غرائز شهوات البطن والفرج والحواس، وغرائز التملك والسيطرة والمقاتلة، ونحوها من بقية غرائز الإنسان التي تنبع من أنانيته ونظرته لذاته، ولهذه الغرائز انفعالات متعدّدة.

وكل غريزة في الإنسان تلح عليه داخلياً بتحقيق مطالبها، ولو بطريقة عشوائية، أو بطريقة ينتج عنها الضرر بمرتادها، أو الضرر بمجموعة كبرى من الناس حوله، دون شعور بآلام الآخرين، أو بفساد أوضاع المجتمع.

فإذا تُرك الإنسان لنفسه، من غير بيانٍ لواجبه بوصفه فرداً في مجموعة إنسانية كبرى،

جرى وراء تحقيق مطالب غرائزه وشهواته، بوسائل القوة أو المكر والخديعة والاحتيال، ولم يكن لديه أي وازع خلقي يردعه عن الجَوْر والظلم، والسلب والفتك بالآخرين، جرياً وراء تحقيق لَذَّاته الخاصة به.

وأظهر مثال على ذلك: إنسان الغابة الذي لم تُهذَّب بالتربية دوافعه وغرائزه، إنسان الغريزة والشهوة والأنانية.

وهذه الغرائز والدوافع والانفعالات في الإنسان، تتطلَّب التوجيه والتهذيب والتربية، حتى يجعل التهذيب منه فرداً صالحاً لبناء مجموعة بشرية مثاليَّةٍ صالحة، إذا اقترن بأمثاله وأكفائه من أبناء جنسه، الذين عولجوا بالتربية والتوجيه والتهذيب.

وإن طرق إصلاحه لا بد أن يُلتمس فيها أول الأمر الجانب الفكري فيه؛ بوصفه قوة فعَّالة تُعْتَبَرُ مسؤولة عن السلطة التشريعية في داخل الإنسان؛ وذلك إنما يكون عن طريق الإقناع والإفهام، وبيان الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

فإذا تجاهل الفرد ــ بعد إقناعه وإفهامه ــ الحق والخير والفضيلة، وتجاوز حدّ الواجب، جُرِّب في إصلاحه وسيلة الترغيب، لاستغلال جوانب الخير في بعض غرائزه، عن طريق استثارة أطماعها، حتى تهيمن على بقية الغرائز في جوانبها التي تتسم بطابع الانحراف.

فإذا لم يكترث بوسيلة الترغيب، جُرِّب في إصلاحه وسيلة الترهيب، فقد تكون غريزة الخوف في الفرد أنمى وأفعلَ من بقية غرائزه، فتهيمن عليها، ويكون بذلك إصلاحه وتهذيبه.

فإن لم يُجْدِهِ واحد مما سبق، فلم ينفع فيه الإقناع، ولم يصلحه الترغيب، ولم يردعه الترهيب، فهو عضو في المجتمع فاسد، لا بد أن تنفذ فيه العقوبة المادية فعلاً، وهذا آخر وسائل إصلاح الفرد، وكذلك المجتمع.

ونحن نعلم أن الأفراد الصالحين يكوّنون مجموعة بشرية صالحة سامية.

وهنا تقف في وجهنا عثرة تكوين المصلح المربي، الذي يضرب المثل بنفسه في صلاحه هو، كما تتجلى فيه القدرة على التربية والتهذيب، ليكون الأسوة الصالحة، وليتسلم قيادة إصلاح الآخرين وتهذيبهم، بأقرب الطرق، وأنجع أنواع العلاج.

وإن المصلح الذي يستطيع أن يحمل أسس الإصلاح المتينة، ويؤثر بها تأثيراً فعالاً؛ هو المصلح المعصوم، الذي يتلقى نظام الإصلاح ووسائله من عالم الغيب، حتى يكون أسوة

صالحة لغيره في أفعاله، وحتى يتجنب نواحي الخطأ في إصلاح الآخرين، وفي تحديد نظام حياتهم.

وهذا هو الرسول المعصوم الذي يرسله فاطر السماوات والأرض، والعالم بنفوس خلقه وبإمكاناتهم، وبما يضرهم وبما ينفعهم، وهو بكل شيء عليم.

فلولا العصمة في السلوك: لأثرت عليه بعض دوافعه وغرائزه، فهوى وسقط في بعض الرذائل، ففقد الصفة الهامة في حياة المصلح، وهي كونه الأسوة الصالحة.

ولولا العصمة عن الخطأ في تحديد النظام الصالح، وأسلوب التهذيب ـ بوساطة تعاليم الرب تعالى الواردة من عالم الغيب ـ لهوى فكر المصلح في مئات الخطيئات، في نظامه وأسلوبه، متأثراً بعوامل النفس والشهوة، ومتأثراً بكبوات الفكر، مهما بلغ فكره من النبوغ والعبقرية، ومهما بلغت قوة إرادته في ضبط النفس.

ومن ذلك يتضح لنا أيضاً حاجة الناس إلى الرسل، المؤيدين بتأييد من عند الله.

وتتلخص حاجة الناس إلى الرسل بما يلي:

١ ـ لو تُرك الناس لأنفسهم من غير تنبيه وإرشاد لظلوا في الضلالات يتيهون، وذلك بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم وأنانياتهم، ولظلوا يتخبطون بالظلمات في أوحال المفاهيم الباطلة، والأخلاق الفاسدة، والعادات المنحرفة، والتقاليد السيئة، الملاحظة في الإنسان المتخلف عن ركب العلم والحضارة، إنسان الغابة البدائي المتوحش.

لذلك كان الناس بحاجة إلى رُسُلٍ ينبهونهم ويُرشدونهم، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته.

٢ ـ إن الناس بحسب التقويم الذي فطرهم الله عليه، قد خلقهم الله ليختبر إراداتهم، وليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولولا أنْ أرسل الله إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، لكان لهم عذر وحجة عند ربهم يوم القيامة لدى محاسبتهم على كفرهم ومخالفاتهم بأنه لم يرسل لهم من ينبههم، ويدلُّهم على الله، ويبين لهم الفضائل، ويحذرهم من الرذائل، ولقالوا لربهم يوم الحساب: يا ربنا لو أرسلت إلينا رسولاً لكنّا اتّبعناه، ولم نخالف له أمراً.

ولذلك كان الناس بحاجة إلى رسل من عند الله، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته.

٣ ـ الناس لا يستطيعون أن يتوصلوا إلى جميع الخيرات والفضائل الإنسانية والكمالات الخلقية؛ ويتفقوا عليها، لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم وأنانياتهم، تصرفهم عن الحق والخير، فتزين لهم الباطل والشر، لذلك فهم بحاجة إلى رسل من عند الله مُعَلِّمين ومبشرين ومنذرين. وعلى فرض إمكان وصول الناس بعد الاختبار والتجربة ومرور أدوار تاريخية عديدة إلى مجموعة من الفضائل الإنسانية، فإنَّهم قلَّما يستجيبون لتطبيق هذه الفضائل متى عارضت شهواتهم وأهواءهم الخاصة ما لم يخشوا العقوبة العاجلة أو الآجلة، أو يطمعوا بالمثوبة العاجلة أو الآجلة. وإن أقوم صور التربية بوسيلتي الترهيب والترغيب، هي الصور التي جاءت بها الشرائع السماوية، وبلَّغها للناس رُسُلُ الله، لأنها ترافق الإنسان أنَّى اتجَه في سرِّه وعلانيته، وتسمو به إلى مطلب السعادة الأبدية الخالدة، التي لا تُنَال إلا بمرضاة الربّ تعالى.

ومع ذلك فإن المجموعة البشرية الأولى، التي هي في أول مراحل التجربة الإنسانية، هي بحاجة ماسّة للتقويم الخلقي والسلوكي، الذي تقتضيه ضرورة التعايش بينهم على الوجه الأفضل، وهم في هذه الأدوار الأولى لا بدّ لهم حتماً من شرائع ربانية، تضعهم في طريق الإصلاح والفضيلة، وتُتمِّم لهم ظروف الاختبار والابتلاء. ولذلك كان الناس بحاجة إلى رسل معلِّمين ومبشرين ومنذرين، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته.

٤ ـ إن كثيراً من الحقائق العلمية التي لا غُنْية عنها لإصلاح الناس، وتقويم سلوكهم في الحياة، والتي يبلِّغها للناس الرسل المؤيدون من عند الله بالمعجزات؛ لا يمكن للعقل البشري أن يَتَعَرَّف عليها بنفسه بالوسائل الإنسانية العادية، ومنها الدار الآخرة، والجنة والنار وما فيها.

لذلك كان لا بد من أن يتعرف الناس عليها عن طريق المتصلين بالوحي، المطلعين على ما يطلعهم الله عليه مما في الغيوب، والمبلغين عن الله خالق الغيب والشهادة، وهؤلاء المتصلون بالوحي هم الرسل الذين اصطفاهم الله برسالاته.

ولولا الرسل الذين اصطفاهم الله لبقيت هذه الحقائق العلمية الغيبية في سجوف الغيوب؛ بحسب سنة الله في كونه، ولبقي الناس موغلين في متاهات المادية، أو غارقين في بحور من الخرافات المختَلَقة حول المغيبات.

ولذلك كان الناس بحاجة إلى رُسُلٍ معلِّمين ومبشرين ومنذرين، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته.

٥ ـ الناس بحاجة في إصلاح أفرادهم ومجتمعاتهم إلى مصلح مثالي يكون أسوة حسنة لهم.

وشخصية المصلح المثالي يجب أن تتوافر فيها: صفة القدوة الحسنة، والعصمة عن الخطأ في المبادىء والعلوم التي يهدي إليها، والعصمة عن الخطأ في الأعمال والأخلاق التي يرشد إليها ويأمر بها؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان قدوة سيئة لهم، ولانْقَلَبَ مفهوم الشر إلى خير، والخير إلى الشر.

ولا يمكن أن تتوافر هذه الصفات ـ بحسب الإحصاء البشري ـ إلا في الرسول المعصوم، المؤيد من عند الله بالمعجزات الباهرات.

ولذلك كان الناس بحاجة إلى قادة من رسل الله، يتحلون بجميع الكمالات الإنسانية، ويكونون الأسوة الحسنة لجميع الناس، ولذلك أرسل الله الرسل المعصومين عن الخطأ في تبليغ الشريعة، وعن المعصية في السلوك.

بيان القرآن حاجة الناس إلى الرسل:

وقد بيَّن القرآن الكريم المصلحة من إرسالهم، وحاجة الناس إليهم، في عدة آيات كريمات. فمنها ما يشير إلى أن من فوائد الرسالة التعريف بحقائق الدين، وأحكام الشريعة، ليقوم الناس بالعدل، كقوله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾﴾.

ومنها ما يشير إلى أن الناس لو تُركوا دون إرسال رسل، لاعتذروا عن كفرهم وفعلهم السيئات بأنهم لم يُرشدوا إلى الحق، ولم يأتهم من يدلّهم عليه، ويلفت أنظارهم إليه، مثل قوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

(٢)

وظائف الرسول ومهماته

بقليل من التأمل في معنى الرسالة وغاياتها، وبجولة في نصوص القرآن الكريم، نستطيع أن نتبيَّنَ وظائف الرسول ومهماته في رسالته، وفيما يلي أبرز هذه الوظائف والمهمَّات التي نصَّت عليها آيات من القرآن الكريم:

أولاً ـ تبليغ الشريعة الربانية للناس:

إن أول وظيفة نلاحظها من وظائف أي رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام، هي وظيفة تبليغ رسالات الله لخلقه، على الوجه الذي أمره الله به، دون تغيير أو تبديل أو كتمان أو زيادة أو نقصان.

فإن كانت نصوصاً منزلة من عند الله، فعليه أن يبلِّغها كما أُنزلت، دون زيادة حرف فيها، أو نقص حرف منها.

وإن كانت معاني أوحي بها إليه، فعليه أن يبلغها كما أوحي بها إليه، دون زيادة أو نقص في معانيها أو تغيير أو تبديل.

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الوظيفة في عدة آيات كريمات:

(أ) فمنها قوله تعالى ـ خطاباً لسيدنا محمد صلوات الله عليه ـ في سورة (المائدة ٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

(ب) ومنها قوله تعالى ـ في شأن رسله الذين خلَوْا من قبل سيدنا محمد عليهم السلام ـ في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾﴾.

ثانياً ـ تبيين معاني النصوص التي أنزلت إلى الناس:

وقد اقتضت حكمة الله العظيمة أن يجعل للنصوص التي ينزلها إلى الناس صفة الشمول والعموم والكليَّات الدستورية؛ فهي إذن بحاجة إلى بيان وتوضيح، ولذلك جعل من وظائف الرسول أن يبيِّن للناس معاني هذه النصوص المنزلة إليهم، ويوضِّح لهم مدلولاتها وإشاراتها، ليؤمنوا بما يُطلب منهم الإيمان به، ويعملوا بما يُطلب منهم العمل به، فهي المنزلة إليهم في دائرة ابتلائهم.

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الوظيفة في عدة آيات كريمات:

منها قوله تعالى ــ خطاباً لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ــ في سورة (النحل ١٦):

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فما أنزل إليهم من القرآن، فهو يُبَيّنه لهم، وأمّا ما تضمّنه القرآن من علوم ومعارف أخرى، فيستنبطها المتفكرون أهل الاستنباط منهم فيما بعد ذلك عبر القرون.

ثالثاً ــ هداية أمته إلى خير ما يعلمه لهم، وإنذار شرّ ما يعلمه لهم:

فالرسول في أمته هادٍ ومعلّم، لا يألوهم نصحاً ودلالة على الخير. وقد أوضح الرسول هذه الوظيفة فقال: «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلاّ كان حقّاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلَمُه لهم، وينذرهم شرّ ما يَعْلَمُه لهم». (من حديث طويل رواه مسلم عن عبد الله بن عمر).

رابعاً ــ تربية الناس على منهج الشريعة الربانية، وتأديبهم بآدابها:

فالرسول في قومه معلّم ومؤدب، يقوم بوظيفة تربيتهم بأقوم أساليب التربية والتهذيب.

ولذلك نلاحظ أن الله تعالى أرشد رسوله محمداً عليه الصلاة السلام إلى أقوم وسائل التربية وأساليبها في القرآن الكريم؛ ومنها الأمور التالية التي تستجمع أهم العناصر الواجب توافرها فيمن يحمل وظيفة تربية مجموعة من البشر:

(أ) الدعوة إلى الإصلاح المتجرّدة عن الغرض الشخصي:

فعنصر التجرد عن الغرض الشخصي في الدعوة إلى الإصلاح من أهم العناصر المؤثرة التي تجعل المنصفين يستجيبون لها، ويتأثرون بإرشاد الداعي ونصحه وتوجيهه فيها.

ولذلك كان الرسل عليهم السلام يعلنون تجرُّدَهم عن الغرض الشخصي بقولهم لأقوامهم: «لا نسألكم عليه أجراً».

وقد أمر الله محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقتدي بهدي الرسل السابقين، وأن يقول لقومه: «لا أسألكم عليه أجراً»، وذلك بقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

(ب) الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل الله:

ولما كانت أساليب الشدة والعنف في تربية الناس منفرة لنفوسهم، عقيمة الإنتاج، فقد أرشد الله رسله إلى اتخاذ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، في توجيههم وتعليمهم وتأديبهم، ثم التدرج بهم إلى التعنيف فالإنذار فالعقوبة.

لذلك نلاحظ أن الله أمر رُسُلَه باتخاذ الحكمة في دعوتهم، ومنها أمره سيدنا محمداً ﷺ وكلَّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل الناس بالّتي هي أحسن، وذلك في قوله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(جـ) عدم محاباة أحد في الصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومن أهم وسائل تربية الجماهير الإنسانية عدم المحاباة في الصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ووضع الناس كلهم على قدم المساواة بين يدي الدعوة. وكذلك كان رُسُلُ الله، لا يفرقون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين قريب وبعيد، بل كانوا يبدؤون بالأقربين يأمرونهم وينهونهم وينذرونهم، ويشهد لهذا قول الله لرسوله في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

(د) القدوة الحسنة:

ومن أهم شروط التربية المؤثرة كون المربي في ذاته وأخلاقه وأعماله قدوة حسنة؛ ملتزماً جميع ما يأمرهم به، ومجتنباً جميع ما ينهاهم عنه، وإلّا كان القوم في شك من دعوته وأوامره ونواهيه، ولم يكن لدعوته أثر فعال في نفوسهم، ولا أثر تطبيقي في سلوكهم.

ولذلك قال سيدنا شعيب لقومه فيما حكى الله عنه في سورة (هود ١١):

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

ولَمّا كان سيدُنا محمد ﷺ متحققاً بوصف القدوة الحسنة على أكمل ما يمكن أن تُتَصوَّر قدوةٌ حسنة؛ فقد شهد الله له بها، فقال الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

خامساً ـ قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية:

فالرسول في قومه قائدهم وزعيمهم، ورئيسهم وحاكمهم، وقاضيهم ومدبر سياستهم الدينية والدنيوية.

ولذلك أمر الله أتباع كل رسول بطاعة رسولهم، وجعل طاعتهم للرسول جزءاً من طاعته سبحانه، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

أما كون الرسول حاكماً وقاضياً في أمته، فتشهد له نصوص كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

سادساً ـ الشهادة على الأمة بأنه بلّغ إليهم الرسالة، وأدّى الأمانة، وقدّم واجب النصيحة:

ولما كان الرسول مبلغاً ومبيّناً، ومربّياً وقائداً، حُق له أن يكون شاهداً على أمته يوم القيامة، بأنهم سمعوا تبليغه لشرائع الله وأحكامه، وسمعوا بيانه للنصوص الربانية، وأن يكون شاهداً لمن آمن به وأطاع، وشاهداً على من خالفه وعصى.

وقد بيّن الله تعالى هذه الوظيفة من وظائف الرسل، فقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ووظيفة الشهادة هذه يقوم بها أيضاً أتباع الرسول، الذين بلّغوا رسالته للناس في عصره، وللأجيال من ورائه، وفي ذلك يقول الله تعالى في حق أمة محمد صلوات الله عليه في سورة (البقرة ٢):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾.

(٣)
مقارنة بين النبوّات والعبقريات

ولقد ظهر في البشر عباقرة في مختلف نواحي العبقرية، ولكن لكلّ عبقري ـ مهما سما في آفاق العبقرية ـ سقطات خلقية تجعله غير صالح لأن يؤتسى به في كل شيء، ويكون المثل الأعلى.

كما أن لكل عبقري كبوات فكرية تجعل أنظمته ومبادئه عرضة للاعتراض والنقد، بسبب بُعْدِها عن وجه المصلحة، ومخالفتها لمجموعة الطبائع الإنسانية، باعتبار أن واضعها متأثر بوجهة نظر خاصة، من خلال مزاجه الخاص، دون أن يدرس نفوس الآخرين وأمزجتهم، أو يقدر على الإحاطة بها، ومن ثمّ تكون أنظمته غير موثوق بها ثقة كاملة دائمة بوصفها نظم حياة صالحة لمجموعة بشرية.

أما الأنبياء ـ فباعتبار أن مصدر علمهم ونُظُمهم وحي من عند الله فاطر السماوات والأرض، وخالق الإنس والجن ـ فتعاليمهم معصومة عن الخطأ والزلل.

يضاف إلى ذلك أن العبقرية إنما تكون في ناحية خاصة، فلم يوجد العبقري الذي يتفوّق في كلّ جوانب الحياة الإنسانية.

(٤)
مقارنة بين ما تأتي به النبوات وبين ما تأتي به الفلسفات

إذا أمعنا التأمل في نظريات الفلاسفة، ومذاهب أهل الفكر، حول الكون وتكوين نفس الإنسان، وحول الأمور التي تتصل بما وراء المادّة، وجدنا في أكثرها تناقضاً وتهافتاً، ومخالفة

للواقع، باعتبار أنها فلسفات لا تعتمد على منطق رياضي أو تجريبي، ثم لا نكاد نرى وحدة في وجهات النظر الفلسفية بين الفلاسفة.

لكننا لا نجد شيئاً واحداً ــ مما يثبت وروده بطريق قطعي عن أي نبي أو رسول من رسل الله عليهم السلام ــ يخالف الواقع بعد مرور العصور، وبعد إمكان كشف ما تحدَّث الرسول به من الغيوب في زمانه، وذلك حينما يصبح من الأمور التي يمكن اتصالنا بها عن طريق الحس.

كما أنَّنا لا نجد أي اختلاف في الأصول الاعتقادية، وفي الأسس العلمية، بين الأنبياء والرسل، وإنما نرى وحدة في المعارف التي أَتَوْا بها، والاعتقادات التي نادوا بالإيمان بها من أمور الغيب.

ذلك أن بحوث الفلاسفة في أمور الغيوب ضروب من الحدس والتخمين، والاستدلالات الخطابية والشعرية، التي لا تعتمد على برهان سليم، فهي قد تصدق وقد تكذب.

بينما علم الأنبياء وحي من السماء، وعن مصدر صحيح ثابت، معتمد على علم مَنْ خلق وصوَّر، وهو بكل شيء عليم.

ومما تقدم تبين لنا أن مهمة الرسول لا يمكن أن تأتي عن طريق العباقرة، ولا عن طريق الفلسفات، وأنها تحمل أخباراً عن كثير مما هو داخل في عالم الغيب مما يرتبط به إصلاح الناس، كالبعث والحساب، والجنة والنار، مما لا سبيل إلى إثباته إلا عن طريق المتَّصِلين بعالم الغيب، وهم الرسل. كما تحمل بياناً للصراط المستقيم الذي يُحدِّد سلوك الناس في حياتهم، ليتعاملوا بالقسط، وينالوا السعادة في الدنيا وفي الآخرة.

(٥)
لِمَ لَمْ يكن البشر بحاجة إلى أنبياء يحملون للناس المعارف والعلوم الكونية؟

ولم يكن البشر بحاجة إلى رسل من عند الله يحملون للناس المعارف الكونية، لأن هذه المعارف وسيلة لإصلاح مظاهر دنياهم، وسعيُهم لتحصيلها مما يرضي جمهور غرائزهم النفسية، باعتبارها علوماً تخدم اللذة أو السلطة أو التملك، أو نحو ذلك من غرائزهم بشكل مباشر،

فهم لا شكَّ سيسعَوْن لتحصيلها دون أن يُدْعَوْا إلى ذلك أو يُلَقَّنوه، وعندهم من الوسائل الإنسانية ما يمكن أن تكشفها لهم.

أما العلوم الدينية التي يأتي بها رسل الله، ففيها الأسس الكبرى لإصلاح أخلاق الناس، وكبح جماح نفوسهم، كما فيها القوانين والنظم التي تُقَيِّد حرِّيات غرائزهم وشهواتهم.

وقد تبين لنا مما سبق أن ما يأتي به الرسل على قسمين:

- **القسم الأول**: ما قد يمكن الوصول إلى متفرقات منه بالبحث والتفكير والتجربة، وهذا القسم نجد الدافع إليه في نفوس الناس ضعيفاً، كما نجد عوامل الصرف عنه كثيرة وقوية، بالنظر لما فيه من تكليف وتقييد لشهوات الفرد والمجتمع.

- **القسم الثاني**: العبادات والأمور الغيبية البحتة، كأمور الآخرة والجنة والنار، وهذا القسم لا يمكن للفكر البشري أن يتوصَّل إلى معرفته على وجه الحقيقة استقلالاً بطريق قاطع.

ولذلك كان لا بدَّ للناس من التعرف على كلٍّ من القسمين عن طريق رسل الله، وأخبارهم الصادقة كما سبق، حتى يتم للمجتمع الإنساني معرفة ما يصلح أنفسهم، ويهذب مجتمعهم، وينظم معاشهم، ويضبط سلوكهم، ويسعدهم سعادة تامة في الدنيا دار الفناء والابتلاء، وفي الآخرة دار البقاء والجزاء.

□ □ □

الفصل الثالث

دلائل الرّسالة

متى يجب الإيمان بالرسل؟

إذا ثبت لدينا بدليل قاطع أن واحداً من البشر رسول من عند الله، يبلِّغ ما أمره الله بتبليغه للناس، وجب علينا الإيمان به، ووجب علينا اتباعه، والائتمار بأمره والانتهاء عما نهى عنه، في حدود شروط رسالته، وشروط العمل بها.

فليس كل إنسان يدّعي النبوة أو الرسالة نسلِّم له دعواه فيها، حتى تتوافر فيه شروط صدقه.

ونستطيع أن نستدل على صدق الرسول في دعواه النبوة والرسالة، بواحد من أمور أربعة:

الأمر الأول : جوهر الرسالة التي يحملها.

الأمر الثاني : شخصية الرسول وأخلاقه وسلوكه التي تتسم بسمات الكمال الإنساني.

الأمر الثالث : إخبار الرسل السابقين بصفاته وانطباقها عليه تماماً.

الأمر الرابع: المعجزة التي يجريها الله على يديه المقترنة بالتحدي.

وفيما يلي شرح لهذه الأمور الأربعة:

(١)

الاستدلال بجوهر الرسالة على صدق الرسول

إن أيَّ إنسان ينظر بإمعان العاقل المنصف فيما جاء به ــ مثلاً ــ نبينا ورسولنا محمد ﷺ من دعوة التوحيد، ومن بيانٍ لأصول العبادات، ونظم المعاملات، ومناهج الأخلاق، ومبادىء السياسة، ثم يراقب موافقتها لمصالح الناس وسعادتهم في شتى مطالب حياتهم، ويرى أن كل جزئية فيها موافقة للحق بلا مرية، فلا تهافت في نصوص دعوته، ولا ضعف في أصول شريعته ولا فروعها، علماً بأن ما يأتي به أي إنسان ــ بالغاً ما بلغت فيه العبقرية ــ أو أية

جماعة في مؤتمر تشريعي ـ بالغاً ما بلـغ بهم التجرُّد والإنصـاف ـ لا يخلو من شيء من الضعف والنقص، والجهل والباطل والتهافت.

إنَّه متى أمعن في جوهر هذه الرسالة بفهم وإنصاف، فسيجد أن مصباحاً من المعـرفة قـد أضاء في قلبه، فيؤمن بلا تردُّد أن صـاحب هذه الـرسالـة رسول من عنـد الله الحكيم العليم، الذي يحيط بكل شيء علماً، فلا يصدر عنه إلا الكمال المطلق.

فجوهر رسالة محمد صلوات الله عليه، وكمال أصولها وفروعها، شاهد عظيم على صدق أنه رسول الله.

ونستطيـع من خلال طائفة من النصوص القرآنية، أن نتلمس أن جوهر رسالـة الرسـول الكاملة، شاهد ظاهر من شواهد صدق الرسول في دعواه الرسالة، ومن هذه النصوص ما يلي:

١ ـ نادى الله الناس أن يؤمنوا بالرسول، متحققين صدقه من خلال مـلاحظتهم للحق الذي جاء به من عند ربهم، فقال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ ﴾.

٢ ـ وجّه الله بشدَّة إلى تـدبّر القـرآن، لأن تدبّـره يَهدي إلى أنـه حق في كلّ جـزئية من جزئياته، وهذا يدلّ على أنه من عند الله، لأنه لو كان من كلام الإنسان لاشتمل عـلى اختلاف كثير، ومفارقات ظاهرة بينه وبين الحق، ولمَّا كـان محمد ﷺ هـو المبلِّـغ لهذا القرآن، كان ذلـك دليلاً على أنه رسول الله يبلِّـغ عنه كلامه. فبعد أن قال الله لرسوله في سورة (النساء ٤):

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ ﴾.

وبعد أن جعل طاعة الرسول طاعة له، قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾.

فدلّ بهذا على أنّ القرآن شاهد من عند الله على صدق رسالة الرسول محمد ﷺ.

٣ ـ بينَّ الله صفة أولي الألباب الذين أعلنوا إيمانهم بالرسـول الذي نـاداهم إلى الإيمان والحق، وبادروا إلى ذلك مذ عرفوا أن جوهر رسالة محمد ﷺ حق لا مـرية فيـه، قـال تـعـالى حكاية لقولهم في سورة (آل عمران ٣):

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

٤ ــ أمر الله سيدنا محمداً ﷺ أن ينادي الناس بأنه رسول الله إليهم جميعاً، وأن يبين لهم أن جوهر رسالته إيمان بالله الذي له ملك السماوات والأرض، والذي لا إلّه إلا هو، والذي يحيي ويميت. ثم التفت الله إلى الناس فأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسوله النبي الأمي، لافتاً نظرهم إلى أن هذا الرسول فرد مثلهم يؤمن هو أيضاً بالرسالة التي يحملها إليهم، فيؤمن بالله وكلماته، لذلك فعليهم أن يتَّبعوه ليهتدوا. وذلك في قوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

٥ ــ أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة الحق، التي هي سواء بين جوهر رسالته وجوهر رسالات موسى وعيسى وسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

(٢)

الاستدلال بشخصية الرسول وأخلاقه وسلوكه على صدقه

لدى دراسة شخصية أيّ رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام، نلاحظ شخصيةً فذَّة غير عادية، لا نجد نظيرها إلا في زمرة الأنبياء الذين اصطفاهم الله بوحيه ورسالاته، ذلك أن شخصيَّة الرسول مصونة بالعصمة الربانية من جميع جوانبها، ومتصفة بصفات الكمال الإنساني، في خُلُقه وسلوكه، وعصمته عن الخطأ في بيان حدود الصراط المستقيم لعقائد الناس وعباداتهم، وأخلاقهم ومعاملاتهم.

ولدى دراسة شخصية أيّ إنسان آخر ليس من أنبياء الله ورسله ــ مهما كان هذا الإنسان عبقريّاً، أو فيلسوفاً، أو ذا خلق كريم، أو صاحب سلوك حسن ــ فإنه لا بد أن يظهر لنا سقوطه الفاضح في ناحية من نواحي خلقه أو سلوكه، أو في جانب من جوانب عبقريته أو فلسفته.

فمن خلال ملاحظتنا لعصمة الرُّسُل، وبلوغهم مرتبة الكمال الإنساني، التي لا يصل إليها بحسب الإحصاء البشري إلا الرسل عليهم السلام، يتضح لنا بجلاء أن من اتّصف بهذه الصفات السامية، وهذه الكمالات المحاطة بالعصمة، لا بد أن يكون صادقاً في دعواه الرسالة.

أمثلـة:

١ ــ نزل الوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء أول ما بُدىء به من الوحي، وكان لنزول الوحي وقع ثقيل على نفسه، فرجع إلى زوجه خديجة يرجف فؤاده، وقال: زمّلوني، زمّلوني، فزمّلوه. حتى إذا ذهب عنه الروع قال: يا خديجة مالي؟ وأخبرها خبر ما رأى، وقال لها: قد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: (كلّا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتَصِل الرَّحِم، وتصدُقُ الحديث، وتحمل الكَلّ، وتُكسِب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتُعِين على نوائب الحق)[1].

فاستدلت خديجة رضي الله عنها من خلال كمال صفاته التي تعرفها فيه على أن الله لا يخزيه أبداً، وما هذه الحادثة التي رآها في غار حراء إلا مظهراً من مظاهر كرامة الله له واصطفائه، ومقدمة لرسالته، ولذلك حينما أمر رسول الله ﷺ بالتبليغ كانت رضي الله عنها أول من آمن به. فكمال أخلاقه وسمو صفاته شاهد صدقه.

٢ ــ لم يَحْتَجْ أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أدلة تدلّه على صدق الرسول محمد ﷺ حين دعاه إلى الإسلام؛ غير ما يعرفه سابقاً من شخصيته المثالية المؤهّلة لأن يصطفيَه الله برسالاته. فقد كان في قومه صادقاً أميناً عفيفاً، عظيم الأخلاق عالي الفطرة، ولذلك كان أوّل من آمن به من الرجال، واستجاب لدعوته دون أن يطالبه بتقديم براهين على صدق رسالته.

٣ ــ بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام؛ فقالوا: يا خالد صف لنا محمداً، قال: بإيجاز أم بإطناب؟ قالوا: بإيجاز، قال: هو رسول الله، والرسول على قدر المُرسِل.

فقد سأل هذا الحيُّ من أحياء العرب عن صفات رسول الله، ليستدلوا منها على صدق نبوته.

---

(١) الحديث رواه البخاري في أوائل كتاب بدء الوحي، انظر الفتح الحديث رقم (٣)، وأطرافه في (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ــ باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ــ.

٤ ـ صعِد النبي ﷺ على الصفا، ونادى بطون مكة: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني فلان، ـ وعند البخاري عن ابن عباس: يا بني فهر، يا بني عديّ ـ فلما اجتمعوا إليه، قال لهم:

«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جَرَّبْنا عليك إلّا صدقاً، فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». «رواه البخاري»[1]

فآمن به فريق، وأصر على العناد فريق آخر، وكان دليل المؤمن صفات الرسول السامية ـ بعد أن نبههم الرسول في مقدمة حديثه معهم على صدقة، الذي هو بعض أخلاقه العظيمة صلوات الله عليه ـ والتي يعرفونها فيه، وبعد أن أخذ إقرارهم على ذلك.

٥ ـ جاء في خبر الجُلَنْدَى ـ ملك عُمان ـ أنه لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام؛ قال الجُلَنْدَى: والله لقد دلَّني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلِب فلا يبطر، ويُغلَب فلا يضجر، ويفي بالعهد، ويُنْجِز الموعود، وأشهد أنه نبي.

٦ ـ لّما دعا العلاءُ بن الحضرمي المنذرَ بن شاوَى أمير البحرين قال له: (يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغُرَنّ عن الآخرة، إنّ هذه المجوسيَّةَ شرّ دين، ليس فيها تكرّم العرب، ولا علمُ أهل الكتاب، ينكحون ما يُسْتَحيا من نكاحه، ويأكلون ما يُتَنزَّه عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة. ولستَ بعديم عقل ولا رأي، فانظر: هل ينبغي لمن لا يكذِب في الدنيا ألّا تصدِّقه؟! ولمن لا يخون ألّا تأمنه؟! ولمن لا يُخلِفُ ألّا تثق به؟! هذا هو النبي الأميّ الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه، أو نقص من عقابه، إذ كلّ ذلك منه على أمنيّة أهل العقل، وفكر أهل النظر).

وقد أسلم المنذر بعد أن قدّم له العلاء بن الحضرميّ الدليل على صدق الرسول من وجهين.

الأول: شخصية الرسول المثالية.

الثاني: كمال الرسالة التي يدعو الناس إليها.

٧ ـ ويمكنك أن تجد عدة شواهد لهذا في قصة استدعاء هرقل لأبي سفيان والركب الذين كانوا معه؛ إذ كانوا تجاراً في الشام، وسؤال هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ ـ ولم يكن أبو سفيان قد أسلم ـ، ثم ما استنبطه هرقل من أجوبة أبي سفيان حول صفات الرسول

---

(١) انظر فتح الباري الحديث (٤٧٧٠).

صلوات الله عليه من أنه نبـي صادق حقاً، حتى قال هرقل في آخر كـلامه لأبـي سفيـان: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضـع قدميَّ هاتين[1].

وإن أردت مزيداً من هذا، فارجـع إلى السيرة النبوية تجد فيها كثرة كاثرة من الأمثلة.

---

(١) وإليك هذه القصة بتمامها:
أخرج الشيخان عن ابن عباس: أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسـل إليه في ركب من قـريش ـ وكانـوا تجاراً بالشام ـ في المدة التي كـان رسول الله ﷺ مـادَّ فيها أبـا سفيان وكفـار قريش، فـأتوه وهم بـإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الـرجل الذي يزعم أنه نبـي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنـا أقربهم بـه نسباً، فقـال: أدنوه مني وقـرّبوا أصحـابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هـذا عن هذا الـرجل، فـإنْ كذبني فكـذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكـذبت عنه. ثم كـان أول ما سـألني عنه أن قـال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القـول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قـال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بـل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينـه بعد أن يـدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـول ما قـال؟ قلت: لا. قال: فهـل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها ـ قال: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هـذه الكلمة ـ قال: فهـل قاتلتمـوه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كـان قتالكم إيـاه؟ قلت: الحرب بيننـا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه. قال: بمـاذا يأمـركم؟ قلت: يقول: اعبـدوا الله وحده ولا تشـركوا بـه شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصـلاة والزكـاة والصدق والعفـاف والصلة. فقال للتـرجمان: قـل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هـل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرتَ أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتـي بقول قيل قبله. وسألتك: هل من آبائه من ملك؟ فذكرتَ أن لا، قلت: فلو كـان من آبائـه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقـد أعـرف أنه لم يكن ليـذر الكذب عـلى الناس ويكـذب عـلى الله. وسـألتـك: أشـراف النـاس اتبعـوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكـرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ. وسـألتك: أيـرتد أحـد سخطة لـدينه بعـد أن يدخـل فيه؟ فذكرتَ أن لا، وكذلك الإيمـان حين تخـالط بشاشتـه القلوب. وسألتـك: هل يغـدر؟ فذكـرت أن لا، وكـذلـك الـرسـل لا تغـدر . وسـألتـك : بمـا يـأمـركم ؟ فـذكـرت أنـه يـأمــركم أن تعبـدوا الله ولا تشـركوا بـه شيئاً ، وينهـاكم عن عبادة الأوثـان ، ويأمـركم بالصـلاة والصـدق والعفـاف ؛ فـإن كـان ما تقول حقاً فسيملك موضـع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنـه خارج ولم أكن أظن أنـه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بُصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عـظيم الروم. . . سـلام على من اتَّبـع الهـدى، أما بعـد: فإني أدعـوك =

(٣)

الاستدلال بأخبار الرسل السابقين بصفاته وانطباقها عليه تماماً

إننا نعلم أن جميع المرسلين عليهم السلام إخوة، رسل مُرسِل واحد، برسالة توحيد واحدة. وإن من تمام رسالة كل رسول منهم أن يؤمن بمن سبقه من رسل الله، وبما أُنزل عليهم من كتاب، وأن يدعو قومه إلى الإيمان بما آمن به. كما أن من تمام رسالته أن يدعو قومه إلى الإيمان بكل رسول صادق يأتي من بعده؛ إن لم تكن رسالته هو خاتمةَ الرسالات السماوية.

وإذْ أراد الله أن يختم رسالات السماء برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، ويجعلها عامة للناس، فقد بَشَّر برسالته في كتب الديانتين اليهودية والنصرانية، ليحث أتباعهما على اتّباع رسالة محمد متى بعثه الله، وليجعل في كتبهم حجة عليهم إذا هم أخذتهم العصبية، أو حَجَبَهُمْ حسدُهم للأمة التي سيجعل منها هذا النبي.

وقبل بعثة محمد ﷺ كان أهل الكتاب ــ من يهود ونصارى ــ منتظرين ظهور نبي يختم الله به النبوات؛ يأتي برسالة عامة للناس، شاملة للشرائع، لأنَّ كتبهم قد بشّرت به ونوّهت بصفاته.

وكان اليهود في الجزيرة العربية يدعون الله أن يفتح عليهم بالنبي المنتظر، حتى يَتّبعوه، ويُقَاتلوا العرب الوثنيين معه، لأنهم يعلمون أن الله سيكتب له النصر والفتح، وكانوا يقولون: إنَّ الله سيبعث النبي المنتظر، فيكونون أول من يَتّبعه، ثم يقاتلون معه العرب، فيكون لهم بسببه النصر والغلب.

ولما لم يأتِ هذا النبي الموعود به من بني إسرائيل بل جاء من العرب أولاد عمهم إسماعيل عليه السلام، حسدوهم فكفر به كثير منهم بغياً من عند أنفسهم، وهم يعلمون صدق رسالته، بشهادة صفاته المنوّه بها في كتبهم. وقد بينَّ القرآن حقيقتهم هذه، بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

= بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم البريسين، و ﴿يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم: أن لا نعبدَ إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؛ فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمِر أمْرُ ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر، حتى أدخل الله عليَّ الإسلام. انتهى (من كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي).

وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، الحديث (٧). وصحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الجهاد والسير ــ باب: كتب النبي ﷺ ــ.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

فقد كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يستفتحون على كفار العرب، أي: يستنصرون عليهم، إذ يدعون الله أن يرسل إليهم الرسول المنتظر الذي يتّبعونه، فينتصرون به على المشركين، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ومما سبق يتضح لنا أن من كان مؤمناً بالديانة اليهودية، أو بالديانة المسيحية، واطّلع على البشائر الواردة في التوراة وسائر كتب العهد القديم وفي الإنجيل، التي تنوّه ببعثة محمد خاتم النبيين، وتبيّن صفاته المميزة، ثم يجد هذه الصفات منطبقة كل الانطباق على محمد صلوات الله عليه، يرى نفسه مسوقاً بالضرورة إلى التسليم بأنه رسول الله حقاً، ثم لا يَحْجُبُهُ عن الإيمان به إلاّ عصبية ممقوتة، أو حسد ذميم، أو خوف على منافع ومناصب.

ولذلك نرى القرآن يكشف حقيقة العلماء من أهل الكتاب، بأنهم يعرفون أن محمداً رسول الله معرفة تامةً، من خلال صفاته المكتوبة عندهم في بشائر النبي المنتظر.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وتعهّد الله بأن يكتب رحمته التي وسعت كلَّ شيء لأهل الكتاب الذين يؤمنون بمحمد ﷺ بدلائل البشائر الموجودة في كتبهم؛ فقال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

وعلى الرغم من كلّ التحريفات التي اصطنعها الأحبار والرهبان في التوراة والإنجيل؛ فقد بقي في نسخ التوراة والإنجيل حتى الآن كثير من هذه البشائر، وإن كان أهل الكتابين ممن لم يدخل في الإسلام، يكابر في تطبيقها على محمد عليه الصلاة والسلام، وزاد الإنجيل على

التنويه بصفات محمد، فقد ذكر اسمه المشتق من معنى الحمد.

وقد صرَّح القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام بشَّر برسولٍ يأتي من بعده اسمه أحمد؛ فقال الله تعالى في سورة (الصف ٦١):

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

أمثلة من التوراة والإنجيل تتضمن البشارة بمحمد ﷺ:

وقد تتبع علماء الإسلام بمساعدة من أسلم من علماء اليهود والنصارى نسخ التوراة والزبور والإنجيل؛ فوجدوا فيها نحواً من ثماني عشرة بشارة.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في نسخ الإنجيل ـ وفق الترجمات العربية ـ أن اسم النبي المبشر به: «فارقليط»؛ وهذا اللفظ تعريب للّفظ اليوناني الموجود في الإنجيل بالترجمة اليونانية، واللفظ اليوناني: «بيركلوطوس»، ومعنى هذه الكلمة في اليونانية قريب من معنى محمد وأحمد. وأما اللفظ العبراني ـ الذي هو أصل هذه الألفاظ ـ فمفقود، باعتبار أن النسخ العبرية[1] الأساسية للإنجيل مفقودة، كما سيأتي تفصيل ذلك في بابه.

وإليك شاهداً من إنجيل يوحنا يتضمن التبشير «بالفارقليط» وفق الترجمة العربية[2].

في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا:

(١٥) إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد.

(٢٦) والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي، هو يعلّمكم كلَّ شيء، وهو يذكر لكم كل ما قلته لكم.

(٣٠) والآن قد قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنون.

---

(١) وقيل: إن الإنجيل نزل بالسريانية.

(٢) نقلاً من كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت. قال: وأنا أنقل عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ في بلدة لندن.

وفي الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا هكذا:

(٢٦) فأما إذا جاء **الفارقليط** الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق هو يشهد لأجلي (٢٧) وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء.

وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا:

(٧) لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأني إن لم أنطلق لم يأتكم **الفارقليط**، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم.

«والفارقليط» ــ كما قدمنا ــ تعريب للفظ اليوناني: «بيركلوطوس»، قريب من معنى: «محمد وأحمد».

وإليك شاهداً آخر من نسخ التوراة الحالية[١]:

في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء:

(جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار).

فسيناء: محل مناجاة موسى باتفاق. وساعير: هو المكان الذي ظهرت فيه نبوة عيسى، لأن عيسى عليه السلام كان يسكن في قرية الناصرة من أرض الجليل في ساعير، وهذا محل اتفاق أيضاً.

وأما فاران: فهي مكة، وليس في هذا خلاف قوي بين المسلمين وأهل الكتاب، ففي التوراة تصريح بأن الله أسكن هاجر وإسماعيل فاران.

ففي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في بيان قصة إسماعيل عليه السلام:

(٢٠) وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي بالسهام (٢١) وسكن برية فاران.

ومعلوم أن إسماعيل سكن في مكة، ففاران اسم عبري لمكة.

وبهذا نرى: أن التوراة تحدثت عما جرى فعلاً لموسى من مناجاة الله له وإنزال التوراة عليه في سيناء؛ وأخبرت عما سيكون من إشراق الله بإنزال الإنجيل على عيسى في ساعير؛ وعما سيكون من استعلان الله ببعث محمد وإنزال القرآن عليه في جبال فاران، وقد رأينا حقيقة مظهر الاستعلان والقوة في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) عن كتاب «إظهار الحق». وقد أخذ هذه النصوص من الترجمة العربية المطبوعة في ١٨٤٤ كما ذكر.

وأما «إنجيل برنابا» ففيه بشارات كثيرة وصريحة واضحة باسم محمد وأحمد، ولكن هذا الإنجيل لا يعترف به معظم النصارى، وقد عثر على أول نسخة منه في سنة ١٩٠٧ مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا[١].

ولظهور البشائر بمحمد عليه الصلاة والسلام في كتب أهل الكتاب، فقد آمن كثيرون من يهود ونصارى في صدر الإسلام الأول، وفي عصور التاريخ الإسلامي حتى عصرنا هذا.

كما اعترف كثير منهم في نفسه ولسانه، ولكن حجبه عن إعلان الإيمان والإسلام عصبية أو بيئة أو مطامع.

مما جاء في كتب الديانات الأخرى:

جاء في كتاب (البارسي) المقدس (دساتير ١٤) مترجمة أصلاً عن البهلوية: «عندما ينحدر الفارسيون إلى الحضيض الخلقي، سيولد رجل في الجزيرة العربية، يزلزل أتباعه عرشهم ودينهم وكلَّ شيء لديهم، وسيغلب جبابرةَ الفرس المتغطرسين، وإن البيت المعمور ـ أي الكعبة ـ الذي يضم كثيراً من الأصنام، سيُطهَّر من هذه الأصنام، وسيصلي الناس متجهين إليه، وسيستولي أتباعه على مُدُن بارسيس، وتاوس، وبلخ، والمواقع الكبرى المحيطة بها. سيختلف الناس كثيراً بشأنه، أمّا عقلاء فارس فسينضمّون إلى أتباعه»[٢].

أمثلة تاريخية من إيمان كثير من اليهود والنصارى بدلائل البشارات بمحمد في كتبهم:

وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

١ ـ في يوم غزوة أحد جاء حبر من أحبار يهود المدينة اسمه مُخَيْرِيق ـ وكان أحد بني ثعلبة بن الفِطْيَوْن[٣] ـ إلى قومه فقال لهم: يا معشر اليهود، والله لقد علمتم أنّ نصر محمد

---

(١) ذكر الراهب اللاتيني فرامينو أنه عثر على رسائل لإيريانوس، وفيها رسالة يندد فيها بما كتبه بولس الرسول، ويسند تنديده إلى إنجيل برنابا، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن إنجيل برنابا، وقد وصل إلى مبتغاه لما صار أحد المقربين إلى البابا سكتس الخامس، وأنه عثر على ذلك الإنجيل في مكتبة هذا البابا فأخفاه بين أردانه، وطالعه، (فاعتنق الإسلام). يقول الدكتور سعادة: وإذا تحريت التاريخ وجدت أن زمن البابا سكتس المذكور نحو مغيب القرن السادس عشر. (راجع كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة).

(٢) من كتاب «لماذا أسلمنا» نشر رابطة العالم الإسلامي ص ١٧٦.

(٣) الفِطْيَوْن: كلمة عبرانية، وهي عبارة عن كل مَنْ وَلِيَ أمر اليهود وملكهم، كما أن النَّجاشي: عبارةٌ عن

عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدَّته وقال: إن أُصبت فمالي لمحمدٍ يصنع فيه ما يشاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ، فقاتل معه حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ: «مُخَيْريق خير يهود».

٢ ـ أرسل النبي ﷺ كتاباً إلى النجاشي ملك الحبشة دعاه فيه إلى الإسلام، وهو أحد الكتب التي أرسلها الرسول إلى ملوك العرب وملوك البلاد المجاورة للبلاد العربية إذ ذاك.

وقد حمل هذا الكتاب إلى النجاشي جعفر بن أبي طالبٍ ابن عم الرسول، ولما وصل إليه وعلم النجاشي مضمون كتاب رسول الله إليه قال: (أشهدُ بالله إنه للنبيِّ الذي ينتظره أهل الكتاب).

وقد كان النجاشي نصرانياً نسطورياً ـ ومذهب نسطور قائم على التوحيد وينكر ألوهية المسيح ـ، ثم كتب إلى الرسول جواب كتابه إليه، فكان فيما كتبه إلى النبي ﷺ ما يلي:

(فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدَّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين)(٢).

كل من ملك الحبشة، وأن خاقان: عبارة عن كل من ملك الترك، وهكذا.

ومخيريق هذا: كان حبراً عالماً، كثير المال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته في التوراة، حتى إذا كان يوم أُحد هدى الله قلبه للإسلام. انظر «سيرة ابن هشام» وكتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي.

(٢) نص كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة: سِلْم أنت، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقِرَّهم، ودع التجبّر. فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلَّغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتَّبع الهدى).

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه، ونزل عن سريره، فجلس على الأرض ثم أسلم، وكتب الجواب للنبي ﷺ وهذا نصّه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إلّه إلاّ هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثْتَ به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدَّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وأرسلت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلاّ نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله).

فكان سبب إيمان النجاشي بمحمد عليه الصلاة والسلام معرفة صفاته من الإنجيل، وانطباقها عليه.

٣ ـ في جواب كتاب الرسول إلى ملك القبط في الإسكندرية، كتب المقوقس إلى النبي ﷺ ما يلي:

(بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه بالشام، وقد أكرمتُ رسولك).

وأهدى الرسولَ ﷺ أصنافاً من الهدايا، أرسلها مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكان هذا الصحابي هو الذي حمل كتاب الرسول إليه.

فإن المقوقس قد اعترف في كتابه للرسول بأنه يعلم أنَّ نبياً قد بقي، وهذا يشهد عليه بصدق محمد رسول الله ﷺ، ولو لم يعلن إيمانه ودخوله في الإسلام[1].

٤ ـ أخرج ابن سعد عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المِدْراس ـ أي: المدرس، وهو موضع يقرأ فيه أهل الكتاب من يهود ـ فقال: أخرجوا إليَّ أعلمكم فقالوا: عبد الله بن صوريا. فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله به عليهم وأطعمهم من المنّ والسلوى، وظلّلهم به من الغمام، أتعلم أني رسول الله؟ قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبيَّنٌ في التوراة، ولكنهم حسدوك، قال: فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، وعسى أن يتّبعوك ويسلموا فأُسْلِم[2].

---

(١) معنى المقوقس باللغة القبطية: مطوَّل البناء، وهذا لقب كل من ملك مصر. وكان اسم هذا المقوقس: «جُرَيج بن ميناء».
أما نص كتاب الرسول إليه فهو:
(بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط... سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط، ﴿يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم: أن لا نعبدَ إلاَّ الله، ولا نشركَ به شيئاً، ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾.
وهذا الكتاب محفوظ بدار آثار في الأستانة، قيل إنه عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم، في زمن سعيد باشا.

(٢) عن «الخصائص الكبرى» للسيوطي.

٥ ــ قــدم الجــارود بن العــلاء ــ من علماء النصــارى ــ مــع وفــد من قــومــه إلى رسول الله ﷺ؛ فقال للرسول صلوات الله عليه: (والله لقد جئتَ بالحق، ونـطقتَ بالصـدق، والـذي بعثك بـالحق نبياً: لقـد وجدت وصفـك في الإنجيل، وبشر بـك ابن البتـول، فـطولُ التحيةِ لك، والشكرُ لمن أكرمك، لا أثر بعد عين، ولا شك بعد يقين، مُدَّ يدك فأنـا أشهد أن لا إلّـه إلَّا الله وأنك رسول الله).

ولما أعلن إسلامه أسلم معه قومه[1].

٦ ــ عبـد الله بن سلام ــ وقـد كان من أحبـار اليهود، وأعلمهم بـالتوراة ــ لما سمـع بمقدم الرسـول ﷺ المدينة؛ جاء إليه وسأله عن مسائل ثلاث، وقـال له: لا يعلمهن إلَّا نبـي، فـأجابـه الـرسـول عنهـا، فقـال عبـد الله بن سـلام: «أشهـد أن لا إلّـه إلَّا الله وأنـك رسـول الله. يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهُت[2] ــ أي: كذّابون يقولون على المرء ما ليس فيه ــ وإنهم إن يعلمـوا بإسـلامي من قبل أن تسـألهم يبهتوني. فجـاءت اليهود فقـال رسول الله ﷺ: «أي رجلٍ عبد الله فيكم»؟ قالوا: خيرُنا وابن خيرِنا، وسيّدنا وابن سيدنا، فقال: «أرأيتم إن أسلم عبـد الله بن سـلام»؟ قَـالوا: أعـاذه الله من ذلك، فخـرج عبـد الله فقـال: أشهـد أن لا إلّـه إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شرّنا وابن شرّنا، فـانتقصوه. فقـال عبد الله بن سـلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله!

(من حديث رواه البخاري)[3]

---

(١) عن كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي.
وفي سيرة ابن هشام ما يلي:
(قال ابن إسحق: وقدم على رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو بن حنش أخو عبد القيس.
قال ابن هشام: الجارود بن بشر بن المعلى في وفد عبد القيس وكان نصرانياً).
وفي كتاب «الخصائص الكبرى» للسيوطي ما يلي:
(وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود بن عبد الله فأسلم، وقال: والـذي بعثك بـالحق لقد وجدتُ وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول).
وابن البتول: هو سيدنا عيسى عليه السلام.
فنرى في هذه النقول: الاتفاق على اسمه وعلى نصرانيته، وعلى وفادته وإسلامه، ولكن نـرى الخلاف في نسبه فقط.

(٢) جمع، مفرده: مباهت، وبَهُوت.

(٣) أخذاً من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٨٧٠).

والأمثلة في هذا الباب كثيرة، فإذا أردت مزيداً منها: فارجع إلى كتب الحديث وكتب السيرة النبوية عموماً، وإلى كِتَابيْ: «الخصائص الكبرى» للسيوطي و «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي خصوصاً.

٧ ــ ظهر حديثاً كتاب بعنوان: (محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن). مؤلفه الأستاذ إبراهيم خليل أحمد «سابقاً: القسيس إبراهيم خليل فيلبس».

لقد عرض المؤلف في الكتاب المذكور مجموعة من البشارات برسالة محمد ﷺ، التي اطَّلع عليها في التوراة والإنجيل ــ بوصفه قسيساً متخصِّصاً بالدراسات الدينية المسيحية ــ والتي كانت من أهم العوامل التي اهتدى بها إلى الحق، فاعتزل الخدمة الدينية المسيحية، ثم أعلن إسلامه، ونشر على الناس كتابه هذا.

وقد جاء في مقدمة الكتاب ما يلي:

(والذي حفزني إلى البحث ــ بغية النفع العام ــ هو ما تنبأ به المسيح عليه السلام عن الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ بقوله: «الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمَّة تعمل أثماره». إنجيل متى: ٢١ : ــ ٤٢ و ٤٣.

ومن دواعي الاطمئنان واليقين أن هذا السند يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقوله تعالى: **﴿الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**.

من هنا بدأتُ في اطمئنان ويقين تام أبحث عن هذا الرسول النبي الأمي، الذي تنبأ عنه المسيح عليه السلام وأشار إليه بقوله: «المسيا المنتظر».

ومن هنا بدأت أربط بين رأي آريوس في القرن الثالث الميلادي، وآراء لوثيروس في القرون الوسطى، والنبوآت العديدة في التوراة والإنجيل والأنبياء والمزامير عن الرسول المصطفى، حتى مكنني الله إلى إخراج هذا المؤلف الطيب لأمة خيرة).

ثم قال في آخر هذه المقدمة:

(وآليت على نفسي أن أعلنها صراحة بقبولي الإسلام ديناً، وبراءتي من كل دين يغاير ويخالف دين الإسلام.

ودخلت وأبنائي الأربعة إلى دين الله أفواجاً، نسبّح بحمد الله، وتمت كل الإجراءات القانونية من تغيير شهادات الميلاد بتاريخ ٣٠/٥/١٩٦٠م.

وبهذا انتهيت من الجهاد لاعتناق الإسلام، حيث بدأت الجهاد في سبيل الله ورسوله

الكريم بحياةٍ إسلاميةٍ مضيئةٍ مشرقةٍ نقيةٍ طاهرةٍ؛ وبالدعوةِ القويـة المفعمة بـالحب والإخلاص للقرآن الكريم والإسلام الحنيف، وفقنا الله لما يريد، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين).

إبراهيم خليل أحمد
سابقاً: القسيس إبراهيم خليل فيلبس

(٤)
الاستدلال بالمعجزة التي يُجريها الله على يد النبـي

(أ) حقيقة المعجزة:

لقد علمنا من تاريـخ الأمم أن كل أمة جاء فيها رسول يـدّعي النبوة كـانت تطلب منـه برهاناً على صدقه، ومن حقها أن تطلب هذا البرهـان إن لم يحصل لهـا العلم بنبوتـه من طريق آخر، وذلك للتثبت من صحـة نبوتـه، ولكن دون تعنّت أو شطط، فيـأتي البرهـان على صـورة معجزة ما، سواء كان ذلك نفـس ما طلبوه، أو شيئاً آخر غير الذي طلبوه.

ويشهد لذلـك قول الـرسول ﷺ: «مـا من نبـي إلاَّ وأوتي من الآيات مـا مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أُوحي إليَّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

والمعجزة: أمر ممكن عقلاً، خارق للعادة، يجريـه الله على يـد من أراد أن يؤيده، ليثبت بذلك صدق نبوته، وصحة رسالته.

وقد كان الله سبحـانه يستجيب لـطلب المعجزات من الأمم، أو يجـري بعض المعجزات على أيدي أنبيائه ورسله دون طلبٍ صريـحٍ من أقوامهم، لكن حالهم تستدعي إظهارها.

وإنما يجري الله سبحانه ــ بحكمته العالية ــ هذه المعجزات على أيدي رسله، باعتبار أن الشواهد المادية والمعنوية الخارقة للمعتاد المألـوف في قوانـين الكون وأنـظمته تضـع الباحث عن الحق أمام البرهان الواضح؛ الدالّ على صدق الرسول في دعواه الرسالة.

ذلك لأن الذين يتحدَّاهم الرسـول بالمعجـزة ــ بشراً أو غيـرهـم ــ لا يستطيعـون الإتيان بمثلها منفردين أو مجتمعين، في حدود قدراتهم الممنوحة لهم بحسب مستواهم.

وإذا استجاب الله لطلب المعجزة، أو أظهرها من غير طلب، تمّ أمران:

الأمر الأول: أن يجري الله على يد رسوله أمراً خارقاً للعادة، لا يتمكن هذا الرسول بصفتـه البشريـة ــ بالغـاً ما بلغت بـه القوة الجسميـة أو الروحـانيـة ــ من فعله أو القيـام بمثله

بحسب المعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته؛ لولا أن الخالق العظيم أجراه على يديه، تأييداً له في أنه رسول صادق فيما ينقل عن ربه.

الأمر الثاني: أن يتحدى الرسول قومه بأن يأتوا بمثل ما جاء به، إنْ كانوا في شك من صدق هذه الشهادة الربانية له.

فإن ظهر لهم عجزهم عن المعارضة، علموا بأن ذلك من فعل الله؛ ليشهد بلسان حال المعجزة أن هذا الإنسان الذي ظهرت على يديه هذه المعجزة رسول الله حقاً وهو صادق فيما يبلّغ عن ربه.

والمعارضة لا تتمُّ إلا بأن يأتي القوم بمثل المعجزة، وعلى الصورة التي أُجريت المعجزة بها، فإن عورضت بمثلها ولكن على صورة أخرى تدخل ضمن حدود القدرات الإنسانية؛ فلا تكون معارضة صحيحة. وذلك كمن يعارض معجزة سيدنا عيسى عليه السلام في شفاء المرضى باللَّمْس؛ بأن يستعمل الوسائل الإنسانية الطبية في شفاء مثل المرض الذي كان يشفي منه عيسى عن طريق مجرد اللمس بإذن الله.

ومما تقدم يتبين لنا أن المعجزة من الأمور الممكنة عقلاً، فلا تكون إذن من الأمور المستحيلة عقلاً.

كما يتبين لنا مجمل الشروط التي يجب توافرها في خوارق العادات حتى تكون من المعجزات، وهي كما يلي:

١ ــ أن يتحقق كونها من الأمور الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وأنظمته الدائمة.

٢ ــ أن يتحدَّى بها الرسول مَنْ تناولتهم دعوته، وشملتهم رسالته. فإن جرى خارق العادة على يد غير مدعي الرسالة المتحدي بالإتيان بمثلها فإنها لا تكون معجزة، وقد تكون كرامة كما سيأتي في مبحث الكرامات.

٣ ــ أن تعجز الأمة وجميع البشر عن المعارضة بمثلها على الصورة الخارقة التي تَمَّ تحدِّيهم بها.

٤ ــ قال علماء الكلام: ويشترط في المعجزة بالإضافة إلى الشروط السابقة أن لا يكون الأمر الخارق للعادة متضمناً تكذيب مدعي النبوة الذي جرى هذا الأمر الخارق على يديه؛ كما حكي أن مسيلِمة الكذاب لمّا قيل له: إن محمداً تفل في عين أرمد فشفيت، فأرنا مثل ذلك، فتفل في عين أرمد فعميت. وهذا واضح بالبداهة، ولو لم ينبه عليه بشرط.

(ب) طلب المعجزات بتعنُّت وشطط وعدم تلبية الله لمثل هذا الطلب:

أما إذا كان طلب المعجزات من القوم طلباً فيه تعنت أو شطط، أو رغبة في التفكه والتسلية بخوارق العادات، فإن الله جل وعلا لا يستجيب لطلبهم، ولا يلتفت إليهم، وهو الحكيم القدير، ذلك لأنهم وطّنوا أنفسهم على العناد والجحود، مهما رأوا من آيات بينات، وبراهين واضحات.

ومن الذين وطنوا أنفسهم على ذلك آل فرعون، فإنهم بعد أن رأوا المعجزات الباهرات التي أجراها الله على يد سيدنا موسى عليه السلام، أعلنوا عنادهم وإصرارهم على الكفر، كما حكى اللهعنهم ذلك في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

فهؤلاء القوم وأمثالهم ــ ممن بلغوا هذه الدرجة من العناد ــ لا تنفعهم المعجزات؛ لذا فلا داعي لخرق الأنظمة الدائمة والقوانين المستمرة، من أجلهم.

وقد طلب بعض مشركي العرب من الرسول ﷺ طائفة من الخوارق، ولكنهم لم يطلبوها إلا تعنتاً وشططاً أو رغبة بالتسلية، وبعد أن شاهدوا من المعجزات ما يثبت لهم رسالة محمد ﷺ، ويعطيهم القناعة التامة.

لذلك أمر الله رسوله محمداً صلوات الله عليه أن يقول لهم: «سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟!»، أي: تنزه ربي عن العبث في تلبية مطالبكم هذه، لأنها مطالب لا يقصد منها التأكد من صحة رسالتي، أما إن كنتم تطلبون مني بالذات هذه المطالب فما أنا إلا بشر.

وفي مجموع هذا الجواب رفض لتلبية مطالبهم المتعنتة، المتجاوزة حدود طلب البرهان على صدق الرسول. كما أن فيه تنبيههم على أصل العقيدة التي يدعو إليها، والتي تتضمن أن الله هو وحده الخالق، وهو وحده الذي يخرق أنظمة ما خلق، فالرسول ليس هو الذي يصنع المعجزات؛ لأنه بشر والبشر مهما ارتقَوْا لا يستطيعون أن يتجاوزوا في قدراتهم الحدود البشرية التي جعلها الله لهم؛ لكنّ المعجزة إنما تكون بخلق الله وبقضائه وقدره. وفي رفض تلبية مطالبهم المتجاوزة الحدود تنبيه على أن الله تعالى إنما يجري المعجزات بمقدار الحاجة إلى الدليل فقط؛ وإلاّ فقدت المعجزة معناها، وأصبحت جزءاً معتاداً من النظام، لا أمراً خارقاً له.

قال تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

يَنبوعاً: عيناً لا ينضب ماؤها.

كِسَفاً: قطعاً.

قبيلاً: أي مقابلة وعياناً، أو جماعة.

من زخرف: من ذهب.

ففي كل هذه المطالب تعنُّت وشطط ظاهران.

يضاف إلى ذلك أن القوم إذا طلبوا آية بعينها، وأُجيبوا إليها ثم لم يؤمنوا بعد مجيئها، استؤصلوا بالعذاب، والله تبارك وتعالى لم يكتب على هذه الأمة عذاب الاستئصال الذي جرى على الأمم قبلها.

(ج) نصوص في تقديم الرسل دليل المعجزة:

وهذه طائفة من النصوص القرآنية تتضمن احتجاج الرسل بما جاؤوا به من معجزات؛ دليلاً على صدقهم فيما يبلّغونه عن الله، وأنهم رسل الله حقاً:

١ ـ عرض سيدنا صالح على قومه معجزة الناقة دليلاً على صدق رسالته، فقال لهم: ﴿قد جاءتكم بيّنة من ربكم﴾ أي: تعليمات تبين لهم صراط الله المستقيم، وذلك فيما حكى الله عنه في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴿٧٣﴾﴾.

٢ ـ قال سيدنا موسى لقومه فيما حكى الله عنه في سورة (الأعراف ٧): ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وبينة موسى عليه السلام كانت البيانات الدينيّة التي آتاه الله إياها.

٣ ـ أمر الله سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام أن يتحدى بالقرآن العظيم الإنس والجن؛ والقرآن أعظم المعجزات وأبقاها، فقال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

كما تحدى الله تعالى الناس أن يأتوا بمثل سورة منه، في قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

(د) أمثلة من معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام:

وهذه طائفة من معجزات الرسل، الثابتة بالنصوص القطعية في الشريعة الإسلامية:

(١)
معجزة صالح عليه السلام

بعد قوم عاد ــ وهم من الأقوام العربية البائدة، الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم وجحودهم لنبي الله هود عليه السلام، وإفسادهم في الأرض وطغيانهم، وإصرارهم على عبادة الأوثان[1] ــ نشأ قوم ثمود.

وثمود: اسم قوم من الأقوام العربية البائدة، المنحدرين من سلالة سام ــ ولد نوح عليه السلام ــ، وسمي هؤلاء القوم باسم جدهم «ثمود»[2]. وقد سكن هؤلاء القوم أرض (الحِجْر) وهي أرض بين الشام والحجاز إلى وادي القرى، وتقع في الطريق البري للمسافر من الشام إلى الحجاز. وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن، وتسمى مدائن صالح، كما تُعرف ديارهم باسم: (فجِّ الناقة).

لقد فتح الله على قوم ثمودَ أبواب النعمة، فكانت لهم أنعام كثيرة، وجنات وفيرة، وعيون غزيرة، ومهروا في بناء القصور في السهول، ونحت البيوت في الجبال، ولكنهم عبدوا الأوثان، وعتَوْا عتواً كبيراً.

فبعث الله إليهم رجلاً منهم اسمه «صالح» نبياً ورسولاً، يدعوهم بدعوة الرسل ويرشدهم إلى فعل الخير، وترك الفساد في الأرض، فكذبوه وعصَوْه. ثم طالبوه بآية تكون برهان صدقه في رسالته، فجعل الله آيته ــ حسب طلب ثمود قومه ــ أن يستدعي صخرة في

---

(١) كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف، من جنوب الجزيرة العربية، وهي تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، ويقع في شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة لا أنيس فيها ولا ديار.

(٢) هو: ثمود بن عامر بن إرم بن سام، وقيل: هو ثمود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام.

الجبل فتخرج منها ناقة لها جميع صفات النوق. ثم إن الله القادر أجرى على يد صالح هذه المعجزة، فكانت طريقة وجود هذه الناقة من الأمور الخارقة للعادة، وكذلك استمرت طريقة عيشها على وجه خارق للعادة أيضاً. وحذرهم الرسول صالح عليه السلام من التعرض لها، وأنذرهم بالعذاب إذا هم عقروها، ولكن ثمود أصروا على العناد، وتكذيب الرسول، وتآمروا على عقر الناقة فبعثوا أشقاهم فقتلها، فحقت عليهم كلمة العذاب، وطُبِّق الوعيد الذي أُنذروا به على لسان رسولهم صالح عليه السلام، فأهلكهم الله.

قال تعالى ـ مجملاً قصة صالح عليه السلام مع ثمود قومه، ومشيراً إلى معجزة الناقة ـ في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

طَلْعُها: الطلع من النخل شيءٌ يخرج في النخلة كأنّه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، والطرف محدَّد، وقشره يسمّى «الكُفُرَّىٰ» وما في داخله يسمى «الإغريض» لبياضه. والطلع يؤكل ولا يسمن.

هضيم: ليِّن لطيف ـ سهل الهضم ـ نضيج. والهضيم من النساء لطيفة الكشح أي: دقيقة الخصر.

(٢)

معجزات موسى عليه السلام

أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه، وآتاه معجزتين باهرتين، مناسبتين مناسبة صورية لمهارة سحرة فرعون في أعمال السحر، مع اختلافٍ في الحقيقة بينهما وبين السحر.

المعجزة الأولى:
انقلاب عصاه حية تسعى، ثم ابتلاعها حبال سحرة فرعون وعصيّهم.

المعجزة الثانية:
أن يدخل يده في جيبه ثم يخرجها، فإذا هي بيضاء من غير سوء.

ولما دخل موسى ــ عبد الله ورسوله عليه السلام ــ على فرعون الطاغية مدّعي الإلٓهية، وحوله ملؤه، جرت بينهما المحاورة التالية مقتبسة من القرآن الكريم:

موسى: ﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق علىٰ أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببيّنة من ربكم، فأرسل معي بني إسرائيل﴾.
(١٠٤ و ١٠٥ الأعراف/ ٧)

فرعون: ﴿لئن اتخذت إلٓهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾.
(٢٩ الشعراء/ ٢٦)

موسى: ﴿أو لو جئتك بشيء مبين؟﴾.
(٣٠ الشعراء/ ٢٦)

فرعون: ﴿إن كنتَ جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين﴾.
(١٠٦ الأعراف/ ٧)

موسى: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾.
(٣٢ ــ ٣٣ الشعراء/ ٢٦)

فرعون للملأ من حوله: ﴿إن هذا لساحر عليم. يريد أن يُخرجَكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟﴾.
(٣٤ ــ ٣٥ الشعراء/ ٢٦)

الملأ من حول فرعون ــ بعد أن يرددوا أقوال فرعون ــ أخذاً من سورة (الأعراف ٧) ١٠٩ ــ ١١٠ يقولون:

﴿أرْجِهْ وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم﴾.
(١١١ ــ ١١٢ الأعراف/ ٧)

فرعون: ﴿أجئتَنا لتخرجَنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينّك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنت مكاناً سُوَى﴾.

(٥٧ ــ ٥٨ طـه/ ٢٠)

موسى: ﴿موعدكم يومُ الزينة وأن يُحشر الناس ضُحىً﴾.

(٥٩ طه/ ٢٠)

وتمت المباراة في اليوم المحدّد، وقدّم سحرة فرعون سحرهم أولاً، ثم ألقى موسى عصاه فأخذت تلقف ما يأفكون. وظهرت المعجزة الباهرة حقيقة ناصعة أمام فرعون، وأمام جميع سحرته والحشد الكبير الذي اجتمع لمشاهدة هذه المباراة الكبرى، بين معجزة موسى وسحر سحرة فرعون، الأمر الذي جعل سحرة فرعون يخرُّون سُجَّداً لما ظهرت المعجزة على سحرهم، ويقولون:

﴿آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾.

(١٢١ ـ ١٢٢ الأعراف/ ٧)

فكان إيمان هؤلاء العلماء بالسحر ـ الذين استنصر بهم فرعون على ما جاء به موسى ـ برهاناً دامغاً لفرعون، يثبت له وللملأ من حوله صدق المعجزة، وأن موسى رسول الله حقاً، ولم يبق بعد ذلك عذر لمعتذر.

ثم تتالت المعجزات في حياة موسى عليه السلام مع قومه، فكان منها بقية معجزاته التسع.

المعجزة الثالثة:

معجزة (الرِّجْز) أي: العذاب. وتتضمن هذه المعجزة صوراً متتاليات من الآيات الربانية، وفيما يلي إيضاح قصة هذه المعجزة:

طلب موسى من فرعون أمرين هما:

١ ـ استجابته للدعوة الربانية، وإيمانه بالله هو وقومه.

٢ ـ السماح له بأن يُخرج بني إسرائيل من مصر، ويغادر بهم إلى أرض الكنعانيين (الشام).

ولم يستجب فرعون لأي مطلب منهما، وأخذته العزة بالإثم، وعتا عن أمر الله، وتمادى في تكذيب موسى عليه السلام، واستمر في إذلال بني إسرائيل وإهانتهم وتسخيرهم.

فأمر الله موسى عليه السلام أن يعلن لفرعون وقومه أن الله تعالى سيوقع بهم ألواناً من العذاب؛ عقوبة لهم ما داموا على كفرهم وعنادهم وإصرارهم على التمادي في الباطل.

وأعلن لهم موسى ذلك، وتوالت على مصر صنوف العذاب الرباني، فكان يحدد لهم

موسى عليه السلام الصنف من العذاب، وينبئهم بوقوعه، حتى إذا حلّ بهم ما أنبأهم به موسى رجعوا إليه فقالوا: ﴿ يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرِّجْزَ لنؤمنَنَّ لك ولنرسِلَنّ معك بني إسرائيل﴾.

(١٣٤ الأعراف/ ٧)

فيأخذ موسى عليهم العهد أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل، ويعدهم بأن الله سيكشف عنهم الرجز في يوم كذا، فإذا كشف الله عنهم العذاب بدعوة موسى في الوقت الذي حدَّده لهم نكثوا، فلم يؤمنوا ولم يسمحوا له بإخراج بني إسرائيل من مصر.

وتكرَّرت الآيات من هذا النوع، وكانوا في كل مرة يعدون وينكثون، فكان منها ما يلي:

١ ـ **رجز السنين**: وهي سنوات الجدب والقحط، وذلك بسبب قلة مياه النيل، وانحباس أمطار السماء عن أرض مصر.

٢ ـ **رجز نقص الثمرات**: وذلك بسبب ما يرسل الله عليها من جوائح وآفات.

٣ ـ **رجز الطوفان**: وذلك بسبب ارتفاع فيضان النيل ارتفاعاً أتلف الزرع، وهدم المساكن، أو بسبب أمطار غزيرة في مصر نشأ عنها ذلك.

٤ ـ **رجز الجراد**: وذلك بإرسال جيوشه الجرارة المتكاثرة، التي لا تمر على زرع أو ثمر أو شجر أو أي رزق إلا أكلته.

٥ ـ **رجز القُمّل**: وهو نوع من الحشرات الصغيرة التي تقضُّ مضاجع الناس إذا انتشرت فيهم. قيل: هو كبار القراد، وقيل: هو صغار الجراد، وقيل: هو البقّ، وقيل غير ذلك.

٦ ـ **رجز الضفادع**: وكان من أمرها أنها كثرت عندهم كثرة نغصت عليهم العيش، فكانت تسقط في أطعمتهم وفُرُشِهم وملابسهم.

٧ ـ **رجز الدم**: وذلك بأن استحال الماء لأهل مصر دماً، فكانوا لا يخرجون ماءً ليشربوا إلا وجدوه مختلطاً بالدماء الكثيرة. وقيل: سلّط الله عليهم الرُّعاف، أو أنهم أصيبوا بوباء الدمَّل حتى فشا في الناس وفي البهائم[1].

---

(١) جاء في الإصحاح التاسع من سفر الخروج في المقاطع من ٨ إلى ١٢: أن من أنواع العذاب الذي سُلِّط على أهل مصر في زمن موسى، فشوّ الدماميل في الناس وفي البهائم.

وإلى هـذه المعجزة ذات الآيـات المتتـابعـات، أشـارت الآيـات الكريمات من سورة (الأعراف ٧)، فقال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

الرِّجْز: في اللغة العذاب. ويأتي بمعنى الرجس، وهو القذر والنجس. ويأتي بمعنى الإثم والشرك، وهما قذران موجبان للعذاب.

المعجزة الرابعة: معجزة (فلق البحر):

وفيما يلي تلخيص لقصة هذه المعجزة:

أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج ليلاً ببني إسرائيل من مصر، في اتجاه الشـرق إلى الأرض المقـدسة في فلسـطين، وأن يضرب لهم في البحـر طريقـاً يـابسـة جـافـة، يسلكهـا هو وقومه، فلا يخاف على نفسه ولا على قومه دَرَكـاً يلحقه من فـرعون وقـومه، ولا يخشى أيضـاً على نفسه ولا على قومه غرقاً. قال تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾.

دَرَكاً: أي: لحاقاً من عدوّك.

ولاَ تَخْشىٰ: أي: ولا تخشىٰ شيئاً آخر كالغرق والهلاك بسبب ما.

فـانطلق مـوسى ببني إسرائيـل خارجـاً من أرض مصر كما أوحى الله إليـه، ومتجهـاً إلى الأرض المقدسة في فلسطين؛ وكان بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً.

وأدرك فرعون وأهل مشورته أن خروج بني إسرائيل قـد يشكل خـطراً عليهم، أو ضرراً

اقتصادياً أو معنوياً في المجتمع المصري، نظراً إلى كثرة العدد الذي بلغ إليه بنو إسرائيل في مصر في ذلك الوقت.

(٤٢ الأعراف/ ٧)

فأرسل فرعون في مدائن مصر من يحشر له الجنود، للحاق بني إسرائيل ومحاربتهم، وشجع أهل مصر على هذه الحرب، بأن بني إسرائيل شرذمة قليلون، وبيَّن لهم من الأسباب الداعية إلى محاربتهم أمرين:

الأمر الأول: أنهم أغاظوا السلطة الحاكمة في مصر بتصرفاتهم الخارجة عن حدود الطاعة للحكام، والتي قد ينشأ عنها إضرار ببعض المصالح في البلاد الواقعة تحت نفوذ فرعون.

الأمر الثاني: الحذر من عودتهم بعد خروجهم بجيش محارب قوي من أرض الشام مَسقط رؤوس أجدادهم الاثني عشر، أولاد سيدنا يعقوب (إسرائيل) عليه السلام.

وحشد فرعون قواته، وجهز جيشه، ولحق ببني إسرائيل لقتالهم، ولمّا تراءى الجمعان، وأصبح بنو إسرائيل على شاطىء البحر الأحمر، ودنا منهم عدوهم، خافوا وتصوروا الهلاك، وقالوا لموسى: إنا لمدرَكون! فهدّأ موسى من رَوعهم، وأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه البحر، فضرب فانفلق وانحسر الماء يمنة ويسرة، فكان كل فِرْق منه كالجبل العظيم. وسلك بنو إسرائيل في أرض البحر التي انحسر الماء عنها بالمعجزة الربانية التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام حتى جاوزوا البحر ونجَوْا، ولحقهم فرعون وجنوده متتبِّعين خطواتهم، حتى إذا توسّطوا البحر ضم الله الماء بعضه إلى بعض فأغرقهم، ولم ينجُ منهم أحد دخل البحر. قال الله تعالى يقصُّ علينا قصة هذه المعجزة في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

لَشِرْذمة: الشرذمة القليل من الناس الذين ليس لهم قوّة.

كلّ فِرْق: كل قسم انفرق من البحر.
كالطود: كالجبل.

فكان من مظاهر هذه المعجزة ثلاثة أمور:
(أ) فرق البحر.
(ب) نجاة موسى ومن معه أجمعين.
(جـ) غرق فرعون ومن تبعه من جيشه في دخول طريق البحر خلف بني إسرائيل.

المعجزة الخامسة:
معجزة بعث جمهور من بني إسرائيل إلى الحياة بعد موتهم بالصاعقة[1].

وفيما يلي توضيح لقصة هذه المعجزة وأسبابها[2]:

تجاوز بنو إسرائيل البحر كما علمنا في الفقرة السابقة، وتمت نجاتهم بقيادة موسى رسول الله وكليمه عليه الصلاة والسلام.

لكن عامة بني إسرائيل قد صعب عليهم أن يتخلَّوْا عن فكرة الوثنية التي أَلِفوها في مصر؛ ولم يستطيعوا أن ينسخوا من أذهانهم فكرة تجسد الآلهة، وقد لبثوا مئات السنين يشاهدون المصريين وهم يعتقدون بالآلهة المجسّدة ويقدّسونها!! فمرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: «يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة»، فقال لهم: «إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبّر ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون»، أغير الله أبغيكم إلَهاً وهو فضّلكم على العالمين؟! (١٣٨ ـ ١٤٠ الأعراف/ ٧)

وقد كان موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل أن يأتيهم بعد النجاة بوصايا ونصائح وشرائع من عند الله؛ يسيرون وفق تعاليمها وأحكامها.

فلما نَجَوْا أخبرهم أن الله جلَّ وعلا واعده ليُنزل عليه الكتاب المتضمن ما كان وعدهم به؛ وذلك بأن يأتي لمناجاة ربه في الجانب الأيمن من جبل الطور. وأخبر قومه أنه سيغيب عنهم

---

(١) الصاعقة: ظاهرة كونية تحدث بخلق الله فتجعل الأحياء يَصْعَقُون، أي: يموتون بسببها موتاً فجائياً تاماً. وهي إما صيحة عظيمة تميت بصوتها، أو نار شديدة تستل الأرواح بوهجها.

(٢) جرى في عرض هذه القصة تصحيح لخطأ تاريخي وقع في الطبعة الأولى من هذا الكتاب؛ وهو يتعلّق بالسبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام: فإنهم قد رافقوه في ميعاد الاعتذار من عبادة العجل، لا في ميعاد تلقي التوراة، وهم الذين قالوا لموسى: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، وهم الذين أماتهم الله بالصاعقة ثم أحياهم. فيرجى الانتباه.

ثلاثين ليلة يأتيهم بعدها بكتاب الرب، وقال لأخيه هارون: «اخلفني في قومي وأصلح، ولا تتبع سبيل المفسدين».

أمر الله موسى أن يتطهر ويصوم ثلاثين يوماً بلياليها، فتطهر موسى وبدأ صيامه كما أمره الله، وسار مع قومه إلى طور سيناء، ولكن شوقه إلى مناجاة الله ورغبته بمرضاته قد دفعاه إلى أن يسبق قومه إلى الجبل.

وصل موسى إلى الطور وحده، وقومه على أثره قد تأخروا عنه، فقال الله له: «وما أعجلك عن قومك يا موسى؟ قال: هم أولاء على أثري، وعجلت إليك ربِّ لترضى»، (٨٣ ــ ٨٤ طه/ ٢٠) فزاد الله أجل الميقات عشر ليال، فتم ميقاب الرب أربعين ليلة[1].

استبطأ بنو إسرائيل عودة موسى من ميقات ربه، ولعبت بهم وساوس الشيطان، فعبدوا العجل الذي اتخذه لهم السامريّ من حُليّهم، إذ فتنهم به، «فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي». (٨٨ طه/ ٢٠)

وعجز هارون عليه السلام عن ردّهم عمّا افتُتنوا به، ولما عاد موسى من ميقات ربه ومعه الألواح، وجد القوم يعبدون العجل، ويزعمونه إلههم، فأخذه الغضب والأسف للكفر الذي رأى، فألقى الألواح، واشتدّ على أخيه هارون باللّوم والعتاب، فاعتذر هارون بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه.

ثم استدعى موسى عليه السلام السامريّ الذي ضَلَّلهم، وسأله عن أمر العجل، وعن هذه الفتنة التي دبرها للقوم، فقال السامري: «بصُرتُ بما لم يَبْصروا به فقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتُها وكذلك سوّلتْ لي نفسي». وهكذا اعترف هذا الرجل المضلّل بحقيقة أكذوبة

(١) ذكر المفسرون: أن موسى وعد قومه ــ وهم بمصر ــ إن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون؛ فلما أهلك الله فرعون، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ــ وهي شهر ذي القعدة ــ فلما أنهى الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه، فاستاك أو أكل بعض النبات، فقالت الملائكة: كنا نشم مِن فِيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك! فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة.
وأخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه: (لما أتى موسى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين ــ وقد صام نهارهن ولياليهن ــ كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لِمَ أفطرت ــ وهو أعلم بالذي كان ــ؟ قال: أي رب كرهت أن أكلمك إلاّ وفمي طيب الريح، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني، ففعل موسى عليه السلام الذي أمره ربه به. انتهى. وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾. (١٤٢ الأعراف/ ٧)

الإله العجل التي دبَّرها، وبالحيلة التي اتَّخذها، فطرده موسى من القوم وقال له: «فاذهب فإنَّ لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تُخْلَفَه».
(٩٧ طه/ ٢٠)

ثم أقبل موسى على العجل فحرقه وذراه في اليمّ، ونادى في قومه مصححاً عقيدتهم: «إنَّما إلهكم الله الذي لا إله إلاّ هو وَسِع كل شيء علماً».
(٩٨ طه/ ٢٠)

وعقاباً لما جرى من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، حكم الله عليهم أن يتوبوا إلى بارئهم بأن يقتلوا أنفسهم، فاجتمعوا لذلك وجعل بعضهم يقتل بعضاً، حتى مات منهم خلق كثير. ولما رأى موسى أن القتل قد كثر فيهم دعا ربَّه فتاب عليهم، ورفع عنهم حكم قتل أنفسهم.

وأمر الله موسى أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً. واختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ليكونوا معه في رحلة الاعتذار، وقال لهم: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه ممّا صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقاتٍ وقَّته له ربه، فقال له السبعون: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كلّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجّداً، فسمعوا ربهم وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، وانكشف عن موسى الغمام، أقبل إلى قومه، فقالوا له: «يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» فأخذتهم الرجفة ــ وهي الصاعقة ــ فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: «ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإيّاي» قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل؟ واستجاب الله لموسى، فبعثهم من بعد موتهم، لعلهم يشكرون ولا يكفرون. وأعادهم إلى الحياة الدنيا، ليستوفوا آجالهم المقدرة لهم.

فكان من مظاهر هذه المعجزة ما يلي:

١ ــ الموت الجماعي بالصاعقة عقب قولهم لموسى: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة».

٢ ــ إعادتهم إلى الحياة بعد الموت.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

المعجزة السادسة:

معجزة رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل لِيُعطوا الميثاق على ما في الألواح. وذلك أنه لما أنزل الله على موسى عليه السلام ما في الألواح التي تلقاها من ربه في جانب الطور، أمره أن يأخذ الميثاق على بني إسرائيل بما فيها.

ويظهر أنه بعد أن انتهى موسى من حادثة عبادة قومه العجل، وحادثة تعنتهم عليه بقولهم له: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة»؛ عرض عليهم ما أمرهم الله به من أن يأخذ عليهم الميثاق، بالتزام ما آتاهم الله في الكتاب؛ فترددُوا في إعطاء الميثاق! فرفع الله جبل الطور فوقهم إخافةً لهم، وإنذاراً بحلول عقاب الله وغضبه عليهم إذا هم لم يستجيبوا للأمر، فلما رأوا ذلك استجابوا لله، وخضعوا له، وأعطوا الميثاق على أنفسهم!!

ويدل على هذه الواقعة قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

الظلّة: ما يَغْشَى من عُلْوٍ فيظلِّل تظليلاً عامّاً، كسحابة شاملة.

المعجزة السابعة:

معجزة إنعام الله على بني إسرائيل بطريقة تخالف مجرى العادات الكونية الدائمة؛ تأييداً لموسى عليه السلام.

وذلك بتظليلهم بالغمام يسترهم من حر الشمس، ويقيهم وهجها، ويتابعهم أينما ساروا. وبإنزال الغذاء الطيب عليهم، ينالونه دون جَهْدٍ ولا تعب، إذ كان الله يُنَزِّل عليهم المنَّ والسلوى كل يوم على مقدار حاجتهم للطعام[1].

وكان ذلك مدة إقامتهم في بَيْداء التِّيه، حين فرض الله عليهم أن يظلوا تائهين فيها أربعين سنة، لأنهم أبَوا على موسى عليه السلام مقاتلة الوثنيين في أرض الميعاد (فلسطين)؛

---

(١) المن: طعام حلو يشبه العسل. والسلوى: نوع من الطير شهي اللحم، لذيذ الطعم.

لدخول هذه الأرض المقدسة وإقامة الدولة الربانية فيها، وقالوا له ـ كما حكى الله عنهم في سورة (المائدة ٥) ـ :

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المعجزة الثامنة:

معجزة إنعام الله على بني إسرائيل بتفجير اثنتي عشرة عيناً، بمجرد ضرب موسى الحجر بعصاه.

وذلك حين كانوا في التيه، وطلبوا من موسى أن تكون لهم عيون جارية بعدد أسباطهم يشربون منها؛ فاستسقى لهم موسى عليه السلام، فأمره الله بضرب الحجر بعصاه، ففعل ما أمره الله به، فأجرى الله لهم العيون التي طلبوها.

ويدل على هذه المعجزة قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

المعجزة التاسعة:

معجزة إحياء قتيل بني إسرائيل بضرب جسده ببعض البقرة التي أُمروا بذبحها. وذلك ليخبر عن قاتله من جهة، ولتكون حياته دليلاً على البعث بعد الموت من جهة أخرى. وفيما يلي قصة هذه المعجزة:

يقول المفسرون: إنَّه كان في بني إسرائيل شيخ موسر له ابن واحد، قتله ابن عمه طمعاً في ميراثه، ثم جاء يطالب بدمه قوماً آخرين. فأنكر المتهمون قتله، وترافع القوم إلى موسى، كل منهم يدرأ التهمة عن نفسه. فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ــ وذلك ليتبين لهم القاتل الحقيقي ــ فقالوا له: أتهزأ بنا؟ فقال موسى: معاذ الله أن أكون من الجاهلين ــ لأن الاستهزاء في هذا المقام ضرب من الجهل ــ، عند ذلك سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام عن أوصاف البقرة التي أمروا بذبحها؛ وشدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، إذ سألوا عن عمرها، ولونها، ثم عن تحديد ذاتها بصفات تميِّزها عن غيرها. فلما بيَّنها الله لهم، قالوا لموسى:

الآن جئت بالحق ـ إذ عثروا على صفات هذه البقرة المجهولة لهم في بقرة خاصة ليتيمٍ فقير، كان أبوه رجلاً صالحاً لم يخلف له غير هذه البقرة، فاشتروها بثمن كبير كان من حظ هذا اليتيم الفقير ـ وذبحوها وما كادوا يفعلون، لكثرة شكوكهم وتردّداتهم.

فأقبل موسى عليه السلام وأخذ لسان هذه البقرة أو عَجْب ذَنَبها، وضرب به القتيل فأحياه الله بقدرته القادرة، وأخبر عن قاتله.

وفي قصة هذه المعجزة أنزل الله الآيات من سورة (البقرة ٢): من الآية (٦٧) إلى الآية (٧٣).

(٣)

معجزات عيسى عليه السلام

كان عيسى عليه السلام خاتمة أنبياء بني إسرائيل، وقد أرسله الله إليهم، وأنزل عليه الإنجيل، وأيّده بخوارق عادات باهرات.

(أ) فمنها ما كان إرهاصاً بنبوته.

(ب) ومنها ما كان معجزة مرافقة لرسالته، ليشهد الله له بصدقه فيما يبلّغ عن ربه.

فمن إرهاصاته:

١ ـ ولادته من أم دون أب، شهد له بذلك القرآن، معلناً براءة أمه وحصانتها، وموضحاً طريقة تكوينه في بطنها بوساطة نفخة من جبريل عليه السلام.

٢ ـ تكلّمه وهو صبي في المهد:

وفي حكاية كلامه وهو صبي، ووصف حال أمه حين جاءت به إلى قومها تحمله، قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

شيئاً فريّاً: أي: شيئاً عجيباً غير متوقّع من مثلك. وهذه العبارة تصلح لمعنيين: استغراب الحدث مع براءتها. والتعجب من أمرها في نظر موجهي الاتهام. ويظهر أن القوم كانوا في شأنها على قسمين: مبرّىء، ومتهم.

وأما معجزاته: فقد أرسل الله عيسى عليه السلام في قوم يفاخرون بمهارتهم بالطب بحسب مستوى زمانهم، فأجرى الله على يديه معجزات باهرات، تشاكل نوع مهارة قومه بحسب الصورة، ولكن بمستوى لا يستطيع الطب بالغاً ما بلغ أن يصل إلى ما وصلت إليه معجزاته عليه السلام.

المعجزة الأولى:

أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

المعجزة الثانية:

أنه يمسح على الأكمه ــ وهو من وُلد أعمى ــ فيبرئه بإذن الله.

المعجزة الثالثة:

أنه يمسح على الأبرص فيشفيه بإذن الله. والبرص من أعقد الأمراض التي تستعصي على الطب وعلاجاته، فكيف بإبرائه باللمس!!

المعجزة الرابعة:

أنه يحيي الموتى بإذن الله (بالنداء أو باللمس).

المعجزة الخامسة:

أنه يُنَبِّىء الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم. وهذا نوع من الاطّلاع على الأشياء المحجوبة والبعيدة، ونفوذ العلم بها إلى ما وراء الحجب.

المعجزة السادسة:

كفُّ اللَّهِ بني إسرائيل عنه حين أرادوا قتله، وإلقاءُ شَبَهِهِ على من دلّ على مكانه، ثم رَفْعُهُ إليه.

المعجزة السابعة:

طَلَبَ الحواريون من سيدنا عيسى عليه السلام أن ينزّل الله عليهم مائدة من السماء، ليأكلوا منها، ولتطمئن قلوبهم بالإيمان، فيتثبّتوا من صدقه في رسالته، فدعا عيسى ربه، فأنزل عليهم المائدة التي طلبوها، فكانت معجزة كبيرة له.

وقد وردت هذه المعجزات كلها في القرآن الكريم وفق التسلسل الذي أوردناه، وذلك في قوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

(٤)

معجزات نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم

بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين والمرسلين أجمعين، وأيده بمعجزات باهرات، أعظمها وأدومها على كرّ العصور ومرّ الأيام هي المعجزة الخالدة، معجزة القرآن الكريم.

ولقد لاحظنا مما سبق في معجزات الرسل السابقين، أن معجزاتهم كانت أشياء مادية تنقضي في أزمانها، ولا تدخل في جوهر الرسالة التي يُبَشِّرون بها.

فمعجزات موسى عليه السلام غير الكتاب الذي أُنزل عليه (التوراة).

ومعجزات عيسى عليه السلام غير الكتاب الذي أُنزل عليه (الإنجيل).

لكنّنا نرى في المعجزة الكبرى لخاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، أنها هي الكتاب الذي أُنزل عليه (القرآن) نفسه.

ذكر ابن رشد: «أن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حيّة، ولا كدلالة إحياء الموتى وإبراء المرضى، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلّا على أيدي الأنبياء، وفيها ما يقنع الجماهير من العامة، إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة، وأهداف الوحي، ومعنى الشريعة.

أما القرآن: فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدين، مثل دلالة الإبراء على الطب، ومعرفة السطوح على الهندسة، وصنع الأبواب وغيرها على النجارة. ومثال ذلك: لو أن شخصين ادَّعيَا الطب، فقال أحدُهما: الدليل على أني طبيب أني أطير في الجو، وقال الآخر: دليلي أني أشفي الأمراض وأذهب الأسقام، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعاً، وعند من طار في الجو مقنعاً فقط». انتهى.

وهذا الذي ذكره ابن رشد قد بسطه وشرحه الإمام الغزالي شرحاً وافياً في كتابه: «القسطاس المستقيم»[1].

ولذلك اختار الله لخاتمة الرسالات السماوية العامة للناس أجمعين: المعجزة التي تدخل في صميم كتاب الرسالة نفسها، وجعل هذا الكتاب الذي يَطَّلع عليه الأجيال في كل زمن، ويتلونه في كل عصر، هو البرهان العظيم الذي يلامسون وجوه إعجازه، فيستدلُّون بها على أمرين:

الأول: أن هذا الكتاب هو كلام الله حقاً، وليس بكلام بشر.

الثاني: أن محمداً ﷺ صادق في رسالته، لأنه هو الذي بلَّغه إلينا عن ربه، ولم نعلم به إلا عن طريقه.

ونلفت النظر إلى أن معجزات الأنبياء السابقين المادية لولا القرآن الكريم لم نعلم بها بطريق يقيني ثابت، فالذي يُعَرِّفنا بها بيقين إنما هو القرآن نفسه، فمتى ثبت هو ثبتت هي.

كون القرآن معجزة:

لقد تحدى القرآن نفسه الناس جميعاً أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه، فما استطاع واحد منهم أو جماعة ــ منذ بعثة محمد ﷺ حتى عصرنا هذا ــ أن يعارضه بكتاب مثله، أو بمثل سورة منه، على الرغم من وجود أعداء كثيرين للإسلام في عصور التاريخ، ومنهم دول كبرى، وهم يتمَنَّوْن لو يستطيعون معارضةَ القرآن لاشتَرَوْا ذلك بالقناطير المقنطرة من أنفَس ما يملكون.

---

(١) انظر كتاب «القسطاس المستقيم» للإمام الغزالي، صفحة ٥١ وما بعدها، نشر مؤسسة الزعبي عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م، الطبعة الأولى.

قال الله تعالى ـ يتحدى المشركين ـ في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وقال الله تعالى معلناً عجز الإنس والجن عن معارضته في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وجوه إعجاز القرآن:

وللقرآن وجوه إعجاز كثيرة، ففيه ما لا يتناهى من الأعاجيب، وفيه ما لا يُحصى من المعجزات الجزئية التي يُتَنَبَّه إليها في كل عصر، كلَّما تقدم الناس في ميادين العلم والتجربة ونُظُم الحياة.

وإيضاح نواحي إعجازه يطول بنا، وحسبنا هنا أن نشير إلى كونه معجزة توافرت فيه جميع صفات المعجزات، بأوضح مظاهرها وأجلى تحدِّيها، مع ما امتاز به من أنه معجزة دائمة، داخلةٌ في صميم الرسالة التي بلَّغها خاتم المرسلين للناس.

ولكن لا بدّ من إلمامة يسيرة نتعرض فيها إلى بعض وجوه إعجازه:

(أ) فمن وجوه إعجازه:

كونه حقاً مصوناً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في أية حقيقة علمية عرضها، أو أي دستور أو قانون أو نظام أوضحه، من مبادئه وتشريعاته وأحكامه، أو أيّ خبر تاريخي أخبر به من أنباء الغيب الماضية، أو أي خبر أخبر عن وقوعه في المستقبل. كما لا يأتيه الباطل بأن يتعرض للتحريف والتبديل أو الضياع والنسيان.

قال الله تعالى مشيراً إلى هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن في سورة (فصلت ٤١):

﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

وقال تعالى مبيِّناً تعهده بحفظه وصيانته في سورة (الحِجْر ١٥):

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

فالقرآن ـ بشهادة الواقع ـ لم يأته الباطل بحال من الأحوال، ولا من وجه من الوجوه. وكذلك لن يأتيه الباطل من أي وجه من الوجوه، مهما توالت الدهور، واتسعت تجارب الحياة، وزادت مكتشفات العلوم:

١ ــ فلا يأتيه الباطل في أية حقيقة علمية عرضها، وحقائق العلم ومكتشفاته الثابتة بيقين تثبت دواماً صحّة ما تحدّث القرآن عنه من حقائق علمية.

٢ ــ وَلاَ يأتيه الباطل في أيّ مبدأ أو تشريع أوضحه، وتجارب الحياة تُثبت باستمرار كمال مبادىء الإسلام وتعاليمه، وقوانينه وأنظمته، وسلامتها وصلاحيتها لسعادة الناس جميعاً. قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

فكونه يهدي إلى أقوم الطرق من غير أن يكون عرضة للنقض أو الضعف أو الباطل معجزة كبرى، لأن أي كتاب من وضع البشر يحمل رسالة إصلاح لا تستمد من كتاب الله ودينه الذي ارتضاه لعباده؛ لا بدّ أن يكون عرضة للنقد الصحيح، والخطأ والباطل.

٣ ــ ولا يأتيه الباطل في أيّ خبر تاريخي أخبر به من أنباء الغيب، التي ضاعت صورتها الحقيقية في أخلاط التاريخ القديم للأمم، وبخاصة ما اختلف فيه بنو إسرائيل.

قال الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقد جاءت دلائل الآثار الأرضية بعد قرون، فصدَّقت حقائقُها التي تَوصَّل إليها علماء الآثار الصورَ الخبرية التي جاءت في القرآن الكريم، وذلك من إعجاز القرآن الدال على أنه كلام الله وليس من كلام البشر.

٤ ــ ولا يأتيه الباطل في أي خبر أخبر به عما سيحدث في مستقبل أيام الدهر.

والأمثلة التطبيقية على هذه الناحية كثيرة فيما ثبت وتحقق[1]، وأما ما بقي منها رهن

---

(١) فمما تحقق وقوعه من ذلك:

(أ) قول الله تعالى: ﴿لتدخلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين لا تخافون﴾. =

التحقق فلا بد من تحققه في المستقبل، وما سلف عنوان ما سيأتي.

٥ ــ ولا يأتيه الباطل بأن تتعرض نصوصه للضياع أو التحريف أو التبديل؛ بالزيادة فيها أو النقص منها.

وقد تم فضل الله وصدق وعده، فعمَّ القرآن وانتشر بأحكم طريقة علمية يمكن أن تتوصل إليها الإمكانات الإنسانية، وحفظه الله كما أنزله طوال هذه القرون، دون أن يستطيع أعداؤه ومبيِّتو المكايد له أن ينقصوا منه شيئاً، أو يزيدوا فيه حرفاً.

= وقد تحقق ما أخبر الله به في هذه الآية، فدخل الرسول بعد ذلك وأصحابه المسجد الحرام آمنين، محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين غير خائفين.

(ب) وقوله تعالى: ﴿وعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾.

وقد وفى الله للمؤمنين هذا الوعد، فكانت دولة الإسلام هي الدولة المستخلَفة في الأرض، والممكَّنة بتمكين الله.

(جـ) وقوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ وقد تحقّق ظهور الإسلام على سائر الأديان، بالحكم والسلطان حينما طبق المسلمون إسلامهم، وبالحجة والبرهان في كل عصر وزمان.

(د) وقوله تعالى: ﴿وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب﴾. وقد تحقق ذلك فتم نصر الله للمؤمنين من أصحاب رسول الله، وكتب لهم الفتح القريب ــ وهو فتح مكة ــ، ثم فتح الممالك العظمى التي كانت صاحبة السلطان في الأرض.

(هـ) وقوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يُحقَّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾. وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى، فتحقق وعد الله لهم، فانتصروا على المشركين وغنموا منهم على الرغم من قلة عدد المسلمين وذلتهم، وكثرة عدوهم بالنسبة لهم.

(و) وقوله تعالى: ﴿ألم. غُلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾. وقد تحقق ذلك فانتصر الروم على فارس بعد ذلك، في بضع سنين، كما أخبر الله في الآية.

(ز) وقوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾. وقد حقق الله له وعده فعصمه من محاولات القتل التي دُبِّرت له ليلة الهجرة، إذ أجمع مشركو مكة على قتله، وعصمه من اغتيال اليهود له، إذ دبّروا له وهو في حيّهم إلقاء صخرة عليه. وعصمه مرّة أخرى في خيبر، إذ قدّمت له يهودية شاة مسمومة، وبقي معصوماً طوال حياته، حتى جاء أجله.

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة.

هذا هو القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو كان من عند غير الله ـ وكان مِثْلَه جامعاً من أطراف العلوم والأخبار ما جمع ـ لوجد الناس فيه اختلافاً كثيراً. قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

وسموُّ كتابٍ إلى هذه المرتبة من الكمال والقدسية والصيانة، وموافقة الحق في كل ما جاء فيه، مما يشهد له حتماً بأنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الله الحكيم العليم المقتدر.

(ب) ومن وجوه إعجازه:

سلطانه العجيب في هدايته، وفي تأثيره المعنوي على عقول الناس، وفي الخشية التي تُحدثها تلاوته في قلوب سامعيه، الأمر الذي هوَّن على خصومه أن يقولوا عنه سحر.

وسلطانه العجيب هذا كان هو السرَّ في تجمّع مختلف الشعوب والأمم حوله، إذ تَركت بسرِّ تأثيره عصبياتها القومية والدينية الموروثة، وهجرت تقاليدها وعاداتها المتبعة، ولذلك نجد أكبر وصف للقرآن نفسه وصفُهُ بأنه «هدى للناس». قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾﴾.

وليس غريباً أن يُحدِثَ هذه الخشية في القلوب الواعية، ولو أنه أُنزل على الجبال لخشعت لجلاله، ولتصدَّعت من خشية الله. قال الله تعالى في سورة (الحشر ٥٩):

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ودلّت هذه الآية على أنّ تأثير القرآن في الجامدات يحتاج إنزالاً عليها، فبالإنزال الموجّه تقترن المؤثرات الربّانية العظمى فيها. أمّا تأثيره في الناس فمن خلال اختيارهم واستجابتهم له.

أمثلة:

١ ـ لما قرأ جعفر بن أبي طالب القرآن على النجاشي ومن حوله القسيسون والرهبان؛ أخذت الخشية تتغشّاهم، فأجهشوا جميعاً بالبكاء حتى فرغ جعفر من القراءة. ثم إن النجاشي أرسل إلى رسول الله ﷺ سبعين عالماً من علماء النصارى، فقرأ الرسول عليهم سورة (يسٓ)؛ فبكَوْا وآمنوا.

وإلى ذلك جاءت الإشارة في قوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

٢ ـ جاء في الصحيحين: عن جبير بن مُطْعِم رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب (بالطور ٥٢)، فلما بلغ هذه الآية ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾؛ كاد قلبي يطير للإسلام.

(ج) ومن وجوه إعجازه:

ما جمع من حِكَم وأحكام، وعظات وأخلاق، ومبادىء وعقائد وتشريعات، وأخبار عما مضى وما هو آتٍ، ومعارف جزئية، وعلوم كليَّة، بلغت كلها مبلغاً لا ترقى إلى الإتيان بمثله المستويات الإنسانية، في تماسكها وترابطها، وموافقتها للحق والمصلحة وسعادة الناس جميعاً. وما زال على تعاقب العصور بهذا المستوى، رغم تقدم العلوم، وتطوُّر المعارف، وتجربة مختلف المبادىء والقوانين والأنظمة الوضعية الإنسانية. ولن يزال كذلك أبد الدهر.

ومع كل كمالات هذا الكتاب، فقد أُنزل على رجل أُمِّيّ، لم يسبق له دراسة ولا كتابة، ولا قراءة ولا علم على أحد، وفي أُمَّة أميَّة لا تعرف شيئاً من هذه العلوم والمعارف التي جاءت فيه.

قال الله تعالى يخاطب رسوله محمداً ﷺ في معرض الحديث عن أهل الكتاب في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: لو كنت تتلو من قبله من كتاب، أو كنت كاتباً تخطّ الكتب بيمينك لارتاب المبطلون فقالوا: نقله من الكتب السابقة أو جلس على تأليفه وجَمْعه وتنقيحه وصياغته.

(د) ومن وجوه إعجازه: بلاغته وفصاحته:

فمما لا ريب فيه أن القرآن الكريم ـ بوصفه كتاب هدي عالمي للناس أجمعين ـ على سنام الذروة من الفصاحة والبلاغة، وفي المكان الذي لا يستطيع البشر مهما أُوتوا من بلاغة وبيان أن يرقوا إلى مستواه، شهد بذلك الصديق والعدو، والمؤمن والكافر.

ولقد تحدى القرآن العرب بل الناس أجمعين أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سُورٍ منه، أو بمثل سورة منه، فما وُجد منهم معارض.

علماً بأن العرب كانوا يفتخرون على الناس بفصاحتهم وبلاغتهم، ويعتزُّون بمهارتهم في ألسنتهم، ويعقدون أسواقاً لنقد الشعر والنثر فيما بينهم، ولا يرتضون لأنفسهم أن يَمُرَّ عليهم تحدٍّ من نوع مهارتهم الخاصة بهم، دون أن يقابلوه بمعارضة أو نقد، وكانت تأخذهم الأنفة والعزة والعصبية.

ومع كل ذلك رأيناهم بعد التحدي اللاذع لم يحركوا ساكناً في معارضة القرآن أو نقده، بل دخلوا بسببه في دين الله أفواجاً، وكان مَبْلغ نقد ناقدهم العدو الحاقد أن يقول عنه: سحر أو شعر، وليس هذا من النقد في شيء، بل هو إقرار بعظمته وسموه.

وهذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن سبق في التاريخ الإسلامي أن كان المصباح المشعّ؛ الذي أضاء لعلماء اللغة العربية الطريق للوصول إلى فنون المعاني والبيان والبديع، ثم تسابق الباحثون في إبراز إعجاز القرآن البلاغي، وإبداعه البياني، وروائع تصويره الفني، وما تزال مجالات البحث فيه متسعة لكل باحث بصير.

وبلاغة القرآن المعجزة تتجلى في أربعة أمور:

● **الأمر الأول**: أن اللفظ القرآني ــ في مفرداته وتراكيبه ــ في مقام الذروة من الفصاحة والبلاغة والبيان.

● **الأمر الثاني**: أن الأساليب القرآنية ــ المختارة للدلالة على المعاني المرادة بالذات ــ هي أروع الأساليب وأجملها، وأكملها وأحكمها، وفي مقام الذروة من الابتكار والإبداع وجمال التصوير.

● **الأمر الثالث**: أن المعاني القرآنية المرادة بالذات، في مقام الذروة من الإبداع والجمال والكمال، والمطابقة لحال مهمة الرسالة، مع الصدق فيها وموافقة الحق والواقع، واستيفائها لكل ما يضمن المصلحة والسعادة للناس أفراداً وجماعات، وشعوباً وحكومات.

● **الأمر الرابع**: أن النُّصوص القرآنية مكافئة لمعانيها المنتقاة لأسلوب الدلالة، ومطابقة لمعانيها المرادة بالذات، دون زيادة ولا نقصان؛ ولكنّها بسبب إيجازها وعمقها تحتاج بحثَ وتأمُّلَ الباحثين المتدبرين على مدى الوجود الإنساني في الأرض.

ومعلوم أنه كلما ازداد شرف الألفاظ، وإبداع الأسلوب، ورونق المعاني، والمطابقة بين اللفظ والمعنى المنتقى لأسلوب الدلالة، والمطابقة بين هذا المعنى الأسلوبي وبين المعنى المراد في أصل الدلالة، كان الكلام أبلغَ وأتمَّ وأحكم.

والقرآن الكريم في كل هذا قد ارتقى ذروة السنام، التي لا يستطيع أن يرقى إلى مستواها إنس ولا جن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

فهـو قد استقصى في روائـع آيـاته مختلف وجـوه الفصاحـة العربيـة، مـع جـزالـة اللّفظ وعذوبته وسموّ معناه، واستجمـع أروع الصور البيانية، وجسّد الصـور المعنويـة بلوحات فنيـة بديعة معجزة من روائـع الألفاظ، وجمـع المعاني الكثيرة الجليلة في ألفاظ عذبـة يسيرة، مـطابقة للمعـاني المرادة لا نقص فيهـا ولا خلل، ولم تنـزل آيـة مـن آيـاتـه عن مقـام ذروة الفصـاحـة والبلاغة والبيان.

وبين هذه المنزلة الرفيعة المستوفية لمختلف وجـوه الجمال والكمـال والإبداع وبـين أرفـع المستويات الإنسانية البلاغية، بون شاسـع.

المعجزة الثانية:

ومن معجزات محمد ﷺ التي وردت في القرآن:

الإسراء بجسده وروحه في ليلة واحدة من مكّة إلى القدس ليُرِيَـه الله من آياتـه. قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

فلفظ (أسرى بعبده): يعني الجسد والروح معاً وبذلك تتحقق المعجزة.

وتفصيـل هذه المعجـزة موضَّـح في كتب الحـديث والسيرة النبـوية، ومـوسـوعـات كتب التفسير. ولئن لم يشهد الناس هـذه المعجزة لكنّ الرسول ﷺ قد أخبـرهم بها، فلما طلبـوا منه وصف بيت المقدس ـ ولم يكن قد زاره من قبل ـ أخذ يصفه لهم كأنه يشاهده، إذْ كشـف الله عن بصيـرته، فجعـل يراه ويصفه، فظهـرت المعجزة للنـاس بالـدليل عليهـا. وإذْ لم تكن هذه الخارقة أمراً ظاهراً للناس على سبيل التحـدّي، فقد رأى بعض أهـل العلم أنها تكريم من الله لنبيه، وليست من المعجزات.

المعجزة الثالثة:

ومن معجزاته ﷺ الواردة في القرآن أيضاً:

إخباره بأن الروم ستغلب فارس في بضـع سنين، وموافقة خبره لما وقـع فعلاً.

(عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان المسلمـون يُحِبُّون أن تـظهر الـروم على فـارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أهل أوثـان. فذكـر ذلك المشركون لأبي بكر، فذكر أبو بكر للنبـي ﷺ، فقال النبـي ﷺ: أمـا إنهم سيظهـرون.

فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا: اجعل بيننا وبينكم أجلاً إن ظهروا كان لك كذا وكذا، وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا. فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: ألا جعلته دون العشرة؟ فظهرت الروم بعد ذلك يوم بدر).

أخرجه البيهقي وأحمد وأبو نعيم (عن «الخصائص»)

وكان ذلك في السنة السابعة أو التاسعة للمشارطة.

وقد شهد القرآن لهذه المعجزة وأخبر عنها في قوله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④﴾.

البضع: كل ما دون العشرة، كما جاء عن الرسول ﷺ.

وخلاصة الحادثة التي تضمنت هذه المعجزة فيما يلي:

بدأت دعوة الرسول ﷺ في مكة، وأخذت تنمو، وانقسم أهل مكة إلى مؤمنين بالرسول ودعوته، ومشركين كافرين بذلك. وفي حدود الجزيرة العربية شمالاً تقع دولتان كبيرتان، هما دولتا فارس والروم، وقد كان لهما نفوذ على ملوك العرب، أما فارس فقد كانوا مجوساً، وأما الروم فقد كانوا نصارى. ومع صراع الدعوة بين المسلمين والمشركين في مكة، وردت الأخبار بأن الفرس قد غلبوا الروم في حرب وقعت بين الدولتين الكبيرتين، ففرح المشركون بذلك وقالوا للمسلمين: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أُمّيُّون لا كتاب لنا، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ عليكم، فنزل قوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم...﴾ الآية وما بعدها.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا يُقِرّنَّ الله أعينكم، فوالله لتظهرَنّ الروم على فارس في بضع سنين.

فقال أُبَيّ بن خلف: كذبت، اجعل بيننا وبينك أجلاً.

فراهنه أبو بكر على عشر قلائص (نوق) من كل واحد منهما، وجعلا الأجل خمس سنين. فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ، فقال له الرسول: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايد أبو بكر رضي الله عنه أبي بن خلف في الإبل، وماده في الأجل، فجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين. ومات أُبيّ بن خلف بعدما رجع من أحد، وظهرت على الروم فارس

في السنة السابعة أو التاسعة من سنة غلبت فارسُ الروم[1]، فأخذ أبو بكر القلائص من ورثة أُبي، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: تصدقْ بها.

وقد وقع هذا الرهان قبل أن يُحَرَّم الرهان في الإسلام.

ومن المعجزات التي اشتمل عليها القرآن، إخباره بالفتح القريب للمسلمين، ثم كان كما أخبر. قال الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

وكان هذا قبل حصول الفتح والمغانم الكثيرة، ثم كان الفتح وحصلت المغانم الكثيرة للمسلمين كما جاء في الإخبار.

المعجزة الرابعة:

معجزة انشقاق القمر. قال الله تعالى في بيان هذه المعجزة في سورة (القمر ٥٤):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾.

قال القاضي عياض: أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه.

وعن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين حتى رأوا حِراء بينهما.

والأحاديث الدالة على وقوع الانشقاق فعلاً ــ معجزة للرسول ﷺ ــ كثيرة، وقال بعض المحققين: إنها متواترة.

ولما وقعت هذه المعجزة قال كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة ــ يعنون محمداً ﷺ ــ، فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها! قال أبو جهل: هذا سحر، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا أرأَوْا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً، فقال كفار قريش: هذا سحر مستمر!!

(١) ذكر المؤرخون أنه بدأت انتصارات الفرس على الروم في سنة (٦١٤م): فقد استولوا على دمشق في هذه السنة، ثم خربوا بيت المقدس واستولوا على الصليب الحقيقي في (٦١٥م)، ثم أخضعوا مصر في (٦١٦م)، وصاروا على بعد ميل من القسطنطينية في (٦١٧م). ثم استعاد الروم سلطانهم وتوالت الانتصارات لصالحهم، بدءاً من سنة (٦٢٢م)، الموافقة للسنة الأولى للهجرة النبوية.

المعجزة الخامسة:

إمداد الله الرسول وأصحابه بالملائكة في غزوتي بدر والخندق (الأحزاب). والإمداد بالملائكة في الحروب من خوارق العادات، وقد أثبت القرآن إمداد الرسول وأصحابه بالملائكة وذلك:

(أ) في غزوة بدر: في آيات منها قوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

(ب) وفي غزوة الخندق: في قوله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

خاتمة:

وهنالك معجزات كثيرات لنبينا محمد ﷺ لم ينوّه القرآن بها، وإنما جاءت من طرق صحيحة عديدة، كتكثير الطعام القليل، والإخبار عن بعض المغيبات، وتكليم الجمادات له، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وتفجير الماء ببركته، وإبراء المرضى بلمسه ﷺ. وأمثال ذلك مما كان في حياته ﷺ، أدلّة مادّية واضحة لمن يطلع عليها، فتشهد بصدق نبوة محمد، وقد تكون سبباً في إسلام الرجل إذا كتب الله الهداية له.

وهذه المعجزات في جملتها تعتبر متواترة من حيث المعنى في إثبات المعجزات له ﷺ؛ من غير المذكور في القرآن، ولا ينكر ذلك إلاّ مكابر جاحد.

فإن أردت اطلاعاً على مفردات معجزاته ﷺ، فارجع إلى كتب السيرة النبوية والحديث الشريف، وارجع إلى كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي، وإلى كتاب الشِّفَاء للقاضي عياض. وإليك بعضاً منها أخذاً من صحاح الأحاديث:

١ ــ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه رَكْوة[1] فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، قالوا: ليس عندنا ماء

(١) الركوة: إناء للماء من جلد.

نتوضأ به ونشرب إلاّ ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا.

قيل لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

(رواه البخاري ومسلم)[1]

٢ ـ عن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة في ساق سَلَمة بن الأكوع، فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ قال: ضربة أصابتني يوم خيبر فقال الناس: أصيب سَلَمة، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نَفَثات، فما اشتكيتها حتى الساعة.

(رواه البخاري)[2]

٣ ـ عن سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً، فولّى صحابة رسول الله ﷺ، فلمّا غَشَوا رسول الله ﷺ، نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلاّ ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.

(رواه مسلم)[3]

غَشَوْا رسول الله: أي أحاط به المشركون.

شاهت الوجوه: أي قَبُحَت، وهو دعاء القصد منه طلب خذلان هؤلاء المشركين.

٤ ـ عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئنّ أنين الصبي الذي يُسكت حتى استقرت، قال: (بكت على ما كانت تسمع من الذكر).

(رواه البخاري)[4]

وقد شهد هذه المعجزة المئات من أصحاب رسول الله ﷺ.

أمثلة من إسلام بعض أصحاب الرسول بدليل المعجزة:

لقد دخل في الإسلام كثيرون من أصحاب الرسول بتأثير المعجزات التي شهدوها من الرسول ﷺ؛ وقد كانت معجزة القرآن من أكبر المعجزات التي أثَّرت في العرب، فدخلوا في

---

(١) أخذاً من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٨٨٢).

(٢) أخذاً من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٨٨٦). فنَفَثَ فيه: أي: نفث في موضع الضربة.

(٣) أخذاً من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٨٩١).

(٤) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٩٠٣).

دين الله أفواجاً، وممن دخل في الإسلام بتأثير القرآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيما يلي قصة إسلامه كما يحدِّث عن نفسه.

قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعجزة القرآن:

أخرج البزار والبيهقي والطبراني وأبو نعيم في الحلية، عن عمر بن الخطاب قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينما أنا في يوم حار شديد الحَرِّ بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش، فقال لي: أين تريد يا ابن الخطاب؟ فقلت: أريد إلَهي وإلَهي وإلَهي ــ أي: أريد نصرة آلهتي من الأوثان ــ قال: عجباً لك يا ابن الخطاب، إنك تزعم أنك كذلك وقد دخل عليك الأمر في بيتك!. قال: فقلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد أسلمت، قال: فرجعت مغضباً حتى قرعت الباب ــ وقد كان رسول الله ﷺ إذا أسلم الرجل والرجلان ممن لا شيء له، ضمهما رسول الله ﷺ إلى الرجل الذي في يده السعة، فينالا من فضل طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين ــ فلما قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: عمر، فتبادروا فاختفوا مني ــ وقد كانوا يقرأون صحيفة بين أيديهم، تركوها أو نسوها ــ، فقامت أختي تفتح الباب، فقلت: يا عدوة نفسها صبوتِ! وضربتها بشيء في يدي على رأسها فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، فقالت: يا ابن الخطاب، ما كنت فاعلاً فافعله فقد صبوت. قال: ودخلت حتى جلست على السرير، فنظرت إلى الصحيفة وسط البيت فقلت: ما هذا؟ ناولينيها، فقالت: لست من أهلها، أنت لا تطَّهر من الجنابة، وهذا كتاب لا يمسه إلَّا المطهرون! فما زلت بها حتى ناولتنيها، ففتحتها فإذا فيها «بسم الله الرحمن الرحيم»، فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت منه، فألقيت الصحيفة. ثم رجعت إلى نفسي فتناولتها، فإذا فيها «سبَّح لله ما في السماوات والأرض»، فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت. ثم رجعت إلى نفسي فقرأتها حتى بلغت «آمنوا بالله ورسوله»، إلى آخر الآية، فقلت: أشهد أن لا إلَه إلَّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

(الآيات الأوليات من سورة الحديد)

فخرجوا إليَّ متبادرين وكبروا وقالوا: أبشر يا ابن الخطاب فإن رسول ﷺ دعا يوم الإثنين فقال: (اللهم أعز دينك بأحب الرجلين إليك، إمَّا أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب) وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك.

(عن الخصائص الكبرى للسيوطي)

□ □ □

الفصل الرّابع

صِفَاتُ الرّسُل

عليهم الصّلاة والسّلام

حينما نلاحظ مفهوم الرسالة في الرسول كما عرفنا في البحوث السابقة تتوضح لدينا الأمور التالية:

(أ) أن الرسول عبد اصطفاه الله بالوحي إليه.

(ب) أنه مبلِّغ عن الله تعالى علوم شريعته وأحكام دينه لخلقه.

(ج) أنه قد حمل مهمة الدعوة إلى الله وإلى صالح العمل، بالأسلوب الحكيم.

(د) أنه مصدَّق من قبل الله بالمعجزة.

(هـ) أنه القدوة الحسنة الذي يؤتسى به في عمله وفي خلقه، ويهتدى بهديه.

(و) أنه مطاع بإذن الله، متَّبعٌ بأمر الله.

(ز) أنه قائد أمته، ومدبر أمور سياستها الدينية والدنيوية.

ولدى ملاحظتنا لهذه الأمور نستطيع أن نستنتج للرسول صفات ثابتة، لا بد من وجودها فيه، حتى تتحقق لديه أسس مفهوم الرسالة.

فلا بد أن يتصف الرسول: بعلو الفطرة، وصحة العقل، والصدق في القول، والأمانة في تبليغ ما عُهد إليه بتبليغه، والعصمة من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة الأبدان مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة، وقوة الروح، بحيث لا تستطيع نفس إنسانية أو جنيَّة أن تسطو عليه سطوةً روحانيةً، لأن الجلال الإلٓهي يُمدّه دائماً بمدد منه.

وإنما لزمت لرسل الله هذه الصفات لأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، أو مسّ عقولهم شيء من الضعف، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخرى، أو ضعفت نفوسهم وإراداتهم عن تنفيذ أوامر الله ونواهيه والتزام طاعته، أو كانوا عاجزين عن تبليغ جميع ما عُهد إليهم بتبليغه، بسبب خوف أو طمع أو نسيان أو غير ذلك، لَمَا كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الرّبّاني الذي يفوق كل اختصاص ــ وهو: اختصاصهم بالوحي والكشف لهم عن أسرار علم الله ــ ، ولَمَا كانوا أهلاً لهذا الاصطفاء الجليل!! وكذلك لو لم تسلم أبدانهم عن المنفِّرات، لكان انزعاج النفوس لمرآهم حجة للمنكِر في إنكار دعواهم.

أما فيما عدا ذلك فالرسول بشر، يعتريه ما يعتري سائر أفراد هذا النوع من المخلوقات، فهو يأكل ويشرب، وينام وينكح ويمرض، وقد ينسى فيما لا علاقة له بتبليغ ما أمره الله بتبليغه، وقد يخطىء في تصريف بعض الأمور الإنسانية، التي تدخل في باب الاجتهاد المأذون به، ولكنه يُنبَّه على الخطأ حتى لا يكون الخطأ بمقتضى وجوب التأسي به هو الصواب، وقد تمتد إليه أيدي الظلمة وينالـه الاضطهاد والتعذيب، وقد يُقتل إلاَّ أن يعده الله بالعصمة من الناس، كما وعد الله سيدنا محمداً بذلك.

ونعالج فيما يلي صفات الرسل عليهم السلام بشيء من التفصيل:

(١)
«صفة الفطانة»

إن حمل رسالة علمية، ومهمة تربوية للناس، وقيادة سياسية ـ وهذه من مهام الرسل عليهم السلام كما سبق ـ لا بد أن يرافقها في حاملها صفة الاستعداد لحمل هذه الرسالة، وذلك لأن الحكمة العليا تقتضي ذلك.

والصفة التي تمثل الاستعداد لحمل رسالة علمية، ومهمة تربوية، وقيادة سياسية، لمجموعة من البشر، إنما هي صفة «الفطانة». فبها يعرف الرسول ما يلقى إليه من الوحي، وبها يستطيع أن يحفظه ولا ينساه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يبلغه كما أوحي به إليه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يعالج أمته بالتربية الحكيمة، والقيادة السليمة، وفق طبائعهم وأخلاقهم.

لذلك فلا يصطفي الله لرسالته إلاَّ من يتمتع بصفة الفطانة التامة، والعقل الراجح.

ويشهد لفطانة الرسل عليهم السلام آيات كثيرة من القرآن الكريم:

(أ) فمنها ما قد يدلّ على فطانة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك قوله تعالى يخاطبه في سورة (القيامة ٧٥):

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فتحريك الرسول لسانه بالقرآن لحفظه عند نزول الوحي من فطانته وذكائه؛ وكذلك تعجله بترديد آياته من قبل أن يقضى إليه وحيه من كمال فطانته وذكائه.

وقوله تعالى له أيضاً: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾. فشهادة الله له بأنه لا ينسى تثبت فطانته. كما يشهد لفطانته أمر الله له بمجادلة القوم بالتي هي أحسن، وذلك في قوله تعالى في سورة (النحل ١٦): ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (١٢٥). والمجادل يحتاج إلى نباهة زائدة، وفطانة كبيرة، حتى يستطيع بها أن يعرّف مجادليه بالحق، ويقبض في جدالهم على مغامز الشبهات منهم، ثم يقنعهم بأقرب طريق، وألين حوار.

(ب) ومنها ما يشهد لفطانة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ومن ذلك شهادة الله له بقوة الحجة، وقوة الحجة من كمال العقل، ومن تمام الفطانة مع البديهة الحاضرة. قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

ففي جداله للنمروذ، قال له النمروذ: من ربك؟ قال: «ربي الذي يحيي ويميت»، قال النمروذ «أنا أحيي وأميت»، فلم يشأ إبراهيم عليه السلام ــ بما أوتي من فطنة عظيمة ــ أن يشتغل بإبطال ما ادعاه نمروذ، وإنما نقله إلى مظهر آخر من مظاهر أفعال الربّ، فقال له: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأتِ بها من المغرب»! عندئذٍ بهت الذي كفر ــ وهو النمروذ ــ ولم يجد جواباً، فسقط بذلك ادعاؤه الربوبية.

(جـ) ومنها ما يشهد لفطانة سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى حكاية لقول قومه له في سورة (هود ١١):

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴿٣٢﴾﴾.

وإنما قالوا له ذلك بعد أن ضاقوا ذرعاً بقوة مجادلته، التي يسلك فيها كل مسلك مقنع حكيم.

وإذا نظرنا في تاريخ الرسل وجدنا الكثير الذي لا يحصى من مظاهر فطانتهم، وصور كمال عقلهم.

وأخيراً: إذا عرفنا أن الفطانة صفة ثابتة من صفات الرسل، عرفنا أيضاً بالبداهة أن ضدّ هذه الصفة ــ وهي صفة البلادة وضعف التفكير ــ لم تكن من صفات أي رسول من رسل الله قط، فهم أبعد خلق الله عنها.

(٢)
«صفة العصمة»

وإذْ ثبت أن الرسول هو المثل الأعلى في أمته، الذي يجب الاقتداء به في اعتقاداته وأفعاله، وأقواله وأخلاقه، إذ هو الأسوة الحسنة بشهادة الله له ــ إلَّا ما كان من خصائصه بالنص ــ ؛ وجب أن تكون كل اعتقاداته وأفعاله، وأقواله وأخلاقه الاختيارية بعد الرسالة موافقة لطاعة الله تعالى، ووجب أن لا يدخل في شيء من اعتقاداته وأفعاله، وأقواله وأخلاقه، معصيةٌ لله تعالى.

لأن الله أمر الأمم بالاقتداء برسلهم، فإذا أمكن أن يفعل الرسل بعد الرسالة المعاصي، كان معنى الأمر باتخاذهم أسوة في حال أن المعصية جزء من أفعالهم أمراً بالمعصية، وفي هذا تناقض ظاهر.

ونصوغ الدليل بعبارةٍ أخرى فنقول: إن الأمر باتباع الرسول في اعتقاداته وأفعاله وأقواله وأخلاقه؛ يستلزم أن تكون هذه الأشياء مأموراً بها، وإذا كانت كذلك كان فعلها طاعةً لا محالة، فإذا فرضنا أنه يجوز أن يكون جزء من اعتقاداتهم أو أفعالهم أو أقوالهم أو أخلاقهم، معصية لله تعالى في واقع الحال، لزم أن يجتمع في هذا الجزء: الأمر به ــ بمقتضى الأمر بالاتباع ــ والنهي عنه ــ بمقتضى كونه معصيةً ــ في وقت واحدٍ، وهذا تناقض!!. فلا يمكن أن يأمر الله عبداً بشيءٍ في حال أنه ينهاه عنه، لأن الأمر بالشيء في وقت النهي عنه لمأمورٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ تكليفان متناقضان؛ والجمع بين النقيضين مستحيل عقلاً، فإن حصل مثل هذا التكليف كان تكليفاً بالمستحيل.

وبذلك يثبت أن الرسل عليهم السلام ــ بعد نبواتهم ورسالاتهم، وبعد الأمر بالاقتداء بهم ــ معصومون عن المعاصي، وهذا ما يسمى بـ (عصمة الرسل) أو يسمى بصفة (الأمانة).

فالعصمة والأمانة بهذا المفهوم: حفظ أوامر الله تعالى من مخالفتها، وحفظ نواهيه من الوقوع بها.

ويدل على الأمر بالاقتداء بالرسول، والتأسي به واتباعه ــ الذي يتضمن معنى العصمة عن المعصية والأمانة على أوامر الله ونواهيه ــ ؛ قول الله تعالى بشأن سيدنا محمد في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

وقوله تعالى بشأن جميع الرسل في سورة (الممتحنة ٦٠):

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿٦﴾﴾.

وقوله تعالى يخاطب رسوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

كما يدل على معنى العصمة أيضاً قول الله لرسوله محمد ﷺ في سورة (الفتح ٤٨):

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾﴾.

فغفران الذنب الماضي هو العفو عنه، وأما غفران الذنب المستقبل فهو حمايته من الوقوع به، وهذا هو معنى العصمة عن المعاصي. ومن أشكل عليه هذا المعنى للغفران، ورأى أنّ المغفرة إنما تكون للذنب الواقع، أجبناه بأن ما جاء في هذه الآية إنما هو وعد كريم من الله أن لا يدع لرسوله ذنباً إلاَّ غفره له؛ فلا يلزم من ذلك وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام، أو نجيبه بأن المعاصي التي قد يتعرض لها الرسول هي مخالفات لتكاليف خاصة بالرسل، وهي بالنسبة إلى غيرهم فوق مرتبة التقوى، إذ هي من مرتبة البرّ أو من مرتبة الإحسان، فلو حصلت مخالفة من الرسول في شيء من ذلك فإن عمله يظلّ في حدود مرتبة التقوى بالنسبة إلى غير الرسول، ويظلّ في عمله أسوةً حسنةً للناس.

وهذا ما عبّر عنه بعض العلماء بقولهم: حسنات الأبرار سيّئات المقربين.

وإذا ثبت للرسول صفة الأمانة ــ وهي: العصمة عن المعاصي والذنوب ــ امتنع عليه أن يتصف بضدها؛ وضد الأمانة الخيانة، وهي: الوقوع بمعصية الله ومخالفته بالإرادة والاختيار.

وكما أن معنى العصمة يتناول عصمة الرسول عن المعاصي الاعتقادية والقولية، والفعلية والخلقية، فإنه يتناول أيضاً عصمة الرسول عن الكتمان والتحريف، والخطأ والغلط والنسيان فيما أمره الله بتبليغه للناس، لأنه لو لم يكن معصوماً عن ذلك لم يكن أهلاً للاصطفاء بالرسالة، ولأثّر ذلك في أصل مهمة البعثة، ولانعدمت الثقة بما يبلّغه عن الله من شرائع وأحكام وأخبار وغيرها:

وبناءً على ذلك تتلخص لدينا الأمور التالية:

١ ــ فلا يمكن أن يعتقد الرسول بعد النبوة عقيدةً تخالف الحق الذي أمر الله الرسل أن يؤمنوا به؛ لوجوب عصمة قلوب الرسل بعد النبوة عن الزيغ في عقيدتهم، وإلاَّ لم يصطفهم الله تعالى بالنبوّة والرسالة.

٢ ــ ولا يمكن أن تتعرض تبليغات الرسول التي يبلغها عن ربه للكتمان أو التحريف، أو الخطأ أو الغلط أو الكذب، لأن ذلك يتنافى مع أصل النبوَّة ومهمة الرسالة تنافياً بيِّناً كما علمنا.

٣ ــ ولا يمكن أن تتعرض أفعال الرسول وأقواله وسيرته البشرية بعد النبوة للمعاصي؛ سواء كانت كبيرة أو صغيرة، لأن ذلك ينافي كونه أسوة حسنة، ويتعارض مع الأمر بالاقتداء به واتباعه، ولا يتناسب مع كون أفعاله حجة شرعية على أمته، فيما لم يكن من خصوصياته بالنص في الإباحة، أو من خصوصياته في تكاليف زائدة يُلَّزم هو بها، دون أن تكون واجبات على غيره.

٤ ــ ولا يمكن أن تتعرض صفات الرسول النفسية وأخلاقه القلبية بعد النبوة لما فيه معصية لله؛ كبيرة كانت أو صغيرة، كالحقد والحسد، والعزم على ارتكاب المعصية، وتمني ارتكابها، وأمثال ذلك من معاصي النفوس والقلوب، لأن ذلك ينافي كون الرسول أسوةً وقدوةً حسنةً للناس في ذلك كما سبق بيانه.

عصمة الأنبياء قبل النبوة:

إن النبـي قبل اصطفائه بالنبوة على وجهين، فهو:

١ ــ إما أن يكون لم يكلف بعدُ مطلقاً بشرعٍ ما: فالعصمة في حقه غير ذات موضوع، لأن المعاصي والمخالفات إنما تُتَصور بعد ورود الشرعْ والتكليف به، والمفروض أنه لم يكلف، فلا مجال لبحث العصمة أو عدمها، لأن الذمة خالية من التكليف.

لكنَّ علوّ فطرة الرسول وصفاء نفسه، وسمو روحه وصحة عقله، تقتضي أن يكون أنموذجاً رفيعاً بين قومه في أخلاقه ومعاملاته وأمانته، وفي بُعْدِه عن ارتكاب القبائح التي تنفر منها العقول السليمة، والطباع المستقيمة.

٢ ــ وإمّا أن يكون قد كلف بشرع رسول سابق ــ كسيدنا لوط عليه السلام حينما كان تابعاً قبل نبوته لعمه إبراهيم عليه السلام، وكأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى قبل أن يوحى إليهم بالنبوة ــ :

وهذه الحالة لم يثبت في عصمة النبـي فيها دليل قاطع، لا عن الكبائر ولا عن الصغائر، لكنّ سيرة الأنبياء التي أُثرت عنهم قبل نبواتهم تشهد بأنهم من أبعد الناس عن المعاصي؛ كبائرها وصغائرها.

ولئن وقع منهم شيء من ذلك فهفوات نادرة لا تطعن بعلو فطرتهم، وصفاء نفوسهم، وسمو أرواحهم، والمهمة التي سيكلَّفونها فيما بعد. وإنما تقع منهم هذه الهفوات إثباتاً لبشريتهم أمام الخلائق، لئلا يرفعوهم فوق المستوى البشري، ويحمِّلوهم من صفات الألوهية ما لا يمكن أن يتصفوا به، فهم عبيد مخلوقون لله تعالى، وليظهر الفرق بين أحوالهم قبل النبوة وأحوالهم بعدها.

ما جاء في النصوص الشرعية من معاصي الأنبياء:

وأما ما جاء في النصوص الشرعية القاطعة من معاصي الأنبياء ومخالفاتهم، فهو محمولٌ على أحد وجهين:

الوجه الأول: أن المعصية الثابتة في حق النبي قد وقعت منه قبل نبوته.

وذلك كمعصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه الله عن أن يأكل منها، وقد أثبت الله عصيانه بقوله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

قال الشيخ أبو بكر بن فُورَك وغيره: إن الله تعالى ذكر أن الاجتباء والهداية، كانا بعد العصيان، وهذا يدل على أن المعصية كانت قبل النبوة[1].

الوجه الثاني: أن المعصية التي يوهم ظاهر النص نسبتها إلى الرسول ليست هي في واقع الحال معصيةً، وإنما هي:

(أ) إمَّا خطأ في اجتهاد مأذون به، ثم أرشد الله رسوله إلى ما هو أتمّ وأكمل. وذلك كقصة فداء أسرى بدر بالنسبة إلى سيدنا محمد صلوات الله عليه.

(ب) وإمَّا اختيار للمفضول من أمرين مباحين، ثم جاء الإرشاد الإلٓهي إلى أن الأمر الثاني أفضل، وأكثر تحقيقاً للمصلحة.

وذلك كقصة إذن الرسول لبعض المتظاهرين بالإسلام من أهل النفاق بأن لا يخرجوا معه إلى القتال، وهي المشار إليها بقوله تعالى: «عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم؟[2]»، وليس المراد من العفو إثبات المعصية، وإنما المراد عدم إثباتها أصلاً.

قال القشيري: وأنما يقول: «العفو لا يكون إلاَّ عن ذنب» من لم يعرف كلام العرب، ومعنى «عفا الله عنك» أي: لم يلزمك ذنباً.

---

(١) انظر «الشفاء» للقاضي عياض، الجزء الثاني الصفحة ١٦٢.

(٢) ٢٣ (التوبة/٩).

وفي كـل من التنبيه الـرباني إلى وجـه الصـواب في الاجتهـاد المـأذون بـه، والإرشـاد إلى الأفضل الأكمل من الأمـرين المباحـين، أسلوب رفيـع من أساليب التـربية الـربانيـة للرسول، وهي تتضمن تـوجيهه إلى ضـرورة التأمـل الـزائـد في الاجتهـاد، والتبصر في اختيـار الأفضـل والأكمل. وليس في ذلك شيء من إثبات المعصية أو المخـالفة، ولـو كان في صـورة عتاب، لأن في العتاب دفـع همة الرسول لزيادة التأمل والتبصر، واختيار أسمَى مراتب الكمال.

(ج) وإمَّا مخالفات تكاليف خاصة بالرسول هي من مَرْتبة الإحسان أو من مـرتبة البـر، لا من مرتبة التقوى التي يلزم بها سائر الناس.

وقـد أثبت علماء التـوحيـد صفتـين أخـريـين من الصفـات الـواجبـة للرسـل عليهم الصلاة والسلام. وهما:

١ ــ صفة الصدق.

٢ ــ صفة التبليـغ.

وهاتان الصفتان تعودان لدى التحقيق إلى صفة العصمة، وإليك إيضاح هاتـين الصفتين بشيء من التفصيل.

(٣)
«صفـة الصـدق»

إذا اصطفى الله إنساناً بالوحي إليه، وكلفه تبليـغ رسالته للناس، وزوده ببرهان المعجزة التي تشهد بصدقه، وبأنه رسول الله حقاً ومبلـغ عنه، فهل يمكن أن يقبل العقل أن يكون قـد اصطفى لرسالته من يكذب عليه بتبليـغ أشياء مخالفة لما أمره بتبليغه، فيحـرف فيه أو يبـدل؟! أو بتبليـغ أشياء من عنده لم يـأذن بها الله، فيـزيد شيئـاً ما عـلى ما أمـره بتبليغه وأوحى إليـه به أو أذن له فيه؟!

وهل يمكن أن يقبل العقل أيضاً أنه لو كذب هذا المصطفى للرسالة على ربـه قبل تـأييده بالمعجـزة أن يجري الله بعد ذلك المعجزة على يديه، ويشهد له بالصدق؟!

وهل يمكن أن يقبل العقل أيضاً أنه لو كذب هذا الرسول على ربه بعـد تأييـده بالمعجـزة أن يتركه الله يكذب عليه، دون أن يفضـح كذبه؟!

كل ذلك غير ممكن في جانب حكمة الله العاليـة. وإذا كان كـل ذلك ممـا لا يقبله العقل

بحال من الأحوال في مقام الله العظيم، فلا بد أن يكون من الصفات التي لا تنفك عن رسوله الذي اختاره واصطفاه: «صفة الصدق».

فالرسول صادق قطعاً في كل ما يبلغ عن ربه تعالى.

وقد أشار موسى عليه السلام في خطابه لفرعون إلى أن شاهد المعجزة دليل صدقه في النقل عن ربه؛ ولو كان كاذباً لم يُجْرِ الله على يديه المعجزة.

قال الله تعالى في حكاية ذلك في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: كيف أقول على الله غير الحق الذي أمرني بتبليغه، وقد أيدني بالمعجزة الباهرة، والحجة الظاهرة؟!

وقد شهد الله في كتابه لرسله بأن ما جاؤوا به وحي من عنده، وبأنه هو الحق من ربهم، والحق في التبليغ هو الصدق.

فمن ذلك شهادة الله في قرآنه لنبينا محمد ﷺ في قوله في سورة (النجم ٥٣):

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

وفي قوله في سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

وقد أبَان الله في كتابه أنّه لا يمكن أن يقرّ رسله على الكذب لو كذبوا عليه، بل يأخذهم بقوة، ويعذبهم على تَقَوُّلاتهم ويهلكهم، مع أنه لا يتصور فيهم الكذب على الله تعالى. وقد صرح الله بذلك في جانب تصديقه لرسوله محمد صلوات الله عليه في قوله تعالى في سورة (الحاقة ٦٩):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الوتين: هو النخاع الذي متى قُطع هلك صاحبه، أو هو نياط القلب.

وإذا كان محمد صلوات الله عليه كذلك فبقية رسل الله مثله لا محالة.

ولـمّا طلب المشركون من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يبدل فيه الآيات التي تمس معتقداتهم، قال الله له: «قل: ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي» إلى آخر الآيات.

وقد حكى الله مطلبهم هذا، وتعليم رسوله إجابتهم بقوله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

وعلّمه أيضاً أن يقول لهم في سورة (يونس ١٠):

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وإذا وجب علينا بمقتضى الأدلة السابقة أن نعتقد في الرسل عليهم الصلاة والسلام الصدق؛ وأن الصدق من الصفات الواجبة في حقهم، وجب أيضاً أن نعتقد أن الكذب ــ وهو ضد الصدق ــ لا يُعْقَل أن يكون من صفاتهم.

وهذا مما أجمع عليه أهل الملل والشرائع بلا استثناء، لأنه أمر لا يتم إثبات رسالة الرسول إلّا به. فلو جاز على الرسول الكذب في شيء مما يُبلِّغ عن ربه، لجاز عليه الكذب في دعوى الرسالة، وهذا نقض لها من أساسها.

كما أنه إذا عرف بين الناس بالكذب على غير الله أيضاً، لم يسلِّموا له بدعوى الرسالة، ورفضوا الالتفات إليه ابتداءً لما يعلمون من كذبه، وذلك إخلال بمهمة الرسالة، ونقض لها، وعثرات في طريق المهتدين إلى صراط الله المستقيم.

(٤)
«صفة التبليغ»

وإذا لاحظنا أن الرسول مبلِّغ عن الله تعالى، وأن الله اصطفاه لهذه المهمة، وأنه أمره بتبليغ جميع أحكامه وشرائعه للناس، وذلك بمقتضى قول الله مثلاً لرسوله محمد ﷺ بوصفه واحداً من الرسل في سورة (المائدة ٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴿٦٧﴾﴾.

وبمقتضى قوله تعالى بشأن جميع الرسل عليهم السلام في سورة (الجن ٧٢):

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾.

وإذا لاحظنا إلى جانب ذلك أن الرُّسُل معصومون عن مخالفة أمر الله، وأن تبليغهم جميع شريعته لخلقه مما كلفهم الله إياه، وجب علينا أن نعتقد بأن الرسل عليهم السلام لم يكتموا عن أممهم شيئاً مما أمروا بتبليغه؛ لأنهم ما اختارهم الله لحمل رسالاته إلا ليقوموا بتبليغ شرائعه لخلقه، ولأنهم معصومون عن المعصية في ذلك قطعاً.

ويدلُّ على أنهم لم يكتموا شيئاً مما أمرهم الله بتبليغه أمران:

الأمر الأول: أن الله شهد لهم بأنهم بلغوا وذلك بمناسبات كثيرة في القرآن الكريم.

الأمر الثاني: أن الله ذم أهل الكتاب الذين يكتمون شيئاً من التوراة والإنجيل، فلم يرض منهم ـ وهم أفراد عاديُّون ـ هذا الكتمان، فكيف يرضاه ممن اختارهم لحمل رسالاته؟! وهل يسكت عنهم لو كتموا شيئاً، وكتمان الحق من أكبر المعاصي التي لا يسكت الله عنها؟!

ولو كان للرسول أن يكتم شيئاً مما أمره الله بتبليغه، لكتم سيدنا محمد ﷺ ألوان العتاب التي وُجِّهت إليه من قِبَل الله في القرآن الكريم.

وذلك في مثل قصة انشغاله عن ابن أم مكتوم الأعمى[1] بدعوة كبار المشركين إلى الإسلام؛ ومعاتبة الله له في ذلك بقوله تعالى: «عبس وتولى أن جاءه الأعمى».

وفي قصة زينب مطلَّقة زيد بن حارثة الذي كان متبناه قبل أن ينزل عليه تحريم التبنِّي.

وفي نحو: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم؟﴾ وأشباه ذلك.

وإذا وجب أن نعتقد في حق الرسل أنهم بلَّغوا جميع ما أمرهم الله بتبليغه، وجب أن

---

(١) واسمه: عمرو بن قيس ابن خال خديجة، وقيل اسمه عبد الله.

نعتقد أنهم لم يكتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه؛ لأن الكتمان ضد التبليغ، فإذا وجبت لهم صفة التبليغ امتنعت عنهم صفة الكتمان، وفَهْم الأضداد هذه من البدَهِيَّات.

(٥)

«ومن صفات الرسل أنهم لا يتعرضون للأمراض المنفّرة»

ولما كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام تستدعي مخالطة الناس لدعوتهم وإرشادهم؛ وقيادتهم وسياستهم، ولما كانت طبائع الناس تنفر من بعض الأمراض الشائنة، كان من حكمة الله العالية أن يحمي رسله من مثل هذه الأعراض والأمراض المنفرة؛ التي تتقزَّز منها طبائع الناس، وتنفر منها نفوسهم.

لذلك فلا تتعرض أبدان الرسل عليهم الصلاة والسلام بعد الرسالة لما ينفر الناس منهم، ويبعدهم عنهم من أعراض وأمراض، لأن ذلك كما عرفنا ينافي الرسالة التي تستدعي جلب قلوب أهل الكفر إلى الحق والطاعة بأفضل السبل وأحكمها؛ وتستدعي تأليف قلوب المسلمين للإقبال على رسولهم ومحبته، والشوق إلى مجالسته.

(٦)

«ومن صفات الرسل عليهم السلام كونهم من البشر»

من تمام الحكمة الربانية أن يبعث الله إلى البشر رسولاً منهم، فيه جميع غرائز البشر، ليكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه حجةً عليهم، وليضرب بنفسه المثل على استطاعة البشر تطبيق أوامر الله، واجتناب نواهيه.

وإذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل من الله إليهم بشراً، فتعجبهم من ذلك هو الذي يستدعي العجب!!

لأنه لو جاء الرسول للبشر من الملائكة فلا بد أن يأتي على صورة بشرية حتى يستطيعوا مشاهدته، وحتى تتلاءم صورته الجسدية مع مستوى حواسّهم. ثم إذا عرفوا أنه ليس بشراً ـ بتركه للطعام والشراب والنكاح وبقية الغرائز البشرية ـ فأمرهم بالأوامر، ونهاهم عن النواهي الشرعية، لكان أبسط عذر لهم أمام هذا الملك الرسول في تبرير مخالفتهم لأوامر الله ونواهيه أن يقولوا له: إنك لا تحمل مثل غرائزنا، وليس لنفسك شهوات مثل شهواتنا، ولو كان لك غرائز وشهوات لخالفتَ الأوامر والنواهي مثلنا، ولاضطرك ذلك أن تقع بالمعاصي. ولكان ذلك مادة لاعتراضهم على ربهم، ولأضافوها إلى شبهات كفرهم الباطلة، وروَّجوا لها في صفوف السذج والمغفلين!!

وصفة البشرية في رسل الله للبشر ــ التي تعتبر في نـظر العقل السليم من كـمال الحكمة التي لا محيد عنها ــ قد تعلَّل بها في رفض دعوة الرسل أقوام كثيـرون، كما نـلاحظ ذلك في تـاريـخ الرسل مع أقوامهم.

* ونطالـع في القرآن الكريم فنرى أن قوم نوح وعـاد وثمود والـذين من بعدهم، كلهم قالوا لرسلهم كما حكى الله عنهم ذلك في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

واعتبروا زوراً وبهتاناً أن صفة البشرية في هؤلاء الدعاة إلى الله منافية لكونهم رسلاً.

ولكن الرسل كانت ترد عليهم بـأظهر الردود المقنعـة، فيقولـون لهم كما حكى الله عنهم ذلك في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴿١١﴾﴾.

ومعنى هذا الرد: أن الله لا حَجْر عليه في نعمته ومنته بالنظر إلى كمال قدرته أن يصطفي بالرسالة من يشاء من عباده.

* كما ورد هذا التعلُّل الباطل نَفْسُه ممن كفروا بدعوة محمد ﷺ من العرب، قال تعالى في بيان ذلك في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾.

وفي الرد عليهم علّم الله رسوله أن يقول لهم في سورة (الإسراء ١٧):

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

ويتضمن هـذا الرّد التنبيـه على مقتضى الحكمـة العظيمـة، وهي: أن المناسب في رسـل البشر أن يكـونوا بشـراً مثلهم، فيهم جميـع طبائـع البشر وغـرائزهم. ولـو أنه كـان في الأرض مـلائكة يمشـون عليهـا مـطمئنـين كـما يمشي البشر عليهـا، واقتضى حـالهم أن يبعث الله إليهم رسـولاً، لأنـزل عليهم من السـماء ملكـاً ولجعله رسـولاً لهم، إذ الحكمـة في الـرسـول تقتضي المشاكلة والمجانسة للذين يُرسَل إليهم.

ومثـل ذلك مـا حكاه الله عن الكـافرين في اعتـراضهم على طعـام رسول الله ومشيـه في

الأسـواق؛ وطلبهم أن يـرافقـه ملك فيكـون معـه رسـولاً ثـانيـاً. وذلــك في قـولــه تعـالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

وقـد تولَّى الله الـرد عليهم بأن محمـداً ليس بِدْعـاً من الرسـل، فكل الـرسل كـانوا عـلى شاكلته. قال تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ۝٢٠﴾.

وبالنظر إلى كون الرسـل من البشر فإنـه يجوز في حقهم الأعـراض البشريـة التي لا تنافي أصل مهمتهم كالأمراض غير المنفرة، والنكاح والأكل والشرب، والنوم والموت، وأمثال ذلك.

قال الله تعالى في معرض الحديث عن الرسل في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾.

(٧)
«اختار الله رسله من صنف الذكور»

وبالنظر إلى واقـع حال الرسل نرى أن الله سبحـانه لم يختر رسله من النساء، وفي ذلـك حكمة عالية. لأن الاصطفاء بالرسالـة من أصناف البشر لا بـدَّ أن يُلاحظ فيـه الأجدر بحمـل الرسالة، وصنف الرجال أجدر بحمل الرسالة من صنف النساء لأمور تقتضيها ظروف الـدعوة في صفوف الرجـال، ولأن الرسـول هو الآمـر الناهي والحـاكم والقاضي في أمتـه، وهو القـوَّام عليهم في أمـورهم كلّها. ولـو كانت أنثى لم يتم ذلـك بوجـه كـامـل، ولاستنكف الأقـوام عن الاتباع والطاعة، واتّهموا حكمـة الله. وكل ذلـك مما يجعـل كمال الحكمـة الربـانية أن يكـون الاصـطفـاء بـالـرسـالـة من خصـائص صنف الـرجـال من البشر. قـال الله تعـالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾.

□ □ □

الفصل الخامس

الكرامات

عرفنا في الكلام عن المعجزات أنها أمور ممكنة عقلاً، خارقة لمجرى العادات الكونية، مرافقة لدعوى النبوة، ومقرونة بالتحدي المصرح به على لسان الرسول، أو المفهوم من قرائن أحواله.

ولكن هناك أموراً من خوارق العادات غير مقرونة بالتحدي ولا بدعوى النبوة؛ يجريها الله على يد بعض الصالحين من أتباع الرسل، الملتزمين لأحكام شريعة الله، من غير شذوذ ولا مخالفة، إكراماً من الله لهم. وذلك كشاهد مستمر على إمكان معجزات الأنبياء التي جرت في أزمانهم، كما أنها تأكيد وتأييد لرسالة الرسول، باعتبار أن الله أجراها على يد صالح من صلحاء أمته، وتابع من أتباعه. ونسمي هذا النوع من خوارق العادات بـ (الكرامات).

وبملاحظة واقع حال هذه الكرامات: نرى أنها ـ في الغالب ـ تكون بمستويات أقل من مستويات المعجزات، كما أنها في الغالب تكون بصورة ليس لها صفة الظهور للجماهير الكثيرة، أو الانتشار العام بين الناس.

وبهذه الفروق والقيود التي أوضحناها نعلم أن الكرامات لا تلتبس بالمعجزات، ولا تشتبه بها، لأنه ليس كل أمر خارق للعادة يثبت نبوة أو رسالة لمن أجراه الله على يديه، إلا أن يكون هذا الخارق للعادة مرافقاً لدعوى النبوة، ومقروناً بالتحدي.

إذا عرفنا مما سبق معنى الكرامة وحقيقتها، فنقول على وجه التساؤل: هل هناك ما يمنع من وقوع الكرامات للأولياء والصالحين؟

ثم إذا لم يكن هناك ما يمنع من وقوعها، فهل هي واقعة أو لا؟

ونجيب على هذا التساؤل من الناحيتين:

الناحية الأولى:

إذا عرفنا أن الكرامة من الأمور الممكنة عقلاً، وأن كلّ ما هو ممكن عقلاً يجوز بالنظر إلى

ذاته أن تتناوله قدرة الخالق العظيم بالخلق والإيجاد، لحكمة يعلمها هو، نعلم يقيناً أنه لا حَجْر على الله تعالى وهو الفعال لما يريد في أن يكرم من يشاء من خلقه، بما يشاء من صور الإكرام.

وكما أن بعض الناس يكرمهم الله في مجرى العادات بمنحة العلم، أو القوة الجسمانية، أو الرياسة أو السيادة، أو المال والبنين، فكذلك لا حجر عليه سبحانه في أن يكرم بعض عباده بأن يجري على أيديهم بعض خوارق العادات.

وقد تكون بعض المنح الربانية الأخرى أفضل وأجلّ من الإكرام ببعض الخوارق. ألا نرى أن الله سبحانه جعل من مكافأة المتقين مثلاً:

(أ) أن يفتح لهم آفاق العلم، ويجعل لهم فرقاناً، أي: بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل، في قوله عز وجلّ في سورة (الأنفال ٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

(ب) وأن يجعل لهم مخرجاً ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، في قوله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴿٣﴾﴾.

(جـ) كما جعل من مكافأة الذين ينصرون دينه النصر والتأييد والسيادة في الأرض، وذلك بتهيئة الأسباب، ودفع الموانع وإلقاء الرعب في قلب العدو، وذلك في مثل قوله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

وأشباه ذلك كثيرة في إكرامات الله سبحانه.

وظاهر أن الإكرام بالعلم أو التأييد بالنصر، أجل وأرفع من الإكرام مثلاً بمشي على الماء، أو طيران في الهواء، أو طي للمسافات البعيدة في زمن قصير أو فتح أبواب مغلقة،

أو تحضير طعام وشراب في مكان ليس فيه ذلك، من دون أسباب مادية ظاهرة.

وبهذا الدليل نعلم أن الكرامات جائزة الوقوع، وأنه لا مانع من أن يجريها الله على يد بعض الصالحين من عباده، إكراماً لهم وتأييداً للرسول الذين هم من أتباعه.

الناحية الثانية:

وإذا ثبت لدينا أن الكرامات ممكنة عقلاً، ولا مانع من وقوعها، حُقّ لنا أن نتساءل عن ثبوت وقوعها بالفعل: هل ثبت وقوع الكرامات بطريق يقيني قاطع، أو لم يثبت؟

ونجيب على هذا التساؤل بما يلي:

أولاً: إن صوراً كثيرة من الكرامات قد أثبتها القرآن الكريم.

ثانياً: إن أمثلة منها قد أثبتتها أحاديث الرسول الصحيحة، التي تعطي بمجموعها تواتراً بالمعنى مثبتاً وقوع الكرامات للصالحين بوجه عام.

ثالثاً: إن أمثلة أخرى منها وردت في آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين وغيرهم؛ لا داعي لإنكارها بوجه عام. على أنه متى ظهرت أمارات الصدق في طريق روايتها سلمنا بها، ولم يضرنا التسليم، ما لم يكن موضوع الكرامة المنسوبة لشخص ما يتضمن مخالفة لظاهر الشرع، أو التغاضي عن المعاصي والمنكرات، أو الرضا بتعطيل أحكام الله، أو نحو ذلك. فإن تضمنت شيئاً من ذلك رفضناها رفضاً باتّاً، بل هي ليست بكرامة في حقيقتها، وإنَّما هِيَ إنْ صحت ضلالة من ضلالات الشياطين.

ونعرض فيما يلي أمثلة من الكرامات ثبتت في القرآن بيقين، وأخرى ثبتت في الأحاديث النبوية بأسانيد صحيحة، ونُبَذاً أخرى وردت عن بعض الصحابة في الآثار الصحيحة والمقبولة.

(١)
ما ثبت في القرآن الكريم من الكرامات

(أ) قصة أهل الكهف التي قَصَّها الله علينا في سورة الكهف:

وقصة هؤلاء: أنهم فتية مؤمنون فَرُّوا من ظلم الملك الكافر الذي كان في زمانهم، فأووا إلى كهف في بعض الجبال، فأنامهم الله ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، ثم بعثهم بعد ذلك وأيقظهم من نومهم الطويل[١].

---

(١) ذكر المؤرخون: أن هؤلاء الفتية كانوا على دين النصرانية بمدينة «أفسوس» أو «طَرسوس» وقد فروا من الملك «دقيوس» ويقال: «دقيانوس»، وقد حكم هذا الملك سنة واحدة من سنة ٢٣٦ إلى سنة ٢٣٧ =

وهذا الأمر من خوارق العادات بالنسبة إلى البشر، وقد أكرمهم الله بذلك وهم فتية مؤمنون صالحون وليسوا بأنبياء.

وقد أجمل القرآن قصتهم قبل أن يشرع في تفصيلها في قوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢﴾.

الرقيم: لوح حجري رُقِمَت عليه أسماؤهم وقصتهم، ووُضِعَ على باب كهفهم.

أي الحزبين أحصى: أي الفريقين المختلفين في مُدَّة لبثهم ضَبَطَ أمد بقائهم في الكهف، وهم مضروب على آذانهم بالنوم.

وفي الآية جرى تسمية إنامتهم هذه السنين العديدة «آية»، ومعنى ذلك: أنه أمر خارق للعادة، ولكن كونه كذلك بالإضافة إلى قدرة الله القادر خالق السماوات والأرض؛ ليس أمراً يستدعي التعجب أو الاستغراب من أن يجري الله سبحانه مثل هذا الأمر الممكن في مقاييس العقل.

ومن هذا نرى أن الآية تثبت ما يلي:

أولاً: تثبت وقوع الكرامة لهؤلاء الفتية بالخبر القرآني الصادق.

ثانياً: تشير إلى أن مثل هذه الخوارق من الأمور الهيِّنة الممكنة عقلاً، فإذا أضيفت إلى قدرة الله تعالى، ثم جاء نقلها بطريق الخبر الصادق، تَقَبَّلَتْهَا العقول بالتسليم دون نزاع أو تردد.

(ب) كرامات السيدة مريم:

* **الكرامة الأولى**: كان يوجد عندها رزقها في محرابها المنعزل، دون أن يأتيها به إنسان، ودون سبب ماديّ آخر.

= ميلادية، وكان هذا الملك قد خرج على سلفه «غورذيانوس» الذي تنصر، وتولى مكانه وأعاد عبادة الأصنام ودين الصابئين، وتتبع النصارى يقتلهم، ومنه هرب الفتية أصحاب الكهف. قال المؤرخون: وكان هلاكه في منتصف سنة ٥٤٠ للإسكندر، أي ٢٣٧ ميلادية.

وهذا من الأمور الخارقة للعادة بالنظر إلى مقتضى الأسباب الكونية المحسوسة. وقد نوَّه بهذه الكرامة القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

* **الكرامة الثانية**: حملُها بعيسى عليه السلام دون أن يمسَّها بشر.

وهذا أمر من خوارق العادات في التناسل، ويلاحظ في هذا الخارق: أنه كرامة بالنسبة إلى مريم، وإرهاص[1] بالنسبة إلى عيسى عليه السلام.

وقد أثبت القرآن هذه الكرامة في عرض قصتها، فقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)﴾.

* **الكرامة الثالثة لها**: لـمّا أحست مريم بقرب ساعات الوضع، ابتعدت عن أهلها إلى مكان خالٍ في الجهة الشرقية بالنسبة إلى منازل أهلها، وجلست إلى جانب شجرة من أشجار النخيل التي لا ثمر فيها، وحصلت لها من المساعدات الربانية في وضعها أمور كثيرة، منها: تساقط الرُطب عليها من النخلة غير المثمرة لما هزت جذعها. قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾.

* **الكرامة الرابعة لها**: لما وضعت ابنها عيسى عليه السلام حملته وجاءت به إلى قومها، فجعلوا يوجهون لها الأسئلة المتندرة، ويجرحونها بالاتهامات الساخرة، وهي صامتة لا تحير جواباً، وألحّوا في استجوابها عن سبب حملها الذي لم يتصوّرْ كثير منهم فيه على حدّ تفكيرهم الضيق إلَّا الفاحشة، وهي منها براء، فأشارت إلى ولدها الرضيع.

قال تعالى في حكاية قصتها في سورة (مريم ١٩):

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا

---

(١) الإرهاص: هو التأسيس والتمهيد للنبوة.

بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

وكلام عيسى في المهد بالنظر إلى تبرئة أمه كرامة لها، وبالنظر إليه بالذات إرهاص بنبوته.

(ج) كرامة آصف صاحب سليمان عليه السلام:

وهي ما كان من قصة إحضار عرش بلقيس ـ ملكة سبأ في اليمن ـ من مسافات بعيدة في أقلّ من طَرْفة عين، إلى سليمان عليه السلام وهو في بيت المقدس، وذلك من قبل أحد المؤمنين، وهو الذي عنده علم من الكتاب من أصحابه، قالوا: واسمه (آصف). وقد نوه القرآن بذلك في قوله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعض المفسرين يجنح إلى أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه، ويجعل نقل العرش معجزة لسليمان، ولكن الظاهر من حكاية القصة كما وردت في القرآن لا يؤيد ما جنح إليه.

(د) كرامة السيدة عائشة رضي الله عنها:

ونستطيع أن نقول: إن نزول الآيات القرآنية ببراءة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مما اتّهمها به أهل الإفك، من الكرامات الكبرى لها. لأن العادة جرت بأن يُعتمد على الأسباب القضائية في الإدانة أو البراءة، أما أن ينزل الوحي بذلك، وينزل به قرآن، فذلك مما لم تجرِ به العادات، فهو فيما نعتقد كرامة معنوية ذات شأن.

ولهذا النوع من الكرامات نظائر في القرآن الكريم.

(٢)
بعض ما ثبت في الأحاديث النبوية من الكرامات

لقد وردت في الصحاح أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، تثبت الكرامات لبعض الصالحين من الأمم السابقة؛ ونعتقد أن جملة هذه الأحاديث بالنظر إلى كثرتها تثبت بشكل متواتر قطعي

وقوع الكرامات من حيث هي، دون بحث في مفرداتها.

وفيما يلي بعض الأمثلة مما ورد عن النبي ﷺ في ذلك:

أولاً ـ قصة ثلاثة نفر من الأمم السابقة، انطلقوا حتى آواهم المبيت إلى غار، فانحدرت صخرة كبيرة من الجبل فسدَّت عليهم مدخل الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم، فانفرجت الصخرة بقدرة الله بسبب دعواتهم، وخرجوا يمشون.

وحديث هؤلاء النفر الثلاثة طويل، (رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب)[1].

---

(١) وفيما يلي نص الحديث «أخذاً من كتاب رياض الصالحين في باب الإخلاص وإحضار النية»:
عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم.
قال رجل منهم: اللَّهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أَغْبُق (الغبوق: ما يشرب بالعشي) قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً، فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدميَّ، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.
قال الآخر: اللَّهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليَّ ـ وفي رواية «كنت أحبها كأشد ما يحب الرجل النساء» ـ فأردتها على نفسها، فامتنعت مني، حتى ألمَّت بها سَنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها ـ وفي رواية «فلما قعدت بين رجليها» ـ قالت: اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.
وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي، فقلت: لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون».

(متفق عليه)

ثانياً ــ قصة غلام نشأ في اليمن، في عهد ملك من ملوك حِمْيَر استعبد الناس وحجبهم عن الإيمان بالله، وقد كان لهذا الملك ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فاختار الملك غلاماً وبعث به إليه، وتتلمذ هذا الغلام على الساحر. وأراد الله بالغلام خيراً، فكان يتصل براهب يأخذ عنه الدين والعبادة، وكان مكان الراهب بين منزل أهل الغلام وبين مكان الساحر، وكان يحتال لتبرير تأخره عن الساحر صباحاً، وعن أهله مساء. ثم تقدم هذا الغلام في درجات التقوى والبرّ، حتى أجرى الله على يديه كرامات كثيرة، منها:

١ ــ اعترضت دابة كبيرة مخيفة طريق الناس فحبستهم عن المسير، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها.

٢ ــ بلغ من أمره أنه أصبح بعد ذلك يدعو الله تعالى للمرضى فيبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، ويتخذ ذلك وسيلة لهداية الناس ودعوتهم إلى الإيمان بالله.

٣ ــ لما رأى الملك أن بعض الناس آمنوا بالله خالق السموات والأرض حقد عليهم فنشرهم بالمناشير؛ وتتبع الخبر حتى عرف أن مصدر ذلك هو الغلام الذي دعاه لتعلم السحر، فدعا الغلام وأمره بالرجوع عن دينه فأبى، فأمر بعذابه، فأكرمه الله بكرامات ثلاث:

* الكرامة الأولى: أرسله الملك مع نفر من جنوده ليلقوه من ذروة جبل إذا لم يرجع عن دينه، فدعا الغلام الله تعالى أن يكفيه أمر هؤلاء، فرجف بهم الجبل، فهوَوْا صرعى ورجع هو سالماً.

* الكرامة الثانية: ثم أرسله ثانية مع نفر آخرين ليُرْكِبوه في زورق، ويتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا رموه في البحر، فلما توسطوا البحر به دعا الغلام الله تعالى فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأ الزورق فغرق الجنود ورجع هو سالماً.

* الكرامة الثالثة: وأخيراً قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، ثم تضع السهم في كبد القوس، ثم تقول: باسم الله رب الغلام، ثم ترمي، فإذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الملك الناس وفعل مثل ما قال له الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغ الغلام، فوضع يده في صدغه فمات، فلما رأى الناس ذلك قالوا: آمنا برب الغلام.

٤ ــ حقد الملك على الناس الذين آمنوا بالله تعالى، فأمر بحفر الأخاديد في أفواه السكك، فحفرت وأُضرمت فيها النيران ، وأمر أن يلقى فيها كل من لم يرجع عن دينه، ففعل جنوده ذلك. حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها رضيع، فتقاعست أن تقع في النار شفقة على طفلها، فقال لها الرضيع: يا أمَّه اصبري فإنك على حق!!

فكان نطق هذا الرضيع كرامة لأمه المؤمنة الصابرة.

ولقد وردت هذه القصة في حديث صحيح عن الرسول ﷺ (رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه)، فارجع إليه في صحيح مسلم، أو في رياض الصالحين في باب الصبر.

ولقد أشار القرآن إلى قصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى في سورة (البروج ٨٥):

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾.

ثالثاً ــ قصة العابد جُريج، وتكلُّم الصبي الرضيع ببراءته مما اتُّهِم به من الزنى:

فعن النبي ﷺ: «وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي، فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تُمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة فكلمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت: مِنْ جريج. فأتوه فكسّروا صومعته، وأنزلوه وسبّوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام، فقال: الراعي، فقالوا: أنبني لك صومعتك من ذهب؟ فقال: لا، إلاّ من طين».

(رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة)

وفي هذا الحديث كرامة ظاهرة لجريج الراهب المتعبد.

رابعاً ــ تكلم صبي رضيع من بني إسرائيل في تبرئة امرأة أَمَة كان يقال عنها: سارقة زانية، وليست هي كذلك كرامةً لها.

فعن النبي ﷺ: «كانت امرأة ترضع ابنها من بني إسرائيل، فمرّ بها رجل راكب ذو شارة ــ أي: صاحب هيئة وشكل حسن ــ فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصّه ــ قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه ــ. ثم مرّ بأَمَةٍ فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت له: لِمَ ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة،

وهذه الأمة يقولون لها: سرقت، زنت، ولم تفعل».

(رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة)

ونرى في كلام هذا الصبي الرضيع كرامة للأمة المتهمة، وإهانة للجبار ذي الشارة.

خامساً ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل رجلاً أن يسلفه ألف دينار، فدفعها إليه، فلما حلَّ أجلها خرج في البحر فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، فرمى بها في البحر، فخرج الرجل الذي أسلفه فإذا بالخشبة، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال».

(رواه البخاري في باب ما يستخرج من البحر من الزكاة)

وفي هذا الحديث كرامة ظاهرة لهذا الرجل المؤمن الصادق، الحريص على وفاء دَينه في أجله.

(٣)

أمثلة مما ورد في الآثار عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، من الكرامات

وفيما يلي طائفة منها:

أولاً ــ تكثير الطعام لأبي بكر رضي الله عنه:

فعن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: (إن أصحاب الصُفَّة كانوا أناساً فقراءَ، وإن النبي ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو بسادس». وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة، وإن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ، ثم لبث حتى صُليت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي ﷺ. فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك؟ قال: أو ما عشيتهم؟ قالت: أبَوا حتى تجيء فغضب، وقال: والله لا أَطْعمه أبداً، فحلفت المرأة أن لا تَطْعمه، وحلف الأضياف أن لا يَطْعموه. قال أبو بكر: كان هذا من عمل الشيطان ــ يعني يمينه ــ فدعا بالطعام فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمة إلا رَبَتْ من أسفلها أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟! قالت: وقرة عيني إنها الآن لأكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار، فأكلوا، وبعث بها إلى النبي ﷺ، فذُكر أنه أكل منها).

(متفق عليه)[1]

---

(١) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٩٤٦).

ثانياً ــ ومن كرامات عمر رضي الله عنه ما يلي:

١ ــ عن ابن عمر: (أن عمرَ بعث جيشاً، وأمّرَ عليهم رجلاً يُدعَى سارية، فبينما عمر يخطب، فجعل يصيح: يا ساري الجبل! فقدم رسولٌ من الجيش فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا؛ فإذا بصائح يصيح : يا ساري الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم الله تعالى). (رواه البيهقي في دلائل النبوة[1]، ورواه ابن عساكر وغيره بإسناد حسن)

٢ ــ الإلهامات الكثيرة التي كان يُلْهمها.

شهد له بذلك الرسول ﷺ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحدَّثون ــ أي: ملهمون ــ فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر». (رواه البخاري ومسلم عن عائشة)

ثالثاً ــ ومن كرامات عليّ رضي الله عنه ما يلي:

أخرج الطبراني في الأوسط، عن زاذان: أنّ علياً رضي الله عنه حدّث بحديث فكذّبه رجل، فقال له عليّ: أدعو عليك إن كنت كاذباً؟. فقال: ادْع، فدعا عليه فلم يبرح حتى ذهب بصره. (من حياة الصحابة ص ٥٥٣ ج ٣).

رابعاً ــ ومن الكرامات ما كان لأُسيد بن حُضير، وعبّاد بن بشر، من أصحاب رسول الله ﷺ:

فعن أنس: (أن أسيد بن حُضير وعباد بن بشر تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ ينقلبان، وبيد كل واحد منهما عُصَيَّة، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه، حتى بلغ أهله).

(رواه البخاري)

خامساً ــ ومن الكرامات استجابة دعوة سعد بن أبي وقاص في أسامة بن قتادة من أهل الكوفة:

فعن جابر بن سَمُرة رضي الله عنهما، قال: (شكا أهل الكوفة سعداً ــ يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه ــ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واستعمل عليهم عمّاراً، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي. فأرسل إليه ــ أي: إلى سعد ــ فقال: يا أبا إسحاق إن هؤلاء

---

(١) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٩٥٤).

يـزعمون أنـك لا تحسن تصلي، فقـال: أمّا أنـا والله فـإني كنت أصـلي بهم صـلاة رسـول الله ﷺ لا أخـرم عنها، أصـلي صلاتي العشـاء، فأركُـد في الأولـيين، وأَخِف في الأخـريـين، قـال: ذلـك الـظن بـك يـا أبـا إسحـاق. وأرسـل معــه رجـلاً ــ أو رجـالاً ــ إلى الكـوفـة؛ فلم يَـدَعْ مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم ــ يقـال له: أسامة بن قتادة يُكْنى أبا سُعدة ــ فقال: أمـا إذْ نشدتنا فـإن سعداً كـان لا يسير بـالسريـة، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعونَّ بثلاث: «اللهم إن كـان عبدك هذا كاذباً، قام رياءً وسمعـة، فأطـل عمره، وأطـل فقره، وعـرضه للفتن». وكـان بعد ذلك إذا سئل أسامة يقول: شيـخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد!!

قـال عبد الملك بن عمـير ــ الراوي عن جـابر بن سمـرة ــ: فأنـا رأيته بعـدُ قـد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن.

(رواه البخاري ومسلم)

سادساً ــ كرامة سَفينة مولى رسول الله ﷺ:

عن ابن المنكـدر: (أن سفينة مـولى رسول الله ﷺ أخـطأ الجيش بأرض الـروم، أو أُسر فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال: يا أبا الحارث ــ وهي كنيـة الأسد ــ أنـا مـولى رسول الله ﷺ، كـان من أمري كيت وكيت، فـأقبل الأسـد، له بَصْبَصـةٌ ــ البصبصة: تحريك الذنب ــ حتى قام إلى جنبه، كلما سمـع صوتاً أهوى إليه، ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلـغ الجيش، ثم رجـع الأسد!).

(رواه في «شرح السنّـة»[1]، ورواه الحـاكم
وقال: صحيـح على شرط مسلم، ووافقه الذهبـي)

ولهذه الكرامـات نظائـر كثيرة، فـإن أردت مزيـداً من ذلك فـارجـع إلى كتاب «ريـاض الصالحين» في بـاب كرامـات الأولياء وفضلهم، وإلى «التفسـير الكبير» للرازي في تفسـير سورة الكهف، وإلى كتاب «حياة الصحابة»، وإلى غيرها من الكتب.

خـاتمـة:

ومما سبق نـرى أن الكرامة من الأمور الثابتة قطعاً، والتي لا يشك بها مسلم نظر في هذه الأدلة التي أوردناها، وفي نظائرها.

---

(١) عن مشكاة المصابيـح: الحديث (٥٩٤٩).

ونرى أن من ينكرها ـــ من حيث هي ـــ فإنما ينكر شيئاً شهدت بإمكانه الأدلة العقلية، وتظاهرت على إثبات وقوعه فعلاً الأدلة الشرعية المتواترة من قرآن وسنة بلغت في معناها مبلغ التواتر على ما نعتقد.

ولا داعي أيضاً لإنكار مفردات الكرامات متى ثبتت الحادثة بطريق صحيح.

ولكن الكرامة لا تعني في واقعنا الديني ـــ بالنسبة إلى الشخص الذي جرت على يديه ـــ شيئاً زائداً على أنواع الإكرامات الأخرى، التي جرت العادة بأن يكرم الله بها عباده، فلا ينبغي أن يعلق عليها كبير اهتمام، إلا في ناحية تثبيت العقيدة بقدرة الله القادر. فالكرامات حوادث خاصة يكرم الله بها بعض المتقين، فلا يصحُّ أن تُتَّخذ ذريعة لإثبات أحكام شرعية أو نفيها، فالأحكام الشرعية لها مصادرها.

كما لا يصحُّ أن تُتخذ ذريعة للتفاخر، أو تحصيل الأموال، وإلا كانت استدراجاً ووبالاً على صاحبها.

فالله سبحانه قد يكرم بالمال، وقد يكرم بالجاه، وقد يكرم بالعلم، وقد يكرم ببعض خوارق العادات.

وهذه الإكرامات على اختلاف أنواعها قد تكون وسيلة لتثبيت إيمان مَنْ جرت له، وقد تكون امتحاناً له وابتلاءً، وقد تكون استدراجاً له من الله، فإذا استمر على معصيته بعدها، كانت وبالاً عليه ونكالاً به، وحجة عليه من الله تعالى.

ولا يصح بحال من الأحوال الاغترار بأصحاب الكرامات إذا لم يكونوا ملتزمين أحكام الشريعة، متقيدين بأوامرها ونواهيها.

قال يونس بن عبد الأعلى الصفدي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: «إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة»! فقال الشافعي: «قصّر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة»!!

وفي خاتمة هذا البحث، نسأل الله حسن الفهم، وصحة العقيدة، والاستقامة على الطريقة الربّانية في القول والعمل.

□ □ □

الفصل السادس

موجز تاريخ الرسل

عليهم الصلاة والسلام

مقدمـة :

عرفنا في البحوث السابقة صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما عـرفنا مهماتهم التي حملوها للناس، ودلائل نبوّاتهم، ووجوب تصديقهم في جميع ما يبلغون عن الله.

وبقي علينا أن نعرف موجزاً عن تاريخهم بشكل مجمل، وأن نعرف منهم من قصّ الله علينا قصصهم وذكر لنا أسماءهم في القرآن الكريم، حتى نكون على بيّنة ممن يجب علينا الإيمان به منهم بشكل مفصل.

لقد بدأ الله جلّت حكمته خلق هذه السلالة من الناس في الأرض بخلق أبي البشر (آدم عليه السلام) من طين. قال تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم اشتق الله من آدم حواء زوجاً له بقدرته القادرة، وذلك بطريقة لم يخبرنا الله عنها، ثم بثّ من الزوجين المجموعةَ البشرية ذكورَها وإناثها، على نظام التناسل المشاهد. قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

ولـمّا كان البشر بحسب تكوينهم عرضة للتأثر بشهوات النفس، ووساوس الشياطين، الأمر الذي قد يفضي بهم إلى الشرّ والضرّ والظلم، فيكونون مفسدين ظالمين في الأرض.

ولـمّا كان الله سبحانه قد زوّدهم بالعقل الواعي، وبقدرة التمييز بين الخير والشرّ، ولكنهم بحاجة إلى تنبيه وتذكير.

ولـمّا كـانت حكمة الله ورحمتـه تقتضي تدارك هـذا النـوع الإنسـاني بتنبيهـه عـلى الخـير والشر، وتعريفه بالحق والباطل، كما تقتضي أن تُحبّب إليـه الفضيلة، وتُكرِّه إليـه الرذيلة، وأن تهديه إلى سلوك سبيل الحق والخير والكمال، ليتم بذلك ابتلاؤه واختبـاره، ووضعه في ظـروف الامتحان الملائمة للمنـح التي وهبه الله إياها.

من أجل كلّ ذلك فقد تدارك الله سبحانه هذا النوع منذ نشـأته الأولى في الأرض؛ بـأن جعـل له آبـاه آدم رسولاً، فـآتاه الهـدى والحكمة، وأنـزل عليه أسس شـريعة الله للبشر، من عقيدة وعبادة وتعامل بين الناس.

ومنذ أخرج الله آدم وزوجه من الجنة نبّهه على مهمة الرسـالة التي سيجتبيـه لها، ويـأمره بتبليغها إلى ذريته. قال تعالى في حكاية ذلك في سورة (البقرة ٢):

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وقضى آدم في الأرض فترة استغفار وإنابة، فتاب الله عليه، ثم اجتباه بالرسالة وهداه.

قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

وكان آدم عليه السلام رسولاً لذريته.

ثم تكاثر الناس وتوزَّعوا في جهات الأرض، ينتجعـون الرزق والمـاء في مختلف بقاعهـا، وفق النـظام الفـطري في تكـاثـر الخلق، وتـوزّعهم في شتـات الأرض، حتى كـان منهم الشعوب والقبائل.

ثم بتطاول العهد نَسُوا وصايا أبيهم آدم، وضيَّعوا دينهم، ولعبت بهم الأهواء، وأضلّتهم وسـاوس الشياطـين، ففسقوا واعتـدَوْا وظلموا وكفـروا بالله، فتـداركهم الله بإرسـال الرسـل المعلِّمين، المبشرين والمنذرين، حتى لم يدعْ أمة من الأمم إلا أرسل فيها رسولاً، يدعو إلى الله، وينذر بعذابه من يكفر به ويخالف عن أمره.

قال الله تعالى في سورة (فاطر ٣٥):

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة (النحل ١٦):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

فهاتان الآيتان تدلّان على أنه ما من أمة من الأمم السابقة إلا سبق أن أرسل الله فيها رسولاً ينذرها؛ فلم يَدَع الله أمة منعزلة من أمم الأرض تتيه في ضلالها وغيّها، دون أن يتداركها بالتنبيه على لسان بعض رسله. ومن هؤلاء الرسل من قص الله علينا قصصهم، وذكر لنا أسماءهم، ومنهم من لم يذكرهم ولم يقص قصصهم، كما قال تعالى في سورة (المؤمن = غافر ٤٠):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ... ﴿٧٨﴾﴾.

ثم إنه لم يرد نص قاطع عن الرسول ﷺ في حصر عدد الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر؛ ولا في حصر عدد الأنبياء، ولذلك فنحن اتباعاً للنصوص القاطعة من قرآن وسنة يجب علينا أن نؤمن إجمالاً بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، مَنْ عرفنا منهم ومن لم نعرف، وفق الحقيقة المعلن عنها في القرآن الكريم.

وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: أن عدد الرسل (٣١٥) رسولاً، وأن مجموع الأنبياء والرسل (١٢٤) ألفاً.

فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: يا رسول الله أيّ الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: «نعم نبيٌّ مكلَّم»، قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً».

وفي رواية عن أبي أمامة، قال أبو ذرٍّ: (قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً»)(١).
(رواه الإمام أحمد)

من يجب علينا الإيمان بهم من الرسل تفصيلاً:

ويجب علينا أن نؤمن تفصيلاً بخمسة وعشرين رسولاً، سمّاهم الله في قرآنه، وقصّ

---

(١) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٧٣٧).

علينا قصصهم، أولهم آدم عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ، وبينهما مَنْ ذكرهم الله تعالى في الآيات التالية:

قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (هود ١١):

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وفيما يلي إيضاح لرسالاتهم، وعرض لموجز حياتهم عليهم الصلاة والسلام:

(١)

«آدم أبو البشر عليه السلام»

وهو أول الرسل عليهم السلام[١]. ودليل رسالته من القرآن الكريم ما جاء في الآيتين السابقتين:

(أ) قوله تعالى في آية البقرة: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾.

ففي هذا وعد بالهدى من الله تعالى، وإشعار بالرسالة.

---

(١) يذكر المؤرخون: أن آدم وبنيه كانوا يتكلمون باللغة السريانية، والله أعلم.

(ب) وقوله تعالى في آية طه: ﴿ثم اجتباه ربه﴾.

والظاهر أن اجتباء الله له بعد المعصية وتوبة الله عليه، إنما هو اصطفاء الله إياه للرسالة.

كما يدل على رسالته عموم قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلاَّ خلا فيها نذير﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾[2].

وقد كان أولاد آدم أمة تتطلب رسالة ربانية، وأحرى الناس بأن يكون رسولاً لأول أمة إنسانية إنما هو آدم عليه السلام أبو البشر؛ المكلّم من قِبل الله تعالى.

لذلك نرى اتفاق معظم علماء المسلمين على نبوته ورسالته.

وفي حديث أبي ذرّ السابق دلالة على أنه نبي مكلَّم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ ــ آدم فمن سواه ــ إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر».

(رواه الترمذي)[3]

وقد تولى الله جلَّ وعلا عرض قصة خلق آدم في تسع سور من القرآن الكريم، وبيَّن لنا في قصته أنه هو الإنسان الأول الذي بثّ الله منه هذه السلالة من البشر على وجه هذه الأرض. كما حدَّد الله لنا في كتابه كيفية خلقه لآدم، بشكل صريح واضح لا يحتمل التأويل، فلا مجال لإيراد تكهّنات وتخيّلات وفرضيّات حول كيفية بدء وجود الإنسان على هذه الأرض؛ ولا مجال لفرضيات «دارون» وغيره بعد أن ورد إلينا يقين لا شبهة فيه عن الذي خَلَق وصوّر وهو بكل شيء عليم. ونحن نعلم أن كل اعتقاد يخالف ما تضمنه القرآن الكريم بشكل قاطع هو اعتقاد مخالف للحقيقة؛ وكل اعتقاد مخالف لحقيقة من الحقائق القطعية التي نصت عليها الشريعة اعتقاد مُكفِّر.

(٢)

«إدريس عليه السلام»

قال الله تعالى بشأنه في سورة (مريم ١٩):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) (٢٤ فاطر/٣٥).

(٢) (٣٦ النحل/١٦).

(٣) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٧٦١).

وقد جاء في صحيحي (البخاري ومسلم) في حديث المعراج:

«ثم صعد بي ـ أي جبريل ـ حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. ففُتح. فلما خلصتُ فإذا إدريس، فقال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

* نسب إدريس:

ويذكر النسّابون أنه: هو إدريس عليه السلام بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن (شيث عليه السلام)[1] بن (آدم عليه السلام). والله أعلم.

وإدريس عند العبرانيين: (حنوخ) أو (خنوخ)، وعُرِّب: (أخنوخ).

* أقوال المؤرِّخين في ديانته ومن ينتسب إليها:

يقول المؤرخون: إن أمة السريان أقدم الأمم، وملتهم هي ملة الصابئين ـ نسبة إلى صابي أحد أولاد شيث ـ، ويذكر الصابئون أنهم أخذوا دينهم عن شيث وإدريس، وأن لهم كتاباً يعزونه إلى شيث ويسمونه: «صحف شيث»، ويتضمن هذا الكتاب على ما يذكرون الأمرَ بمحاسن الأخلاق، والنهي عن الرذائل.

وأصل دينهم التوحيد وعبادة الخالق جل وعلا، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا، والحض على الزهد في الدنيا، والعمل بالعدل.

قالوا: وللصابئين عبادات منها:

سبع صلوات في اليوم والليلة: خمس صلوات منهنَّ توافق صلوات المسلمين، والسادسة صلاة الضحى، والسابعة صلاة يكون وقتها في الساعة السادسة من الليل. وصلاتهم تشبه صلاة المسلمين من حيث النية وعدم خلطها بشيء من غيرها.

ولهم صلاة الميت بلا ركوع ولا سجود.

وعندهم صيام شهر قمري من السنة، ويصومون من ربع الليل الأخير حتى غروب قرص الشمس.

ويعظمون بيت مكة.

---

(١) يذكر المؤرخون: أنه كان من الرسل، وأن له كتاباً يسمى «صحف شيث». وقد جاء في الأثر عن النبي ﷺ فيما يرويه أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري: أن الله أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة.

قال ابن حزم: والدين الذي انتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر، وقد كان الغالبَ على الدنيا إلى أن أحدثوا فيه الحوادث.

قال المؤرخون: وكانت مدة إقامة إدريس عليه السلام في الأرض (٨٢) سنة، ثم رفعه الله إليه. وكان على فص خاتمه: «الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر». وكانت له مواعظ وآداب[1].

(٣)
«نوح عليه السلام»

قال الله تعالى في سورة (نوح ٧١):

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ①﴾.

وقد أرسله الله إلى قومٍ فسد حالهم، ونسوا أصول شريعة الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله السابقين، وصاروا يعبدون الأوثان. وقد أثبت القرآن الكريم خمسة أوثان لهم، كانوا يقدسونها ويعبدونها، وهي: (وَدّ ـ سُوَاع ـ يَغُوث ـ يَعُوق ـ نَسْر). قال الله تعالى في سورة (نوح ٧١):

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ㉓﴾.

* **نسب نوح:**

يذكر النسَّابون أنه: هو (نوح عليه السلام) بن لامك بن متوشالح بن (إدريس «أخنوخ» عليه السلام) بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن (شيث عليه السلام) بن (آدم عليه السلام) أبي البشر. والله أعلم.

* **حياة نوح مع قومه في فقرات:**

وقد ذُكرت قصة نوح مع قومه في ست سور من القرآن الكريم بشكل مفصَّل، وأبرز ما فيها النقاط التالية:

---

(١) ومن حكمته أنه كان يكتب على المنطقة التي يلبسها: «الأعياد في حفظ الفروض، والشريعة من تمام الدين، وتمام الدين كمال المروءة». وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت: «السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة». ومن كلامه: «لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه، بمثل الإنعام على خلقه». و«خير الدنيا حسرة، وشرها ندم». و«إذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النية، وكذا الصيام والصلوات فافعلوا». و«تجنبوا المكاسب الدنيئة». وغير ذلك. ويزعم جماعة من العلماء: أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عنه. والله أعلم بكل ذلك.

١ ــ إثبات نبوته ورسالته.

٢ ــ دعــوتـه لقــومـه دعــوة ملحَّـة، وثبــاتـه وصبــره فيهـا، واتخــاذه فيهــا مختلف الحجج والوسائل.

٣ ــ إعراض قومه عنه، فكلما زادهم دعاءً وتذكيراً زادوه فراراً وإعراضاً، وإصراراً على الباطل، واحتقاراً لأتباعه من الضعفاء.

٤ ــ عبادة قومه الأوثان الخمسة التي مرَّ ذكرها، وضلالهم الكثير.

٥ ــ تنكّر قومه لدعوته، وتكذيبه فيها بحجة أنه رجل منهم، ثم طلبهم إنـزال العذاب الذي يَعِدهم به.

٦ ــ شكوى نوح إلى ربه أن قومه عصَوْه، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلَّا خساراً.

٧ ــ تقنيط الله لنوح بأنه لن يؤمن من قومـه إلَّا من آمن، وذلك بعـد زمن طويـل لبعثه فيهم وهو يدعوهم ويصبر عليهم، وقد تعاقبت عليه منهم أجيال.

٨ ــ دعـوة نوح عليهم بقوله: **﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّـاراً. إنك إن تذرهم يُضِلُّوا عبادَك ولا يلدوا إلَّا فاجراً كفّاراً﴾**[1].

٩ ــ أمْـرُ الله لنوح أن يصنـع السفينـة ــ وقد كـان ماهـراً في النجـارة ــ وذلـك تهيئة لإنقاذه هو ومَن آمن معه من الطوفان الذي سيغسل الأرض من الكفر.

١٠ ــ سخرية قوم نوح منه كلما مرَّ عليه ملأ منهم ورأَوْه يصنـع السفينة، وذلك إمعـاناً منهم بالضلال وهم يَرَون منذرات العذاب.

١١ ــ حلول الأجـل الذي قضـاه الله وقـدَّره للطوفـان، وكان من عـلامة ذلـك أن فـار الماء من التنُّور.

١٢ ــ أمر الله لنوح أن يحمل في السفينة:

(أ) من كلٍّ زوجين اثنين.

(ب) أهله إلَّا من كفر منهم، ومنهم ولده الذي كان من المُغْرَقين.

(جـ) الذين آمنوا معه، وهؤلاء قليل.

فركبوا فيها وقالوا: **﴿باسم الله مجريها ومرساها﴾**[2].

١٣ ــ تفجّر عيون الأرض، وانسكاب سحب السماء، ووقـوع قضاء الله، ودعـوة نوحٍ ولدَه في آخر الساعات قبيـل غرقـه، ولكن هذا الـولد رفض الإيمـان، وظن النجاة بـالاعتصام

---

(١) (٢٦ و ٢٧ نوح/٧١).

(٢) (٤١ هود/١١).

بالجبل! وجرت السفينة بأمر الله، وقُضي الأمر، وكان ولد نوح من المغرقين.

١٤ ــ تحسُّر نوحٍ على ولده وهو في السفينة تجري بأمر الله وتمنِّيه أن يكون معه ناجياً، وقوله لربه: «إن ابني من أهلي» وعتاب الله له، وإخباره بأن هذا الولد ليس من أهله، لأنه كافر عمل عملاً غير صالح.

١٥ ــ ختم القصة بالإعلان عن انقضاء الأمر:

﴿وقيل: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغِيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجوديّ، وقيل: بعداً للقوم الظالمين﴾[1].

الجودي: جبل في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة، وهو متصل بجبال أرمينية. ويُسمى في التوراة: «أراراط».

١٦ ــ ذِكْرُ المدة التي لبثها نوح في قومه، وهي: ألف سنة إلَّا خمسين عاماً، فهل هي مجموع حياته، أو هي فترة دعوته لقومه ــ أي: منذ رسالته حتى وفاته ــ أو هي منذ ولادته أو رسالته إلى زمن الطوفان؟ كل ذلك محتمل والله أعلم بالحقيقة.

قال الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقد نرجح الرأي الأخير لقوله تعالى: ﴿فأخذهم الطوفان﴾ بعد قوله: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عاماً﴾؛ لما تفيده الفاء من الترتيب.

والمذكور في نصوص التوراة الحالية أن الطوفان كان بعد (٦٠٠) سنة من عمر نوح؛ وفيما يلي نصها:

(في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر؛ في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة، في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح، وامرأة نوح وثلاث نساء بينه معهم إلى الفلك)[2].

وفيها أنه عاش بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسين سنة. فكانت كلّ أيام نوح تسعمئة وخمسين سنة ومات[3].

١٧ ــ بيان أن الذين بقوا بعد نوح هم ذريته فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾[4].

---

(١) (٤٤ هود/١١).
(٢) سفر التكوين الإصحاح السابع (١١ ــ ١٢ ــ ٢٣).
(٣) سفر التكوين الإصحاح التاسع (٢٨ ــ ٢٩).
(٤) (٧٧ الصافات/٣٧).

قال المؤرخون: وهم ذرية أولاده الثلاثة؛ سام وحام ويافث.

ويقولون أيضاً:

١ ــ سام: أبو العرب وفارس والروم.

٢ ــ وحام: أبو السودان والفرنج والقبط والهند والسند.

٣ ــ ويافث: أبو الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج.

والله أعلم بالحقيقة.

(٤)

«هود عليه السلام»

وقد أرسله الله إلى عاد.

قال الله تعالى بشأنه في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

* **نسب هود:**

أرسل الله هوداً عليه السلام في قبيلة من القبائل العربية البائدة؛ المتفرعة من أولاد سام بن نوح عليه السلام، وهي قبيلة عاد، وسميت بذلك نسبةً إلى أحد أجدادها، وهو: عاد بن عوص بن إرم بن سام. وهو عليه السلام من هذه القبيلة ويتصل نسبه بعاد.

ويرجح النسابون أن نسبه كما يلي:

فهو: (هود عليه السلام) بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد ــ جدّ هذه القبيلة ــ ابن عوص بن إرم بن سام بن (نوح عليه السلام). والله أعلم.

* **مساكن عاد:**

كانت مساكن عاد في أرض «الأحقاف»، من جنوب شبه الجزيرة العربية. والأحقاف تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الربع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، لا أنيس فيها ولا ديار.

قال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴿٢١﴾﴾.

* **حياة هود مع قومه في فقرات:**

لقد فصل القرآن الكريم قصة سيدنا هود عليه السلام مع قومه عاد في نحو عشر سور[1]، وأبرز ما فيها النقاط التالية:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته إلى عاد.

٢ ــ ذكر أن عاداً كانوا خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح.

٣ ــ ذكر أن هؤلاء القوم كانوا:

(أ) أقوياء أشداء، ممن زادهم الله بسطة في الخلق.

(ب) مترفين في الحياة الدنيا، قد أمدهم الله بأنعام وبنين، وجنات وعيون، وألهمهم أن يتخذوا مصانع لجمع المياه فيها، وقصوراً فخمة شامخة، إلى غير ذلك من مظاهر النعمة والترف.

(ج) يبنون على الروابي والمرتفعات مباني شامخة، ليس لهم فيها مصلحة تقصد إلَّا أن تكون آيةً يتباهون بها، تُظهر قوتهم وبأسهم في الأرض.

(د) أهل بطش، فإذا بطشوا بطشوا جبارين.

(هـ) أصحاب آلهةٍ من الأوثان، يعبدونها من دون الله.

(و) ينكرون الدار الآخرة ويقولون: «إن هي إلَّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين». (٣٧ المؤمنون/٢٣).

٤ ــ ذكر أن هوداً عليه السلام دعاهم إلى الله بمثل دعوة الرسل، وأمرهم بالتقوى، وأنذرهم عقاب الله وعذابه، فكذبوه واستهزؤوا بدعوته، وأصروا على العناد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد منهم، ولم يؤمن معه إلَّا قليل منهم، فاستنصر بالله، فقال الله له: **﴿عمَّا قليل ليصبحُنَّ نادمين﴾** (٤٠ المؤمنون/٢٣)، فأرسل الله عليهم الريح العقيم[2]، ريحاً صرصراً[3] عاتية، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسومٍ[4] نحسات، تدمر كلّ شيء بأمر ربها، فما

---

(١) لم تتعرض كتب أهل الكتاب إلى ذكر قوم عاد، فهي من التواريخ التي ليس لها مصدر إلَّا القرآن الكريم.

(٢) وهي: الريح التي لا خير فيها ولا لقاح، وإنما هي ريح العذاب والهلاك.

(٣) الريح الصرصر: شديدة الحر أو شديدة البرد.

(٤) حسوم: أي متتابعات.

تـذر من شيء أتت عليه إلاَّ جعلتـه كالـرميم[1]. فأهلكتهم، وأنجى الله بـرحمته هـوداً والذين آمنوا معه، وتم بذلك أمر الله وقضاؤه.

(٥)

«صالح عليه السلام»

وقد أرسله الله إلى ثمود.

قال الله تعالى بشـأنه في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

* **نسب صالح:**

أرسل الله صالحاً عليه السـلام في قبيلة من القبائـل العربيـة البائـدة، المتفرعـة من أولاد سـام بن نوح عليـه السـلام، وهي قبيلة ثمـود، وسميت بـذلـك نسبـة إلى أحـد أجـدادهـا، وهو: ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن (نوح عليه السلام)، وقيل: ثمود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن (نوح عليه السلام). وسيدنا صالح عليه السلام من هذه القبيلة، ويتصل نسبه بثمود.

أما نسبه: فهو: (صالـح عليه السـلام) بن عبيد بن أسف بن مـاشخ بن عبيـد بن حاذر ـ أو ـ صالح بن جابر بن ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن (نوح عليه السلام). والله أعلم.

* **مساكن ثمود:**

كانت مساكن ثمود بالحِجْر، ولذلك سماهم الله في القرآن الكريم أصحاب الحِجر بقوله تعالى في سورة (الحِجْر ١٥):

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟

---

(١) أي: كالهشيم اليابس المتفتت، ويقال عظم رميم: أي بالٍ متفتت.

يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

والحِجْر ــ كما سبق في مبحث معجزة صالح عليه السلام ــ : أرض بين الشام والحجاز إلى وادي القرى، وتقع في الطريق البري للمسافر من الشام إلى الحجاز. وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن، وتسمى مدائن صالح، كما تعرف ديارهم باسم (فجّ الناقة).

*** حياة صالح مع قومه في فقرات:**

لقد فصل القرآن الكريم قصة سيدنا صالح عليه السلام مع قومه ثمود في نحو إحدى عشرة سورة؛ وأبرز ما فيها النقاط التالية:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته إلى ثمود.

٢ ــ ذكر أن ثمود كانوا خلفاء في الأرض من بعد عاد.

٣ ــ ذكر أن هؤلاء القوم كانوا:

(أ) آمنين ممتّعين بنعمة من الله في جنات وعيون، وزروع مختلفة، وأشجار نخيل مثمرة.

(ب) يتخذون من السهول قصوراً، وينحتون الجبال بيوتاً فارهين.

(جـ) أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله.

٤ ــ ذكر أن صالحاً عليه السلام دعاهم إلى الله بمثل دعوة الرسل، وأمرهم بالتقوى، ونهاهم عن عبادة الأوثان، فآمن معه ثُلة قليلة، أما أكثرهم فكذبوه، واستكبروا عن اتّباعه، وكفروا برسالته، وطلبوا منه معجزةً تشهد بصدقه، فجاءهم بمعجزة الناقة، وقال لهم: ذروها تأكل من أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب، فأصروا على العناد، وبعثوا أشقاهم فعقر الناقة، فقال لهم: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب». ولما حان أجل العذاب أرسل الله عليهم الصيحة مصبحين، فدمرتهم تدميراً، وأصبحوا في ديارهم جاثمين هلكى، وأنجى الله برحمته سيدنا صالحاً والذين آمنوا معه. وتم بذلك أمر الله وقضاؤه: «سنة الله في الذين خلَوا من قبل».

(٦)
«إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام»

قد أثبت الله نبوته ورسالته في مواطن عديدة من الكتاب العزيز، وشهد له بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً. قال تعالى بشأنه في سورة (النحل ١٦):

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

*** نسب إبراهيم:**

ذكر المؤرخون نسبه واصلاً إلى سام بن نوح عليه السلام، ونوح ــ في سلسلة نسب إبراهيم ــ هو الأب الثاني عشر. وقد أسقط بعض النسابين من آبائه في سلسلة النسب (قينان)، بسبب أنه كان ساحراً.

فهو على ما يذكرون: (إبراهيم «أبرام» عليه السلام)[1] بن تارح «وهو آزر كما ورد في القرآن الكريم»[2] بن ناحور بن ساروغ «سروج» بن رعو بن فالغ «فالج» بن عابر بن شالح بن قينان ــ الذي يسقطونه من النسب لأنه كان ساحراً ــ بن أرفكشاذ «أرفخشذ» بن سام بن (نوح عليه السلام). والله أعلم.

*** حياة إبراهيم عليه السلام في فقرات:**

١ ــ موجز حياته عند أهل التاريخ:

ذكر المؤرخون: أنه ولد بالأهواز، وقيل: ببابل[3] ــ وهي العراق ــ.
ويذكر أهل التوراة أنه كان من أهل «فدَّان آرام» بالعراق.
وكان أبوه نجاراً، يصنع الأصنام ويبيعها لمن يعبدها.

وبعد نضاله في الدعوة إلى التوحيد ونبذ الأصنام، وما كان من أمره مع نمروذ بن لوش ملك العراق، وإلقائه في النار، ونجاته منها بالمعجزة ــ كما قص الله علينا في كتابه المجيد ــ؛ انتقل إلى أور الكلدانيين ــ وهي مدينة كانت قرب الشاطىء الغربي للفرات ــ ومعه في رحلته زوجته سارة وقد آمنت معه، وابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وقد آمن معه وهاجر

---

(١) قالوا أبو البقاء في كلياته: إبراهيم اسم سرياني معناه أب رحيم.

(٢) قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً﴾. فهل آزر علم آخر لوالد إبراهيم، أو لقب له، أو كلمة تحمل معنىً آخر في لغة زمانه؟ كل ذلك محتمل. وإذا صح أن اسم أبيه تارح ــ كما يروي مؤرخو أهل الكتاب ــ فأقرب الاحتمالات أن آزر لقبه. والله أعلم.

(٣) ومعنى كلمة بابل بالسريانية: النهر، ولعلهم عنوا بذلك دجلة والفرات، ولذلك سموا البلاد الواقعة على شواطئهما ببابل. ومن ذلك كان إقليم مصر معروفاً عند الأمم باسم: (بابليون)، أي: نهر أكبر أو نهر مبارك؛ إلَّا العرب فإنهم يسمونه: إقليم (مصر) نسبة إلى مصر بن حام بن نوح، الذي نزل به بعد الطوفان.

وقيل: أصل (بابل) باب إيل: أي: باب الإله. والله أعلم.

معه؛ كما قال تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦﴾.

كما هاجر معه في الرحلة ثُلة من قومه الذين آمنوا معه، وأبوه آزر دون أن يؤمن به، وأقام في أور الكلدانيين حقبةً من الزمن.

ثم رحل إلى حاران أو «حرَّان».

ثم رحل إلى أرض الكنعانيين ــ وهي أرض فلسطين ــ ، وأقام في «شكيم» وهي مدينة «نابلس».

ثم رحل إلى مصر ، وكان ذلك في عهد ملوك الرعاة، وهم العماليق ــ ويسميهم الرومان: «هكسوس» ــ ، واسم فرعون مصر حينئذٍ: «سنان بن علوان»، وقيل «طوليس».

وقد وهب فرعون هذا سارة زوجة إبراهيم ــ بعد أن عصمها الله منه ــ جاريةً من جواريه اسمها: «هاجر»؛ فوهبتها لزوجها فاستولدها.

ولما وُلِدَ له من هاجر «إسماعيل» ــ وكان عمره (٨٦) سنة ــ سافر بأمر من الله إلى وادي مكة، وترك عند بيت الله الحرام ولده الصغير إسماعيل مع أمه هاجر، وعاد إلى أرض الكنعانيين.

ثم وهبه الله ولداً من زوجته سارة سماه «إسحق»، وذلك حين صار عمره (١٠٠) سنة.

وكان يتعهد ولده إسماعيل في وادي مكة من آن إلى آخر، وبنى مع ولده إسماعيل البيت الحرام بأمر من الله. قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧﴾.

وقد جاء في الإصحاح الخامس والعشرين من «سفر التكوين»: أن إبراهيم تزوج بعد وفاة سارة زوجة اسمها «قطورة»، فولدت له ستة أولاد هم: زمران ويقشان ومدان ويشباق وشوحا ومديان.

وإلى مديان ــ هو مدين ــ بن إبراهيم هذا ينسب «أهل مدين» الذي أرسل إليهم «شعيب عليه السلام».

ولما بلغ عمر إبراهيم عليه السلام (١٧٥) سنة ختم الله حياته في أرض فلسطين، ودفن في مدينة الخليل «حبرون وكان اسمها في الأصل قرية أربع»، في المغارة المقام عليها الآن مقام الخليل عليه السلام، وتعرف بمغارة الأنبياء.

واختتن وهو ابن ثمانين سنة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختتن إبراهيم النبي وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم».

(رواه البخاري ومسلم)[1]

٢ ـ لمحات من قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن:

وقد بسط القرآن الكريم مشاهد بارزة مهمة من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام في عدة سور، وأبرز ما فيها النقاط التالية:

١ ـ بدء حياته عليه السلام باحتقار الأصنام، وبيان سخف عبادتها، ثم ثورته عليها وتحطيمها، غير مكترث بما ينجم عن عمله هذا، وتنبيه عابديها على خطئهم البالغ في عبادتها وتعظيمها، ونشأته على ما بقي محفوظاً من ملّة نوح عليه السلام.

٢ ـ تأمّلاته في ملكوت السماوات والأرض، وبحثه عن جلال الرب وكمال صفاته، وتنزه ذاته عن كل صفة من صفات الحدوث وعوارض النقص.

٣ ـ توجُّهه إلى الله فاطر السموات والأرض، وتبرؤه مما يشرك المشركون.

٤ ـ بلوغه منزلة النبوة والرسالة باصطفاء الله له، واضطلاعه بمهامها، وإنزال الصحف عليه المسماة «بصحف إبراهيم».

٥ ـ محاجّته لقومه بالبراهين والأدلة المنطقية المقنعة والملزمة، وثباته في محاجّةِ من آتاه الله الملك في البلاد، وارتقاؤه إلى أعلى مراتب الإيمان بأن الله هو الذي يميت ويحيي، ويطعم ويسقي، ويمرض ويشفي، وبيده كل شيء.

٦ ـ تعرضه للعذاب من قبل قومه، وذلك بإيقاد النار له في بنيان أعدوه لهذه الغاية، وإلقاؤه فيها، وصبره وثباته وثقته بالله، ثم سلامته من حرّها وضُرّها، إذ قال الله لها: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»[2]!!

٧ ـ عزمه على الهجرة من أرض الشرك، وإيمان لوط به ومهاجرته معه.

٨ ـ إثبات أن الله أنزل عليه صحفاً تسمى «صحف إبراهيم».

٩ ـ زيارته مكة، وإسكانه في واديها بعض ذريته وهو «إسماعيل». ورفع قواعد بيت الله الحرام فيها مع ولده إسماعيل عليهما السلام. وعهدُ اللّهِ له ولولده إسماعيل أن يطهرا البيت

---

(١) من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٧٠٣).

(٢) (٦٩ الأنبياء/٢١).

للطائفين والعاكفين والركّع السُّجود، وأمر الله له أن يؤذّن في الناس بالحج. ومشاهد رائعة من مواقف التجاءاته إلى الله، ومناجاته له بالعبادة والدعاء.

١٠ ــ طلبه من الله أن يريه كيف يحيي الموتى، وذلك ليطمئن قلبه، ويزداد يقينه بالحياة بعد الموت، إذا رأى بالمشاهدة الحسية كيفية حدوث ذلك.

١١ ــ أن الله وهبه ــ على كبر سنه ــ إسماعيل وإسحاق، وخرق العادة له بإكرامه بإسحاق من امرأته العجوز العاقر «سارة».

١٢ ــ مجادلته الملائكة المرسلين لإهلاك قوم لوط، لعل الله أن يدرأ عنهم العذاب الماحق، وذلك طمعاً بأن يهتدوا ويستقيموا، إلاَّ أن جواب الرب ناداه: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾. (٢٦ هود/١١).

١٣ ــ إكرام الله له بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب من بعده، وقد كان واقع الأمر كما وعده الله، فجميع الأنبياء والرسل من بعده كانوا من ذريته. أما لوط عليه السلام فإنه كان معاصراً له، على أن إبراهيم كان عمه فيمكن دخوله في عموم الذرية.

* ما جاء عن سيدنا إبراهيم في الحديث الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله: قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا». وقال: بينا وهو ذات يوم وسارَةُ، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إنّ ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسَلَ إليه، فسأله عنها: من هذه؟ قال: أختي.

فأتى سارة فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. فأرسل إليها، فأتي بها ــ وقام إبراهيم يصلي ــ فلما دخلت عليه، ذهب يتناولها بيده فأُخِذ حتى ركض برجله! فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق. ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد!! فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان!! فأخدَمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده: مَهْيَمْ؟ قالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر).

قال أبو هريرة: (تلك أمكم يا بني ماء السماء). (رواه البخاري ومسلم)[1]

مَهْيَمْ: كلمة استفهام، بمعنى: ما حالك، ما شانك؟.

(١) من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٧٠٤).

(٧)

«لوط عليه السلام»

وقد أرسله الله إلى «أهل سدوم» وكانوا يعيشون في مكان البحر الميت المعروف الآن في الأردن.

ذكر المؤرخون: أن أهل سدوم كانوا نحواً من (٤٠٠) ألف، وأن لهم خمس قرى هي: صبغه، وعمره، وأدما، وصبويم، وبالع. والله أعلم.

وقد سماهم القرآن قوم لوط.

قال الله تعالى مثبتاً رسالته في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

* **نسب لوط:**

هو ابن أخي سيدنا إبراهيم عليه السلام، آمن به وهاجر معه من العراق. ثم أرسله الله إلى أهل سدوم في أرض مهجره ببلاد الشام، وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب.

فهو: لوط بن هاران بن تارح «آزر» بن ناحور... وهكذا إلى آخر نسب سيدنا إبراهيم. والله أعلم.

* **حياة لوط مع قومه في فقرات:**

لقد أثبت القرآن الكريم قصة لوط مع قومه، ذاكراً فيها أهم المشاهد من حياته، وذلك في نحو ست سور، وأبرز ما فيها النقاط التالية:

١ ـ بدء إيمانه بعمه إبراهيم عليه السلام، وهجرته معه.

٢ ـ نبوته ورسالته إلى قومه «أهل سدوم».

٣ ـ دعوته لقومه بمثل دعوة الرسل، ونصيحته لهم أن يهجروا ما هم عليه من سوء، وإنذارهم بعاقبة ما هم عليه من شر.

٤ ـ إثبات أن قومه كانوا أهل شذوذ جنسي، يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويجاهرون بشذوذهم فيأتون المنكر في نواديهم.

٥ ــ إثبات أن قومه كانوا يقطعون السبيل، فلا يَدَعون مسافراً أو تاجراً يمر في طريقهم إلَّا آذوه، واعتدوا عليه وسلبوه ماله.

٦ ــ بيان أن قومه لما وعظهم ونصحهم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا: «أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون»، يعنونه وأهله.

٧ ــ إرسال الله رسلاً من الملائكة لإهلاك قوم لوط، وزيارة هؤلاء الرسل من الملائكة سيدنا إبراهيم قبل ذلك، وإخباره بمهتهم التي جاؤوا من أجلها.

٨ ــ انصرافهم إلى لوط عليه السلام ، ودخولهم عليه بصورة شباب مُرْدٍ حِسَان دون أن يخبروه بحقيقتهم، ثم إقبال قوم لوط على داره يريدون بهؤلاء الشباب فاحشة. ثم إخبار الملائكة لوطاً بحقيقتهم وبمهمتهم التي جاؤوا من أجلها، وبأن القوم لن يصلوا إليهم. وأَمرُهم إياه أن يخرج من أرض قومه مع أهله ليلاً قبل طلوع الصبح، وإخبارهم إياه بأن الصبح موعد تدمير قومه، وتساؤلهم أليس الصبح بقريب، ووعدهم له بالنجاة هو وأهله، إلا امرأته العجوز الكافرة التي كان هواها مع قومها.

٩ ــ بيان أن اللّـه أتم قضاءه في قوم لوط، فخسف بهم الأرض، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، وأنجى الله لوطاً وأهله إلَّا امرأته كانت من الغابرين الهالكين.

(٨)

«إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام»

قال تعالى مثبتاً نبوته ورسالته في سورة (مريم ١٩):

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾.

ويترجح لدينا أن الله أرسله إلى القبائل العربية التي عاش عليه السلام في وسطها، وقد ذكر المؤرخون أن الله أرسله إلى قبائل اليمن وإلى العماليق.

* **حياة إسماعيل[1] عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياته عليه السلام ما يلي:

١ ــ لما بلغ إبراهيم عليه السلام من العمر (٨٦) سنة ولدت له أَمَته المصرية «هاجر»

(١) في كليات أبي البقاء أن معنى إسماعيل: مطيع الله.

ابنه إسماعيل. وهذه الأَمَة هي التي كان فرعون مصر قد وهبها لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام، فوهبتها سارة لإبراهيم لعل الله أن يرزقه منها بولد، إذْ كانت هي حتى ذلك التاريخ عقيماً لم تلد، إلا أنها ولدت بعد ذلك بإسحق، ببشارة الملائكة لإبراهيم كما قدمنا عند الكلام على حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

٢ ــ أَمر الله إبراهيم عليه السلام أن يُسكِن ولده الصغير ــ إسماعيل ــ وأمه في وادي مكة؛ فسافر بهما إلى هذا الوادي، وأسكنهما فيه طاعة لله تعالى، وانصرف عنهما عائداً إلى الشام، واستودعهما عند الله تعالى يرعاهما برعايته، ويكلؤهما بحفظه.

٣ ــ ولما نفد الماء الذي كان معهما، واشتد الظمأ بالصبي، سعت أمه بين الصفا والمروة باحثةً عن الماء، لعل الله يخلق لها من الشدة فرجاً، فأرسل الله الملك فبحث في مكان زمزم فتفجر الماء، ولما رأت ذلك أقبلت وسقت ولدها إسماعيل، وقد امتلأ قلبها سروراً وفرحاً!!

٤ ــ أحست قبيلة «جُرْهُم» ــ وهي من القبائل العربية ــ بأن الوادي أصبح فيه ماء، فوفدت إليه وضربت فيه خيامها إلى جانب الماء، بعد أن استأذنت من هاجر أم الصبي.

٥ ــ شب إسماعيل وتعلَّم اللغة العربية، وتزوج امرأة من «جرهم»، ثم طلقها بإشارة من أبيه، لأن إبراهيم عليه السلام اختبرها فوجدها شاكية متضجرة من شظف العيش وشدَّته، ثم تزوج بأخرى.

قالوا: وقد وُلد لإسماعيل اثنا عشر ولداً ذكراً وكانوا رؤساء قبائل[1] ــ ومن نسله جاء العرب الذين يعرفون بالعرب المستعربة ــ كما وُلدت له بنت زوَّجها من ابن أخيه عيسو «العيص» بن إسحاق.

٦ ــ ثم أمر الله إبراهيم ــ في منامه ــ أن يذبح ولده إسماعيل ابتلاءً لهما، فعرض الأب الرحيم على ابنه التقي البار أمر الله، فقال إسماعيل: «يا أبت افعل ما تؤمر»، وباشر تنفيذ أمر الله، إلّا أن الله تعالى فداه بذِبْحٍ عظيم جاء به الملك جبريل عليه السلام.

٧ ــ وقد عمل إسماعيل مع أبيه إبراهيم في عمارة الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، وقاما بأداء مناسكهما كما أمر الله تعالى.

---

(١) جاء في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ذكرُ أولاد إسماعيل الاثني عشر وهم:
١ ــ نبايوت «الولد البكر له» ٢ ــ قِيدَار ٣ ــ أَدْبِئِيل ٤ ــ مِبْسام ٥ ــ مِشْماع ٦ ــ دُومة ٧ ــ مسَّا ٨ ــ حَدَار ٩ ــ تيما ١٠ ــ يطور ١١ ــ نافيش ١٢ ــ قِدْمه.

٨ ــ عاش إسماعيل عليه السلام (١٣٧) سنة، ومـات بمكة ودفن عنـد قبر أمـه هاجـر بالحجر، وكانت وفاته بعد وفاة أبيه بـ (٤٨) سنة. والله أعلم.

(ب) وقد قص الله علينا في كتابه العزيز جوانب من حياة إسماعيل عليه السلام؛ أهمها النقاط التالية:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى إليه وأنزل إليه طائفة من الشرائـع الربانية.

٢ ــ إثبـات أخلاقـه الكريمـة التي منها: صـدق الوعـد والصبر، والثنـاء عليه بـأنـه من الأخيار، ومن صبره عليه السلام طـاعته وامتثـاله أمـر الله بذبحـه، الذي أمـر به أبـاه إبراهيم عليه السلام.

٣ ــ مشـاركتـه لأبيـه إبـراهيم في رفـع القـواعـد من البيت الحـرام، وفي التجـاءاته ومنـاجاتـه لله تعالى، وفي أن الله عهـد لهـما أن يـطهـرا البيت للطائفـين والعـاكفـين والركّـع والسُّجود.

(٩)

«إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام»

وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، وقال تعالى مثبتـاً نبوتـه في معرض الامتنان على أبيه إبراهيم في سورة (الصافات ٣٧):

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

ويترجـح أنه كـان رسولاً في أرض الكنعـانيين «بـلاد الشام في فلسـطين»، في البيئة التي عاش فيها سيدنا إبراهيم.

*** حياة إسحاق عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض لـه المؤرخون من حياته عليه السلام ما يلي:

١ ــ لما بلـغ إبراهيم عليه السلام من العمر (١٠٠) سنة ولـدت له زوجتـه سارة المـرأة العجوز العقيم إسحاق عليه السلام.

٢ ــ أوصى إبراهيم أن لا يتزوج إسحاق إلا امرأة من أهل أبيه وقد كانوا مقيمين في أرض بابل «العراق». ونُفِّذت وصية إبراهيم، فتزوج إسحاق عليه السلام «رفقة» بنت بتوئيل بن ناحور بن آزر، وناحور هذا هو أخو سيدنا إبراهيم عليه السلام، فتكون «رفقة» بنت ابن عمه.

٣ ــ وقد أنجب إسحاق ولدين هما: عيسُو «العيص»، ويعقوب وهو المسمى إسرائيل.

٤ ــ وعاش إسحاق عليه السلام (١٨٠) سنة، ومات في أرض الكنعانيين «فلسطين»، ودفن في الخليل «حبرون» في المغارة التي دفن فيها أبوه إبراهيم.

(ب) وقد قص الله علينا في كتابه العزيز جوانب يسيرة من حياة إسحاق عليه السلام؛ تتلخص بالنقاط التالية:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى إليه، وأنزل إليه طائفة من الشرائع.

٢ ــ إثبات أنه عليم ونبي من الصالحين، وأن الله بارك عليه.

٣ ــ إثبات أن الملائكة بشّرت إبراهيم بمولده من زوجته العجوز العقيم ــ وهي سارة ــ؛ فلما سمعت البشرى قالت: «يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب؟!». (٧٢ هود/١١).

(١٠)

«يعقوب ــ وهو إسرائيل ــ عليه السلام»

وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، وقال تعالى مثبتاً نبوته في معرض الامتنان على جده إبراهيم في سورة (مريم ١٩):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

*** حياة يعقوب عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياته عليه السلام ما يلي:

هو يعقوب بن إسحاقِ بن إبراهيم عليه السلام، وأمه (رفقة) بنت بتوئيل بن ناحور[1] بن آزر «تارح».

---

(١) وهو أخو إبراهيم عليه السلام.

ويعقوب «إسرائيل» عليه السلام هو أبو الأسباط الاثني عشر، وإليه ينسب شعب بني إسرائيل، وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سماه إسرائيل. ففي الإصحاح (٣٢) من سفر التكوين أنّ الملك الذي صارعه حتى الفجر سماه «إسرائيل» وقال له: لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت.

ذكر المؤرخون أنه ولد في مهجر الأسرة الإبراهيمية في أرض الكنعانيين «فلسطين»، وشب في كنف أبيه إسحاق، ثم سافر إلى خاله (لابان بن بتوئيل بن ناحور) المقيم في «فدان آرام» من أرض بابل «العراق» وأقام عنده.

وكان للابان ابنتان هما: (لَيْئة) وهي الكبرى، و(راحيل) وهي الصغرى، فخطب يعقوب من خاله بنته الصغرى راحيل، فوافقه خاله مقابل أن يخدمه سبع سنين، ولكن خاله أدخله على ليئة البنت الكبرى بدلاً من راحيل التي خطبهاواختارها، فكلم خاله في ذلك فقال له: اخدمني سبع سنين أخرى لأزوجك من راحيل أيضاً؛ فخدمه وجمع بين الأختين، ولم يكن الجمع بين الأختين في شريعتهم محرماً.

وكان لكل من الأختين ليئة وراحيل جارية، فتزوج يعقوب بهما أيضاً، وهما: بِلْهَة جارية راحيل، وزِلْفَة جارية ليئة.

وبذلك صار عنده أربع نسوة، وقد ولدن له أولاده الاثني عشر.

أما لَيْئة: فقد ولدت له ستة أولاد، وهم:

١ ــ رأوبين «وهو الولد البكر ليعقوب» ٢ ــ شمعون ٣ ــ لاوي «ومن نسله موسى عليه السلام» ٤ ــ يهوذا «ومن اسمه أخذت كلمة يهود» ٥ ــ يسّاكر ٦ ــ زبولون.

وأما راحيل: فقد ولدت له ولدين، هما:

١ ــ يوسف «عليه السلام» ٢ ــ بَنْيامين.

وأما بِلهة جارية راحيل: فقد ولدت له ولدين أيضاً هما:

١ ــ دان ٢ ــ نفتالي.

وأما زِلْفَة جارية لَيْئَة: فقد ولدت له ولدين أيضاً هما:

١ ــ جاد ٢ ــ أشير.

وهؤلاء هم أولاده الاثنا عشر، وكان كل واحد منهم أباً لسبط من أسباط بني إسرائيل. قالوا: وكل أولاده قد ولدوا له وهو في «فدان آرام» عند خاله يرعى له الغنم مهراً لابنتيه، إلا

بنيامين فقد ولد له بعد أن رجع إلى مهجر الأسرة الإبراهيمية في أرض الكنعانيين.

قالوا: وقد ساق معه من غنم خاله نتاج سنة لدى عودته إلى مهجر الأسرة مع زوجاته وأولاده؛ وقد ابتلي عليه السلام بفراق ابنه يوسف ـ كما سيأتي ـ ثم اجتمعا في مصر، وتوفي بعد (١٧) سنة لما بلغ من العمر (١٤٧) سنة. وقد أوصى يعقوب ابنه يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك، وسار به إلى الشام ودفنه عند أبيه في المغارة بحبرون «مدينة الخليل».

(ب) وقد عرض القرآن الكريم إلى جوانب يسيرة من حياة يعقوب عليه السلام في عدة سور؛ وأهمها النقاط التالية:

١ ـ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى له وأنزل إليه طائفة من الشرائع، وجعله من الصالحين ومن المصطَفَين الأخيار.

٢ ـ وصيَّته لبنيه بقوله: «يا بَنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون». (١٣٣ البقرة/٢).

٣ ـ امتنان الله على جده إبراهيم بميلاده من وراء إسحاق وبجعله نبياً.

٤ ـ مشاهد مما جرى له من جرّاء حسد أولاده لأخيهم يوسف، وإلقائهم إياه في الجب، وادعائهم أن الذئب أكله، وشدة حزنه على فراقه، ثم انتقاله إلى مصر بعد أن صار يوسف عليه السلام حاكماً على خزائن الأرض فيها، وذلك ما تضمنته قصة يوسف المبسوطة في القرآن المجيد.

(١١)
«يوسف عليه السلام»

قال رسول الله ﷺ:

«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وقد ذكره الله في عداد مجموعة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وقال الله تعالى في شأنه في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

*** حياة يوسف عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياته عليه السلام ما يلي:

١ ــ هو يوسف بن يعقوب من زوجته راحيل، ولد في «فدان آرام» بالعراق حينما كان أبوه عند خاله (لابان)، ولما عاد أبوه إلى الشام ــ مهجر الأسرة الإبراهيمية ــ كان معه حدثاً صغيراً. قالوا: وكان عمر يعقوب لما ولد له يوسف (٩١) سنة، وإن مولد يوسف كان لمضي (٢٥١) سنة من مولد إبراهيم.

٢ ــ توفيت أمه وهو صغير، فكفلته عمته وتعلقت نفسها به، فلما اشتد قليلاً أراد أبوه أن يأخذه منها، فضنَّت به وألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سُرقت منها، وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدةً جزاءً له بما صنع، وبهذه الحيلة استبْقَتْه عندها، وكف أبوه عن مطالبتها به.

٣ ــ كان يوسف أثيراً عند أبيه من بين إخوته، وقد رأى يوسف ــ وهو غلام صغير ــ رؤيا قصها على أبيه، فقال له أبوه: «لاتقصص رؤياك على إخوتك»، وذلك خشية عليه من حسدهم. وخلاصة الرؤيا: أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له، فعرف يعقوب أنها تتضمن مجداً ليوسف يجعل إخوته وأبويه يخضعون لسلطانه.

٤ ــ حسده إخوته على ولوع أبيهم به وإيثاره عليهم، فدبروا له مكيدة إلقائه في الجب، فمرت قافلة فأرسلت واردها إلى البئر فأدلى دلوه، فتعلق يوسف به، فأخذوه عبداً رقيقاً، وانتهى أمره إلى مصر فاشتراه رئيس الشرطة فيها، واحتل عنده مكاناً حسناً اكتسبه بحسن خلقه وصدقه، وأمانته وعبقريته. قالوا: ودخول يوسف إلى مصر يمكن تحديده قريباً من سنة (١٦٠٠) ق. م في عهد الملك أبابي.

٥ ــ عشقته زوجة سيده وشغفت به، فراودته عن نفسه فاستعصم، فدبرت له مكيدة سجنه إذا لم يُلَبِّ رغبتها منه، فقال: «رب السجن أحب إلي».

٦ ــ أعطاه الله علم تعبير الأحلام، وكشف بعض المغيبات، فاستخدم ذلك في دعوة السجناء معه إلى توحيد الله، وإلى دينه الحق.

٧ ــ كان معه في السجن فتيان: رئيسُ سُقاةِ الملك، ورئيس الخبازين، فرأى كل منهما في منامه رؤيا وعرضها على يوسف.

أما رئيس سقاة الملك: فقد رأى أنه يعصر خمراً، فقال يوسف: ستخرج من السجن

وتعود إلى عملك فتسقي الملك خمراً.

وأما رئيس الخبازين: فقد رأى أنه يحمل فوق رأسه طبقاً من الخبز، والطير تأكل من ذلك الخبز، فقال يوسف: سيصلب وتأكل الطير من رأسه.

وأوصى يوسف رئيس السقاة أن يذكره عند الملك.

وقد تحقق ما عبر به يوسف لكل من الرجلين، إلا أن ساقي الملك نسي وصية يوسف.

٨ ــ لبث يوسف في السجن بضع سنين، حتى رأى الملك رؤيا البقرات السمان والبقرات العجاف، والسنابل الخضر والأخر اليابسات، فعرض رؤياه على السحرة والكهنة فلم يجد عندهم جواباً، عند ذلك تذكر ساقي الملك ما أوصاه به يوسف في السجن فأخبر الملك بأمره، فأرسله إلى يوسف يستفتيه في الرؤيا، فكان جواب يوسف بأن البلاد سيأتيها سبع سنوات مخصبات ثم يأتي بعدها سبع سنوات قحط وجدب.

٩ ــ أُعجب الملك بما عبر به يوسف، فدعاه للخروج من السجن، ولكن يوسف أراد أن يعاد التحقيق في تهمته قبل خروجه، حتى إذا خرج خرج ببراءة تامة، فأعاد الملك التحقيق، فاعترفت المرأة بأنها هي التي راودته عن نفسه. عند ذلك خرج يوسف من السجن، وقربه الملك واستخلصه لنفسه، وجعله على خزائن الأرض، ويشبه هذا المنصب منصب (وزارة التموين والتجارة)، وسماه الملك اسماً يألفونه في مصر بحسب لغتهم (صفنات فعنيح)، وجعله بمثابة الملك مسلّطاً على كلّ مصر، باستثناء الكرسيّ الأول الذي هو للملك.

١٠ ــ نظم يوسف أمر البلاد، وأدار دفة المنصب الذي وُكل إليه إدارة رائعة، وادَّخر في سنوات الخصب الحب في سنابله، لمواجهة الشدة في سنوات القحط، وجاءت سنوات القحط التي عمت مصر وبلاد الشام، فقام بتوزيع القوت ضمن تنظيم حكيم عادل.

١١ ــ علمت أسرته في أرض الكنعانيين بأمر الميرة في مصر، فوفد إخوته إلاّ شقيقه بنيامين إلى مصر طالبين الميرة، لأن أباه ــ سيدنا يعقوب ــ صار حريصاً عليه بعد أن فقد ولده يوسف، فلما رآهم يوسف عليه السلام عرفهم، وأخذ يحقق معهم عن أسرتهم وعن أبيهم، واستجرَّ منهم الحديث فأخبروه عن بنيامين، فأعطاهم ميرتهم ورد لهم فضتهم في أوعيتهم، وكلفهم أن يأتوا بأخيهم بنيامين في المرة الأخرى، وإلا فليس لهم عنده ميرة، فوعدوه بذلك.

١٢ ــ ذكروا لأبيهم ما جرى لهم في مصر، والشرط الذي شرطه عليهم العزيز، وبعد إلحاح شديد ومواثيق أعطوها من الله على أنفسهم، أذن لهم يعقوب عليه السلام بأن يأخذوا معهم أخاهم بنيامين.

١٣ ــ ولما وفدوا على يوسف عليه السلام دبَّر لهم أمراً يستبقي فيه أخاه بنيامين عنده؛ فكلف غلمانه أن يدسوا الإناء الفضيّ الذي يشرب به في رحل أخيه بنيامين. ولما حملوا ميرتهم عائدين إلى بلادهم أرسل الجنود للبحث عن سقاية الملك، فوجدوها في رحل بنيامين فأخذوه، وكان أمراً شديد الوقع على قلوبهم، وعادوا إلى يوسف يرجونه ويتوسلون إليه أن يخلي سبيل أخيهم، وعرضوا عليه أن يأخذ واحداً منهم مكانه، إلا أنه رفض. فرجعوا إلى أبيهم إلا كبيرهم رأوبين، وأخبروه الخبر فظن بهم سوءاً، وحزن حزناً أفقده بصره. ثم أمرهم بالعودة إلى مصر والتحسس عن يوسف وأخيه، فعادوا إلى مصر وألحّوا بالرجاء أن يمنَّ العزيز عليهم بالإفراج عن أخيهم، وخلال محادثتهم معه بدرت منهم بادرة أسرها يوسف في نفسه، إذ قالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»، يشيرون إلى الحادثة التي اصطنعتها عمته حينما كان صغيراً لتستبقيه عندها.

١٤ ــ وبأسلوب بارع عرّفهم يوسف بنفسه، فقالوا: «أإنك لأنت يوسف؟!» قال: «أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا!» قالوا: «تالله لقد آثرك الله علينا!» والتمسوا منه العفو والصفح عما كان منهم، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم». وطلب منهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين، وبذلك انتقل بنو إسرائيل إلى مصر، وأقاموا فيها وتوالدوا حتى زمن خروجهم مع موسى عليه السلام.

١٥ ــ قالوا: ولما اجتمع يوسف بأبيه ــ بعد الفراق ــ كان عمر يعقوب (١٣٠) سنة، فيكون عمر يوسف يومئذ (٣٩) سنة، ثم توفي يعقوب بعدها بـ (١٧) سنة. وعاش يوسف عليه السلام من السنين (١١٠)، ومات في مصر وهو في الحكم ودفن فيها، ثم نقل رفاته إلى الشام أيام موسى عليهما السلام، ودفن بنابلس على الأرجح.

قالوا: وكانت وفاة يوسف عليه السلام قبل مولد موسى عليه السلام بأربع وستين سنة، وبعد مولد إبراهيم بـ (٣٦١) سنة. ولكن مثل هذه المدة لا تكفي مطلقاً لأن يتكاثر فيها بنو إسرائيل إلى المقدار الذي ذكر مؤرخوهم أنهم قد وصلوا إليه أيّام موسى عليه السلام.

(ب) وقد فصَّل القرآن الكريم قصة حياة يوسف عليه السلام في سورة كاملة مسماة باسمه؛

وقد أبرزت من حياته مثالاً فريداً من روائع القصص الإنسانية الهادية المرشدة، مرت في حياة مصلح رسول.

(١٢)

«شعيب عليه السلام»

وقد أرسله الله إلى أهل مدين (ويعرفون أيضاً بأصحاب الأيكة، وهي: غيضة تُنبِتُ ناعمَ الشجر كانت لهم)؛ ويرى بعض المفسرين أن أصحاب الأيكة قوم آخرون غير أهل مدين، أرسله الله إليهم بعد إهلاك أهل مدين، وكانوا يسكنون بقرب مدين، فدعاهم إلى الله فكذبوه، فأخذهم عذاب يوم الظلة. والله أعلم.

وقد ذكر الله شعيباً عليه السلام في عداد مجموعة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ وقال تعالى بشأنه في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ويسميه المفسرون خطيب الأنبياء لحُسْن بيانه وقوّة حجّته.

* **أهل مدين ومساكنهم:**

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون في بلاد الحجاز مما يلي جهة الشام، وهي أرض واقعة حول خليج العقبة من طرف نهايته الشمالية شمالي الحجاز وجنوب فلسطين. ويظهر أنها في الأرض المسماة الآن: (معان)، أو على قرب منها.

وفي الطبري: عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثماني ليال.

وأهل مدين: قبيلة تنسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام من زوجته (قطورة) التي تزوجها بعد موت سارة؛ ويسميه أهل الكتاب (مديان) كما سبق عند الكلام على سيدنا إبراهيم. ويظهر لي أن هؤلاء القوم كانوا قوماً عرباً جاء إليهم مدين بن إبراهيم وصاهرهم وعاش بينهم؛ وصار له فيهم رهط وأسرة، ولذلك سماهم الله أهل مدين نسبة إليه. والله أعلم.

* **نسب شعيب عليه السلام:**

قال أبو البقاء في كلياته: «شعيب عليه السلام هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل». وقيل غير ذلك في نسبه.

قالوا: وأمه بنت لوط عليه السلام. والله أعلم.

* حياة شعيب مع قومه في فقرات:

١ ـ لم يَطُل بأهل مدين العهد حتى هجروا دينهم الذي كانوا ورثوه عن إبراهيم عليه السلام؛ ودخلت فيهم الوثنية فكفروا بالله وعبدوا غيره، وانحرفوا عن الصراط السوي، فكان من سيئاتهم: التطفيف في الكيل والوزن، وبخس الناس أشياءهم في تجاراتهم، والفساد في الأرض.

٢ ـ فأرسل الله إليهم شعيباً رسولاً منهم يتصل نسبه من جهة آبائه بإبراهيم عليه السلام، فدعاهم إلى الله بمثل دعوة الرسل، وأمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وجاءهم ببينة من ربه، وذكرهم بنعمة الله عليهم، إذ كثّرهم من قلة، وأغناهم من فقر، فآمن به قليل منهم وكذبه الأكثرون.

وكان خطيباً حسن البيان قويّ الحجّة، ويذكر المفسرون أنه خطيب الأنبياء، وروي في ذلك حديث عن الرسول ﷺ، رواه ابن إسحاق عن ابن عباس.

٣ ـ ولـمّا ألح عليهم شعيب عليه السلام في الدعوة والموعظة قالوا له ـ كما جاء في سورة (هود ١١)ـ:

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾.

٤ ـ ثم هدّدوه وتوعدوه بإخراجه من قريتهم هو والذين آمنوا معه إلا أن يعود في ملتهم، وهيهات لرسول أن يستجيب لدعوة الكفر وهو يدعو إلى الإيمان!!

٥ ـ ولقد أنذرهم عقاب الله فقال لهم ـ كما جاء في سورة (هود ١١)ـ:

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

٦ ـ وعلى الرغم من كل النصائح والمواعظ والإنذارات، طلبوا منه ـ عناداً وجهلاً وسخرية وتحدياً ـ أن يُسقِط عليهم كسفاً «قطعاً» من السماء إن كان من الصادقين!!

٧ ـ فاستنصر شعيب بربه، فحقت كلمة الله بالعذاب على من كفر من قومه، فأهلكهم الله بالصيحة رافقتها الرجفة في يوم الظلة، وذلك يوم اشتدت فيه الحرارة شدة لا تطاق، فأرسل الله سحابة ففزعوا إليها فراراً من شدة الحر، فلما تكامل عدد أهل الكفر في ظلها، تزلزلت بهم الأرض، وصدمتهم صيحة السماء، فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يَغْنَوا فيها!!

٨ ــ ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه برحمته.

٩ ــ ليس عند المؤرخين تحديد للزمن الذي عاش فيه شعيب عليه السلام، ومن المحقَّق أن دعوته لقومه كانت بعد لوط بزمن غير بعيد، لقوله لقومه ــ كما قص القرآن المجيد في سورة (هود) ــ : ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ (٨٩)؛ وأنها كانت قبل موسى لقوله تعالى ــ عقب الحديث عن عدد من الرسل ومنهم شعيب ــ في سورة (الأعراف ٧):

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴿١٠٣﴾﴾.

ويغلب على الظن أن أحداث إهلاك قومه كانت بعد انتقال بني إسرائيل إلى مصر؛ وفي المدّة الواقعة بين وفاة يوسف ونشأة موسى عليهما السلام. والله أعلم.

١٠ ــ وقد أوجز القرآن الكريم قصة شعيب مع قومه في عدة سور، وأهم ما جاء فيها النقاط التالية:

(أ) إثبات نبوته ورسالته إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة.

وهل هما قوم أو قومان؟

للمفسرين في ذلك رأيان، وقد ترجح عندي أنهما اسمان لمسمى واحد. والله أعلم.

(ب) وصف قومه بالكفر وفعل السيئات التي منها: التطفيف والبخس، والفساد في الأرض.

(جـ) دعوته لقومه، وصبره عليهم، وإنذاره لهم.

(د) إهلاك الله لقومه، ونجاته هو والذين آمنوا معه برحمة من الله وفضل.

(١٣)

«أيوب عليه السلام»

وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، ففي خطابه لسيدنا محمد ﷺ، مثبتاً له أنه أوحى إليه كما أوحى إلى مجموعة من الرسل ومنهم أيوب، قال الله في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

* نسب أيوب:

من المحقَّق أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام، لقوله تعالى في معرض الحديث عن إبراهيم: «ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارون». (٨٤ الأنعام/٦).

وقد حصل اختلاف في تفصيل نسبه، وقال أبو البقاء في كلياته: «لم يصح في نسبه شيء».

وأقرب ما قيل في نسبه ــ على ما نظن ــ هو ما يلي:

فهو (أيوب عليه السلام) بن أموص بن زارح بن رعوئيل بن عيسو «وهو العيص» ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام[1].

* حياة أيوب عليه السلام في فقرات:

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياته عليه السلام ما يلي:

١ ــ كان أيوب عبداً صالحاً، صاحب غنىً كبير، وأهل وبنين.

قالوا: وكان يملك «البثينة» جميعها، وهي من أعمال دمشق. فقد ابتلاه الله بالرخاء، فآتاه المال والغنى والصحة، وكثرة الأهل والولد، فكان عبداً تقياً، ذاكراً لأنعم الله عليه.

جاء في تفسير المنار: أن أيوب عليه السلام كان أميراً غنياً، عظيماً محسناً.

٢ ــ ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، ففقد المال والأهل والولد، ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فصبر على البلاء، وحمد الله وأثنى عليه، وما زال على حاله من التقوى والعبادة والرضا عن ربه.

٣ ــ فكان في حالتي الرخاء والبلاء مثالاً رائعاً لعباد الله الصالحين، في إرضاء الرحمن وإرغام أنف الشيطان.

٤ ــ قالوا: وكانت له امرأة مؤمنة اسمها (رحمة) من أحفاد يوسف عليه السلام، وقد رافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالين مع زوجها شاكرة فصابرة.

٥ ــ ثم إن الشيطان حاول أن يدخل على أيوب مباشرة في زمن بلائه فلم يؤثّر به؛ ثم حاول أن يدخل إليه عن طريق امرأته، فوسوس لها، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها اليأس والضجر مما أصابه، وأرادت أن تحرك قلبه ببعض ما في نفسها، فغضب أيوب وقال لها: كم

---

(١) أخذاً من تاريخ اليعقوبي.

لبثتُ في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: كم لبثتُ في البلاء؟ قالت: سبع سنين، قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي وما قضيتُ فيه مدة رخائي!!

ثم قال: والله لئن برئت لأضربنك مائة سوط، وحرّم على نفسه أن تخدمه بعد ذلك.

٦ ــ أصبح أيوب بعد ذلك وحيداً يعاني بلاءه ويقاسي شدته صابراً محتسباً، ولما بلغ ذروة الابتلاء: «نادى ربه أني مسني الشيطان بنُصْبٍ وعذاب» (٤١ صٓ/٣٨)، ونادى ربّه: «أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين». (٨٣ الأنبياء/٢١).

فقال الله له: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾. (٤٢ صٓ/٣٨).

اركض برجلك: أي: اضرب الأرض برجلك، وادفع برجلك مكاناً ما في الأرض.

فركض برجله، فلما تفجر له الماء شرب واغتسل، فشفاه الله وعاد أكمل ما كان صحة وقوة.

٧ ــ جاءت إليه امرأته، فشهدت ما منَّ الله به عليه من العافية، ففرحت به وأقبلت عليه، وأراد أيوب أن يبرَّ بيمينه فيها ويضربها مائة سوط، فأوحى الله إليه أن يأخذ ضِغْثاً[1] ويضرب امرأته به، ويكون بذلك قد تحلل من يمينه التي حلفها. وهذه من الحيل الشرعية للبرّ بالأيمان.

٨ ــ ولما اجتاز أيوب بنجاح باهر دور الابتلاء ــ في حالتي الرخاء والبلاء ــ اصطفاه الله واجتباه فجعله رسولاً.

٩ ــ وردَّ الله إليه ما كان فيه من النعمة، ووهب له أهله ومِثلَهم معهم برحمته.

قالوا: وقد ولد له (٢٦) ولداً ذكراً، وكان من أولاده (بِشر) اصطفاه الله وجعله رسولاً، وسماه (ذا الكفل).

١٠ ــ ويغلب على الظن أن مقام أيوب عليه السلام كان بالشام (في دمشق أو حواليها)؛ وأن الله أرسله إلى أمة الروم، ولذلك يذكر بعض المؤرخين أنه من أمة الروم.

١١ ــ قالوا: وقد عاش أيوب (٩٣) سنة.

(ب) وقد عرض القرآن الكريم إلى جوانب يسيرة من حياة أيوب عليه السلام؛
وهي الأمور التالية:

---

(١) الضغث: قبضة من حشيش اختلط فيها الرطب باليابس. والمعنى: نفِّذ يمينك بأن تضربها بحزمة من قضبان خفيفة، كعذق من النخل فيه مائة شمراخ.

١ ـ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى إليه.

٢ ـ إشارة إلى قصة بلائه وما مسَّه من الضر، ثم كشف الضر عنه بمغتسل بارد وشراب، ثم هبة الله له أهله ومثلهم معهم.

٣ ـ إشارة إلى يمينه التي حلفها، والطريقة التي علمه الله أن يبرَّ فيها بيمينه.

قال الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾.

وقال تعالى في سورة (صۤ ٣٨):

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾.

(١٤)

«ذو الكفل عليه السلام»

وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، فقال تعالى في شأنه في سورة (صۤ ٣٨):

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾.

قال أهل التاريخ: وهو ابن أيوب عليه السلام، واسمه في الأصل بشر. وقد بعثه الله بعد أيوب، وسماه ذا الكفل، وكان مقامه في الشام، وأهل دمشق يتناقلون أن له قبراً في جبل قاسيون. والله أعلم.

والقرآن الكريم لم يَزِدْ على ذكر اسمه في عداد الأنبياء، ولم أعثر على ترجمة مبسوطة له[١].

(١) وبعض العلماء لا يثبت نبوته ولا يتعرض إلى أنه ابن أيوب عليه السلام، بل يقول: إنه رجل صالح من بني إسرائيل تكفل لأحد أنبيائهم بطاعات فوفى بها؛ ونرجح نبوته ورسالته. والله أعلم.

(١٥) و (١٦)

«موسى وهارون عليهما السلام»

١ ـ أما موسى: فهو من كبار أولي العزم من الرسل، قال الله تعالى في شأنه في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾.

٢ ـ وأما هارون: فهو شقيق موسى، وقد بعثه الله رسولاً مع موسى ووزيراً له في رسالته ومعيناً له في دعوته، قال تعالى في شأنهما ـ بعد الكلام على مجموعة من الرسل ـ في سورة (يونس ١٠):

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

*** نسبهما:**

هما ابنا عمران (عمرام بالعبري) بن قاهت «قاهات» بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

وأمهما يوكابد بنت لاوي عمة عمران، ولم يكن الزواج بالعمة حينئذ محرماً، ثم نزل تحريم ذلك على موسى.

وهارون أسبق ميلاداً من موسى بثلاث سنين، ولهما شقيقة اسمها مريم كانت فوق سن الإدراك حينما ولد موسى.

*** حياة موسى وهارون عليهما السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياة موسى وهارون ما يلي:

١ ـ ولد موسى بعد (٦٤) سنة من وفاة يوسف، أي: بعد (٤٢٥) سنة من ميلاد إبراهيم وبعد (٢٥٠) سنة من وفاته، وعاش نحو (١٢٠) سنة، والله أعلم.

٢ ـ قبل ميلاد موسى أصاب العبرانيين اضطهاد من فرعون في أرض مصر، وبلغ الاضطهاد ذروته إذ أصدر فرعون أمره بقتل كل مولود ذكر للعبرانيين «بني إسرائيل»؛ وفي هذه

الأثناء ولد موسى، فأوحى الله إلى أمه: «أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني؛ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين». (٧ القصص/٢٨).

٣ ـ فأرضعته أمه ثلاثة أشهر، ثم خافت افتضاح أمرها، وخشيت عليه من جنود فرعون المكلَّفين بالبحث عن أولاد العبرانيين الذكور، فصنعت له صندوقاً يحمله في الماء، وألقته في النيل.

٤ ـ وساق الماء الصندوق حتى دنا من قصر فرعون المشرف على النيل، ومريم أخت موسى تراقبه عن بعد وتتبع أثره، حتى هيأ الله لهذا الصندوق من يلتقطه من نساء القصر الفرعوني.

قالوا: وقد التقطته ابنة فرعون وأحبته، وأدخلته البلاط الفرعوني، وقد علموا أنه عبراني، وأنه محكوم عليه بالقتل بموجب الأمر الفرعوني العام.

ولما رأته امرأة فرعون قذف الله محبته في فؤادها، واسمها (آسية)[1]، ثم كانت امرأة مؤمنة ضرب الله بها المثل في كتابه: «إذ قالت: رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين».

فطلبت آسية من فرعون ـ بما لها من دالَّة ـ أن يبقيه على قيد الحياة ليكون قرة عين لها وله ـ ولعلهم كانوا في شوق لولد ذكر ـ؛ وقالت له: عسى أن ينفعنا إذا كبر عندنا، أو نتخذه ولداً.

وأسموه في القصر (موسى) أي: المنتشل من الماء.

قالوا: وأصل ذلك في اللغة المصرية القديمة: (موريس)، أخذاً من (مو) بمعنى ماء و (أوريس) بمعنى منتشل.

٥ ـ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الهمِّ والقلق على ولدها لما علمت نجاة ولدها، وتبنِّي القصر الملكي له.

٦ ـ بحث نسوة البلاط الفرعوني عن مرضع للطفل، فكانوا كلما جاؤوا بمرضع له رفض ثديها.

---

(١) وفي الحديث عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: (كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام). (متفق عليه).

لقد حرم الله عليه المراضع، وألهمه رفض ثُدِيِّهنّ، وذلك ليعيده إلى أمه ويُقرَّ به عينها، ولما رأت أخته مريم أنهم أحبوه واستحَيوه، وهم يبحثون عن مرضع له ــ ولعلّها كانت معتادة دخول القصر الفرعوني ــ قالت لهم: «هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون»؟ (١٢ القصص/٢٨) فوافقوا، فدعت أمها، فعرضت عليه ثديها فامتصه بنهم وشوق، فاستأجروها لإرضاعه وكفالته.

وبذلك ردّ الله موسى إلى أمه كي تقرّ عينها به، ولا تحزن على فراقه، ولتعلم أن وعد الله حق، فقد رده الله إليها كما أوحى إليها.

٧ ــ تمت مدّة رضاع موسى وكفالته على يدي ظئره في ظن البيت الفرعوني، ويدي أمه في الحقيقة، وأعيد إلى قصر الملك فنشأ وتربى فيه، حتى بلغ أشُدَّه واستوى، وآتاه الله صحة وعقلاً، وقوة وبأساً.

وإذْ أراد الله أن يجعله رسولاً من أولي العزم، ذا شأن في تاريخ الرسالات السماوية، فقد آتاه حكماً وعلماً.

٨ ــ ومما لا شك فيه أنه ظل على صلة بمرضعته ــ أمه في الحقيقة ــ التي عرف منها ومن بقية أسرته قصة ولادته ونشأته في القصر الفرعوني، وأنه إسرائيلي من هذا الشعب المضطهد، المسخَّر في مصر على أيدي فرعون وآله وجنوده.

وبالنظر إلى صلته ومكانته في القصر الفرعوني، فقد جعل يعمل على تخفيف الاضطهاد عن بني إسرائيل، ويدفع عنهم الظلم بقدر استطاعته، فصار الإسرائيليون في مصر يستنصرون به في كل مناسبة.

٩ ــ مرّ موسى ذات يوم في طُرُق المدينة، في وقت خلت فيه الطرقات من الناس ــ ولعل الأمر كان ليلاً[١] ــ فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما إسرائيلي والآخر مصري.

قالوا: وكان السبب أن المصري الفرعوني أراد أن يسخِّر الإسرائيلي في عمل، فأبى عليه الإسرائيلي. ولما رأى الإسرائيلي موسى استغاث به، فجاء موسى ــ وكان قوياً شديد البأس ــ فأخذ بجمع يده فوكز المصري وكزة كانت الضربة القاضية عليه، فلما رآه قتيلاً بين يديه ــ ولم يكن يريد قتله ــ قال: «هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين» (١٥ القصص/٢٨)، ورجع يستغفر الله مما فعل.

---

(١) أخذاً من قوله تعالى في سورة (القصص ٢٨، آية ١٨): ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾.

وأصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب، يمرّ في طرقاتها على حذر، وبينما هو في طريقه إذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه مرة ثانية، فأقبل عليه موسى وقال له: «إنك لَغَويٌّ مبين» (١٨ القصص/٢٨)، أي: صاحب فتن ورجل مخاصمات، ومع ذلك أخذته حماسة الانتصار للإسرائيلي، فأراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما، لكنّ الإسرائيلي ظن أنه يريد أن يبطش به فقال له: «يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين» (١٩ القصص/٢٨).

فالتقط الناس كلمة الإسرائيلي وعرفوا منها أن موسى هو الذي قتل المصري بالأمس؛ وشاع الخبر ووصل إلى القصر الفرعوني، فتذاكر آل فرعون في أمر موسى والقصاص منه، ولم يَعدم موسى رجلاً ناصحاً مخلصاً ممن له صلة بالقصر، فجاءه من أقصى المدينة ــ وربما كان ذلك من القصر نفسه، لأن العادة في القصور الملكية أن تكون في أماكن بعيدة عن المساكن العامة وحركة المدينة ــ وقال له: «يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين». (٢٠ القصص/٢٠).

١٠ ــ قَبل موسى نصيحة الرجل، فخرج من المدينة خائفاً يترقب، وهو يقول: «ربّ نجني من القوم الظالمين». (٢١ القصص/٢٨).

واتجه إلى جهة بلاد الشام تلقاء مدين، وسار بلا ماء ولا زاد، قالوا: وكان يقتات بورق الأشجار، حتى وصل إلى مدين، وفي مدين سلالة من الأسرة الإبراهيمية منحدرة من مدين «مديان» بن إبراهيم ــ أحد أعمام بني إسرائيل ــ ؛ ولعله قصدها عامداً لعلمه بصلة القربى مع أهلها.

١١ ــ وصل موسى بعد رحلة شاقة إلى مدين، فلما ورد ماءها وجد عليه أُمَّة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان أغنامهما عن الماء، منتظرتين حتى يتم الرعاة الأقوياء سقيهم.

أخذت موسى غيرة الانتصار للضعيف فقال لهما: ما خطبكما؟ «قالتا: لا نسقي حتى يُصدِر الرعاء» (٢٣ القصص/٢٨)، واعتذرتا عن عملهما في السقي دون الرجال من أسرتهما فقالتا: «وأبونا شيخ كبير» أي: فهو لا يستطيع القيام بهذه المهمة.

فنهض موسى وسقى لهما، وانصرفتا شاكرتين له، مبكرتين عن عادتهما، وتولّى موسى إلى الظل، وأخذ يناجي الله ويقول: «رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير». (٢٤ القصص/٢٨).

١٢ ــ عجب أبوهما الشيخ الكبير من عودة ابنتيه مبكرتين، فقصتا عليه قصة الرجل الغريب الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تعود إليه، وتبلغه دعوة أبيها ليجزيه على عمله.

فجاءته تمشي على استحياء، قالت: «إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا».

(٢٥ القصص/٢٨).

فلبى موسى الدعوة، وسار مع ابنة الشيخ، قالوا: وقد طلب منها أن تسير خلفه وتدله على الطريق، لئلا يقع بصره على حركات جسمها، وذلك عفة منه.

١٣ ــ دخل موسى على الشيخ الكبير، فرحب به، وقدم له القِرى، وسأله عن خطبه، فقص عليه القصص، ووصف له حاله وحال بني إسرائيل في مصر، قال: «لا تخف نجوت من القوم الظالمين». (٢٥ القصص/٢٨).

ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين أن هذا الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام، واستشكل آخرون ذلك، وعلى كل حال فلا بد أن يكون إما شعيباً أو أحد أقاربه من سلالة مدين، أو أحد المؤمنين الذين نجوا مع شعيب بعد إهلاك أهل مدين، وقد نرجح أن يكون شعيباً لحديث ورد في ذلك عن النبي ﷺ وإن لم يبلغ درجة الصحة.

١٤ ــ قالت إحداهما: «يا أبت استأجره إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين» (٢٦ القصص/٢٨)، فأُعجب الشيخ برأي ابنته، وعرض على موسى الزواج من إحدى ابنتيه اللَّتين سقى لهما موسى.

قال: «إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حِجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين». (٢٧ القصص/٢٨).

وبذلك شرط عليه أن يكون مهر ابنته أن يخدمه ثماني سنين، فإن زادها إلى عشر سنين فهي زيادة غير مفروضة.

فوافق موسى، ونجز العقد مع الشيخ، فقال: «ذلك بيني وبينك أيَّما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل». (٢٨ القصص/٢٨).

وتمت المصاهرة بينهما، قالوا: واسم ابنة الشيخ التي صارت زوجاً لموسى «صفورة».

١٥ ــ لبث موسى عند صهره الشيخ في مدين يخدمه حسب الشرط، وقضى في خدمته أوفى الأجلين وهو عشر سنين.

وقد ولدت له امرأته «صفورة» في مدين ولداً سماه «جرشوم» ومعناه: غريب المولد.

ثم تحـرك قلب موسى أن يعـود بأهله إلى مصر، وعـزم على المسـير واستعد لـه، ولما أراد الفراق أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون ــ يقال: شاة قالب لون، أي: على غير لون أمها ــ.

فعن عقبة بن المنذر فيما رواه البزار، أن رسـول الله ﷺ سُئل أي الأجلين قضى مـوسى؟ قال: «أبرهما وأوفاهما»، ثم قال النبـي ﷺ: «إن موسى عليه السلام لما أراد فـراق شعيب عليه السلام، أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به؛ فأعطاها ما ولدت غنمـه في ذلك العام من قـالب لون. قـال: فما مـرت شـاة إلا ضرب مـوسى جنبها بعصـاه فولـدت قـوالب ألوان كلهـا، وولدت اثنتـين أو ثـلاثـاً كـلُّ شـاة، وليس فيهـا فشـوش، ولا ضبـوب، ولا كميشة تفوت الكف ولا ثغول»[1]. أي: جاءت على غير ألوان أمّهاتها سالمة من العيوب.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية».

١٦ ــ سار موسى بأهله من أرض مدين في فصل الشتـاء، واستاق الغنم، ولـما بلـغ إلى قرب الطور ضلَّ الطريق في ليلة باردة. قالوا: وكانت امرأته حاملاً، وأراد موسى أن يوري ناراً فصلد زنده فلم يقدح له، وبينما هو كذلك إذ رأى جانب الطور ناراً، «فقال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس، أو أجد عـلى النار هـدى» (١٠ طـه/ ٢٠)، أي: من يدلـه على الطريق إلى مصر.

فلما أتى موسى النار، سمع نداء من النار من داخل الشجرة المباركة: «يا موسى. إني أنـا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى». (من ١١ ــ ١٣ طه/ ٢٠)

١٧ ــ فأوحى الله له ما أوحى، وكلّفه أن يحمل الرسـالة إلى الـطاغي فرعـون، وأعطاه الله الآيات، وطلب موسى من ربه أن يرسل معه أخـاه هارون، ليكـون له ردءاً، وأثنى مـوسى على أخيه بين يدي ربه بأنه أفصـح منه لساناً، وقال موسى: «رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون. وأخي هـارون هـو أفصـح مني لسـانـاً فـأرسلْه معي رِدْءاً يصـدّقني إني أخـاف أن يكذّبون. (٣٣ ــ ٣٤ القصص/ ٢٨).

قال الله له: «سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانـاً فلا يصلون إليكـما بآيـاتنا أنتـما ومن اتّبعكما الغالبون». (٣٥ القصص/٢٨).

---

(١) وهذه أصناف من الغنم معيبة.

١٨ ــ وحمل موسى الرسالة، ومعه المعجزات، ودخل مصر وقابل فرعون مع أخيه هارون، وكان من أمرهما ما سبق أن شرحناه في معجزات موسى عليه السلام.

١٩ ــ وخرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وأنجاه الله من فرعون وقومه.

ثم ذهب لمناجاة ربه وتلقى من ربه الألواح وفيها الوصايا الإلهية، وعاد إلى قومه فوجدهم قد عبدوا العجل الذي اتخذه لهم السامريّ، وكان من شأنه معهم ما سبق بيانه عند الكلام على معجزاته عليه السلام.

٢٠ ــ ثم طلب من بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة ــ وهي أريحا ــ مجاهدين في سبيل الله بعدما أراهم المعجزات الباهرات؛ فقالوا له: «إن فيها قوماً جبارين».. و «إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها»، وقالوا له أيضاً: «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»!! (٢٢ ــ ٢٤ المائدة/٥).

فغضب موسى ودعا عليهم فقال: «ربِّ إني لا أملك إلاَّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين». (٢٥ المائدة/٥).

فقال تعالى: ﴿فإنّها مُحَرَّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾. (٢٦ المائدة/٥).

وهكذا لبثوا في التيه أربعين سنة، يتردَّدُون في برية سيناء وبرية فاران «صحراء الحجاز»؛ ويترددون أيضاً حوالي جبال السَّرَاة وأرض ساعير وبلاد الكرك والشوبك. والله أعلم.

٢١ ــ من الأحداث التي جرت لموسى عليه السلام لقاؤه بالعبد الصالح ــ الذي ورد أنه الخضر ــ؛ وقصة لقائه به مبسوطةٌ في القرآن الكريم في سورة (الكهف ١٨)

٢٢ ــ ومن الأحداث التي جرت له إيذاء قارون له في شرفه، فدعا موسى عليه فخسف الله به وبداره الأرض، وكان قارون رجلاً غنياً، قد بلغ من غناه أنه كان عنده من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة؛ فلم تغنِ عنه من الله شيئاً.

اقرأ الآيات من سورة (القصص) من ٧٦ ــ ٨٣: «إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم» إلى آخر الآيات.

٢٣ ــ ثم أوحى الله إلى موسى أني متوفٍ هارون، فأتِ به إلى جبل كذا وكذا فانطلقا نحوه، فإذا هما بسريرٍ فناما عليه، وأخذ هارونَ الموتُ ورُفع إلى السماء. ورجع موسى إلى بني إسرائيل، فقالوا له: أنت قتلت هارون لحبِّنا إياه، قال موسى: ويحكم أفترونني أقتل أخي؟! فلما أكثروا عليه سأل الله، فأنزل السرير وعليه هارون، وقال لهم: إني مت ولم يقتلني موسى، وكان ذلك في التيه، وكان عمر هارون حين توفي (١٢٢) سنة.

٢٤ ــ ثم توفي موسى عليه السلام بعد أخيه هارون بأحد عشر شهراً في التيه. قالوا: وقد بلغ عمره (١٢٠) سنة، ولما جاءه ملك الموت وعلم أن الموت لا بد منه قال: (ربِّ أدنني من الأرض المقدسة رميةً بحجر)، فأُدني من الأرض المقدسة ودفن هنالك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله فقال: إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عيني، قال: فردّ إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متنِ ثورٍ فما ورات يدُك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال رسول الله ﷺ «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

(رواه البخاري ومسلم)[1]

(ب) وقد بسط القرآن الكريم في نَيِّفٍ وثلاثين سورة حياة موسى في ولادته ونشأته، وفراره من مصر، ودخوله أرض مدين، وزواجه ابنة شيخ مدين، وعودته إلى مصر، وتكليم الله له في جانب الطور، وتحميله الرسالة، ودعوته إلى فرعون وملئه، والمعجزات التي جرت في حياته، وخروجه من مصر ببني إسرائيل، ونجاتهم بالمعجزة، وغرق فرعون وجنوده في البحر، ونزول التوراة عليه والصحف، وعبادة قومه العجل، وسائر الأحداث الهامة التي جرت في حياته، مما أوجزناه هنا وفي الكلام عن المعجزات. وما بسطه القرآن الكريم من ذلك في غاية الروعة والإعجاز، ويحمل من العبر والأخبار ما يدلنا على مدى أهمية رسالته عليه السلام.

(١٧)

«داود عليه السلام»

هو من الرسل الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل، وقد آتاه الله الملك والنبوة، وهو من سِبط يهوذا بن يعقوب، وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، وقال في شأنه في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

(١) أخذاً من مشكاة المصابيح: الحديث (٥٧١٣). والبخاري في الفتح الحديث رقم (١٣٣٩) ورقم (٣٤٠٧)، ومسلم في كتاب الفضائل «باب فضل موسى عليه السلام».

* **نسب داود عليه السلام:**

أثبت أهل التوراة وأهل الإنجيل نسبه على الوجه التالي:

هو داود بن يسى «إيشا» بن عَوْبيد بن بوعز «أفصان» بن سلمون بن نحشون[1] بن عمِّيناداب بن إرَام، بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب «إسرائيل» عليه السلام.

* **حياة داود عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياة داود عليه السلام ما يلي:

أولاً ــ مقدمة عن حال بني إسرائيل منذ وفاة موسى عليه السلام حتى قيام ملك داود عليه السلام:

١ ــ بعد انقضاء المدّة التي أقامها بنو إسرائيل في التيه ــ وهي (٤٠) سنة ــ وبعد وفاة هارون وموسى، تولى أمر بني إسرائيل نبي من أنبيائهم اسمه (يوشع بن نون عليه السلام)؛ فدخل بهم بلاد فلسطين، وقسم لهم الأرضين. وكان لهم تابوت «صندوق» يسمونه تابوت الميثاق أو «تابوت العهد»؛ فيه ألواح موسى وعصاه ونحو ذلك، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

٢ ــ لما توفي يوشع بن نون، تولى أمر بني إسرائيل قضاة منهم، ولذلك سمي الحكم في هذه المدّة: حكم القضاة.

وفي هذه المدة دبّ إلى بني إسرائيل التهاون الديني، فكثرت فيهم المعاصي، وفشا فيهم الفسق، إلى أن ضيعوا الشريعة، ودخلت في صفوفهم الوثنية، فسلّط الله عليهم الأمم، فكانت قبائلهم عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم، وكانوا إلى الخذلان أقرب منهم إلى النصر في كثير من مواقعهم مع عدوهم، وكثيراً ما كان خصومهم يخرجونهم من ديارهم وأموالهم وأبنائهم.

٣ ــ وقُبيل أواخر هذه المدّة سَلب الفلسطينيون منهم «تابوت العهد»، في حربٍ دارت بين الطرفين، وكان ممّن يدبر أمرهم في أواخر مدّة حكم القضاة نبي من أنبياء بني إسرائيل من سِبط لاوي اسمه: (صمويل = شَمْويل)؛ يتصل نسبه بهارون عليه السلام.

(١) هو سيد بني يهوذا عند خروج بني إسرائيل من مصر.

فطلب بنو إسرائيل من (صمويل) أن يجعل عليهم ملكاً يجتمعون عليه، ويقاتلون في سبيل الله بقيادته، فقال لهم: كما في سورة (البقرة ٢):

﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴿٢٤٦﴾﴾.

فسأل شمويل ربه في ذلك، فأوحى الله إليه أن الله قد جعل عليهم ملكاً منهم اسمه (طالوت = شاؤول) من سبط بَنْيامين؛ وكانت قبيلة بنيامين في ذلك العهد قد أوشكت على الفناء في حرب أهلية وفتن داخلية قامت بين بني إسرائيل؛ فاستنكروا أن يكون طالوت ملكاً عليهم.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

فسألوا عن دليل رباني يدلهم على أن الله ملّكه عليهم، فقال لهم صمويل:

﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

وأعطاهم صمويل موعداً لمجيء التابوت تحمله الملائكة، فخرجوا لاستقباله فلما وجدوا التابوت قد جيء به حسب الموعد أذعنوا لملك طالوت، فكان أول ملك من ملوك بني إسرائيل.

٤ ــ جمع طالوت صفوف بني إسرائيل، وهيأهم لمحاربة عدوهم، وخرج بهم، ثم اصطفى منهم خلاصة للقتال، يقارب عددها عدد المسلمين في غزوة بدر. قالوا: وكان عددهم نحواً من (٣١٩) مقاتل، وذلك بطريقة قصها القرآن علينا في قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ ﴿٢٤٩﴾﴾.

وهؤلاء القلة هم الذين اصطفاهم طالوت للقتال بعد رحلة برية شاقة سار بهم فيها؛ وقد اشتد فيها ظمأ القوم، وبهذه القلة جاوز طالوت النهر.

٥ ــ لقي طالوت خصومه الوثنيين الفلسطينيين، وكان رئيسهم القوي الشجاع اسمه (جالوت = جليات عند العبرانيين) فرهبه بنو إسرائيل.

وهنا دخل في صفوف بني إسرائيل المقاتلين فتى صغير من سِبط يهوذا كان يرعى الغنم لأبيه «اسمه داود»، ولم يكن في الحسبان أن يدخل مثله في المقاتلين، ولكن أباه أرسله إلى إخوته الثلاثة الذين هم مع جيش طالوت ليأتيه بأخبارهم.

قالوا: فرأى داود جالوت وهو يطلب المبارزة معتداً بقوته وبأسه، والمقاتلون من بني إسرائيل قد رهبوه وخافوا من لقائه.

فسأل داود ــ وهو الفتى الصغير ــ عما يصير لقاتل هذا الرجل الجبار شديد البأس؛ فأُجيب بأن الملك «طالوت» يغنيه ويزوِّجه ابنته، ويجعل بيت أبيه حراً في إسرائيل.

فذهب داود إلى الملك طالوت وطلب منه الإذن بمبارزة جالوت، فضنَّ به طالوت وحذره.

فقال له داود: إني قتلت أسداً أخذ شاة من غنم أبي، وكان معه دبّ فقتلته أيضاً، فألبسه طالوت لأْمَة الحرب وعدة القتال، فلم يستطع داود أن يسير بها لعدم خبرته السابقة بذلك، فخلعها وتقدم بعصاه ومقلاعه وخمسة أحجار صلبة انتخبها من الوادي.

وأقبل داود على جالوت وجرت بينهما مكالمةٌ عن بعد، وأظهر جالوت احتقار الفتى وازدراءه، والعفة عن مبارزته لصغر سنِّه، لكن داود أخذ مقلاعه ــ وكان ماهراً به ــ وزوَّده بحجرٍ من أحجاره، ورمى به فثبت الحجر في جبهة جالوت الجبار فطرحه أرضاً، ثم أقبل إليه وأخذ سيفه وفصل به رأسه، وتمت الهزيمة لجنود جالوت بإذن الله!

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ ﴿٢٥١﴾﴾.

ووفَّى طالوت لداود بالوعد، فزوجه ابنته (ميكال) وأغناه.

٦ ــ ومنذ ذلك التاريخ لمع اسم (داود) في جماهير بني إسرائيل، ثم توالت الانتصارات لبني إسرائيل على يد داود، وخاف طالوت على ملكه منه فلاحقه ولاحق أنصاره وعَزَمَ على التخلص منه بالقتل، إلاَّ أن الله سلَّم داود منه، ولم يكن من داود لطالوت إلاَّ الوفاء والطاعة وحسن العهد، وقد تهيأت له الفرصة عدة مرات أن يقتله فلم يفعل ولو شاء لانتزع منه الملك.

٧ ــ ولما لم يجد داود سبيلاً لإصلاح نفس طالوت عليه، اعتزل عنه بعد عدة محاولات وفاء قام بها نحوه، فلم يخفف ذلك من حسده وقلقه وآلامه.

ومن ثَمّ بدأت الهزائم تلاحق طالوت في حروبه مع أعداء بني إسرائيل، حتى قُتل هو وثلاثة من بنيه، وهُزم رجاله. قالوا: وقد ندم طالوت على ما كان منه وتاب.

وكان نبيهم صمويل قد تغير على طالوت وهجره لما بدر منه نحو داود، وقد أُخبر داود أن المُلكَ صائر إليه بعد موت طالوت.

ثانياً ــ داود في الملك:

٨ ــ علم داود بمقتل طالوت، فصعد إلى «حبرون = مدينة الخليل»، فجاء رؤساء سبط يهوذا وبايعوه بالملك.

أما بقية أسباط بني إسرائيل فقد دانوا بالطاعة لولد من أولاد طالوت اسمه: (إيشبوشت).

ثم قامت حروب بين جنود داود وجنود إيشبوشت، انتهت بمقتل ابن طالوت بعد سنتين أو ثلاث، واستتب لداود الملك العام على بني إسرائيل، وكان عمره (٣٠) سنة.

٩ ــ اتسعت مملكة بني إسرائيل على يد داود عليه السلام، وآتاه الله مع الملك النبوة، وجعله رسولاً إلى بني إسرائيل يحكم بالتوراة، كما أنزل عليه (الزبور) ــ أحد الكتب السماوية الأربعة الكبار ــ وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

١٠ ــ قالوا: وقد دام ملكه (٤٠) سنة ثم توفي عليه السلام، ودفن في «بيت لحم» بعد أن أوصى بالملك لابنه سليمان، فيكون عمره على هذا حين قبض عليه السلام (٧٠) سنة. والله أعلم.

(ب) وقد تعرض القرآن الكريم في عدة سور لحياة داود عليه السلام، بشكل تناول أهم النقاط البارزة في حياته، مما يتصل ببدء ظهور اسمه في بني إسرائيل، وملكه ونبوته،

وبعض صفاته ونعم الله عليه، وأبرز ما جاء فيه النقاط التالية:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى إليه وأنزل عليه الزبور، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وعلمه مما يشاء، وأمره أن يحكم بين الناس بالحق.

٢ ــ إثبات أنه قتل (جالوت) في المعركة التي قامت بين بني إسرائيل وعدوهم بقيادة طالوت.

٣ ــ إثبات أن الله أنعم عليه بنعم كثيرة منها:

(أ) أن الله آتاه الملك وشدّه له، وجعله خليفة في الأرض، وأعطاه أيْداً وقوةً في حكمه.

(ب) أن الله سخر الجبال والطير يسبحن معه في العشي والإبكار.

«فقد آتاه الله صوتاً حسناً، وقدرة على الإنشاد البديع، فهو يصدح بصوته بتسبيح الله وتحميده، ويتغنى فيه بكلام الله في الزبور في العشي والإبكار، فترجّع الجبال معه التسبيح والتحميد، وتجتمع عليه الطير فترجع معه تسبيحاً وترنماً وغناءً».

(جـ) أن الله آتاه علم منطق الطير، كما آتى ولده سليمان من بعده مثل ذلك[1].

(د) أن الله ألان له الحديد، «فهو يتصرف بطَيّه وتقطيعه ونسجه، كما يتصرف أحدنا بالأشياء اللينة بطبعها».

(هـ) أن الله علّمه صناعة دروع الحرب المنسوجة من زرد الحديد.

قالوا: وكانت هذه الصناعة غير معروفة قبل داود عليه السلام.

٤ ــ عرض قصة استفتاء فقهي وُجِّه إليه، فأفتى فيه بوجه، وكان ابنه سليمان فتىً

(١) ويمكن أن نقول: إن الله قد وهب كلاً من داود وسليمان سمعاً مرهفاً يستطيع أن يميز به بين الأصوات والأنغام، بحيث يدرك من كل صوتٍ من أصوات الطيور حالات النفس وانفعالاتها ومطالبها التي يصدر ذلك الصوت تعبيراً عنها؛ وتلك هبة اختص الله بها داود وسليمان من دون سائر البشر. والله أعلم.
والذي ينبهنا على هذا الاحتمال: أننا نجد عند المختصين في الموسيقى والنغم تفاوتاً كبيراً في قدرة السمع على التمييز بين اختلاف الأصوات والأنغام؛ وتحديد الفروق بينها، والتمكن من ضبط مراتب الأصوات ودرجاتها في سلم موسيقي دقيق، الأمر الذي يدلنا على أن علم الصوت أوسع مما وصل إليه العلم الإنساني بكثير، وغاية ما وصل إليه العلماء من ذلك هو في حدود ما يتناسب مع مستوى السمع الإنساني العام.
وبذلك يكون لكل صنف من أصناف الطيور منطق خاص به، وقد وهب الله سليمان وداود علم ذلك المنطق.

صغيراً حاضراً مجلس الاستفتاء فأفتى بوجه آخر، وكان ما أفتى به سليمان أضمن للحق وأقرب للصواب.

وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾﴾.

نفشت: أي رعت ليلاً بلا راعٍ.

قال المفسرون: إن زرعاً دخلت فيه ليلاً غنم لغير أهله، فأكلته وأفسدته، فجاء المتحاكمون إلى داود ـ وعنده سليمان ـ، فحكم داود بالغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغَنم ليلاً. فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ: غير هذا أرفق، فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث لينتفعوا بألبانها وأولادها وأشعارها، وبدفع الحرث إلى أهل الغنم ليقوموا بإصلاحه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادّان.

٥ ـ عرض قصة الخصمين اللذين تسوّرا السور على داود، ودخلا عليه المحراب في وقت عبادته الخاصة التي يخلو بها ولا يسمح لأحد أن يدخل عليه فيها؛ ففزع داود منهما، لأنهما لم يستأذنا بالدخول عليه، ولم يدخلا محرابه من بابه، فقالا له:

«لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطِط ـ أي: لا تَجُرْ في الحكم ـ **واهدنا إلى سواء الصراط»**. (٢٢ صٓ/٣٨).

فأصغى لهما داود، فقال أحد الخصمين:

«إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها ـ أي: ملكنيها ـ **وعزَّني في الخطاب»** أي: غلبني في المخاصمة بنفوذٍ أو بقوة. (٢٣ صٓ/٣٨).

وسكت الآخر سكوت إقرار.

فقال داود: **«لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»**. (٢٤ صٓ/٣٨).

وانصرف المتسوران دون أن يعلّقا بشيء على ما أفتى به داود.

فرجع داود إلى نفسه، فعرف أن الله أرسل إليه هؤلاء القوم بهذا الاستفتاء ابتلاء، وذلك لينبهه على أمر ما كان يليق به أن يصدر منه بحسب مقامه، فوبخ نفسه: **«فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب»**، تائباً من ذنبه، خائفاً من ربه. (٢٤ صٓ/٣٨).

وتطبيقاً لمبدأ عصمة الرسل عليهم السلام، فإن ما فُتِنَ به داود ونُبِّه عليه عن طريق الخصمين المستفتيين ينبغي أن لا يكون معصية ثابتة، وإنما هو من المباحات العامة التي لا تليق بمقام الرسل المصطفين عليهم السلام.

هذا إذا كانت الحادثة بعد النبوة، أما إذا كانت قبل النبوة فينبغي أن لا تكون من الكبائر، إذ الكبائر لا تليق بآحاد المؤمنين، فضلاً عن الذين يهيؤون للرسالة[1]. والله أعلم.

وذكر فريق من المفسرين أنّ فتنة داود عليه السلام كانت لأنه حكم بمجرّد سماع الدعوى، دون أن يسأل البيِّنة، أو يسمع كلام المدَّعى عليه، ولذلك قال الله له بعد ذلك كما جاء في سورة (صٓ ٣٨):

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٢٦﴾﴾.

(١٨)

«سليمان بن داود عليهما السلام»

هو من الرسل الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل بعد أبيه داود عليهما السلام، وقد انفردا من بين الرسل بأن الله آتاهما الملك والنبوة. وقد ذكر الله سليمان في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

---

(١) ومؤرخو أهل الكتاب يفترون على داود عليه السلام قصة ملفّقة: ينسبون إليه فيها الزنى بامرأة جميلة وقع بصره عليها وهي تستحم، ويقولون: إنها زوجة «أوريا الحثي» ــ أحد الجنود المقاتلين المخلصين في جيشه ــ، وأنه لما خاف افتضاح أمره، دبَّر له مع قائد الجيش طريقة قتل بيد العدو، وذلك أن القائد حمّله الراية وأمره بالتقدم نحو العدو، ثم أمر من معه من الجنود بالتخلي عنه، فتمكن جنود العدو منه فقتلوه، فلما مات «أوريا» تزوج داود بزوجته التي وقع بها. قالوا: ومن هذه المرأة جاء ابنه سليمان، بعد أن مات الولد الذي علقت به من الزنى.

وهذه قصة مفتراة على داود، ومن يقرأ في كتب أهل الكتاب يجد فيها الكثير من نسبة الكبائر إلى أنبيائهم وقِدِّيسيهم، يلفقونها ليبرروا لأنفسهم ارتكاب الآثام، والوقوع في الكبائر!!

* **حياة سليمان عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياة سليمان عليه السلام ما يلي:

١ ــ أوصى داود عليه السلام بالملك لولده سليمان، ولما مات داود ورثه سليمان في الملك، وكان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة[١]، وكان سليمان ــ على حداثة سنِّه ــ ممن آتاهم الله الحكمة والفطانة وحسن السياسة.

٢ ــ اتسع ملك سليمان، وغالَبَ الأمم من حوله، حتى ضرب الجزية على جميع ملوك الشام، ثم امتد ملكه حتى كان له نفوذ على ملوك اليمن، وخضعت له ملكة سبأ، فآمنت به ودخلت في دينه وطاعته.

٣ ــ قام بعمارة بيت المقدس ــ تنفيذاً لوصية أبيه داود عليه السلام ــ بعد أربع سنين من توليه الملك؛ وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وانتهى من عمرانه بعد سبع سنين، وأقام السور حول (أورشليم = مدينة القدس).

ثم بنى (الهيكل= القصر الملكي)، قالوا: وقد أتم بناءه في مدة ثلاث عشرة سنة، وأنشأ مذبح القربان، وكان له اهتمام عظيم بالإصلاح والعمران، وكان له أسطول بحري[٢]، قالوا: وكانت السفن تجلب له من الهند الذهب والفضة والبضائع، والفيلة والقرود والطواويس، وكان له عناية فائقة بالخيل، يروضها ويعدها للحرب، وكانت له مجموعة كبيرة من النساء الحرائر والسراري.

قالوا: وقد قام بأعمال تجارية واسعة في البر والبحر، وأدخل نظام الضرائب والسُّخرة، حتى أصبحت عظمة حكمه مضرب الأمثال.

٤ ــ وأورد المؤرخون أن سليمان عليه السلام حجَّ إلى بيت الله الحرام بمكة، في ركبٍ مَلَكيٍ كبيرٍ وفّى فيه نذره، وقدم في حجته ذبائح وقرابين كثيرةً، وأنه بعد حجه عليه السلام سافر بركبه إلى اليمن، ودخل أرض صنعاء. والله أعلم.

---

(١) في تاريخ ابن خلدون أن عمره كان اثنتين وعشرين سنةً، وفي الكامل لابن الأثير أن عمره كان ثلاث عشرة سنة. والله أعلم.

(٢) وقد اتخذ ميناءه في عصيون جابر «ومعناه بالعبرية: العمود الفقري للجبار»؛ وهو يقع في خليج العقبة من قرب نهايته.

٥ ــ ولبث في الملك (٤٠) سنة ثم توفي عليه السلام، وقد بلـغ عمره (٥٢) سنة[1].

(ب) **وقـد تعرض القـرآن الكـريم في عـدة سـور لحيـاة سليـمان عليـه السـلام،** بشكـل تناول أهم النقاط البارزة في حياته، مما يتصـل بنبوتـه وملكه، وبعض صفـاته ونعم الله عليـه، وذكر منها ما لم يتعرض لـه أهل التاريـخ، وأبرز ما جاء في الكتـاب العزيـز مما يتصـل به عليـه السلام النقاط التالية:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى إليه كما أوحى إلى سائر الرسـل، وأن الله آتاه علماً، وأنه، كما قال أبوه داود من قبل:

﴿الحمد الله الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين﴾. (١٥ النمل/٢٧).

٢ ــ إثبات أنه أوَّاب، ولذلك أثنى الله عليه بقوله في سورة (صٓ ٣٨):

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

٣ ــ إثبات أن الله أنعم عليه بنعم كثيرة منها ما يلي:

(أ) أن الله آتـاه الملك ميراثـاً من أبيـه داود عليـــه السـلام، قـــال تعـالى في ســـورة (النمل ٢٧):

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴿١٦﴾﴾.

(ب) أن الله آتاه علم منطق الطير، كما آتى أباه داود مثل ذلك من قبله.

(جـ) أن الله آتاه الحكمة على حداثة سنه، ويشهد لذلك قصة الاستفتـاء الفقهي الذي وُجِّه إلى أبيه داود، فـأفتى فيه بـوجه، فـاستدرك سليمـان فأفتى بـوجه آخـر، وكان مـا أفتى به سليمان أضمن للحق وأقرب للصواب، وقد أوردنا هذه القصة فيما سبق عند الكلام على حياة داود عليه السلام.

(د) أن الله سخَّر لسليمان الريـح تجري بأمره حيث أراد، غُدُوُّها شهر ورواحها شهـر، فإذا أرادها رخاء جرت بأمره رخاء حيث أصاب، وإذا أرادها عاصفةً جرت بـأمره عـاصفة إلى الأرض التي بارك الله فيها.

فتسـوق له السفن حسب إرادتـه، وتتجه بـأمـره إلى الأرض التي يـوجههـا إليهـا حسب المصالح التي يقدرها.

---

(١) وقيـل: «٥٣» سنـة، وقيــل: «٦٣» سنـة، عــلى الخـلاف في عمــره يـوم تــولى الملك «١٢» أو «١٣» أو «٢٢» سنة. والله أعلم.

وهذا التسخير من المعجزات التي اختص الله بها سليمان عليه السلام.

(هـ) أن الله سخر له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمر الله يذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب[1]، وتماثيل[2]، وجفان كالجواب[3]، وقدور راسيات[4]. كما سخر له من الشياطين ـ وهم مَرَدَة الجن ـ من يغوصون له في البحار، لاستخراج ما يريد منها، ومن يبنون له المباني الضخمة، كما سلطه الله على آخرين من الشياطين إذ يكف شرهم عن الناس، وذلك بتقييدهم بالأغلال. قال الله تعالى في سورة (صۤ ٣٨):

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

مقرّنين في الأصفاد: مقيدين في الأغلال.

(و) أن الله سخر له الجنود من الجن والإنس والطير، يجتمعون بأمره ويطيعونه. قال تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يوزعون: يؤمرون فيطيعون، ويمنعون فيمتنعون.

(ز) أن الله أسال له عين القِطر ـ وهو النحاس ـ فكان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصةٍ كتدفق الماء، ولعل ذلك كان في أرض بركانية.

٤ ـ ومن الأحداث التي جرت لسليمان عليه السلام، قصته مع ملكة سبأ، قالوا: واسمها بلقيس. والله أعلم.

وخلاصة هذه القصة ـ مقتبسة مما جاء في الكتاب المجيد في سورة (النمل) ـ كما يلي:
عرفنا أن الله سخَّر لسليمان الطير يستخدم كلاًّ منها في مهماته، ضمن حدود القدرات

---

(١) المحاريب: المعابد، المساجد، القصور.

(٢) التماثيل: وهي صور للملائكة أو الصالحين من زجاج أو نحاس أو رخام. وكان اتخاذها في شريعتهم جائزاً، أما في الشريعة الإسلامية فهو محرَّم سداً لذريعة التشبه بعابدي الأصنام.

(٣) جفان كالجواب: أي قصاع كبيرة تشبه حياض الماء.

(٤) القدور الراسيات: القدور: الآنية التي يطبخ فيها الطعام، الراسيات: أي الثابتات يصعب تحريكها وحملها لضخامتها.

التي وهبها الله ذلك الصنف من الطير، وكان قد اختصه الله بفهم منطقها، وكيفية خطابها وإفهامها أوامره ونواهيه، وتلك معجزة خاصة من الله لسليمان.

وكان من الطير المسخرة له (الهدهد)، إلاَّ أن هذا الهدهد قد وهبه الله امتيازاً إدراكياً خاصاً، يستطيع أن يدرك به بعض ما يدركه الناس.

وذات مرة تفقّد سليمان جنوده من الطير، فلم يجد بينها طائر الهدهد.

قال سليمان: «مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو لَيَأْتِيَنِّي بسلطانٍ مبينٍ»[1]. (٢١ النمل/٢٧).

ثم أقبل الهدهد، وحضر بين يدي سليمان عليه السلام، وسمع تأنيبه على غيابه، وتوعُّدَه له إلاَّ أن يأتي بسلطانٍ مبينٍ يبرر غيابه.

فقال الهدهد لسليمان: «أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتك من سبأ بنبأ يقين». (٢٢ النمل/٢٧).

سليمان: ما هو هذا النبأ اليقين يا هدهد؟

الهدهد: «إني وجدت امرأةً تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألاّ يسجدوا للّه الذي يخرج الخَبْء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لاإلَـه إلاَّ هو رب العرش العظيم»[2]. (٢٣ ـ ٢٦ النمل/٢٧).

قال سليمان: «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون». (٢٧ ـ ٢٨ النمل/٢٧).

حمل الهدهد كتاب سليمان، وطار به حتى وصل إلى ملكة سبأ، فألقاه إليها، ففضته وقرأته.

ثم قالت لوزرائها ومستشاريها: «يا أيها الملأ إني ألقي إليَّ كتاب كريم» (٢٩ النمل/٢٧)، فاسمعوا محتواه: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألاّ تعلوا علي وأتوني مسلمين». (٣٠ ـ ٣١ النمل/٢٧).

---

(١) أي: بحجة تبرر غيابه.

(٢) وبهذه العبارات التي أفصح بها الهدهد ـ بحسب منطقه ـ نجد إدراكاً عالياً قد ألهمه الله إياه، ومعرفة لما عليه القوم، وإعلاناً عن أصول الإيمان ودلائله. والله قادر على كل شيء، فيهب مثل هذه المعارف لما يشاء من خلقه، سواءً كان من غريزتهم القدرة على العلم بها، أو لم يكن من غريزتهم ذلك، فباب المعجزات الممكنات العقلية يتسع لمثل ذلك وأكثر، إنه يتسع لنطق الجماد فضلاً عن نطق الطير!!

ولما قرأت عليهم الكتاب قالت لهم: «يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تَشْهَدون»[1]. (٣٢ النمل/٢٧).

قال ملَؤها ومستشاروها: «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد»، فإن كنت تريدين الحرب فنحن أهل لها، وقد ذكروا ذلك ليشدوا من قوى مليكتهم، ويشيروا عليها بعدم الاستسلام، ثم قالوا لها: «والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين» (٣٣ النمل/٢٧). معلنين بذلك كمال الطاعة لما تأمر به.

قالت الملكة: «إن الملوك إذا دخلوا قرية ـ أي: عنوة وعن طريق القتال ـ أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون»؟! (٣٤ ـ ٣٥ النمل/٢٧).

فالرأي أن نصانعه أولاً بالهدايا، ونحمِّلها لرجال دهاة منا، ينظرون مدى قوة سليمان، ثم بعد ذلك نقرر ما يجب أن نفعله في ضوء ما يأتينا من معلومات عنه.

حمل رسل ملكة سبأ هداياهم إلى سليمان، فلما وصلوا إليه ووضعوها بين يديه، قال سليمان: «أتمدونن بمال فما آتانيَ الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون»!! (٣٦ النمل/٢٧).

وبذلك أعلن لهم أنه ليس بحاجة إلى مال، وإنما هو رسول صاحب دعوة ربانية. ثم قال لرئيس رسل ملكة سبأ:

«ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنَّهم منها أذلة وهم صاغرون».
(٣٧ النمل/٢٧).

فرجع الرسل، ووصفوا لمليكتهم ما شهدوه عن عظمة ملك سليمان، وقوة بأسه، وأنه لم يقبل هداياها، ولم يرضَ المصانعة، وأنه عازمٌ على ما ذكر في كتابه لها.

فعزمت الملكة على الاستسلام والانقياد، وشدّت رحالها وأحمالها، وسارت بركابها إلى سليمان.

علم سليمان عليه السلام بأن القوم وافدون إليه طائعين منقادين، فقال لوزرائه ومستشاريه، وسائر حاشيته من الإنس والجن:

«يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين»؟! (٣٨ النمل/٢٧).

فتسارع جنود سليمان وأنصاره لتلبية الطلب.

قال عفريت[2] من الجن: «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين».
(٣٩ النمل/٢٧).

---

(١) حتى تشهدون: أي حتى تكونوا حاضرين عندي، وتشيروا علي. (٢) العفريت: القوي الماكر.

وكان لسليمان مجلس ملكي يجلس فيه للاستشارة والقضاء، وتصريف مهام الملك.

قال الذي عنده علم من الكتاب[1]: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك». (٤٠ النمل/٢٧).

وإذا بعرش ملكة سبأ حاضر بين يدي سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه.

«فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم». (٤٠ النمل/٢٧).

وأعدّ سليمان لها صرحاً خاصاً قبل أن تصل إليه، وجعل أرضه ممردة[2] من زجاج متلامع، مهيأ بشكل يخاله الناظر لُجّةً.

وأراد عليه السلام أن يغير بعض معالم عرش ملكة سبأ، وينكِّره لها، ليَمتحن قوة ملاحظتها وانتباهها إذا جاءت وشهدت مظاهر عظمة هذا الملك المؤيد بالخوارق والعجائب؛ ودهشت بها، ولذلك: «قال: نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون». (٤١ النمل/٢٧).

«فلما جاءت» فوجئت بأول امتحان، فعرض عليها عرشها و«قيل: أهكذا عرشك»؟! فنظرت إليه ــ وكانت صاحبة فطنة وذكاء ــ وتأملته ثم «قالت: كأنه هو» وهي قولة فَطِنٍ حَذِر.

وكأنها أدركت السرَّ، وأنه عرشها حقاً نقل من اليمن إلى مركز ملك سليمان، ونُكِّر لها لامتحانها واختبار قوة ملاحظتها، فقالت: «وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين». (٤٢ النمل/٢٧).

وأعلنت بذلك أن الذي جاء بها إلى سليمان ــ من بلادها ــ مسلمة طائعة؛ ما كان قد حصل لديها من العلم بما عند سليمان من قوى خارقة وملك عظيم؛ وأنه مؤيد بما لم يؤيَّد به ملك آخر.

إنها امرأة ذات عقل راجح، وفطنة عالية، ولديها استعداد سريع لإدراك الحقيقة والإيمان بالله العلي القدير، إلا أن وجودها في بيئة كافرة ــ اعتادت أن تعبد من دون الله ــ هو الذي كان قد صدّها عن إدراك الحقيقة والإيمان بها: «وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين». (٤٣ النمل/٢٧).

---

(١) قالوا: واسمه آصف، وكان من المقربين لسليمان، ومن أهل العلم بالكتاب، ومن الذين آتاهم الله منزلة ذات شأن من منازل الولاية، ومن أهل الكرامات الربانية. وقيل: شخص آخر غير آصف. ومهما يكن من أمر فإنه لا شك ــ إنسي أو جني ــ عنده علم خاص من الكتاب، وله منزلة من منازل الولاية عند الله.

(٢) الممرد: المملَّس المسوَّى.

ثم دُعيت إلى دخول الصرح الذي أعدَّ لها:

«قيل لها: ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها». (٤٤ النمل/٢٧).

قال سليمان لها: «إنه صرح ممرّد من قوارير». (٤٤ النمل/٢٧).

وهنا أدركت أن ذكاءها البالغ قد خانها في هذه اللحظة، إذ امتحنت بأمر لم يسبق لها فيه ملاحظة أو تجربة، فأعلنت إيمانها مع سليمان لله رب العالمين.

«قالت: رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين». (٤٤ النمل/٢٧).

٥ ــ ومن الأحداث التي جرت لسليمان عليه السلام مروره على وادي النمل، وذلك ما تضمنه قوله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

فهذه القصة تتضمن أن الله خلق في هذه النملة قوة إدراك أدركت به مرور سليمان وجنوده في الوادي؛ فأمرت سائر النمل بدخول مساكنهم خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، إذ لا غرض لهم بتحطيمهم، إنما هم قوم يجتازون في طريقهم، وكان ذلك هبة خاصة اختص الله بها وادي النمل هذا من دون سائر النمل[1].

وسمع سليمان قول النملة بما آتاه الله من معجزات، فتبسّم ضاحكاً من قولها، وتأمل في ما آتاه الله من نعمة الرسالة، ونعمة الملك، ونعمة اختصاصه بكثير من المعجزات، فدعا الله أن يُوزِعه ــ يلهمه ــ أن يشكر نعمته التي أنعم بها عليه وعلى والديه، وأن يعمل عملاً صالحاً يرضاه، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

٦ ــ وقد تعرض القرآن الكريم لحادثةٍ جرت لسليمان عليه السلام، تتصل باهتمامه بإعداد خيول الجهاد في سبيل الله وإشرافه عليها، لأن الخيول كانت من أعظم وسائل القتال قبل هذه الحروب الآلية الحديثة.

(١) وقد يقال: إن موضوع التخاطب الذي جرى بين هذه النملة وسائر النمل في هذا الوادي، كما قص الله علينا، من المدركات التي هي من غريزة أمة النمل، وأن لها نوع تفاهم فيما بينها، سماه الله قولاً، والمعجزة في الأمر أن الله وهب سليمان القدرة على معرفة التخاطب.

وخلاصة هذه الحادثة: أنه عليه السلام كان قد أمر بإعداد مجموعة كبيرة من خيول الجهاد، ثم أراد أن يشاهد ما بلغت إليه هذه الخيول وفرسانها من قوة وترويض، فعقد لذلك مشهداً في عشية يوم من الأيام، فعرضت عليه مجموعة الخيول بكامل عدتها الحربية، فسره مرآها، وأعجبته كثرتها وقوتها. ورأى جنود سليمان وخاصته إعجابه بهذه الخيول وحبه لها، وإقباله على اقتنائها ورياضتها، فقال مبيناً سرّ ذلك: «إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي»، أي: إنني ما أحببت هذه الخيول تلبية لشهوة من شهوات النفس، ولا تحقيقاً لغرض من أغراض الدنيا، وإنما أحببتها ابتغاء تقوية دين الله، ونشر الحق والخير. وإذا كان أناس يحبون أشياء من مظاهر الدنيا حب الشر، ورغبة في تلبية المطالب الدنيئة للأنفس، فإني أحببت حب الخير، ورغبة بتحقيق طاعة الله تعالى. ثم إن هذا الحب ليس أثراً صادراً عن النفس التي تدفع كثيراً من ذوي السلطان إلى الظلم والعدوان، وبسط النفوذ على الشعوب لأغراض دنيوية، ولكنه أثر صادر عن ذكر الله تعالى، وذكر الله يدفع المؤمن إلى السعي في طاعته، والعمل ابتغاء مرضاته، وإن من طاعة الله تعالى الإعداد للجهاد في سبيل نشر دينه[1].

ثم أمر عليه السلام بإجرائها فانطلق بها فرسانها من الجهة التي هو فيها، وتابعها النظر «حتى توارت بالحجاب» أي غابت عن بصره، ثم قال: «ردوها علي»، فلما وصلت إليه، وسرّه منظر صلفها وقوتها، وأعجبه ترويضها، أقبل عليها وطفق في تواضع كريم يمسح بيده سوقها وأعناقها تكريماً لها.

وإلى هذه الحادثة أشار القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة (صٓ ٣٨):

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) ولعل قول الله تعالى ـ في معرض الإشارة إلى هذه الحادثة، وحكاية قول سليمان: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي» ـ إنما هو خلاصة الكلمة التي ألقاها سليمان عليه السلام في افتتاح هذا المشهد الذي أمر به، أو الحديث الذي تحدث به حينما عُرضت عليه الخيول وأمر بإجرائها. وإضافة الحب للخير مثل قولك: ضربت خادمي ضرب التأديب، أي: لا ضرب التشفي والانتقام، ومثل قولك: أكلت أكل الجوع والحاجة، أي: لا أكل الشبع والترف، ونحو ذلك، والحب قسمان: حب الخير وحب الشر، وسليمان عليه السلام قد أحب حب الخير، حينما أحب اقتناء الخيول وترويضها.

وهذا هو الظاهر في فهم ما ورد في القرآن الكريم بهذا الصدد، كما ذكر الرازي وغيره. والله أعلم.

٧ ــ وقد تعرض القرآن الكريم لقصّة فتنة سليمان، وإلقاء الجسد على كرسيه، وذلك في قوله تعالى في سورة (ص ٣٨):

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

ولم يثبت بخبرٍ صحيح الأمر الذي فتن الله به سليمان، ولا المراد من قوله تعالى: «وألقينا على كرسيه جسداً». وقد ذكر المفسرون عدة وجوه يحتملها النص، ولكن لا سبيل إلى الجزم بواحد منها، ولأهل الحشو حول ذلك قصص لا أصل لها! وعليه فنحن نفوض الأمر إلى الله تعالى حتى يأتينا ما يكشف لنا المراد بوضوح.

وقد استأنس بعض المفسرين في شرح المراد من هذه الآية بما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ، أن سليمان قال:

(لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل. قال ﷺ: والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون).

قالوا: فلعل المراد من فتنة سليمان ابتلاؤه بما آتاه الله من ملك عظيم، ونساء كثيرات حرائر وإماء، وتمنيه أن يكون له من صلبه أولاد كثيرون يقاتلون في سبيل الله، ويوطدون دعائم الدولة الربانية، ونسيانه تعليق ذلك على مشيئة الله تعالى، وذلك إذ أخذ على نفسه أن يطوف في ليلة واحدة على عدد كبير من نسائه، تأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، وتجاوز بذلك حدود بشريته، ونسي أن يفوض تحقيق الأمر إلى مشيئة الله تعالى، فجوزي على هذا بأن النساء اللواتي طاف عليهن لم يحملن منه إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل. قالوا: فلعل هذا الشق هو المراد من قوله تعالى: «وألقينا على كرسيه جسداً»، فلما رأى سليمان ذلك رجع إلى ربه وأناب، وقال: «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب». وبذلك فوض أمر توطيد الملك ــ الذي لا ينبغي لأحد من بعده ــ في مملكته الربانية إلى الله تعالى، لا إلى المجاهدين في سبيل الله من أولاده.

٨ ــ وقد تعرض القرآن المجيد أيضاً لقصّة موت سليمان عليه السلام، وبعض الملابسات التي رافقت ذلك، فقال تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ

ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾.

المنسأة: العصا.

فهذا النص القـرآني يدلّ عـلى أن سليمان عليـه السلام قضى الله عليـه الموت فمـات؛ وبقي أمـر موتـه مجهولاً، وأنـه كان قبـل موتـه متكئاً عـلى عصاه، فلما مـات بقيت العصـا هي الحافظة لتوازن جسمه من أن يخرّ.

لبث هكذا حتى جاءت دابة الأرض ـ قالوا: وهي الأرضة ـ فأخذت تأكل عصـاه؛ إلى أن ضعفت العصا بتأثير الأرضة عن حمل جثة سليمان، فانكسـرت فخرّ جسمـه على الأرض، عند ذلك علمـوا موتـه، وأقبلوا عليه ودفنـوه، وظهر لهم بعـد البحث أن الموت قـد حصل من زمن غير قصير. ولما رأت الجن ـ المسخرون لسليمان بالأعمال الشاقة من كل بنـاء وغواص ـ ذلك تبينوا أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين هذه المدة الـواقعة مـا بين مـوته وعلمهم به!!

والـذي يظهـر: أن سليمان عليـه السلام كـان إذا دخل محـرابه وخـلا لنفسه، واعتكف لعبادة ربه، لم يستطـع أحد أن يدخل عليه ـ سواء كان من أهله أو من غير أهله، وسـواء كان من الإنس أو من الجن ـ حتى يـأذن لـه. وذلــك بمـا وهبــه الله من هيبـة وسلطان في الملك، ومـا يعلمون عنـه من معجزات وخـوارق عادات، وقـوى نافـذة يستطيـع أن يسخـر بهـا الجن والطير، والريـح الرخاء والريـح العاصفة، وبخاصة بعد أن استقـر ملكه، وتمـرس به نـوّابه، وكبرت سنه، وصار ميّالاً للخلوات، يعبد فيها ربه، ويتجرد فيها من كل عـلائق الدنيـا. وأما طعـامه وشـرابه وحـاجاتـه فإنهم يعلمـون أن ذلك أيسر مـا في الأمـر عليـه، فـلا يضعـونها في حسابهم، بل يفوضون له الأمر، حتى يأمر بشيء منها.

وبهذا التحليل تُدفـع طائفة الإشكالات التي قد تخطر عـلى البال حـول كيفية بقـائه مـدة من الـزمن ميتاً، وهـو ملك البـلاد دون أن يعلم بـذلـك أهله وخـاصتـه، والجن والشيـاطـين المسخرون للعمل بأمره. والله أعلم.

(١٩) و (٢٠)
«إلياس واليسع عليهـما السلام»

همـا رسـولان من رسـل بني إسـرائيـل، وقـد ذكـرهمـا الله في عداد مجمـوعـة الـرسـل عليهم السلام.

وقال في شأن إلياس في سورة (الصافات ٣٧):

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

وقال تعالى في شأن اليسع عليه السلام في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

* نسب إلياس:

لم يتفق المؤرخون على نسب منضبط له، وقد ذكر الطبري له النسب التالي:

هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون.

فهو على هذا من ذرية هارون عليه السلام، وهكذا يذهب نسبه صاعداً إلى إبراهيم عليه السلام.

* نسب اليسع:

لم أعثر على نسب له.

وقد جاء في تاريخ الطبري أنه: (اليسع بن أخطوب).

وجاء في تاريخ ابن خلدون أنه: (اليسع بن أخطوب من سبط أفرايم).

وقيل: هو ابن عم إلياس.

قال ابن عساكر: (اسمه أسباط بن عدي بن شوليم بن افرائيم). والله أعلم.

ومن المقطوع به: أن كلاً من إلياس واليسع من بني إسرائيل، ومن ذرية إبراهيم عليه السلام.

* **حياة إلياس واليسع عليهما السلام في فقرات:**

(أ) ليس لدى المؤرخين صورة صحيحة كاملة عن حياة إلياس واليسع عليهما السلام، إلا أننا نستطيع أن نستخلص من مختلف أقوالهم الأمور البارزة التالية:

١ ـ عقب انتهاء ملك سليمان عليه السلام في سنة (٩٣٣)ق. م[1] انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى قسمين:

---

(١) أخذاً من موسوعة «تاريخ العالم» لمصدرها وليم لانجر.

القسم الأول: كان خاضعاً لملك سلالة سليمان بن داود عليه السلام، وأول ملوكهم (رُحُبْعام) بن سليمان، ويشمل هذا القسم سبطي يهوذا وبنيامين.

القسم الثاني: كان خاضعاً لملك (جربعام) بن نباط وأسرته من بعده. قالوا: وقد جاءهم (جربعام) من مصر، وهو من سبط أفرايم بن يوسف عليه السلام[1]، وبايعه سائر أسباط بني إسرائيل العشرة، وقد حكمت هذه الأسرة من ٩٣٣ ــ ٨٨٧ق م، وهي مدّة (٤٦) سنة تقريباً.

وسبب شقاق الأسباط العشرة عن (رُحُبْعام) بن سليمان، أنه رفض إعفاءهم من الضرائب التي كانت عليهم.

٢ ــ ثم قامت بعد أسرة (جربعام) الحاكمة على أسباط بني إسرائيل العشرة أسرة (عُمْري)؛ وملكت من (٨٨٧ ــ ٨٤٣)ق. م، وهي مدة (٤٤) سنة تقريباً.

وفي هذه الأثناء ــ أي نحو (٨٧٥)ق. م ــ سمح (أخاب) ــ أحد ملوك هذه الأسرة ــ لزوجته إيزابيل بنت أثعيل ــ ملك صور ــ أن تقوم بنشر عبادة قومها في بني إسرائيل؛ فشاعت العبادة الوثنية فيهم، فصار لهم صنم يعبدونه يسمونه (بعلاً).

٣ ــ فأرسل الله إليهم (إلياس عليه السلام)، ــ ويسمى عند المؤرخين: إليشاه أو إيليًا ــ فنهاهم عن عبادة الأوثان، وأمرهم بعبادة الله وحده، والرجوع إلى الشريعة الصافية التي جاء بها موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام؛ ونصح بذلك ملكهم (أخاب) فلم يستجب له، وأصرّ على عناده وانحرافه عن الإسلام الخالص من شوائب الوثنية، فانتقم الله منه، فأزال ملكه وملك أسرة عمري على يد (يهو شافاط) وهو من سبط (مِنسًا) بن يوسف عليه السلام.

٤ ــ وقد آمن بإلياس رجل صالح من بني إسرائيل اسمه: (اليسع = اليشع)، فصاحبه مدة حياته في الأرض ثم أرسله الله من بعده في بني إسرائيل.

٥ ــ جاء في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق ما ملخّصه: أن إلياس عليه السلام لما دعا

---

(١) في تاريخ ابن خلدون: أن يُرُبْعُم ــ وهو جربعام بن ناباط ــ هو حفيد يَرْبَعَان بن نباط الذي هرب إلى مصر في أيام سليمان عليه السلام، فزوجه فرعون ابنته. وكان هذا الجد والياً على ضواحي بيت المقدس وجميع أعماله من قبل سليمان؛ وكان جباراً فعوتب سليمان من قبل الوحي على توليته، فأراد قتله، وشعر بذلك يربعان فهرب إلى مصر فأنكحه فرعون ابنته، وأقام في مصر وولدت له ابنه ناباط ثم جاء لناباط هذا يربعم.

بني إسرائيل إلى نبذ عبادة الأصنام، والاستمساك بعبادة الله وحده، رفضوه ولم يستجيبوا له، فدعا ربه فقال:

اللّهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلا الكفر بك، والعبادة لغيرك، فغيِّر ما بهم من نعمتك. فأوحى الله إليه: إنا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك، فأنت الذي تأمر في ذلك، فقال إلياس: اللّهم فأمسك عنهم المطر، فحبس عنهم المطر، فحبس عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد الناس جهداً شديداً. وكان إلياس لما دعا عليهم استخفى عن أعينهم، وكان يأتيه رزقه حيث كان، فكان بنو إسرائيل كلما وجدوا ريح الخبز في دار قالوا: هنا إلياس، فيطلبونه وينال أهلَ ذلك المنزل منهم شرٌّ.

وقد أوى ذات مرة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل، لها ابن يقال له: (اليسع بن أخطوب) به ضرٌّ، فآوته وأخفت أمره، فدعا الله لابنها فعافاه من الضرّ الذي كان به، واتبع إلياسَ وآمن به وصدقه ولزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسنّ وكبر، وكان اليسع غلاماً شاباً.

ثم إن إلياس قال لبني إسرائيل: إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله أن يفرج عنكم، فأخرجوا أصنامهم ومحدثاتهم، فدعا الله لهم ففرج عنهم وأغاثهم، فحييت بلادهم، ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا عليه، ولم يستقيموا، فلما رأى ذلك إلياس منهم دعا ربه أن يقبضه إليه فقبضه ورفعه. انتهى والله أعلم.

ثم إن الله أرسل إليهم اليسع بعد إلياس.

(ب) **أما القرآن الكريم فإنه اقتصر في الحديث عن هذين الرسولين على ما يلي:**

١ ــ إثبات نبوة ورسالة كل من إلياس واليسع.
٢ ــ إثبات دعوة إلياس قومه إلى عبادة الله وحده، ونهيهم عن عبادة الصنم (بعل).
٣ ــ إثبات أن قومه كذبوه إلا عباد الله المخلصين.
٤ ــ إكرام الله له بأن الله ترك في الآخرين سلاماً عليه.

(٢١)

«يونس عليه السلام»

هو من الرسل الذين أرسلهم الله بعد سليمان وقبل عيسى عليه السلام، وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل. وقال عزّ شأنه مثبتاً رسالته في سورة (الصافات ٣٧):

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

* **نسب يونس:**

لم يذكر المؤرخون ليونس عليه السلام نسباً، وجُلّ ما أثبتوه أنه: (يونس بن متّى). قالوا: ومتًّى هي أمُّه، ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير يونس وعيسى عليهما السلام. ويسمى عند أهل الكتاب: (يونان بن أمتاي).

قالوا: ويونس عليه السلام من بني إسرائيل، ويتصل نسبه بـ (بنيامين)[1]. والله أعلم.

* **حياة يونس عليه السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياة يونس عليه السلام وأصحه ــ والله أعلم ــ ما يلي:

١ ــ أرسله الله إلى أهل «نينوى» وهي: مدينة كبيرة تقع على نهر دجلة أو قريباً منه، تجاه مدينة الموصل من أرض آشور (في القسم الشمالي من العراق الحديث)[2]، وكان عدد أهل هذه المدينة مائة ألف أو يزيدون.

٢ ــ والذي يظهر أن رسالته عليه السلام كانت خلال القرن الثامن قبل ميلاد المسيح عيسى عليه السلام؛ وقد سبق أن إلياس واليسع عليهما السلام قد أرسلا خلال القرن التاسع قبل الميلاد. والله أعلم.

---

(١) ويوجد في بلدة (حلحول) ــ قرب مدينة الخليل بفلسطين ــ قبر يقال: إنه قبر «يونس»؛ وفي مكان غير بعيد عنه قبر آخر يقال إنه قبر «متّى».
(أخذاً من قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار).

(٢) يمتد سهل ما بين النهرين الدجلة والفرات ــ من العراق الحديث ــ مسافة (٦٠٠) ميل؛ وذلك بدءاً من المنحدرات الجنوبية لهضبة أرمينيا التي ينبع منها نهرا الفرات والدجلة، وحتى الخليج العربي الذي كان يصل في العصور القديمة إلى بلدة (أور) ــ وهذه البلدة كانت تقع على بعد (٦٠) ميلاً شمالي الساحل الحالي ــ. وكان هذا السهل ينقسم قديماً إلى قسمين: بابل في الجنوب، وآشور في الشمال، والحد بينهما خط عرض (٣٤ ــ ٣٥). وأهم مدن آشور قديماً: (آشور، كالاه. نينوى، دورشاروكين، سرجونبرج ــ وهي الآن خورساباد ــ، أربلا ــ وهي أربيل أقدم مدينة باقية في العالم ــ)؛ وتقع معظم مدن آشور على نهر دجلة أو بالقرب منه. وأما بابل فهي قسمان: القسم الشمالي ــ وكان يسمى «أكاد» ــ وأهم مدنه (بابل، بورسبا، دلبات، كش، كثاة، أوبس، سبار، أكاد). والقسم الجنوبي ــ وكان يسمى «سومر» وبالعبرية «شنار» ــ وأهم مدنه (نيبو، آداب، لجاش، أمًّا، لارسا، أرخ = أورك، أور، أردو). وتقع معظم مدن بابل على نهر الفرات أو بالقرب منه. (أخذاً من موسوعة تاريخ العالم لمصدرها وليم لانجر).

٣ ــ أمر الله يونس عليه السلام أن يذهب إلى أهل نينوى، ليردهم إلى عبادة الله وحده، وذلك بعد أن دخلت فيهم عبادة الأوثان.

قال المؤرخون: وكان لأهل نينوى صنم يعبدونه اسمه (عشتار).

٤ ــ فذهب يونس عليه السلام من موطنه في بلاد الشام إلى نينوى، فدعا أهلها إلى الله بمثل دعوة الرسل كما أمره الله، ونهاهم عن عبادة الأوثان، فلم يستجيبوا له ــ شأن أكثر أهل القرى ــ فأوعدهم بالعذاب في يوم معلوم إن لم يتوبوا، وظن أنه قد أدّى الرسالة، وقام بكامل المهمة التي أمره الله بها، وخرج عنهم مغاضباً[1] قبل حلول العذاب فيهم، شأنه في هذا كشأن لوط عليه السلام، إلا أن لوطاً خرج عن قومه بأمر الله، أما يونس فقد خرج باجتهاد من عند نفسه دون أن يؤمر بالخروج، ظاناً أن الله لا يؤاخذه على هذا الخروج ولا يضيق عليه[2].

٥ ــ فلما ترك يونس أهل نينوى، وجاء موعد العذاب، وظهرت نُذُره، عرفوا صدق يونس، وخرجوا إلى ظاهر المدينة، وأخرجوا دوابهم وأنعامهم خائفين ملتجئين إلى الله، تائبين من ذنوبهم، وأخذوا يبحثون عن يونس عليه السلام، ليعلنوا له الإيمان والتوبة، ويسألوه أن يكف الله عنهم العذاب فلم يجدوه، ولما ظهرت منهم التوبة، وعلم الله صدقهم فيها كف عنهم العذاب، فعادوا إلى مدينتهم مؤمنين بالله، موحدين له، هاجرين عبادة الأصنام.

٦ ــ أما يونس عليه السلام فإنه سار حتى وصل إلى شاطىء البحر[3]، فوجد سفينة

---

(١) أي: إنه خرج عنهم وقد غضب لله من إعراضهم عن الدعوة إلى الله غضباً شديداً، فتكون صيغة المفاعلة للدلالة على المبالغة من جانب واحد. أو أنه خرج عنهم وقد وقع بينه وبينهم منافرة في سبيل الدعوة، أدّت إلى غضبه منهم في سبيل الله، وغضبهم منه في سبيل الشيطان، فتكون صيغة المفاعلة على بابها للدلالة على المشاركة. والله أعلم. ويشهد لهذا المعنى الثاني قوله تعالى: «إذ أبق إلى الفلك المشحون»، وهذا يدل على أنهم غضبوا منه ولاحقوه، فأبق فاراً منهم.

(٢) هذا ما ترجح عندي من وضع يونس عليه السلام، وهناك من يقول: إنه خرج مغاضباً لِملك بلاده، قبل أن تأتيه الرسالة ويؤمر بالذهاب إلى نينوى. وآخرون يقولون: إنه خرج مغاضباً فاراً من ربه بعد أمره بأن يذهب إلى نينوى، وذلك خشية من أهلها، لأنه ليس منهم بل هو دخيل عليهم. وقيل: خرج مغاضباً لربه لأن ما أوعدهم به من العذاب لم يقع بهم في الوقت المحدد، إذ آمنوا لما رأوا نذر العذاب. وقيل غير ذلك. وكل هذه الوجوه بعيدة عن منزلة الرسالة ومقام النبوة، وما يفهم من أسلوب القرآن الكريم. والله أعلم.

(٣) الذي يظهر أنه قطع الصحراء حتى وصل إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط؛ عند منطقة اسكندرون الحالية أو قريباً منها، يريد ركوب البحر قاصداً إلى إحدى موانىء البلاد الشامية التي تقع على ساحل البحر؛ نحو صيدا وعكا أو قريباً منها. والله أعلم.

على سفر فطلب من أهلها أن يركبوه معهم، فتوسموا فيه خيراً فأركبوه. ولما توسطوا البحر هاج بهم واضطرب، فقالوا: إن فينا صاحب ذنب، فاستهموا فيما بينهم على أن من وقع عليه السهم ألقوه في البحر، فوقع السهم على يونس، فسألوه عن شأنه وعجبوا من أمره وهو التقي الصالح، فحدثهم بقصته، فأشفقوا أن يلقوه في البحر، وأرادوا الرجوع به إلى الساحل فلم يقدروا، فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله فألقوه، فالتقمه بأمر الله حوت عظيم، وسار به في الظلمات، في حفظ الله وتأديبه، وتمت المعجزة. وقد أوحى الله إلى الحوت أن لا يصيب من يونس لحماً ولا يهشم له عظماً، فحمله الحوت العظيم وسار به في عباب البحر حياً يسبح الله ويستغفره، وينادي في الظلمات: أن لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجاب الله له، ونجاه من الغم، ثم أوحى الله إلى الحوت أن يقذف به في العَرَاء على ساحل البحر، فألقى به وهو سقيم.

قالوا: وقد لبث في جوف الحوت ثلاثة أيام بلياليها، والله أعلم.

٧ ــ وجد يونس نفسه في العراء سقيماً هزيلاً، فحمد الله على النجاة، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فأكل منها واستظل بظلها، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه. وعلم يونس أن ما أصابه تأديب رباني محفوف بالمعجزة، حصل له بسبب استعجاله وخروجه عن قومه مغاضباً، بدون إذن صريح من الله له يحدّد له فيه وقت الخروج، وإن كان له فيه اجتهاد مقبول، ولكن مثل هذا الاجتهاد إن قُبِلَ من الصالحين العاديين، فإنه لا يقبل من المرسلين المقربين، فهو بخروجه واستعجاله قد فعل ما يستحق عليه اللوم والتأديب الرباني. قال الله تعالى في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

٨ ــ ولـمّا قدر يونس على المسير عاد إلى قومه، فوجدهم مؤمنين بالله، تائبين إليه، منتظرين عودة رسولهم ليأتمروا بأمره ويتبعوه، فلبث فيهم يعلمهم ويهديهم ويدلُّهم على الله، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم.

٩ ــ ومتّع الله أهل نينوى في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم وبعده آمنين مطمئنين حتى حين، إذ أفسدوا وضلوا فسلّط الله عليهم من دمَّر لهم مدينتهم، فكانت أحاديث يرويها المؤرخون، ويعتبر بها المعتبرون[1].

---

(١) قال المؤرخون: وقد دمرت نينوى على أيدي سياكريس ملك ميديا، ونابوبولصار ملك بابل في سنة (٦١٢)ق. م (في القرن السابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام). والله أعلم.

(ب) وقد تعرض القرآن الكريم لحياة يونس عليه السلام في نحو خمس سور من القرآن الكريم؛ جاء فيها ما يلي:

١ ــ إثبات نبوته ورسالته عليه السلام إلى مئة ألف أو يزيدون.

٢ ــ إثبات أنه ذهب مغاضباً ظاناً أن الله لا يقدر عليه (أي: لا يضيق عليه بذهابه عن قومه).

٣ ــ إثبات أنه أبق إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المُدْحَضين، فالتقمه الحوت وهو مُليم.

«من المدحضين، أي: من أهل الزلل الذين وقع عليهم السهم بأن يقذف في البحر».

٤ ــ إثبات أنه كان من المسبِّحين لله في بطن الحوت، وأنه نادى في الظلمات أن لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وأن الله استجاب له فنجّاه من الغم، ولولا أنه كان من المسبحين لَلَبِثَ في بطن الحوت إلى يوم يبعثون.

٥ ــ إثبات خروجه من بطن الحوت ونبذه بالعراء وهو سقيم، وأن الله أنبت عليه شجرة من يقطين.

٦ ــ إثبات أن قومه تعرضوا بسبب مخالفتهم له لعذاب الخزي في الحياة الدنيا، إلا أن الله كشف عنهم هذا العذاب لـمّا آمنوا، ومتعهم إلى حين.

٧ ــ وقد سماه الله: (ذا النون) في سورة الأنبياء الآية (٨٧)، و(نون): اسم من أسماء الحوت، فيكون المعنى: «صاحب الحوت».

(٢٢) و (٢٣)

«زكريا وابنه يحيى عليهما السلام»

هما رسولان من رسل بني إسرائيل، وقد ذكرهما الله في عداد مجموعة الرسل عليهم السلام، فقال تعالى في سورة (الأنعام/٦): ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه...﴾ وما بعدها.

﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (٨٥)﴾.

* نسبهما عليهما السلام:

من المحقق أنهما من بني إسرائيل، ولكن لم يذكر المؤرخون لهما نسباً متصلاً موثوقاً به، وكان زكريا عليه السلام ممن لهم شركة في خدمة الهيكل.

قال ابن خلدون: (وكان بنو ماثان ـ من ولد داود صلوات الله عليه ـ كهنوتية بيت المقدس).

وعلى هذا فهو من سبط (يهوذا)، لأن داود عليه السلام يصل نسبه إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

وقد أورد ابن عساكر لزكريا نسباً بدأه بأبيه يوحنا، وعدّ بعده أحد عشر أباً، حتى وصل إلى (يهوشافاط) خامس ملوك بيت المقدس من عهد أبيهم سليمان[1]. والله أعلم.

*** حياة زكريا ويحيى عليهما السلام في فقرات:**

(أ) أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياتهما عليهما السلام ما يلي:

١ ـ قبيل ميلاد المسيح عيسى كان زكريا من كبار الربانيين الذين لهم شركة في خدمة الهيكل.

وكان عمران ـ والد مريم ـ إمامهم ورئيسهم، والكاهن الأكبر فيهم.

قالوا: ويتصل نسبه بداود عليه السلام، فهو على هذا من سبط (يهوذا). والله أعلم.

٢ ـ (حنَّة) و (إيشاع = اليصابات عند أهل الكتاب) أختان، أما حنَّة: فكانت زوجة عمران، وكانت من العابدات، وكانت لا تحمل.

وأما إيشاع «اليصابات»: فكانت زوجة زكريا عليه السلام، وكانت عاقراً لا تلد.

٣ ـ استجاب الله لدعاء (عمران وحنَّة)، بعد أن لبثت حنَّة ثلاثين سنة لا يولد لها فحملت، فنذرت أن تهب ولدها لخدمة بيت المقدس، وكانت ترجو أن يكون ذكراً.

«فلما وضعتها قالت: ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى

---

(١) ويوجد زكريا آخر لم يتعرض له القرآن الكريم، وهذا له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى، وهو: (زكريا بن برخيا)، وكان في زمن داريوس، أي: قبل زمن المسيح بما يقرب من ثلاثة قرون. وهو الذي تكلم في كتابه في الإصحاح التاسع عن ولاية «عمر بن الخطاب»، وغلبه على أورشليم ودخوله إليها منصوراً وادعاً راكباً على حمار، والنصارى يؤولونه بالمسيح، واليهود يؤولونه بمسيحهم المنتظر وهو المسيح الدجال.
(أخذاً من قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار).
والنصّ في الإصحاح التاسع من (زكريا) هو ما يلي: «ابتهجي جدّاً يا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ اهتُفِي يا بِنْتَ أورشلِيم. هُوَ ذا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ ورَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ».

وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً» (٣٦ ــ ٣٧ آل عمران/٢).

وحملت ابنتها مريم، وقدمتها إلى بيت المقدس، ودفعتها إلى العبَّاد والربانيين فيه، تنفيذاً لنذرها، وكان هذا من أحكام الشريعة اليهودية.

وتنافسوا في كفالتها، لأنها ابنة رئيسهم وكاهنهم الأكبر ــ ويظهر أن عمران أباها كان قد توفي في هذه الأثناء ــ وأصرّ زكريا عليه السلام ــ زوج خالتها ــ على أن يكفلها هو، وحصل الخصام بينهم أيُّهم يكفل مريم، ثم لجأوا إلى القرعة، فكانت كفالتها من حظ زكريا.

٤ ــ شبَّت مريم في بيئة عبادة وتقوى داخل بيت المقدس، وأكرمها الله بكرامات عديدة[1]، وكان من كراماتها ما قصَّة الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

فكان زكريا يجد عندها رزقاً من رزق الله لم يأتها به، ولا وجود له عند الناس في ذلك الوقت، وهذا من إكرام الله لها، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم وتخبرها بأن الله اصطفاها وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين.

٥ ــ هنالك تحرك في قلب زكريا حب الذرية، وتمنى أن يهبه الله ولداً ذكراً يرث الشريعة عنه وعن العلماء الصالحين من آل يعقوب، وخشي أن يتولى أمر الرياسة الدينية في بني إسرائيل موالي من الجهلة والفساق والمتلاعبين بالدين.

هنالك دعا زكريا ربه، وناداه نداءً خفياً، قال: ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً. وإني خفت الموالي من ورائي، وكانت امرأتي عاقراً

---

(١) مريم عند أهل السنة ذات ولاية، وهنالك من يقول: إنها نبية، مستدلاً بمخاطبة الملائكة لها. وأهل السنة يقررون بأن النبوة مختصة بالرجال، لذلك فما جرى لمريم كان من باب الكرامة لها، لمقام ولايتها لا لكونها نبية.

قالوا: وقد توفيت أمها «حنَّة» حينما بلغت مريم من العمر ثماني سنين. والله أعلم.

فهب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، ربّ هب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب، واجعله ربّ رضياً.

فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل له من قبل سمياً، مصدقاً بكلمة من الله، وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين.

قال زكريا: «رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيّاً».

قال منادي الملائكة: «كذلك قال ربكَ هو عليَّ هين وقد خلقتكَ من قبلُ ولم تك شيئاً!».

قال زكريا: ربِّ اجعل لي آية. قال: آيتُكَ ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثيراً، وسبح بالعشي والإبكار. فخرج على قومه من المحراب، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً.

أمّا مريم سلام الله عليها فقد نشأت نشأة طهر وعفاف، محروسة بعناية الله تعالى، حتى إذا بلغت مبلغ النساء، وبينما هي في خلوتها إذا بالملك جبريل تمثل لها بشراً سوياً، فذعرت منه، فقالت: «إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّاً». أي: أمّا إنْ كنتَ شقيّاً فاجراً فإني أعوذ بالجبار القهار المنتقم منك.

فقال لها جبريل: «إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيّاً».

قالت مريم: «أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّاً»؟!

قال جبريل: «كذلكِ قال ربكِ هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً»!!

وكذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

ونفخ جبريل في جيب مريم فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام، ولما حملته انتبذت به مكاناً قصياً بعيداً عن أهلها في جهة شرقية، وواظبت على عبادتها كعادتها.

٧ ــ قالوا: وكان حمل مريم بعيسى في الوقت الذي كانت فيه زوجة زكريا حاملاً بيحيى؛ وولد عيسى بعد ميلاد يحيى بثلاثة أشهر[1]. والله أعلم.

---

(١) أخذاً من تاريخ ابن خلدون كما نقل عن ابن العميد مؤرخ النصارى.

٨ ــ نشأ يحيى ــ كما بشّر الله ــ نشأة صلاح وتقوى وعلم، وقد آتاه الله الحكم صبياً، وأقبل على معرفة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالماً بارعاً متبحراً، ومرجعاً يرجع إليه في الفتاوى الدينية. ثم وافته النبوة والرسالة قبل أن يبلغ من العمر ثلاثين سنة، وقال الله له: «يا يحيى خُذ الكتاب بقوة».

قالوا: وقد كان في صباه يأوي إلى القفار، ويقتات جراداً وعسلاً برِّياً، ويلبس الصوف من وبر الإبل.

٩ ــ ويُسمَّى يحيى عند علماء النصارى: (يوحنَّا)، ويلقبونه (المعمدان) لأنه كان قد تولى التعميد المعروف عند النصارى، وهو: التبريك بالغسل بالماء للتوبة من الخطايا. قالوا: وقد ظهر في ناحية الأردن ينذر الناس بالتوبة، فخرج إليه أهل (أورشليم) والكور القريبة من الأردن، فكان يعمّدهم في النهر وينذرهم باقتراب ملكوت السماوات.

قالوا: وقد عمَّد يحيى عيسى في نهر الأردن وبرَّك عليه وهو ابن ثلاثين سنة، وقد سأله اليهود: هل هو المسيح؟ فقال: لا، فسألوه: هل هو النبي؟ فقال: لا، فقالوا له: لماذا تُعمِّد إذا لم تكن المسيح ولا النبي؟ فقال: «أنا صوت صارخ في البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة».

١٠ ــ برز اسم يحيى عليه السلام، وكان حاكم فلسطين حينئذٍ (هيرودس) وكان رجلاً شريراً فاسقاً، وكانت له ابنة أخ يقال لها: (هيروديا[١]) بارعة الجمال، فأراد عمها هيرودس أن يتزوج منها، وكانت البنت وأمها تريدان هذا الزواج، فلما علم يحيى عليه السلام بذلك أعلن معارضته لهذا الزواج، وبيَّن تحريم زواج العم بابنة أخيه في الشريعة.

فحقدت أم الفتاة على يحيى، وبيَّتت له مكيدة قتل، فزينت ابنتها (هيروديا) بأحسن زينتها، وأدخلتها على عمها، فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فقال لها: تمنَّي عليّ، فقالت له: أريد رأس يحيى بن زكريا في هذا الطبق ــ كما علمتها أمها ــ فاستجاب لطلبها، وأمر برأس يحيى فقُتل عليه السلام، وقدم له رأسه في طبق، والدم ينزف منه[٢].

قالوا: وفي حادثة مقتل يحيى عليه السلام قتل عدد كبير من العلماء الذين أنكروا على الحاكم، ومنهم زكريا عليه السلام، وقيل: قتل زكريا قبل ذلك. والله أعلم.

---

(١) ويقال: سالومي.

(٢) قالوا: وقد دفن يحيى بنابلس، والله أعلم. (عن ابن خلدون).

وجاء تلاميذ يوحنا (يحيى) وأخذوا جثته ودفنوها، ثم جاؤوا إلى المسيح عيسى وأخبروه بمقتل يحيى عليه السلام.

(ب) وقد تعرض القرآن الكريم لحياة كلٍ من زكريا ويحيى عليهما السلام في أربع سور، وقد جاء فيها ما يلي:

١ ــ إثبات نبوة ورسالة كل من زكريا ويحيى عليهما السلام.

٢ ــ التنويه بأنهما من بني إسرائيل.

٣ ــ كفالة زكريا عليه السلام لمريم، وبيان أنه كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، وأنه سألها أنى لك هذا؟ فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

٤ ــ عرض قصة دعائه لربه أن يهبه ذرية طيبة، واستجابة الله له، وبشارة الملائكة إياه بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين، وما رافق ذلك.

(٢٤)

«المسيح عليه السلام»

هو آخر رسل بني إسرائيل عليهم السلام جميعاً، وقد ذكره الله في عداد مجموعة الرسل الذين قصّ علينا قصصهم. وقال تعالى في شأنه في سورة (الصف ٦١):

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾.

*** الكلام في اسمه ولقبه وصفته:**

اسمه في القرآن الكريم: (عيسى). ولقبه: (المسيح)[1]. وكنيته: (ابن مريم). وصفته: «عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه».

واسمه بالعبرية (يسوع = يشوع) أي: المخلِّص، إشارة إلى أنه عليه السلام سبب لتخليص كثيرين من ضلالاتهم.

---

(١) كلمة المسيح: تطلق في العبرية ويراد منها النبي أو الملك، ويظهر أن المراد هو المعنى الأول، لأن عيسى عليه السلام ليس ملكاً، ولا صاحب سلطان، وقد يقال: إن سلطانه كان سلطاناً دينياً وخلقياً في أمته وأتباعه عليه السلام.

* نسبه عليه السلام:

هو عيسى ابن مريم ابنة عمران، ويتصل نسب عمران بداود عليه السلام، فعيسى عليه السلام من سبط (يهوذا). والله أعلم[1].

* حياة عيسى عليه السلام في فقرات:

(أ) أبرز ما تعرض لـه المؤرخون من حياة عيسى عليه السلام ما يلي:

١ ــ سبق أن ذكرنا عند الكلام على زكريا ويحيى عليهما السلام، ما يتعلق بولادة أمه (مريم بنت عمران)، وكفالة زكريا لها، وكيف نشأت مريم في طهر وعفاف في بيت المقدس، وكيف جاءها الملك جبريل عليه السلام حينما بلغت مبلغ النساء، ونفخ في جيبها وبشرها بعيسى نبياً ورسولاً.

قالوا: وقد كان عمرها نحواً من (١٣) سنة. والله أعلم.

قال الله تعالى في سورة (التحريم ٦٦):

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

٢ ــ قالوا: ولما أحست مريم بالحمل خشيت اتهام قومها لها بالزنى، فوافقت على خِطبة يوسف النجار لها، وقد كان هذا الرجل باراً صالحاً، من بيت داود من أبناء عمّها، متّقياً لله تعالى، يتقرب إليه بالصيام والصلاة، ويرتزق من عمل يديه في النجارة.

ثم إن مريم عليها السلام كاشفت يوسف خطيبها بما جرى لها، وبحملها بعد بشارة جبريل دون أن يمسَّها بَشَرٌ، فعزم هذا الرجل أن يترك خطبتها شكاً بأمرها، وبينما هو نائم إذا بملاك الله يوبخه قائلاً: لماذا عزمت على إبعاد امرأتك؟!

---

(١) حينما يذكر أهل الكتاب نسب عيسى عليه السلام يذكرون نسب يوسف النجار الذي كان خطيب مريم بنت عمران، ومعلوم أن عيسى ليس له أب، وإنما هو ابن مريم فقط، فنسبه نسب أمه. فما يذكره أهل الكتاب باطل، ومناقض لما يعتقدونه فيه. وبين النسب الذي أورده إنجيل متى، والنسب الذي أورده إنجيل لوقا ليوسف النجار المذكور فيهما أباً ليسوع «عيسى» اختلاف كبير، علماً بأن أناجيلهم تعترف بأن أمه حملت به من دون أب، وأن الملاك جاءها وبشرها به، كما جاء في القرآن المجيد. أما يوسف النجار: فقد كان شاباً صالحاً من شباب اليهود كما قالوا، وقد خُطبت لـه مريم عليها السلام بعد أن حملت بعيسى بنفخة جبريل.

اعلم أن ماكُوِّن فيها إنما كُوِّن بمشيئة الله، وستلد العذراء ابناً، وستدعونه (يسوع)، تمنع عنه الخمر والسكر وكل لحم نجس، لأنه قدوس الله من رحم أمه، وأنه نبيٌّ من الله، أُرسل إلى شعب إسرائيل ليحوّل يهوذا إلى قلبه، ويسلك إسرائيل في شريعة الرب كما هو مكتوب في ناموس موسى، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها له الله، وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين.

قالوا: فلما استيقظ يوسف من النوم شكر الله، وأقام مع مريم كل حياته خادماً لله بكل إخلاص[1]. والله أعلم.

٣ ــ قالوا: وكان (هيرودس) في ذلك الوقت ملكاً على اليهودية بأمر قيصر (أوغسطس)؛ فأمر (هيرودس) حكام البلاد وعماله فيها أن يسجلوا جميع أفراد الرعية الداخلين في مملكته؛ وذلك بناء على أمر قيصري ورد إليه من قيصر أوغسطس.

فذهب إذ ذاك كل إلى وطنه، وقدموا أنفسهم بحسب أسباطهم ليكتتبوا، وسافرت مريم عليها السلام ــ وهي حبلى ومعها يوسف النجار ــ من الناصرة إلى بيت لحم إحدى مدن الجليل ــ لأنها كانت مدينتها ــ وذلك ليكتتبا عملاً بأمر قيصر.

ولما بلغا بيت لحم لم يجدا فيها مأوى، إذ كانت المدينة صغيرة، وجماهير الغرباء كثيرة، فنزلا خارج المدينة في مكان متخذ مأوى للرعاة.

٤ ــ وفي هذه الأثناء، أتمت مريم أيام حملها وهي في بيت لحم، فأجاءها ــ ألجأها ــ المخاض إلى جذع نخلة قيل: يابسة، وقيل غير ذلك.

وتجسم في نفسها ما ستلاقيه من اتهام قومها، فقالت: «يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً». (٢٣ مريم/١٩).

«فناداها من تحتها» ــ وليدُها عيسى، أو المَلَك الذي رعى ولادتها ــ:

«أن لا تحزني قد جعل ربُّكِ تحتكِ سَرياً[2]. وهُزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك

---

(١) أخذاً مما جاء في إنجيل برنابا (الفصل الثاني) وغيره.

(٢) السري: هو النهر، قالوا: وقد أجرى الله لها جدولاً لتشرب منه بعد ولادتها. أو: هو الوجيه بين الناس، فيكون المراد عيسى عليه السلام. والأول أقرب أخذاً من تتمة الآية: «فكلي واشربي وقري عيناً». ولا مانع من حمل اللفظ على المعنيين معاً. والله أعلم.

رطباً جَنيّاً. فكلي واشربي وقري عيناً فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّاً». (٢٥ ــ ٢٦ مريم/١٩).

وضعت مريم العذراء البتول طفلها، وهزت جذع النخلة التي لا ثمر فيها كما قيل، فتساقط عليها من الجذع الرُّطَب الجنيُّ ــ الناضج ــ، فأكلت من الرطب، وشربت من النهر الذي أجراه الله لها في مكان لا نهر فيه، وكان كل ذلك إكراماً من الله لها، بمتابعة خوارق العادات التي رافقت حياتها رضي الله عنها، وحياة ابنها عبد الله ورسوله ﷺ.

قالوا: ولم تجد مريم مكاناً تضع فيه وليدها في المكان الذي نزلت فيه ــ المتخذ مأوى للرعاة ــ غير مذود للماشية «معتلف للدواب»؛ فوضعته فيه، وكان ذلك سرير طفولته عند الوضع عليه السلام.

قالوا: وكان ميلاد عيسى عليه السلام يوم الثلاثاء (٢٤) من كانون الأول.

٥ ــ حملت مريم وليدها الصغير، وأتت به إلى قومها تحمله، وجرى بينها وبين قومها ما يلي ــ أخذاً من القرآن المجيد ــ:

قوم مريم: «قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً». (٢٧ مريم/١٩).

أي: جئت شيئاً بدعاً من الإثم. أو جئت شيئاً عجيباً من أحداث الدهر.

«يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بَغِيّاً»[١]. (٢٨ مريم/١٩).

وأخذوا ــ على فسقهم وضلالاتهم الخاصة ــ يقولون عن مريم بهتاناً عظيماً.

مريم: «فأشارت إليه»، لائذة بالصمت، ناذرة للرحمن صوماً عن الكلام، أشارت إلى طفلها الصغير، ليجيبهم عنها ويبرىء ساحتها مما اتهموها به.

قوم مريم: «قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً»؟! (٢٩ مريم/١٩).

الصبي الصغير ــ المسيح عيسى عليه السلام ــ يُنطِقه الله، فيثبت براءة أمه، إذ يعلن

---

(١) يا أخت هارون: ذكر المفسرون في المراد من قول قومها لها: «يا أخت هارون» عدة وجوه:

(أ) منها تشبيهها برجل صالح في زمانها اسمه هارون، وكان هذا منهم على سبيل التهكم، بعد أن ظنوا بها ظنون السوء، بسبب حملها وهي خَليّة من زوج.

(ب) ومنها تشبيهها برجل فاسق في زمانها اسمه هارون، فقالوا لها ذلك تعريضاً بفسقها وزناها. ومنها غير ذلك. والله أعلم.

عن نبوته الآتية، ورسالته المقبلة، ويدلُّهم على أن مَنْ خَرق العادة فأنطقه في طفولته، قادر على أن يخرق العادة فيخلقه في رحم أمّه دون أن يمسها بشر.

«قال: إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً». (٣٠ ـ ٣٣ مريم/١٩).

وكان عيسى بن مريم وأمُّه آية من آيات الله للعالمين.

٦ ـ قالوا: ولـمَّا بلغ الطفل من العمر ثمانية أيام، حملته أمه مريم إلى الهيكل فخُتِن، وسمَّته (عيسى = يسوع) كما أمرها جبريل حين بشرها به.

والختان من سنن الفطرة، وشريعة إبراهيم عليه السلام، كما أنه من شريعة سائر الأنبياء والمرسلين من بعد إبراهيم عليهم السلام.

٧ ـ ونشأ عيسى عليه السلام في كنف أمه بعيدَيْن عن بيت لحم، في ربوة ـ بلدة مرتفعة ـ ذات استقرار وأمن، وماء معين.

قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):
﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾.

الربوة: المكان المرتفع. ذات قرار: ذات استقرار وأمن. معين: ماء طاهر صاف.

أما المراد من الربوة التي أشار إليها القرآن الكريم، فقد ذكر المفسرون فيه أربعة أقوال:

القول الأول: أن المراد بالربوة دمشق. وهذا القول مروي عن ابن عباس والحسن. كما رواه ابن عساكر وغيره[1].

القول الثاني: أن المراد بها الرملة من فلسطين.

القول الثالث: أن المراد بها بيت المقدس.

القول الرابع: أن المراد بها مصر.

وهذا القول يوافق ما جاء في إنجيل «متى» وإنجيل «برنابا»، في قصة أوردها تتلخص:

---

(١) من تفسير روح المعاني للآلوسي: أخرج وكيع وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: «إلى ربوة»: أُنبئنا أنها دمشق. وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام وعن يزيد بن شجرة الصحابي وعن سعيد بن المسيب وعن قتادة عن الحسن أنهم قالوا: (الربوة) هي دمشق. وفي ذلك حديث مرفوع أخرجه ابن عساكر.

بأن هيرودس أمر بقتل كل طفل في بيت لحم، فأُمر يوسف النجار في منامه بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر، فذهب بهما إليها، وأقاموا بها إلى أن هلك هيرودس، ولما هلك هذا الحاكم أُمر يوسف النجار في منامه أن يعود بالطفل وأمه إلى بلادهما، لأن اللذين كانوا يطلبون قتله قد هلكوا، فرجع بهما[1].

وكان عيسى حينئذٍ قد بلغ من العمر سبع سنين، وجاء بهما إلى اليهودية حيث سمع أن (أرخيلاوس) بن (هيرودس) هو الذي صار حاكماً في اليهودية؛ فذهب إلى الجليل لأنه خاف أن يبقى في اليهودية، وكانت إقامتهم في الناصرة، ونما في النعمة والحكمة أمام الله والناس. وإلى الناصرة ينسب (النصارى).

٨ ـ قالوا: ولمَّا بلغ عيسى عليه السلام اثنتي عشرة سنة من العمر، صعد مع أمه مريم وابن عمها يوسف النجار إلى أورشليم (بيت المقدس) ، ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى عليه السلام، ولما تمت صلواته تفقدوه فلم يجدوه، فانصرفوا إلى محل إقامتهم، ظانين أنه عاد مع أقربائهم، ولما وصلوا عائدين لم يجدوه، أيضاً، فرجعت أمه مع ابن عمها يوسف النجار إلى (أورشليم) ينشدانه بين الأقرباء والجيران، فلم يجدوه، وفي اليوم الثالث وجدوا الصبي عيسى في الهيكل وسط العلماء يحاجُّهم في أمر الناموس، وقد أُعجب كل الناس بأسئلته وأجوبته، وقالوا: كيف أُوتي مثل هذا العلم وهو حَدَث ولم يتعلم القراءة؟!

فلما رأته أمه مريم عنَّفته قائلة: يا بني ماذا فعلت بنا؟ فأجابها: «أَلَا تعلمين أن خدمة

---

(١) أما سبب أمر هيرودس بقتل كل طفل في بيت لحم، فقد انفرد بذكرها إنجيلا: «متى وبرنابا» أيضاً، وتتلخص: بأن ثلاثة من المجوس من المشرق ـ من علماء النجوم ـ كانوا يرقبون نجوم السماء، فبدا لهم نجم شديد التألق فجاؤوا إلى اليهودية يهديهم النجم، ولما وصلوا في طريقهم إلى أورشليم ـ «بيت المقدس» ـ سألوا أين ولد ملك اليهود؟ وسمع هيرودس ذلك فارتاع، فجمع الكهنة والكتبة وسألهم أين يولد المسيح؟ فقالوا له: في (بيت لحم). فأحضر (هيرودس) المجوس وسألهم عن مجيئهم، فقالوا: إنهم رأوا نجماً من المشرق هداهم إلى هناك، فجاؤوا بهدايا أحبوا أن يقدموها إلى ملك اليهود الذي ولد، فأمرهم أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن الطفل، وأن يعلموه به، فذهبوا إلى بيت لحم يهديهم النجم وتبركوا بالطفل، وقدموا له الهدايا، وخافوا على الطفل من هيرودس، فلم يرجعوا إليه بل ذهبوا إلى بلادهم، ولما لم يعودوا علم هيرودس أنهم سخروا منه، فأمر بقتل كل طفلٍ ولد في بيت لحم. هذا ما جاء في إنْجِيلَيْ: «متى وبرنابا»، والله أعلم بصحة هذه القصة، وإن لم تكن مصنوعة، فالظاهر أن عبارات ملك اليهود الواردة فيها محرفة عن نبي اليهود أو مخلصهم أو نحو ذلك، لأن عيسى عليه السلام لم يكن ملكاً، ولا سعى إلى الملك، وإنما كان نبياً رسولاً ومخلِّصاً عليه السلام.

الله يجب أن تقدم على الأم والأب»!! ثم نزل عيسى مع أمه وابن عمها يوسف النجار إلى الناصرة، قائماً بواجب البر والطاعة.

ويسكت التاريخ عما وراء هذه المرحلة من حياة عيسى عليه السلام، حتى بدأت نبوته ورسالته.

٩ ــ قالوا: ولما بلغ المسيح عيسى عليه السلام من العمر ثلاثين عاماً، جاء إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام، واعتمد منه في الأردن[1]، ثم نزل عليه روح القدس ــ جبريل عليه السلام ــ مثل حمامةٍ، ثم إنه بعد ذلك خرج إلى البرية، وصام فيها أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب.

قالوا: ولمّا علم المسيح عيسى عليه السلام بمقتل يحيى عليه السلام، جاء إلى الجليل وترك الناصرة، وسكن (كفر ناحوم)، وكان يعظ ببشارة ملكوت الله.

ونزل عليه الوحي بكتاب الله الإنجيل، وبأحكام من الشريعة. قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ومنذ ذلك الحين بدأت رسالة عيسى عليه السلام، وكان قد بلغ من العمر ــ كما سبق ــ ثلاثين عاماً.

١٠ ــ وسار المسيح عليه السلام يدعو إلى الله بمثل دعوة الرسل، في مجتمع يهودي، دخلت فيه انحرافات كثيرة عن الشريعة الربانية التي أنزلها الله على موسى، وأكدها الأنبياء والرسل الذين تتابعوا بعده من بني إسرائيل، كما دخلت إلى شريعتهم تحريفات كثيرة مسّت أصولها ونصوصها، وشروحها وأحكامها.

وأهاب عيسى ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى دين الله ويخلصوا له في العبادة، ويصححوا ما دخل إلى شريعتهم من تحريفٍ وتبديل، وقام يبلغهم أوامر الله ونواهيه كما كلفه الله، ويبلغهم ما أُنزل عليه من أحكامٍ تشريعيةٍ جديدةٍ، ومنها تحليل بعض ما كان محرماً عليهم في شريعة الله التي أنزلها على موسى عليه السلام والرسل من بعده، من الأحكام التي لم يكن

---

(١) أي غسله يحيى عليه السلام من نهر الأردن غسل التوبة، وهذا ما يسمى عند النصارى: «بالتعميد».

الحكمة من إنزالها في حينها إلّا العقوبة لليهود بسبب ظلمهم. قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

وقال تعالى في سورة(آل عمران ٣):

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

وأجرى الله على يد عيسى بن مريم المعجزات الباهرات تصديقاً لنبوته، وتأييداً لرسالته، كما سبق في مبحث معجزاته صلوات الله عليه.

واصطدم عيسى عليه السلام في دعوته بجدال (الصدوقيين)، وكانوا فرقة من اليهود تنكر اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، فأفحمهم بالحجة.

كما اصطدم عليه السلام بجدال الرؤساء الدينيين اليهود، المنحرفين في مفاهيمهم الدينية عن أصول الشريعة الربانية، وفي تطبيقاتهم العملية عن السلوك السوي، وهم يرتدون في مظاهرهم مسوح الرِّياء. فحاجّ عليه السلام الفريسيين «وهم المنقطعون للعبادة»، والكتبة «وهم الوعّاظ وكتّاب الشريعة لمن يطلبها»، والكهنة «وهم خدمة الهيكل»، وكانت حججه عليه السلام دامغة لهم، وكانت حججهم داحضة.

١١ ــ وصدّق عيسى عليه السلام طائفةٌ من بني إسرائيل، وكذّبه الأكثرون، وكان مِن ضمن مَنْ صدَّقه ولازمه: الحواريُّون (وهم أصحابه وتلاميذه المرافقون له)، وكانوا اثني عشر رجلاً، وهم:

١ ــ «أندراوس» ٢ ــ «بطرس الصياد = سمعان» ٣ ــ «متى العشار» ٤ ــ «يوحنا بن زبدي» ٥ ــ «يعقوب بن زبدي» ٦ ــ «يهوذا» ٧ ــ «برثولماوس» ٨ ــ «فيلبس» ٩ ــ «يعقوب بن حلفي» ١٠ ــ «يهوذا الأسخريوطي».

وأما الحادي عشر والثاني عشر فقد أوردهما (برنابا) كما يلي: «برنابا» و «تداوس».

لكن (متى) أوردهما كما يلي: «توما» و «سمعان الغيور المعروف بالقانوني». والكنيسة على

هذا الرأي الثاني، ويظهر أن اسمي «برنابا» و«تداوس» قد حُذفا من الحواريين الاثني عشر، لمخالفة ما عندهما لما اتفقت عليه المجامع الكنسية مؤخراً. والله أعلم.

ولبث عيسى عليه السلام يجاهر بدعوته، ويجادل المنحرفين من كهنة وكتبة وفريسيين، ويدلهم على الله، ويأمرهم بالاستقامة، ويبين فساد طريقتهم، ويفضح رياءهم وخبثهم، حتى ضاقوا به ذرعاً.

فاجتمع عظماء اليهود وأحبارهم فقالوا: إنّا نخاف أن يفسد علينا ديننا، ويتبعه الناس، فقال لهم قيافا ـ رئيس الكهنة ـ: لأَنْ يموت رجل واحد خير من أن يذهب الشعب بأسره، فأجمعوا على قتله، فَسَعَوا به لدى الحاكم الروماني[1]، وزينوا له شكواهم منه، وربما صوّروا له دعوة عيسى الدينية بصورةٍ سياسيةٍ تريد تقويض الحكم القائم! وزعموا له أن عيسى يسعى لأن يكون ملكاً على اليهود، وينادي بذلك! وما زالوا بالحاكم حتى حملوه على أن يقرر أن يتخلص من عيسى عليه السلام بقتله وصلبه؛ على طريقتهم التي كانوا يفعلونها فيمن يحكمون عليه بالقتل!!

وعلم عيسى عليه السلام بمكر القوم به، وعزم الحاكم على قتله، فاختفى عن أعين الرقباء، حتى لا يعرف مكان وجوده أعوان الحاكم فيقبضوا عليه، ولا أعداؤه من اليهود فيدلوا عليه.

١٢ ـ قالوا: ودخل المسيح إلى (أورشليم) على حمار، وتلقاه أصحابه بقلوب النخل، فقال المسيح لأصحابه: إن بعضكم ممن يأكل ويشرب معي يسلمني.

ثم جعل يوصي أصحابه ويقول لهم: (قد بلغت الساعة التي يتحول ابن البشر إلى أبيه[2]، وأنا أذهب إلى حيث لا يمكنكم أن تجيؤوا معي، فاحفظوا وصيتي: فسيأتيكم الفارقليط[3] يكون معكم نبيّاً، فإذا أتاكم الفارقليط بروح الحق والصدق، فهو الذي يشهد علي، وإنما كلمتكم بهذا كيما تذكروه إذا أتى حينه، فإني قد قلته لكم. فأما أنا فإني ذاهب إلى من أرسلني. فإذا ما أتى روح الحق، يهديكم إلى الحق كلِّه، وينبئكم بالأمور البعيدة،

---

(١) قالوا: وكان قائد قيصر على اليهود «بيلاطس البنطي»، وهو الذي سعى اليهود عنده على عيسى عليه السلام.

(٢) كلمة الأب: تطلق مجازاً على الرب في نسخ الأناجيل، كما تطلق عندهم على كل ذي احترامٍ عظيم.

(٣) سبق تحليل أصل هذه الكلمة عند الكلام على البشائر بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل. انظر الصفحة (٢٩١).

ويمدحني، وعن قليل لا ترونني! ثم رَفع المسيح عينه إلى السماء وقال: حضرت الساعة، إني قد مجّدتك في الأرض، والعمل الذي أمرتني أن أعمله فقد تممته)[1].

ثم مضى المسيح مع تلاميذه إلى المكان الذي يجتمع هو وأصحابه فيه، وكان «يهوذا بن سمعان الأسخريوطي» ـ أحد الحواريين ـ يعرف ذلك الموضع، فلمّا رأى الشُرَط يطلبون المسيح دلّهم على مكانه مقابل دريهماتٍ معدوداتٍ جعلوها له ـ قالوا: وكانت ثلاثين درهماً ـ ؛ فلما دخلوا المكان الذي فيه المسيح، ألقى الله شبهه على مَنْ دَلّهم على مكانه من الحواريين وهو «يهوذا الأسخريوطي»، فاحتملوا الشبه وصلبوه وقتلوه وهم يظنونه عيسى عليه السلام، ورفع الله سيدنا عيسى إليه!!

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

وكان عمر عيسى حين رفعه الله إليه (٣٣) سنة، فمدة دعوته كانت ثلاث سنين.

قالوا: ثم أنزله الله بعد رفعه بنحو ثلاثة أيام، ليبين للحواريين أنه رفع إلى السماء، ولم يقتل ولم يصلب وإنما شُبِّه لهم، وليأمرهم بتبليغ رسالته في النواحي والأقطار.

فاجتمع بأمِّه وخفَّف أحزانها، وبين لها حقيقة الأمر.

ثم اجتمع بالحواريين وبيَّن لهم أن الله رفعه إلى السماء، وأمرهم أن ينتشروا في الأقطار يدعون إلى الله ويبلغون الرسالة التي تلقوها عنه عليه السلام. فاستجابوا لأمره، وذهب كل واحد منهم إلى جهة، وظلوا يدعون إلى الله سراً، وانتشرت الديانة المسيحية عن طريق الدعوة السِّرية، حتى هيأ الله لأتباعها أن يعلنوا دينهم بعد نحو ثلاثة قرون من رفع عيسى عليه السلام.

(ب) وقد جاء في القرآن المجيد عرض لقطات مهمّات من قصة عيسى عليه السلام في اثنتي عشرة سورة.

وأبرز ما جاء فيها ما يلي:

١ ـ بيان ظاهر ولادته من أمّ دون أبٍ، بخارقة عجيبة من خوارق العادات، رافقتها كرامات لمريم أمّه، وأنّه قد تمّ علُوقه في رحم أمّه بنفخة الملك وهو جبريل عليه السلام.

---

(١) أخذاً من تاريخ اليعقوبي.

٢ ــ بيان أنّ هذه الظاهرة العجيبة حدثٌ هيّنٌ بالنسبة إلى قدرة الرّب الخالق، وذلك لا يُخرِج عيسى عليه السلام عن كونه عبداً لله، ومخلوقاً من مخلوقاته، وأنَّ مثله كمثل آدم الذي خلقه الله من تراب، دون أب ولا أمّ.

٣ ــ بيان تكلّمه وهو في المهد طفل رضيع، فبرّأ أمه، وأبان أنّه بَرٌّ بها، وأنبأ بأنّ الله عزّ وجل جعله نبيّاً، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيّاً، ولم يجعله جبّاراً شقيّاً.

٤ ــ بيان أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم أمه، وروحٌ منه، وأنّ الله أوحىٰ إليه، وبعثه رسولاً مصدّقاً لما بين يديه من التوراة، ومبشّراً برسول يأتي من بعده اسمه: أحمد.

٥ ــ بيان أنّه دعا بني إسرائيل إلى الإيمان به، وبما جاء من عند ربّه، وأنّ الله عزّ وجلّ قد آتاه كتاباً خاصّاً هو «الإنجيل»، وأنّ ممّا جاء به أن يُحلّ لبني إسرائيل بعض الذي حُرّم عليهم.

٦ ــ بيان أنّ الله قد آتاه من الآيات الخوارق المعجزات ما يلي:

- إحياء الموتى بإذن الله.
- إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.
- أن يصوّر من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.
- أن ينبئهم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم تنبُّؤاً غيْبيّاً.

٧ ــ بيان أن الله عزّ وجلّ أيّده بروح القدس، وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

٨ ــ بيان استجابة فريق من بني إسرائيل لدعوته، وكان له فيهم حواريّون نوّه الله بشأنهم.

٩ ــ بيان مكيدة اليهود بشأن محاولاتهم التحريض على قتله، ثمّ تفاخرهم بأنهم قتلوه، مع بيان أنّ الله نجّاه ورفعه إليه، وأنّهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم.

١٠ ــ بيان طلب الحواريين منه أن ينزّل الله عليهم مائدة من السماء، ثم دعاء عيسى ربّه أن يستجيب لطلبهم.

١١ ــ بيان أنه أمارة من أمارات الساعة، إشارةً إلى نزوله من السماء إلى الأرض وقت ظهور أشراط الساعة الكبرى.

١٢ ــ بيان سؤال الله له بعد رفعه: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلٰهين من دون الله، وتبرُّؤه عليه السلام من ذلك، وقوله لربّه: إنْ كنتُ قلتُه فقد علمتَهُ تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك.

إلى غير ذلك من تفصيلات.

(٢٥)

«سيدنا محمد ﷺ»

هـو خاتم رسل الله وأنبيائه، وقد أرسله الله إلى الناس كافةً، برسالةٍ عامةٍ شاملةٍ.

قال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

وقال تعالى خطاباً لنبيه محمد ﷺ في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

* **نسبه الشريف ﷺ:**

هو سيدنا (محمد)، واسمه في الإنجيل (أحمد).

١ ــ (ابن عبد الله)، وهو أصغر أولاد عبد المطلب العشرة.

٢ ــ (ابن عبد المطَّلب) ــ واسمه (شيبة الحمد) لأنه ولد وله شيبة ــ وإنما قيل له: عبد المطلب، لأن عمه المطَّلب أردفه خلفه وكان بهيئة رثة لفقره، فقيل له: من هذا؟ فقال: عبدي، حياء ممن سأله!!

٣ ــ (ابن هاشم) ــ واسمه (عمرو) ــ وسمي هاشماً: لأنه خرج إلى الشام في مجاعة شديدة أصابت قريشاً، فاشترى دقيقاً وكعكاً، وقدم به مكة في الموسم، فهشم الخبز والكعك، ونحر جُزُراً وجعل ذلك ثريداً، وأطعم الناس حتى أشبعهم.

٤ ــ (ابن عبد مناف) ــ واسمه (المغيرة) ــ وكان يقال له: (قمر البطحاء) لحسنه وجماله، ومناف: اسم صنم.

٥ ــ (ابن قصيّ) ــ واسمه (زيد) ــ ولقب بقصي: لأنه أُبعد عن أهله ووطنه مع أمه بعد وفاة أبيه. ويقال له: (مُجمّع) لأن الله جمع به القبائل من قريش في مكة بعد تفرقها.

٦ ــ (ابن كلاب) ــ واسمه (حكيم)، وقيل: (عروة) ــ ولُقِّب بكلاب: لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب.

٧ ــ (ابن مُرّة) وهو الجد السادس لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٨ ــ (ابن كعب) وقد كان يجمع قومه يوم العروبة ــ أي: يوم الرحمة، وهو يوم الجمعة ــ فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، وينبئهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه.

٩ ــ (ابن لؤي) ولؤي تصغير لأي، وهو الثور الوحشي.

١٠ ــ (ابن غالب).

١١ ــ (ابن فهر) وكان كريماً يفتش عن ذوي الحاجات فيحسن إليهم، وفهر: اسم للحجر على مقدار ملء الكف.

١٢ ــ (ابن مالك).

١٣ ــ (ابن النَّضْر) وهو (قريش) فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. والنضر في اللغة: الذهب الأحمر. وقيل: قريش هو فهر بن مالك.

١٤ ــ (ابن كنانة).

١٥ ــ (ابن خزيمة).

١٦ ــ (ابن مُدرِكة).

١٧ ــ (ابن إلياس) وكان في العرب مثل لقمان الحكيم في قومه.

١٨ ــ (ابن مُضَر) وكان جميلاً لم يره أحد إلاَّ أحبه، وله حِكَمٌ مأثورةٌ. والمضر في اللغة: الأبيض. ومضر من ولد إسماعيل باتفاق جميع أهل النسب.

١٩ ــ (ابن نِزار) وكان أجمل أهل زمانه، وأرجحهم عقلاً. ونزار في اللغة مأخوذ من النزارة، وهي القلة.

٢٠ ــ (ابن مَعَدّ) وقد كان صاحب حروب وغارات، ولم يحارب أحداً إلاَّ رجع بالنصر. ومعدٌّ: مأخوذ من تمعدد، إذا اشتد وقوي.

٢١ ــ (ابن عدنان).

وعند عدنان يقف ما صحَّ من سلسلة نسب الرسول ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما بلغ نسبه الكريم إلى عدنان قال: (من ههنا كذب النسّابون).

وكان هؤلاء الجدود سادة في قومهم، قادةً أطهار، ونسب الرسول ﷺ أشرف الأنساب.

ولا يختلف النسّابون في نسب سيدنا محمد ﷺ إلى عدنان، وإنما اختلفوا من عدنان إلى إسماعيل، ومن المجمع عليه ــ الحقّ الذي لا ريب فيه ــ : أن نسبه عليه الصلاة والسلام ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وأمه ﷺ: هي آمنة بنت وهبٍ بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة. . . وهكذا حتى آخر سلسلة نسب الرسول صلوات الله عليه؛ فتجتمع هي وزوجها عبد الله في «كلاب».

ورسول الله ﷺ خيار من خيار من خيار.

فعن العباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثـمّ تخيَّر القبائل فجعلني من خير قبيلةٍ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً».

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

* حياته ﷺ:

١ ــ ولد سيدنا محمد ﷺ يوم الاثنين (١٢) من شهر ربيع الأول عام الفيل، وذلك حوالي سنة (٥٧٠م)، أي قبل الهجرة بنحو (٥٣) سنة.

٢ ــ وتزوج بخديجة لما بلغ من العمر (٢٥) سنة.

وأوحى الله إليه لما بلغ عمره أربعين سنة، وذلك حوالي سنة (٦١٠م).

٤ ــ وأمره الله بتبليغ ما أُنزل إليه بعد نحو ثلاث سنين من نبوته، فقام يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولبث يدعو إلى الله في مكة وما حولها نحواً من عشر سنين بعد بعثته، حتى أذن الله له بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة).

٥ ــ فهاجر إليها وجعلها مركز دعوته، وعاصمة دولته الدينية، دولة الإسلام، وكان ذلك في ١٢ من ربيع الأول للسنة الأولى من حساب السنوات الهجرية، التي يوافق أولها (١٦ تموز ٦٢٢م).

٦ ــ ولما أكمل الله للناس دينهم، وأتم عليهم نعمته، وأدى رسوله محمد صلوات الله عليه الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وفتح الله عليه بالنصر المبين، اصطفاه الله فقبض روحه، وكان ذلك في يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول لسنة ١١ من الهجرة، الموافق لـ (٧ حزيران ٦٣٢م). هذا ما عليه الجمهور، واستشكل كونه يومَ الاثنين إذ كان يوم عرفة في حجة الوداع يوم الجمعة باتفاق فلا يكون الثاني عشر من ربيع الأول يوم الاثنين، وعليه فإمّا أن يكون الخطأ في تعيين اليوم، أو في تحديد التاريخ.

٧ ــ وأما سيرته وغزواته وسائر ما يتعلق بحياته فمبسوطة محققة في كتب السيرة النبوية؛ وقد تعرض القرآن الكريم إلى القسم الأعظم من حياته ﷺ بعد الرسالة، والعقيدة الإسلامية

التي نحن بصدد البحث فيها بأصولها وفروعها؛ هي الفلسفة الكاملة للجانب الإيماني الاعتقادي مما جاء نا به هذا الرسول العظيم.

* **خاتمة الفصل السادس:**

إذا تأملنا في موجز تاريخ هؤلاء الرسل الذين قص الله علينا قصصهم، وفي ترابط أنسابهم وتتابع بعثاتهم، نلاحظ الأمور التالية:

١ ـ أن الله قصَّ علينا من رسل المدة الواقعة بين (آدم عليه السلام) و (نوح عليه السلام) بعض ما يتعلّق بالرسول (إدريس عليه السلام) فقط؛ وسكت عن غيره ممن أرسل من رسل.

٢ ـ أن الله قصَ علينا من الرسل الذين بعثهم بعد نوح عليه السلام الرسلَ الذين انحدروا من سلالة سام ولد نوح.

٣ ـ أن الرسل الثلاثة (هوداً) و (صالحاً) و (شعيباً) عليهم السلام، قد أُرسلوا إلى أقوامٍ عربيةٍ، وقد بادت هذه القبائل بإهلاك الله لهم، إلاَّ من آمن منهم، وما آمن منهم إلاَّ قليلٌ.

وأن هوداً وصالحاً عليهما السلام: كانا عربيين، من العرب التي تسمى عرباً بائدةً.

وأن شعيباً عليه السلام ـ فيما يظهر ـ: قد نشأ نشأة عربيةً، في قبيلةٍ عربيةٍ، وأرضٍ عربيةٍ، وأن نسبه يتّصل بإبراهيم عليه السلام.

٤ ـ أن (إبراهيم عليه السلام) من سلالة سام بن نوح، وأنه عمّ (لوط عليه السلام).

٥ ـ أن باقي الرسل من الخمسة والعشرين ـ وعددهم (١٨) رسولاً ـ هم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وأن جميع الأنبياء الذين بُعثوا من بعده هم من ذريته، لقوله تعالى في معرض الحديث عنه: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾. (٢٧ العنكبوت/٢٩).

ولئن كنا نلاحظ أن القرآن الكريم أدرج لوطاً في ضمن ذرية إبراهيم في آيةٍ (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه... الآية وما بعدها)؛ فالذي يظهر أنه لوحظ فيه أنّ عمّ الرجل يطلق عليه أب عند العرب في باب التكرمة، وفي مقام التغليب.

أما إسماعيل: فقد نشأ في مكة، وتزوّج عربية من جُرْهُم، ثم كان من سلالته خاتم النبيِّين والمرسلين (محمد ﷺ).

٦ ـ أن إبراهيم عليه السلام قد أكرمه الله بولدين رسولين هما: (إسماعيل) و(إسحاق).

أما إسحاق: فقد نشأ في الشام وولد لـه ولدان (عيص = عيسـو) و (يعقوب = إسـرائيل عليه السلام).

وقد ظهرت النبوة في سلالة «عيص» في الرسولين: (أيوب) وولده (ذي الكفل).

وأمـا يعقوب: فقـد كثرت في ذريتـه النبوة، وفي ذريتـه ظهر جميـع أنبيـاء بني إسرائيـل. ومعلومٌ أن يعقـوب عليه السـلام ولد لـه اثنـا عشر ولـداً هم أسبـاط بني إسـرائيـل؛ أحـدهم (يوسف عليه السلام).

وأما باقي الأسباط:

فقد ظهرت النبوة في سبط لاوي في (موسى عليه السلام) وأخيه (هارون عليه السلام)، وفي (إليـاس عليه السـلام) الذي يتصـل نسبه بهـارون، وكذلـك (اليسع عليـه السـلام) عـلى ما قيل، وقيل: يتصل نسبه بأفرايم بن يوسف عليه السلام.

وظهـرت النبوة في سبط يهـوذا في (داود عليه السـلام) وابنـه (سليمـان عليـه السـلام)، كـما ظهرت في (زكـريا عليـه السلام) وابـنـه (يحيـى عليه السـلام) المتصل نسبهـما بـداود، ثم ظهرت أخيراً في (عيسى) المتصل نسب أمه بداود أيضاً.

وظهرت النبوة في سبط بنيامين في (يونس عليه السلام) كما قيل.

٧ ـ أن رسـالات هؤلاء الرسـل واحدةٌ في جـوهرهـا وأصولهـا وعقائـدها، متكاملةٌ في شـرائعها، يُتَمِّم المتـأخـر منهـا شـرائـعَ المتقـدم، حسب تـزايـد حـاجـات البشر الاجتمـاعيـة والاقتصادية والسياسية. وأن الرسول كان يُرسَـل لأمةٍ بعينهـا إلاَّ محمداً صلوات الله عليـه فإنـه أرسل للناس جميعاً، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

٨ ـ أن مـوسى كـان رسـولاً وقـائـداً في قـومـه، يسـوسهم في جميـع أمـورهم الـدينيـة والدنيوية.

٩ ـ أن داود وسليمان كانا رسولين مَلِكين، قد آتاهما الله الملك والنبوة.

١٠ ـ أن أيوب كان واسـع الغنى أميراً محسناً، وكذلك ابنه ذو الكفل من بعده.

١١ ـ أن زكريا ويحيى وعيسى وإلياس قد امتازوا بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها.

١٢ ـ أن إسماعيل واليسـع ويونس ولوطاً كانوا على وسط من الأمـر، فلم يكن لهم في الدنيا ملكٌ ولا سلطان، كما لم يكن لهم مبالغة في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها.

١٣ ــ أن من الرسل من كانوا أولي عزم في الدعوة، وتحمل مسؤولية الرسالة، سواء فيما بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس، وأن منهم من لم يكن له العزم الأتم الأكمل. قال تعالى يخاطب رسوله محمداً صلوات الله عليه في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴿٣٥﴾﴾.

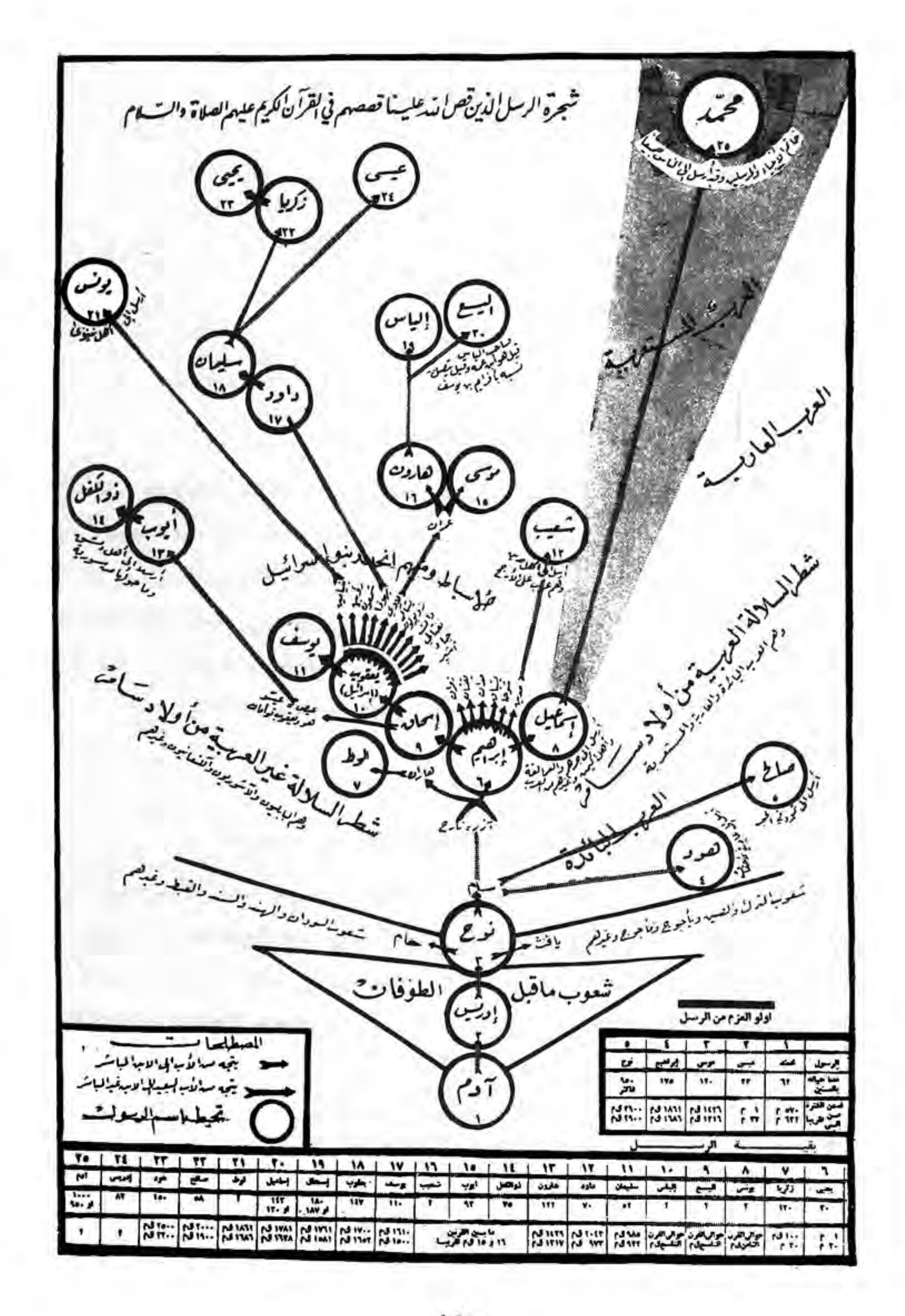
وقد اختلف العلماء في عددهم وفي تعيينهم، وأصح الأقوال أنهم خمسة، وهم: «نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد» عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم.

وقد خاطب الله محمداً أن يقتدي بمن سبقه من أولي العزم، ويصبر كصبرهم، ففعل، وجمع مختلف أنواع الصبر الذي صبروه، فكان أحقهم بالدرجة الأولى في العزم، كما هو عليه الصلاة والسلام أحقهم بالدرجة الأولى في كل كمال.

١٤ ــ أن الرسل عليهم السلام كانوا على مراتب ودرجات في الأفضلية عند الله، يشهد لذلك سِيَرُ حياتهم، وقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿٢٥٣﴾﴾.

□ □ □



اولو العزم من الرسل

	١	٢	٣	٤	٥
الرسول	محمد	عيسى	موسى	إبراهيم	نوح
مدة حياته بالسنين	٦٣	٣٣	١٢٠	١٧٥	٩٥٠ فأكثر
زمن الفترة من - إلى تقريبا	٥٧٠ م ٦٣٢ م	١ م ٣٣ م	١٤٣٦ ق.م ١٣١٦ ق.م	١٨٦١ ق.م ١٦٨٦ ق.م	٣٩٠٠ ق.م ٢٩٠٠ ق.م

بقية الرسل

٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
يحيى	زكريا	يونس	اليسع	إلياس	سليمان	داود	هارون	ذو الكفل	أيوب	شعيب	يوسف	يعقوب	إسحاق	إسماعيل	لوط	صالح	هود	إدريس	آدم
٣٠	١٢٠	؟	؟	؟	٥٢	٧٠	١٢٢	٧٥	٩٣	؟	١١٠	١٤٧	١٨٠ أو ١٨٧	١٣٧ أو ١٣٠	؟	٥٨	١٥٠	٨٢	١٠٠٠ أو ٩٥٠
١ م ٣٠ م	١٠٠ ق.م ٣٠ م	حوالي القرن الثامن ق.م	حوالي القرن التاسع ق.م	حوالي القرن التاسع ق.م	٩٨٥ ق.م ٩٣٣ ق.م	١٠٤٣ ق.م ٩٧٣ ق.م	١٤٣٩ ق.م ١٣١٧ ق.م	ما بين القرنين ١٦ و ١٥ ق.م تقريبا			١٦١٠ ق.م ١٥٠٠ ق.م	١٧٠٠ ق.م ١٦٥٣ ق.م	١٧٦١ ق.م ١٥٨١ ق.م	١٧٨١ ق.م ١٦٣٨ ق.م	١٨٦١ ق.م ١٦٨٦ ق.م	٢٠٠٠ ق.م ١٩٠٠ ق.م	٢٥٠٠ ق.م ٢٢٠٠ ق.م	؟	؟

الفصل السّابع

تعدّد الرّسالات السّماوية ووحدة أصولها وتكاملها وختمها برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام

(١)
الحكمة من تعدد الرسل

لما كانت أمم الأرض في القرون الأولى على شكل شعوب وقبائل متفرقة، منعزلة عن بعضها في نواحي الأرض، وكانت هذه الشعوب والقبائل بحاجة ماسة إلى منبه ينبهها، ومنذر ينذرها، ومصلح يهذبها، فقد اقتضت حكمة الله ــ وهو الحكيم الخبيرــ أن يرسل إلى هذه الأمم في قراها وبواديها وحواضرها المنعزلة رسلاً مبشرين ومنذرين، لئلا يكون لهم حجة بالجهل والغفلة، وكان هؤلاء الرسل بمثابة السفراء الذين يحملون مهمة واحدة، ذات أسس ومبادىء واحدة، فيمثلون إرادة مرسِلهم بها، ويبلغون كتبه، ويؤدون رسالته.

(٢)
وحدة الرسالات السماوية في أصولها

ولذلك نرى أن أسس رسالات الرسل ومبادىء دعوتهم واحدة، لأنهم رسل مرسِل واحد، فلا خلاف في العقائد التي دعوا إليها، ولا خلاف في روح العبادات التي أُمروا بها، كما لا خلاف في مبادىء التعامل المادي والأخلاقي والسياسي التي نادوا بها. وما نراه الآن من البَوْن الشاسع في المعتقدات، بين أتباع رسالات ربانية صحيحة الأصل، فإنما ذلك من التحريف والتبديل الذي دخل إلى مبادىء هذه الديانات من أتباعٍ ذوي غايات سيئة، حرفوا وبدّلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة. ولو أن هذه الديانات السابقة بقيت على أصولها من غير تحريف، لالتقى مُتّبعوها بصدق مع المسلمين التقاءً تاماً، ولكان أتباع الديانات السماوية كلُّهم أتباع ملة حنيفية واحدة، تعمل بالمنهج التشريعي الذي ختم الله به رسالات السماء، وأنزله على محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ولئن كنّا نرى بعض اختلاف في أحكام الشرائع السماوية من رسالة إلى أخرى في الحلال والحرام، وفي صور العبادات بحسب أصولها الصحيحة، فإنما يرجع ذلك إلى الحكمة الدقيقة في موافقة وضع كل أمة لأساليب تربيتها وإصلاحها، وامتحان طاعتها وامتثالها لأوامر الله ونواهيه، وذلك بالنظر إلى بيئة تلك الأمم، ومستوى عاداتها وتقاليدها، وثقافاتها ومفاهيمها الاجتماعية، وبالنظر إلى إمكانات التطوّر لدَيها من وضع إلى آخر، بحسب مستوى تخلفها الفكري والاجتماعي والخلقي.

يضاف إلى ذلك أن صور العبادات الممكنة في الاحتمال العقلي كثيرة، ولا بد من تحديد بعضها ليتوجه به التكليف الإلّهي. ولله تعالى أن يختار منها في تكليف عباده ما يشاء، ويكون بحكمته ضمن حدود استطاعتهم، وله أن يستبدل غيره به في الشريعة الواحدة نفسها، أو يجعل في إحدى الشرائع صورة منه، وفي شريعة أخرى صورة أخرى. فكثير من صور التكليف متساوية من حيث اختبار المكلَّف في طاعته أو معصيته، ولا حَجْر على الباري تعالى في اختيار بعضها دون بعض، أو في التنويع في الاختيار بين الشرائع، أو في النسخ والتبديل في شريعة واحدة. وعلى المكلَّف في كل ذلك أن يلتزم الصور التي حدَّدها الله له، أو أذن له بها، مهما أمره أو نهاه أو أباح له، ومتى التزم ذلك أثبت أنه أهل لما منحه الله إياه من عقل وإرادة وقدرة على العمل؛ بنتيجة الابتلاء والامتحان الإلّهي في مجال الحياة الدنيا.

(٣)
فلسفة تكامل الرسالات

ونلاحظ أن حكمة الله العالية قد راعت في تنزيل الرسالات السماوية تطور الأمم في الأرض، من أمم بدائية محدودة العلاقات فيما بينها، منعزلة في قراها المتنائية، لا تجمع بينها صلات تجاريّة أو ثقافية أو سياسية، إلى أمم متحضرة متعلمة، تربطها ببعضها مختلف الصلات التجارية والثقافية والسياسية، وتقرِّب بين بلادها وحواضرها وسائل المواصلات السريعة، التي اختصرت الشهور إلى ساعات من ليل أو نهار، وذلّلت مختلف الصعاب في الأنجاد والأغوار، وركبت الماء والهواء، واستخدمت النار والكهرباء، إلى غير ذلك من مكتشفات من قوى الكون وطاقاته الكمينة.

ولذلك نلاحظ أن لوائح التنظيم التشريعي في رسالات السماء قد تختلف من أمة إلى أمة؛ في صورها وأشكالها لا في روحها ومعناها، وذلك بالنظر إلى اختلاف حاجات الأمم لأنواع الإصلاح والتوجيه. فمثلاً: قد تكون سيئاتُ إحداها التطفيفَ في المكيال والميزان، وهي بحاجة إلى توجيه خاص يصلح هذه السيئة، بينما تكون سيئاتُ أخرى عملَ الفواحش،

وسيئات ثالثة الظلم والعدوان وقتل الأنفس بغير حق، ومطالب أمة رابعة نظاماً قانونياً ينظم علاقات الناس التجارية، أو قانوناً ينظم علاقات الناس السياسية في السلم والحرب، وهكذا. . . وكل هذا في هذه الأمم المنعزلة يتطلب توجيهاً خاصاً، ولوائح تشريعية ذات طابع خاص، كما يدعو في هذه البيئات المحصورة المنعزلة أن تكون أحكامها وشرائعها التي يحملها الرسول المرسل إليها مما يناسب واقع علاقات هذه الأمم وأوضاعها؛ سواء في الأسلوب، أو في موضوع الأحكام والشرائع، دون زيادة عن الحاجة، وبالطريقة التي تضمن أفضل وسائل العلاج لتلك الأمة.

فإذا ألقينا ــ مثلاً ــ نظرة على الشعوب البدائية التي لا تعرف من وسائل عيشها غير غنيمات ترعاها، فتشرب من لبنها، وتأكل من لحمها، وتلبس من جلودها، وتعيش في قراها أو بواديها التي تفيض خيراتها عن حاجاتها، نرى أن جلَّ حاجاتها من أحكام الشرائع والقوانين: مبادىء العقائد وأسس العبادات، وجملة من الأخلاق، ونزر يسير من أحكام المعاملات. ثم نرى أنه من العبث بمكان بالنسبة إلى هؤلاء المنعزلين، الذين لا يدرون شيئاً عن مشاكل التجارة والصناعة والسياسة، أن يحمل إليهم نظام شامل عام، يبين القوانين المنظمة لصور البيوع والرهون والشركات، والعلاقات الدولية السياسية وغير السياسية، ونحو ذلك، وهم لا يدرون في واقع حالهم من هذه المعاملات شيئاً!!

(أ) كل هذه النظرات مما يفسر لنا الحكمة من تدرج الشرائع السماوية، وتوسع حلقات أنظمتها، من مجموعة من رسل سابقين إلى جملة من رسل لاحقين، حتى خاتمة الرسالات السماوية.

(ب) ومما يكشف لنا عن وجه الحكمة الربانية العظيمة، في تنبيه شعوب الأرض على واجبها، بحسب مستوياتها، وذلك على ألسنة الرسل.

(ج) ومما يوضح لنا أيضاً وحدة الرسالات السماوية، في تاريخ الأرض، بأسسها ومبادئها وغاياتها. كما يوضح تناسقها فيما بينها، وتكامل السابق منها باللاحق، بطريقة تدريجية رائعة، حتى كان إتمامها وختمها برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

(٤)

ختم النبوات والرسالات بمحمد ﷺ

وتطبيقاً لمقتضى هذه الحِكَم الرفيعة الآنفة الذكر، رأينا في تاريخ الأمم أنها لما أصبحت في وضع من الصِّلات الاجتماعية يمكّنها من أن يكون لها خطوط مواصلات تجارية بين

مجموعات من سكان الأرض؛ في قارة واحدة أو في قارتين، واتسعت علاقاتها الاقتصادية والسياسية والثقافية، لما أصبح وضع أمم الأرض كذلك اتسعت مهمة الرسل. فبعث الله ــ مثلاً ــ في آسيا وأفريقية رسولاً ذا شأن في معجزاته، ودلائل رسالته، وحمّله دعوة كبرى، وأنزل عليه كتاباً يحوي جملة من الأحكام والشرائع التي تتناول كثيراً من علاقات الناس، وذلك هو «سيدنا موسى عليه السلام». ثم أتبعه الله بكثرة من أنبياء بني إسرائيل، في أزمان متتابعة، تأييداً لشرائعه، وتمكيناً لدعوته، وتتميماً لفروع رسالته، وختمهم بعيسى عليه السلام، في الوقت الذي أصبح العالم فيه قد بدأ يتقبل دعوة إنسانية عالمية، ورسالة موحدة، تنتشر في أمم الأرض، وتمتد إلى الشرق والغرب، على الرغم من سِريَّة دعوتها، وتكتُّم دعاتها.

وعلى فترة من الرسل، وفي الزمن الذي أصبحت فيه خطوط المواصلات للقوافل التجارية تصل بين أكثر بلاد المعمورة، وفي الأرض التي هي بمثابة المنتصف تقريباً بين البلاد الآهلة بالناس، وفي الوقت الذي نما فيه الوعي البشري إجمالاً، حتى أصبح يتقبل وحدة دينية عالمية شاملة الأحكام، وبالنظر إلى ممارسة البشر لمختلف العلاقات الاقتصادية والثقافية، وبالنظر أيضاً إلى اتساع ثروة المعاني والمفاهيم لديهم، التي رافقها اتساع الثروة اللغوية في حقيقتها ومجازها، حتّى أصبح في المستطاع الإشارة إلى أي معنى من المعاني الإنسانية الدقيقة، بعبارة لغوية معروفة الدلالة بَيِّنة الأسلوب.

في جملة كل هذه الملابسات اقتضت الحكمة أن يرسل الله سبحانه رسوله الإنساني العالمي؛ الذي له صلة قرابة بالرسل، برسالة إنسانية عالمية، يختم بها الرسالات السماوية، تحمل في طياتها أسس النظام الكامل للبشر، على اختلاف بيئاتهم، وتنوُّع علاقاتهم، وتباين تقاليدهم وعاداتهم، في أمة متقشفة متعطشة للتوحد والتحرر، لها جَلَد وصبر على اجتياز الصحارى والقفار، وبلغة دقيقة التعبير، مختصرة الأسلوب، فصيحة الحروف.

لقد اقتضت الحكمة كل ذلك، فأرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عربيّ النسب واللِّسان، إنسانيّ الدعوة، عالميّ الدين؛ برسالة هي خاتمة رسالات السماء، والجامعة لجميع شرائع الله للناس، والتي تضمن مصالحهم على شكل أكمل من أيّ نظام أو تشريع، كما تضمن سعادتهم على وجه أسمى من كل سعادة يمكن أن يحققها أيّ نظام أو تشريع.

وقد تكفل سبحانه لهذه الرسالة بالحفظ والتأييد، وأنزل لها كتاباً مبيناً غير ذي عوج، من لدن حكيم خبير، ولذلك شهد الله لرسالة محمد بأنها عامة شاملة للناس أجمعين، في قوله تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ولما كانت رسالته عامة شاملة، وقد تكفل الله بحفظها من التحريف والتبديل والضياع، بحفظ كتابه القرآن وحفظ سنة رسوله، فقد صحَّ أن تختم بها الرسالات السماوية.

ومن ذلك فقد ختم الله سبحانه بنبوة نبيِّهِ محمد ﷺ الذي أرسله إلى الناس كافة جميع النبوات، وختمُ النبوةِ ختمٌ للرسالة لأن كل رسول نبي كما سبق.

وقد أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة محمد في قوله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

ومن البدهي الذي لا يقبل الاعتراض أن استمرار بقاء القرآن، الحاوي بشرائعه وأحكامه أسس مطالب البشر التشريعية كلِّها محفوظاً كما أُنزل على محمد؛ مع استمرار بقاء سيرة الرسول، وسنته المبيِّنة لمعاني القرآن صحيحة ثابتة، هو بمثابة استمرار وجود الرسول فينا على قيد الحياة.

وبهذا يصح لنا أن نقول: إن رسول الله موجود بيننا بما أُنزل عليه من قرآن ووحي، وبما أُثر عنه من بيان وعمل وتشريع.

وبذلك فقد أصبح العالم بغُنْيَةٍ عن بعث أنبياء، وإرسال رسل، وتجديد شرائع للناس بعد محمد صلوات الله عليه، لأنه لو بعث الله رسلاً وأنبياء فلن يُحدِثوا شيئاً، ولن يزيدوا على ما جاء به الرسول محمد من أسس في العقيدة أو في التشريع، فقد أكمل الله الدين، وأتم الشريعة، إذ قال تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾﴾.

وإن كان الغرض من إرسال الرسل هو نشر هذه الرسالة ودعوة الناس إليها؛ فهذه وظيفة علماء المسلمين، وعليهم أن يحملوا رسالة الدعوة إلى الله، ونشر شريعته بين خلقه، وأن يستنبطوا الأحكام الشرعية لكل ما يَجِد في العالم من أمور تتطلب بيان حكم الله فيها؛ وفق أصول الشريعة الثابتة، وبالقياس على فروعها المنصوص عليها.

□ □ □

الفصل الثامن

الوحي وأنواعه

(١)

مقدمة

عرفنا فيما سبق من بحوث أن الرسل يبلِّغون عن الله كلامه، وأوامره ونواهيه وسائر ما يكلفهم تبليغه للناس.

ولكن يجدر بنا أن نتساءل: كيف يتلقى هؤلاء الرسل أنفسهم عن الله؟ وما هي الوسيلة التي اختارها الله لإعلامهم؟

وفي هذا الفصل نجد الإجابة على هذين التساؤلين.

* **الوحي ناموس[1] الإعلام الرباني:**

لقد اختار الله ناموساً يُنزل به على مَنْ يصطفي من عباده ما يريد تنزيله عليهم من تكاليف وعلوم ربانية؛ فتنطبع في هؤلاء المصطَفَين هذه التكاليف والعلوم التي يقذف الله بها إليهم ــ مباشرة أو بوساطة أمرٍ ما ــ انطباعاً جلياً واضحاً لا يحتمل الشك؛ وتكون لديهم معارفَ يقينية مقطوعاً بها.

وذلك كما تنطبع فينا ــ بشكل عام ــ العلوم البدهية الحتمية، التي ندركها بالحس، أو تنقدح في أذهاننا بالبديهة العقلية، التي نُسلم بها اضطراراً، دون أن نورد عليها أي تساؤل أو اعتراض، وذلك كعلمنا بوجود ذواتنا، وكعلمنا بأن الواحد نصف الاثنين وربع الأربعة، وأمثال هذه العلوم اليقينية عندنا.

إنه ناموس إلهي، اختاره الله لقذف ما يشاء من علوم وتكاليف في قلوب من يصطفيهم من عباده.

---

(١) أصل الناموس: صاحب السر المطلع على بواطن الأمور، واشتهر في الوسيلة التي اختارها الله لإعلام أنبيائه ورسله ما يريد تبليغهم إيّاه.

إنه ناموس، يتلقى به الرسل من الملائكة، ويتلقى به الأنبياء والرسل من البشر، العلومَ الربانية والتكاليف الإلٰهية.

(٢)

التعريف بالوحي

الوحي لغة: بالرجوع إلى استعمالات كلمة الوحي في اللغة نجد أن معانيها تـدور حول الإعلام الخفي السريـع؛ مهما اختلفت أسباب هذا الإعلام.

لذلك يطلق: على الإيماء، وعلى الإشارة السريعة، وعلى الكلام الخفي، وعلى الكتـابة، وعلى إلقاء المعنى في النفس، وعلى الإلهام سواء كان بدافع الغريزة أو بـإشراقات الفـطرة، وعلى الرؤيا الصالحة الجليّة.

ومن استعمالات الوحي في المعنى اللغوي:

قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

الوحي شرعاً: ولدى تأملنا في النصـوص الشرعيـة التي توضـح لنـا ظاهـرة الوحي التي اصطفى الله بها أنبياءه ورسله؛ نستطيـع أن نعرِّف الوحي في الاصطلاح الشرعي بما يلي:

هـو إعلام الله رسولاً من رسله أو نبياً من أنبيائه ما يشاء من كلام أو معنى، بطريقة تفيد النبـي أو الرسول العلم اليقيني القاطـع بما أعلمه الله به.

* **وبهذا يستجمـع الوحي شرعاً عدة عناصر ذات أهمية:**

ــ العنصر الأول: أنه إعلام من الله المحيط بكل شيء علماً.

ــ العنصر الثاني: أن الرسول أو النبـي يتلقف هذا العلم الإلٰهي تلقفاً، وهو مستجمـع كامل شعوره الفكري والوجداني حول ما يُلقى إليه من علم، ودون أن يكون لإرادتـه واختياره تدخل في مضمون ما يُلقى إليه، أو في لفظه إذا كان الموحَى لفظاً.

ــ العنصر الثالث: أن ما يُلقَى بالوحي من كلام أو معنى يحتل في ذات الرسول أو النبـي مركز العلم اليقيني القاطـع بصحـة التلقي عن الله؛ حتّى لا يعتري نفسَه أدنى تردُّد أو شك في ذلك.

ـ العنصر الرابع: أن ظاهرة الوحي ناموس إلهي يتلقى به جميع الرسل والأنبياء ما يُلْقى إليهم من إعلام.

ولنقرأ قول الله تعالى يخاطب سيدنا محمداً ﷺ في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

وقوله تعالى في صفة نطق الرسول صلوات الله عليه بالقرآن في سورة (النجم ٥٣):

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

وقوله تعالى مبيناً تجرُّدَ إرادة الرسول واختياره من مضمون أو لفظ ما يلقى إليه بالوحي في سورة (يونس ١٠):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله تعالى مبيناً وحيه إلى الملائكة في سورة (الأنفال ٨):

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

وقد يكون أوحى إليهم بوساطة جبريل أمين الوحي.

وقوله تعالى بشأن جبريل عليه السلام في سورة (النجم ٥٣):

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فأوحى الله إلى عبده جبريل ـ مَلَك الوحي الأمين ـ الوحيَ نفسه الذي أوحاه جبريل إلى محمد خاتم النبيين.

ففي هذه النصوص من القرآن الكريم وغيرها يقرر القرآن ما يلي:

(أ) أن الله هو الموحي.

(ب) أن الموحَى إليهم من البشر مصطفون بالنبوة.

(جـ) أن وسيلة الإعلام الإلهي للملائكة أو البشر إنما هي الوحي، ويقاس بالملائكة والبشر غيرهما.

(د) أن ظاهرة الوحي ــ بوصفها ظاهرة إنسانية ــ أمر يشترك في الشعور به جميع الأنبياء والرسل؛ وعن طريقه يتلقون الإعلامات الربَّانية، وليس محمد صلوات الله عليه بِدْعاً فيهم.

(هـ) أن ما يُلقَى به قد يكون كلاماً ملفوظاً أو مكتوباً، وقد يكون معاني يمكن التصرف بأدائها بألفاظ من عند النبي.

وأنه لا تَدَخُّل لإرادة واختيار المصطفى بالوحي إليه في مضمونٍ أو لفظ ما يلقى إليه بالوحي.

(٣)

كيف كان ينزل الوحي على رسول الله ﷺ؟

(أ) أول ما بدىء به الرسول من الوحي:

تقول عائشة رضي الله عنها: (أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح). (رواه البخاري)

وسِرُّ ذلك التمهيد لنزول الوحي بصورته الحقيقية، لما له من وقع شديد على النفس البشرية.

(ب) ثم أُنزل عليه الملك جبريل على غير إلف سابق له وذلك حين كان الرسول في غار حراء، يتعبد للّه ويتأمل في عظيم ملكوته، قبيل الرسالة. فغطّه ثلاث مرات وهو يقول له: اقرأ. ويجيبه الرسول بقوله: ما أنا بقارىء، فقال له «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق...» الآيات[1]. (عن البخاري ومسلم والترمذي)

وكان لهذه المفاجأة ــ بهذه الصورة العنيفة الحازمة ــ حكمةٌ عظيمة تتضمن هزَّ كيان الرسول ﷺ، وإعداده للمهمة العظيمة التي اصطفاه الله لها.

---

(١) جاء في رواية ابن إسحاق عن عبيد بن عُمَير مرسلاً: قال النبي ﷺ: «جاءني جبريل وأنا نائمٌ بنمط من ديباج (أي: بقطعة من حرير) فيه كتاب، فقال: اقرأ...» وهذه الرواية على ضعفها وكون ما جرى فيها رؤيا منامية قد تدلّ على أن جبريل طلب من الرسول أن يقرأ في صحيفة مكتوبة، ولولا ذلك لقال له: اتْلُ، ولم يقل له: اقرأ. إذ القراءة إنما تكون لمكتوب، ولذلك قال له الرسول: ما أنا بقارىء. أي: لا أحسن القراءة لأنني لم أتعلم الكتابة والقراءة، ومن المستبعد أن يقول له: اقرأ بمعنى: اتل، فيقول له: ما أنا بقارىء، أي: ما أنا بتالٍ لما تأمرني بتلاوته.

(ج) ثم فتر عن الرسول الوحي أيَّاماً قليلة، واشتد وقع ذلك عليه وكان لذلك حكمة عظيمة، تتضمن إشعار الرسول بأن الحادث الأول لم تجلبه الرياضة الروحية التي كان يمارسها في غار حراء؛ وإنما هو الاصطفاء الرباني.

(د) ثم جاءه الوحي من دون ترقب وهو يسير في أحد شعاب مكة، يقول رسول الله ﷺ: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا بالملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، فرُعِبت منه، فرجعت فقلت: زمِّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثِّر. قم فأنذر. وربّك فكبِّر. وثيابك فطهِّر. والرُّجز فاهجر﴾ فحمي الوحي وتتابع». (رواه البخاري ومسلم)

وكان لنزول الوحي في هذه المرة الثانية بهذه الصفة المرعبة التي ملأت الأفق أثر كبير في دفع الرسول للمهمة التي اصطفاه الله للاضطلاع بها؛ فهذا المشهد ليس الأول من نوعه، ونفس الرسول مشوقة إليه، على رعبها منه عند رؤيته!!

(هـ) وتتابع الوحي بعد ذلك بأحواله الهادئة نسبياً، وإليك ما وصفه به الرسول نفسه صلوات الله عليه:

جاء في (صحيح البخاري) عن عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ــ وهو أشده علي ــ فيَفْصِم عني وقد وَعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». (كتاب بدء الوحي)

وقد ثبت عنه ﷺ أن الوحي كان ينفث في رُوعِه ﷺ؛ فيعي الرسول عنه ما يقول. «الرُّوع: القلب ــ العقل».

وورد أن الصحابة كانوا يسمعون للوحي عند نزوله على رسول الله ﷺ دويّاً كدويّ النحل.

ويستخلص من ذلك: أن من أحوال الوحي حينما ينزل عليه أن يُلقى على قلبه قولٌ شديدٌ ثقيل، يسمع فيه الرسول صوتاً متعاقباً متداركاً، كصوت الجرس في صلصلته. وأن من أحوال الوحي أن يأتيه ملك الوحي جبريل بصورة إنسان، فيكلمه بمثل كلام الناس، إلى غير ذلك من أحوال.

(و) أما حالة الرسول عند نزول الوحي عليه: فقد وصفتها لنا عائشة رضي الله عنها، قالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفْصِمُ عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّد عرقاً. (رواه البخاري ومسلم)

كما ورد أن راحلته كانت تبرك به إلى الأرض إذا نزل عليه الوحي وهو راكب. وقد نـزل عليه الوحي مرة وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت تـرضّها!! «تَـرُضُّها: أي: تَطْحَنها ــ تَجْرُشُها».

(٤)
أنواع الوحي

وينقسم الوحي إلى ثلاثة أنواع، أخذاً من قوله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

وهي كما يلي:

النوع الأول: هو ما كان بلا وساطة.

وذلك بالإلقاء في القلب ــ يقظة أو مناماً ــ وهو يشمل: ما كان كمثل صلصلة الجرس، والنفث في الـرُّوع، والإلهام، والرؤيا المنامية.

وتحقيقه: أن يخلق الله في قلب الموحَى إليه ــ المعصوم ــ علماً ضرورياً بإدراك ما شاء الله إدراكه من كلامه تعالى.

وهذا النوع هو ما أشار إليه بقوله في الآية: «إلاّ وحياً»، أي: وحياً مجرداً عن الوساطة، ويكون ذلك بقذف الكلام أو المعاني في القلب قذفاً مباشراً، يفيد الرسول علماً قطعياً ضـرورياً بأن ذلك من عند الله تعالى.

ومن أمثلة هذا النوع ما كان لسيدنا إبـراهيم عليه السـلام في الرؤيـا، وما كـان لسيدنـا محمد ﷺ ليلة الإسراء في اليقظة.

النـوع الثاني: مـا كـان بـوسـاطـة إسمـاع الكـلام الإلَهي، من غـير أن يـرى السـامـع من يكلِّمه.

كأن يخلق الله الأصوات في بعض الأجسام من حجر أو شجـر، ومن هذا النـوع ما كـان لموسى حين مناجاته ربَّه في جانب الطور. وقد يشترك في سماع هذا النوع غيرُ الموحى إليه، كما سمـع السبعون من بني إسرائيل حين مضوا إلى الميقات ما سمعه موسى عليه السلام.

وهـذا النوع الثـاني هو مـا أشار إليـه الله بقولـه في الآية: «أو من وراء حجـاب»، أي: أو وحياً من وراء حجاب بوساطة خلق الله الأصوات كما ذكرنا، أو بصورة أخرى يختـارهـا الله جلَّ علا، ممّا يليق بجلاله وبصفاته.

النـوع الثالث: مـا كان بـوساطـة إرسال مَلَك تُـرى صورتُـه المعينة، ويسمـع كـلامـه، كجبريل عليه السلام، فيوحي إلى النبـي ما أمره الله أن يوحيه إليه.

وهـذا النوع هـو الغالب من أنـواع الوحي بـالنسبة إلى الأنبيـاء، فغالب أحـوال الأنبياء عليهم السلام أن يكون الوحي إليهم بوساطة رسل من الملائكة.

وهذا النوع الثالث هو ما أشار الله إليه بقولـه في الآية: «أو يـرسل رسـولاً فيوحي بـإذنه ما يشاء»، أي: أو وحياً بوساطة إرسال رسول من الملائكة.

هذه هي أنواع الوحي الثلاثة حسب تفصيل الآية السابقة. والله أعلم.

خـاتمـة:

ولما كانت النبـوات والرسـالات وإنزال الكتب السمـاوية لا تتم إلاّ عن طـريق الوحي؛ فقد أثبتنا هذا الكلام عن الوحي فصلاً من فصول باب الأنبياء والرسل عليهم السلام.

ولسنا بحاجة إلى أن نبرهن على الحاجة إلى الوحي الإلَهي، بعد الذي قدمناه في البحوث السابقة من الحاجة إلى رسل معصومين، وبعد الذي أوضحناه من براهين صدق الرسل.

وننبِّه هنا على أن الوحي بأنواعه الثلاثة من الأمور الممكنـة عقلاً، الجـائز وقـوعها، وأنـه لا حَجْر على الله في قدرته القادرة في واحد من الممكنات. وقد أثبت الله في كتـابه هـذه الأنواع الثلاثة للوحي وهو العليم الخبير، فما علينا إلاّ التسليم.

● ● ●

الباب الخامس

الإيمان بالكتب

التي أنزلها الله على رسله

الفصل الأول

الكتب السّماويّة: تعريفها، وجوبُ الإيمان بها حاجة النّاس إليها

(١)

وجوب الإيمان بالكتب السماوية

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى رسله.

فالله تعالى يخاطب رسوله محمداً ﷺ، ويأمره بأن يعلن إيمانه بجميع الكتب التي أنزلها الله، فيقول في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴿١٥﴾﴾.

وخطاب الرسول خطاب لكل من آمن برسالته.

وقال الله تعالى يخاطب المؤمنين في سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

وقال تعالى مبيناً عقيدة الرسول وعقيدة المؤمنين معه في سورة (البقرة ٢):

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

وقد عرفنا أن أركان العقيدة الإسلامية متماسكة لا ينفك بعضها عن بعض، وأن الإيمان بواحد منها يستدعي الإيمان بسائرها، وأن الكفر بواحد منها يستلزم نقض العقيدة الإسلامية من أساسها.

إذن: فعقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان بكتبه، ذلك لأن من مقتضى الإيمان بالله

الإيمان بالرسل المؤيَّدين من عنده بـالمعجزات، ومن مقتضى الإيمـان بالـرسل تصـديقهم في كل ما يبلِّغون عن الله تعالى.

من أجل ذلك يعلن المسلم دائماً ــ وفق عقيدته التي متى أخلَّ بها كفر ــ أنه يؤمن بكتب الله كلّها، إجمالاً فيما يجهل منها، وتفصيلاً فيما يعلم، كما آمن برسل الله وأنبيـائه جميعـاً، إجمالاً فيما جهل منهم، وتفصيلاً فيما علم.

(٢)
معنى الكتاب لغةً وشرعاً

الكتـاب لغةً: مصـدر كَتَبَ، كالكَتْب، وأصـل الكَتْب: ضم أديم إلى أديم بالخيـاطة، واستعمل عرفاً في ضم الحروف بعضها إلى بعض.

الكتاب شرعاً: كلام من كلام الله تعالى، فيه هدى ونـور، يوحي الله بـه إلى رسول من رسله ليبلغه للناس.

ويـطلق اسم الكتاب شـرعاً: عـلى ما يشمـل الصحف والألواح، وجميـع أنـواع الوحي اللفظي أو الكتابـي، التي ينزلها الله على أي رسول من رسله ليبلغها إلى الناس، وبأية لغـةٍ من اللغـات نزلت، صغيـرة كانت أو كبيـرة، مدوَّنـة أو غير مـدوَّنة، فيهـا صفة الإعجـاز اللفظي للناس، أو ليس فيها ذلك.

(٣)
حاجة الناس إلى كتب سماوية

عرفنا في مبحث الرسل أن النـاس بحاجـة ماسـة إلى رسل، يبلِّغـون الناس أحكـام الله وشريعته لعباده.

وهنـا لا بد أن نلفت النـظر إلى أن الناس هم بحـاجة مـاسة إلى كتب سمـاوية؛ وذلـك لأمورٍ منها:

أولاً: ليكــون الكتـاب الــربـاني المنــزل عـلى الــرسـول هــو المرجـع لأمتــه، مهـما تعاقبت العصور.

فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين وأسسه، ومبادئه وغاياته، ويرجعون إليه في التعـرُّف على أحكام شريعة الله لهم، واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها، والمحرَّمات التي ينهاهم عنها، والفضائل والكمالات التي يحثّهم عليها ويندبهم إليها.

كما يرجعون إليه ليطالعوا مواعظه ونصائحه، وأمثاله وآدابه، وما تضمنّه من بشائر ونذر، ووعد ووعيد، وسائر الوسائل والأساليب التربوية المختلفة، الهادية إلى صراط الله المستقيم.

ويرجع إليه أيضاً المجتهدون من العلماء، ليستنبطوا من نصوصه المختلفة الأحكام الشرعية لكل ما يَجِدُّ في حياة الناس، وذلك حينما لا يتهيأ لهم الرجوع إلى الرسول مباشرةً، لبعدهم عنه في المكان أو في الزمان.

ثانياً: وليكون الكتاب الرباني المنزَّل على الرسول هو الحَكَمَ العدل لأمته، في كل ما يختلفون فيه، مما تتناوله أحكام شريعة الله لهم.

فكتاب الله هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه، لأنه كلام الله، والله هو الحاكم «إن الحكم إلاَّ لله».

وفي الإشارة إلى حاجة كل أمّةٍ إلى كتابٍ سماويٍ يحكم بينهم فيما يختلفون فيه؛ يقول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴿٢١٣﴾﴾.

فقد تضمنت هذه الآية ــ والله أعلم ــ أن الناس كانوا أمةً واحدةً على دين الفطرة منذ النشأة الأولى للخليقة؛ يوحِّدون الله ويعبدونه، فاختلفوا عن التوحيد والطاعة بتأثير عوامل الجهل والنسيان والهوى والشيطان، فبعث الله النبيين ليبشِّروا بالنعيم مَنْ آمن بالله وأطاعه، ولينذروا بالعذاب من كفر بالله وعصاه. وأنزل مع كل رسولٍ كتاباً يهدي إلى الحق. ليكون هذا الكتاب السماوي هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه ــ وليس فوق حكم الله حكم، وليس فوق عدل الله عدل ــ، وليقوم الرسل بوظيفة التبليغ والبيان، ومعالجة الناس بدعوتهم إلى الخير، وتربيتهم على الفضيلة، مطبقين مضمون كلام الله ووحيه.

عن الرازي في تفسير هذه الآية، قال القاضي: «ظاهر هذه الآية يدلّ على أنه لا نبي إلاَّ معه كتاب منزل، فيه بيان الحق، طال ذلك الكتاب أم قصر، ودوِّن ذلك الكتاب أم لم يدوَّن، وكان ذلك الكتاب معجزاً أو لم يكن كذلك، لأن كون الكتاب منزلاً معهم لا يقتضي شيئاً من ذلك».

ثالثاً: وليصون الكتاب الرباني بعد عصر الرسول عقائد الدين وشرائعه وغاياته، من ضلالات ذوي الأهواء الذين تسول لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بالدين، وينسبوا إليه ما ليس منه، وينحرفوا به عن صراط الله المستقيم، إرضاءً لشهواتهم وغرائزهم.

واستمرار الكتاب الرباني في أمة الرسول من بعده، بمثابة استمرار وجود الرسول الذي بلَّغه إليهم بين ظهرانيهم، من حيث بيان أصول الدين وشرائعه، وسائر مواعظه وآدابه.

ذلك لأن الرسل بشر، يعرض لهم الموت كما يعرض لسائر البشر، أمَّا حقائق الدين الذي يدعون إليه، وما يتضمن من مبادىء وشرائع، وأحكام وفضائل، فإنها لا تموت. ولولا استمرار كتب ثابتة بنصوصها بعد الرسل، لأسرعت دعواتهم إلى الاختلاف الواسع، والتغيير الكثير عقب وفياتهم، لأن من طبيعة البشر أن يختلفوا في الاجتهادات، وأن تتباين نظراتهم إلى الأمور، وأن ينساقوا بسرعة وراء عوامل الشهوة والهوى والنفس، فإن لامهم صاحب إيمان ومعرفة على انحرافهم كذبوا على الله، فزعموا أن ما انحرفوا إليه هو من أحكام الله ومراداته في الدين. من أجل ذلك كان لا بدّ للبشر من ضابط قانوني يلزمهم بمدلولات النصوص الصريحة، إلزاماً لا محيد عنه إلاَّ لمكابر معاند، لا حجة له إلاَّ الإصرار على الباطل.

رابعاً: وليحفظ الكتاب الرباني لدعوة الرسول ولرسالته تأثيرها وسريانها، وقابليتها للاتساع والانتشار، مهما تباعدت الأمكنة أو الأزمنة عن مكان أو زمان نشأة الرسول صاحب الدعوة، وبخاصة حينما تكون دعوة الرسول دعوةً عامةً شاملةً، كرسالة محمد صلوات الله عليه.

وذلك بالنظر إلى ما يتضمنه كلام الله من سموٍّ عظيم، وحق خالدٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فوجود الكتاب الرباني في الأمة من بعد الرسول بمثابة استمرار الرسول نفسه فيهم، من حيث التعرف على أصول الدين وأحكام الشريعة، وسائر مواعظها وآدابها، وإن تكن الأمة قد فقدت من بعد الرسول الأسوة الحسنة المشهودة، والقيادة السامية.

من أجل ما سبق، ولِحِكَمٍ أخرى يعلمها الله تعالى ــ وهو العليم الخبير ــ ، أنزل الله على رسله كتبه، فنطقت كتبه بشريعته، تأمر وتنهى، وتعظ وترشد، وتبشر وتنذر، وتهدي إلى الصراط المستقيم، وتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وقد حمل رسل الله كتُبه، يبلّغونها وينشرونها، ويبينون ما ينبغي بيانه منها للنّاس، فأدّوا الرِّسالة كما أمرهم الله، ثم اختارهم الله إليه، وتركوا من بعدهم كتاب الله وبياناتهم التي بينوها، وسننهم التي بلغوها، وسِير حياتهم التي عاشوها في أممهم، لتكون للناس من بعدهم هدىً ونوراً.

□ □ □

الفصل الثاني

الكتب السماوية التي يجب الإيمان بها

(١)

القـرآن الكـريم

لقد بعث الله نبينا محمداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن كتاباً معجزاً، تكفل بحفظه من أي تحريف أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وقد شمل هذا الحفظ كل نص من نصوصه، فهيأ له سبحانه من وسائل الحفظ في الصدور والمصاحف ما حفظه به، وجعله قطعي الثبوت في كل عصر. ومكَّنَ له في القلوب والنفوس والعقول، حتى انتشر في أمم الأرض على اختلاف أمكنتهم، وألسنتهم وأزمانهم، وقومياتهم وأديانهم، بما أودع فيه من حلاوة وطلاوة، وحق وعدل ودعوة إنسانية. فما ينكر إسناده إلى خاتم رسل الله محمد صلوات الله عليه مَنْ كان عنده عقل سليم ونظر سديد؛ بعد أن يعلم صدق رواياته، وسبل تبليغه. وما ينكر أنه كتاب من عند الله تعالى منصف نظر في دلائل إعجازه المعنوي أو اللفظي، ويتلخص ذلك في حقائق ثلاث مع براهينها:

* **الحقيقة الأولى**: أن القرآن كتاب من عند الله، وقد ثبت ذلك بكل من الدليلين العقلي والنقلي.

ـ أما الدليل العقلي: فهو ما تضمَّن من وجوه الإعجاز، بحيث لا تتطاول القدرات الإنسانية ـ مفترقةً أو مجتمعةً ـ إلى الإتيان بمثله، مهما تعاقبت العصور وتوالت الدهور، كما سبق إيضاح ذلك في مبحث معجزات محمد صلوات الله عليه.

والمعجزات على اختلافها تثبت براهينها الذاتية أنها من عند الله، أجراها الله على أيدي رسله تأييداً لرسالاتهم، وتصديقاً لهم فيما يبلِّغون عن الله.

ـ وأما الدليل النقلي: فهو ما ثبت بالتواتر القطعيّ الدلالةِ كابراً عن كابر إلى رسول الله محمد ﷺ؛ وما ثبت في آيات القرآن نفسه أنه من عند الله، وليس من كلام محمد صلوات الله عليه.

* **الحقيقة الثانية**: أن القرآن هو آخر الكتب السماوية، أنزله الله على خاتم رسله محمد صلوات الله عليه.

وقد ثبت بالدليل النقلي: وهو التواتر القطعي الدلالةِ، الذي لا يرقى إليه شك.

* **الحقيقة الثالثة:** أن القرآن محفوظ ـ بحفظ الله ـ من كل تحريفٍ أو تبديلٍ، أو زيادة أو نقص، ومَصُون عن أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وقد ثبت ذلك بدليل الخبر المتواتر عن الرسول ﷺ، كما ثبت أيضاً ببرهان التجربة والمشاهدة في كل عصر.

وقد عمَّت هذه الحقائق الثلاث عن القرآن المجيد المجتمع الإسلامي في كل عصر؛ حتى صارت من العقائد المعلومة من الدين بالضرورة، التي من أنكرها كفر لا محالة.

فالقرآن آخر الكتب السماوية، أنزله الله على خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، وقد تكفل بحفظه في قوله تعالى فيه: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**.

فتعريف القرآن: هو كتاب الله المعجز المتعبَّد بتلاوته المنزل على رسوله محمد ﷺ المحفوظ بحفظ الله.

لذلك فنحن نؤمن بالقرآن كلِّه إجمالاً، كما نؤمن به تفصيلاً، فنؤمن بكل آية من آياته المثبتة فيه، على أنها من عند الله تعالى، نقلت إلينا بالتواتر القطعي الذي لا يترك عذراً لمرتاب.

ونحن نعتقد أن منكر شيء من ذلك كافر، لأنه جاحد لكلام الله، مكذِّب لرسوله.

وحيث آمنا وصدقنا بالقرآن ـ جملةً وتفصيلاً ـ أنه من عند الله، وكتابه الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وحيث نعلم أن الله تعالى منزَّه عن أن يثبت في كلامه غير الحق، فنحن نؤمن بكل خبرٍ تضمّنه القرآن تضمُّناً قطعياً، ونعتقد أن منكر ذلك كافر، لأنه مكذِّب لخبر الله في كتابه.

وقد أخبرنا القرآن بأخباره القاطعة أن الله تعالى قد أنزل قبل القرآن كتباً سماوية يصدِّق القرآن بها على ما كانت عليه يوم أنزلت، لا على ما هي عليه الآن بعد أن حُرِّفت.

قال الله تعالى يخاطب رسوله محمداً في سورة (المائدة ٥):

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٤٨﴾﴾.

فنحن بالتسليم المطلق نؤمن بكل كتابٍ أنزله الله، سواءٌ عرفنا اسمه أو لم نعرف، وسواءٌ

عرفنا الرسول الذي أُنزل عليه أو لم نعرف، وهذا هو معنى الإيمان الإجمالي بالكتب. وإيماننا بها تصديق لخبر الله في القرآن القطعيّ النسبةِ إلى الله تعالى.

كما نؤمن تفصيلاً بالكتب والصحف التي نَوَّه القرآن بها بشيء من التفصيل، وبالقدر الذي فصله القرآن لا نزيد على ذلك ولا ننقص، لأن كل زيادةٍ على ما فصله القرآن لم تصل في واقع حالها إلى درجة صحة النسبة فضلاً عن درجة القطعية.

أمَّا ما أخبرنا عنه القرآن الكريم من الكتب السماوية بشيء من التفصيل، فيتلخص بأربعة، فمنها ما كان على شكل صحف معدودة، ومنها ما أخذ شكل كتب كبيرة لها شأن، وهي ما يلي:

الأول: (صحف إبراهيم عليه السلام): وهي أول ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني.

الثاني: (التوراة): وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، ويشمل الصحف التي أنزلت عليه. وهو ثاني ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني.

الثالث: (الزبور): وهو الكتاب الذي أنزله الله على داود عليه السلام؛ وهو ثالث ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني.

الرابع: (الإنجيل): وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام؛ وهو رابع ما أنزل الله من كتب، مما لدينا به علم يقيني.

*** ما جاء في بعض الآثار عن عدد الصحف السماوية:**

روى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزل الله تعالى؟ قال: «مائة صحيفة وأربعة كتب، أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفةً، وعلى إدريس ثلاثين صحيفةً، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». والله أعلم.

وفيما يلي شرح ما ثبت في القرآن من الكتب السماوية:

(٢)

صحف إبراهيم عليه السلام

لقد أخبرنا القرآن بأخباره الصريحة عن الصحف الأولى، وذكر منها صحف إبراهيم عليه السلام. ولكن هذه الصحف مفقودة، فلا يعرف منها شيء إلاَّ بعض حقائق في الدين، أشار القرآن إلى أنها مما تضمنته هذه الصحف.

(أ) فمن ذلك قوله تعالى في سورة (النجم ٥٣): .

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ .

أقنى: أعطى من الرزق والأموال ما يُقتنى ويُدَّخر. **الشِّعرى**: نجم وضَّاء يقال له: مِـرْزَم الجوزاء، ويسمى الشِّعرى العَبُور، وقد عبدته طائفة من العرب.

المؤتفكة: هي قرى قـوم لوط، وسميت هـذه القرى مؤتفكـة لأنها ائتفكت بأهلهـا، أي انقلبت. **أهوى**: أي أوقعها وأسقطها إلى الأرض بعد رفعها عن أماكنها من الأرض إلى الفضاء.

فهذه الحقائق الدينية التي أعلنتها هذه الآيات مما أنـزله الله في صحف إبـراهيم وموسى؛ كما هو ظاهر في مدلول الآيات.

(ب) ومن ذلك قوله تعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ .

فالمشار إليه في قوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾: إما جميـع ما سبق قبلها من أول السورة؛ وإما من قوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾، وعلى كلا الوجهـين فهذه الحقـائق المشار إليها الواردة في القرآن مما جاء في صحف إبراهيم وموسى.

روي عن أبـي ذر أنـه قال: (قلت: يـا رسـول الله هـل أُنـزل عليـك شيء ممـا كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قـال: يا أبـا ذر نعم «قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربـه فصلى. بـل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى»).

* لذلك فنحن نؤمن إيماناً جازماً بـأن الله أنزل عـلى سيدنـا إبراهيم صحفـاً، وأن منها هذه الحقائق الدينية التي ذكرها القرآن الكريم، لقيام الدليل القاطع على ذلك.

(٣)
التــوراة

وهـو الكتاب الـرباني الـذي أنزلـه الله على سيـدنا مـوسى عليه السـلام، ويتضمن عـلى الأرجـح الصحف التي أنزلت عليه، والألواح التي جاء بها بعد مناجاته لربه في جانب الطور.

ولفظ (التوراة) لفظ عبراني معناه: (التعليم أو الشريعة).

قال تعالى في التصديق بالتوراة يخاطب محمداً ﷺ في سورة (آل عمران ٣):

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

* **ما هي التوراة التي صدَّق بها القرآن؟**

لكن التوراة التي صدَّق بها القرآن إنما هي الأصول الأولى التي أنزلها الله على موسى عليه السلام؛ أمَّا التوراة الحالية الموجودة عند أهل الكتاب، فليس لهـا سند متصـل يُصَحِّـح نسبتها إلى موسى عليه السلام، كما دخل إليها التحريف والتبديل، من غير تمييـز بين الأصل والمحرَّف، لذلك فلا يصح أن يوثق بها. وفي الفصـل الثالث الآتي من هـذا الباب، فقـرة خاصـة معقودة لبيان تحريف كتب أهل الكتاب، ومن جملتها التوراة التي أنزلها الله على موسى.

* **بعض ما أنزل الله في التوراة، مما لدينا به علم يقيني:**

ولقد تحدث القـرآن المجيد عن بعض مـا جاء في التـوراة، فنحن نؤمن بأنـه مما تضمنتـه التوراة، لأنه جاءنا به علم يقيني قاطع.

فمن ذلك الأمور التالية:

أولاً ــ جميـع الأمور التي سبق أن قررنا أنها مما جاء في صحف إبراهيم:

فهذه الأمور قـد نصَّ القرآن الكـريم على أنها جـاءت في صحف موسى أيضـاً، لـقـوله تعالى في آيات سورة (النجم) السابقة: «أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبـراهيم الذي وفَّى». وقـولـه تعـالى في آيـات سـورة (الأعـلى) السـابقـة: «إن هــذا لفي الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى».

ثـانياً ــ ومن جملة ما تضمنته التـوراة: مجموعـة من الأحكام والشـرائـع الربـانيـة التي شرعها الله لبني إسرائيل:

يشهد لذلك قول الله تعالى خطاباً للرسول محمد ﷺ في سورة (المائدة ٥):

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ففي قوله تعالى: «فيها حكم الله»، وقوله: «يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار» دلالة صريحة قاطعة على أن التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام تتضمن أحكاماً وشرائع ربانية.

النبيون الذين أسلموا: المراد منهم الأنبياء من بعد موسى إلى عيسى عليهم السلام؛ ووصفهم الله بقوله: «الذين أسلموا» ليثبت بأن الإسلام هو دين الله لجميع أنبيائه ورسله. وهؤلاء الأنبياء كان مفروضاً عليهم أن يحكموا بالتوراة.

للذين هادوا: المراد منهم اليهود.

الربانيون: جمع رباني، والرباني: هو العابد العالم، الحكيم البصير بتدبير أمور الناس، وهو فوق الحَبْر.

الأحبار: جمع حَبْر، وهو العالم المتقن. وأصل التحبير: الإتقان والتحسين والتزيين.

وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: «وكيف يحكِّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله»: أن رجلاً من اليهود زنى بامرأة، فترافعوا إلى النبي ﷺ يستفتونه في حكم الزاني المحصن، ظانين أن عقوبة الزاني المحصن في شريعة محمد أخف من عقوبته في التوراة، فنشدهم بالله الذي أنزل التوراة على موسى: ما تجدون في التوراة على مَنْ زنى إذا أحصن!

فأجابوا: بالجلد والتعزير، إلَّا شاباً من أحبارهم ظل ساكتاً، فشدَّد عليه الرسول ﷺ النشدة، فقال الشاب: اللهم إذ نشدتنا فإنَّا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ: فما أول ما ارتخص أمر الله؟! قال: زنى رجل ذو قرابة من مَلِكَ من ملوكنا فأخرّ عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه، فحال قومه دونه، وقالوا: لا ترجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم ـ مشيراً إلى العقوبة التي ادعى اليهود أنها في التوراة ـ فقال النبي ﷺ: فإني أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرُجما.

وهذا يدل على أن حكم الرجم للزاني المحصن من الأحكام المنصوص عليها في التوراة.

وقد ذكر القرآن نماذج من الأحكام الشرعية التي وردت في التوراة، فمن ذلك ما أشار إليه في قوله تعالى في معرض الحديث عن التوراة في سورة (المائدة ٥):

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فقد تضمنت هذه الآية: أن من أحكام التوراة التي كتبها الله فيها على بني إسرائيل هذه الجملة من أحكام الجنايات؛ وهي تتعلق بشريعة القصاص من الأحكام الثابتة المستمرة، التي لم تُنْسَخْ برسالة محمد ﷺ.

ثالثاً ــ ومن جملة ما تضمنته التوراة: البشارة بمحمد ﷺ، وذكر بعض صفاته:

يشهد لذلك قوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

الإصر: الثقل الذي يأصِر صاحبه، أي يحبسه عن الحركة، والمراد: التكاليف الشاقة.

الأغلال: جمع غُلّ، وهي الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.

فهذه الآية تدل بوضوح: على أن الرسول النبي الأمي ــ وهو محمد ﷺ ــ مكتوب عند أهل الكتاب في التوراة؛ وكتابته فيها باسمه أو صفاته بشارة عظيمة به، لأنها كانت قبل وجوده بقرون عديدة.

رابعاً ــ ومن جملة ما تضمنته التوراة: صفة أصحاب محمد ﷺ:

يشهد لذلك قول الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴿٢٩﴾﴾.

فهذه الآية تدل على أن مَثَلَ (أي: وصف) أصحاب محمد في التوراة أنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، ركّع، سجود، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، علامتهم في وجوههم من أثر السجود.

خامساً ــ ومن جملة ما تضمنته التوراة: الحث على الجهاد بالنفس والمال:

يشهد لذلك قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

فهذه الآية تنص على أن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال مما حثّت عليه التوراة بني إسرائيل؛ وأن الله وعد فيها المجاهدين الذين يقاتلون في سبيل الله فَيَقتلون ويُقتلون بأن لهم الجنة.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية جاءت فيها إشارات ضمنية.

* لذلك فنحن نؤمن إيماناً جازماً بأن التوراة الأصل كتاب رباني أنزله الله على موسى عليه السلام؛ وأن هذه الحقائق التي أوردناها في الفقرات السالفة مما تضمنته التوراة قطعاً، وأن من ينكر شيئاً من ذلك فهو كافر لا محالة، لأنه أنكر شيئاً ثبت بدليل يقيني قاطع.

(٤)

الزبور

وهو الكتاب الرباني الذي أنزله الله على داود عليه السلام.

والزبور لغة: هو الكتاب المزبور، أي: المكتوب، وجمعه زُبُر، كرسول ورُسُل، وكلّ كتاب يسمى زبوراً، قال تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾.

أي مسجل في كتب الملائكة وصحفهم.

ثم غلب الزبور على صحف داود عليه السلام. قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

فهذه الآية تنص على أن الله قد أنزل على داود كتاباً سماوياً اسمه الزبور.

وقال تعالى أيضاً في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قال أبو هريرة: «الزبور ما أنزل على داود، من بعد الذكر: من بعد التوراة».

ونلاحظ في هذه الآية أن القرآن صرّح بأن وراثة الأرض لعباد الله الصالحين مما كتبه الله في الزبور الذي أنزله على داود.

والزبور يقال فيه ما قيل في التوراة.

فالقرآن صدَّق بما أُنزل على داود، لا ما دخل فيه من التحريف من عمل اليهود. وسيأتي الكلام على أن التحريف قد وقع في كل ما يزعمه أهل الكتاب من كتب مقدسة سماوية؛ إلا ما جاءنا به علم يقيني قاطع من القرآن الكريم.

* لذلك فنحن نؤمن إيماناً جازماً بأن الله أنزل على داود كتاباً من عنده اسمه الزبور، وأن مما كتب الله فيه: أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون.

(٥)

الإنجيل

وهو الكتاب الرباني الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام.

ولفظ (الإنجيل) لفظ يوناني معناه: (البشرى).

قال الله تعالى في التصديق بالإنجيل يخاطب محمداً ﷺ في سورة (آل عمران ٣):

﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

ما هو الإنجيل الذي صدَّق به القرآن؟

لكنَّ الإنجيل الذي صدق به القرآن إنما هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى بأصوله الصحيحة الأولى، أما الأناجيل الحالية الموجودة عند أهل الكتاب، فلا يعرف لها سند متصل يصحح نسبتها إلى عيسى عليه السلام، ومعظمها لا يصح ـ بحال من الأحوال ـ نسبته إليه، وأحسن ما يقال فيها إنها مصنفات تاريخية حول سيرة المسيح، وبعض وصاياه ومواعظه

ومعجزاته، لكن فيها الكثير من الأغلاط والمتناقضات. وستطالع في الفصل التالي فقرة خاصة حول تحريف كتب أهل الكتاب.

*** بعض ما أنزل الله في الإنجيل، مما لدينا به علم يقيني:**

ولقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ما جاء في الإنجيل، فنحن نؤمن بأنه مما تضمنه الإنجيل قطعاً، لأنه قد جاءنا به علم يقيني قاطع.

فمن ذلك الأمور التالية:

أولاً ــ فقد تضمن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى: الهدى والنور، والتصديق بالتوراة، والموعظة للمتقين:

يشهد لذلك قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فهذه الآية تثبت أن الإنجيل فيه هدى ونور، وأنه تضمن التصديق بالتوراة، كما تضمن هدىً وموعظة للمتقين.

ثانياً ــ وقد تضمن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى مجموعة من الأحكام والشرائع الربانية:

يشهد لذلك قوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ويظهر أن الأحكام الموجودة في الإنجيل بعضها مكمِّل وبعضها معدِّل للأحكام الموجودة في التوراة؛ يدل على ذلك المهمّات التي جاء بها عيسى عليه السلام، ومنها أن يُحِلَّ لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم.

قال تعالى في حكاية كلامه في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

كما يدل على ذلك قول الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

ففي هذه الآية خطاب لأهل الكتاب عامة أن يقيموا التوراة والإنجيل معاً مضافاً إليهما جميع ما أنزل إليهم من ربهم، ولولا أنها يكمِّل بعضها بعضاً لما أمرهم بإقامتها جميعاً.

ولا غرو أن من إقامتها اتّباع الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ثالثاً ــ ومن جملة ما تضمنه الإنجيل البشارة بمحمد ﷺ وذكر بعض صفاته:

يشهد لذلك قوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

الإصر: الثقل الذي يحبس صاحبه عن الحركة، والمراد: التكاليف الشاقة.

الأغلال: جمع غُلّ، وهي الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.

فهذه الآية تدل بوضوح على أن الرسول النبي الأمي ــ وهو محمد ﷺ ــ مكتوب عند أهل الكتاب في الإنجيل، وكتابته فيه باسمه وصفاته بشارة عظيمة به، لأنه كان قبل وجوده بقرون.

رابعاً ــ ومن جملة ما تضمنه الإنجيل صفة أصحاب محمد ﷺ:

يشهد لذلك قول الله تعالى في معرض الحديث عن أصحاب محمد رسول الله في سورة (الفتح ٤٨):

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

الشطء: فروخ الزرع، وهو ما خرج منه وتفرع على شاطئيه، أي: جانبيه. **فآزره**: أي فقوّاه.

فهذا النص يدل على أن مَثَلَ أصحاب محمد في الإنجيل حول رسولهم كزرع يبدأ صغيراً ضعيفاً، فتظهر فروخه من حوله فتحميه، فيشتد الزرع ويستغلظ، فيعقب ذلك ــ بسرعة ــ أن يستوي الزرع على سوقه، يرى فيه الزرّاع عجباً عُجاباً لسرعة نموه وشدته وقوته. وهكذا كان أصحاب محمد من حوله، وكذلك انتشر سلطانهم، وامتدَّ ظِلُّهم، بسرعة ملأت قلوب الباحثين في التاريخ الإنساني عجباً.

خامساً ــ ومن جملة ما تضمنه الإنجيل الحث على الجهاد بالنفس والمال:

يشهد لذلك قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

فهذه الآية تنص على أن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال مما حثَّ عليه الإنجيل، وأن الله وعد فيه المجاهدين ــ الذين يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ــ بأن لهم الجنة، وهذا على خلاف الشائع من أن الديانة النصرانية ليس فيها جهاد في سبيل الله.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية جاءت فيها إشارات ضمنية.

* لذلك فنحن نؤمن إيماناً جازماً بأن الإنجيل الأصل كتاب رباني أنزله الله على عيسى عليه السلام؛ وأن هذه الحقائق التي أثبتناها في الفقرات السالفة مما تضمنه الإنجيل قطعاً، وأن من ينكر شيئاً من ذلك فهو كافر لا محالة، لأنه أنكر شيئاً ثبت بدليل يقيني قاطع.

ما اشتركت الكتب السماوية في بيانه

(أ) لقد اشتركت الكتب السماوية كلها في بيان أصول الدين.

الشرح: إن أول مهمة يحملها كل رسول هي دعوة الناس إلى أصول العقائد، وأسس الإسلام لله تعالى في طاعته وفي عبادته، وهذه الأمور هي ما يسمى «بأصول الدين»، ولذلك كان لا بد أن تكون هذه الأصول والأسس في طليعة الأمور التي تذكرها وتنوّه بها الكتب السماوية كلها.

قال الرازي عليه الرحمة عند تفسير قوله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

(أصول الدين كلها مذكورة في الكتب بأسرها، ولم يُخلِ الله كتاباً عنها، ولهذا قال لنبيه ﷺ: «فبهداهم اقتده»). انتهى.

(ب) كثير مما أنزله الله في الكتب الأولى قد جاء في القرآن من غير تصريح بأنه مما سبق أن أنزله الله فيها.

يشير إلى هذا قول الله تعالى في وصف القرآن في سورة (المائدة ٥):

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴿٤٨﴾﴾.

والهيمنة: هي الحفظ والارتقاب.

فمعنى مهيمناً عليه: رقيباً على ما سبقه من الكتب السماوية، حيث يشهد لما صح نَقْلُه منها بالصحة وموافقة الحق، أو يكشف ما دخل إليها من تحريف وتبديل، ويشهد عليه بالبطلان والفساد.

ويشير إليه أيضاً قوله تعالى في معرض الحديث عن سيدنا محمد ﷺ في سورة (البينة ٩٨):

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

أما الصحف المطهّرة: فهي ما جاء في القرآن الكريم. وأما الكتب القيمة: فمن وجوه التأويل فيها أنها الكتب الربانية السابقة التي حواها القرآن الكريم.

(جـ) بعض ما جاء في القرآن الكريم من الحقائق الدينية، قد صرح القرآن بأنه مما أنزله الله في كتب الأولين.

يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

ففي قوله تعالى: «وإنه لفي زبر الأولين»: دليل على أن بعض الحقائق الدينية السابقة في

السورة موجودة في كتب الأولين. والضمير في «وإنه»: يعود على بعض الحقائق التي سبق بيانها في السورة، وهي ـ كما قال أهل التفسير ـ: إمّا الأخبار التي سبقت، أو صفة القرآن، أو صفة محمد ﷺ، أو وجوه التخويف التي وردت خلالَ السورة، أو كل ذلك.

وعليه فيكون في الآية بيان واضح أن هذه الأشياء هي مما سبق أن أنزله الله تعالى في كتب الأولين؛ ويدخل في مفهوم لفظ «زبر الأولين»: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل.

(د) حكى الله لنا وصايا لقمان لابنه في سورة (لقمان)، وضمّن هذه الوصايا ما يفيد أنها وصايا ربّانية، اقتبسها لقمان مما أنزله الله في الكتب الأولى، وساقها القرآن مساق وصايا يوصي الناس بها، مما له صفة الاستمرار والدوام، وعليه فتكون هذه الوصايا القرآنية مما سبق أن جاء في الكتب الأولى، أوردها الله حكاية عن لقمان. قال تعالى في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

(هـ) هناك أمور اتفقت الكتب الثلاثة ـ القرآن والإنجيل والتوراة ـ على ذكرها كما نلاحظ ذلك مما سبق؛ فمنها:

أولاً: الشهادة لمحمد رسول الله ﷺ بأنه رسول الله.

ثانياً: الحث على الجهاد بالنفس والمال.

ثالثاً: التنويه بأصحاب محمد ﷺ، وذكر طائفة من صفاتهم.

□ □ □

الفصل الثالث

كتب أهل الكتاب الموجودة الآن بين أيديهم وتحريفها عن أصولها الصحيحة

(١)

كتب أهل الكتاب الموجودة الآن بين أيديهم

أولاً ـــ العهد القديم «العتيق» وأسفاره :

ويُطلق العهد القديم على الكتاب المقدس عند اليهود، ويجمع العهد القديم كل ما يدّعون أنه وصل إليهم بوساطة الأنبياء الذين كانوا قبل عيسى منذ عهد موسى؛ ويسمّى بالعبرية: (تنَّخْ)، وكل حرف من هذه الكلمة يرمز إلى قسم من أقسامه الثلاثة.

فحرف (ت): يرمز به إلى (التوراة).

وحرف (ن): يرمز به إلى (أسفار الأنبياء الأولين، ورسالات الأنبياء الأخيرين).

وحرف (خ): يرمز به إلى (المكتوبات).

ويحوي مجموع العهد القديم (٣٩) سفراً. وجملة إصحاحاته (٩٢٩) إصحاحاً.

القسم الأول ـــ التوراة (ت) ويحوي خمسة أسفار:

إن هذا القسم هو ما يدّعي اليهود نسبته إلى موسى عليه السلام، وينقسم إلى خمسة أسفار معروفة عندهم باسم (أخماس)، وهي:

١ ـــ (سِفْرُ التكوين): ويتضمن خبر خلق العالم، وقصة خلق الإنسان الأول، وقصة آدم وحواء، ونوح والطوفان، وحياة إبراهيم الخليل وولديه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وتاريخ يعقوب وأبنائه الاثني عشر الذين كوَّنوا فيما بعد مع ذريتهم أسباط بني إسرائيل، وينتهي بالحديث عن زيارة إخوة يوسف له، وذهاب أبيه لرؤيته في مصر.

٢ ـــ (سفر الخروج): ويحتوي على نشأة موسى في مصر، وتاريخ بني إسرائيل في مصر، وتعذيبهم على أيدي الفراعنة، ثم خروجهم من مصر، وإنزال الوصايا العشر على موسى،

وذكر لطائفة من التشريعات المتعلقة بالعبادات والمعاملات، وما حدث من بني إسرائيل في غيبة موسى.

٣ ــ (سفر اللاويين = الأحبار): وقد سبق أن عرفنا أن (لاوي) من أولاد يعقوب، وإليه ينسب اللاويّون، وهم: الكهنة وسدنة الهيكل. ويحوي هذا السفر كثيراً من التشريعات والوصايا والأحكام، مثل: كفّارات الذنوب، والقرابين، والأنكحة المحرمة، والطقوس والأعياد، والنذور والطهارة، ونحو ذلك.

٤ ــ (سفر العدد): ويحوي تاريخ بني إسرائيل أثناء التيه في صحراء سيناء، حتى وصولهم إلى أرض موآب، وتقسيم أسباط بني إسرائيل، وترتيب منازلهم حسب أسباطهم، وإحصاء الذكور منهم.

٥ ــ (سفر التثنية = الاستثناء): ويتضمن هذا السفر تكراراً لبعض ما ورد من وصايا وشرائع خاصة بالعبادات والصلوات والوصايا، وخطب سيدنا موسى وهو يعظ بني إسرائيل حين جمعهم في الصحراء قبل وفاته؛ كما يتضمن كلاماً عن الكهنة والنبوة، وعن انتخاب يوشع بن نون خَلَفاً لموسى، وينتهي السفر بخبر وفاة موسى ودفنه في جبال موآب.

وطائفة السامريين ــ وهم الذين دخلوا في اليهودية من غير بني إسرائيل ــ لا يؤمنون إلا بهذه الأسفار الخمسة من كتب العهد القديم، مع سفر «يوشع» وسفر «القضاة».

القسم الثاني ــ أسفار الأنبياء الأولين ورسالات الأنبياء الأخيرين (ن):

(أ) أما أسفار الأنبياء الأولين ــ وهي (ستة) أسفار ــ فهي كما يلي:

١ ــ (سفر يشوع = يوشع بن نون): ويحتوي على تاريخ بني إسرائيل بعد وفاة موسى، وقيام يشوع خلفاً له، وقيادته بني إسرائيل، ويُختَتم السفر بوفاة يشوع.

٢ ــ (سفر القضاة): ويحتوي على تاريخ الإسرائيليين في عهد القضاة الذين حكموا الشعب بعد وفاة يشوع.

٣ و ٤ ــ (سفر صموئيل الأول) و (سفر صموئيل الثاني): ويحتويان على تاريخ حياة صموئيل النبي، والملك شاؤول ــ طالوت ــ الذي كان أول ملك تولى على بني إسرائيل، والملك داود عليه السلام.

٥ و ٦ ــ (سفر الملوك الأول) و (سفر الملوك الثاني): ويحتويان على موت داود، وحكم سليمان حتى بدء السبي البابلي، وخراب الهيكل على يد «نبوخذ نصر = بختنصر» عام ٥٨٧ق. م.

(ب) وأما أسفار الأنبياء الأخيرين ــ وهي (١٥) سفراً ــ فهي تتضمن رسالات الأنبياء الأخيرين الثلاثة على ما يذكرون؛ وهم:

«إشَعْياء ــ إرْمِيا ــ حِزْقِيَال».

كما تتضمن رسالات اثني عشر نبياً آخرين، يسمُّون عندهم صغار الأنبياء ــ لقلة ما أُثر عنهم ــ وهم:

«هُوشَع ــ يُوئِيل ــ عَامُوس ــ عُوبَدْيا ــ يونس «يونان» ــ مِيخَا ــ نَاحُوم ــ حَبَقُّوق ــ صَفَنْيا ــ حجَّي ــ زكريا ــ مَلاخِي».

وتتضمن هذه الأسفار ــ بصفة عامة ــ التنديد بسلوك بني إسرائيل المنحرف عن أصول شريعتهم؛ وبالمعبودات الوثنية التي دخلت في بيئتهم من الأمم التي جاوروها وتعايشوا معها، وتهديدهم بسوء المنقلب، وإنذارهم بضياع ملكهم وسقوط دولتهم، والبشارات بقدوم المسيح عيسى عليه السلام، إلى غير ذلك.

القسم الثالث ــ المكتوبات (خ) وهي (ثلاثة عشر) سفراً:

ويتضمن هذا القسم ما يلي:

(أ) الكتب العظيمة: وهي الأسفار الثلاثة التالية:

١ ــ مزامير داود (الزبور): وهذا السفر يحوي مجموعة من الأناشيد والترانيم الدينية المشحونة بالمناجاة الربانية، والتسابيح والأدعية والأذكار والمواعظ. وهو منسوب عندهم إلى داود، وإن كان فيه بعض المزامير المنسوبة إلى سليمان، وأخرى منسوبة إلى آساف ــ الذي كان رئيس المغنِّين في عهد داود ــ كما فيه بعض المزامير المنسوبة إلى موسى.

وليس لمزامير داود الموجودة في هذا السفر سند يصحح نسبتها إلى داود، لذلك فلا يصح اعتبارها هي الزبور الذي نؤمن بأنه الكتاب الرباني الذي أنزله الله على داود عليه السلام؛ شأنه في هذا كشأن سائر كتب أهل الكتاب.

٢ ــ أمثال سليمان (الأمثال): وهذا السفر ينسب إلى سليمان، وهو يحتوي مجموعة من الأمثال التي لا تربط بينها رابطة، وليس في أسلوبها وحدة أو تناسق.

٣ ــ (تاريخ أيوب): وهذا السفر يحوي قصة أيوب موافقة لما جاء في القرآن الكريم عنه في بعض عناصرها؛ ومخالفة في العناصر الأخرى، وفيها زيادات لم يتعرّض لها القرآن.

(ب) (المجلات الخمس): وهي الأسفار الخمسة التالية:

١ ــ (نشيد الأنشاد): وهذا السفر ينسب إلى سليمان لأن فيه اسمه، وليس هو من أقواله، ويتضمن موضوعاً غرامياً غزلياً بين يَهْوَه ــ اسم الله عند بني إسرائيل ــ وبين إسرائيل.

وهذا السفر يرتِّله اليهود في عيد الفصح.

وبعض رجال اللاهوت من اليهود لا يوافقون على ضمه إلى أسفار العهد القديم.

٢ ــ (راعوث): وهو سفر يبين قصة نسب داود.

٣ ــ (مراثي إرميا): وفي هذا السفر يبكي إرميا حالة يهوذا وأورشليم، وما نزل ببني إسرائيل من انحرافات، والمصير السيِّىء الذي آلت إليه دولتهم.

٤ ــ (الجامعة): وهذا السفر ينسب إلى سليمان، ويتضمن نوعاً من الشعر الذي يطلق عليه «شعر الحكمة».

٥ ــ (أستير): وهذا السفر يحوي قصة امرأة جميلة يهودية اسمها (أستير)، تزوجها ملك الفرس فاستطاعت أن تجعل لابن عمها مردخاي حظوة عند الملك؛ وكان للملك وزير اسمه هامان كان الفرس يسجدون له، لكن مردخاي رفض أن يسجد له، فحقد عليه الوزير، وأخذ يدبر مؤامرة لقتله، والقضاء على اليهود في مملكته. إلا أن أستير مع ابن عمها مردخاي ــ في اليوم الذي تقرر فيه قتله شنقاً، والتنكيل باليهود عامة ــ استطاعا بمكرهما وحيلتهما أن يحوِّلا أمر القتل إلى الوزير هامان نفسه، وإلى جميع أتباعه!! فقُتل هامان على المشنقة التي كان قد أعدها هامان لمردخاي، وبلغ عدد من قتلهم اليهود من الفرس من أتباع هامان (٧٥) ألفاً، وكان ذلك في يوم (١٣) من آذار، ولذلك صار اليوم التالي (١٤) من آذار عيداً من أعياد اليهود حتى اليوم!

(جـ) (الكتب)، وهي الأسفار الخمسة التالية:

١ ــ (أخبار الأيام الأول).

٢ ــ (أخبار الأيام الثاني).

٣ ــ (نحميا): وينسب إلى نحميا «أحد كهنة بني إسرائيل».

٤ ــ (عزرا): وينسب إلى «عزرا» الكاهن ــ وهو معاصر لنحميا ــ، وقد يكون هو العزير. ويمكن اعتبار هذه الأسفار الأربعة سلسلة متكاملة تتضمن تاريخ العالم من آدم إلى عزرا، وسفرا «نحميا وعزرا» هما أقدم الأسفار التي تتحدث عن اليهود بعد المنفى.

٥ ــ (دانيال): وينسب هذا السفر إلى دانيال «أحد أنبياء بني إسرائيل».

وهـذه الأسفـار هي مجمـوعـة أسفـار العهـد القـديم، وهي مقـدسـة عنـد جميـع أهـل الكتاب من يهود ونصارى، وهي وحدها المعتمدة عند الكنيسة البـروتستانتيـة من أسفار العهـد القديم. أما الكنيسة الكاثوليكية فتقسم أسفار العهد القديم على غـير التقسيم الذي سبق[1]، كما تضيف إليها سبعة أسفار أخرى، وهي كما يلي:

١ ـ (طوبيا): ويتضمن هذا السفر أسطورة لرجل اسمه: (طوبيا)، كان في نينوى فأتاه الأمر من الرب ـ على لسان أحد الرسل ـ أن يتزوج (سـارا)، وهي امرأة جميلة في (مـدين)، كان يعشقها عفريت من الجنّ يقتل كل من يتقدم للزواج منهـا، فسار إليهـا طوبيـا وتزوجهـا؛ وتغلب على العفريت.

٢ ـ (يهوديت): ويتضمن هذا السفـر أسطورة حول امرأة اسمهـا: (يهوديت)، وتشبـه هذه الأسطورة أسطورة أستير التي سبق الحديث عنها في سفر أستير.

٣ ـ (الحكمة): وينسب هذا السفر إلى سليمان، ويتضمن هـذا السفر أقـوالاً موجهـة إلى ملوك الأرض والجبابرة ألاّ يغتروا بمكانتهم، وأن يراعوا العـدالة مـع من يحكمون. ويـذكر بأن الحكمة لا تأوي إلى جسد المذنب. ويتحدث هذا السفر أيضاً عن أثر الحكمة في الأحداث التاريخية من لدن آدم حتى موسى.

٤ ـ (يسوع بن سيراخ): ويتضمن هذا السفر أمثـالاً كالأمثـال التي تنسب إلى سليمان وفيه تعاليم أخلاقية وصـور من السلوك. (ويسوع بن سيـراخ هذا رجـل يهودي من أورشليم، كثير التجول والترحال، وهو بليـغ صاحب حكمة).

٥ ـ (بـاروخ): ويتضمن هذا السفـر أشتاتـاً من الأفكار ليس بينهـا وحـدة متنـاسقـة، «وباروخ» تلميذ «إرميا» النبـي.

٦ ـ (المكّابيون الأول).

٧ ـ (المكّابيون الثاني).

ويتضمن هذان السفران تاريخ المكّابيين «وهي أسرة يهودية تنسب إلى الكاهن مكّابيـاس المتـوفى ١٦٧ق. م، حاولت أن تعيـد إلى اليهود الاستقـلال والملك فلم تظفـر بذلـك». ويشيد هذان السفران ببطولة هذه الأسرة.

---

(١) راجـع كتاب (إظهار الحق) لرحمة الله الهندي، وكتاب (مقارنة الأديان) «١ ـ اليهودية» للدكتور أحـمـد شلبـي.

ثانياً ــ العهد الجديد:

وينقسم العهد الجديد عند النصارى إلى قسمين:

القسم الأول: الأسفار التاريخية.

القسم الثاني: الأسفار التعليمية.

١ ــ أما الأسفار التاريخية فتشمل ما يلي:

(أ) الأناجيل الأربعة المعترف بها عند الكنيسة.

(ب) رسالة أعمال الرسل.

(أ) الأناجيل الأربعة:

هي مصنفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى، وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض ــ حسب معتقداتهم ــ. كما تتضمن أخباراً عن «يحيى عليه السلام = يوحنا المعمدان».

إن مصنفي هذه الأسفار الأربعة المنسوبة إلى (متّى ومَرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا)، قد أثبتوا فيها من تاريخ مريم وعيسى ويحيى وغير ذلك من التواريخ، ما بقي في ذاكرتهم أو ما بلغهم من الخبر في أزمان تصنيفها بعد رفع المسيح عليه السلام (كما أثبتوا في بعضها من العقائد المسيحيّة بعض ما يؤيد الأفكار الدخيلة التي تطورت إليها العقيدة في هذه الديانة بعد رفع المسيح عليه السلام).

والحقيقة أنه ليس شيء من هذه المصنفات بالإنجيل الرّبّاني الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام؛ وأمرنا في القرآن الكريم بالإيمان به وتصديقه. كما أنه ليس شيء منها من إملاء عيسى عليه السلام بشهادة مؤرخي المسيحية، ولا يصح نسبة أيّ منها إليه، كما حقق ذلك النقاد من العلماء الغربيين، وكافة العلماء الباحثين بتجرد من العلماء المسلمين.

وفيما يلي تعريف موجز بهذه الأناجيل الأربعة:

١ ــ إنجيل (متّى = متّاوس):

* (متّى): هو أحد الحواريين الاثني عشر كما سبق، وكان قبل اتّباعه المسيح عشّاراً ــ أي من جباة الضرائب للدولة الرومانية الحاكمة إذ ذاك ــ وقد تفرّس به عيسى عليه السلام فاختاره أن يكون تلميذاً من تلاميذه الملازمين له، فتبعه وصَدَق معه.

ولما رفع الله عيسى إليه، أخذ تلميذه متّى يجول في البلاد مبشّراً بالديانة المسيحية، حتى كان آخر مقامه بالحبشة، ولبث يدعو لهذا الدين نحواً من ثلاث وعشرين سنة، ثم مات على يد أعوان ملك الحبشة في سنة (٧٠م) وقيل: (٦٢م). هكذا ذكر مؤرخو المسيحية.

نسبة هذا المصنَّف إليه:

اتفق جمهور العلماء من النصارى على أن متىّ كتب هذا المصنف باللغة العبرية أو باللغة السريانية؛ بعد نهاية المسيح في الأرض بما لا يقل عن أربع سنين، واتفقوا على أن أقدم نسخة عرفت لإنجيل متىّ كانت باللغة اليونانية، وأن النسخة التي هي الأصل قد فُقدت، فلا يعرف أحد من العلماء لها أثراً.

وهنا نقطة البحث بين الأصل العبري أو السرياني المفقود، وبين الترجمة التي ظهرت باللغةاليونانية، ويتساءل العلماء هنا عن أمور أهمها: من المترجِم؟ أو أين الأصل المترجَم عنه، حتى تتم المقارنة بين الترجمة والأصل؟!

ويجيب جمهور العلماء من المسيحيين على كل من السؤالين بعدم العلم.

وهنا يقف البحث العلمي ليقول: أية قيمة علمية لوثيقة لا يعرف أصلها، ولا يعرف مترجمها؟! وكل إجابة لسد هذه الثغرة الكبيرة داحضة!!

كما يُثبت البحث العلمي أن تواريخهم لا تثبت نسبة هذا المصنف إلى عيسى عليه السلام.

٢ ـ إنجيل مَرْقُس:

* (مرقس): قالوا: واسمه «يوحنا» ولُقِّب «بمرقس»، وهو ليس من الحواريين الاثني عشر، وإنما هو يهودي من أورشليم، كان من أوائل الذين أجابوا دعوة المسيح عليه السلام. قالوا: وهو من السبعين الذين نزل عليهم روح القدس ــ في اعتقاد النصارى ــ بعد رفع المسيح، وألهموا بالتبشير بالمسيحية، كما ألهموا مبادئها. ويسمي النصارى هؤلاء السبعين رسلاً، أي: رسلاً للتبشير بالمسيحية في الأقطار. وهو ابن أخت برنابا ــ أحد الرسل في اعتقاد الكنيسة، وأحد الحواريين عند المحققين من العلماء ــ. قالوا: وقد لازم خاله برنابا، كما لازم بولس الرسول، في رحلتهما إلى أنطاكية للتبشير بالمسيحية فيها، ثم تركهما وعاد إلى أورشليم، وكان له جولات في الأقطار، نهض فيها بمهمّة التبشير، وكان آخر مقامه بمصر، واستمر بها إلى أن ائتمر به الوثنيون، فقتلوه بعد سجن وتعذيب في سنة (٦٢م). وقد أثبت بعض مؤرخي المسيحية أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح.

نسبة هذا المصنَّف إليه:

اتفق النصارى على أن هذا المصنف قد كتب باللغة اليونانية، بعد رفع المسيح بما لا يقل عن ثلاث وعشرين سنة. وقد اختلفوا فيمن كتبه على وجه التحقيق، فقال فريق من

مؤرخيهم: إن الذي كتبه هو «بطرس» رئيس الحواريين، ولكن نسبه إلى تلميذه مرقس، وقال فريق آخر منهم: إن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس، وبعد موت بولس أيضاً.

وهنا يقف البحث العلمي ليقول: لقد وقع الشك عند مؤرخيهم في تعيين كاتب هذا المصنَّف بشكل جازم، كما ثبت من أقوالهم أن عيسى عليه السلام لم يكتب هذا المصنف ولم يُمِلِهِ!.

٣ ــ إنجيل (لوقا):

* (لوقا): هو التلميذ الحبيب والرفيق الملازم لـ (بولس)، وليس هو من أصل يهودي. قالوا: وقد ولد في إنطاكية ودرس الطب ونجح في ممارسته، وقيل: هو روماني ولد في إيطاليا، وكان مصوِّراً.

فلوقا ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً، كما أنه ليس من تلاميذ تلاميذه، وإنما هو تلميذ (بولس). وبولس هذا لم يرَ عيسى ولم يسمع منه، ولا بد من كلمة حوله تعرِّف به:

إن (بولس) هو صاحب الشأن الخطير في تحريف الديانة النصرانية عن أصولها الصحيحة؛ وكان يهودياً ــ طرسوسياً أو رومانياً ــ من الفريسيين، لم ير عيسى، ولا سمعه يبشّر الناس. وكان اسمه: (شاول)، وكان في أول عهده من أكبر أعداء المسيحيين. قالوا: وقد أنزل بهم ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب، وفجأة دخل المسيحية، وأحاط دخوله فيها بادِّعاءات غريبة جرت له، ومشاهدات خاصة روحية، ادّعى فيها أن يسوع بنوره العظيم هبط عليه عندما كان قريباً من دمشق، وقال له: «لماذا تضطهدني؟» فقال وهو مرتعد ومتحير: يا ربِّ ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له: «قم وكرِّز ــ أي عظ ــ بالمسيحية»!! يقول تلميذه لوقا في ختام حكايته لهذه القصة: «وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله»، مع العلم بأن هذه الفكرة لم تكن قد عرفت من قبل!!

نسبة هذا المصنَّف إليه:

اتفق مؤرخو المسيحية على أن لوقا ألف مصنفه هذا باللغة اليونانية، بعد نحو عشرين سنة من رفع المسيح عليه السلام.

ولوقا يبدأ مصنفه هذا بالعبارة التالية:

(إذْ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدّاماً للكلمة، رأيت أنا أيضاً ــ إذ تتبعت كل شيء من الأول

بتدقيق ــ أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوُفِيلُس؛ لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمتَ به).

وهنا يقف البحث العلمي شاكاً في (لوقا)، ومتهماً أستاذه (بولس) بتحريف الديانة النصرانية في أصول عقيدتها، ومثبتاً أن هذا المصنَّف لا صلة له بعيسى عليه السلام، كتابة ولا إملاء.

٤ ــ إنجيل (يوحنا):

* (يوحنا): تزعم الكنيسة أن هذا المصنف هو من كتابة «يوحنا» أحد الحواريين، وهو يوحنا بن زبدِي الصياد الذي كان يحبه السيد المسيح، وقد نُفيَ في أيام الاضطهادات الأولى، ثم عاد إلى أَفْسُس ولبث يبشّر فيها حتى مات هرماً. وقد اختلفوا في الزمن الذي كتبه فيه على أقوال: أدناها سنة (٦٥م)، وأعلاها سنة (٩٨م)، أي: بعد رفع المسيح بـ (٣٢) سنة على الأقل.

تحقيق نسبة هذا المصنَّف إليه:

لقد أنكر جمهور كبير من محققي النصارى نسبة هذا المصنف إلى يوحنا بن زبدي ــ أحد تلاميذ المسيح عليه السلام ــ؛ وقد ظهر هذا الإنكار على ألسنة العلماء بالمسيحية في آخر القرن الثاني الميلادي.

قال استادلن: (إن إنجيل يوحنا كافة تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية، ولقد كانت فرقة ألوجين، في القرن الثاني تنكر هذا الإنجيل، وجميع ما أسند إلى يوحنا)!

وجاء في دائرة المعارف البريطانية ــ التي اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى ــ ما نصه:

(أما إنجيل يوحنا فإنه ــ لا مرية ولا شك ــ كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القدّيسان يوحنا ومتّى، وقد ادّعى هذا الكاتب المزوِّر في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً. ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة، التي لا رابطة بينها وبين من نُسبت إليه. وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ــ ولو بأوهى رابطة ــ ذلك الرجل الفلسفي الذي ألّف هذا الكتاب في الجيل الثاني؛ بالحواري يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى، لخبطهم على غير هدى)!!

وهذا المصنف هو الوحيد من الأناجيل الأربعة الذي تضمنت فقراته ألوهيّة المسيح، وعليه تعتمد الكنيسة في معتقدها المخالف لأصول الديانة التي أنزلها الله على عيسى عليه السلام، والتي فيها أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم.

وحسب البحث العلمي أن يجد محققي علماء النصارى يثبتون أن هذا المصنف مزوّر على يوحنا الحواري، على أن منتهى ما تثبته الكنيسة أنه من تأليف يوحنا، وليس من كتابة عيسى عليه السلام، ولا من إملائه.

(ب) رسالة أعمال الرسل:

وتنسب هذه الرسالة إلى (لوقا)، صاحب الإنجيل الذي تكلمنا عنه فيما سبق.

وقد تضمن هذا السفر قصة معلّمي المسيحية، وبخاصة (بولس) ـ أستاذ لوقا ـ الذي عرّفنا به عند الكلام على إنجيل لوقا؛ وكيف أن هذا المعلّم ـ الذي يسمونه رسولاً ـ كان من قبل عدواً للمسيحية منكّلاً بأتباعها، وكيف تحول بغتة فصار داعياً من دعاتها!! وكيف أنه منذ ذلك الحين أعلن أن عيسى هو ابن الله، إلى غير ذلك مما كان من هذا الرجل اليهودي الأصل، الذي دخل فجأة النصرانية، وصار فجأة معلّمها الأول، وداعيتها النشيط، وأخذ ينشر أنه يتلقى التعاليم المسيحية إلهاماً، مع العلم بأنه ليس من تلاميذ المسيح، ولم يجتمع به، ولم يسمع منه!!

وتعتبر هذه الرسالة في عرض قصة حياة بولس، كالأناجيل السابقة في عرض قصة حياة المسيح[1].

٢ ـ وأما الأسفار التعليمية:

فتشمل إحدى وعشرين رسالة كتبت جميعها باللغة اليونانية، وهي كما يلي:

١ ـ أربع عشرة رسالة من كتابة (بولس):

و (بولس): هو أستاذ لوقا ورفيقه الذي عرّفنا به آنفاً، ونضيف هنا أن هذا الرجل بعد أن دخل المسيحية، وأحلّ نفسه منها في مركز المعلّم الأول، أخذ يطوف في الأقاليم يبشر بالمسيحية الجديدة، ضمن خطة فيها دهاء كبير، فيلقي الخطب، وينشىء الرسائل، حتى كانت رسائله هي الرسائل التعليمية، بما حوت من مبادىء اعتقادية، وشرائع عملية!!

---

(١) وبهذه الخطة الماكرة استطاع هذا الرجل أن يحرّف في جوهر الديانة، دون أن يستطيع أحد معارضته بحجة نقلية عن المسيح عيسى عليه السلام، لأنه زعم لهم أنه يتلقى التعاليم من المسيح تلقياً إلهامياً روحياً!

قالوا: وقد قُتل في اضطهادات نيرون سنة (٦٦) أو (٦٧م)[1].

٢ ــ ثلاث رسائل قالوا: إنها من كتابة (يوحنا):

و (يوحنا) هذا: هو يوحنا الحواري الذي ينسب إليه أحد الأناجيل الأربعة المعترف بها عند الكنيسة؛ وقد عرّفنا به فيما سبق عند الكلام على الإنجيل المنسوب إليه.

٣ ــ رسالتان قالوا: إنهما من كتابة (بطرس):

و (بطرس) هو أحد الحواريين الاثني عشر، كان اسمه الأصلي (سمعان)، وكان صياد سمك، وقد اتّبع المسيح وكان من تلاميذه الملازمين له، وقد أخلص له. قالوا: وقد تنقّل في الأقطار بعد رفع المسيح عليه السلام، يدعو ويبشر بالمسيحية، فذهب إلى أنطاكية وغيرها، وأخيراً رحل إلى روما في سنة (٦٥م) في زمن نيرون، فقبض عليه. وسُجن، وحُكم عليه بالموت صلباً. قالوا: وقد طَلب أن يصلبوه منكَّساً، حتى لا يتشبه بالمسيح. وقد كان يوحنا ينكر ألوهية المسيح عليه السلام، هو وتلميذه مرقس المنسوب إليه الإنجيل السالف الذكر.

٤ ــ رسالة واحدة من كتابة (يعقوب):

و (يعقوب) الذي تنسب إليه هذه الرسالة: هو يعقوب بن زبدي الصياد، وقد كان من الحواريين الاثني عشر، وهو أخو يوحنا بن زبدي أحد الحواريين.

قالوا: ويعقوب بن زبدي أول أسقف لكرسي أورشليم، وكان يعرف ــ لشهرته بالطهارة ــ بيعقوب البار، وقد اغتاظ منه رؤساء اليهود فحكموا عليه بالموت في مجمعهم، فمات رجماً سنة (٦٢م).

٥ ــ رسالة واحدة قالوا: إنها من كتابة (يهوذا):

و (يهوذا) الذي تنسب إليه هذه الرسالة: هو أحد الحواريين الاثني عشر، وهو غير يهوذا الأسخريوطي الخائن.

قالوا: وهو يدعى (لبَّاوس) ويلقب (تدَّاوس).

وقيل: هو (يهوذا بن زبدي) الأخ الأصغر ليوحنا ويعقوب ابن زبدي الحواريَّيْن.

---

(١) اقرأ عن بولس هذا: ما جاء في كتاب (محاضرات في النصرانية) للشيخ محمد أبي زهرة، وكتاب (مقارنة الأديان) «٢ ــ المسيحية» للدكتور أحمد شلبي.

وقد تضمنت هذه الرسائل مواعظ تعليمية بشكل عام، كما تضمنت العقائد الجديدة التي أدخلها بولس على الديانة الأصل التي أنزلها الله على عيسى: كبنوَّة المسيح، وتخليصه للعالم من خطيئته، وأنه قام من الأموات بعد صلبه ودفنه، وجلس على يمين أبيه الرب! إلا رسالة يعقوب منها فليس فيها شيء من ذلك، وإنما فيها عظات مقبولة، وأمثال سهلة، ولعلها الرسالة الوحيدة التي لم تنلها أيدي بولس وأتباعه.

٦ ـ ويضاف إلى الرسائل السابقة، رسالة يسمونها (رؤيا يوحنا اللاهوتي)، كما يسمونها (السفر النبوي). وسميت رؤيا لأنها أشبه بالأحلام، لكن يوحنا رآها يقظة كما يقولون.

وقد عنيت هذه الرسالة ببيان ألوهية المسيح، وسلطانه في السماء، وعلمه بحال الكنيسة والقوّامين عليها من بعده، ونحو ذلك مما يتصل بألوهية المسيح، ومجده وسلطانه في الملكوت!!

ويظهر عليها ـ بما لا يقبل الشك ـ أنها من صناعة بولس أو أحد أتباعه، لتثبيت الفكرة الجديدة على المسيحية التي أدخلها بولس في عقيدتها.

* **خاتمة:**

فهذه هي مجموعة أسفار العهد الجديد، وهي مقدسة عند الكنائس المسيحية، أما اليهود فإنهم لا يعترفون بها، بل يعادونها ويكذِّبونها، ومن قبلها كذبوا عيسى عليه السلام وائتمروا بقتله، على الرغم من صدق نبوته، وظهور معجزاته.

ومجموع كتب العهدين القديم والجديد يسمى عند النصارى بلفظ: (بيبل)، وهو لفظ يوناني معناه: الكتاب.

* إنجيل برنابا:

وهنالك إنجيل خامس لا تعترف به الكنيسة هو إنجيل (برنابا).

(برنابا): هو قدِّيس من قدِّيسي النصارى، وأحد الرسل السبعين الذين قاموا بالدعاية للمسيحية الأولى، وحجة عندهم باتفاقهم، ولقد جاء في الإنجيل المنسوب إليه أنه أحد الحواريين الاثني عشر.

وإليك قصة الإنجيل المنسوب إليه:

(أ) يذكر المؤرخون المسيحيون أن البابا (جلاسيوس الأول)، الذي جلس على الأريكة البابوية في سنة (٤٩٢م) ـ أي قبل بدء الرسالة الإسلامية بنحو قرن وعشر سنين ـ قد أصدر أمراً بابوياً يعدِّد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها، ومن جملتها إنجيل يسمى: «إنجيل برنابا»، وقد بقي هذا الإنجيل سرّاً مكتوماً حتى سنة (١٧٠٩م).

(ب) فأقدمُ نسخةٍ عُثر عليها لهذا الإنجيل نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها كريمر ـ أحد مستشاري ملك بروسيا ـ في سنة (١٧٠٩م)، استعارها من أحد وجهاء أمستردام، ثم أهداها هذا الوجيه إلى البرنس أيوجين سافوي في سنة (١٧١٣م).

ثم انتقلت هذه النسخة مع بقية مكتبة البرنس أيوجين إلى مكتبة البلاط الملكي في فينًا في سنة (١٧٣٨م).

(جـ) ثم إن أول مَنْ كشف النقاب عن هذه النسخة راهب لاتيني اسمه (فرامينو)، ذلك أنه عثر على رسائل لايريانوس، وفيها رسالة يندّد فيها بما كتبه بولس الرسول، مستنداً في تنديده إلى إنجيل برنابا، فدفعه حب الاستطلاع إلى البحث عن هذا الإنجيل، حتى وصل إلى بغيته لما صار أحد المقربين إلى البابا (سكتس الخامس)، إذ عثر على هذا الإنجيل في مكتبة هذا البابا، فأخفاه بين أردانه وطالعه، فاعتنق الإسلام!!

(د) وقد ترجم هذا الإنجيل إلى اللغة العربية الدكتور خليل سعادة.

لمحة عما تضمنه إنجيل برنابا:

وقد تضمن هذا الإنجيل قصة حياة المسيح عليه السلام بتعبير مشرق، ودقة بارعة، وحكمة واسعة، وخالف الأناجيل الأخرى بما يلي:

(أ) يثبت أن عيسى عبد الله ورسوله، وينكر ألوهيته وكونه ابن الله.

(ب) يثبت أن الذبيح من ولدي إبراهيم عليه السلام هو إسماعيل.

(جـ) يبشر برسالة محمد ﷺ بالاسم الصريح، وفيه تصديق ما جاء في القرآن الكريم بذلك.

(د) يثبت أن المسيح عيسى عليه السلام لم يُصْلَبْ بل رُفع إلى السماء، وأن الذي صلب إنما هو يهوذا الأسخريوطي الخائن، الذي وقع شبه عيسى عليه.

(هـ) يثبت كثيراً من الأصول الاعتقادية المتفقة مع أصول الشرائع الربانية، التي لم تعبث بها أيدي التحريف.

ومن خلال ما سبق يرجِّح المحققون صحة نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا، وأنه من تأليف هذا الحواري، وإن كانت الكنيسة تنكره ولا تعترف به، لما فيه من مخالفات للعقائد التي دسّها بولس، والتزمت بها الكنائس المسيحية من بعده!!

(٢)

موقف البحث العلمي من كتب العهدين القديم والجديد

١ ـ أثبت المحققون من العلماء والشراح المُحْدَثون للكتاب المقدس الجامع للعهدين القديم والجديد؛ أنه ليس لأيِّ سِفْر من أسفار العهدين القديم والجديد سند متصل يُصَحِّح نسبة ذلك السفر إلى مَنْ نُسب إليه من الأنبياء أو الرسل أو غيرهم؛ وفق طريقة علمية بعيدة عن التقليد الذي لا محاكمة فيه، وبعيدة أيضاً عن التعصب أو التعنت.

٢ ـ أثبت المحققون المتتبعون لأسفار العهدين القديم والجديد، وجودَ نسبة كبيرة من الأغلاط والأخطاء التاريخية فيها، والتناقضات بين نصوصها، وأوردوا على ذلك أمثلة تطبيقية كثيرة[١].

٣ ـ من الثابت عند مؤرِّخي أهل الكتاب أن التوراة والزبور وسائر كتب العهد القديم؛ التي كانت قبل (بختنصر = نبوخذنصر) عند اليهود، قد فُقدت فقداً تاماً حين تسلط بختنصر ملك بابل (العراق الحديث) عليهم؛ وسباهم وأجلاهم عن فلسطين إلى بابل، وخرّب لهم بيت المقدس، وذلك حوالي عام (٥٨٦ق. م). ويزعم اليهود أن (عزرا) الكاهن أعاد كتابتها بالإلهام، بعد أن سمح لهم قورش ـ ملك الفرس الذي قهر البابليين واحتل بلادهم ـ بالعودة من منفاهم في بابل إلى فلسطين حوالي عام (٥٣٨ق. م)؛ أي بعد نحو (٥٠ سنة) في المنفى ببابل.

٤ ـ إن الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام قد فُقد، فلم يبقَ له أثر منذ العصور الأولى للديانة النصرانية، وقد أشارت إليه بعض فقرات وردت في إنجيل متى وإنجيل مرقس، وبعض رسائل بولس، كما حقق ذلك العلماء[٢].

٥ ـ مرّت على المسيحيين أدوار من الاضطهاد الديني كان يخفّ ويشتدّ من حينٍ لآخر، وذلك منذ رُفع المسيح عيسى عليه السلام حتى أوائل القرن الرابع الميلادي، كما حصل لهم نظير ذلك أيام دعوة المسيح، التي انتهت بمحاولة صلبه عليه السلام.

وكان اضطهادهم يجري على أيدي حكام الإمبراطورية الرومانية، وكان بعضها بدسائس من اليهود.

وقد بلغ اضطهاد الرومان لهم ذروته في العهود التالية:

(أ) في عهد الإمبراطور الروماني (نيرون)، الذي اعتلى عرش الإمبراطورية من سنة

---

(١) ارجع إلى كتاب (إظهار الحق) للعلامة رحمة الله الهندي.

(٢) ارجع إلى كتاب (محاضرات في النصرانية) للشيخ محمد أبي زهرة.

(٥٤ إلى سنة ٦٨م)، فقد دبَّر لهم تهمة حرق مدينة روما، فأنزل بهم ألـوان العذاب، وتفنن في ذلك، وكان يحكم عليهم بالقتل الجماعي.

(ب) وفي عهد الإمبراطور (تراجان) الذي حكم من سنـة (٩٨ إلى ١١٧م)، فقد كـان المسيحيون يصلُّون في الخفاء هرباً من اضطهاده، فأمر هذا الحاكم بمنـع الاجتماعات السـرية، فـأنزل بهم ألـوان الذل والعـذاب لذلـك؛، وكان بعض ولاة هـذا الإمبراطـور يحكم بعقـوبـة الإعدام على من تثبت عليه التهمة بأنه مسيحي.

(جـ) وفي عهد الإمبراطـور (ديكيوس) الـذي حكم من سنة (٢٤٩ إلى ٢٥١م)، وقـد أصدر هذا الإمبراطور أمراً باضطهاد عام للمسيحيين.

(د) وفي عهد الإمبراطور (دقلديانـوس) الذي حكم من سنـة (٢٨٤ إلى ٣٠٥م)، فقد أمـر هذا الإمبـراطور بهـدم كنائسهم في مصر، وإحـراق كتبهم، وسجن أساقفتهم ورعـاتهم. قالوا: وقد قتل منهم ثلاثمائة ألف قبطي.

إن هذا الاضطهاد قد جعل المسيحيين في هذه الأحقـاب يَسْتَخْفُون بدعـوتهم، ويفقدون كثيراً من كتبهم، ويجعل ديانتهم عرضةً للضياع والتحريف، وخاصة من أعدائهم اليهود الذين كانوا يتظاهرون بالمسيحية. كما جعلهم طوائف عديدة، وفرقاً متبـاينةً في مـذاهبها الاعتقـادية، فمنهم المـوحِّدون الـذين يعتقدون بـأن عيسى عبد الله ورسـوله، متمشـين مع أصـل الـديـانـة الصحيحة. وطائفة منهم يعتقدون بألوهيته. وآخرون يعتقدون بأنه ابن الله، إلى غير ذلـك من معتقدات. ولكن الاضطهاد لم يسمح لهذه الطوائف أن تتصارع فيما بينها تصارعاً سافراً.

ومع الاستخفاء وعدم الاستقرار فقدوا السند التاريخي الذي يـربط بين كتبهم ونقـولهم؛ وبين من تُنسب إليه هذه الكتب أو النقول، ومع فقد السند التاريخي تَفقـد النصوص حجِّيتهـا أمام البحث العلمي المنصف المتجرد.

٦ ــ اعتنق الإمبراطور الروماني (قسطنطين الأول الأكبـر) ــ الذي حكم الإمبـراطوريـة من سنة (٣٠٦ إلى ٣٣٧م) ــ الديـانة النصـرانية في سنـة (٣١٢م)، أي بعد ست سنـوات من حكمه، فعطف على المسيحيين، وسمـح لهم بإعـلان طقوسهم وعبـاداتهم. ولما رأى طـوائفهم المختلفـة، أراد أن يتـدخـل في شؤون الكنيسـة ليعتمـد مـذهب إحـدى الـطوائف المتصـارعـة المختصمـة فيـما بينهـا؛ والتي يُـكفِّـر بعضهـا بعضـاً، فـدعـا إلى مجمـع كـنسي عـالمي (= مجمـع مسكوني)، فانعقـد هذا المجمـع المسكوني الأول بـأمره في نيقيـة في سنة (٣٢٥م)، فكان يعرف هذا المجمـع في التاريـخ المسيحي (بمجمـع نيقية).

مجمع نيقية :

وقد وفد إلى هذا المجمع ــ الذي دعا إليه قسطنطين ــ من مختلف البلدان (٢٠٤٨) من البطارقة والأساقفة، ودار النقاش فيه حول شخص المسيح عيسى عليه السلام :

(أ) فطائفة تقول : إن المسيح عيسى عليه السلام رسول من عند الله فقط، كسائر الرسل، وزعيم هذه الطائفة (أريوس)، وقد انضم إلى رأيه في هذا المجمع أكثر من (٧٠٠) بطرك وأسقف.

(ب) وطائفة تقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية.

(جـ) وطائفة تقول: إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة من نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وزعيم هذه الطائفة (سابليوس).

(د) وطائفة تقول: إن المسيح إله، وهم الملتزمون بأقوال (بولس) الذي أسلفنا الحديث عنه.

إلى غير ذلك من مذاهب.

وسمع قسطنطين مقال كل فرقة، فعجب من هذا الخلاف، وأمرهم أن يتناظروا، لينظر مع مَنْ هو الدين الصحيح بحسب وجهة نظره، وقد أخلى داراً للمناظرة، ثم استحسن هذا الإمبراطور ــ الذي دخل في النصرانية دون أن يدرس أصولها ــ رأي الذين يقولون بألوهية المسيح ؛ وذلك لقرب هذه الفكرة مما كان يعتقد قبل أن يعتنق النصرانية.

فأحصى قسطنطين القائلين بألوهية المسيح في هذا المجمع العام فكانوا (٣١٨)، فجمعهم في مجلس خاص بهم، وجلس في وسطهم، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه، فدفعها إليهم وقال لهم: (قد سلطتكم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوه، مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين). فبارك هؤلاء الملك، وقلّدوه سيفه، وقالوا له: أظهِر دين النصرانية، وذُبَّ عنه.

وإذ أقر قسطنطين فكرة هؤلاء، فقد سلّطهم على أن يصدروا أمراً بتحريق جميع الكتب التي تخالف هذا الرأي.

وفي هذا المجمع تمّ إقرار أسفار العهد الجديد التي سبق بيانها، ما عدا بعض رسائل منها، فقد تم إقرارها في المجامع الكنسية العامة التي انعقدت بعد ذلك.

وهذه الأسفار التي أقرّها هذا المجمع بسيف الإمبراطور، هي قسم يسير من أصل عشرات الكتب ومئات الرسائل التي قَدِم بها البطاركة والأساقفة لهذا المجمع من مختلف البلدان؛ والتي تم رفضها والأمر بمصادرتها وتحريقها، لأنها تتضمن خلاف ما أقره المجمع المذكور بسيف الإمبراطور من عقيدة حول ألوهية المسيح.

ولكن الخلاف ظل بعد ذلك قائماً في الطوائف النصرانية، ونشط الموحِّدون منهم نشاطاً كبيراً، إلاَّ أن دعم السلطة الحاكمة في أزمان متتابعة للاتجاه الذي أثبت ألوهية المسيح؛ كان له شأن في تثبيت العقيدة النصرانية الجديدة، في الكنائس ذات السلطة الدينية الواسعة.

وقد علمنا مما سبق أن هذه العقيدة قد بدأها (بولس)، ثم أقرها مجمع نيقية بسلطة الإمبراطور قسطنطين.

وهكذا أقرّ من مؤلفاتهم ما يوافق هذه العقيدة، ورفض المؤلفات الأخرى، وما ندري فقد يكون من بينها نسخة من الإنجيل الأصل، الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام.

٨ ــ وإليك ــ فيما يلي ــ مجموعة من أقوال بعض العلماء الباحثين، حول مجموعتي كتب العهدين القديم والجديد[١]:

(أ) يقول السير (آرثر فندلاي) في كتابه «الكون المنشور» الصحيفة ١١٩ : (يجب أن يعلم كل إنسان أنه لا توجد وثيقة أصلية واحدة متعلقة بحياة المسيح)!!

(ب) في عام ١٧٩٦م: أشار (هردر) إلى ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا والمسيح في إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها!

(جـ) اكتشفت مخطوطات قديمة ذات أهمية كبيرة، كانت مخبَّأة في أواني فخارية طويلة، ومحفوظة في إحدى الحفر من هضبة بجوار البحر الميت.

وقد قال في شأنها الدكتور (و. ف. ألبرايت) ــ وهو عمدة في علم آثار الإنجيل ــ : (إنه لا يوجد أدنى شك في العالم حول صحة هذا المخطوط، وسوف تعمل هذه الأوراق ثورة في فكرتنا عن المسيحية)!

وقال في شأنها القس (أ. باول ديفز) ــ رئيس كنيسة كلّ القدِّيسين في واشنطن ــ في كتابه «مخطوطات البحر الميت» في الصفحة الأولى:

(إن مخطوطات البحر الميت ــ وهي من أعظم الاكتشافات أهمية منذ قرون عديدة ــ قد يغيِّر الفهم التقليدي للإنجيل)!

وقال في شأنها القس (الدكتور تشارلس فرنسيس بوتو) في كتابه «السنون المفقودة من

---

(١) أخذاً من كتاب: (محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن)، لمؤلفه: إبراهيم خليل أحمد «سابقاً: القسيس إبراهيم خليل فيلبس». وقد دخل في الإسلام بتأثير ما وجده من بشائر بالنبي ﷺ، في كتب العهدين القديم والجديد. فارجع إلى هذا الكتاب، وإلى كتاب (إظهار الحق) لرحمة الله الهندي.

عيسى تكشف» في الصحيفة ١٢٧ : (لدينا الآن وثائق كافية تدلّ على أنها مخطوطات هي حقيقية هبة الله إلى البشر! لأن كلّ ورقة نفتح تأتي فيها إثباتات جديدة على أن عيسى كما قال عن نفسه: «ابن الإنسان» أكثر منه «ابن الله» كما ادّعى عليه ذلك أتباعه وهو منه بريء).

وقال هذا القسّ أيضاً: (من العسير العثور على كتاب في العهد القديم لا يحتاج إلى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات البحر الميت، وكذلك ليس هناك كتاب في العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير شامل للآيات الأساسية التي تقوم عليها الشريعة).

وقال أيضاً: (إن إنجيلاً يدعى «إنجيل برنابا» استبعدته الكنيسة في عهدها الأول؛ والمخطوطات التي اكتشفت حديثاً في منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل)!!

(د) اكتشف مخطوط ثانٍ في الفيوم، ومخطوط ثالث في مصر العليا، ومخطوط رابع في طور سيناء في سنة ١٩٥٨م. قالوا: وإن هذا المخطوط الأخير مكتوب باللغة الديموطيقية، وإنه كُتب في القرن الثالث بوساطة القدّيس «مرقس» الحواري المعروف، يصف فيه تاريخ عيسى، ويصحح نقطاً كثيرة مما جرى عليه العرف «التقليد المسيحي».

الاستنتاج:

ومن خلال الحقائق الثابتة التي ثبت بيانها حول كتب العهدين القديم والجديد، نستطيع أن نستنتج بالبحث العلمي ما يلي:

* المقدمات:

(أ) بما أن الباحثين المحقِّقين، والمؤرخين المتتبِّعين ـ سواء كانوا من العلماء الحياديين، أو من علماء أهل الكتاب ـ كلهم يثبتون أنه لا يوجد سند متصل لأيّ كتاب من كتب العهدين القديم والجديد؛ يصحح نسبة ذلك الكتاب إلى أي نبي أو رسول من أنبياء ورسل بني إسرائيل؛ أو إلى أي كاتب موثوق به من تلاميذ هؤلاء الأنبياء والرسل.

(ب) وإذْ تبين للعلماء الباحثين المتتبعين وجود أغلاط وأخطاء وتناقضات كثيرة؛ في مجموعة كتب العهدين القديم والجديد، وكذلك وجود مخالفات للحقائق العلمية الثابتة بيقين.

(ج) وإذْ نعلم بالمنهج العلمي السليم أن أي نقل من النقول، أو خبر من الأخبار، لا بد أن يتوافر فيه السند المتصل إلى مصدر النقل أو الخبر، ثم بعد ذلك يبحث في أهلية السند للرواية والنقل؛ أي: يبحث في مستوى درجة الثقة بقبول خبر المخبر، أو ترجمة المترجم، أو كتابة الكاتب:

١ ـ فإن اتصل السند آحاداً، مع عدالة وضبط الرواة في سلسلته كلها؛ سلّمنا الخبر أو النقل ترجيحاً، مع احتمال الكذب أو الخطأ فيه.

٢ ــ وإن اتصل السند تواتراً؛ وجب التسليم بالخبر قطعاً، وانتفى احتمال الكذب والخطأ أو توهمهما فيه.

٣ ــ وإن لم يكن للخبر سند متصل؛ فهو نقل ضعيف، لا يصح الاعتماد عليه مطلقاً، ولا الركون إلى مضمونه، في توثّقٍ تاريخيّ أو علميّ.

٤ ــ أما الأخبار والروايات التي يُعلم فيها الكذب ويُعرف فيها الوضع، أو يتحقق فيها من الخطأ الذي لا يمكن تمييزه عن الحق والصواب؛ فإنها أخبار ينبغي رفضها رفضاً باتاً، وعدم الثقة بسلامة مضمونها، وبهذا المنهج يمتاز الحق من الباطل في الأخبار، وفي النصوص التي يراد لها أن تكون وثائق في يد البحث العلمي.

(د) وإذْ يجب علينا عقلاً وشريعة أن نعلم أن النصوص الصحيحة التي يبلِّغها الأنبياء والرسل عن الله، لا يصح بحال من الأحوال أن تتناقض حقائقها العلمية، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها.

* النتيجة:

١ ــ لهذه الأسباب كلها أو بعضها، نستطيع أن نثبت بالبحث العلمي المتجرد أنه لا تصحُّ الثقة العلمية بأيِّ نصٍ من نصوص كتب العهدين القديم والجديد؛ ما لم تقم معه قرائن ومؤيدات وأدلة أخرى، ترفع من قيمة النص إلى مرتبة الثقة به، والتسليم بمضمونه.

٢ ــ إلاَّ أننا نستطيع أن نجزم بأن كتب العهد القديم تحوي من الأصول الصحيحة نسبةً أوفر مما تحويه كتب العهد الجديد من الإنجيل الأصل.

وذلك لأن اليهود قد عاشوا في ظل ديانة صحيحة أحقاباً من الزمن، تعاقب فيها عدد وافر من أنبياء بني إسرائيل، ولأنهم كانوا كلّما تلاعبت بهم الأهواء أرسل الله فيهم نبياً من أنبيائهم، فذكرهم بأصل دينهم، ونصحهم ووعظهم، وأنهم حينما أعادوا كتابة كتبهم التي فُقدت في عهد بختنصّر ــ حين أجلاهم وسباهم، وخرَّب لهم الهيكل ــ لا بد أن يكونوا قد توارثوا بعض الأصول الصحيحة؛ عن طريق الحفظ والسماع.

وذلك بخلاف الإنجيل الأصل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، فإنه لم يثبت في التاريخ تداوله بشكل واضح بين أيدي النصارى، في أية حقبة متقدمة من تاريخ المسيحية.

٣ ــ كتب العهد الجديد التي يعتمدها النصارى إنما هي عبارة عن تاريخ ناقص للمسيح عيسى عليه السلام؛ وهي متعارضة في بعض نصوصها ومتناقضة، كما أنها مجهولة الأصل، ومجهولة التاريخ بشكلٍ قطعي محدد، وإذا تأملنا في محتوياتها رأيناها تحكي نُبَذاً غير

موثوق بقسم كبير منها من حياة عيسى عليه السلام، ونزراً يسيراً جداً من التعاليم الأصلية، المختلطة بالغث الكثير الذي أدخله بولس من تحريف على هذه الديانة.

* المناقشة:

١ ــ يجيب علماء اللاهوت ــ سواء كانوا من اليهود أو النصارى ــ على ما يورده الباحثون من العلماء والمؤرِّخين على كتب العهدين القديم والجديد؛ حول فَقْدِ هذه الكتب للسند الصحيح الذي يوصلها إلى نبي معترف به ــ وذلك بعد فقد أصولها باعترافهم ــ فيقولون: إنها كتبت بالإلهام على أيدي قدِّيسين.

وهذه الإجابة لا تستطيع أن تواجه النقد العلمي بحال، لأن ادِّعاء الإلهام الذي لا تدعمه نبوة مؤيدة بالمعجزة، أو حقيقة علمية مؤيدة بالبراهين العلمية الإنسانية، لا يثبت به خبر عادي، فضلاً عن أن تثبت به شريعة ربَّانية، ونصوص إلهية، وإلَّا استطاع أي كاذب صاحب خيال وفلسفة، أن يقول كلاماً من عنده، أو يكتب كتاباً من صناعته، ثم يدّعي أنه تلقاه بالإلهام، دون أن يكون رسولاً أو نبيّاً، ودون أن يكون مستقيماً صادقاً!!

٢ ــ ثم لا يحيرون جواباً على ما يورده عليهم الباحثون النقاد من وجود الأغلاط والأخطاء والتناقضات فيها؛ إلَّا أن يقولوا: ليس كل ما في الكتب إلهامياً، بل بعضها إلهامي، وبعضها غير إلهامي.

وهذه الإجابة منهم تكفي لأن تثبت تسليمهم بالتحريف في هذه الكتب، ومعلوم أنه متى دخل التحريف في نص من النصوص، واختلط الأصل بالمحرف، تعذر التمييز بين الأصل والمحرف، وبخاصة إذا فَقد الأصل كله السندَ المتصل، الأمر الذي ينزع الثقة من أساسها.

(٣)
موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين القديم والجديد

كنا قد عرفنا موقف العقيدة الإسلامية من الكتب الربانية التي أنزلها الله على رسله؛ وأن الإيمان بها من أركان العقيدة الإسلامية.

أما موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين القديم والجديد التي بسطنا الكلام حولها آنفاً، فلا يعدو موقف البحث العلمي. وتتلخص العقيدة الإسلامية المتواترة، المعلومة من الدين بالضرورة، حول هذه الكتب بما يلي:

١ ـ لا يصح الاعتقاد بأي كتابٍ من كتب العهدين القديم والجديد على أنه كتاب من عند الله؛ لأنها تفقد وسائل صحة النسبة إلى الله تعالى، وفق المنهج العلمي المعتمد عقلاً وشرعاً.

٢ ـ إن مضمون كل نص من نصوص كتب أهل الكتاب الحالية، سواء كان خبراً تاريخياً، أو حقيقة علمية، أو حكماً شرعياً: إن صدَّقه القرآن أو صدقته السنة فهو مقبول عندنا يقيناً، وإن كذبه القرآن أو كذبته السنة فهو مردودٌ عندنا يقيناً، وإن سكت القرآن وسكتت السنة عن تصديقه أو تكذيبه، فإننا نسكت عنه، فلا نصدق ولا نكذب، لاحتمال الصدق والكذب فيه، إلاَّ إذا دلت دلائل الواقع على تصديقه أو تكذيبه، فإننا نتبع حكم هذه الدلائل من تصديقٍ أو تكذيبٍ.

وفيما سكتت الشريعة الإسلامية عن تصديقه أو تكذيبه، ينطبق الحديثان النبويان التاليان:

(أ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم».

(رواه البخاري)

(ب) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍّ فتكذبوا به، أو بباطلٍ فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلاَّ أن يتبعني».

(رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة
والبزار، وإسناده صحيح)

٣ ـ من الثابت عندنا بيقين في العقيدة الإسلامية أن أهل الكتاب حرّفوا في كتبهم؛ فبدلوا بعض نصوصها، وأخفوا طائفة منها، ونسوا حظاً مما ذكروا به.

وفيما يلي لمحة عن التحريف في كتب أهل الكتاب:

لقد أخذ التحريف في كتب أهل الكتاب مظهرين.

الأول ـ التحريف المعنوي: وذلك بتغيير مدلولات الألفاظ، وترجمتها إلى ما يوافق تحريفهم.

الثاني ـ التحريف اللفظي: ويكون هذا التحريف اللفظي بأحد ثلاثة وجوه: بالتبديل، أو بالزيادة، أو بالنقصان.

وقد وصف القرآن أهل الكتاب ـ من يهود ونصارى ـ بأنهم يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، وبأنهم نسوا حظاً مما ذُكِّروا به، وبأنهم يبدون من كتبهم شيئاً ويخفون كثيراً.

قال الله تعالى في الكلام على بني إسرائيل في سورة (المائدة ٥):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وقال الله تعالى في الكلام على النصارى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقال الله تعالى مخاطباً أهل الكتاب عامةً في سورة (المائدة ٥):

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

وقد تتبع المحققون في كتب أهل الكتاب، فوجدوا فيها الشيء الكثير من التحريفات، التي يشهد العقل بداهة أنها تحريف لا شك في ذلك، وكشفوا جملة كثيرة من المتناقضات والأغلاط التي ملئت بها هذه الكتب المحرفة.

وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق» مائة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي في كتب العهدين القديم والجديد.

ومن الْبَدهي أن المضلِّلين من أهل الكتاب إذْ سهل عليهم الكذب على الله في أصل العقيدة؛ فقالت طائفةٌ من اليهود: عزير ابن الله، وقال بعض النصارى: إن الله هو المسيح بن مريم، وقال بعضهم: إن الله ثالث ثلاثة، وقال بعضهم: إن المسيح عيسى هو ابن الله، وقال بعضهم: إن عيسى وأمه إلهان من دون الله!! إلى غير ذلك من أقوال باطلة، خالفوا فيها

أصـول العقـل والـدين والكتب السمـاويـة. إن هؤلاء إذْ سهـل عليهم كـل ذلـك في أصــول العقيدة، فلا بد أن يكون الكـذب عندهم فيـها وراء ذلك من أحكـام ونصوص وأخبـار أهون وأسهل، متى كان لهم في الكذب منافـع وشهوات، ومصالح دنيوية.

ولـذلك قـال ابن عباس رضي الله عنهـا لطائفـةٍ يسألـون أهل الكتـاب عما عنـدهم من علم: (كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم القرآن الذي أنزل عـلى رسول الله ﷺ أحـدث؟! تقرؤونه محضاً، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه! وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقـالوا: هـو من عنـد الله، ليشتـروا بـه ثمنـاً قليـلاً، ألا لا ينهـاكم مـا جـاءكم من العلم عن مسألتهم؟! لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أُنـزل عليكم فأنتم بالطريق الأولى أن لا تسألوهم)!!

ولَمَّا كان الكلام في هذا الموضوع طويل الحاشية، يتطلب سِفراً خاصاً، ودراسـةً منفردةً، فقد آثرتُ الاختصار على هذه اللّمحات. وأُحِيـلُ القاريء المتتبِّـع فيـما تبقى من الموضوع، على مثل كتاب (إظهار الحق) للشيـخ رحمة الله الهندي.

● ● ●

الباب السادس

الإيمان باليوم الآخر

الفصل الأول : الابتلاء والتكليف والجزاء وحدود المسؤولية.

الفصل الثاني : الإيمان باليوم الآخر.

(١) ضرورة الإيمان باليوم الآخر.

(٢) وجوب الإيمان باليوم الآخر.

(٣) أسماء اليوم الآخر الواردة في القرآن الكريم.

الفصل الثالث : مقدمات اليوم الآخر.

الفصل الرابع : حقائق عن البعث واليوم الآخر.

الفصل الخامس : عقائد الناس بالبعث للجزاء يوم القيامة، والردّ على المنكرين.

الفصل الأول

الابتلاء والتكليف والجزاء وحدود المسؤولية

تمهيد:

قبل أن نباشر الحديث عن الإيمان باليوم الآخر، لا بد من تمهيدٍ يسيرٍ يربط ما بين هذا الركن من أركان الإيمان، وبين أركان الإيمان الأخرى.

لقد عرفنا فيما سبق من بحوث خلال الأبواب التي مررنا عليها مجموعة من الأسس التي توضح لنا وجه علاقة الإنسان بالله العظيم؛ الفاطر الحكيم، ونستطيع أن نجملها مع بعض إضافات تُتَمِّم فلسفة الربط العلمي المحكم الدقيق بين أركان الإيمان بشكل عام؛ وذلك في الفقرات التالية، المتضمنة فلسفة الابتلاء والتكليف، ثم ترتب الجزاء عليهما، مع بيان حدود المسؤولية تجاه الخالق جلّ وعلا.

(١)
الابتلاء والتكليف

أولاً: إن الفاطر الحكيم ــ جل وعلا ــ قد اقتضت حكمته العالية أن يجعل الإنسان من فئة مخلوقاته المزوَّدة بصفات تؤهلها للامتحان والابتلاء الرباني في مجال الحياة الدنيا؛ وهذه الصفات هي:

(أ) الإرادة الحرّة.

(ب) العقل المزوَّد بالاستعداد لفهم النهي والأمر، والتمييز بين الخير والشر، والنفع والضر.

(جـ) القدرة الظاهرة على تنفيذ بعض الأفعال التي تريدها.

ثانياً: وإن في تزويد الإنسان بهذه الصفات تشريفاً وتكريماً له، يستدعي منه ــ بالبديهة العقلية ــ ما يلي:

(أ) الاعتراف للفاطر العظيم بوجوده، واتِّصافه بكل صفات الكمال، وتنزهه عن كل صفات النقصان.

(ب) الحمد له والثناء عليه بالنعم التي لا تحصى، الظاهرة والباطنة، المادية والمعنوية، الداخلة فيه والخارجة عنه، الجسدية والفكرية والنفسية.

(جـ) الشكر له بالعبادة التي لا يستحقها سواه، وبالطاعة التي تبرهن على أهلية هذا الإنسان لمنحتَي العقل والإرادة الحرّة، إذ يتحقق في ذلك بمرتبة العبودية الحقة لله تعالى، والتي هي مرتبة الإنسان الكامل، التي متى انحرف عنها انحط وهان، لأنه ــ لا محالة ــ عبد مغلوب على أمره بالقهر الرباني، ولكنه إما أن يكون بإرادته معترفاً سعيداً، أو جاحداً شقياً.

ثالثاً: وحين نلاحظ حكمة الخالق جلّ وعلا، يتضح لنا أن حكمته تقضي بأنه لم يخلق الناس بصفاتهم التي زوَّدهم بها عبثاً، وإنما خلقهم لغاية، وحينما نبحث عن هذه الغاية من خلال الصفات التي خصّ الله بها الناس، ينكشف لنا أن الغاية من خلق الناس مزوّدين بالصفات التي تؤهلهم للامتحان، إنما هو امتحانهم في ظروف هذه الحياة الدنيا. وهذا الذي نهتدي إليه بالتأمل الفكري، قد بينه الله لنا في كتابه، وأبان لنا أن حكمته قد اقتضت فعلاً امتحان هذا الإنسان، إذ منحه الصفات التي تؤهله لذلك، فقال تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الملك ٦٧):

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

رابعاً: وإنه ــ جلت حكمته ــ قد وضع هذا الإنسان في الظروف الملائمة للاختبار على أحسن وجه وأكمله؛ إذ قذفه إلى الحياة الدنيا، حرَّ الإرادة بين كفتي ميزان: من العقل والشهوة، ودوافع الخير ونوازع الشر، وبواعث الرحمن ونزعات الشيطان، وجالبات السرور ومذيقات الألم. ثم قوّى عنده جانب الحق والخير والفضيلة بالميل الفطري إليها، ورجّح لديه

جانب الطاعة بالترغيب والترهيب، فأرسل إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب، فعرف أوامر الله ونواهيه، وفهم تكاليفه.

ويتلخص المطلوب من الإنسان في هذا الامتحان بأنه مكلف أن يعبد ربّه، والعبادة تشمل: الإيمان والعمل، والطاعة على قدر الاستطاعة، وفق أوامر الربّ ونواهيه. وقد بيّن الله المطلوب من الإنسان في الامتحان الذي خُلق له، بقوله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

وهنا لا بدّ أن ندرك أن الامتحان يقتضي الجزاء، وإلاّ كان عبثاً لا معنى له، وحكمة الله العلي القدير تأبى هذا العبث. فالجزاء أمرٌ لازم لحكمة الابتلاء، ضرورة أن الحكيم الذي قرّر بحكمته أن يبتلي، لا بدّ أن يكون قد رتّب في خطته أن يجازي الممتَحنين بحسب أعمالهم. وقد بيّن الله لنا ذلك في كتابه بنصوص كثيرة سيأتي ذكر قسم منها إن شاء الله، فمنها قول الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

ولـمّا كان الجزاء المرتب في الخطة غير واقع على الوجه الأتم في ظروف هذه الحياة الدنيا؛ كان لا بدّ من ظروف حياة أخرى يتمّ فيها الجزاء الأمثل.

بذلك تقضي حكمة الخالق العظيم، وهذا التأمل النظري يفتح أمامنا أبواب التصوّر الصحيح، لإدراك الآخرة والإيمان بها.

ولـمّا كان الامتحان موجَّهاً لإرادة الإنسان وعقله، كانت الأعمال التي يقوم بها بإرادته واختياره، هي الأعمال التي يستحقّ عليها الجزاء، أما الأعمال التي يُلجأ إليها، أو توجد فيه دون أن يكون له فيها كسب، فهي أعمال لا يستحق عليها ثواباً ولا عقاباً، لأنها ليست من أعماله، ولا من كسبه.

خامساً: وإنه ـ جلت حكمته ـ قد فسح أمام الإنسان مجال الدنيا، وقد جعلها مشحونة بمسالك الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والطاعة والمعصية، ليختار ـ وهو حرّ ـ سلوكه النفسي والعملي في أحد طريقين:

(أ) طريق الحق والخير، والفضيلة والطاعة.

(ب) أو طريق الباطل والشر، والرذيلة والمعصية.

ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

سادساً: وإنه ـ جلت حكمته ـ قد جعل تكليف كل نفس توافرت لديها شروط التكليف محدوداً بحدود استطاعتها؛ ومنحصراً في طاقتها المزودة بها هبةً من الخالق العظيم، الفاطر الحكيم.

«لا يكلف الله نفساً إلا وُسعَها»، «لا يكلّف الله نفساً إلا ما آتاها».

فعلى مقدار الهبة تكون درجة التكليف والمسؤولية، لذلك تتفاوت درجات مسؤوليات الأفراد بحسب هبات الله لهم، وبذلك يتحقق كمال العدل الرباني.

فلا تكون إذن مسؤوليّة ضعيف الذكاء، بمقدار مسؤولية الذكي الألمعي، في ميدان المعرفة.

ولا تكون مسؤولية العيي، بمقدار مسؤولية الفصيح المِنْطِيق، في ميدان الدعوة.

ولا تكون مسؤولية المريض أو الأعرج أو الأعمىٰ، بمقدار مسؤولية الصحيح السليم البصير في ميادين الجهاد والعمل.

ولا تكون مسؤولية من نشأ بين الإبل والشاء في البادية، بعيداً عن مراكز العلم والمعرفة ومواعظ المرشدين، بمقدار مسؤولية من نشأ في بيئة إسلامية تنتشر فيها المعارف والعلوم، والمواعظ والإرشادات.

ولا تكون مسؤولية المقتَّر عليه في الرزق، بمقدار الموسَّع عليه فيه، في ميدان البذل والإنفاق.

وبناءً على ذلك نستطيع أن نعالج فهم التطبيقات التالية:

١ ـ الفقير الذي لا مال عنده: مسؤول عما هو داخل في استطاعته النفسية من الصبر، واستطاعته الجسدية من السعي الشريف، لاكتساب قوته وقوتِ أسرته كما أمره الله.

أما الغني ذو المال الكثير: فهو مسؤول عما هو داخل في استطاعته من الشكر المكافىء للصبر، ومسؤول أيضاً عن ماله كيف اكتسبه، وكيف ينفقه في وجوه الحلّ، ومسؤول عن تأدية ما أوجب الله عليه من بذل، وترتفع المسؤولية كلما زاد ماله ولو بمقدار قيراط. فالمنحة الزائدة يقابلها دائماً مسؤولية زائدة.

٢ ـ من رزقه الله عقلاً وذكاءً كان مسؤولاً عن هذه المنحة بمقدارها، بخلاف الحمقى والنوكى، وضعيفي الذكاء.

٣ ـ من رزقه الله عمراً مديداً كان مسؤولاً عن عمره بمقدار امتداده.

٤ ــ من حباه الله علماً كان مسؤولاً عن علمه الذي حباه الله إياه على مقداره.

٥ ــ من أعطاه الله قوة جسمانية وشجاعة كان مسؤولاً عن ذلك بمقدار العطاء الرباني.

٦ ــ من آتاه الله ملكاً وسلطاناً كان مسؤولاً عن ملكه وسلطانه بمقدار ما أوتي منهما.

وهكذا سائر هبات الله المتفاوتة، والمسؤولية الربانية تتناسب دائماً مع مقدار الهبة طرداً وعكساً، وبمقدارها يكون الحساب.

ويشهد لهذا كثير من النصوص الدينية، منها قوله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴿٦١﴾﴾.

ومنها قوله تعالى يخاطب نساء النبي في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

فقد زادهن الله مسؤولية بنسبة زيادة معرفتهن، بسبب ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، إذْ جاء في الآية (٣٤) من السورة السابقة قوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

وهكذا نلاحظ أن زيادة المسؤولية قد استتبعت ــ بموجب قانون العدل الرباني ــ زيادة الجزاء بالعقاب وبالثواب، فإن أتين بفاحشة يضاعف لهنّ العذاب ضعفين، وإذا عملن صالحاً آتاهنّ الله أجرهن مرتين، فالغُنم بالغرم.

ومنها قوله تعالى في باب المسؤولية بالنفقة في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

فهذه الآية تنص على أن التكليف بالنفقة مرتبط المقدار بنسبة السعة أو الإقتار.

ولـمّا كان لكل إنسان نوع امتحان مكافىء للمنح التي حباه الله إياها، كان عدل الله في ابتلائه واختباره مضموناً له، في حدود ما اختصه الله به من هبات، مهما كان مستواها.

إلا أنه لا حقّ للإنسان في الاعتراض على الخالق الواهب في أصل الهبة، وفي درجتها، تسامت هذه الدرجة أو تنازلت؛ لأن الله تعالى قد وهبه من فضله الخالص دون حق سابق، وليس على ذي الفضل الخالص أن يسوي في أصل عطائه، وفيض هباته.

وقد تفضّل الله بأصل الخلق، ثم جعل من مخلوقاته جماداً ونباتاً، وحيواناً وإنساناً، فليس لواحد منها أن يعترض على أصل الهبة. ثم جعل الناس متفاوتين في نسب الهبات، فليس لأحد منهم أن يعترض على درجة هبته، «يختص برحمته من يشاء».

ولله حكمته العظيمة في شأن التفاوت في الهبات والخصائص. منها أن يتم نظام الكون بهذا الإبداع الرائع الذي هو عليه، وأن تتكامل عناصره وأجزاؤه المختلفة تكاملاً لا نقص فيه ولا خلل، وأن يكون على أمثل صورة يتم فيها تحقيق ظروف الامتحان الرباني.

قال الله تعالى في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

سابعاً: وإنه ــ جلت حكمته ــ قد جعل أساليب الامتحان ومظاهره متنوعة.

فقد يمتحن طائفة من الناس بنوع منها، في حين أنه يمتحن طائفة أخرى بنوع آخر منها، وطائفة ثالثة بنوع ثالث، وهكذا...

وكل نوع منها يؤدي الغاية ذاتها التي يهدف إليها الامتحان المشمول بالعدل الإلهي، والملاحظ فيه استعدادات الفرد التي وهبه الله إياها، مادية كانت أو معنوية، وذلك كله ضمن معادلات رياضية دقيقة، لا تستطيع القدرات الإنسانية مهما بلغت متابعة حسابها، وذلك لأن المحاسبة الربانية الدقيقة لا تهمل أي جانب من جوانب الإنسان التي تتأثر بإرادته؛ سواء أكانت فكرية أو نفسية أو سلوكية.

ونستطيع أن نقرِّب ذلك للفهم بملاحظة الأمثلة التالية:

(أ) فيمكن أن نقول: إن امتحان درجة الصبر بالفقر أو المرض، أو فقد الحبيب بنسبةٍ

توافق الاستعداد الفطري الموهوب لإنسانٍ موضوع تحت الامتحان الرباني، يساوي امتحان درجة الشكر بالغنى أو الصحة، أو السرور بلقاء الأحبة، بنسبةٍ توافق الاستعداد الفطري الموهوب لإنسان آخر موضوع تحت الامتحان الرباني.

وإذا كان من واجب الإنسان أن يعترف بأن الله أكرمه إذا فتح عليه أبواب الرزق والنعمة، فإن عليه أيضاً أن يراقب مع ذلك أن الله تعالى قد أكرمه بها في الدنيا لابتلائه، واختبار شكره، وحسن عمله.

أمّا إذا قدَرَ الله عليه رزقه، وضيّق عليه مسالك العيش، فليس له أن يقول: إن ربي أهانن، بل عليه أن يلاحظ دائماً أن الله ابتلاه بذلك، بعد أن وهبه ما وهبه من جلائل المنح التي ميز الإنسان بها، ثم يسعى جهده حتى يبرهن على استحقاقه لهذا الكمال الإنساني، وذلك بالصبر والرضا عن الله تعالى في قضائه وقدره، والاستقامة على الطريق التي شرعها الله لعباده.

وإلى هذه المعاني نجد الإشارة في قوله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾.

وجاء بعد ذلك الزجر بقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأول إكراماً، وليس الآخر إهانة، بل كلٌّ منهما للابتلاء.

(ب) ويمكن أن نقول: إن امتحان درجة الطاعة بالجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، في ميدان الدفاع عن شريعة الرحمن، بنسبةٍ توافق الاستعداد الفطري الموهوب لإنسان موضوع تحت الامتحان الرباني، يساوي امتحان درجة الطاعة بالتزام أحكام الله، وضبط النفس عن الطغيان في ميدان الحكم والسلطان. فالجندي في المعركة ممتحن على قدر استعداده، بمثل امتحان ذي السلطان على كرسي حكمه، الأول منهما تُمتحن إرادته لمقاومة جبن النفس في ساعة الشدّة والفزع، والثاني تمتحن إرادته لمقاومة طغيان النفس في ساعة الرخاء والطمع.

يضاف إلى ذلك ما في التفاوت بين الناس من ابتلاء بعضهم ببعض، فتبتلى ــ مثلاً ــ إرادة الغني في الإحسان والتواضع أمام فقر الفقير، وتبتلى إرادة الفقير في الرضا والقناعة، ومجانبة الحسد أمام غنى الغني. وهكذا يبتلى الصحيح بالسقيم، والسقيم بالصحيح. ويبتلى القوي بالضعيف، والضعيف بالقوي. ويبتلى الراعي برعيته، والرعية براعيها. ومن ذلك ابتلاؤه تعالى المؤمنين بمجاهدة الكافرين.

ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (محمد ٤٧) أيضاً:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾.

(ج) وهناك أمثلة كثيرة متنوعة معقدة لأنواع الامتحان الرباني للإنسان، وذلك لأن النفس الإنسانية أعقد ما في الوجود. ولكن عدل الله العليم بكل شيء يتناول كل صغيرة وكبيرة، ويشمل الكليات والجزئيات بقانون:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

وذلك لأن الإنسان قد يُفتتن بما يراه ضراً وشراً، فيتخاذل أو يثبت، وقد يفتتن بما يراه نفعاً وخيراً، فيتخاذل أو يثبت، وفي كل منهما يتم الابتلاء والاختبار، والابتلاء بأيٍّ منهما يؤدي إلى الغاية نفسها، المبتغاة من امتحان الإنسان.

إلّا أن الفتنة بالضراء تغري بالضجر والتذمر، والتطاول على مقام الربوبية، والعناد عن الطاعة، لمرارتها على النفس. أما الفتنة بالسراء فتغري بالبطر والجحود، والبغي والطغيان، والتمادي في مخالفة الله والبعد عن طاعته، اغتراراً بحلاوة مذاقها.

وربما كان الابتلاء بالضراء بالنسبة إلى بعض الناس أصلح من الابتلاء بالسراء، لأن استعدادهم للصبر على المصيبة أكبر من استعدادهم للصبر على ضبط النفس عن التمادي في البغي والإثم، إذا هم انغمسوا في زينة الحياة الدنيا، واغتروا بحلاوة إقبالها.

ونجد الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

وقوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾.

أليس في هذه الآيات بيان واضح دالٌ على قاعدة الابتلاء الرباني للإنسان بالحسنات والسيئات؛ وبالضراء والسراء، وذلك لامتحان درجة صبره، ودرجة شكره، لكل ما يأتيه من قبل الله مهما مرّ أو حلا؟!

وأخيراً:

فهذه هي أسس الامتحان والابتلاء الرباني للإنسان في مجال الحياة الدنيا؛ حسب مبلغنا من العلم.

وإذْ كان الأمر كذلك، وإذْ تحقّق بهذه الأسس استكمال الشروط المثلى للامتحان الرباني الدقيق الأمثل، كان لا بد من التنبيه على ثمرة الامتحان ألا وهو الجزاء.

(٢)
إقرار قانون الجزاء الرباني وإعلانه

وهكذا نرى في قوانين الخالق العظيم وأنظمته الحكيمة ترابطاً تاماً، فقانونُ خلق مخلوق حيّ، ذي غرائز وشهوات، وذي عقل وإرادة ونوع من القدرة، يستتبع قانونَ فسحِ المجال لكل منحة من هذه المنح الموهوبة له أن تسعى لتلبية فطرتها.

وبما أن الإرادة لا تتم تلبية فطرتها إذا حُدّد لها في الإمكان طريق واحدة، كان لا بد من وجود قوانين: الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

وهذه القوانين السابقة تستتبع قانون الابتلاء الذي يتمُّ بالتكليف على مقدار الاستطاعة؛ من إرادة أو قدرة.

وإذْ كان التكليف يستلزم تبليغ المكلَّف الأمر والنهي وما يلحق بهما، فقد أتم الله ذلك عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأخيراً: فإن قانون الابتلاء يستتبع قانون الجزاء، ولذلك قرر الخالق العظيم، الفاطر الحكيم، قانون الجزاء على العمل الإرادي، سواء كان عملاً جسمانياً ظاهراً، أو عملاً داخلياً نفسياً، أو قلبياً أو فكرياً.

ولدى ملاحظتنا لنصوص الشريعة الربانية، نجد أنها تقرر قانون الجزاء العادل، وتعلنه وتنبِّه عليه، فتبشر وتنذر منذ بدء التكليف.

قال الله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾.

قانون الجزاء أثر من آثار صفة العدل الإلهي:

وفي إقرار هذا الجزاء تحقيق لآثار صفة من صفات الله تعالى وهي صفة (العدل)، التي تستدعي أن لا يسوِّي الله بين المحسنين والمسيئين، ولا بين المسلمين والمجرمين.

وفي هذا يقول الله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ففي هذه الآية ينفي الله سبحانه أن يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيئون في قانون عدله.

ويقول سبحانه في سورة (القلم ٦٨):

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ففي هذه الآية أيضاً يعلن الله تعالى أنه لا يمكن ــ في قانون عدله ــ أن يجعل المسلمين مثل المجرمين، وذلك على طريقة الاستفهام الإنكاري المتضمن معنى التعجب.

ثم يقول تعالى ــ في ردّ توهّم الذين يجترحون السيئات، الطامعين أن يكون لهم عند الله مثل ما للذين آمنوا وعملوا الصالحات ــ في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وفي هذا إعلان لهم بأن الله قد أخذ على نفسه أن لا يجعل الفريقين سواء محياهم ومماتهم؛ فإن توهّم مجترحو السيئات ذلك، وحكموا به على الله، فقد ساء ما يحكمون، لأنهم خالفوا في إدراك قانون العدل صريح النقل، وبديهة العقل.

(٣)
الجزاء الرباني بين الفضل والعدل

لكننا إذا أمعنا النظر في حال المخلوق بين يدي خالقه، تجلى لنا حقيقتان:

الحقيقة الأولى: أن عبادة المخلوق وطاعته له، حق واجب عليه تجاه ربه، مسبوق بنعمه الكثيرة التي تستوجب الشكر عليها، ولو أن المخلوق ظل حياته كلها ــ مهما طالت ــ في أعلى

مرتبة من مراتب العبادة لخالقه، والطاعة له، والاستقامة على الصراط السوي الذي أمر به، لكان ذلك منه تأدية لبعض ما يجب عليه نحو ربه، من شكرٍ على نعمه التي لا يستطيع إحصاءها عدّاً.

وإن إقرار الخالق العظيم لقانون المثوبة على ما نقوم به مما يجب علينا تجاهه، تفضُّلٌ منه تعالى، ولو أنه سبحانه لم يقرّر شيئاً من ذلك لم يُخلّ في صفة عدله، ولكنه ـ جل وعلا ـ وعدنا بالثواب على الإيمان والإسلام والإحسان، فضلاً منه ومنّاً، وذلك كما امتن علينا ابتداءً، ويمتنُّ علينا دواماً، بإفاضة النعم الكثيرة التي لا تحصى.

ونستخلص من ذلك أن الجزاء بالمثوبة على ما نفعل من خير إنما هو فضل من الله؛ نستحقه بكريم وعده، وليس لنا فيه حقٌّ ذاتي.

الحقيقة الثانية: ولـمّا كان الإيمان بالله وطاعته حقاً واجباً على المكلّفين، كان الجحود والعصيان مستوجبَيْنِ الجزاء بالعقوبة ضمن قانون العدل الرباني، وإدراك هذه الحقيقة من الأمور البدهية التي لا تحتاج إلى إقامة دليل.

فالجزاء بالعقوبة على ما نفعل من شرٍّ تطبيقٌ لقانون العدل المُدْرَكِ بالبديهة، وقد كشف الله لنا في الشريعة صفة عدله، وأعلن علينا وعيده بالجزاء العادل إذا نحن جحدنا أو عصينا.

وفي الإعلان عن هاتين الحقيقتين يقول الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

وفي الإشارة إلى أن ما يصيبنا من حسنات بقضاء الله فإنما هو تطبيق لقانون الفضل الإلٓهي، وما يصيبنا من سيئات بقضاء الله فإنما هو تطبيق لقانون العدل الإلٓهي، يقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

أي: ما أصابك من حسنة ـ بقضاء الله ـ فمن فضل الله، لأن الإنسان مهما عمل من طاعة فإنه لا يستحق الأجر عليها استحقاقاً ذاتياً، وإنما يستحقه بما تفضّل الله به من وعد كريم.

وما أصابك من سيئة ـ بقضاء الله ـ فمن نفسك، أي: لأن ذنبك هو السبب في استحقاق العقوبة. والله أعلم.

وتوضيحاً للحقيقة الأولى: جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «سَدِّدوا وقاربوا وأبشروا فإنّه لا يُدْخِلُ أحداً الجنَّةَ عَمَلُه، قَالُوا: ولا أَنْتَ يا رَسُولَ الله؟ قال: وَلَا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدني الله بمغفرةٍ ورَحْمةٍ». (رواه البخاري عن عائشة)

وتوضيحاً للحقيقة الثانية: جاء في كلام الرسول ﷺ قوله: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلاَّ كفَّر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها».

(رواه البخاري ومسلم. . . عن عائشة رضي الله عنها).

ونلاحظ في مضمون الحقيقة الثانية أنه قد يأتي الفضل بالعفو والغفران، فيمحو مقتضى العدل، ولكن له قاعدة معلنة في قوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴿٤٨﴾﴾.

أدنى الجزاء على الحسنة عشر أمثالها، وأعلى الجزاء على السيئة مثلها:

ولـمَّا كان الثواب على الحسنات إنما يتم بفضل الله ـ وفضل الله غير محدود ـ كان قانون الثواب الرباني واسع الكرم، لذلك نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يعلن لعباده في كتابه المجيد أن أدنى الأجر على الحسنة عشر أمثالها، أما أعلاه فلا حدّ له!!

ولـمَّا كان العقاب على السيئة إنما يتم بعدل الله، كان قانون العقاب الرباني عادلاً لا يظلم مثقال ذرة. أمَّا أعلاه فيكون بجزاء السيئة بمثلها، وأما أدناه فلا حدَّ له، لأن ذلك يدخل في باب الفضل، وفضل الله غير محدود! ويمكن أن نقول: إن أوسط المراتب في هذا الباب مرتبة التفضل بالعفو الكامل، ثم بعد التفضل بالعفو تأتي مراتب التفضل بالعطاء والإحسان، لكن الله قرر أنه لا يغفر ذنب الإشراك به، أي: ممّا هو أشدّ من الشرك، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، كما سلف بيانه.

الدليل القرآني:

قال تعالى مقرِّراً قانون أدنى الجزاء على الحسنة، وأعلى الجزاء على السيئة في سورة (الأنعام ٦):

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

وقال تعالى مقرِّراً مضاعفة الثواب إلى سبعمائة ضعف، ثم إلى أضعاف كثيرة في سورة (البقرة ٢):

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

وقال تعالى مقرِّراً تفضّله بالتوبة على من يشاء من عباده، إذا هم فعلوا السيئات ثم تابوا من بعد ذلك في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

إلى غير ذلك من نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

(٤)
الجزاء المعجَّل والجزاء المؤجَّل

وبتتبُّع نصوص الشريعة للبحث عن بيانٍ تفصيلي للجزاء الرباني، يتجلى لنا أن الخالق العظيم قد جعل من الجزاء ما هو معجّل، وجعل منه ما هو مؤجّل.

فكل من الجزاء بالثواب والجزاء بالعقاب قد يُعجَّل تحقيقه أو تحقيق قسم منه؛ فيتم في الدنيا، وقد يُؤجّل تحقيقه أو تحقيق قسم منه للدار الآخرة. ولذلك نلاحظ نصوص الشريعة فنراها ترغِّب بكلٍّ من قسمي الثواب المعجل والمؤجل، وترهِّب من كلٍّ من قسمي العقاب المعجل والمؤجل.

(أ) الجزاء المعجّل:

فالمعجل من الجزاء بالثواب في الدنيا أنواع كثيرة لا تحصى من الرغائب المادية والمعنوية؛ التي يحبوها الله للمحسنين. منها النصر والتأييد والعز والسؤدد. ومنها الشعور بالسعادة وطمأنينة القلب. ومنها اللذة بفيوض المعرفة الإلهية والحكم الربانية، التي يلقيها الله في قلوبهم. ومنها البركة في الوقت والمال، والزوج والولد. ومنها التوفيق الذي يذلِّل الصعاب ويرافق الأعمال. إلى غير ذلك مما لا يحصى...

والمعجل من الجزاء بالعقاب في الدنيا أنواع كثيرة أيضاً، مادية ومعنوية، مشتملة على صنوف العذاب والخزي، والعيش الضَّنْك، يجزي بها الله المسيئين. منها الفشل والخذلان. ومنها الشعور بالشقاء والقلق. ومنها الألم وضيق الصدر، وتبلبل الفكر واضطراب النفس. ومنها محق البركة والخير من الوقت والمال، والزوج والولد. ومنها المصائب والبلايا الكثيرة في النفس والمال والأهل. ومنها مجانبة التوفيق في الأمور. ومنها الإذلال والإهانة. ومنها العذاب

الماحق، الذي ينزله الله على أهل الكفر والعناد. ومنها تنفيذ العقوبات المقرّرة في الشريعة على بعض الكبائر. إلى غير ذلك مما لا يحصى...

فمن سنن الله الدائمة تحقيق معجل الجزاء بقسميه ــ الثواب والعقاب ــ وشواهده كثيرة في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والأحداث التاريخية اليقينية، والوقائع المستمرة. وفيما يلي طائفة من النصوص القرآنية الدالة على ذلك:

١ ــ قال تعالى ــ معلناً عن معجل الثواب للمحسنين ــ في سورة (النحل ١٦):

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٢ ــ وقال تعالى مبيناً كلًّا من معجل الثواب والعقاب في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ففي هذه الآية بيان من الله تعالى: أن من سنته ــ في الحياة الدنيا ــ أن يجازي بالثواب الدنيوي المؤمنين المتقين، وذلك بأن يفتح عليهم البركات من السماء والأرض، وأن يجازي بالعقاب المكذبين، وذلك بأن يأخذهم بالعذاب بما يكسبون.

٣ ــ وقال تعالى في شأن سيدنا نوح عليه السلام في سورة (القمر ٥٤):

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

ففي هذه الآية بيان من الله العظيم: أن تأييد الله لرسوله نوح عليه السلام بحمله في السفينة بعد أن كفر به قومه وكذبوه؛ وإنقاذه مع من آمن معه محفوظاً بعناية الله ورعايته؛ قد كان من الجزاء الدنيوي له، على ما كان من أذى قومه له بالكفر والتكذيب.

٤ ــ وبيّن الله معجّل ثواب الذين رضي عنهم من المؤمنين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة عام الحديبية؛ فقال تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

٥ ــ وقال تعالى مبيّناً معجّل العقاب للمسيئين في سورة (الزمر ٣٩):

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٦ ــ وقال تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

٧ ــ وقال تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

*** نِعمُ الجزاء والابتلاء والاستدراج:**

وهنا ينبغي أن نعلم أنه ليست كل نعمة ينالها الإنسان في الدنيا هي من قبيل الجزاء بالمثوبة؛ وليست كل مصيبة تَمَسُّه في الدنيا هي من قبيل الجزاء بالعقوبة؛ فلكلٍ من النعم والمصائب في الدنيا أبواب أخرى غير باب الجزاء.

ونستطيع أن نقسم النعم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول ــ نعم الجزاء: وهي التي تكون ثواباً من الله تعالى للإنسان على ما قدم من حسنات. وفي هذا النوع تأييد رباني، وتشجيع من شأنه أن يدفع الإنسان لمضاعفة العمل الصالح، والتزام سلوك الصراط المستقيم في أمره كله.

النوع الثاني ــ نعم الابتلاء: وهي النعم التي يفيضها الله على عباده ليبتليهم بها، ويمتحن شكرهم وطاعتهم.

النوع الثالث ــ نعم الاستدراج: وهي النعم التي يوليها الله للكافرين والعصاة، الموغلين في عنادهم لربهم ومخالفتهم له، استدراجاً لهم بتهيئة الظروف التامة لحُرِّيَّة إرادتهم في الدنيا، حتى إذا أنزل بهم العقاب الشديد الذي يستحقونه، لم يكن لهم عذر عند ربهم!!

*** مصائب الجزاء والابتلاء والتربية:**

كما نستطيع أن نقسم المصائب إلى ثلاثة أنواع أيضاً:

النوع الأول ــ مصائب الجزاء: وهي المصائب التي تكون عقاباً من الله تعالى للإنسان على ما اكتسب من سيئات. وفي هذا النوع عناية من الله بعبده، ليتذكر فيتعظ، ويتوب إلى الله تعالى.

ونجد الإعلان عن هذا النوع في قوله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

النـوع الثاني ــ مصائب الابتلاء: وهي المصائب التي يتعرض لها أهل الـطاعـة، ليبتـلي الله بها صبرهم، فيرفـع درجاتهم ويزيد من حسناتهم.

ويشهد لهذا النوع قوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

النوع الثالث ــ مصائب التربية: ويمكن أن نجعل من هذا النوع المصـائب التي يتعرض لها مَنْ هم دون التكليف؛ فهي من جهة مصائب ابتلاء أو تربية أو جزاء لأوليائهم، ومن جهـة ثانية مصائب تربية لمن هم دون التكليف، لأن كثيرا من صفـات الكمال في الإنسـان لا توجـد ولا تنمو إلا في ظروف المصائب.

على أن عدل الله لابد أن يتحقق فيمن يصيبهم بالمصائب وهم دون التكليف، فلا بد أن يعوِّض الله عليهم من فضله ثواباً على ما أصيبوا بـه، سواء في الـدنيا أو في الآخـرة: «سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

(ب) الجزاء المؤجل:

أما المؤجل من الجزاء بالثواب أو بالعقاب فيكون على ثلاث مراحل:

المـرحلة الأولى: مرحلة مـا بعد المـوت وقبل البعث، وهـذه هي فترة البـرزخ. ويسمى النعيم والعذاب فيها بنعيم القبـر وعذابـه، وقد ورد في نعيم القبـر وعذابـه جملة من الأحاديث النبوية، ومنها ما يتضمن أن القبر إما روضة من رياض الجنـة أو حفرة من حفـر النار. وسيـأتي بعض تفصيـل لهذه المرحلة.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد البعث، وقبـل انصراف أهـل الجنة إلى الجنـة وأهل النـار إلى النار.

ويكون ذلك في يوم الحساب، ويتم فيه من الجزاء بالثواب وبالعقاب أنواع مختلفة. فمن الثواب فيه الاستظلال بظل العرش، والشرب من الحوض، وتهوين طول الموقف، والمرور على الصـراط المستقيم بسرعـة، إلى غير ذلـك. ومن العقاب فيـه شدة حـرارة الشمس عـلى أهـل

الـذنوب، كـلٌّ بمقداره، والكـرب والظمـأ الشديـدان، والتعتعة عـلى الصراط، وطـول انتظار الحساب، إلى غير ذلك من صنُوف العذاب.

وسيأتي تفصيل موجز لما سيكون في هذه المرحلة.

المـرحلة الثالثـة: وهي المرحلة الأخيـرة التي يَتِمُّ فيها الثـواب الأكبر بـدخول أهـل الجنةِ الجنة، والعقاب الأكبر بدخول أهل النارِ النارَ.

ودخول الجنة أبديٌّ لكل من يدخلها، ودخول النار أبديّ بالنسبة إلى الكافرين، ومؤقت بالنسبة إلى عصاة المؤمنين، كلّ بحسب ذنوبه وسيئاته.

ويمكن أن نقـول: إن الله العلي القـدير قـد جعل تحقيق الجـزاء الأكمل في اليـوم الآخـر ـ يوم الخلود ـ؛ ليستكمل حِكَمه العظيمـة المشتملة على سرّ الخلق والإبـداع، ولله في إبداعـه أسرار لا يحيط بعلمها إلا هو.

هذا وإن اليوم الـذي يتمُّ فيه الجـزاء المؤجّل بعـد البعث، هو اليـوم الذي جـاء وجوب الإيمان به ركناً من أركان العقيدة الإسلامية، وسيأتي في هـذا الباب أربعـة فصول متعلقـة بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان، مقترنة بقواطـع النصوص الدالّة على ما جاء فيها.

(٥)

حــدود المسؤولية

وللمسؤولية تجاه الخالق حدود، نحاول أن نوضـح معالمها في الفقرات التالية:

١ ــ تمهيد في مُدَّة الابتلاء وشروط التكليف:

عرفنا مما سبق أن مُدّة الابتلاء منحصرة في إطار الحياة الدنيا، ومنوطة أيضاً بتوافر شروط التكليف، ونستنتـج من هذين الأمرين عدة أحكام:

الحكم الأول: أنه إذا مات المكلَّف انتهت مُدّة ابتلائه، وبدأت مـراحل جـزائه. لـذلك فلا ينفعه إيمانه ولا توبته متى لامس الحدّ الفاصل بين أول مرحلة من المراحـل التي تبدأ بـالموت وآخر مرحلة من المراحل التي تنتهي بها الحياة الأولى.

فمنذ هذه اللَّحظة لا يستطيـع أحد أن يجحد الله، أو يكفر بـه أو يعصيه، إذ تنكشف له الحقيقـة بالشهـود التام الـذي لا يخالـطه أدنى توهُّم، وينتهي عنـدها مـوضوع الإيمـان بـالغيب المطلوب من الناس على لسان الرسل عليهم السلام، وتذهب خصائص الابتلاء التي كـانت له في الحياة الدنيا قبل موته.

الحكم الثاني: أنه ما لم تتوافر شروط التكليف لم يتوجَّه الابتلاء أصلاً. لذلك: فالطفل غير المميز والمعتوه وفاقد الإدراك، غير مكلَّفين بالشرائع الربانية، لأنهم ليسوا أهلاً لإدراك معنى الألوهية، وفهم أوامر الله ونواهيه.

وكذلك مسلوبو الإرادة بشكل كليّ أو جزئي؛ غير مكلَّفين بما لا سلطة لإراداتهم عليه، ومن ذلك الأمور الانفعالية التي لا يملك الإنسان دفعها ولا رفعها، ولم يكن له تسبب مسؤول عنه في جلبها.

الحكم الثالث: أنه متى فُقدت شروط التكليف بعد وجودها ارتفع حكم الابتلاء حتى تعود الأهلية.

لذلك فالتكليف يرتفع عن المجانين منذ بدء جنونهم حتى تعود إليهم عقولهم، كما يرتفع التكليف عن مسلوبي الإرادة فيما يكونون فيه آلة لغيرهم، وذلك كمن يُقذف به إكراهاً على إنسان فيقتله، دون إرادة منه، أما إذا كان لإرادته تدخُّل في هذا، فهو شريك في الإثم.

٢ ـ بيان حدود المسؤولية:

أما حدود المسؤولية في مدّة الابتلاء المتوافرة فيها شروط التكليف؛ فتتلخص بأمرين:

الأمر الأول: المسؤولية عن الكسب الإرادي البدني والنفسي والفكري.

إذ الإرادة كما سبق هي محلّ المسؤولية، وفاقد الإرادة لا مسؤولية عليه، وبناء على ذلك يكون توجيه الإرادة الجازمة لأمر من الأمور مع الوعي التام كافياً في ترتيب المسؤولية، سواء تمّ التنفيذ العملي أو لم يتمّ.

لكنه إذا لم يتمّ التنفيذ بسبب صرف الإرادة بإرادة ثانية مضادة لها، كانت هذه الإرادة الثانية ناسخة أثر الإرادة الأولى. أما إذا لم يتمّ التنفيذ بسبب موانع خارجية أوقفت محاولة التنفيذ، فإن المسؤولية قائمة، ويدل على هذا قول الرسول ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». (رواه البخاري ومسلم وغيرهما)

الأمر الثاني: المسؤولية عن آثار الكسب الإرادي البدني والنفسي والفكري. وهي الآثار التي تنجم عن الكسب الإرادي ولو بعد حين.

ويدل على هذه المسؤولية نصوص كثيرة، منها:

قوله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ». (رواه مسلم في باب الحث على الصدقة).

وقوله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». (رواه مسلم عن المشكاة رقم ٢٠٣)
(وفي مسلم «كتاب الوصية»)

*** وكسب الإنسان الإرادي يكون على وجهين أيضاً:**

١ ـ الكسب الإيجابي.

٢ ـ الكسب السلبي.

ـ **أما الكسب الإيجابي**: فهو أن يقوم الإنسان المكلف ـ بإرادته ـ بعمل إيجابي، سواء كان بدنياً أو نفسياً أو فكرياً، وكل ذلك إمَّا أن يكون في باب الطاعات والفضائل، وإمَّا أن يكون في باب المعاصي والرذائل أو المخالفات.

الأمثلة:

(أ) كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بخدمة الوالدين وبرِّهما، وصلة الأرحام، وتعليم العلوم الدينية، ونشر الشريعة الربانية، وإصلاح المجتمع بوسائل التربية العملية المختلفة، «وهذا في باب الطاعات البدنية». ويقابل ذلك «في باب المعاصي البدنية» ممارسة الذنوب البدنية: كالقتل، والسرقة، والزنى، وشرب الخمر، ولعب الميسر، والغيبة المحرمة، والنميمة، وأمثال ذلك مما فيه معصية أو مخالفة بدنية.

(ب) وكشغل القلب والنفس بالحب في الله والبغض في الله، والسرور بعزَّة المسلمين، والانقباض لخذلانهم، والشوق لمناجاة الله والقيام بطاعته، والرضا عن الله في قضائه وقدره، وأمثال ذلك، «وهذا في باب الطاعات النفسية الإرادية». ويقابل ذلك «في باب المعاصي والمخالفات النفسية الإرادية»: شغلُ القلب والنفس بحب معصية الله ومخالفته، ومحبة أهل الكفر، ومُوادّة من حادّ الله ورسوله، والسرور بانتصار أهل الكفر على أهل الإيمان، والحسد والحقد، وعداوة أهل الحق، وأمثال ذلك ممَّا فيه معصية أو مخالفة نفسية.

(جـ) وكإعمال الفكر في تدبر آيات الله وآلائه، والبحث عن دلائل وجوده وكمال صفاته في آثاره، وابتكار ما فيه خدمة المسلمين، وتقويم سلوكهم، والتخطيط الفكري لفعل الخير ودفع الشر، «وهذا في باب الطاعات الفكرية الإرادية». ويقابل ذلك «في باب

المعاصي»: إعمالُ الفكر في ابتكار ما فيه خطط الأذى والضرر بخلق الله، أو البحث الفكري عن وجوه الشر، لممارستها أو نشرها وإفساد الناس بها، ومن ذلك التصميم الفكري على قتل مسلم عمداً وعدواناً، إلى غير ذلك مما فيه معصية فكرية تتحكم بها الإرادة.

ـ **وأما الكسب السلبي**: فهو أن يترك الإنسان المكلَّف ـ بإرادته ـ عملاً ما، سواء كان بدنيّاً أو نفسياً أو فكرياً، وكل ذلك إما أن يكون في باب الطاعات والفضائل، وإمَّا أن يكون في باب المعاصي والرذائل أو المخالفات.

الأمثلة:

كأن يترك المكلَّف ـ بإرادته ـ المحرَّمات والمكروهات البدنية والنفسية والفكرية؛ وذلك: كترك السرقة والزنى والقتل، وكترك الحسد والحقد، وكمجانبة التفكر فيما لا خير فيه، أو تعلم ما جاء النهي عن تعلمه، «وهذا في باب الطاعات». ويقابل ذلك «في باب المعاصي والمخالفات» ترك الواجبات والمندوبات البدنية والنفسية والفكرية: كترك الصلاة، والزكاة، والجهاد في سبيل اللَّه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإهمال تعلُّم ما ينبغي تعلمه من أمور الدين، وعدم محبة الله ورسوله، وعدم الرضا عن القضاء والقدر، وعدم التسليم لأحكام الله وشرائعه، وأمثال ذلك مما فيه معصية بدنية أو نفسية أو فكرية.

٣ ـ خاتمة:

وحدود المسؤولية بصورها المختلفة، تدخل ـ بوجه عام ـ في مفهوم قوله تعالى في سورة (الزلزلة ٩٩):

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

* وبعد أن توضحت لدينا حدود المسؤولية أمام الله تعالى، بالكسب الإرادي الإيجابي أو السلبي، وبآثار هذا الكسب، نستطيع أن نستنتج الأحكام التالية:

الحكم الأول: إذا مات ابن آدم انقطع عمله لانتهاء زمن ابتلائه، ولكن تبقى آثار عمله، فما ينجم عن عمله الذي باشره وهو حيّ من خير ـ ولو بعد موته ـ إلاّ تجدد له أجر يضاف إلى صحيفة عمله، وما ينجم عن عمله الذي باشره وهو حيّ من شر ـ ولو بعد موته ـ إلاّ تجدد له إثم يضاف إلى صحيفة عمله.

والنصوص التي نستطيع أن نستنبط منها هذا المبدأ من مبادىء المسؤولية والمحاسبة الربانية في باب التكليف كثيرة، منها ما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلاّ من ثلاثة أشياء: إلاّ من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». (رواه مسلم ـ كتاب الوصيّة)

«من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ». (رواه مسلم في باب الحث على الصدقة).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها، لأنّه أوّل من سنّ القتل». (رواه البخاري ومسلم)
(انظر الفتح رقم ٣٣٣٥)

الحكم الثاني: أن كل إنسان مسؤول عن كسبه، فلا يتحمل أوزار الآخرين، إلا إذا كان له تسبب فيها: كالإغواء والإضلال، أو إهمال واجب النصيحة والإرشاد، أو ترك فرض الجهاد في سبيل الله، أو كونه مطاعاً في قومه، فقلّدوه في الضلالة واتّبعوه، إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة. كما لا يستفيد من الأعمال الصالحة للآخرين، إلا إذا كان له تأثير فيها: كالتربية على الفضيلة، وتعليم أمور الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو كونه رئيساً مطاعاً في قومه، فقلّدوه بالهداية واتبعوه.

ونجد بيانَ هذا المبدأ من مبادىء المسؤولية والمحاسبة الربانية في نصوص كثيرة؛ منها ما يلي:

١ ـ قوله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

٢ ـ قوله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

٣ ـ قوله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

٤ ـ قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

٥ ــ قوله تعالى في سورة (الطُّور ٥٢):

﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

٦ ــ قوله تعالى في سورة (المدّثر ٧٤):

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ولذلك قال النبي ﷺ للأقربين من عشيرته: «اعملوا لأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً». ونادى جملةً من صفوة أقاربه، حتى بلغ إلى فاطمة بنته رضي الله عنها، فقال لها: «يا فاطمة بنتَ محمد اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً».

الحكم الثالث: الإنسان مسؤول عن آثار كسبه الإرادي، ومحاسب عليها.

الأمثلة:

(أ) فله ثواب الصدقة الجارية ــ ولو بعد موته ــ لأن استمرار الاستفادة منها في أبواب الخير من آثار كسبه.

(ب) وله ثواب العلم النافع الذي يقوم ببثه ونشره، أو التأليف فيه، فما ينجم عنه من نفع ــ ولو بعد موته ــ إلَّا كان له منه أجر، لأن استمرار الانتفاع به قد كان لكسبه تأثير فيه، وكذلك كل من ساهم في نشر هذا العلم النافع فله عند الله أجر. وفضل الله واسع فلا ينقص أحد من أجر الآخر شيئاً، مهما كثر المساهمون، وأجر كل منهم بنسبة مساهمته.

(ج) وتنفعه بفضل الله دعوة ولده الصالح له ولو بعد موته، لأن صلاح الولد في الغالب ثمرةٌ من ثمرات تربية أبيه، وذلك من آثار كسبه. كما تنفعه بفضل الله أعمال الطاعات التي يوصي بها أولياءه أن يفعلوها من بعد موته، لأن لكسبه تسبباً في فعلها من بعده.

(د) وله أجر كل من اهتدى بهديه من أتباعه أو أتباع أتباعه، الذين كان له كسب في تربيتهم وتهذيبهم؛ ولو من بعد موته.

(هـ) كما يتحمل تبعة السيئة الجارية ولو بعد موته، لأن استمرارها قد كان لكسبه أثر فيه.

(و) ويتحمل تبعة العلم الضّار الذي يبثه وينشره في الناس ولو بعد موته، لأن كسبه في حياته قد كان له أثر في استمرار الضلالة به.

(ز) ويتحمل من أوزار ولده الذي أساء تربيته، ودفعه إلى سلوك سبل الشر.

كما يتحمل من أوزار كل من تأثر بإضلاله من أتباعه أو أتباع أتباعه؛ الذين كان له كسب في توجيههم وجهة الضلالة والشر.

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرةٍ.

ونجد بيان هذا المبدأ من مبادىء المسؤولية أو المحاسبة الربانية في نصوص كثيرة؛ منها ما يلي:

١ ــ قوله تعالى يصف الذين يُضلون الناس في سورة (النحل ١٦):

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وقد حملوا من أوزار الذين يضلونهم بغير علم لأن ارتكاب أولئك سبيل الضلالة كان بسبب إضلال هؤلاء لهم؛ بالإضافة إلى إراداتهم الخاصة.

٢ ــ قول الله تعالى يحكي قول بعض أهل النار يوم القيامة في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

٣ ــ قول الله تعالى في سورة (يس ٣٦):

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى يكتب ما قدّم الناس من أعمال خير وأعمال شرّ، ليحاسبهم عليها. ويكتب أيضاً آثارهم ــ أي آثار أعمالهم ــ ولو ظهرت هذه الآثار بعد انتهاء آجالهم في حياتهم الدنيا؛ وإنما يكتب هذه الآثار ليحاسبهم عليها أيضاً، فما كان منها خيراً كان لهم ثوابه، وما كان منها شرّاً كان عليهم عقابه.

هذا أحد وجوه تأويل الآية وأظهرها فيما أرى. والله أعلم.

٤ ــ ما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل:

(أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين).

فقد بين له الرسول ﷺ أنه إذا أسلم آتاه الله أجره مرتين، وذلك لأن لإسلامه أثراً في توجيه أتباعه ومقلّديه إلى الحق. وإن تولى تحمّل إثم كفره وإثم كفر الأريسيين ــ وهم

الفلاحون ومن لهم صفة التبعية لأمرائهم ورؤسائهم ـ أوهم أتباع أريوس الذي رفض التثليث وألوهية عيسى في مجمع نيقية سنة (٣٢٥م).

إلى غير ذلك من نصوص.

الحكم الرابع: إن الخواطر التي تخطر على فكر الإنسان دون أن تتحول إلى إرادة جازمة؛ لا تدخل في باب المسؤلية والمحاسبة، فإن تحولت إلى أرادة جازمة، دخلت في باب المسؤولية والمحاسبة، والخواطر إذا تحرّكت في اتّجاه الإرادة الجازمة دون أن تصل إلى الإرادة الجازمة تسمّىٰ همّاً.

وقد تفضّل الله علينا في هذا الباب فجعل الهمَّ بفعل الحسنة حسنةً يثاب الإنسان عليها ولو لم يعملها؛ فإذا عملها كتبت له عند الله عشر حسنات إلى أضعاف كثيرة، تحقيقاً لمقتضى قانون الفضل الرباني. وجعل جزم الإرادة بفعل السيئة والتصميم عليها سيئة، لكنه إذا لم يفعلها بإرادته، تحولت السيئة فصارت حسنةً يثاب عليها، فإن فعلها بإرادته كتبت له سيئة فقط من دون مضاعفة، تحقيقاً لمقتضى قانون العدل الرباني، أمّا مجرّد الخاطرة أو الهمّ دون جزم الإرادة فلم يرتب الله عليهما مسؤولية، فضلاً منه وكرماً[1].

□ □ □

---

(١) انظر تتمة الموضوع في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف: الفصل الرابع من الباب الأول.

الفصل الثاني
الإيمان باليوم الآخر

(١)
ضرورة الإيمان باليوم الآخر

حكمة الخالق العليم القادر، المنزّه عن كل نقص، تقتضي أن يختار أكمل الصور. وحين نلاحظ هذا من عناصر إيماننا بالله، لا بدّ أن نهتدي إلى أن حكمة الله تأبى أن يخلق هذا الكون عبثاً، وأن يخلق الإنسان بصفاته التي هو عليها باطلاً، وأن تكون نهاية قصة خلق الإنسان محدودة بظروف هذه الحياة الدنيا، بكل ما نشاهد فيها من أعمال خير وشر، تصدر عن هذا الإنسان أفراداً وجماعات!!

كان هذا هو المفتاح الذي فتح للفكر الحصيف باب الإيمان بالجزاء، ثم إن الإيمان بالجزاء ــ مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا ــ يهدي إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى؛ لا بد من قدومها ليتم فيها الجزاء الأمثل، وفق ما تقتضيه حكمة الخالق العظيم.

وهكذا يظهر لنا ــ بتسلسل البناء الفكري المنطقي ــ ركن الإيمان باليوم الآخر، والدار الآخرة، وهو أحد أركان الإيمان الأساسية، التي تألّفت منها القاعدة الإيمانية في الإسلام، وفي كل الأديان الربّانية الحقة التي لم يدخل إليها التحريف والتغيير والتشويه.

ونظراً إلى أن عقيدة الجزاء الرباني ــ الذي اهتدى الفكر إلى ضرورة يوم آخر لتنفيذه، غير يوم الحياة الدنيا ــ عقيدة تأتي في الفكر عقب الإيمان بالله الخالق العليم، الحكيم القادر، وجدنا نصوصاً قرآنية كثيرة قد اقترن فيها الكلام على الإيمان باليوم الآخر بالكلام على الإيمان بالله. فالتلازم الفكري ينتقل إلى فكرة الجزاء الرباني عقب إيمان الإنسان بالله خالقه ومدبر أمره في هذه الحياة الدنيا. وقد علمنا أن فكرة الجزاء الرباني ــ مع ملاحظة واقع هذه الحياة الدنيا ــ تهدي مباشرةً إلى إثبات الآخرة، انسجاماً مع ما توجبه حكمة الخالق المقرونة بواسع علمه وكامل قدرته وتنزهه عن كل نقص.

فالإيمان بالجزاء الرباني الأمثل، وبيوم هـذا الجزاء الأمثـل، وبما يستتبـع من حيـاة أخرى ودار أخرى، هو الركن الاعتقادي الإيماني الذي يقـع في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالله.

ونستطيـع أن نلخِّص السلسلة الفكرية الإيمانية التي تهدي الفكر إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر؛ على الوجه التالي:

أولاً: دراسة الكون والحياة والإنسان تهدي إلى الإيمان بالخالق العـظيم، القادر العليم، العدل الحكيم.

ثانياً: دراسة الغاية من الخلق التي تهدي إليها ملاحظة الكون وأحداثه الكبرى، وقوانينه الصارمة، وسننه الثابتة، لا تدع مجالاً لتصوّر اللعب واللّهو والعبث في أي حدث من أحـداثه؛ بل كل ما فيه جدٌّ، لا هزل يصاحبُه، ولا عبث يخالطه.

ثالثاً: دراسة العلاقة الأخلاقية والتكوينيـة، بين الخـالق الحكيم والإنسان المـدرك المريـد ــ ذي الغرائز والأهواء والشهوات، والذي يستطيـع أن يتـوجه لفعـل الخير والـطاعة، أو فعـل الشر والمعصية ــ تهدي إلى أن الإنسان خُلِق في هذه الحياة الدنيا للامتحان، والامتحان يستلزم الجزاء، في جدية قوانين الوجود وسننه الثابتة، وفي مقتضيات حكمة الخالق وعلمه وقدرته.

رابعاً: دراسة الظواهر الجـزائية في نـطاق هذا الكـون المدروس المشـاهد، تـدل على أن كمـال مقتضيات العـدل، وكمال مقتضيـات الحكمة، لم يتحققـا فيـه. وحـين نـلاحظ هـذا، ونـلاحظ معه صفـات الخالق العـظيمة التي منهـا العدل والحكمـة، والعلم والقدرة، ونـلاحظ قوانينه الصارمة وسننه الثابتة في الكون، فإننا نهتـدي ــ فكرياً ــ إلى أن حياة أخـرى قد رُتِّبت في برنامج الوجود الكبيـر، لإقامة كمال العدل وكمال الحكمة فيهـا، وفيها يتم تحقيق الصـورة المثلى للجزاء الرباني.

بهذه الدراسـة النظريـة الفكريـة المتسلسلة على هـذا الوجـه، المدعّمـة بالأدلـة العقلية، المستندة إلى دراسة ظواهر هذا الكون المشاهد، استطعنا أن نهتدي إلى ضرورة اليوم الآخر وإلى الإيمان به.

وهذا ما نبَّهت النصوص القرآنية عليه، وأعطت المفاتيـح العقلية للوصول إليه.

١ ــ فمنها قول الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

فهذا النص يكشف لنا أنّه لو لم يكن وراء هذه الحياة التي تنتهي بالموت حياة أخرى؛ تكون فيها الرجعة إلى الله للحساب والجزاء، وإقامة محكمة العدل والفضل الإلّهية لكانت عملية الخلق ضرْباً من العبث، والله عزّ وجلّ وتبارك وتعالىٰ منزّه عنه، فلا يكون في شيء من أفعاله وأحكامه، وأوامره وشرائعه عبث، بل لا بدّ في كل ذلك من غايات حكيمة، تحدّدها إرادة الخالق المستندة إلى علمه المحيط بكل شيء.

والجديّة الصارمة هي المظهر البارز في كلّ أحداث الكون وقوانينه وسننه. وإشارةً إلى كون الله منزهاً عن العبث في عمليات الخلق التي يُجريها؛ قال الله تعالى في هذا النص:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

ولما كان احتمال العبث احتمالاً مرفوضاً عقلياً؛ كان لا بدّ من وجود حياة أخرى تظهر فيها تطبيقات الغاية من الحياة الأولى، وهذه الحياة لا بدّ أن تكون مقرَّرةً في برامج المقادير الربانيّة، إن الله هو الملك الحق لا إلّه إلاّ هو. وبهذا نلاحظ أن هذا النص قد أعطى الفكر الإنساني مفتاح البحث النظري الموصل إلى هذه الحقيقة.

٢ ــ ومنها قوله تعالى في سورة (القلم ٦٨):

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

من الواضح أن ظروف هذه الحياة التي نعيشها قد تسمح للمجرمين بأن يعيشوا فيها عيشاً رغداً ناعماً؛ يصيبون فيه المال والجاه والسلطان واللّذات، كما قد تسمح للمسلمين أهل الاستقامة بمثل ذلك.

وقد تسمح بأن يتمكن الفاجر من قتل التقي، وظلمه وتعذيبه واستلاب ماله، والعدوان عليه في أرضه أو عرضه، وقد لا يلقى الفاجر جزاءً معجّلاً على فجوره، بل قد يُمهل وتأتيه منيّتُه دون أن ينال شيئاً من جزائه! فلولا أن حياة أخرى ــ غير هذه الحياة ــ قد أُعِدَّت في برامج المقادير الربانية لإقامة الجزاء الذي توجبه حكمة الخالق؛ لكانت النتيجة الحكم على الخالق بأنه قد رضي بأن يجعل المسلمين كالمجرمين، سواءً محياهم ومماتهم!!

وهذا يتنافى مع أصول العدل والحكمة الإلّهية، ولذلك فهو مرفوض عقلاً.

ولما كان هذا الاحتمال مرفوضاً عقلاً، فإن الاحتمال المقابل له ــ وهو وجود الحياة الأخرى، التي يتحقق فيها التمييز بين المسلمين والمجرمين ــ هو الأمر الحتمي الذي لا مناص من اللّجوء إلى إدراكه عقلياً، والتسليم به عقيدةً، وهو الاحتمال الذي قررته النصوص الدينية الصحيحة الصريحة، وأخبرت به.

٣ ــ ومنها أيضاً قول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

٤ ــ ومنها قول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هذا ما هدى إليه الفكر السليم، ودلّت عليه النصوص، ولكن كيف يكون هذا اليوم الآخر، وعلى أية صورة؟

إن الدراسة النظرية لا تسمح لنا بالتحديد، وذلك لأن الاحتمالات النظرية كثيرة جداً، ولا سبيل إلى ترجيح بعضها على بعضٍ بعقولنا، ومن أجل ذلك كان لا بد من أن نلتمس مفاهيم النصوص الدينية الثابتة لتخبرنا بذلك.

وليس لنا أن نتخيل صورة من عند أنفسنا، أو أن نضيف صوراً من عند أنفسنا إلى ما جاءت به النصوص الدينية الثابتة في القرآن الكريم وفي أقوال الرسول صلوات الله عليه.

ملاحظة: لمّا نظر الملاحدة إلى أحداث هذا الكون وتاريخ الإنسان فيه بمنظار إنكار الخالق وحكمته من الخلق، رأوا أنّ هذا الكون والحياة والموت فيه عبث في عبث، وهذا ما صرّح به طائفة من كبار أئمتهم، مثل: برتراندرسل.

الإيمان بالآخرة ضرورة أخلاقية:

مما سبق يتضح لنا أن الإيمان بالآخرة ضرورة أخلاقية، تقتضيها مفاهيم العدل الإلهي والفضل الإلهي. ومعلومٌ أن العدل الإلهي والفضل الإلهي من الأسس المرتبطة جذريّاً بعقيدة الإيمان بالله تعالى؛ وبأسمائه الحسنى وصفاته العظمى.

الإيمان بالآخرة مبدأ ضروري لسعادة الجماعة الإنسانية:

وإذا نظرنا إلى مشكلة السلوك الإنساني، وجدنا أن سعادة الجماعة الإنسانية مرهونة بضوابط سلوك الإنسان. وحينما نبحث عن الضوابط التي يمكن أن تضبط سلوكه، نجد ضوابط ضعيفة وناقصة، إلاّ ضابطاً واحداً هو مراقبة الله والخوف من عقابه يوم القيامة «يوم الدين».

وبهذا تغدو قضية الإيمان باليوم الآخر ضرورةً إنسانيةً لحلّ مشكلة الجنوح الإنساني، ولمنح المجتمعات الإنسانية أفضل صورة ممكنة من السعادة الجماعية في ظروف هذه الحياة الدنيا؛ ولدفع الإنسان إلى فعل الخير، والارتقاء في سُلّم الفضائل الفردية والجماعية.

(٢)

وجوب الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر من أركان العقيدة الإسلامية:

قال الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

فعقيدة الإيمان بالله تعالى لا تنفكّ عن الإيمان باليوم الآخر، لأن من مقتضى الإيمان بالله تصديقه في جميع ما يخبرنا به، وقد أخبرنا باليوم الآخر في وعده ووعيده، وما أعدَّ الله في هذا اليوم من نعيم للمؤمنين المتقين، وما أعتد فيه من عذاب للمجرمين.

ولقد قرر الله ــ سبحانه ــ حقيقة الحياة الثانية بعد الموت، وأنها حياة الحساب والجزاء، وإقامة العدل الرباني في الخلائق.

وأنها حياة أخرى خالدة، بعد هذه الحياة الأولى الفانية القصيرة المدى، التي هي حياة الامتحان والابتلاء، المحاطة بظروف الامتحان اللازمة على أتم وجه وأدقه.

لقد قرر الله حقيقة هذه الحياة الآخرة في اليوم الآخر والدار الآخرة في جميع الأديان السماوية؛ وأنزلها على جميع رسله عليهم الصلاة والسلام.

كما ذكرَها في القرآن الكريم في مئات من آياته الكريمات، على أشكال:

فتارةً بالأمر بالإيمان بذلك، وأخرى بالنهي عن الكفر به. وبالتصريح الذي لا شبهة فيه، في مقامي الترغيب والترهيب لأهل الكفر، وبالإشارة والتلميح في مقام حثٍّ المؤمنين على العمل الصالح. وبالتمثيل والتشبيه لتقريب حقيقة هذه الحياة الثانية إلى الأذهان. وبإقامة البراهين والحُجَج المنطقية الدامغة في مناقشة منكري البعث. وبوصف ما في الدار الآخرة من نعيم وعذاب، وجنة ونار، وعرض وحساب، وميزان وصراط. إلى غير ذلك من مشاهد وصور.

ولا يخفى على متعهد كتاب الله ــ بالتلاوة أو بالسماع ــ كثرة الآيات الكريمة التي تنوّه بالبعث من مختلف أطرافه؛ وبالحياة الآخرة وما فيها.

فعقيدة الإيمان باليوم الآخر وما في هذا اليوم من حقائق ثابتةٍ، عقيدةٌ معلومةٌ من الدين بالضرورة.

لذلك يعلن المسلم دائماً ــ وفق عقيدته التي متى أخلّ بها كفر ــ أنه يؤمن باليوم الآخر، ولا ينكر شيئاً من أحوال الآخرة وحقائقها التي جاء الإخبار عنها بطريق يقيني صادق. فلا ينقص منها شيئاً، ولا يزيد عليها شيئاً من محض الخيال والتصور، لأنها أمور من أمور الغيب التي لا يستطيع العقل أن يعرف عنها أيّة صورة؛ ما لم يأته نص واضح يبين له شيئاً من حقائقها عن طريق الرسول المبلِّغ عن الله تعالى الذي هو وحده عالم الغيب، ولا يُطْلِع على غيبه أحداً، إلاّ من ارتضى من رسول.

فالمسلم لله يؤمن إيماناً راسخاً بجميع ما يأتيه عن الله، وفي حدود ما يأتيه عنه، ويسلم تسليماً.

(٣)

أسماء اليوم الآخر الواردة في القرآن الكريم وفروق دلالاتها

ولقد جاء في القرآن الكريم تسمية اليوم الآخر بعدة أسماء أخذاً مما يجري فيه؛ ومن أسمائه ما يلي:

١ ــ يوم البعث: لأن فيه البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت.

٢ ــ يوم الخروج: لأن فيه خروج الناس من قبورهم إلى الحياة الأخرى.

٣ ــ يوم القيامة: لأن فيه قيام الناس إلى حساب الله.

٤ ــ يوم الدين: لأن فيه إدانة الخلائق ومجازاتهم على أعمالهم.

٥ ــ يوم الفصل: لأن فيه الفصل بين الناس بالعدل.

٦ ــ يوم الحشر:
٧ ــ يوم الجمع: } لأن فيه جمع الخلائق وحشرهم في موقف الحساب.

٨ ــ يوم الحساب: لأن فيه محاسبة الناس على أعمالهم في الدنيا.

٩ ــ يوم الوعيد: لأن فيه تحقيق وعيد الله للكافرين.

١٠ ــ يوم الحسرة: لأن فيه حسرة الكافرين والعصاة على ما فرّطوا في جنب الله.

١١ ــ يوم الخلود: لأن الحياة في هذا اليوم للمكلفين في الدنيا حياة خالدة أبديَّة.

* إلى غير ذلك من أسماء ملاحظ فيها: التسمية «باليوم» أخذاً من الظرف الزماني المرافق لهذه الحياة الثانية.

* وقد جاءت أسماء أخرى ملاحظ فيها التسمية «بالدار»، أخذاً من الظرف المكاني المستلزم لهذه الحياة المادية الثانية، ومنها الأسماء التالية:

١٢ ـ الدار الآخرة: لأن هذه الحياة الثانية حياة مادية تستلزم مكاناً، وقد أطلق الله على مكانها اسم الدار.

١٣ ـ دار القرار: لأن فيها الاستقرار الدائم بلا فناء.

١٤ ـ دار الخلد: لأن الإقامة فيها إقامة أبدية خالدة.

* كما وردت أسماء أخرى ملاحظ فيها: «معنى تحقق وقوع ذلك اليوم»، أو ملاحظ فيها: «ما يجري فيه من أحداث جسيمة»، فقد وردت تسمية القيامة بما يلي:

١٥ ـ الواقعة: أخذاً من تحقُّق وقوعها.

١٦ ـ الحاقَّة: لأنها تَحُقُّ كل مجادل ومخاصم في دين الله بالباطل ـ أي: تغلبه ـ ؛ أخذاً من قولهم: حاققته فحققته، أي: غالبته فغلبته.

١٧ ـ القارعة: أخذاً مما يجري فيها من قَرْع شديد، والقرع: هو الضرب الذي يحصل فيه صوت شديد. وسميت بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

١٨ ـ الغاشية: أخذاً مما يجري فيها من غشيان عامّ للثقلين ـ الإنس والجن ـ يقال غشيه: إذا جلّله وعمّه.

١٩ ـ الطامَّة: أصل الطامة: الداهية التي تغلب وتفوق ما سواها من الدواهي، من قولهم: طمَّ الشيء إذا غَمَرَه، وكل ما علا وكثر حتى غلب فقد طمَّ. وسميت القيامة بالطامة لما فيها من الشمول والغلبة.

٢٠ ـ الآزفة: أي القريبة، وسميت القيامة بذلك إشعاراً بقربها بالنسبة إلى عمر الدنيا الطويل، وإعلان قربها يتضمن تحقق وقوعها لزوماً.

إلى غير ذلك من أسماء.

ونستطيع أن نتصور بعض ما يجري في ذلك اليوم العظيم من خلال مدلولات أسمائه الواردة في القرآن الكريم؛ بالإضافة إلى الصور الأخرى التي أوضحها القرآن وأبرزَ عظمتها وجلالها، وما في عذابها من هولٍ كبيرٍ، وما في نعيمها من فيض باذخ مقيم. ولا تخفى هذه الصور على متدبِّر كتاب الله، والمتأمِّل في مرامي آياته البينات، وروائع صوره في سُوَره[1].

□ □ □

(١) وفي كتاب «مشاهد القيامة» للأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ تحليل نفيس لأمثلة كثيرة من هذه الصور.

الفصل الثالث

مُقدِّمات اليوم الآخر

إن الحديث عن اليوم الآخر يستدعي الكلام على أمور تجري قبل هذا اليوم مقدّمات له، وأمارات على الساعة التي تنتهي فيها ظروف هذه الحياة الدنيا. ونقتصر على عرض أهم هذه الأمور مما ثبت بيقين، ونمرّ عليها بإيجاز في الفقرات التالية:

(١)

الساعة: آثارها في الكون ووقتها وأماراتها

بما أن الحياة الثانية ــ بوضعها الكامل، وأنظمتها التامة ــ لا تكون إلا بعد انتهاء سلسلة هذه الحياة الأولى؛ فإن الأمر يستدعي انتظار نهاية هذه الحياة الأولى بكل أنظمتها.

وقد جاء التعبير القرآني عن وقت إنهاء هذه الحياة الأولى بلفظ «الساعة»، أي الزمن المحدد في علم الله لإنهاء نظامها. قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

ويعترضنا عند هذه النقطة سؤالان:

السؤال الأول: إذا انتهى نظام هذه الحياة الأولى، فهل ستبقى الأرض والشمس والكواكب والنجوم على أوضاعها؟

ويأتينا الجواب الرباني على ذلك في عدد كثير من النصوص القرآنية، مبيِّناً أن كل هذا الوضع القائم في السماوات والأرض سيتبدل عما هو عليه الآن تبدلاً كلياً.

فمن ذلك قوله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الانفطار ٨٢):

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾﴾.

السؤال الثاني: متى ينتهي نظام هذه الحياة الأولى؟ أي: متى الساعة؟

ويأتينا الجواب الرباني مبيِّناً لنا أن وقتها من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وقد أخفاه الله عن عباده لحكمة يعلمها، فلا سبيل إلى معرفته. قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ ﴿١٨٧﴾﴾.

أيان مرساها: أي متى وقت رسوِّها، تشبيهاً لهذه الحياة الأولى بالسفينة في بحر الزمن، فإذا رست على الشاطىء فقد بلغت مداها.

قرب الساعة:

لكن الله تعالى أبان أنها قريبة، فقال تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

وقد جاء في كلام النبي ﷺ نوع بيان لهذا القرب.

فعن شعبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» مشيراً ﷺ بأصبعيه: السبابة والوسطى. (رواه البخاري ومسلم)[1]

قال شعبة راوي الحديث: وسمعت قتادة يقول في قصصه: كفضل إحداهما على الأخرى، أي: كزيادة طول الأصبع الوسطى على السبابة. وفي هذا إشارة إلى نسبة ما بقي من عمر الدنيا بالنظر إلى ما انصرم منها، وذلك على وجه التقريب.

---

(١) عن مشكاة المصابيح: الحديث (٥٥٠٩). وانظر: حديث رقم (٤٩٣٦)؛ ومسلم في كتاب الجمعة، باب خطبته ﷺ في الجمعة، وفي كتاب الفتن، باب قرب الساعة.

أمارات الساعة:

أي علامات قربها ودنو ميعادها. وقد جاء التعبير عنها أيضاً بأشراط الساعة. وتتضمن هذه الأمارات مجموعة من أنباء الغيب التي ستحدث قبيل قيام الساعة؛ تمكيناً للإيمان في قلوب المؤمنين، وتنبيهاً للضالين حتى يؤمنوا، وحجة على الجاحدين المعاندين، وبخاصة إذا مرّت على الناس عصور بعدوا فيها عن عصر الرسالة المحمدية.

وقد جاء التصريح بجملة من أنباء الغيب هذه في القرآن والسنة.

فمنها الأمارات التالية:

١ ـ خروج الدجّال يدَّعي الربوبية ومعه الخوارق.

وقد ثبت خروجه بالأحاديث الصحيحة المتواترة.

٢ ـ ثم نزول عيسى عليه السلام، وهلاك الدجال على يده، وكسره الصليب، وقتله الخنزير.

وقد ثبت نزول عيسى عليه السلام بدلائل القرآن الكريم، وبالأحاديث الصحيحة المتواترة، وجاء في الصحيح أنه يبقى في الأرض أربعين سنة.

٣ ـ ثم انبعاث قبائل يأجوج ومأجوج وفتكهم العظيم، وإفسادهم العريض في الأرض، ثم يدعو عليهم سيدنا عيسى عليه السلام والمؤمنون معه، فيهلكهم الله بوباء عام يصيبهم في رقابهم.

وقد ثبت ذلك في جملة من الأحاديث الصحيحة.

٤ ـ ثم يعمّ الرخاء، وتفيض بركات الأرض مدّة من الزمن، كما ثبت في الصحيح من كلام الرسول ﷺ.

٥ ـ ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتأخذ الناس تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن ومسلم، كما ثبت في الصحيح من كلام الرسول ﷺ.

٦ ـ وأخيراً لا يبقى في الأرض إلا شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة، كما ثبت في الصحيح من كلام الرسول ﷺ.

وإليك طائفة من النصوص المنبئة بهذه الأمارات:

(أ) عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الدجال يخرج وإن معه ماءً

وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً، فإنه ماءعذب طيب».

(رواه البخاري الحديث (٣٤٥٠) في الفتح ـ ومسلم كتاب الفتن)

وزاد مسلم ـ في رواية ـ : «وإن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب».

(ب) وعن النوَّاس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجالَ فقال: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قَطَط ـ أي: شديد جعودة الشعر ـ، عينه طافية، كأني أشبِّهُه بعبد العزَّى بن قَطَن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته، إنه خارج خَلَّةً ـ أي: طريقاً ـ بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا.

قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟

قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟

قال: لا، اقدُروا لـه قَدْرَه.

قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟

قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرَى ـ جمع ذروة ـ وأسبغه ـ أي: أطوله ـ ضروعاً، وأمدّه خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردّون عليه قوله، فينصرِف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرُّ بالخَرِبَة فيقول لها: أَخْرِجي كنوزك، فتتبعه كنوزُها كيعاسيب النحل!!

ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف فيقطعه جِزْلَتين ـ أي قطعتين ـ رَمْيَة الغرض ـ أي: يجعل ما بين القطعتين مقدار رمية السهم إلى الهدف ـ ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك»[1].

---

(١) وفي حديث آخر لمسلم: (أن الدجال يمشي بين القطعتين، ثم يقول له: قمْ فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي، فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد =

فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهروذتين ــ حلتين فيهما صفرة خفيفة ــ واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قطَرَ، وإذا رفعه تَحَدَّر منه جُمان كاللؤلؤ ــ أي حبات تشبه اللؤلؤ بصفائها ــ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات! ونَفَسه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه، فيطلبه حتى يُدركه بباب لُدٍّ فيقتله. ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّزْ عبادي إلى الطور ــ أي: اذهب بهم إلى الطور ليكون لهم حرزاً ــ.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء!! ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر ــ وهو جبل بيت المقدس ــ فيقولون: لقد قتلنا مَنْ في الأرض، هلمّ فلنقتل من في السماء، فيرمون بنُشّابهم إلى السماء، فيردّ الله عليهم نشّابهم مخضوبة دماً!! ويُحصَر نبيّ الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم! فيرغب نبيّ الله عيسىٰ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم (وهو دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم)، فيصبحون فرسى (قتلى) كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم (أي: دسمهم) ونَتْنهم!!

فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسلُ الله طيراً كأعناق البخت (نوع من الإبل طوال الأعناق) فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله!

ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مَدَرٍ ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة[1] (أي كالمرآة).

ثم يُقالُ للأرض: أنبتي ثمرتك، وردّي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابة (الجماعة) من الرُّمانة، ويستظلون بقِحفِها. ويُبارَك في الرِّسْل (الحليب) حتى إنّ اللِّقْحَة من الإبل (وهي الناقة الحلوب) لتكفي الفِئَام (الجماعة الكثيرة) من الناس. واللقْحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس. واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس.

= من الناس، قال: فيأخذه الدجّال ليذبحه، فيُجْعَلُ ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً. قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسبُ الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين).

(١) الزَّلَفَة والزَّلَقَة في اللّغة: المرآة.

فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمُر (أي: يتسافدون علانية كتسافد الحمير) فعليهم تقوم الساعة!!».

(رواه مسلم، كتاب الفتن)

(جـ) وقد أشار القرآن الكريم إلى نزول عيسى عليه السلام في ثلاث آيات كريمات:

الآية الأولى: قوله تعالى ــ في معرض الكلام على عيسى عليه السلام ــ في سورة (النساء ٤):

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: إن بعض أهل الكتاب ــ من يهود ونصارى ــ سيؤمنون بعيسى عليه السلام إيماناً صحيحاً؛ وذلك بأن يؤمنوا بأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، كما جاء في القرآن الكريم. وهذا الإيمان به سيكون قبل موته، وإنما يكون ذلك عند نزوله من السماء قُبيل الساعة، كما جاء تفصيله في كلام الرسول ﷺ. وهذا يؤكد ما نعتقده من أن عيسى عليه السلام قد رفع إلى السماء حيًّا، وأنه لم يمت، وإنما انتقل من شروط حياة أرضية إلى شروط حياة أخرى يعلمها الله؛ وذلك بانتظار عودته إلى الحياة الأرضية مرة ثانية، ليقيم أحكام الشريعة الإسلامية التي أنزلها الله على سيدنا محمد ﷺ، ويقتل الدجّال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويمكّن إيمان المؤمنين بيوم القيامة، وينبّه الضالين على الحق، ويكون حجة على الجاحدين المعاندين.

وليس في أيّ أمر من هذه الأمور الخارقة استحالة على قدرة الخالق العظيم؛ فكلٌّ من رفع عيسى عليه السلام حياً إلى السماء، بعد إنقاذه من القتلة وإلقاء شبهه على غيره، ثم استمرار حياته في السماء، وفق شروط خاصة تتم بقضاء الله وقدره، ثم نزوله مرة ثانية إلى الأرض وإقامته الشريعة الإسلامية، أمور ممكنة عقلاً، لا تحتاج إلى أكثر من تعلّق إرادة الله وقدرته بها، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

وقد ورد تفسير هذه الآية بنزول عيسى عليه السلام عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن أم سلمة رضي الله عنها، وعن قتادة «تابعي جليل، من العلماء بالقرآن والفقه»، وعن ابن زيد «تابعي جليل، شيخ مالك والزهري»، وعن أبي مالك «تابعي جليل»، وعن الحسن البصري.

وعن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده، ليوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها».

ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾. (رواه البخاري ومسلم)[1]

الآية الثانية: قوله تعالى ـ أيضاً في معرض الحديث عن عيسى عليه السلام ـ في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

ففي هذه الآية أيضاً إشارة إلى أن نزوله من السماء في آخر الزمان من أمارات الساعة وعلامات قرب وقوعها؛ أخذاً من قوله تعالى: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي: علامة على قرب وقوعها، ولا يكون ذلك إلا بنزوله كما بينته الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ.

وقد ورد تفسير هذه الآية بنزول عيسى عليه السلام عن ابن عباس رضي الله عنه، والحسن البصري، وقتادة.

الآية الثالثة: قوله تعالى ـ أيضاً في معرض الحديث عنه عليه السلام ـ في سورة (آل عمران ٣):

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قال ابن زيد: قد كلّمهم عيسى عليه السلام في المهد، وسيكلّمهم إذا قتل الدجّال، وهو يومئذ كهل.

ومن الأمارات أيضاً ما جاء في الأحاديث التالية:

الحديث الأول: عن حذيفة بن أسيدٍ الغفاري رضي الله عنه قال: اطّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تَذَاكرون»؟ قالوا: نَذْكُر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عَشْر آيات: فذكر الدخان، والدجال، والدابّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

(أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه)

---

(١) البخاري: انظر: الفتح حديث رقم (٢٢٢٤) وأطرافه (٢٤٧٦، ٣٤٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان باب: بيان نزول عيسىٰ ابن مريم حاكماً.

بيان الأمارات العشر:

١ ـ الدخان: لقد ورد بيان أمارة الدخان عن عدد من أجلاء الصحابة أنه يخرج دخان فيأخذ المؤمنَ كهيئة الزكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق، حتى يكون كالرأس المشوي على الجمر!!

٢ ـ الدجال: سبق بيان هذه الأمارة مفصّلاً في الحديث السابق الذي رواه النواس بن سمعان.

٣ ـ الدابّة: هي دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان، تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتَرْكِهم أوامر الله، وتبديلهم دينه، فتكلّمهم بأن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون.

وهذه الدابة هي المعنية بقوله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

٤ ـ طلوع الشمس من مغربها: فقد جاء في (صحيح البخاري) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾».

ومثل طلوع الشمس من مغربها في إقفال باب التوبة، خروج الدجّال، ودابّة الأرض، كما روى مسلم عن وكيع، وعن فضيل بن غزوان عن النبي ﷺ.

٥ ـ نزول عيسى بن مريم عليه السلام: وقد سبق بيان هذه الأمارة في الحديث الذي رواه النواس بن سمعان، وفي ما أشارت إليه الآيات القرآنية.

٦ ـ يأجوج ومأجوج: وقد سبق بيان هذه الأمارة في الحديث المذكور، كما جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

٧ ـ خسف بالمشرق:
٨ ـ خسف بالمغرب:
٩ ـ خسف بجزيرة العرب:

} وهي خسوف أرضية تحدث في هذه الأماكن من الأرض

١٠ ـ نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم: وهذه الأمارة هي آخر الأمارات، وتكون قُبيل قيام الساعة. ومكان محشر الناس الذي تسوقهم النار إليه أرض الشام، وقد ثبت ذلك في عدّة أحاديث عن النبي ﷺ.

وهذه الأمارات العشر هي الأمارات الكبرى التي تقارب قيام الساعة، وفيها أحداث جسام.

وهناك أمارات صغرى كثيرة منثورة في كتب الحديث، منها الأحاديث التالية:

الحديث الثاني: عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنى، ويكثر شرب الخمر، ويقلّ الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيِّم الواحد».

وفي رواية: «يقل العلم، ويظهر الجهل».

(رواه البخاري ومسلم)

الحديث الثالث: عن أبي هريرة قال: بينما كان النبي ﷺ يُحدِّث إذ جاء أعرابيٌّ فقال: متى الساعةُ؟ قال: «إذا ضُيعتِ الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

(رواه البخاري)

الحديث الرابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يُخرِجَ الرجل زكاة ماله فلا يجدُ أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً».

(رواه مسلم)

الحديث الخامس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون؛ حتى يختبىء اليهوديُّ من وراء الحجر أو الشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلمُ يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلاّ الغَرقَد ـ وهو شجرٌ له شوك ـ فإنه من شجر اليهود».

(رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم)

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فإن أردت مزيداً منها فارجع إلى كتب السنة المطهرة[1].

---

(١) وارجع إلى كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للمحدث الشيخ محمد أنورشاه الهندي، والتعليقات عليه للأستاذ عبد الفتاح أبي غدة.

(٢)

البرزخ وما فيه من نعيم وعذاب وسؤال

وبين الموت الذي تنتهي به الحياة الأولى، وبين البعث الذي تبتدىء فيه الحياة الثانية، مدّة جاءت تسميتها في القرآن الكريم بـ «البرزخ»، أي المدّة بين الحياة المادية الأولى والحياة المادية الثانية. قال الله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾.

ففي هذه الآية تصريح بأن بين الموت وبين البعث برزخاً.

البرزخ في اللغة: الحاجز بين الشيئين.

نعيم القبر وعذابه:

وفي هذه المدة ـ مدة البرزخ ـ مرحلة من مراحل الجزاء الرباني بالثواب أو بالعقاب ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ، ويدل عليه مجموعة من نصوص القرآن والسنة، منها ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾.

فهذه الآية تدل على نفي التسوية بين الفريقين المذكورين في الممات، ومدّة الممات هي مدة البرزخ التي نحن بصدد الحديث عنها، وإذا لم يكن الفريقان مستويين في الممات، فلا بد أن يكون مجترحو السيئات معذَّبين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات منعَّمين، وهذا هو نعيم القبر وعذابه.

٢ ـ قوله تعالى في شأن آل فرعون في سورة (غافر ٤٠):

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾.

فهذه الآية تدل على أن هؤلاء الذين هم من أهل العذاب يوم القيامة بسبب كفرهم؛ معذبون بطائفة من العذاب قبل ذلك اليوم ـ أي في مدّة البرزخ ـ، إذ يُعرضون على النار غدواً وعشياً، وإن في هذا العرض على النار لعذاباً.

ويوضح مضمون هاتين الآيتين أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، منها ما يلي:

٣ ــ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

(رواه البخاري ومسلم)

٤ ــ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ النبي ﷺ بقبرين قال:

«إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله، لم صنعت هذا؟ فقال: لعلّه أن يُخفّف عنهما ما لم ييبسا».

(رواه مسلم)

الجريدة: سعفة من النخل يُجرَّدُ عنها الخوص، فإذا جُرد عنها صارت جريدة.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تثبت نعيم القبر وعذابه.

والمراد من نعيم القبر وعذابه النعيم والعذاب في البرزخ بين الموت والبعث، سواء كان ذلك في القبر أو في غيره، وقد أضيفا إلى القبر بالنظر إلى أن أكثر الموتى من الناس يُقبرون.

وأما كيف يكون العذاب؟ وكيف يكون النعيم؟ فذلك من الأمور المغيبة عنا، التي لا ندركها بحواسنا ومقاييسنا المادية، والله الخالق هو القادر على كل شيء.

ولقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من عذاب النار ومن عذاب القبر؛ ويأمر أصحابه أن يتعوّذوا بالله منهما.

سؤال القبر من قِبل الملكين المنكر والنكير:

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الإنسان المكلَّف إذا مات جاءه ملكان أسودان أزرقان؛ يقال لأحدهما المنكر، ويقال للآخر النكير، فيسألانه الأسئلة التالية:

١ ــ من ربك؟
٢ ــ ما دينك؟
٣ ــ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ أي سيدنا محمد ﷺ.

أما المؤمن فيجيب عليها بما آمن به في الدنيا من حق، فيُعرَض عليه مقعده من الجنة؛ بعد أن يُعرَض عليه مقعده في النار ــ لو لم يكن قد مات مؤمناً ــ، وذلك تطميناً لقلبه وتنعيماً له. ويفسح له مدّ نظره.

وأما المنافق والكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقال له: لا دَرَيت ولا تَلَيت. ويُضرب بمطارق من حديد يصيح منها صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين؛ أي يسمع صيحته من يليه من الملائكة والموتى غير ثقلي الإنس والجن؛ كما يُضيِّق عليه تعذيباً له.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه ــ وإنه ليسمع قرع نعالهم ــ؛ أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل ــ لمحمد ﷺ ــ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً. وأمَّا المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيت ولا تليت؟ ويُضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين». (متفق عليه واللفظ للبخاري)

لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ؟ : أي: لا دريت بنفسك، ولا اتبعت مَنْ درى وعلم؟، يقال لغة: تلا يتلو، وتلى يتلي، إذا اتَّبع هذا هو المعنى الذي ظهر لي، والله أعلم.

وجاء في حديث آخر (أخرجه الترمذي) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير». وهو حديث طويل.

وفي حديث (أخرجه البخاري ومسلم) أن النبي ﷺ قال: «﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبيِّي محمد».

والأحاديث في هذا الباب متعددة يكمِّل بعضها بعضاً.

والمراد من سؤال القبر السؤال في البرزخ بين الموت والبعث، سواءً كان ذلك في القبر أو غيره، وقد أضيف السؤال إلى القبر بالنظر إلى أن أكثر الموتى من الناس يُقبرون.

(٣)
النفخة الأولى والنفخة الثانية

ولقد أخبرنا الله تعالى بأنه ستحدث نفختان في الصور:

(١) انظر: الفتح رقم ١٣٣٨.

النفخة الأولى: وهي نفخة الإماتة العامة.

وعندها تكون ساعة إنهاء النظام القائم في الحياة الأولى، وقد جاء في التعبير عن وقت هذا الإنهاء بالساعة كما سبق.

ويمكن حمل قوله تعالى في أول سورة (الحج ٢٢):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

على ما يَحْدُث في الكون من هول عند النفخة الأولى. والله أعلم.

النفخة الثانية: وهي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت.

وقد جاء التعبير عن الوقت الذي يحدث فيه البعث العام إلى الحياة بعد الموت «بالساعة» أيضاً؛ قال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۝٥٥﴾.

* ويدل على حدوث هاتين النفختين:

(أ) قوله تعالى في سورة (النازعات ٧٩):

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

قال ابن عباس: الراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية.

(ب) وقوله تعالى في سورة (الزمر ٣٩):

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝٦٨﴾.

الصور لغة: البوق.

وفي الاصطلاح الشرعي: مخلوق أعدَّه الله بحسب سننه الكونية، ليحدث فيه هاتان النفختان.

وجاء تسمية الصور في القرآن «بالناقور» أيضاً، اشتقاقاً من النقر بمعنى التصويت، لأن الناقور يحدث صوتاً هائلاً.

فعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: «فإذا نقر في الناقور» قال: الصور.

وقد ورد أن المَلَك الموكَّل بنفخ الصور ــ تنفيذاً لأمر الله ــ هو إسرافيل عليه السلام، كما سبق في مبحث الإيمان بالملائكة.

إلا من شاء الله: أي إلا من شاء الله استثناءهم من الموت بهذه النفخة، لأن الله يتولى قبض أرواحهم بدون وساطة نفخة الصور، كإسرافيل الموكل بنفخه[1].

وبالنفخة الثانية يبعث الله الناس إلى الحياة الثانية، ليتم فيها نظام الجزاء الأكمل، بالثواب أو بالعقاب.

أما وضع الكون يوم البعث فقد جاء وصفه في قوله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

وهذه أمور من أمور الغيب التي ستحدث، ولا يمكن تخيُّل صورة محدّدة لها، ولا معرفة حقيقتها، الكاملة، إلا عند مشاهدتها. وما علينا ــ في باب العقيدة ــ إلا الإيمان والتسليم بما تضمنته النصوص الصحيحة الصريحة، دون أن نزيد عليها من تخيلاتنا شيئاً.

(٤)
الإحساس بالزمن في المدّة الفاصلة بين الموت والبعث

دلّت النصوص القرآنية على أنّ الموتى يُلْغَىٰ من مراكز شعورهم الروحيّ الإحساسُ بالزمن، فتستوي لدى إحساساتهم اللّحظات القصيرات، والدُّهور الطويلة مهما امتدّت، رغم أنهم يُحِسُّون بالعذاب إذا كانوا من أهل العذاب في مدّة البرزخ، ويُحِسُّون بالنعيم إذا كانوا من من المنعَّمِين في مدّة البرزخ.

فمن مات أول الناس في عهد آدم عليه السلام، ومن مات آخر الناس عند قيام الساعة، يكون إحساسُهما عند البعث للحساب والجزاء، بالمدّة ما بين الموت والبعث بنسبة

---

(١) جاء في تفسير روح المعاني للآلوسي: (قال السدِّي: هم جبريل، وإسرافيل، وملك الموت عليهم السلام. وقيل: هم وحَمَلَة العرش، فإنهم يموتون بعد. وقيل: من مات قبل ذلك، أي يموت من في السماوات والأرض إلاّ من سبق موته، لأنهم قد ماتوا، قال في البحر: وهذا نظير ﴿لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى﴾. وقيل: هو موسى) انتهى. والله أعلم.

واحدة، وتتردَّدُ ظنونهم التقديريّة الفكريّة حول عشرة أيّامٍ أو يوم واحد، مع أنّ إحساسهم الشعوريّ لا يزيد على أنّ بعثهم قد كان بقدر ساعةٍ من نهارٍ، ساعةٍ من العشيّ أو ساعةٍ من الضحى.

هذه الحقيقة قد دلّت عليها سبعة نصوص قرآنية، وهي ما يلي بحسب ترتيب نزولها:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: يقول المجرمون بعضهم لبعض: ما لبثتم في مدّة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث إلّا يوماً وهذا في ظنّ أمثلهم طريقة فكرية، وإلّا عشرة أيام فهذا في ظن مجموعهم لدى المناجاة الأولى فيما بينهم.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

أي: وتظنُّونَ أنَّكم ما لبثتم في مدّة البرزخ بين الموت والبعث إلّا قليلاً، والسَّبَبُ أنَّ الإحساس بالزمن يُلْغَىٰ من مراكز إدراكاتهم بعد الموت، فتستوي اللحظات والدهور لديهم.

النصّ الثالث: قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: كأنْ لم يلبثوا في مدة البرزخ بحسب إحساسهم الشعوريّ إلّا ساعةً من النهار الذي ماتوا فيه، فهم بحسب شعورهم كمن نام في نهاره واستيقظ، والنائم في النهار لا يقدّر أنه نام طويلاً، بخلاف النائم في الليل، فإنّ العادة توحي إليه بأنه نام ساعات.

النصّ الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ ... ﴿٣٥﴾﴾.

أي: كأنّهم يوم يَرَوْن العذابَ الذي كانوا يوعَدونه في الحياة الدنيا، لم يلبثوا في مدة

البرزخ إلّا ساعةً من نهار، ولو كانوا قد ماتوا أو أُهلكوا ليلاً، هكذا يكون إحساسهم بالزمن.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) حكاية لما سيحدث من حوار مع أهل النار:

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

إنَّهم يُسأَلُونَ عن عددِ السنين، فَيُخْبِرون بأنَّ شُعورَهُمْ لم يُحِسَّ بأكثر من يومٍ أو بعضِ يوم.

النصّ السادس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كأنَّهم يوم يَرَوْن مشاهد يوم الدين ساعةَ البعث إلى الحياة الأخرى، بعد الموت، لم يَلْبَثُوا في الموت إلّا مقدار عشيَّةِ يوم، أو ضحى ذلك اليوم.

هكذا يكون شعورُهُم ساعة البعث، وفيما بعد ذلك، لأنَّ الْحِسّ بالزمن مَمْسُوحٌ من مراكز شعورهم وإحساساتهم.

النصّ السابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فالمجرمون يَعْتَمدون علىٰ شُعُورهم وإحْسَاساتِهِمْ فَيُقْسِمُونَ أَنَّهُمْ ما لَبِثُوا بين الموت والبعث غير ساعة، لأنّهم لم يُحِسُّوا بالزمن الذي مرّ عليهم، ولو كان ملايين السنين وما فوق ذلك.

لكنّ المؤمنين لا يعتمدُون على شعورهم وإحساساتهم، بل يعتمدون على ما لديهم من علم تَعَلَّمُوهُ من الدّين، وعلى إيمانهم بما جاءهم به الرسول الأمين عن رَبِّ العالمين، فيقولون يوم

القيامة للمجرمين: لقد لبثتم ما قضاه الله وقدَّره وكتبه في كتابه عنده من زمن، كلٌّ بحسبه، حتَّىٰ بُعِثتم إلى يوم الدين الذي كنتم به تكذِّبون، فهذا يوم البعث، ولكنَّكُم كُنْتُمْ لا تعلمون هذه الحقيقة، لأنكم كنتم مصروفين عنها للاستمتاع بجرائمكم، وأنواع فجوركم، كافرين بما جاء به رسول ربكم من حقائق.

□ □ □

الفصل الرابع

حقائق عن البعث واليوم الآخر

يبدأ اليوم الآخر بالبعث الذي تعود فيه الحياة المادية للمخلوقات الحية التي قرر الله عودة الحياة إليها؛ استكمالاً لأنظمة الله في الخلق، وليقيم الله في هذه الحياة الثانية عدله، ويتمم فضله، ويحقق الثمرة الفضلى للابتلاء الذي جعل ميدانه الحياة الأولى الفانية.

وفي المعتقدات الإسلامية حقائق كثيرة عن البعث وأحوال اليوم الآخر، جاءت في الكتاب المجيد والسنة المطهرة، نعرض جملة منها في الفقرات التالية:

(١)
الدنيا والآخرة

لقد تمت إرادة الله المرافقة لعلمه وحكمته بأن يخلق عَالَمَيْن: عالماً فانياً وهو عالم الدار الدنيا التي نحن الآن فيها، وهي دار الامتحان. وعالماً آخر خالداً هو عالم الدار الآخرة، وهي دار الجزاء. كما تمت إرادته تعالى بأن يضع فضله ورحمته وعدله في مواضعها: فمن أحسن فآمن بالله وأطاع، واستقام على شريعته في الدار الدنيا ــ دار الامتحان ــ فقد أعدّ الله له في الدار الآخرة ــ دار الجزاء ــ السعادة الأبدية الخالدة، والنعيم الباذخ المقيم، مكافأة منه وفضلاً. ومن أجرم فكفر بالله وعصى في دار الامتحان، فقد أعتد الله له في الدار الآخرة العقوبة والانتقام، جزاءً منه وعدلاً.

قال الله تعالى في سورة (الشورى ٤٢):

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

(٢)
البعث ممكن عقلاً

ولـمّـا كـان البعث إعادةَ بناء الأجساد بعد فنائها، وإعادةَ الحياة لها بعد سلبها منها، فإن

كل عقل سليم يدرك بداهة أن البدء والإعادة أمران متساويان، فمن يبدأ الخلق ثم يفنيه، قادر على إعادته وبعثه لا محالة. قال الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

إذن فقدرة الله ـ التي لا تقف دونها حدود في مجال الأمور الممكنة عقلاً التي لا استحالة فيها ـ قادرةٌ على أن تحييَ الموتى حياة مادية جسدية وروحية، لتسوقهم إلى العالم الآخر، عالم الجزاء وإقامة العدل الإلهي.

أَوَ ليس مَنْ خلق السماوات والأرض دون أن يجهد بخلقهنَّ، بقادر على إحياء الموتى، وإعادتهم إلى الحياة مرة ثانية؟! بلى إنه لقادر.

وإنما أمره إذا أراد أن يخلق شيئاً ـ مهما كان دقيقاً أو عظيماً ـ أن يقول له: كن فيكون. قال الله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

(٣)
البعث حقيقة لا شك فيها

ولقد أخبرنا الله تعالى بأن البعث للدار الآخرة في يوم الجزاء حقيقة مقررة في قضاء الله وقدره؛ ستوضع موضع التنفيذ إذا جاء أجلها المحدد في علم الله. فالبعث أمر واقع لا محالة، ستعود فيه الحياة إلى الأجساد التي رَمَّت وبليت، وليس ذلك ببعيد ولا مستغرب على قدرة الله الذي خلق السماوات والأرض؛ وَخَلْقُهُنَّ أكبر من خلق الناس!!

أَوَ ليس الذي ابتدع خلق الإنسان على غير مثال سبق، بقادرٍ على إعادة كل فردٍ من أفراد نوعه، بعد موته وفناء جسده؟! بلى إنه لقادر.

قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

(٤)
الحياة في اليوم الآخر حياة مرافقة للتجسد المادي

ولـمّا كان مصدر إيماننا بالحياة الثانية بعد الموت النصوص الدينية القاطعة؛ وجب علينا أن نتقيد بدلائل هذه النصوص في نوع هذه الحياة الثانية.

وقد جاءت النصوص الكثيرة الصريحة القطعية ــ في القرآن والسنّة ــ دالة على أن الحياة الثانية حياة روحية وجسدية معاً؛ فهي لا تدع شبهة لمرتابٍ تبصّر في قطعية ثبوتها، وقطعية دلالاتها.

ومن أجل أن تتوضح في أذهاننا صورة الحياة الثانية نبهنا الله على أنها حياة إعادة فإذْ قد مارسنا فعلاً تذوق حياة البدء، يمكننا أن نقرِّب إلى تصورنا حياة الإعادة، وإن اختلفت في كل منهما الشروط والأسباب، والملابسات وعوامل البقاء وأنواع الإحساسات، وغير ذلك.

وأمام هذه الحقيقة من حقائق الحياة الثانية يأتي فريق من أهل الملل، وطائفة من الفلاسفة، وقسم من الخارجين عن ما توجبه دلائل النصوص القاطعة، فيزعمون أن الحياة الثانية حياة روحية فقط، وليست حياة مصاحبة لأجساد مادية، فيُحكِّمون الرأي الناقص في أمور الغيب التي لا يعلم حقيقتها إلاَّ الله تعالى كما أنها من أمور الغيب التي يتوقّف تحقيقها على قدرة الله وإرادته. ولدى التأمل نرى أنها من الأمور الممكنة عقلاً، فاحتمالاتها الفكرية المختلفة متكافئة متساوية، لذلك فلا يترجّح بعضها على بعض إلاَّ بتحديد من إرادة الله الخالق.

ومن المقرّر في أصول العقيدة الإسلامية أن علم الله بما سيكون في مخلوقاته لا يكون إلاَّ وفق مراده، ومراده تعالى مساير لحكمته العظيمة.

ومن المقرّر أيضاً في أصول العقيدة الإسلامية أن أخبار الله في نصوص دينه القاطعة ــ التي بلغها أنبياؤه ورسله ــ لا تكون إلاَّ وفق علمه.

وقد أخبرنا الله سبحانه ــ في نصوصه القاطعة ــ بأن الحياة الثانية حياة مادية مشابهة للحياة الأولى. فأي مبرِّرٍ للفرار من مدلولات أخبار الله القاطعة، التي بلغها إلينا أنبياؤه ورسله الصادقون؟!

إننا بقليلٍ من التأمُّل لا نجد من المبررات شيئاً، إلاَّ مجرد التعنُّت على الله في ما أخبرنا به! أو أوهاماً تنفثها وساوس الشياطين في نفوس الخارجين عن ما توجبه دلائل قواطع النصوص!!

فأي حَجْرٍ على الله الخالق في أن يختار أن تكون حياتنا الثانية حياة مادية؛ حتى نؤوِّل النصوص التي وردت إلينا عنه تأويلات تُفْقِدُ الخبر الرباني قيمته؟!

أليس قد خَلَقنا في الحياة الأولى فجعل كمالاتنا الإنسانية في الخلق مصاحبة لجسد مادي؛ وعن طريق هذا الجسد المادي تصل إلينا أنواع الإحساسات الظاهرة والباطنة؟!

فمن وقع في توهّمه أنه يريد أن ينزّه الله تعالى عن أن يجعل حياتنا الثانية الأبدية مصاحبة لجسد مادي؛ فبماذا يجيب عن نظام الخلق الأول، وهو نظام مادي نعيش في شروطه وظروفه، وهو دون مستوى نظام الحياة المادية الثانية بدرجات كثيرة وبعيدة؟!!

لذلك يجب علينا شرعاً أن نعتقد بهذه الحقيقة من حقائق الحياة الثانية في اليوم الآخر؛ اتّباعاً لنصوص الشريعة القاطعة المنتشرة في القرآن الكريم والسنّة المطهرة. وأن نعتقد بأن من أنكر هذه الحقيقة فقد فضّل الكفر على الإيمان، وسلك سبيل التوهم الباطل الذي هو سبيل الكافرين، وتنكب سبيل المنطق السليم الذي هو سبيل المؤمنين!!

(٥)
الحشر

الحشر: هو الجمع.

وبعد البعث إلى الحياة الأخرى يوم القيامة يتم حشر الخلائق لموقف الحساب.

وقد تظاهرت الآيات القرآنية تثبت حقيقة الحشر، وتعرض طائفةً من الصور التي ستكون في ذلك اليوم الرهيب، وذلك لتقريب حقيقة ما سيجري فيه إلى الأذهان، وتمكين العظة به في القلوب، وتعميق الخشية منه في الأنفس.

(أ) فمن ذلك تشقق الأرض عن الخلائق يوم القيامة، لبعثهم عقب النفخة الثانية، فيخرجون منها سراعاً إلى موقف الحشر.

قال الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

(ب) ومن ذلك تسوية أرض المحشر، فتكون كلها بارزة لا جبال فيها ولا وديان.

قال الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ توضيح صورة أرض المحشر بتشبيهها برغيف الخبز المصنوع من الدقيق النقي.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عَفْراء كقُرصَة النَقيّ ليس فيها عَلَم لأحد».

(رواه البخاري ومسلم)

عفراء: أي ليست شديدة البياض.

كقُرْصَة النَقيّ: أي كرغيف الخبز من النقي، وهو الدقيق المنخّل المنظّف من كلّ الشوائب.

ليس فيها علَم لأحد: أي ليس عليها علامة لأحد، فهي صعيد منبسط واحد.

(جـ) ومن ذلك أن الحشر يعمُّ الإنس والجن والملائكة، وكلَّ دواب الأرض وطيورها.

أما حشر الإنس والجن فلأنهم مكلفون. وأما حشر الملائكة فليقوموا بوظائفهم، وفق سنة الله في خلقه.

وأما دوابّ الأرض وطيورها، فقد جاء في إثبات حشرها قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وقد جاء في كلام الرسول ﷺ ما يدل على الفائدة من حشرها.

فمن ذلك: القصاص من البهائم الظالمة في الدنيا للمظلومة منها.

ونعتقد أن ذلك على مقدار إدراكها لمعنى الظلم الذي لا تقبله نفس من النفوس؛ مهما قلت مداركها العامة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لتُؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقَاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القرناء تنطحها».

(رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد في مسنده)

يُقاد: يقتص. الجَلْحَاء: التي لا قرون لها.

ومن ذلك أيضاً: تأديتها وظيفة الشهادة على الناس بحسب مشاهداتها في الدنيا؛ وتسخيرها لتعذيب العصاة الذين عصوا الله بها في الدنيا، حينما كانت مذلّلة لهم، مسخرة لمصالحهم وحاجاتهم.

ومن ذلك: مشاهدتها عقاب من ظلمها من الناس في الدنيا، وتعويضها عن ذلك طبق قانون العدل الرباني.

حتى إذا تمت الحكمة الإلٓهية من حشرها، يقضي الله عليها بأمره، فتكون تراباً.

(د) ومن ذلك أن المجرمين يحشرون يوم القيامة زُرقاً، مكبين على وجوههم عمياً وبكماً وصماً.

قال الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (طٰه ٢٠):

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.

(هـ) ومن ذلك ما يصيب أهل الموقف من فزع عام يصدر فيه الناس أشتاتاً.

قال الله تعالى في سورة (الزلزلة ٩٩):

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

وكذلك فإن ما يصيبهم من شدة يتفاوت بمقدار تفاوت أحوال أهل الموقف.

فعن المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدنى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل؛ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرَق: فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقوية، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه».

(رواه مسلم والترمذي)

إلى غير ذلك من صور، يتضمن قسم منها بيانَ إكرام المؤمنين المتقين، ويتضمن القسم الآخر منها بيان إهانة المجرمين، وطائفة من عذابهم يومئذٍ.

(و) ومن ذلك أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً كما بدأهم الله في الخلق الأول؛ وأول من يُكْسىٰ يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«إنكم محشورون حفاة عُراة غُرلاً، ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنَّا كنا

فاعلين﴾. وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم. وإن ناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أُصيحابي أُصيحابي!! فيقول: إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم مُذْ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وكُنْتُ عَلَيْهِم شَهيداً مَا دُمْتُ فيهمْ فلمّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم وأَنْتَ عَلى كُلِّ شيْءٍ شَهِيدٌ. إنْ تُعَذِّبْهُم فإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الحكيم﴾ »[1]. (رواه البخاري ومسلم)

غرلاً: جمع أغرل، وهو الذي لم يُختن.

(٦)

العرض والسؤال، والحساب والميزان، وكتب الأعمال وشهادة الجوارح

١ ــ ولا يتم تنجيز المرحلة الأخيرة من العقاب أو الثواب قبل اجتياز مرحلة الحساب؛ وذلك للفصل بين الخلائق، ولإقامة الحكم بالعدل، ولتقرير مرتبة الإكرام والفضل، تمهيداً لمقتضى الجزاء المقرر بموجب قانون الجزاء الرباني.

قال الله تعالى في سورة (الغاشية ٨٨):

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

٢ ــ ويسبق الحسابَ عرضٌ فسؤال:

قال الله تعالى مبيناً مرحلة «العرض» في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

وقال تعالى مبيناً مرحلة «السؤال» في سورة (الحِجْر ١٥):

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

٣ ــ ولإقامة العدل في الحكم عند الحساب يوم القيامة موازين في غاية العدل والضبط، لا تَظْلم مثقال ذرةٍ. قال الله تعالى في بيان ذلــك في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

(١) سورة المائدة: آيتا ١١٧ ــ ١١٨.

٤ ـ أما وسائل الإثبات لإدانة المكلف فهي :

(أ) شهادة كتب الأعمال التي سُجِّلت فيها أعماله وأقواله في الحياة الدنيا، وشهادة الملائكة الكرام الكاتبين الذين قاموا بوظيفة تسجيلها في الدنيا.

ويسلَّم المكلفون كتب أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم إذا كانوا من أهل اليمين في الحياة الدنيا؛ وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم إذا كانوا من أهل الشمال في الحياة الدنيا؛ وهم الذين كفروا وعملوا السيئات.

قال الله تعالى في سورة (الانشقاق ٨٤):

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

وكتاب عمل الإنسان الذي يتسلَّمه يوم القيامة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها.

(ب) شهادة الإنسان على نفسه، بإقراره واعترافه بجرمه، فإن كذب لسانه خُتم على فمه واستُنطِقت جوارحه، فتنطق بإذن الله وقدرته شاهدة عليه.

قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾.

وقال الله تعالى في سورة (يٓس ٣٦):

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾.

أخرج أحمد ومسلم وابن أبي الدنيا واللفظ له عن أنسٍ في قوله تعالى: **﴿اليوم نختم على أفواههم﴾**، قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، قال: «أتدرون مما ضحكت»؟ قلنا: لا يا رسول الله، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا ربِّ ألم تُجِرْني من الظلم؟! فيقول: بلى، فيقول: إني لا أجيز عليّ إلاَّ شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً فيُخْتم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكنّ كنت أناضل»!!.

(مشكاة المصابيح رقم ٥٥٥٤)

(٧)

الصراط

وبعد موقف الحساب مرورٌ على الصراط وهو طريق على متن جهنم يسلكه الناس مؤمنهم وكافرهم. فالمؤمنون أهل الجنة يجتازونه إلى جنة الخلد بسرعاتٍ تتفاوت على مقدار تفاوت

الإيمان والأعمال الصالحة؛ والمقضيّ عليهم بالعذاب تجذبهم كلاليب جهنم فيسقطون فيها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الصراط في قوله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: «ولقد أجمع السلف على إثبات الصراط، وهو جسر على متن جهنم يمرّ عليه الناس كلهم، فالمؤمنون ينجون على حسب حالهم، والآخرون يسقطون فيها، أعاذنا الله الكريم منها».

(٨)

الجنة والنار

أما المرحلة الأخيرة التي يَتِمُّ فيها الثواب الأكبر والعقاب الأكبر، فقد جعل الله لها دارين: داراً للنعيم اسمها «الجنة»، وداراً للعذاب اسمها «النار».

وقد أخبرنا الله بأن الجنة في الآخرة هي مأوى المؤمنين به والمسلمين له، وأنها مراتب ودرجات، تتناسب مع مستوى الإيمان والمعرفة، والخشية والعمل الصالح الذي قدَّمه مستحقها في الحياة الدنيا.

كما أخبرنا بأن النار في الآخرة هي مثوى الكافرين بالله والمستكبرين عن طاعته وعبادته؛ وأنها منازلُ ودركاتٌ تتناسب مع مستوى الإجرام والمعصية.

وقد أشار القرآن وأخبر الرسول بأن المؤمنين العصاة إذا لم يشملهم عفو الله فإنهم يدخلون النار لتعذيبهم فيها على مقدار معاصيهم؛ ثم يخرجون منها إلى الجنة بفضل الإيمان بالله الذي كان في قلوبهم في الدنيا.

قال تعالى مبيِّناً عذاب النار ونعيم الجنة في سورة (هود ١١):

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

وفي الاستدلال القرآني على خروج عصاة المؤمنين من النار، استدلَّ أهل العلم بقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾، قالوا: والإيمان خير فلا بد أن يلاقي الأجر عليه،

وينبغي أن يكون ذلك بعد تطهيره بالعذاب، لأنه إذا أُثيب على إيمانه قبل دخول النار، فلا يكون ذلك إلاَّ بدخول الجنة، لكنه إذا دخل الجنة امتنع أن يخرج منها لقوله تعالى: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، فلزم من ذلك أن يسبق العقابُ على المعاصي دخولَ الجنة.

ويشهد لهذا الاستدلال القرآني أحاديث كثيرة تبين خروج العصاة المؤمنين من عذاب النار؛ ودخولهم الجنة بعد ذلك، وأنَّ آخر رجل يخرج من النار اسمه «جهينة».

أوصاف الجنة والنار:

وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة جملة من أوصاف الجنة والنار يطول الحديث فيها؛ ولا تخفى على متتبع كتاب الله بالتلاوة، وهي في جملتها تُثبِت:

(أ) أن في الجنة أنواعاً لا تحصى من النعيم المادي والروحاني، وأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأن عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للمتقين، وأن فيها الفردوس الأعلى المعدّ لأكرم الخلق على الله، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

(ب) وأن في النار أنواعاً رهيبة من العذاب المادي والروحاني، وأنها دركات ووديان بعضها أشد عذاباً من بعض، وأن المنافقين في الدَّرْك الأسفل منها، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

(٩)

الشفاعة

ويدخل ضمن قاعدة: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ بابُ الشفاعة.

فللَّه تعالى أن يقبل دعوة من يشاء من عباده إذا دعاه أن ينزل خيراً على عبد آخر من عباده؛ أو يدفع عنه ضراً، أو يغفر له من خطيئاته، سواء كان ذلك في الحياة الدنيا من الحي للحي، أو من الحي للميت، أو كان ذلك يوم القيامة. ودعاء الأخ لأخيه نوع من الشفاعة فيه عند الله، فلا مانع من أن يمنح الله فضله لعبد من عباده إكراماً لشفاعة يوجهها عبد آخر مقرَّب عنده.

لكنّ قانون الشفاعة محدد في نصوص الشريعة بما يلي:

أولاً: إن قبول الشفاعة إنما يدخل في باب الفضل الذي يكرم الله به عباده؛ والله سبحانه لا حَجْر عليه في فضله ﴿يختص برحمته من يشاء﴾.

ثانياً: لا يقبل الله شفاعة الغفران عن الشـرك به، أو جحـوده وإنكار ألـوهيته وربـوبيته سبحانه وتعالى.

فأمر الشفاعة في ذلك أمر لا مطمـع فيه، لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾.

وقد أعلن الله عن عدم قبول الشفاعة إذا كانت من هذا القبيل في عدة آيات، منها قوله تعالى في سورة (غافر ٤٠):

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾.

ثالثاً: أما قبول الشفاعة في غـير الشرك بـالله أو جحوده فهـو منوط بمشيئة الله تعالى؛ إن شاء قبلها، وإن شاء رفضها.

قال الله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

ورداً: عطاشاً.

لا يملكـون الشفاعـة: أي لا يملك الناس في ذلـك اليوم أن تقبـل شفـاعـة أحـد فيهم، إلَّا من اتَّخَذَ منهم عند الرحمن عهداً، وذلك بالإيمان به وبما جاء من عنده، فإنه قد يناله فضـل من الله بقبول الشفاعة فيه والعفو عنه. والله أعلم. وهـذا المعنى مسايـر لقانـون: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

رابعاً: إن الشفاعة يوم القيامة لا تنفـع إلَّا إذا كانت ممن أذن له الرحمن ورضي له قولاً.

قال الله تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: يومئذٍ لا تنفـع الشفاعـة أحداً إلَّا شفـاعة مَنْ أذن لـه الرحمن بـالشفاعـة ورضي له قولاً؛ فإن شفاعته قد تنفع إذا شاء الله استجابتها.

وقال الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

فالشفاعة إذن كالغفران تدخل في باب فضل الله، إن شاء قبلها، وإن شاء لم يقبلها.

ثبوت الشفاعة يوم القيامة:

ثم إذا رجعنا إلى نصوص الشريعة نراها تثبت الشفاعة العامة يوم القيامة لنبينا محمد ﷺ؛ وذلك ضمن الحدود المأذون بها، كما تثبت الشفاعات الجزئية لغيره صلوات الله عليه.

والأحاديث الصحيحة في ثبوت الشفاعة كثيرة، منها ما رواه جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

(رواه الترمذي وأبو داود)

وقد قسم العلماء الشفاعة إلى خمسة أقسام:

١ ـ الشفاعة العظمى: وهي لجميع الخلائق، بإراحتهم من هول الموقف، وتعجيل الحساب، ونحو ذلك.

٢ ـ الشفاعة في إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بغير حساب.

وهذان القسمان من أقسام الشفاعة خاصان بنبينا محمد ﷺ.

٣ ـ الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لبعض أهلها.

٤ ـ الشفاعة في قوم استوجبوا النار بذنوبهم، وهم من أهل الإيمان، فإذا قبل الله الشفاعة فيهم عفا عنهم فلا يدخلونها.

٥ ـ الشفاعة في إخراج بعض المذنبين من النار، وهم من أهل الإيمان، وذلك قبل استيفائهم عذابهم المقرّر عليهم بموجب قانون العدل الرباني.

ولا يخلو قبول الشفاعة أو رفضها من حكمة يعلمها الله، تدخل في واسع فضله أو قانون عدله.

□ □ □

الفصل الخامس

عَقائد الناس بالبعث للجزاء يوم القيامَة وَالرّد عَلى المنكرين

(١)

أولاً: لقد أجمع أهل الملل والشرائع السماوية بحسب أصولها الصحيحة على أن البعث حق لا شك فيه؛ وذلك لأنه أمر جائز الوقوع عقلاً. وقد جاءت الأخبار الربانية الصريحة القاطعة، في جميع الأصول الصحيحة للأديان والشرائع السماوية، بأنه من الأمور المقرَّرة المقضية بقضاء الله وقدره، التي هي لا شك واقعة متى جاء أجلها. لذلك يجب التسليم لأخبار الله العلي القدير، والإيمان بما تضمنته، دون تَرَدُّدٍ أو تأويل أو تحوير، فالله العليم القدير أعلم بما كان وما هو كائن وما سيكون، وما يجري من شيء في الكون إلا بإرادته وعلمه.

ثانياً: كما أثبت الحياة الآخرة نخبةٌ من المفكرين، من غير أهل الملل والشرائع السماوية، بعد أن توصَّلوا بالبحث والنظر العقلي إلى معرفة وجود الخالق العظيم، وبعض صفاته العظيمة، التي منها علمه وإرادته، وقدرته وحكمته وعدله.

وذلك أنهم لـمّا رأوا في هذه الحياة الدنيا ظالمين ومظلومين، وشاهدوا أن كثيراً منهم يدركه الموت قبل أن يناله عدل الخالق ـــ وقد قام لديهم دليل العقل على أنّ الخالق لا بد أن يكون عادلاً ـــ لـمّا رأوا ذلك قالوا: لا بد أن يكون هناك حياة أخرى يتمُّ فيها عدل الله غير هذه الحياة!!

ولكن رافق تصوُّرَ هؤلاء الأقوام لحقيقة الحياة الآخرة أوهام كثيرة، ذلك لأنهم جروا في هذا الموضوع وراء محض الخيال، دون أن يتلقوا شيئاً من علم الغيب عن طريق الوحي الإلهي.

ثالثاً: ولقد أنكر البعث بمفهومه الإسلامي الصحيح منكرون، ونستطيع أن نقسم هؤلاء المنكرين إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: هم الذين يجمعون بين إنكار الخالق وإنكار البعث، وهؤلاء هم الوجوديون الماديون.

وليس لهؤلاء من حُجَّةٍ إلا أن يقولوا كما حكى الله عنهم ذلك في سورة (الجاثية ٤٥):

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وطبيعي في هؤلاء أن ينكروا أمر البعث، بعد أن أنكروا وجود الخالق الذي تظاهرت لإثباته الأدلة المنبثة في كل ذرة من ذرات الكون! وبعد أن جحدوا هذه الحقيقة الظاهرة التي يشهد لها ما لا يحصى من الأدلة في أنفسهم وفي الكون من حولهم!!

الفرقة الثانية: وهم قسم من الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يشركون به، وينكرون البعث.

ومن هذا القسم المشركون الوثنيون من العرب الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ، وليس لهؤلاء من حجة إلا الاستبعاد المجرَّد، وإظهار التعجب والاستغراب! وقد حكى الله عنهم ذلك في سورة (قٓ ٥٠) بقوله تعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

فحجتهم في استبعاد الرجوع إلى الحياة بعد الموت أنه أمر بعيد غريب، وليس هذا من الحجج في شيء.

الفرقة الثالثة: وهم قسم من الذين يعترفون بوجود الخالق ووحدانيته، ولا يشركون معه أحداً، ولكنهم ينكرون البعث الجسدي، ويثبتون الحياة الثانية بشكل روحاني فقط.

وذلك لأنهم حكَّموا تصوراتهم الخاصة في أمور الغيب، دون أن ينظروا إلى الحقائق التي جاءت بها الشرائع الربانية.

ودليل هؤلاء فيما أثبتوه من الحياة الآخرة نظرية العدل الإلهي، أما فيما نفوه من البعث الجسدي المادي فليس لهم فيه أي دليل إلا الاستبعاد المجرَّد، أو رؤية ناقصة سبق إلى أذهانهم فيها أن هذا العدل يكون كامِلُهُ بعد الموت مباشرة وعقب انفصال الروح عن الجسد، وأنه يكون مع استمرار ظروف الحياة الدنيا فقط، وأنّه ليس بعد هذه الحياة بعثٌ إلى حياة أخرى. أو عَدَمُ الالتفات لما جاءت به الشرائع الربانية، اعتماداً على توهُّمات العقل في جانب النفي، واكتفاءً بدليل العقل في جانب الإثبات! مع أن أمور الغيب لا تستطيع العقول أن تنفرد

بالحكم عليها سلباً أو إيجاباً بشكل قاطع؛ إلا في حدود ضيقة جداً تدخل ضمن أحكام العقل من الواجب والجائز والمستحيل؛ ولا تعدو إثبات وجود الشيء وبعض صفاته استدلالاً بما ظهر من آثاره.

(٢)
الردّ على منكري البعث

إن جميع الاتّجاهات الفكرية للذين أنكروا البعث اتجاهات تافهة، لا تقوم بها أدنى حجة، وقد ناقشهم الله في القرآن الكريم بأسلوبه الحكيم الرائع، فكشف مصادر أوهامهم، وأظهر فساد تفكيراتهم، وردّهم بالحجة الدامغة إلى منهج التفكير القويم، والنظر السديد.

ومن لطائف الاستدلال القرآني في مناقشة منكري البعث أن الله سبحانه وضع ــ على طريقة الاستقصاء والحصر ــ جميع أوهام المنكرين التي يحتمل أن تكون هي الشُّبَهَ في إنكارهم، ثم ردّها واحدة فواحدة بالحجة الدامغة، إبطالاً لها وإثباتاً للحق.

(أ) وفي تتبع هذا الاستقصاء نرى أن طريقة القرآن المجيد في محاجَّة الفرقة الأولى من منكري البعث ــ وهم الوجوديون الماديون الذين يجمعون بين إنكار الخالق وإنكار البعث ــ؛ قد جاءت بلفت النظر إلى وجود الخالق العظيم من خلال مظاهر قدرته وحكمته في خلق السماوات والأرض.

وهذا الطريق من الاستدلال يأخذ بيد المنكرين إلى التعرف على حقيقتين:

* **الحقيقة الأولى**: حقيقة وجود الخالق العظيم، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

* **الحقيقة الثانية**: ارتباط وجوده سبحانه بقدرته القادرة وعلمه المحيط بكل شيء، وصدق وعيده ووعده، وصفة عدله بين خلقه، وحكمته العظيمة التي منها أنه لم يخلق هذا الكون عبثاً.

ومتى حصل التسليم بهاتين الحقيقتين، وحصل العلم بأخبار الله الثابتة التي بلّغها الرسل المؤيّدون بالمعجزات الباهرات، سقط الاعتراض على حقيقة البعث للجزاء يوم القيامة كما جاء في نصوص الشريعة الصحيحة الصريحة؛ وتم التسليم بمضمونها دون أي تردد فكري أو نفسي، إلا عند من اختار الضلالة على الهدى، والظلمات على النور.

فمن ذلك توجيه القرآن الكريم نظر المنكرين الكافرين إلى خلق السماوات والأرض؛

وكيفية إحياء الأرض الميتة بالنبات، وتشبيه البعث به ثم توجيه نظرهم إلى الاعتبار بالأمم السابقة التي كفرت بالله واليوم الآخر وكذبت رسلها؛ فأهلكها الله، وفي ذلك استخدام دلائل الفكر، ووسائل الاعتبار بالحس المتضمن أسلوب التربية بالترهيب.

نلاحظ هذا التوجيه الرائع في عرض متتابع يوجه الحواس، ويوقظ الفكر، وينبه الخوف، في آيات كريمات من سورة (ق ٥٠) إذ يقول تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾.

(ب) كما نرى أن طريقة القرآن في محاجّة الفرقتين الثانية والثالثة من منكري البعث ـ وهم: المشركون، والذين ينكرون البعث الجسدي ويثبتون الحياة الثانية بشكل روحاني فقط ـ؛ تحصي بالمنطق الواضح السليم كلّ الوجوه المحتملة التي يمكن أن تكون شبهاً للمنكرين؛ ثم تردّها بالحجة والبرهان.

وبتتبع هذه الوجوه نستطيع أن نحصرها في توهمات ستة كما يلي:

التوهم الأول:

توهمهم أن الخالق الذي قدر على ابتداء خلق الإنسان لا يَقْدر على إعادته كرةً ثانية، وذلك بناء على تَوهُّمِ أن إعادة الخلق بعد فنائه أصعبُ من ابتدائه!!

وقد سلك القرآن في إقامة الحجة على المنخدعين بهذا التوهُّمِ طريقين:

* **الطريق الأول:** طريق إظهار واقع التساوي بين الإعادة والبدء، وبيان أن شبهة التفاوت شبهة باطلة.

إذ أن قدرة الله التي قدرت على ابتدائهم وإبداعهم تقدر على إعادتهم، فالأمران مستويان، بل الإعادة أهون في نظر الناس وحدودِ قدراتهم من الابتكار والإبداع. فكيف تسلِّمون بالبدء ثم تنكرون على قدرته تعالى أمر إعادتكم وبعثكم وقد أخبركم بذلك وهو أهون عليه؟!

روي أن جماعة من كفار قريش منهم: أبيّ بن خلف الجمحي، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة تكلموا في شأن الإسلام، فقال لهم أبيّ بن خلف: ألا ترون إلى ما يقول محمد إن الله يبعث الأموات! ثم قال: واللات والعزى لأصيرنَّ إليه ولأخصمنَّه!! وأخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده ويقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما رمَّ؟! قال ﷺ: نعم. ويبعثك ويدخلك جهنم!! فأنزل الله تعالى في إقامة الحجة على هؤلاء قوله في سورة (يس ٣٦):

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

فقد بيّن الله في هذا الردّ التسوية بين الإنشاء الأول وبين الإحياء مرة ثانية؛ وأنه لا تفاوت بينهما مطلقاً. وأكد ذلك بقوله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

كما بيّن سبحانه في آية أخرى أن إعادة الخلق أهون من ابتدائه، فإذا ثبت الابتداء بالمشاهدة ثبتت الإعادة الموعود بها من باب أولى.

قال تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

* الطريق الثاني: طريق التنبيه على مظاهر قدرة الله في السماوات والأرض. وذلك أنه إذا كابر الخصم ـ بعد إقامة الدليل بطريق التسوية بين الإعادة والبدء ـ فقال: الإعادة أشد من البدء على حدّ توهُّمِه! أتاه الجواب القرآني بنقله إلى ما هو أكبر من ابتداء خلق الإنسان ومن إعادته؛ وهو خلق السماوات والأرض. إذ من المعلوم بالبداهة الحسيَّة أن خَلْقَ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، سواء في ابتدائهم أو في إعادتهم، وهذا ما أشارت إليه الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

والاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرة الله تعالى على أن يحيي الموتى كثير في آيات القرآن العزيز؛ منها قوله تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾.

التوهم الثاني:

توهم أن خلق السماوات والأرض وخلق الأحياء قد أصاب الخالق بالإعياء؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!

ولقد ردَّ القرآن هذا التوهُّمَ بجَلاءٍ ووضوح، وذلك بإثبات أن خلق الله للأشياء كلّها إنما يكون بتوجيه الإرادة والأمر، فإذا أراد أن يخلق شيئاً قال له: كن، فيكون. ومن كان أمر خلقه كذلك فلا يمكن أن يصيبه الإعياء في القدرة أبداً؛ وقد نفى الله تعالى أن تُصاب قدرته بالإعياء بسبب خلقه للسماوات والأرض وما فيهن.

ففي الآية السابقة جاء قوله تعالى: ﴿ولم يَعْيَ بخلقهنَّ﴾.

وعدم الإعياء هو مقتضى قدرة الرُّبوبيّة.

وقال تعالى مستنكراً لون تفكيرهم، ومتسائلاً تساؤل المتهكم بإنكارهم في سورة (قٓ ٥٠):

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾.

وبيّن الله مدى قدرته العظيمة في خلقه الأشياء بمجرد توجيه أمر التكوين لها؛ فقال تعالى في سورة (يسٓ ٣٦):

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾.

وكل هذا تنزُّلٌ من الخالق العظيم إلى مستوى تفكير المنكرين وعقولهم الساذجة؛ لإقامة الحجة عليهم من جميع الوجوه، ومحاصرتهم محاصرة فكرية ملزمة بالحق، على أن في هذه البيانات لفت نظر إلى حقيقة الربوبيّة، وأنّ من مقتضى خصائص صفاتها القدرة التامة على الخلق، وهذه القدرة لها صفة البقاء الأبدي، فهي لا تتناقص ولا تختلّ، ولا تعرض لها عوارض التغير.

التوهم الثالث:

توهمهم أن من يموت من الناس يَضِلُّ رفاته في الأرض، فتذهب صورته وصفاته، فكيف يُرجع الله هذه الذوات والصفات، وكيف يجمع هذه الذرات المتفتتة من عظامهم؟!

ونتيجة هذا التوهم تظهر في توهم أن علم الله غير محيط بكل صغيرة وكبيرة من أعداد

الذين يموتون من الناس، وغير محيط بصفاتهم وأوضاعهم وأعمالهم وذرّات أجسادهم. وقد ذكر الله مقالتهم التي تدل على هذا التوهم بقوله في سورة (السجدة ٣٢):

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

وقد تنزَّل الله إلى مستوى مداركهم، فأثبت لهم إحاطة علمه بكل شيء، ومن ذلك علمه بالذين يموتون أعداداً وصفات، وأن من مقتضى الرّبوبيّة أن يتناول علم الله كل ما يجري في مخلوقاته، حتى ما توسوس به نفوس الناس من غير أن ينطقوا به ودون أن يسمعه منهم أحد.

كما أثبت لهم أن الملائكة الكرام الكاتبين، والملائكة الذين يقبضون الأرواح ويتوفَّوْنَ الأنفس، يسجِّلون كل واحد من الناس أحياءً وأمواتاً، بذواتهم وصفاتهم، وأفعالهم وأقوالهم في كتاب حفيظ يحفظ عنهم كل شيء.

وفي الرد على هذا التوهم الذي يُمكن أن يكون هو مصدر تعجبهم إذ قالوا: «أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد»؛ قال تعالى في سورة (قٓ ٥٠):

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

وقد أثبت الله إحاطة علمه بكل صغيرة وكبيرة، في مقام عرض إنكارهم للساعة، وذلك على سبيل الرد عليهم، فقال تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

وفي إثبات إحاطة علمه تعالى بكل صغيرة وكبيرة ردٌ على هذا التوهم من توهماتهم.

وفي بيان إحاطة علمه بما توسوس به نفوسهم دون أن يُطلِعوا عليه أحداً؛ قال الله تعالى في سورة (قٓ ٥٠):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

وفي بيان مراقبة أقوال الناس وحفظها قال تعالى في سورة (قٓ ٥٠):

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

إذا عرف هؤلاء المنكرون للبعث هذه الحقيقة عن الرّب الخالق، سقط توهمهم هذا، وعرفوا أن الله على كل شيء قدير، وعلموا أن وعد الله حق.

وشواهد شمول علم الله عزّ وجل لكلّ كبير وصغير في الوجود حتى أجزاء الذرّة وحركاتها وما هو أصغر من ذلك، ظاهرة في تصاريف هذا الكون، وحركاته المتقنة، وتغيُّراته الحكيمة، من أصغر عناصرِ كلّ ذرّة، إلى أكبر كلّ مجرّة.

وقد أثبتت البحوث العلمية الكونية وجود سجلّ كوني كبير تسجّل فيه الأعمال كلُّها؛ والأقوال وخواطر الأنفس ووساوسها، فكلّ حرف نقوله، وكلّ عمل يَصْدُر عنا بكلِّ تفاصيله، يسجّل في الأثير، ويمكن عرضه في أيّ وقت من الأوقات، متى تهيّأت الأجهزة القادرة على كشف ما في هذا السجلّ الكبير، والتحكّم بموجاته. فَصُوَرُ كلّ كائن من القرون الأولى، وأصوات كلّ كائن، مسجّلة تسجيلاً كاملاً منذ أول وجوده حتى آخر وجوده، لحظة فلحظة، لا يضيع منه شيء، صغيراً كان أو كبيراً، في النور أو الظلمات. وأثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا وخواطرنا تحفظ في شكلها الكامل، ولسنا بقادرين على محوها أبداً، وإن نسيناها في عقلنا الظاهر، أو في مستوى شعورنا، إنها تظلّ محفوظة لدينا فيما يسمّى عند علماء النفس (ما تحت الشعور).

التوهم الرابع:

توهُّمُهُمْ أن الأشياء التي لا يشاهدونها بالحواس ينبغي أن لا يسلِّموا بها وأن لا يصدقوها؛ لأنها إذا لم تحدث فعلاً أمام أعينهم بشكل مستمر فإنها ممتنعة الوقوع.

وأصحاب هذا التوهم قد سيطرت حدودُ حواسِّهم الظاهرة على قوة التجريد العقلي فيهم، فزعموا عدم إمكان البعث، لأنهم لم يروا حياة بعد موت!

وعلى أن هذا التوهم مرفوض بداهة عند العقول السليمة، لكنَّه قد يكابر به بعض المعاندين، فيزعم بوقاحة أن الأشياء التي لا يشاهد لها أمثلة واقعة ممتنعة الوقوع. ولنا مع هؤلاء الناس أمام هذا التوهم محاكمات لا تُحْصَى، حول إلزامهم بإثباتهم أشياء كثيرة في أنفسهم، وفي الكون من حولهم، يستنتجون هم وجودها استنتاجاً، مع أنها غير مُدْرَكَةٍ بأيّة حاسة من حواسهم.

ومع كل هذا فقد تنزَّل القرآن إلى مستوى مداركهم، فضرب أمثلة مُحَسَّة دائمة الوقوع في الكون، تقرِّب إلى تَصوُّراتهم صورة الحياة بعد الموت.

إن جفاف الزرع وانقطاع تغذيته من الأرض وحصاده يشبه حالة الموت في الأحياء؛ ثم إن السنّة الكونية الدائمة الظاهرة المشاهدة في انشقاق الحبوب في بطن الأرض، ونباتها بعد ما سبق من حالتها التي تشبه حالة الموت، وعودتها إلى الحياة والنضرة كرّة أخرى، وذلك عند

وجودها في البيئة الملائمة من ماء ممتزج بالتراب الصالح، لتعطي تقريباً حِسِيّاً مشاهداً باستمرار في الظواهر الكونية لقصة بعث الأحياء بعد موتها، وتفرق أجزاء أجسامها في تراب الأرض. قال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

* كما ضرب لهم أمثلة تاريخية حدثت فعلاً في أزمنة ماضية، وقد جرت فيها حادثة الحياة بعد الموت.

ـ فمنها: حادثة أهل الكهف، وكيف ضرب الله على آذانهم ثلاثة قرون وتزيد، ثم أعثَر عليهم ليعلم الناس ـ بشهادة الحس ـ كيف يحيي الله الموتى. قال تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ۝٢١﴾.

ـ ومنها: قصة العُزير ـ الرجل الصالح من بني إسرائيل ـ حيث مر على قرية أموات فقال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها!! فأماته الله مئة عام ثم بعثه، وشاهد مشاهدة حسية كيف أحياه الله بعد أن أماته، كما رأى بنو إسرائيل من أهل قريته هذا الحدث التاريخي العجيب.

قال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٥٩﴾.

ـ ومنها: قصة إماتة الألوف من بني إسرائيل حين أُمروا بقتال عدوهم، فخرجوا من ديارهم فارِّين من مقابلة العدو حذر الموت، ثم بعد هذه الإماتة الجماعية أحياهم الله ليعلموا أن الفرار من القتال لا يحمي من الموت!! وليعلموا أن البعث حق. قال الله تعالى في بيان قصة هؤلاء في سورة (البقرة ٢):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ

أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

ـ ومنها: قصة إحياء قتيل بني إسرائيل لسؤاله عن القاتل، كما سبق.

ـ ومنها: قصة إحياء الطيور الأربعة لسيدنا إبراهيم عليه السلام لـمّا طلب من الله أن يريه كيف يحيـي الموتى.

ـ ومنها: معجزة سيدنا عيسى إذ كان يحيـي الموتى بإذن الله، كما سبق في معجزاته.

إلى غير ذلك من أمثلة تاريخية ثابتة.

التوهم الخامس:

تـوهمهم أن مراد الخـالق في إبداع الحيـاة لا يتعدى حـدود هذه الحيـاة الأولى؛ وأن كـل حكمته من الخلق تَتِمُّ فيها.

وقد ردَّ الله على هذا التوهم بقوله تعالى في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

وفي هذا الردّ ما يحثّ العقول عـلى التأمـل العميق في حكمة الخـالق العظيم من خلقـه؛ وفيه ما يدلُّها على أنه لـو لم يكن وراء هذه الحيـاة الدنيـا حياة أخـرى خالـدة تتم فيها حكمتـه؛ ويتحقق فيها عدله، لكان خلق هذه الحياة الدنيا شبيهاً بالعبث واللعب، والله العظيم منزه عن العبث واللعب.

وقـد أورد الله تعالى مقـالة أهـل الكفر التي تتضمن هـذا التـوهم، وردَّ عليهم أروع ردّ وأبلغه، في قوله تعالى في سورة (الدخان ٤٤):

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

التوهم السادس:

توهُّمُ عدمِ إمكان تلقي الرسل الأخبار عن الله تعالى، وعدم معرفتهم شيئاً من الغيب.

وقد عرض الله مقالة أصحاب هذا التوهم، فقال تعالى في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨﴾.

وكان مطلبهم أن ينزّل الله ملائكة يبلغونهم الأخبار عنه؛ أو يرون الله ويخاطبهم خطاباً مباشراً. وقد ذكر الله مطلبهم هذا بقوله في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ۝٢١﴾.

والرد على هؤلاء سيأتي بسهولة ويُسْر، ويتلخص بأن وعد الله بالدار الآخرة والحياة بعد الموت جاء على ألسنة الرسل المؤيَّدين بالمعجزات الباهرات، والله سبحانه لا يؤيد بمعجزاته من يكذب عليه، وأن الله يستحيل عليه الكذب في الأخبار! وقد أخبر في كتابه المنزل بذلك. ولا تعدو مناقشة هؤلاء المناقشةَ حول الرسل والكتب واستحالة الكذب على الله تعالى؛ ولا بد من الرجوع في هذا إلى دلائل ركني الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب.

وقد أشار القرآن إلى أن وعد الله حق في حكاية مناقشة الولد الكافر لوالديه المؤْمنَيْن. قال تعالى في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٧﴾.

خاتمة:

على أننا إذا نظرنا نظرة منفصلة عن مناقشة الوعد الإلٓهي بالبعث والجزاء يوم القيامة؛ فإن العقل الذي عرف وجود الخالق وكمال صفاته بما ظهر له من أدلة كونية، لا بد أن يعرف أن من صفات الخالق العدل. وحيث إن الكثيرين من الطغاة في الدار الدنيا يدركهم الموت قبل أن يُجريَ الله فيهم عدله، فلا بد أن يكون من وراء الغيب وضع آخر يقوم فيه العدل الكامل، الأمر الذي ينير للعقول الطريق إلى إثبات الحياة الثانية. وإن كان لا يستطيع العقل ــ مهما بحث بنفسه ــ أن يصل إلى حقيقة كيفية هذه الحياة الثانية، فإذا انطلق باحثاً سبح في خيالات وأوهام، وتكهنات باطلة، وخرافات كثيرة.

وهنا تظهر الحاجة الملحّة إلى الوحي السماوي، والشرائع الرَّبانية، لتعطينا صوراً صحيحة صادقة عن نوع هذه الحياة، وما فيها من مشاهد القيامة والدار الآخرة، ولتوضح لنا أنها حياة جسدية وروحية، وأنَّ فيها داراً للعذاب وداراً للنعيم، وأن فيها حساباً وميزاناً

وصراطاً، إلى غير ذلك من مواقف وعوالم في الدار الآخرة دارِ الجزاء. رزقنا الله حسن المعرفة، ونور العلم، والهداية إلى سواء السبيل.

(٣)
دوافع التكذيب بيوم الدين

إن دوافع التكذيب بيوم الدين ــ بعد الاطلاع على مجموعة الأدلة والمناقشات التي عرضها القرآن ــ تتلخص بدوافع الاعتداء والإثم المتمكنة في النفوس المكذبة به؛ التي تجعل على القلوب أغطية كثيفة صلبة، فتمنع عنها نفحات الهداية بما تكسب من إثم وظلم وعدوان.

ذلك أن النفس التي تقوم لديها دلائل العقل على عدل الله وحكمته البالغة؛ وتقوم لديها براهين الشرع على إثبات الجزاء في اليوم الآخر، وتعاند في قبول البراهين والأدلة، وتَتَنَكَّبُ سبيل الحق ملتزمةً جانب الباطل، إنما يدفعها إلى ذلك استمراؤها مسلك الجريمة والإثم، وحبُّها الاعتداء على ما ليس لها به حق معقول ومشروع!!

قال الله تعالى في سورة (المطفّفين ٨٣):

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ران على قلوبهم: أي غلب على قلوبهم وغشّاها ما كانوا يكسبونه من إثم وعدوان؛ حتى أصبحت مقفلة مغلقة، لا تتقبل نفحات الهداية، ولا تتّعِظ بقوارع الحكمة، ولا تعتبر بعظائم العبر.

وقال الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

إذن فالمكذب بيوم الدين: هو المعتدي الظالم الأثيم، الذي ينفر من طريق الخير، ويحتال جهده لارتكاب مسالك الشر، إرضاءً لنزواته وشهواته، ناسياً أن الله أحكم الحاكمين، وأنه لا شك سيأخذه بعدله.

قال الله تعالى في سورة (التين ٩٥):

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

ومن دوافع التكذيب بيوم الدين الكِبْر. قال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ومن دوافع التكذيب بيوم الدين إرادة الفجور وهو التدفق الوقح إلى فعل الشرور والآثام. وقد نبّه القرآن على هذا الدافع بقول الله تعالى في سورة (القيامة ٧٥):

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾﴾.

وواقع فجورهم وطغيانهم يشهد بأنّ إرادة الفجور هي التي دفعتهم إلى التكذيب بيوم الدين؛ وقد بيّن الله واقعهم هذا بقوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

مُبْلِسُون: مُتَحَيِّرُون. يائسون.

• • •

الباب السابع

أسباب الضلالات الاعتقادية

الفصل الأول : في أسباب الضلالات الاعتقادية.

الفصل الثاني : نماذج من الفرق الضالة في عقائدها وعوامل تكوينها.

الفصل الأول
أسباب الضّلالات الاعتقادية

مقـدمـة :

إن جولة من جـولات البحث العلمي حول أهـل الضلال في الأرض، كـافيةٌ لأن تضـع أيدينا عـلى أسباب الضـلال عند مختلف الفـرق التي ركبت رأسها في الجهـالة والغيّ؛ وتنكّبت سبيـل الهدايـة، وتمادت في متـاهـات الضـلال، ثم أمعنت في التعصب لـما استمسكت بـه من باطل، وكشّرت عن أنيابها لافتراس الحق حيثما وجدته، وللعدوان على أهله بكل ما أوتيت من حيلة وخبث، ومكر وقوة. وبنظرةٍ إحصائيةٍ نستطيـع أن نشير إلى أسباب رئيسية ثلاثـة تتضمن عوامل فرعية كثيرة.

أما الأسباب الرئيسية الثلاثة فهي :

١ ــ الانحراف الفكري عن منهـج التفكير السليم.

٢ ــ الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم.

٣ ــ ضعف الإرادة أمـام سلطة سياسيـة أو اجتماعيـة أو روحية، أو أمـام ذي شخصية قوية مؤثرة تسوق ضعاف الإرادة إلى الضلال.

وفيما يـلي إيضاح لهــذه الأسباب الثـلاثــة، ولبعض مــا تتضمن من عوامل فرعية :

(١)
السبب الأول : الانحراف الفكري عن منهـج التفكير السليم

عـرفنا في مبحث «العقيـدة وثبوتهـا» : أن العقيـدة يجب أن تسلك إلى داخـل النفس من مسالك الطريق المنطقي السليم للمعرفة؛ وأنه لا يصـح أن تتحول فكـرة ما إلى عقيـدة راسخة ما لم تصبـح حقيقة علمية يقينية؛ يشهد لها بذلك الحجة العقلية المعتمـدة على مسـالك الإدراك الحسي القاطـع، أو الاستنتاج العقلي القاطـع، أو الخبر الصادق القاطـع، أو الإشراق الـروحي القاطع الموافق في نتائجه العلمية لنتائـج مسالك الإدراك أو الاستنتاج أو الخبر.

لكنَّ كثيراً من الناس يَقبلون في حياتهم الفكرية أن تتحول أوهامهم وتخيلاتهم أو ظنونهم إلى عقائد راسخة في نفوسهم؛ دون أن تمرّ في مراحل الطريق المنطقي السليم للمعرفة، ودون أن تصل إلى درجة اليقين العلمي، الذي يسمح لها من بعد أن تتحول إلى عقائد راسخة!

وبذلك نرى أن كثيراً من أسباب الضلالات الاعتقادية في الناس يعود إلى هذا الانحراف الفكري عن منهج التفكير السليم.

ولهذا السبب الرئيسي عوامل فرعية متعددة داخل النفوس الإنسانية؛ منها العوامل التالية:

(أ) الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي:

قد تبرق في ذهن الإنسان بارقة من فكرة تمرّ في خياله أو توهُّمه، فيأتي الغرور بالنفس فيلبسها ثوباً لماعاً مزركشاً، فتحلو في نفسه وتزدان، ثم يتجسم توهمه بها حتى تصبح عقيدةً راسخةً، دون أن يعالجها بالحجة والبرهان، والمناقشة المنطقية السليمة. وقد يسعى مبشراً بها بين السذَّج، وضعاف التفكير والجاهلين، مزيِّناً حجته بالأقوال الخلابة، أو مستخدماً قوة شخصيته، ثم قد يكون له مؤيدون وأنصار يتابعونه على ضلالته التي انخدع بها بعامل الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي.

فالغرور بالنفس والإعجاب بالرأي منزلق كبير من منزلقات الفكر، يؤدي إلى اعتقاد أشياء باطلة، والتزام ضلالات وانحرافات فكرية، والعمل على نشرها وجمع أنصار حولها.

وقد نشأ في التاريخ فرق متعددة تحمل مذاهب فكرية سقيمة، منحرفة عن المنهج الفكري السليم، وذلك بسبب إصابة واحد من الناس بمرض الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي، ثم كان منه ــ ومن عوامل أخرى ــ ضلالةٌ موروثةٌ يعسر التخلص منها، ما لم يتحرر المنتسبون إلى هذه الفرق الضالة من مواريثهم الاعتقادية، بمناقشة عقائدهم مناقشة فكرية سليمة، مؤيدة بالحجج المنطقية، والبراهين القاطعة.

(ب) ضعف العقل وقبوله ما يلقى إليه أو يتخيَّله من أفكارٍ باطلةٍ:

وربما كان الضعف العقلي عاملاً مهماً من العوامل التي ينجم عنها ضلالات اعتقادية بين الناس. فقد تشيع في مجتمع متخلف فكرياً أو ثقافياً فكرةٌ من الأفكار الباطلة المنحرفة عن منهج التفكير السليم؛ وتجد هذه الفكرة قبولاً في هذا المجتمع بسبب التخلّف العقليّ السّائد فيه، ثم بتطاول الزمن تصبح هذه الفكرة في هذا المجتمع عقيدةً قوميةً متوارثةً، وتقليداً ثابتاً متَّبعاً، وأمراً مقطوعاً به غير قابل للمناقشة الفكرية بحال من الأحوال.

ونعتقد أن عامل الضعف العقلي قد كان هو السبب في انتشار كثير من العقائد الباطلة في الشعوب البدائية المتخلِّفة؛ البعيدة عن مراكز العلم والحضارة.

أما بدء نشوء هذه العقائد المنحرفة فيهم فله عوامل عديدة؛ منها:

- نمو مفاهيم خاطئة فيهم بوصفها أفكاراً أولية عرضت لهم، فاقتنعوا بها دون مناقشة.
- ومنها ما يلقيه ماكرون مضلّلون من شياطين الإنس، لهم مصالح وأغراض وشهوات خاصة من بثّ هذه العقائد وترسيخها، وتزيينها في نفوس الناس.

(جـ) التقليد الأعمى:

ينشأ الإنسان في بيئة من البيئات الاجتماعية، فيكتسب منها معارف ومهارات، وعادات وأخلاقاً كثيرة، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ومنها ما هو باطل، ومنها أيضاً ما هو صالح ومنها ما هو فاسد. وبمقتضى نشوئه في هذه البيئة يتكوَّن في نفسه إلفٌ لها، مهما كان وضعها، وإذ يعتبر نفسه جزءاً من هذه البيئة الاجتماعية يتكوَّن لديه بدافع الأنانية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه وسائر من هم في بيئته؛ وجميع ما هو في بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق، لأنه بتعصبه هذا يدافع عن كيانه الذاتي من وجهة نظره المنحرفة عن منهج التفكر السليم، دون أن يسمح لعقله المتجرد عن مؤثرات البيئة أن يبحث ويناقش، ويميز بين الحق والباطل، والصالح والفاسد.

ويمكن أن يقول: إن في طليعة الضلالات الاعتقادية المنتشرة في جماهير كثيرة وشعوب كبرى؛ الاعتقادات الوراثية المتمكنة في الأنفس بسبب التعصب لما كان عليه الأسلاف؛ سواء كان لها حظ من النظر، أو لم يكن لها منه أي نصيب غير أوهام ووساوس شياطين. وبالتتبع نلاحظ أن كثيراً من شعوب الأرض ليس لها أية حجة فيما تتمسك به من معتقدات تافهة؛ غير كونها معتقدات ورثوها عن أسلافهم من قومهم، فاقتدوا بهم، وتعصّبوا لهم، وساروا على آثارهم، وما أكثر ما نجد في البشر من هؤلاء المقلّدين المتعصبين لعقائدهم الموروثة، دون بصر ولا نظر!!

فمنهم الشعوبُ الوثنية التي نرى منها مئات الملايين في الصين والهند وأفريقيا وغيرها؛ على الرغم من أن العقائد الوثنية الخرافية لا تعيش في نور العلم والحضارة، وإنما يكون لها تأثيرها على البدائيين في الأمم التي تعيش في الأجواء المظلمة من الجهل والتخلُّف الفكري والحضاري. ولكنه لمّا أضيف إلى هذه المعتقدات الباطلة عنصر التعصب الأعمى والتقليد لما كان عليه الأسلاف، أمكنها أن تعيش في عصور العلم والنور والحضارة الإنسانية، على الرغم من تفاهتها الظاهرة!

ومنهم أيضاً الأمة العربية قبل بعثة محمد ﷺ؛ فإن الرسول لمَّا دعاهم إلى الحق وأقام عليهم الحجج والبراهين القاطعة؛ عارضوا دعوته بحجتهم التافهة التي ليس لها وزن في منظار العقل السليم، ألا وهي قولهم فيما حكاه الله عنهم في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ولذلك أظهر القرآن سقوط هذا الاستدلال، وأعلن تفاهته في مقياس العقل إلى درجة أنه أمرٌ يُسْخَر منه، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

أي: هل يصح في نظر العقل أن يستمسكوا بمعتقدات آبائهم لمجرد التقليد الذي لا بصر فيه ولا نظر؟! ولنفرض أن آباءهم لم يُؤْتَوا حظاً من العقل أو من الهداية؛ أفيتبعونهم على عمى وجهل، وقد يكون في تقليدهم الهلاك والدمار؟!

(د) المبالغة في تقديس بعض العظماء من الناس:

قد يظهر بين حينٍ وآخر في كل أمة من الأمم أفذاذ منها، يبلغون درجةً عظيمةً في التقوى والاستقامة، أو في العلم والعبقرية، أو في الإخلاص لأمتهم وبلادهم. وقد يكتب الله على أيديهم الظفر والازدهار، والنجاح الباهر والتوفيق العظيم، وما إلى ذلك من رغائب، فيعظّمهم الناس ويمجِّدونهم ثم يبالغ بعضهم في ذلك حتى يصل تقديسهم في نفوس الرعاع السذج، أو الجهلاء، أو ناقصي التفكير، إلى حدّ توهّم الألوهية أو جزءٍ منها فيهم!! وينحرفون بذلك عن منهج التفكير السليم، ويتجاوزون كل حدّ مقبول في العقول السليمة. وقد يشجعهم على ذلك بعض الأذكياء الذين يستطيعون استغلالهم من خلال هذه العقائد الباطلة.

ولقد أصيب بهذا الداء شعوب كثيرة جعلت زعماءها وعظماءها آلهة من دون الله؛ أوجعلتهم شركاء لله في خلقه وأمره، واتخذت لهم أوثاناً وأنصاباً يقدِّسونها ويعبدونها ويقرِّبون لها القرابين، زاعمين أنها آلهتهم من دون الله، أو تقربهم إلى الله زلفى!!

ومن الذين ضلوا بهذا السبب معظم الوثنيين الأوّلين الذين اتخذوا الأوثان والأصنام لعظمائهم، ثم عبدوها من دون الله. ومنهم النصارى الذين ألَّهوا سيدنا عيسى عليه السلام مبالغة في تعظيمه وتقديسه.

(هـ) فلسفات ناقصة:

إن كثيراً من الضلالات الاعتقادية يكون العامل في تكوينها فلسفات ناقصة:

١ ــ فمنها الفلسفات التي تعتمد على تحكيم العقل تحكيماً كليّاً في أمور الغيب؛ وقياسها قياساً تاماً على الأمور المُحَسَّة.

ولقد عرفنا في الفصل الثاني «العالم غيبي ومشهود» من الباب الأول «في المقدمات»: أن عقولنا لا تستطيع ــ وهي مستقلة ــ أن تدرك شيئاً من الحقائق الثابتة لذوات ولصور الأشياء الداخلة في عالم الغيب؛ ما لم يأتها علم يقيني عن طريق الوحي السماوي وأخباره الصادقة المقطوع بها.

وذلك نظراً إلى أن عقولنا ــ بشكل مستقل ــ لا تستطيع أن تتصور أو تتخيل، أو تحلل وتركب، إلاَّ في حدود الأشياء التي جاءتها عن طريق الحس، وعالم الغيب لم نتصل بشيء منه عن طريق الحس، فلا تستقل عقولنا بإدراك شيء منه على حقيقته. وهنا نرى أنّ كثيراً من الضلالات في العقائد إنما تأتي عن طريق تحكيم العقل في أمور الغيب؛ دون الرجوع إلى مصادر الوحي الرباني الذي يخبرنا عن علم ومشاهدة.

كما أن الأمور الغيبية التي لم تتصل بها قدرة حواسنا، لا يصحُّ قياسها ــ عقلاً ــ على الأمور المشاهدة لنا بالحس، لاحتمال اختلاف قوانينها وأوضاعها وأنظمتها اختلافاً كبيراً، الأمر الذي جعلها غير مُدْركة لنا بالحواس. فكل قياس يؤدي إلى تطبيق القوانين الحسية على الأمور الغيبية التي هي من حقائق ما وراء الطبيعة يعتبر في نظر العقلاء قياساً فاسداً.

فالذين يقيسون الله سبحانه وتعالى على خلقه في ذاته وفي صفاته، دون أن ينظروا إلى التنزيه الذي جاء به الوحي في مثل قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾؛ يقعون في ضلالة التشبيه، فيجعلون الله جسداً من الأجساد محدود النهايات.

فإما أن يتخيّلوه على صورة الإنسان بوجه ويدين ورجلين، ونفسٍ ذات عواطف وانفعالات، وأشباهها! وقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإمَّا أن يتخيّلوه جسماً مكعباً أو مستديراً، أو يتصوَّروه في جِرم من أجرام السماء!

وإمَّا أن يتخيلوه روحاً فعّالاً، يمكن أن ينضم بعضه إلى بعض حتى يحلَّ في جسد مادي من الأجساد الصغيرة؛ فربما حلَّ ــ في نظرهم ــ في صورة إنسان أو في صورة حيوان، أو جماد أو شجر، أو غير ذلك!

ومن هنا وقع النصارى في ضلالة التشبيه، وفي ضلالة الحلول والاتحاد.

ومن هنا أيضاً وقع كثير من الفرق الضالة التي ارتدَّتْ عن الإسلام بمثل هذه الضلالات؛ فاعتقدت حلول الإلّه ــ مثلاً ــ في إمام من أئمتهم الذين يقدسونهم!!

وإمّا أن يتخيلوا الله روحاً كبيراً سارياً في ذرات المادة، فيجعلون كلَّ شيء في الكائنات المادية ممتزجاً بجزء من روح الله الساري.

ومن هنا وقع أصحاب فكرة وحدة الوجود في ضلالة تصوُّرِ ذات الخالق داخلة في كل شيء؛ حتى سقط عندهم اعتبار ذوات المخلوقات وصفاتها. وما زال يتجسم في أنفسهم هذا الوهم حتى تصوروا أن كل شيء من الأشياء المادية التي يرونها هي الله؛ لأن الله داخلٌ فيها بجزء من روحه الكبير الساري! ونجم عن ذلك فكرة الإباحية المطلقة، وسقوط التكاليف. إلى غير ذلك من ضلالات اعتقاديةٍ انطلقوا فيها مع الأوهام الباطلة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإمّا أن يتخيَّلوا أن للّه سبحانه زوجةً وولداً ومكاناً يجلس عليه؛ إلى غير ذلك من حاجات تشبه حاجاتهم، وصفات تشبه صفاتهم.

ومن هنا وقع اليهود إذ جعلوا العُزَير ابناً لله، كما وقع من بعدهم النصارى إذْ جعلوا المسيح ابناً لله تعالى!!

ومن هنا أيضاً وقع كثير من الذين يؤلِّهون البشر أو البقر، ويعتقدون بسريان الألوهية في ذريات الآلهة التي اعتقدوا بها.

وكل هذه التخيلات التي تسبح بها العقول المحدودة الصغيرة، تخيلاتٌ تشهد بداهةُ العقول ببطلانها، وعدم إمكانها بالنسبة إلى ذات الخالق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولو أن هؤلاء الذين وقعوا في مختلف هذه الضلالات أصغوا إلى نداء الوحي على لسان الرسل حينما يخبرونهم عن الله تعالى؛ لقال كل واحد منهم لأخيه قولة المؤمن المسلم لله المعترف بحدود عقله: «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك». فهو موجودٌ عظيمٌ، لا يمكن أن يخطر كُنْهُ ذاته ببال مخلوق، لأنه لم يتصل بذات الخالق عن طريق أية حاسة من الحواس، وما لم يتصل شيء منه بالحواس، فإنه لا يمكن أن يخطر بالبال كنه ذاته ولا صورتها.

وبسبب تحكيم العقول ببعض أمور الغيب وقع الفلاسفة في خطأ تخيلاتهم للدار الآخرة وما فيها؛ وجعلها حياة روحية بحتة.

وبهذا السبب نفسه وقع كثير من منكري البعث الذين استبعدوا إعادة الحياة إلى الأجساد البالية؛ كما سبق بيان مذاهبهم والردُّ عليها في مبحث الإيمان باليوم الآخر.

ولو أن جميع الذين ضلّوا في عقائدهم ــ بسبب تحكيم عقولهم في أمور الغيب ــ رجعوا إلى عقولهم، ببصر نافذ، وإذعان للحق، واعتراف بالعجز، لقالوا: إن عقولنا محدودة بحدود

الْمُحَسَّات، فلا يمكن أن نعرف بها ــ بشكل مستقل ــ صورةً ظاهرةً من صور الغيوب يمكن لنا أن نتخيّلها؛ ولا بدَّ لنا من التسليم بما يأتينا عن طريق النبوَّات المؤيدة بالمعجزات الباهرات، والتي تأخذ علومها عن الوحي الرباني، ثم يسلمون تسليماً.

٢ ــ ومنها الفلسفات الناقصة التافهة التي تؤدي إلى تعطيل دلائل الاستنتاج العقلي القاطع، والوقوف عند حدود المادة الْمُحَسَّة، وإنكار الوحي، وإنكار أيَّة حقيقة من حقائق الغيب تأتي بها النبوات، بدعوى أنها غير مدركة بالحس، فلا يصح في نظرهم القاصر التسليم بها.

إنّ هذه النظرة التافهة إلى الوجود ــ التي يشهد ببطلانها كل عقل واع مدرك ــ لهي مصدر شرٍ كبير أدَّى في بعض الناس إلى اعتناق فكرة المادية الملحدة، التي لا تعترف بشيء إلَّا باللذة والغريزة وحدود الظواهر المادية! فكان من هؤلاء الماديين إنكار الروح، وإنكار أنواع من المخلوقات التي لا ترى بالحواس، ثم كان منهم إنكار الخالق أيضاً بجحودٍ ما بعده جحود، وذلك بدعوى عدم مشاهدة كلِّ ذلك بالحواس!! ثم كان من هؤلاء الماديِّين ــ بعد هذه النظرة السخيفة ــ أن استشرت شهواتهم الجامحة، وغرائزهم الشرهة وطبائعهم المجرمة، فكلما سنحت لهم الفرصة ــ في غفلات السلطة المادية ــ سعوا في الأرض فساداً، ظالمين مجرمين شهوانيِّين، مفترسين كأنهم الوحوش المسعورة، لا يرون إلَّا أنفسهم وأنانياتها، غير مبالين قانوناً، ولا مراقبين رَبّاً!!

وقد أوضحنا سقوط الاحتجاج بهذا السبب في مبحث «العقيدة وثبوتها»، وفي مباحث «وجود الخالق سبحانه».

(٢)
السبب الثاني: الانحراف النفسي عن منهج الْخُلُقِ القويم

إن فريقاً من ذوي الضلالات الاعتقادية لم يضلّوا لجهلهم بالحقيقة بسبب عامل من عوامل الانحراف الفكري عن منهج التفكير السليم؛ وإنما ضلّوا وأجرموا بسبب هروبهم من وجه الحقيقة، إرضاءً لشهوة من شهوات النفس ورغبة من رغائبها.

ومتى هرب الإنسان من وجه الحقيقة، سعى ينتحل لنفسه مبادىء أخرى باطلة لِيُحِلَّها في محلها، ويكدح كدحاً شديداً ليقنع نفسه وغيره بصحتها وسلامتها، وضرورة الاعتقاد بها، وذلك لأن الفكر السوي يصعب عليه أن يعتقد الأمور الباطلة ويسلِّم بصحتها، مهما أغرت هذه الأمور الباطلة الشهوات بزخرفها.

إن حقيقة الإيمان بالله وبعدله تلحُّ على الإنسان العاقل أن يندفع دائماً إلى سلوك سبيل الخير والبعد عن سبل الشر؛ إرضاءً لله وابتغاءً لوجهه، ورغبة في ثوابه ورهبة من عقابه.

لكنّ الإنسان غير السوي إذا أراد إرضاء شهواته العارمة، وغرائزه المنحرفة الشاذة، النابحة في داخله بإلحاحٍ متتابع، حاولَ أن يتخلَّص من التناقض الداخلي فيه ــ بين ما يعتقد وبين ما يشتهي ــ ، بأن يهرب من الحقيقة التي تقوم براهينها الجلية في فكره وفي فطرته، وذلك بأن يزين لنفسه شبهات حولها، يتصيَّدها من الأوهام البعيدة. ثم يصطنع لنفسه قناعات خاصة دون حجة معقولة مقبولة، بغية أن يمارس الشر والضر والرذيلة، دون أن يكون في حالة قلق داخلي لو ظلّ ملتزماً بالحقّ، وهذا القلق يتجلى بالصراع الدائم في نفسه بين الحقيقة البيِّنة وبين الرغبة المنحرفة الشاذة. فإذا بلغ الإنسان هذه المنزلة الذنيئة فقد وصل إلى الدَّرْك الأسفل من سوء الخلق المنحرف عن كل فضيلة.

ولو أنه عقل واستقام لأزال التناقض بأيسر أسلوب حكيم، وذلك بتقوية عقيدته السليمة، وإرضاء غرائزه وشهواته بما أباح الله، وصرفها عما حرّم الله بالتسامي إلى الشعور بلذّة الفضيلة وأداء الواجب. وإن اللّذة بالفضيلة وأداء الواجب ــ لدى التحقيق والتجربة ــ أهنأ وأسعد من اللّذة بالشهوات النفسية المنحرفة الشاذة، البعيدة عن الحق والخير والفضيلة.

ولدى الإحصاء الإنساني نرى أن كثيراً من أسباب الضلالات الاعتقادية في الناس يعود إلى هــذا الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم.

ولهذا السبب الرئيسي الثاني عوامل فرعية متعددة داخل النفوس الإنسانية؛ منها العوامل التالية:

(أ) الحسد القبيح :

الحسد القبيح مرض خبيث من أمراض النفوس، يغري صاحبه بغمط الحق وإنكاره والجحود به، مهما كان بيِّناً مؤيَّداً بالحجج والبراهين.

وبناءً على ذلك نلاحظ أنه قد يكون الحسد مع الحرص على اتباع الهوى من أكبر العوامل التي جعلت اليهود ــ مثلاً ــ ينكرون الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام؛ ولذلك حاولوا التخلص منه ــ لولا أن نجاه الله فرفعه إليه ــ كما فعلوا ببعض أسلافه من بني إسرائيل عليهم السلام! وقد خاطبهم الله بهذه الحقيقة في قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وقد كان الحسد من أكبر العوامل التي جعلت اليهود ينكرون الحق الذي جاء به محمد ﷺ. وبالحسد تآمروا على الرسول ودعوته في حياته، ثم تابعوا تآمرهم على الإسلام في عصور

التاريخ الإسلامي ـ منذ خلافة أبي بكر رضي الله عنه حتى عصرنا هذا ـ بألوان مختلفة من التآمر والكيد؛ حسداً من عند أنفسهم، من بعد ما تبيّن لهم أن محمداً رسول الله، وأن دعوته دعوة الحق. وقد جعلهم هذا الحسد يصرُّون على ما هم عليه من باطل، معاندين ومستكبرين، ومتعامين عن الحق.

لقد حسد أحبار اليهود عيسى عليه السلام، إذْ خافوا من نبوته على زعامتهم الدينية في بني إسرائيل. كما حسد جميع اليهود ـ إلاّ من أسلم منهم ـ العربَ إذْ أرسل الله منهم النبي المنتظر المبشر به في التوراة؛ بعد أن كان يهود الحجاز يستفتحون بالنبي المنتظر على العرب، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين. وقد أعلن القرآن صفة حسدهم للعرب بقوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

فالحسد مرض خبيث من أكبر الأمراض التي تكمن فيها الأسباب الأولى لكثير من الضلالات الفكرية والاعتقادية.

(ب) النوازع النفسية الرَّامية إلى تحقيق مطالبها بشذوذ:

في ظل تهاون تربوي، وبُعْدٍ عن منهج الإسلام القويم، قد تنمو في الإنسان بعض دوافعه النفسية نمواً غير طبيعي، شبيهاً بنموِّ الأورام الخبيثة في الجسد، حتى تكون لهذه الدوافع صفة السيادة العامة على كل مقوِّمات الإنسان، وعند ذلك يفقد هذا الفرد توازنه الإنساني السوي. ومتى بلغت في الإنسان دوافعه النفسية إلى هذا الحدِّ من الشذوذ غير الطبيعي؛ أصبحت نوازغ شر وضر وإفساد.

وعندها تنطلق هذه النوازغ في كيان الإنسان، محاولة أن تستبدَّ به استبداد الحاكم الظالم الذي لا عقل له. فإذا تخاذلت إرادة الإنسان أمام نازغة من نوازغ الشر فيه، تبلَّد فهمه العميق للأمور، وانحجب عقله الواعي الذي يعقله عن الشر، وأخذ ذكاؤه يتشاغل بظواهر الأمور وسطوحها القريبة، ويتعامى عن بواطنها وعواقبها. ثم يحاول هذا الذكاء الغبي السطحي أن ينسج الحيل بمكر ودهاء، ليقدم لنازغة الشر مطالبها الدنيئة الحقيرة، ولو عن طريق الإفساد والجريمة وإنكار الحق.

عند ذلك تبدأ صور الفساد والجريمة تظهر في سلوكه الشاذ المنحرف، كما تبدأ صور

تبرير هذا الانحراف تظهر في المفاهيم والمبادىء التي يبثّها ويحاول إقناع الناس بها؛ بغية المحافظة على مركزه الاجتماعي، وحماية نفسه من غضب الجماهير الذين ينالهم شرُّه وضرُّه.

فهو مثلاً يذبح الفضيلة مرتدياً مسوح التقوى، ويمارس الجريمة حاملاً شعار الإنسانية، ويقوِّض دعائم الحق والهدى باسم محاربة الباطل والضلال، ويهدم أبنية الخير الفاضلة باسم التخلص من الفساد، ويحاول محو شرائع الله الحقة التي تحمل للناس السعادة والمجد باسم الإصلاح الديني أو الإصلاح الاجتماعي. فإذا وقفت نصوص الشريعة الثابتة في سبيله أنكرها أو أوَّلها، وإذا أرهبته في طريق جريمته معتقداتُه عن وجود الله وعدله وجزائه يوم الدين؛ ألحد بالله وأنكر العدل والجزاء، وسعى يقتنص لإلحاده أدلة واهية، ليخدع بها نفسه ومن لديه نفسٌ شاذة مثل نفسه، وليخدع بها أيضاً الدهماء من الناس لئلا يثوروا عليه. فإذا انطلت حيلته على جمهور من الناس، انطلق كي يدخل في كل نَفَق شيطاني خبيث، خشية أن تنكشف خبيئة نفسه المجرمة، وفراراً من النور إلى الظلمات، وهروباً من وجه الحق المبين والعلم المنير والخير والفضيلة، إلى معاقل شياطين الباطل والشر والرذيلة!!

ومن هذه النوازع النفسية الشاذة ما يسمى بجنون العظمة والرغبة بالحكم والسلطان، ومنها الإفراط الشديد بحب المال والجنون بجمعه ومنعه، ومنها شهوة الظلم والقتل والاعتداء على الآخرين، ومنها الدوافع الجنسية الشاذة، إلى غير ذلك من عوامل.

لذلك نشاهد المجرمين الذين تسيطر عليهم هذه العوامل النفسية الشاذة؛ يحاولون أن يفرّوا من حقائق الشرائع السماوية، التي فيها تكليف لهم، وحجز عن الانطلاق بشهواتهم وجرائمهم. فينتحلون لأنفسهم عقائد تبيح لهم الانطلاق إلى ما يريدون من أغراض نفسية شهوانية؛ أو ينادون بالماديَّة الملحدة التي تنكر وجود الخالق جلَّ وعلا، مستهينين بكل مبدأ خلقي، وبكلِّ حقيقة علمية جلية، تخلُّصاً من أحكام الشرائع كلِّها، وتهرباً من قانون العدل الإلهي، وفراراً من تقاليد البيئات الاجتماعية التي تتعامل فيما بينها بشيء من أصول الفضائل والأخلاق، لينتقلوا من ذلك إلى فكرة الإباحية المطلقة، التي يمارسون بها ما يشتهون، دون أن يجدوا وخز ذلك في ضمائرهم، ودون أن يحرجوا أنفسهم أمام المجتمع بأنهم يخالفون عقائدهم التي يعتقدونها، ومبادئهم التي يؤمنون بها.

وكثيرون أولئك الذين ضلّت عقائدهم بسبب هذا العامل من عوامل الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم.

وفي إطار هذه الضلالة نشأ فريق كبير من الوجوديين، وسائر فرق الملحدين، الذين ينكرون وجود الخالق جلّ وعلا.

كما نشأت في إطار هذه الضلالة فرق كثيرة إباحية، انتحلت لنفسها صوراً مختلفةً من العقائد الباطلة. وقد يستغل المنحرفون بعامل جنون العظمة في تضليلهم بعض القوى الفطرية التي منحهم الله إياها؛ كقوة التأثير على الأفراد والجماعات، وكقوة الفصاحة اللّسانية، ونحو ذلك، وبها يضلّلون كثيراً من السذج والبسطاء أو المنتفعين الشهوانيين.

ومن هؤلاء المصابين بهذا الجنون أفراد في التاريخ ادّعوا الربوبية، وآخرون افتأتوا على الله فادّعوا النبوءات الكاذبة، دون أن يكون معهم برهان من الله!!

(جـ) الكِبْـر:

ونجدُ الكبر عاملاً ذا أهمية من العوامل الصارفة عن الاستجابة للحق، والباعثة إلى التمرد عليه، والخروج عن دائرة الطاعة للخالق جلّ وعلا، وتكوين معتقدات باطلة لا حجة لها ولا برهان.

ومتى نفخ الكبر في أنف صاحبه، واستولى على عقله وإرادته، ساقه بعنف إلى غمط الحق وطمس معالمه، وانتحال صور من الباطل يعمل على تزيينها وتحسينها بالحجج التافهة؛ التي لا تقوى على النهوض أمام قوة الحق لدى ذوي العقول السليمة.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم لا يدفعهم إلى هذا الانحراف إلاّ ما في صدورهم من كبر يُصَوِّر لهم أنهم في موقع رفيع، لكنّهم في واقع حالهم ليسوا ببالغيه مهما بذلوا، ومهما اجتهدوا، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (غافر ٤٠):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وقديماً كان الكبر هو الصارف لإبليس عن طاعة الله تعالى حين أمره الله بالسجود لآدم.

(د) الأحقاد السوداء:

ومن العوامل ذات الأهمية الكبرى التي تصرف عن الحق، وتدفع صاحبها لإعلان الحرب عليه، الأحقاد السوداء التي تغلي نيرانها في قلوب الذين انحرفت نفوسهم عن منهج الخلق القويم.

ولقد امتدت دولة الإسلام بقوة الحق والعدل والجهاد، واكتسحت عقائد بالية، وصهرت شعوباً كبرى، وقوّضت إلى الأبد دولاً ذات شأن قديم كدولة فارس، وشتّتتْ ديانات محرّفة سابقة. فألقى كل ذلك أحقاداً سوداء على الإسلام والمسلمين في قلوب بعض المتعصبين

لقومياتهم ومعتقداتهم ودولهم؛ التي جرفها الإسلام بنوره المبين فيما جرف، أو نال منها نيلاً، فأفقدهم بذلك زعاماتهم الدينية أو السياسية في الأرض.

ونشأ من جرّاء هذه الأحقاد السوداء مؤامرات عديدة ـ مقنّعة وسافرة ـ على الإسلام والمسلمين؛ في أحقاب التاريخ الإسلامي المتتابعة.

وما يزال العالم الإسلامي يكتوي بنيران هذه المؤامرات المختلفة في أشكالها وألوانها وأساليبها.

فمنها ما يحمل حرباً فكرية مسلّحة بألوان شتى من المكر والخديعة. ومنها ما يحمل حرباً مادية مسلحة بكل قوة مادية مريعة، بغية تهديم الحق الذي جاء به الإسلام، فكان به مجد العرب وسائر الشعوب التي استجابت لدعوته، وبغية تفتيت وحدة المسلمين المتماسكة، التي كان فيها سرُّ قوتهم العظمى التي أذهلت الأمم والشعوب حقبة من الدهر، فهم ما يفتأون يخشون أن تعود هذه الوحدة الكبرى للمسلمين، وأن يعود ذلك الإيمان الصادق إلى قلوبهم.

(هـ) العوامل السياسية:

وقد تتجمع طائفة من عوامل الانحراف النفسي عن منهج الخلق القويم فتكوِّن عوامل سياسية؛ وهذه العوامل تدفع أصحابها بقوة وعنف إلى تسلُّم سلطة الحكم بأية وسيلة من الوسائل؛ مهما كانت هذه الوسيلة منحرفة عن منهج الأخلاق الفاضلة، ومجانبة للحق والعدل والخير.

وقد يجد أصحاب المطامع السياسية الدين الحق ومعتقداته الراسخة في نفوس الناس عقبةً في طريقهم إلى سُدة الحكم؛ فيعلنون حربهم السافرة أو المقنَّعة على مبادئه وأصوله وأحكامه، ويستخدمون في حربهم هذه كلَّ مكر ومخادعة.

فقد يعملون على بث فكرة المادية والإلحاد بالله والإباحية، لإغواء جمهور من ذوي السذاجة والجانحين فكرياً أو خلقياً، حتى يقدِّموهم بمكرهم وقوداً لحركتهم السياسية، ولإغراء فريق آخر من ذوي المطامع من الأذكياء الطامحين إلى سلطان أو مال؛ أو أية شهوة من شهوات الأنفس.

وقد يستغلون بعض القوى العلمية التي يصلون إليها في مجالات الكشف العلمي؛ فيضلِّلون بها أنصاف المتعلمين، ويخدعون بها أصحاب الغرور ومحبي الشذوذ والمخالفة. ونرى في عصرنا كثرة كاثرة من هؤلاء المنخدعين بالمكتشفات الكونية في مجال العلوم التجريبية.

وقـد يستغلون بعض السلطات السياسـيـة والعسكـريـة التي يضعـون أيـديهم عليـهـا؛ فيضلِّلون بها أهل الخنوع والخضوع لكل قوة مادية مُحَسَّة. ومن هؤلاء في العصور القديمة نمـروذ إبراهيم، وفرعون موسى، وفي العصـور الحديثـة بعض فراعنـة العصر الحديث، ولكن بـأسماءٍ جديدةٍ، تنادي بالكفر بالله لتصل إلى فرض ربوبيتها المادية البشرية!!

وقـد يعملون على بثّ دين جـديد يـركِّبون أخـلاطه تـركيباً عجيبـاً؛ بعيـداً عن الفـطرة السليمة والمنطق السديد، ويغلِّفـونه بـألوان من الخـدع والمكر، والمعمِّيـات وإغراء الشهـوات، حتى يكـون له بعض القبـول عند طـائفة جـاهلة ساذجـة رعناء، وعنـد طائفـة أخرى مـاكـرة خبيثة طامعة.

وذلـك لأن من المسلَّم بـه أن العـاطفـة الـدينيـة من أقـوى العـواطف التي تهيمن عــلى الشعوب؛ وأمام هذه العاطفة نجد كثيـراً من المنتهزين السيـاسيين تعـوزهم الحيلة للوصول إلى سدة الحكـم؛ ويريـدون أن يكون لهم أنصـار وأعوان منـدفعون متحمّسـون لتحقيق غايـاتهم السياسية؛ فلا يجدون غير المنتفعين الذين ينازعونهم ما يـريدون، عـلى أنهم لا يصادفـون لديهم الحماسة الكافية، والتضحية الصحيحة.

وهنا لا يجدون لهم طـريقاً شيـطانياً أقـرب من أن يصبغوا حـركاتهم السيـاسية بـالصبغة الدينية؛ حتى يكون لها تأثير قوي على أكثرية الأتباع بالعـاطفة الـدينية؛ التي هي وحـدها ذات السلطة الكبـرى في الهيمنة عـلى قلوب الناس، بحسب الفـطرة الربَّـانيـة التي أودعهـا الله في قلوب البشر. وهذه الصبغة الدينية قد تتطلب منهم مخالفة العقائد الدينية القـائمة المحميّـة من قبل السلطة؛ الأمر الـذي يدفعهم إلى أن ينتحلوا مـذاهب جديـدة، ولو كـانت باطلة تـافهة، ولكنَّهم يحاولون بخبث أن يستغلوا بها حالة نفسية متوترة لجمهور الناس، أو لبعض طـوائفهم، بسبب نقـد سياسي مقبـول، أو خطأ في وضـع الحكم القائم، أو تـألُّم من حادثـة ظلم قـام بهـا الحاكمون أو أنصارهم.

وذلك لتكون هذه المخالفة في العقيدة مبرّراً لهم في تقويض الأوضـاع السياسيـة القائمـة؛ ثم يحاولون بوسائل خبيثة ماكرة أن يضلِّلوا كثيراً من الناس، تحت ستار المذهب الجـديد الـذي انتحلوه، والعقائد الباطلة التي وضعوها، مستغلين في الإقناع بها نقاط الضعف التي يصـادفونها في هؤلاء السذَّج. حتى إذا تأكدوا من تمكن هذه العقـائد في قلوب أتبـاعهم، استخدمـوهم في أغراضهم السياسية كأداة طيِّعة، ودفعوهم إلى ما يريدون دون كلفة أو عناء.

ومن الذين تأثروا قديماً في عقائدهم المنحرفة بالعوامل السيـاسية بعض طـوائف الشيعة؛ الذين شايعوا علياً رضي الله عنه، وبالغوا بمشايعته، حتى اعتقد بعض غلاتهم عقائـد مكفِّرة،

كاعتقادهم أن الوحي كان مرسلاً من عند الله إلى علي بن أبي طالب، فغلط جبريل فنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، ونحو ذلك من هراء وباطل!!

وكاعتقاد بعض غلاتهم بفكرة حلول الإلّه بعلي، أو بإمامٍ من أئمتهم، نحو فكرة النصارى في اعتقادهم مِثْلَ ذلك في عيسى عليه السلام. وأمثال ذلك من عقائد باطلة، حمانا الله والمسلمين منها ومن كل باطل.

(٣)

السبب الثالث: ضعف الإرادة

إذا تأملنا في المجموعات الإنسانية في مختلف أدوار التاريخ، رأينا أن نسبة عظمى منهم تضعف إراداتها وتستخذي أمام إرادة ذوي السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الروحية، أو أمام صاحب شخصية قوية لها تأثير على نفوس الآخرين.

وعند ذلك تتعطل ملكاتهم الفكرية والإرادية، فيكونون إمّعةً وأتباعاً لمن استطاع أن يُنْفِذَ تأثيره إليهم، وحينئذٍ تتلاعب بعقائدهم ومفاهيمهم وسلوكهم أهواء وشهوات هؤلاء القادة الذين بسطوا نفوذهم أو تأثيرهم عليهم؛ إذ يستغلون فيهم صفة الانقياد التام والطاعة العمياء لهم لبثِّ الأفكار والعقائد التي يستطيعون بها تمكين نفوذهم عليهم؛ وتسخيرهم لتحقيق ما تشتهي نفوسهم الآثمة المجرمة الظالمة من سلطان أو مال؛ أو مشتهيات أخرى.

وبهذا السبب نلاحظ الجمهور الكبير من الأتباع الذين تعطلت إراداتهم الشخصية يعتقدون ما يمليه عليهم سادتهم وقادتهم المتّبَعُون؛ دون أن يُعمِلوا أفكارهم ببحث حرٍّ، أو مناقشةٍ منطقيةٍ سديدةٍ، سواءٌ كان ذلك حقاً أو باطلاً، خيراً أو شراً. وسوف لن يغنيهم من الحق شيئاً يوم القيامة أن يقولوا: «ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلُّونا السبيلا».

وفي اعتقادنا أنه قد كان لهذا السبب دور كبير في تاريخ كثير من العقائد الباطلة التي انتشرت في مختلف الأمم والشعوب؛ ومن أمثلة ذلك الواردة في القرآن الكريم قوم فرعون أمام ربوبية حكمه وسلطانه. قال الله تعالى في شأنهم في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

□ □ □

الفصل الثاني

نماذج من الفرق الضالة في عقائدها وعوامل تكوينها

مقدمة :

ربما تجتمع مجموعة من الأسباب والعوامل الفكرية والنفسية والإرادية؛ فيكون لها أثر كبير في انتشار ضلالة من الضلالات الاعتقادية في طائفة كبيرة من الناس.

ولقد اجتمعت فعلاً مجموعة من هذه الأسباب والعوامل، فتكوّنت منها فرق كثيرة ذات عقائد باطلة.

ونعرض فيما يلي نماذج من هذه الفرق، مع الإشارة إلى بعض الأسباب والعوامل التي دفعت إلى تكوينها.

(١)

الباطنية

في ظل ظروف سياسية خاصة نشأت فيها خلافات محلية على الحكم في التاريخ الإسلامي؛ تألّفت جمعيات سرية من عناصر فارسية ويهودية ووثنية ونصرانية حاقدة؛ تظاهرت بالإسلام والتحمس له، ثم عملت على تخطيط مؤامرات خبيثة لتغزو عقائد المسلمين في الصميم، ولتهدم كيان الدولة الإسلامية، مستغِلّة الخلافات السياسية على شخص خليفة المسلمين، أو مرتدية مسوح الحزن الكاذب على مقتل مظلوم طاهر من ذرية آل البيت.

وكان في طليعة هذه المؤامرات في التاريخ الإسلامي مؤامرة «الباطنية» الكبرى؛ ثم تتابعت بعدها مؤامرات كثيرة في عصور التاريخ الإسلامي، وما تزال حتى الآن مخططات أعداء الإسلام تحيك الدسائس والمكايد، وتحفر الخنادق في طريق العقائد الإسلامية.

قال المؤرِّخ الديلمي ــ متحدثاً عن المؤامرة الباطنية على العقائد الإسلامية ــ في كتابه «قواعد عقائد آل محمد الباطنية»:

(واتفق أهل المقالات أن أول من أسس هذا المذهب المشؤوم ــ يعني مذهب الباطنية ــ قوم من أولاد المجوس وبقايا الخرّمية ــ «وهم طائفة إباحية من المجوس» ــ والفلاسفة واليهود. فجمعهم نادٍ واشتوروا وقالوا: إن محمداً غلب علينا وأبطل ديننا، واتفق له أعوان نصروا مذهبه، ولا مطمع لنا في نزع ما في أيديهم من المملكة بالسيف والمحاربة، لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم، وطبقوا البر والبحر. وكذلك لا مطمع لنا فيهم من طريق المناظرة، لما فيهم من العلماء والفضلاء، والمتكلمين المحققين، وكثرة كتبهم وتصانيفهم. واتفقوا على وضع حيلة يتوصَّلون بها إلى إفساد دينهم، من حيث لا يشعرون، وبنوا أمورهم على التلبيس والتدليس، وزادوا في مسالكها على مسلك اللعين إبليس). انتهى.

لقد وضع مؤسسو الباطنية ــ من أعداء الحق والفضيلة، أعداء الإسلام ــ بحقد بالغ ومكر شديد، خطةً شيطانية لطعن عقائد الإسلام في الصميم، وبنوا أسس دعوتهم على الكفر والزندقة، والإباحية المطلقة، واستخدموا لنشر ضلالاتهم حيلاً خبيثة، متسترة البدايات، مجرمة النهايات.

ثم انقسموا إلى فرق، وغدا لكل فرقة منهم صورة خاصة من الكفر والضلال، تُغوي بها طائفة من العامة الجهلاء أو الأغبياء، وتستخدم أفراداً معدودين من ذوي النفوس الخبيثة الطامعة؛ وبتطاول العهد أصبح لهم طوائف، كل منها ذو طابع متميز خاص. ويسيرون في نشر ضلالاتهم المقنّعة باحثين عن نقاط الضعف في الأفراد والجماعات، حتى يلقوا حبائلهم عليها، ويتمكنوا من اقتناص فريستهم.

وقد تستروا بفكرة خطِرة ضالَّة خبيثة، وهي أن النصوص الشرعية ــ من قرآن وسنة نبوية ــ لها ظاهر وباطن، فالظاهر: ما يُفهم من النص العربي، والباطن: ما يفهمونه بوساوسهم وأوهامهم الخبيثة، دون قاعدة يُرجع إليها في فهم هذا الباطن، إلاّ محض التخريفات التي يريدون بها أن يحوِّلوا النص إلى ضلالاتهم وألوان كفرهم التي ركزوا قواعدها!! ثم يقولون ــ للتضليل ــ: إن الظاهر بمنزلة القشور، والباطن بمنزلة اللّب المطلوب!!

وغايتهم التي يعملون لها هي سلخ المسلمين من جميع عقائدهم، وأركان دينهم، لأنه إذا وجب أن يكون لكل ظاهر باطن، وأن يكون هذا الباطن بمنزلة اللب، كان المرء بعد وقوفه عليه مستغنياً عن الظاهر.

إنهم لما عجزوا عن أن يتلاعبوا في تحريف ألفاظ القرآن الكريم، لجأوا إلى خطة التلاعب في تأويل ألفاظ القرآن إلى تأويلات باطنية وفق أهوائهم وضلالاتهم؛ وليس لهذه التأويلات الباطنية أية قاعدة مقبولة في العقل.

فهم يؤولون كل ما ورد من الظواهر في التكاليف، وفي أمور الآخرة، وفي الأمور الإلٰهية، ويقولون: إنها أمثلة ورموز إلى بواطن.

ومن غريب تأويلاتهم التي اطلعنا عليها عند من يؤلّهون ــ من فرقهم ــ سيدنا علياً رضي الله عنه: تأويلهم ما نُسب إلى الرسول ﷺ: (نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر).

قالوا: هذا يدل على نبوة محمد ﷺ وألوهية علي، لأن محمداً حكم بالظاهر فلم يقاتل المنافقين، وأما علي فقد حكم بالباطن فقاتل المنافقين!! على أن هذا القول لم أجده فيما لديّ من كتب الحديث.

ومثل هذا التأويل ــ الذي لا يقبله العقل بحال ــ تأويلات أخرى كثيرة كلّها طامّات وكفريّات؛ غايتهم منها التلاعب بمعاني القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأركان الإسلام، فهم يخبطون فيها خبط شيطان رجيم.

ومن تأويلاتهم الباطلة ما يلي:

(أ) فمعنى الجنابة مثلاً: سرعة إفشاء السر إلى المستجيب، قبل أن يصل إلى الرتبة التي يستحق بها ذلك!

ومعنى الغسل من الجنابة: تجديد العهد على من فعل ذلك!

(ب) ومعنى الزنى: هو إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد!

(جـ) والكعبة: هي النبي، والباب هو علي. والصفا هو النبي أيضاً، والمروة علي أيضاً، والتلبية إجابة الداعي!

(د) والطواف بالبيت سبعاً: هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة!!

(هـ) والصلوات الخمس: رموز للأصول الأربعة وللإمام!!

فالفجر: رمز للسابق، والظهر: رمز للتالي، والعصر: رمز للأساس، والمغرب: رمز للناطق، والعشاء: رمز للإمام!!

وهكذا مما لا ضابط له.

وكل فرقة من فرق الباطنية لها تأويلات تخالف تأويلات الفرق الأخرى، ولها مجموعة من المعتقدات تخالف الأخرى، ظهرت بَعْدَ التطبيق العملي للفكرة الأولى التي تمّ عليها الاتفاق.

وقد اتفقوا على استخدام تسع حيل في نشر ضلالاتهم، وجلب أتباع لهم، يتدرّجون فيها حسب مقتضى الأحوال التي تصادفهم، في مسيرتهم الظالمة المجرمة لطعن الإسلام، وتشويه عقائده في نفوس السذَّج من المسلمين، واستدراج العوام إلى مذاهبهم المنحرفة، التي تبيح لهم كل محرَّم في العقل وفي الشرع. وفيما يلي بيان لهذه الحيل التسع:

حيل الباطنية التي يستخدمونها في نشر ضلالاتهم :

١ ـ حيلة التفرُّس: وتتلخص هذه الحيلة بالتفرُّس في حال الشخص المراد استدراجه إلى الشرّ والفتنة؛ حتى إذا غلب على ظن الداعي الباطني أهليته لأن يستجيب للدعوة بوسيلة ما، بدأ محاولته معه.

لأن قادة الباطنية لا يأذنون لداعيهم بدعوة أحد ما لم يتفرّس فيه إمكان استجابته؛ ويقولون له في التعبير الرمزي عن ذلك: احذر أن تلقي البذر في الأرض السبخة.

ويشترطون في داعيهم أن يكون قويَّ الحدس، ذكي الخاطر، يستطيع بسرعة أن يغيِّر الأشياء، ويردّ الظواهر إلى البواطن، وأن يكون مرناً في قبول رأي من يريد استدراجه، ثم السير به منحرفاً عن عقيدته للغاية التي يسوقه إليها.

كما يوجِّهون داعيهم ألا يدعو كلَّ أحد إلى مسلك واحد، بل عليه أن يدرس حالته النفسية، وميله في طبعه، فإن كان مائلاً إلى الدنيا شجعه على الانغماس فيها، والأخذ بملاذها، وبيِّن له أن ذلك هو العقل وما سواه بلاهة وحمق، وإن كان مائلاً إلى التقوى والعبادة شجعه على ذلك ثم نقله بالتدريج إلى ترك العبادة والتقوى، ملبِّساً عليه أن ذلك من العبادة والتقوى، وهكذا.

ولهم في هذا الباب فنون غريبة ووسائل عجيبة.

٢ ـ حيلة التأنيس: وتتلخص هذه الحيلة بأنها لون من ألوان النفاق القولي أو العملي يناسب حال المدعو، حتى يأنس لمصاحبة الداعي، فيسهل استدراجه وقنصه ليكون عضواً من أعضاء المؤامرة.

٣ ـ حيلة التشكيك: وتتلخص هذه الحيلة بإلقاء أسئلة عويصة على عوام المسلمين الذين يجهلون حجج عقائدهم الصحيحة. وغرض الباطنية من هذه الحيلة إحراج المسؤول بجهله الإجابة الصحيحة؛ ثم إلقاء الشكوك في قلبه عما يعتقد.

٤ ـ حيلة التعليق: وبعد استخدام حيلة التشكيك السابقة، لا غرو أن تستشرف نفس الشاكّ لمعرفة الحقيقة، فيسأل الداعي الباطني عنها، وعند ذلك يستخدم معه حيلة التعليق، وذلك بأن لا يعطيه الجواب على سؤاله بل يتركه معلّقاً مشغول القلب بطلب معرفته! وكلّما سأله كَشْفَ غوامِضِه لإراحة قلبه من الشك، قال له: لا تعجل، فإن الدين أجلُّ من أن يعبث به، أو أن يوضع في غير موضعه ويكشف لغير أهله، هيهات هيهات! وأخذ يهوّل عليه، وربما استشهد ببعض النصوص الشرعية وفق الطريقة الباطنية.

فإذا ألحَّ عليه بطلب معرفة السر، ورأى الداعي الباطني شوقه الزائد إلى ذلك، وعده في وقت معين، وأمره بتقديم الصوم والصلاة والتوبة قبله، وعظَّم له أمر هذا السرِّ المكتوم.

حتى إذا وافى الميعاد قال له: إن هذه الأسرار مكتومة، لا تودع إلاّ في سرٍّ مُحصَّن، فحصّن حرزك، وأحكم مداخله حتى أودعه فيه.

فيقول المستجيب: وما طريقه؟

فيقول الداعي الباطني: أن آخذ عهد الله وميثاقه على كتمان هذا السر ومراعاته عن التضييع؛ فإنه الدرُّ الثمين، والعِلْق النفيس.

وإنَّ أدنى درجات الراغب في معرفة هذا السرّ صيانته من التضييع؛ وما أودع الله هذه الأسرار أنبياءه إلاَّ بعد أخذه عهدهم وميثاقهم.

فإذا وافق المستجيب على تقديم العهد المطلوب؛ استخدم الداعي الباطني معه حيلة الربط.

٥ ــ **حيلة الربط**: وتتلخص هذه الحيلة بأن يربط الداعي الباطني المستجيب؛ وذلك بأن يأخذ عليه العهود والمواثيق المؤكدة بمختلف الأيمان المغلظة التي يعتقد بها ــ ومنها أيمان الطلاق والعتق والنذور، والحلف بالتخلي عن جميع الأموال، وأمثال ذلك ــ أن لا يفشي سراً مما يسمعه، إلا في حدود ما يُؤذَن له به، وذلك مهما اشتدت عليه المآزق، وأن يطيع الإمام.

ويغلِّف الداعي الباطني إمامَ الباطنية المجهول بهالة كبيرة من التقديس والتعظيم؛ والأمور الغيبية التي تؤثر على أوهام الضعفاء.

٦ ــ **حيلة التدليس**: وتتلخص هذه الحيلة ــ بعد تأكيد العهد على المستجيب ــ بأن يقوم الداعي الباطني ببثّ الأسرار إليه على سبيل التدرج شيئاً فشيئاً، وعدم إلقائها إليه دفعة واحدة.

(أ) فيقول له أولاً: إن الباطل ظاهر جلي، أما الحق فدقيق خفي، بحيث لو سمعه الأكثرون لأنكروه ونفروا منه، وإن طلاب الحق والقائلين به من بين طلاب الجهل أفراد وآحاد!!

وغرض الداعي الباطني من هذا التمهيدُ لإلقاء مبادىء الباطنية المنحرفة إلى المستجيب.

(ب) ثم يبث إليه أن أصل الجهل تحكيم العقل في فهم النصوص، وعدم التسليم

للأئمة الذين هم أصفياء الله وأوتاد أرضه وخلفاء رسوله من بعده؛ حسب ادِّعاء الباطنية الباطل!!

(جـ) ثم يقول الداعي للمستجيب: «إني مُفشٍ إليك سرّاً وعليك حفظه»، فإذا قال له: «نعم»، قال: «إن فلاناً وفلاناً ملتزمون مذهبنا ولكنهم يسرّونه ولا يظهرونه»؛ ويذكر له عدداً من الأفاضل الذين يعتقد المستجيب فيهم الذكاء والفطنة.

(د) ثم يمنّي الداعي الباطني المستجيبَ بقرب ظهور شوكة الطائفة، وانتشار أمرها، وسعة ذات يدها، ووصول كل واحد من أتباعها إلى مراده، حتى تجتمع له سعادة الدنيا والآخرة.

والغرض الأعظم من هذه الحيلة إشعار المستجيب بجهالة الدين؛ وتوجيهه للتعلق بالإمام المستور، ويستميلونه بأنه من العترة المطهرة آل بيت الرسول.

٧ ـ حيلة التأسيس أو التلبيس: وتتلخص هذه الحيلة بمحاولة الداعي الباطني مع المستجيب حتى يقنعه بأن الشريعة لها ظاهر وباطن؛ وظاهرها بمثابة القشر الذي لا يلتفت إليه الواصلون، وأما الباطن فهو اللبّ المقصود، ولا يعرف هذا الباطن إلا عن طريق أئمتهم المصطَفَين!!

٨ ـ حيلة الخلع والسلخ من الدين: وتتلخص هذه الحيلة بأن يجتهد الباطني مع المستجيب ـ مستنداً إلى مضمون الحيلة الأولى ـ حتى يقنعه بأن فائدة ظاهر الشريعة فهم ما أودع فيه من علم الباطن؛ وليس المراد العمل به، فمتى عرف الإنسان باطنها وسرَّها المكنون سقط عنه العمل بالظاهر.

وبذلك يُسْقِطون عنه جميع التكاليف والأحكام الإسلامية، ويبيحون له جميع المحرمات التي تشتهيها الأنفس!!

٩ ـ فإذا بلغ المستجيب إلى هذه المنزلة انتقل الداعي الباطني به إلى آخر المنازل؛ وهي: **منزلة الانسلاخ من الدين كله**، وإيصاله إلى إنكار الشريعة كلها، والانغماس بالإباحية المطلقة التي لا يقيِّدها قيد، ولا يحدُّها حدٌّ، ولا يردع المنغمس فيها رادع[1]!!

---

(١) ارجع إلى كتاب «فضائح الباطنية» للإمام أبي حامد الغزالي، وكتاب «قواعد عقائد آل محمد الباطنية» للمؤرخ الديلمي.

(٢)
البهـائيـة

وفي ظل مجموعة من أسباب الضلال في الأرض، نشأت فرقة البهـائية الضـالة عن منهـج العقيـدة الحقة، وذلـك في النصف الثاني من القـرن الثالث عشر الهجـري، ونعتقـد أنـه كـان للعوامل السياسية الاستعمارية أثر في تغذيتها مادياً ومعنوياً.

وقد كان من مظاهر ضلال هذه الفرقة تلفيق دين جديد بعقيـدته وشـريعته، تحت قنـاع الإصلاح الديني والاجتماعي المزيَّف، وبـاسم التآخي العـام بين النـاس على اختـلاف أديانهم وقومياتهم ومذاهبهم.

* ومن العقائد والتعاليم التي وضعها مؤسسو هذه الفرقة الضالة ما يلي:

(أ) عـلي بن أبـي طالب هـو محمـد النبـي، وهـو المـرآة التي يتجـلى فيهـا الله، وفيهـا يستطيـع كل إنسان أن يراه!!

(ب) للعدد (١٩) سرّ وتقديس في تعـاليمهم، ولذلـك قسموا السنـة إلى (١٩) شهراً، والشهـر إلى (١٩) يـومـاً، وجعلوا المجلس الأعـلى الـذي يـدبّـر شؤون جمـاعتهم مؤلفــاً من (١٩) عضواً!!

(جـ) تـدفـع الزكـاة عندهم لمجلس الجمـاعة وقـدرهـا الخمس، ولكن لا يُكـرَه معتنق دينهم على دفعها!!

(د) ومن تعـاليمهم: إلغـاء جميع العقـوبـات إلا دفـع الـدِّيـة، وإسقــاط الجهـاد في سبيل الله، والزواج إجباري بعد سن الحادية عشـرة، ويجب صوم (١٩) يـوماً في كـل سنة من شروق الشمس إلى غروبها على كـل من بلـغ إحدى عشـرة سنة ولم يتجاوز الثانيـة والأربعين، ويجوز رؤية النساء سافرات والتحدث إليهن من غير حرج، والحـج عندهم زيارة البيت الـذي ولد فيه مؤسس هذه الديانة الملفَّقة!!

إلى غير ذلك من أخلاط وضعوها ما أنزل الله بها من سلطان.

ولهذه الدعوة البهائية صلة في مفاهيمها بالإباحية من جهة، وبطرحِ الفوارق الدينيـة بين المسلمين وغيرهم من يهود ونصارى من جهـة ثانيـة!! ونعتقد أن هـذه الدعـوة تحمل نـوعاً من التبشير المقنَّـع ضد الإسلام، ولا غرو أن يجد البهائيون في الفكرة الباطنية الآنفـة الذكـر متسعاً لما يريدون من ضلالات لطعن الإسلام.

تاريخ البهائية[1]:

١ ــ بدأت فكرة هذه الفرقة الضالة في مدينة شيراز من مدن إيران؛ في سنة ١٢٦٠هـ على يد رجل فارسي اسمه: (علي محمد الشيرازي)، حين أعلن أنه باب العلم بالحقيقة الإلٓهية، وسمّى نفسه (الباب)، واجتمع حوله أتباع من ضعاف العقول وأصحاب الشهوات.

ولما أعلن هذا المُضِلُّ مقالته في الناس، قامت فتنة دعت الحاكم إلى أن يسجن أتباعه.

ثم هاجر من شيراز إلى أصفهان فحماه حاكمها، ولما توفي هذا الحاكم تلقّى خَلَفُه أمراً بالقبض على (الباب)، وحبسه في قلعة «ماكو» بأذربيجان.

وفي سنة ١٢٦٦هـ ــ أي بعد ست سنوات من بدء ضلالته ــ قتل رمياً بالرصاص في تبريز. وكان ممن استجاب (للبابية) شخص فارسي آخر عرف (بالبهاء).

٢ ــ لما قُتل الباب خَلَفَه (البهاء) وهو: حسين علي نوري بن عباس بن بُزُرك الميرزا، المعروف باسم: (البهاء) أو (بهاء الله)؛ وإلى هذا الشخص تنسب فرقة (البهائية). ولم يلبث بعد تسلُّمه رئاسة الدعوة لهذه الضلالة، حتى اتُّهِمَ بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال ناصر الدين شاه «ملك إيران» انتقاماً (للباب)، فاعتُقل وأُبْعِد، فنزل بغداد وأقام بها «١٢» سنة، قضى بعضها في أطراف السليمانية يبشّر بضلالته، وضجَّ منه علماء العراق فأخرجته حكومة بغداد، فقصد الآستانة وقاومه شيوخها، فنفي إلى «أدرنة» حيث أقام نحو خمس سنين، ثم أُرسل بعدها إلى سجن «عكة» بفلسطين عام ١٨٦٨م، ثم أُفرج عنه فانتقل إلى «البهجة» من قرى عكة، والتفَّ حوله مريدوه، وتوفي بها (سنة ١٣٠٩هـ) ودفن في «حيفا».

٣ ــ ثم خلفه من بعده ابنه عباس عبد البهاء، وقد رافق هذا أباه منذ بدء ضلالته، وتنقّل معه، وهو آخر من قام بأمر البهائية وتنظيم جماعتها. ونشط هذا الشيطان الابن في نشر ضلالة هذه الفرقة، وكان متوقّد الذكاء، وقد زار «أوروبة» في سنة ١٣٣٠هـ، وزار «أميركا» في سنة ١٣٣١هـ، وعاد إلى «فلسطين» فمات في «حيفا». وقد تبعه جماعات في «شيكاغو» بالولايات المتحدة، وبعض البلاد الأخرى.

ويوجد بهائيون في سورية ولبنان والعالم العربي وإيران وأوروبة وأميركا؛ ولكن مركزها الرئيسي في حيفا.

---

(١) أخذاً من: الأعلام للزركلي، ودائرة المعارف الإسلامية، والموسوعة العربية، وغيرها. ويحسن مراجعة الكتب والرسائل الخاصة التي كُتبت عن البهائية.

(٣)
القـاديـانيـة

وفي ظـل مجمـوعـة من العـوامـل النفسيـة والعـوامـل السيـاسيـة الاستعمـاريـة نشـأت فرقة القاديانية.

وقـد كان من مـظاهر ضـلال هذه الفـرقة العمـلُ على هـدم بعض العقـائـد والشـرائـع الإسلامية؛ التي يخدم هدمها مصالـح المستعمرين في البلاد الإسلامية.

* فمن المسائل التي عملوا على نشرها ـ مخالفين فيها العقائد والشـرائـع الإسلاميـة ـ ما يلي:

١ ـ قولهم: إنَّ عيسى عليه السـلام هاجـر إلى كشمير في الهنـد بعد أن بعث من مـوتـه الصوري، وذلك لينشر تعاليم الإنجيل في البـلاد، وإنه تـوفي بعد أن بلـغ من العمـر «١٢٠» سنة، وإنَّ قبره لم يزل موجوداً هناك، وفق مزاعمهم الكاذبة!

٢ ـ ادّعاء مؤسس ضلالتهم (ميرزا غلام أحمد القادياني) أنه هـو (المهدي)، ثم ادعـاؤه أنه قد حلَّ فيه عيسى ومحمد جميعاً، فهو نبـي مرسل ينزل عليه الوحي، ولكنه ليس نبياً مستقلاً بل هو نبـي متّبِـع، كهارون بالنسبة إلى موسى!!

٣ ـ إسقاط الجهاد في سبيـل الله، ووجوب طـاعة السلطة الحـاكمة مهـما كان نـوعها، ولو كانت مغتصبة كافرة تحـادُّ الله ورسوله! وذلك استبقاءً لنفوذ المستعمرين البريطانيين، ورضاً بسلطانهم، وتخفيفاً من حدة المعارضة لهم، وذلك لأن هذه الفرقة قد كانت من المؤسسات التي اصطنعتها سرّاً السياسة البريـطانية في جسم الشعـوب الإسلاميـة؛ لتمكن سلطانها على البـلاد الإسلامية التي اغتصبتها واستولت عليها باسم الاستعمار.

٤ ـ وقـد رافق ذلك تحـريف معاني آيـات القرآن الكـريم، وتأويلهـا تأويـلات فاسـدة خارجة عن أصول الشريعة الإسلامية ومفاهيمها الصحيحة.

* ولقد كان لتأسيس فرقة القاديانية تحت ستار ديني هدفان رئيسيان:

الهدف الأول: تفريق وحدة المسلمين، وتوهين قوتهم، وهدم مبادئهم وعقائدهم.

الهـدف الثاني: تمكـين الدولـة البريـطانية من بسط نفـوذها عـلى البـلاد الإسـلامية التي اغتصبتها؛ وبخاصة بلاد الهند التي نشأت هذه الفرقة فيها.

تاريـخ القاديانية[1] :

١ ـ اجتمع قـواد الاستعمار البـريطاني وزعمـاؤه في لندن ووضعـوا خطة لهـدم أركان العقيدة والشريعة الإسلامية؛ ولتمزيق وحدة المسلمين، وتوهين قوتهم.

فكان من مظاهر هذه الخطة إنشاء فرق باطلة في صفوف المسلمين؛ تـدعمها الحكـومات البريطانية، وتغذيها بالرشوات والمساعدات المالية، وتحميهـا من غضبة المسلمـين، وتمدهـا بكل الإمكانات، على أن تحمل هذه الفرق في الظاهر اسم الإسـلام، وتعمل في الحقيقـة على هـدم أصوله وقواعده، وتقطيـع أوصاله، وإبعاد المسلمين عن جوهره، وتخدم في كل مناسبة مصالـح الاستعمار البريطاني بكل ما أوتيت من قوة وتنظيم!!

فأرسلت بريطانيا من أجل هذه الغاية بعثات خاصة إلى البلاد الإسـلامية المستعمَـرة من قِبلها، للبحث عن الظروف الملائمة، والتفتيش عن المنحرفين الـطامعين، ممن لـديهم استعداد للقيام بهذه المهمة الخبيثة.

٢ ـ فعثرت في الهند على رجل منحرف نفسياً وفكرياً، طامـع بالمـال طامـح إلى زعـامة دينية مزوَّرة، ضمن أسـرة عميلة للاستعمـار الإنكليزي، فـاشترتـه وأطمعته، ووجّهتـه للقيام بزعامة فرقة باسم الإسلام تشق عصا المسلمين، وتهدم أركان الإسلام ومبادئه.

فقام هذا الرجل بمهمته الخائنة لدينه وأمته وبلاده.

٣ ـ إنه (ميرزا غلام أحمد) القادياني، المولود في قرية «قاديان» إحدى قرى البنجـاب في سنة (١٨٣٩م) في أسرة عميلة للاستعمار الإنكليـزي، فقد كـان أبوه واحـداً من الذين خـانوا المسلمين وتآمروا عليهم، وساعدوا الكفار الغاصبين، سعياً وراء المال الحرام، والجاه الخائن.

٤ ـ وسعى (غـلام أحمد) يـدعو إلى ضـلالته، ويخـدم الإنكليز خـدمة العبـد المطيـع، ويتلقى المكافآت الكثيرة منهم على ما يقدِّمه إليهم من خدمات. كما وجـد القاديـانيون ـ أتبـاع هذا المضِلّ ـ دعماً من قِبل الحكومات الإنكليـزية في مختلف المجـالات؛ فكانت لهم امتيـازات كثيرة في وظائف الدولة، وفي ميادين التجارة والصناعة والزراعة.

وألّف (غلام أحمد) كتباً ورسائـل ونشرات كثيـرة، ضمّـنها الحث الصـريـح على طـاعة الدولة البـريطانيـة الحاكمـة وعدم الخروج عليها. وممـا أفتى به: «أنـه لا يجوز لمسلم أن يـرفـع

---

(١) ارجـع إلى كتـاب (الفكر الإسـلامي الحديث وصلتـه بالاستعمـار الغربـي) للدكتـور محمد البهي؛ وإلى كتاب «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام» للشيـخ أبـي الحسن الندوي.

السلاح في وجه الإنكليز لأن الجهاد قد رُفع؛ ولأن الإنكليز هم خلفاء الله في الأرض، فلا يجوز الخروج عليهم»!!

ومما جاء في رسائله: «لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنكليزية ونصرتها؛ وقد ألّفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر ـ الإنكليز ـ من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة!! وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وكابُل»[1].

وبالإضافة إلى المساعدات المادية التي كانت تقدِّمها له ولأتباعه الحكومة البريطانية؛ فقد حمته من غضبة المسلمين، ودفعت إليه أناساً من أجرائها لاتّباعه ومناصرته، وإعلان الإيمان بمذهبه الجديد، إمعاناً منها في متابعة مكرها، وحرصاً منها على كيد الإسلام والمسلمين.

وما زال هذا المضلُّ خادماً للاستعمار البريطاني حتى توفي (سنة ١٩٠٨م).

٥ ـ ثم انشقَّت فرقةالقاديانية فتفرع منها فرع يعرف باسم: (الأحمدية) أو باسم: (جماعة لاهور)؛ والفرق بين هذا الفرع وبين القاديانية الأصل أن الأحمدية تنفي نبوة ميرزا غلام أحمد مؤسس القاديانية، وتثبت أنه مصلح ديني فقط.

ويبلغ عدد الأحمدية نحو نصف مليون، منهم ستون ألفاً في الهند!!

• • •

(١) من كتاب «ترياق القلوب» ص ١٥ ـ تأليف ميرزا غلام أحمد القادياني.

الباب الثامن

المكفّرات

المكفّرات

مقـدمـة:

بعد أن مررنا خلالَ البحوث السابقة على أركان الإيمان، وعرفنا جملة طيبـة مما يتعلق بهـا من تفريعات وضوابط.

ولـمَّا كـان معنى الكفر نقيضـاً لمعنى الإيمان تمـاماً، فـلا بد لنـا من إلمامـة حول مـا يسمى كفـراً، كـما لا بـد لنـا من نـظرة فيهـا شيء من الإحصـاء حـول أصـول المكـفِّرات مــع أمثلة تطبيقية لها.

(١)
تعريف الكفر

لقد عرفنا في مبحث «الإسلام والإيمان» أن الإيمان هو التصديق الإرادي بجميـع ما جـاء به رسول الله ﷺ وعلمنا به بطريق يقيني قاطع.

وبما أن الكفر نقيض الإيمان، فالكفر إذن هو رفض التصديق عن معرفة وإرادة ولو بشيء مما جاء به النبـي ﷺ ووصل إلينا بطريق يقيني قاطع.

قال الرازي في التفسير الكبـير: «الكفر عـدم تصديق الـرسول بشيء ممـا عُلم بالضـرورة مجيئه بـه». قال هذا بعد مقدمة ذكر فيها أنه صعب على المتكلمين ذكر حدِّ الكفر.

فالإيمان لا يتم إلا بالتصديق بجميـع ما جاء بـه الرسول، لأن جميـع أركانه مع فروعهـا وحدة متماسكة تماسكاً تامـاً، حتّى إن الإخلال بجـزء من أجزائهـا يفقِدُهـا كيانها، فـلا بد من الإيمان بها كلِّها والاعتقاد بكل جزء من أجـزائها. فمن أخـلَّ بواحـد من أجزاء هـذه الوحـدة الاعتقادية فقد نزل عن أدنى مراتب الإيمان؛ ومن نزل عن أدنى مراتب الإيمـان فقد كفـر، لأنه لا وسط بين الإيمان والكفر عند من بلغته دعوة الإسلام، وكان من أهل التكليف.

من كفر بشيء مما يجب الإيمان بـه نسمّيه كافراً :

لذلك فإننا نسمي كافراً كلَّ مَنْ أنكر شيئاً مما عُلم من الدين علماً ضرورياً.

فالذين يعتقدون مثلاً بـألوهيـة بعض البشر، أو يعتقدون بـأن الله ثالث ثـلاثة، نسميهم كفاراً قطعاً، لا نحابـي في ذلك، لأنهم كفروا بأصل من أصول العقائـد الحقة؛ ولـذلك نسب الله سبحانه في القرآن الكريم الكفرَ إلى النصارى الذين يعتقدون مثل هذه المعتقدات.

قال الله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ﴾.

كما خاطب الله اليهود بأنهم كفروا لأنهم آمنوا ببعض الكتاب ولم يؤمنوا ببعضه الآخر.

قال الله تعالى خطاباً لليهود في سورة (البقرة ٢):

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

بـل نسمي كافـراً: من اعتقد ــ مثـلاً ــ بعدم فـرضيـة الصلوات الخمس في الإسـلام، أو أنكر شيئاً من القرآن الكريم الثابت بالتواتر، أو اعتقد بإباحة الـزنى أو القتل أو نحـو ذلك، لأن هذه ونظائرها مما هو معلوم من الدين بالضرورة، فإنكارها كفر لا محالة، ومنكرها كافر.

من آمن بشيء فقد كفر بنقيضه :

ولـمّا كان الإيمان والكفر أمرين متنـاقضين لا يمكن الجمـع بينهـما؛ كان كـل مؤمن بالحق كافراً بالباطل، وكان كل مؤمن بالباطل كافراً بالحق لا محالة. ولقد قرّر القرآن هـذه الحقيقة في قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

(٢)
أصول المكفِّرات

ولما كان الإيمان هو الصورة الحقَّة من صور الجانب الاعتقادي في الإنسان؛ الجامعة لأصول وفروع ما يجب الإيمان به، ولما كانت بعض المظاهر السلوكية من أقوال وأفعال هي الوسائل المعبرة عن الجانب الاعتقادي في صورته الصحيحة ـ صورة الإيمان الكامل ـ وهي الكاشفة له، والتي تسمح لنا بأن نعتبر الفرد في صف المؤمنين بحسب أحكامنا الظاهرة، إذا كانت صورةً تعبر عن اعتقاد صحيح وإيمان راسخ، بجميع أصول موجبات الإيمان وفروعها.

لما كان الأمر كذلك صحَّ لنا في المقابل أن نقول: إن الكفر هو الصورة المقابلة لصورة الإيمان في الجانب الاعتقادي في الإنسان؛ وصحّ لنا أيضاً أن نعتبر أن بعض المظاهر السلوكية من أقوال وأفعال هي الوسائل المعبِّرة عن الجانب الاعتقادي في صورته الباطلة ـ صورة الكفر ـ؛ وهي الكاشفة له، والتي تسمح لنا بأن نعتبر الفرد في صف الكافرين ـ بحسب أحكامنا الظاهرة ـ متى كانت صورةً تعبر عن إخلال بجانب الاعتقاد الإيماني الصحيح؛ ولو في جزء من أجزائه.

ومن خلال هذا التحليل نستطيع أن نقول: إن المكفِّرات في الأصل أمور ومفردات اعتقادية، تكسر في قلب الإنسان قناة الإيمان الصحيح الذي هو وحدة تامة لا تقبل التجزئة مطلقاً؛ فمن اعتقد بها كلها صحّت عقيدته وكان من المؤمنين، ومن آمن ببعضها وكفر ببعضها عالماً مريداً عاد الجزء الذي كفر به فنقض الجزء الذي آمن به وكان من الكافرين.

ولكن لما كانت الأمور الاعتقادية أموراً قلبية، ونحن بالنظر إلى حدود إمكاناتنا البشرية لا نستطيع أن نستشفها إلا من خلال مظاهر السلوك الإنساني في الأقوال والأفعال؛ لزمنا أن نعتبر هذه المظاهر أمارات على المعتقدات القلبية، وأن نحكم من خلالها على بعض الناس بالكفر، لأنه ظهر منه قول أو فعل لا يظهر عادة إلا من كافر في عقيدته، ثم نترك الله الحكم على دخائلهم ونياتهم. وإن الإسلام قد جعل لنا بعض أقوال الإنسان وأفعاله أمارات تسمح لنا بأن نحكم على من ظهرت منه هذه الأمارات بالكفر، وأن نُجريَ عليه أحكام الكافرين. فالمكفِّرات إذن معتقدات قلبية وأمارات ظاهرة من أقوال وأعمال تدل عليها.

ولذلك يصح لنا أن نقسم أصول المكفرات إلى ثلاثة أقسام:

الأصل الأول ـ وهو الأصل الأساسي ـ : المكفِّرات الاعتقادية.

الأصل الثاني ــ وهو من باب الأمارات ــ : المكفِّرات القولية.
الأصل الثالث ــ وهو من باب الأمارات أيضاً ــ : المكفِّرات العملية.

ونتكلم على هذه الأصول الثلاثة بشيء من التفصيل.

(أ) أما المكفِّرات الاعتقادية:

فهي كل عقيدة تخلُّ بركن من أركان الإيمان، أو تخالف أي معتقد من المعتقدات الإسلامية القاطعة الثابتة بيقين.

وهي على أقسام:

فمنها أمور تتصل بالرّب الخالق عزّ وجل:

كإنكار الخالق سبحانه، أو إنكار صفات الكمال فيه، أو وصفه بما هو منزّه عنه سبحانه: كوصفه بأنه ثالث ثلاثة، أو أنه جسد من الأجساد أو يحل فيها، أو أنه غير قادر على الخلق، أو أنه غير محيط علماً بكل شيء، أو أنه غير عادل في أحكامه أو في قضائه وقدره، ونحو ذلك.

ويدخل في المنكرين للحقائق التي تتصل بهذه الأمور أصناف من الناس وفرق كثيرة، منهم: الملحدون، والزنادقة، والوثنيون، والمجوس، وأصحاب الملل التي تعدّد الله أو تجسِّده، أو تنفي عنه كمال القدرة والعلم والعدل. أو تجعل مع الله شريكاً في ربوبيته أو في إلهيته، ونحو ذلك.

ومنها أمور تتصل بالنبوات:

كإنكار الأنبياء والرسل عليهم السلام، أو تكذيبهم فيما ينقلون عن الله تعالى، أو إنكار أي نبي منهم ممن ثبتت نبوته بدليل قاطع، أو إنكار عموم رسالة محمد ﷺ، أو إنكار أنه خاتم النبيين والمرسلين وأنه لا نبي بعده.

ويدخل في المنكرين للحقائق الاعتقادية التي تتصل بأمر النبوات: البراهمة الذين ينكرون أصل النبوات، واليهود الذين ينكرون نبوة عيسى ومحمد، والنصارى الذين ينكرون نبوة محمد أو عموم رسالته للناس جميعاً، ونحو هؤلاء الطوائف.

ومنها أمور تتصل بالسمعيّات المتعلقة بالإخبار عن بعض أمور الغيب الثابتة بدليل قاطع:

كإنكار الملائكة أو الجن، وكإنكار الكتب السماوية إجمالاً، أو إنكار القرآن ولو آية من آياته الكريمات، أو إنكار أنه كلام الله، وكإنكار يوم القيامة والدار الآخرة، والبعث والجنة، والنار والحساب، وما إلى ذلك مما ثبت بدليل قاطع.

ويدخل في المنكرين لبعض السمعيات الغيبية: بعض الفلاسفة، وكذلك المضلّلون في هذا العصر بدسائس المستشرقين تحت ستار العلم الحديث.

ومنها أمور تتّصل بالأحكام الشرعية الثابتة بدليل قاطع والمعلومة من الدين بالضرورة: كإنكار أركان الإسلام الخمسة كلها أو بعضها، فمن زعم أنها غير واجبة فهو كافر. وكإنكار تحريم المحرّمات المعلومة من الدين بالضرورة: كإنكار تحريم الزنى أو الربا، أو عقوق الوالدين، أو أكل أموال الناس بالباطل، أو القتل بغير حق، فمن أنكر تحريم هذه الأشياء كلها أو بعضها فهو كافر. وكتحريم ما عُلم من الدين بالضرورة أن الله أباحه: كاعتقاد أن النكاح بصفته المشروعة في الإسلام حرام، وكاعتقاد حرمة أكل لحوم الحيوانات التي علم من الدين بالضرورة أن الله أباح تذكيتها وأكل لحومها كالأنعام؛ فمن اعتقد تحريم هذه المباحات مخالفة لحكم الله فيها فهو كافر.

ويدخل في المنكرين لبعض الأمور التي تتصل بالأحكام الشرعية: الإباحيون وأصحاب الأهواء، والشهوانيون الذين يبرِّرون لأنفسهم فعل المحرمات وترك الواجبات بتحليل ما حرم الله أو إنكار ما فرض الله؛ وكذلك بعض أصحاب الفلسفات الخاصة الذين يعتقدون تحريم أشياء أباحها الله وأذن لعباده بها؛ كالذين يحرِّمون ذبح الحيوانات وأكل لحومها باسم الرأفة والرحمة.

ونستنتج مما تقدم: أن من اعتقد بأية عقيدة مكفرة ــ جزئيةً كانت أو كليةً ــ وهو يعلم أنها تكفِّر في حكم الإسلام فقد كفر، وصحّ لنا ــ متى علمنا فيه ذلك ــ أن نقول: إنه كافر، ووجب أن نجري عليه أحكام الإسلام في الكافرين، وإن ظهرت فيه هذه العقيدة المكفِّرة بعد إعلان الإسلام كان من المرتدين، وأجريت عليه أحكام أهل الردة المذكورة في كتب الفقه.

(ب) وأما المكفرات القولية:

فهي كل قول فيه اعتراف بعقيدة مكفِّرة، أو فيه جحود لعقيدة من عقائد الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، أو فيه استهزاء بالدين في عقائده أو أحكامه، ومن ذلك: السباب للخالق سبحانه. أو السباب للرسل، أو لأيٍّ واحد منهم. أو للكتب السماوية، أو لواحد منها. أو للدين الرّبّاني الحق، ونحو ذلك. ومن تلك الاعتراض على عدل الله في قضائه وقدره واتهامه بالجور سبحانه.

فمن قال قولاً من ذلك وهو في حالة يؤاخذُ بها على أقواله فقد كفر، فإن كان كافراً أصليّاً فقد دل على نفسه بذلك، وإن كان من قبل مسلماً أصبح بذلك مرتداً تجري عليه أحكام المرتدين.

أما الذي لا يؤاخذُ على أقواله ــ كغائب العقل والمكره ــ فلا يكفر بذلك، ولا نحكم نحن عليه بالكفر لقيام العذر الظاهر فيه، ويشهد لهذا قول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

وقال النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1]، وفي رواية: «وُضِع عن...».

ومعلوم أن شرط التكليف والمؤاخذة على الأقوال والأفعال العقل والبلوغ.

(ج) وأما المكفرات العمليّة:

فهي كل عمل يعتبر أمارة ظاهرة على عقيدة مكفِّرة: كتمزيق المصحف مع قرينة الإهانة، أو إلقائه في القاذورات، وكالسجود لصنم مع قرينة الاحترام، وكتعليق الصليب على الصدر، ووضع كل ما هو من شارات الكفر الخاصة مع قرينة التعظيم والاستحباب، ما لم يكن ذلك عن إكراه، أو لمصلحة سياسيّة للدولة المسلمة اقتضتها طبيعة عمل الشخص، كأن يكون عيناً للمسلمين في بلاد الكفر ويريد بذلك إخفاء وضعه، أو نحو ذلك.

فمن أتى فعلاً مكفِّراً وقامت القرائن على أنه غير معذور في ذلك؛ وتبيَّنا أنه غير جاهل بأن هذا العمل من المكفرات، حكمنا عليه بالكفر، وأجرينا عليه أحكام الكافرين الأصليين، إن لم يسبق له إعلان الإسلام، وأحكام المرتدين إن سبق أن أعلن الإسلام أو كان من أسرة مسلمة.

(٣)
أصناف الكفار

وإذا لاحظنا الأسباب الداعية إلى ضلالات الكفر، ظهر لنا أن الكفار بالنظر إلى حالتهم النفسية على أصناف أربعة:

الصنف الأول ــ الكافرون الضالون: وهم الذين ينكرون الله بألسنتهم لأنهم لا يعلمون وجوده في قلوبهم، ولا يعرفون ما يذكر لهم من التوحيد وأصول الدين.

وقد أشار القرآن إلى هذا الصنف، وسماهم الضالين في قوله تعالى في فاتحة الكتاب «ولا الضالين». وأشار إليهم أيضاً بوصف العمى في قوله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ثوبان، وذكر السيوطي أنه «صحيح». ورواه البيهقي عن ابن عمر بلفظ: «وُضع».

الصنف الثاني ــ الكافرون الجاحدون: وهم الذين ينكرون الله بألسنتهم مع أنهم يعلمون وجوده في قلوبهم؛ ككفر بعض كفار قريش مثل أمية بن أبي الصلت، وككفر بعض اليهود الذين عرفوا أن النبي محمداً رسول الله.

وقد نزل في هذا الصنف قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

الصنف الثالث ــ الكافرون المعاندون: وهم الذين يعرفون الله في قلوبهم ويعترفون به بألسنتهم، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله، ومع ذلك فهم يعاندون في الإيمان برسله، واتّباع شريعته، ويستكبرون عن عبادته، لأسباب كثيرة: منها الحسد والبغي، ومنها الكبر، ومنها الطمع والرغبة باتباع الشهوات، ونحو ذلك. وأدنى هذه الأسباب الجبن عن المجاهرة بالحق، كحال أبي طالب حيث يقول:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ　　من خيرِ أديانِ البريةِ دينا

لولا الملامةُ أو حذارُ مسبَّةٍ　　لوجدتَني سَمْحاً بذاكَ مُبينا

الصنف الرابع ــ الكافرون المنافقون: وهم الذين يتظاهرون بإعلان الإيمان والإسلام بألسنتهم، وقلوبهم منكرة غير معترفة.

وقد ذكر القرآن هذا الصنف في مناسبات كثيرة، وشرح حالهم وأوضح صفاتهم، وذكر شدة خطرهم على الإسلام والمسلمين، وأنهم في الدرك الأسفل من النار.

على أنه لا يخلو هؤلاء المنافقون من أن يكون أحدهم ضالاً في نفسه، أو جاحداً أو معانداً. وكونهم في الدرك الأسفل من النار ليس من أجل نزول دركتهم في الكفر، بل من أجل أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، ويمكرون بالمسلمين وهم ضمن صفوفهم.

(٤)

الكفر دركات

ولقد بينا في مبحث (الإيمان والإسلام) أن الإيمان درجات، فهو يزيد نمواً وكبراً حتى يصل إلى مرتبة الشهود، وذلك بكثرة الأعمال الصالحة والمراقبة لله تعالى.

ونقول هنا: إن الكفر ــ الذي هو مقابل الإيمان ــ هو أيضاً دركات، فهو يزيد تَسَفُّلاً بمقدار زيادة الجحود والإنكار والمعاندة، وكثرة الطغيان وعمل الشر. فبعض الكفر أخطر من بعض وأشد ضرراً وشراً، فالجاهل المنكر أهون شراً من العالم المعاند، وصاحب الدين المشرك

أخف خطراً من الزنديق الذي ليس له دين يخفّف من غلواء شرّه؛ والمجاهر بكفره الذي نراقبه فنحذره أقل أذى من المتستر المنافق، ولذلك كان المنافق في أسفل الدركات، وكانت عقـوبته في الدرك الأسفل من النار!!

فالكفر إذن دركات، وهو يزيد انحطاطاً وتَسَفُّلاً بمقدار زيادة الجحود والمعاندة، والطغيان وعمل الشر، والتلون والاحتيال، قال تعالى مبيِّناً قابلية الكفر للزيادة في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

هذا على أن الكفر بالنسبة إلى عِدَاءِ الإسلام وكراهيتِهِ وابتغاءِ الخلاص منه كلُّ مستويـاته ملة واحدة، فكل الكـافرين يلتقـون على حـرب الإسلام والمسلمـين وإن اختلفوا فيـما بينهم في الطرائق والوسائل والمصالح.

(٥)
الكفّار مخلَّدون في العذاب

ولقد قرر القرآن أن الكفّار غير المعذورين بكفرهم هم من أهل النـار في الدار الآخـرة؛ وأنهم مخلدون في العـذاب، وأن الله لا يغفر لهم كفـرهم وإشراكهم بـه، بخـلاف غيـرهم من عصاة المؤمنين، فقد تشملهم رحمة الله بالعفو والمغفرة كرمـاً منه وفضـلاً إذا شاء الله ذلـك، كما سبق في مباحث الإيمان باليوم الآخر. قال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

والشرك هو الدرَكةُ الأُولى من دركات الكفر، لذلك يغفر الله ما دونه لمن يشاء، ولا يغفر الشركَ ولا ما هو أشدّ منه من سائر دَرَكات الكفر، وهذا يُفْهم باللّزوم العقلي، بـاعتبار أنّ غـير المذكور أوْلى بالحكم من المذكور، وينطلق الذهن حتى أسفل دركات الكفر، وهو إنكار ربـوبيّة الله وإلـهيّته، وهو مذهب الملاحدة المادّيين، كالشيوعيين والدهريّين، والذي يجحدون كلَّ شيءٍ وراء المادّة.

وقال تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

• • •

الباب التاسع

الإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الأول : في تعريف القضاء والقدر ووجوب الإيمان بهما.

الفصل الثاني : فيما يتعلق به القضاء والقدر وواقع حال الإنسان أمام سلطانه.

الفصل الثالث : في توجيه طائفة من النصوص توجيهاً يتفق مع عقيدتنا في القضاء والقدر.

الفصل الرابع : ١ ـ ما تجري به المقادير الربانية مما ظاهره شر هو في حقيقة أمره خير.

٢ ـ مسؤولية الإنسان عن أعماله الإرادية.

٣ ـ التوكل والاعتماد على الله.

٤ ـ أثر الإيمان بالقضاء والقدر.

الفصل الأول

تعريف القضاء والقدر ووجوب الإيمان بهما

(١)
القضاء والقدر في اللغة

(أ) القضاء بالمد: مصدر قضى، وهو في معناه اللغوي الجامع: إتمام الشيء وإمضاؤه وإنهاؤه قولاً كان أو فعلاً، أو إرادة أو غيرها.

فمثال القضاء في القول، قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي أتمّ وأمضى سبحانه نهيه عن عبادة غيره.

ومثال القضاء في الفعل، قول الله تعالى في سورة (فصلت ٤١):

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾.

أي فأتم الله خلقهن في يومين، وأمضاه وأنهاه.

ومثال القضاء في الإرادة، قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.

أي إذا تمت إرادته تعالى في تكوين أمر فإنما يأمره بكن أمر تخليق؛ فيكون ذلك المراد.

(ب) القَدَر ــ بفتح الدال، وتُسكّن ــ: هو تبيين كمية الشيء، وهو مصدر قدر يقـدُرُ بضم الدال ويقدِر بكسرها.

أما قدر على الشيء بمعنى ملك قوة التصرف بما يريد منه فمصدره قُدرة وقَدارة وقُدورة.

القضاء والقدر في مدلولهما الشرعي:

ذكر الباحثون في العقائد عدة أقوال في تفسير معنى القضاء والقدر الوارِدَيْن بلسان الشرع، وننتقي منها قولين فقط هما أجلاها وأكثرها توافقاً مع ظواهر الكتاب والسنة.

القول الأول ــ منقول في معناه عن الإمام أبي الحسن الأشعري «من علماء العقيدة الإسلامية» وجمهور أهل السنة:

(أ) القضاء: إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما توجد عليه في وجودها الحادث.

كإرادته تعالى الأزلية بخلق الإنسان في الأرض.

وهذا المعنى يلتقي مع المعنى اللغوي الذي هو إتمام الشيءوإمضاؤه وإنهاؤه، إذْ إن إرادة الشيء إتمام تخصيصه بأحد ممكناته.

(ب) القدر: إيجاد الله الأشياء على مقاديرها المحددة بالقضاء في ذواتها وصفاتها، وأفعالها وأحوالها، وأزمنتها وأمكنتها وأسبابها.

كإيجاد الله الإنسان فعلاً على وجه الأرض طبق ما سبق في قضائه سبحانه.

وهذا المعنى للقَدَر يلتقي في الجملة مع المعنى اللغوي الذي هو تبيين مقدار الشيء وكميته؛ ذلك لأن الإيجاد هو: إظهار المقضيِّ بالقضاء الأزلي على مقاديره المحدَّدة إلى الوجود الخارجي الفعلي.

القول الثاني ــ وهو معنى ما نقل عن الماتريدية «أتباع أبي منصور الماتريدي من علماء العقيدة الإسلامية»:

(أ) القضاء: هو الخلق الراجع إلى التكوين.

كخلق اللّهِ الإنسانَ على ما هو عليه طبق الإرادة الأزلية.

وهذا المعنى للقضاء يلتقي مع المعنى اللغوي الذي هو إتمام الشيء، ذلك أن الخلق هو إتمام فعل الإيجاد.

(ب) القَدَر: هو التقدير وهو جعل الشيء بالإرادة على مقدار محدد قبل وجوده؛ ثم يكون وجوده في الواقع بالقضاء على وفق التقدير.

كإرادته تعالى في الأزل إيجاد الإنسان على وجه مخصوص وصورة مخصوصة محددة المقادير.

وهذا المعنى للقدر يلتقي مع المعنى اللغوي الذي هو تبيين كمية الشيء، إذْ إن تخصيص الإرادة إنما هو تبيين لجميع المقادير والكميات والكيفيات.

والفَرق بين القولين السابقين للقضاء والقدر: هو أن ما فُسر به القضاء عند الأشعري يشبه ما فسر به القدر عند الماتريدية، وما فسر به القضاء عند الماتريدية يشبه ما فسر به القدر عند الأشعري.

ومن هنا نرى التقاء أهل السنة من أشاعرة وماتريدية وغيرهم على مدلولات متشابهة وإن تبادلت تسمياتها.

ويصح لنا أن نجعل كلمتي القضاء والقدر عنواناً مشتركاً، ونأخذ لهما مدلولاً واحداً مشتركاً، وهذا ما يبدو من ظاهر الاستعمالات الشرعية لهما، إذ قد يجتمعان في الاستعمال وقد ينفردان والمدلول واحد.

فمعنى القضاء والقدر معاً: هو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص، ثم يكون إيجادها فعلاً على وفق المراد.

إلّا أنني سبرتُ النصوص القرآنية لكلمتي «القضاء والقدر» ومشتقاتها، فتبيّن لي: أنّ القدر يراد منه تحديدُ مقاديرِ عناصر كلّ شيء من الذوات والصفات والأزمان والأمكنة والأحكام وكل شيء، فكل شيء عند الله عزّ وجلّ بمقدار. وأنّ القضاء إنما هو إمضاء إراديّ وبتٌّ لما قُدِّرت مقاديره بمقتضى العلم والحكمة لكلّ ممكن.

ثم بعد الإمضاء بالقضاء يأتي الخلق والإيجاد أو الجعل أو التبليغ والبيان. ونحو ذلك من الآثار التي تكون بعد الإمضاء والقضاء، في أزمانها وأماكنها المقدّرة المقضيّة، وكلّ صفاتها مهما دقت مادية كانت أو معنوية[1].

(٢)
وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

١ ــ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) انظر هذا السبر في القاعدة (١٦) من كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» للمؤلف، ص ٣٦١ ــ «الطبعة الثانية المزيدة».

«الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

(رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي)

٢ ـ وعن عمر أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

(رواه البيهقي في شُعب الإيمان

وهو صحيح

٣ ـ وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر».

(رواه الترمذي)

٤ ـ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد».

(رواه الديلمي في مسند الفردوس)

٥ ـ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بالقدر يذهب الهمَّ والحزن».

(رواه الحاكم في تاريخه والقضاعي)

□ □ □

الفصل الثاني

مَا يتعلّق به القضَاء وَالقدَر وَوَاقع حَال الإنسَان أمامَ سُلطَانه

(١)

مقدمة

إننا نعلم أن كل موجود سوى الله تعالى وصفاته الجليلة هو أثر من آثار قدرته جلَّ وعلا؛ خَلقَه وأبدعه على غير مثال سبق.

دليل ذلك كما سبق في مباحث وجود الله وصفاته الكريمة:

أولاً: الدلائل الفطرية والبدهية القائمة في كل نفس مدركة.

ثانياً: الدلائل الاستنتاجية العقلية التي لا تحصى والمنبثة في هذا الكون الكبير بكل ذرة من ذراته: في أرضه وسمائه، وظلمته وضيائه، وساكنه ومتحرِّكه، وذي الحياة فيه وفاقدها، إلى غير ذلك مما في الكون من كل ظاهر أو خفي.

ثالثاً: النصوص القاطعة التي جاء بها أنبياء الله ورسله للناس، مع برهان صدقهم بما أيدهم الله به من معجزات باهرات.

ومن نصوص القرآن في ذلك:

قول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (القمر ٥٤):

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾.

هذا، وقد عرفنا أن الخلق يستدعي بداهة اتصاف الخالق بالقدرة المكافئة لإيجاد المخلوق؛ وبذلك ثبت لدينا بداهة أن الله على كلّ شيء قدير.

كما عرفنا ــ من خلال إيجاد كل شيء في الكون على مقدار محدّد مستجمع لمنتهى الحكمة من ضمن احتمالات الوجود الممكنة التي لا تحصى كثرة ــ أن الخالق العظيم لا بد أن يكون قد أراد واختار بحكمته أن توجد مخلوقاته هذه وفق حدودها ومقاديرها وأشكالها وأوصافها التي وجدت عليها؛ وأنه سبحانه لم يُوجدها على مقاديرها هذه بمقتضى الطبع ودون اختيار حرّ بل بإرادته؛ وأنه تعالى لم يكن مُكْرَهاً على إيجادها بهذه المقادير، إذ إن الله سبحانه هو القاهر فوق الأشياء.

ونعلم بداهة أن من يختار صورةً واحدةً من صور كثيرة لا تتناهى مع مطابقة هذه الصورة لكمال الحكمة لا بد أن يكون عالماً؛ ولا بد أن يكون علمه محيطاً بمختلف الاحتمالات، حتى تهيأ له أن يختار ويخصص بإرادته ما يريد إيجاده منها ثم يوجده بقدرته.

كما نعلم أيضاً أن من يستجمع صفات العلم المحيط بكل شيء، والإرادة الحرّة التي يكرهها مكره ولا يسوقها طبع، والقدرة التامة التي لديها استطاعة تنفيذ كل شيء تتعلق به الإرادة من الممكنات، مع تجرُّده عن الأغراض الخاصة والشهوات والنوازع النفسية، وتنزّهه عن مشابهة الحوادث في الذوات والصفات والأعراض، إننا نعلم أن من يستجمع هذه الصفات لا بد أن يكون حكيماً عادلاً، لأن إرادته الحرة التي لا تؤثر فيها عوامل خاصة ــ مع علمه المحيط بالخير والشر، والنفع والضر، والنقص والكمال، والقبح والجمال ــ لا بد أن تختار الأكثر كمالاً وحكمة وإبداعاً بحكم اتصافها بمنتهى الكمال، كما لا بد أن تكون أحكامه ــ جلّ وعلا ــ مطابقة لتمام العدل نظراً إلى أنّه منزّه عن الشهوة والنزوة، والغرض ومشابهة الحوادث. وقد تم إيضاح ذلك كله فيما سبق من بحوث الألوهية.

(٢)

إذا تبصَّرنا بهذه المقدمة فنحن الآن أمام الصفات التالية من صفات الخالق جلَّ وعلا؛ وهي: علمه المحيط بكل شيء، إرادته الحرة المختارة، قدرته التامة على إيجاد كل ممكن أو إعدامه، حكمته البالغة، عدله التام، كونه خالقاً لكل شيء.

إذا وضعنا هذه الصفات كلها أمام أعيننا دون تجزئة فيها ألقت على طريق بحثنا في

القضاء والقدر الضوء الكافي؛ حتى لا نتابع سير البحث في غموض يَعْسُر معه أن تتضح معالم الحقيقة أو ينكشف وجهها الصحيح؛ ومن ثم نستطيع أن ندرك حقيقة معنى القضاء والقدر دون أن نَضِلَّ فيه إن شاء الله.

صور من احتمالات الخلق الممكنة:

وإذا ثبت لدينا ما يلي:

١ ـ أن علم الله جلَّ وعلا محيط بكل شيء بما كان وبما هو كائن وبما سيكون.

٢ ـ وأن إرادته جل وعلا حرة مختارة لا يؤثِّر عليها مؤثِّر، ولا يكرهها مكره، وفي مقدورها أن تتعلق بكل أمر ممكن.

٣ ـ وأن قدرته سبحانه على إيجاد ما تتعلق به إرادته، وقدرته على إعدامه قدرة تامة كاملة؛ لا تقف دونها عوائق ولا حدود.

٤ ـ وأن حكمته تعالى بالغة في اختيار الأكثر كمالاً وإبداعاً ومصلحة، دون إلزام أو إكراه، وإنما هي من توابع كمالاته تعالى.

٥ ـ وأن عدله تعالى تام، فما يظلم الله أحداً.

فنقول:

أولاً: هل من حَجْرٍ على الله جلَّ وعلا في أن يخلق مخلوقاً جامداً؛ لا علم له ولا حركة ولا إرادة ولا اختيار، لحكمة هو يعلمها وقد نجهلها نحن؟

وهل يعتبر ذلك إذا فعله منافياً لأية صفة من صفاته تعالى؟

والجواب: يأتي بداهة بالنفي، فلا حَجْرَ على الخالق في خلقه، إنه جلَّ وعلا يفعل ما يشاء ويختار، ولا يتنافى ذلك مع أية صفة من صفاته. وكذلك قد فعل، إنه تعالى خلق الجمادات التي لا علم لها ولا حركة، ولا إرادة ولا اختيار، بحسب ما نشاهد من تكوينها.

ثانياً: ثم نقول أيضاً: هل من حَجْرٍ على الخالق جلّ وعلا في أن يخلق مخلوقاً حيّاً يتحرك بإرادته، ويدرك بعض الأشياء، ولكن لا عقل لهذا المخلوق ولا علم عنده؟

وهل ـ إذا خلق هذا المخلوق ـ يعتبر ذلك منافياً لأية صفة من صفاته سبحانه؟

والجواب: يأتي بالبداهة أيضاً في كلا الأمرين بالنفي، فلا حَجْر على الخالق في خلقه هذا، إنه تعالى يفعل ما يشاء ويختار، ولا يتنافى ذلك مع أية صفة من صفاته، بل هو من كماله تعالى.

وكذلك فعل ــ جلّ وعلا ــ فقد خلق من الحيوانات غير الناطقة ما لا يحصى من عجماوات وسباع وطيور وحشرات.

ثالثاً: ثم نقول أيضاً: هل من حَجْرٍ على الله تعالى في أن يخلق مخلوقاً حياً عاقلاً مدركاً؛ يفعل بعض الأشياء بإرادته واختياره دون أن يؤثر عليه مؤثر خارجي، وأن يهبه ــ فضلاً منه وتكريماً ــ إرادة حرة مستقلة في نوع محدود من الأفعال؟ وهل ــ إذا خلق هذا المخلوق ــ يعتبر خلقه لـه منافياً لكمال قدرته وإرادته وحكمته وعلمه؟

والجواب: يأتي بالبداهة أيضاً إنه لا حَجْر على الخالق في أن يخلق مثل هذاالمخلوق؛ فالله يفعل ما يشاء ويختار، وإنه لا يتنافى خلق هذا المخلوق مع أية صفةمن صفاته جلَّ وعلا، وليس في خلقه سبحانه لهذا النوع من المخلوقات عود على الربوبية أو الألوهية بالنقص، كما لا يعتبر خلق هذا المخلوق إلَّا زيادة كمال في قدرة الخالق التي لا حدود لكمالها.

ثم هل يتنافى مع صفات علمه وحكمته وعدله سبحانه أن يكلِّف هذا المخلوق الذي منحه الإرادة الحرة والقدرة على تنفيذ بعض الأشياء التي تتعلق بها إرادته من الأشياء التي منحه فيها سلطة التنفيذ في حدود استطاعة معينة؟

والجواب أيضاً يأتي بالنفي، فلا تنافي مطلقاً، بل التكليف مع منحة جزء من الإرادة والقدرة هو من مقتضى الحكمة، لأن كل منحة ربانية تتضمن جزءاً من السلطة، فلا بد في مقابلها من مسؤولية عن التصرف في تلك المنحة.

رابعاً: وكذلك نقول: هل من حَجْرٍ على الله الخالق العظيم الحكيم في أن يخلق مخلوقاً عاقلاً مدركاً للتكليف؛ ذا إرادة حرة موجِّهة لأفعاله غير مؤثرة في تحقيق النتائج، وذا قدرة محدودة متوجِّهة بإرادته غير مؤثرة في تحقيق النتائج تأثيراً حقيقياً بل تأثيراً سببياً؟

الجواب ــ بعد شيء من التأمل والنظر ــ: يأتي أيضاً بالنفي، ذلك أن الله جلَّ وعلا لا حَجْر عليه فيما يخلق من كل أمر ممكن، إنه تعالى يفعل ما يشاء ويختار.

وفي هذا نتساءل بما يلي:

هل نجد تنافياً مع صفة عدل الله وحكمته ــ بالنسبة إلى هذا المخلوق الذي مُنح إرادة حرة، ثم لم يمنح قدرة مؤثرة بالذات على تحقيق النتائج التي تحدِّدها الإرادة ــ أن يكلِّف الله هذا المخلوق بتوجيه إرادته وقدرته لفعل بعض الأشياء؛ ثم يقرر له الأجر والثواب إن نفَّذ التكليف، ويقرر عليه المؤاخذة والعقاب إن خالف؟

والجواب يأتي كما يلي: إنه يكفي في صحة التكليف إعطاء هذا المخلوق جزءاً من السلطة

التي بها يستطيع أن يوجه إرادته بشكل حرّ؛ ويحرك قدرته بشكل حر؛ سواء كان يملك هو في النهاية النتائج أو لا يملكها.

فهبة الإرادة الحرة وحدها تكفي لصحة توجيه التكليف دون منافاة لمقتضى العدل والحكمة.

خامساً: وأخيراً نقول: هل من حَجْرٍ على الخالق في أن يخلق مخلوقاً حياً عاقلاً مدركاً؛ ولكنه يفعل الأشياء دون أن يكون له إرادة واختيار في فعلها، بل هو مسوقٌ إليها سوقاً؟

والجواب أيضاً يأتي بالنفي، فلا حَجْرَ على الخالق جلَّ وعلا في أن يخلق مثل هذا المخلوق؛ فقد تقضي حكمته ذلك بحسب علمه المحيط بكل شيء.

وهنا يعترضنا السؤال التالي:

هل نجد تنافياً مع صفة عدل الله وحكمته ـ بالنسبة إلى هذا المخلوق الذي لم يمنح إرادة حرة، ولا قدرة مستطيعة على تنفيذ أي شيء مما يريد أو توجيهها لبعض ما يريد ـ أن يكلّفه الخالق ببعض الأعمال التي لا يستطيعها؛ وليس لديه الإرادة الحرة التي يستخدمها في توجيه القدرة إلى العمل والقيام بالفعل المأمور به أو الكف عن الفعل المنهي عنه؛ ثم يقرر عليه العقوبة إذا لم يطع الأمر ولم يقم بتنفيذ التكليف؟

والجواب هنا أن نقول: إننا نعلم من صفات الخالق جلّ وعلا العدل والحكمة، ولم نعهد في عدل الله أو حكمته أن يكلف مخلوقاً من مخلوقاته فوق وسْعِهِ وطاقته تكليفاً يراد منه التنفيذ الذي يعجز عنه؛ ثم يعاقبه على المخالفة أو التقصير، وقد ثبت بالنص أيضاً أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وإلا ما آتاها.

قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ . . . ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ . . . ﴿٧﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام ـ ١٥٢) و (الأعراف ـ ٤٢) و (المؤمنون ـ ٦٢):

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾.

وقال تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ . . . لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ . . . ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

ففي هذه النصوص إخبار قاطع من الله تعالى أنه لا يكلف نفساً بأمر ما إذا لم يكن لتلك النفس استطاعة على تنفيذ التكليف الذي تضمَّنه ذلك الأمر.

(٣)
واقع حال الإنسان أمام احتمالات الخلق السابقة

وأمام احتمالات الخلق السابقة ــ التي لا حَجر في أي منها على قدرة الله جلَّ وعلا ــ نتساءل عن وضع الإنسان بحسب واقع حاله كما خلقه الله القادر على كل شيء؛ وعلى أية صورة تكوينية صوَّره سبحانه وتعالى من ضمن الاحتمالات الممكنة التي سبق عرضها؛ وأي احتمال منها تشهد له النصوص التي هي الحَكَم الفصل في مثل هذه الأمور التي لا يصحُّ للعقل أن يتحكَّم بها تحكُّماً مستقلاً؛ ما دامت كلها محتملة في العقل ومقبولة لديه.

وبقليل من التأمل والنظر نرى أن هذا الإنسان الذي وهبه الله الحواس والإدراك والعقل وبعض طاقات العمل ــ كما هو مشاهد في تكوينه ــ محكوم بداهة في كثير من الأشياء التي تجري عليه أو تحدث في وجوده بسلطة القضاء والقدر؛ دون أن يكون له فيها أي تأثير، ودون أن يملك لها تصريفاً أو تحريكاً، بل تجري فيه أو عليه بالقسر والقهر، كالحياة والموت، والنمو والضعف، والصحة والمرض، والشيب والهرم، ودورة الدم وخفق الفؤاد، والاضطرابات والرعشات، والحب والكره، وأشباه ذلك.

فكل هذه الأشياء وأشباهها تجري فيه قهراً وقسراً دون أن تتدخل إرادته فيها بقليل أو كثير؛ فهو في هذا الصنف مما يجري في ذاته محكوم حتماً للقضاء والقدر بداهة، لأنه إذا لم يكن لإرادته هو تدخُّل فيها وهي تجري في ذاته، فلن يكون لإرادة أحد تدخُّل في شيء منها سوى إرادة الله الخالق جل وعلا، كما علمنا في أسس عقيدتنا الإسلامية.

* أمّا من جهة الأعمال التي يشعر الإنسان أنه يفعلها أو يتجنبها حسب مشيئته، فهو أمام هذه الطائفة من الأعمال ليس يخلو واقع حاله من أن يكون على واحد من الاحتمالات الثلاثة الموضحة فيما يلي:

الاحتمال الأول: فهو إما أن يكون مسلوب الإرادة الحرة البتة، بحيث تكون جميع أعماله التي تصدر عنه مظهراً من مظاهر إرادة خفية توجه إرادته، وهو في واقع الحال لا يملك منها شيئاً على وجه الاستقلال، وما هو في إرادته ــ التي يشعر بأنه يوجهها لفعل بعض الأشياء، أو ترك بعض الأشياء ــ إلاّ آلة مسيرة لا سلطة لها على شيء البتّة، كما لا سلطة له على توجيهها.

الاحتمال الثاني: وإما أن يكون ممنوحاً إرادة حرة يملك استطاعة توجيهها إلى شيء معين من ضمن أشياء كثيرة يتصورها فكره؛ أو تشتهيها نفسه، كما يملك استطاعة تحريك قدرته لتنفيذ بعض مراداته، دون أن يملك نتائج التنفيذ، إذ النتائج تأتي بخلق الله.

الاحتمال الثالث: وإما أن يكون ممنوحاً إرادة حرة وهذه الإرادة تملك استطاعة تحريك قدرته فيه؛ وهذه القدرة فيه لدَيها أيضاً استطاعة تحقيق إيجاد بعض النتائج استقلالاً، دون تدخُّل قدرة الخالق من فوقها بالخلق لنتائج أعمالها.

* وأمام هذه الاحتمالات الثلاثة الممكنة بحسب التفكير المجرد، وبمقارنتها بما نشعر في تكوين أنفسنا ــ بوصفنا من هذا النوع الإنساني ــ من جهة، وبمقارنتها بمبدأ التكليف وحكمة الرحمن وعدله من جهة ثانية، وبمقارنتها بالنصوص القاطعة الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة حول هذا الموضوع من جهة ثالثة؛ نلاحظ ما يلي:

أولاً: نلاحظ أننا نشعر بأن الله تبارك وتعالى كما وهبنا حواس السمع والبصر، والشم والذوق، واللمس وقوة الحركة، والدفع والرفع، وهبنا أيضاً القدرة على اختيار ما نشتهي ونريد، وإن كنا لا نملك لأنفسنا تحقيق جميع ما نشتهي ونريد، وذلك لعجزنا الثابت في كثير من الحالات عن الوصول إلى ما نريد، أو لوقوف العقبات والموانع الكثيرة في طرق تحقيق مراداتنا.

ثانياً: نلاحظ أن إراداتنا هذه موهوبة حُرِّيَةَ التوجه دون قسر أو قهر، ونشعر أن ذلك فضل من الله ومنَّة فضّلنا به على كثير مما خلق، ولو شاء لسلبنا ذلك، وقد كان من الممكن أن لا يهبنا حرية الإرادة والاختيار بعد إذ وهبنا قوة الفهم والمعرفة والاستنتاج.

هذا ما نشعر به بداهة في أنفسنا.

ثالثاً: نلاحظ أيضاً أن كثيراً مما نريد ــ ونزعم أنه من ضمن الأشياء التي نتمكن من فعلها ــ تقف في طريقنا إليه عقبات وموانع وصوارف تحجز بيننا وبين تحقيق نتائج ما نريد أو نشتهي منه؛ الأمر الذي يشعرنا بأننا إذا ملكنا الإرادة وملكنا تحريك قوانا، فإننا لا نملك النتائج، وأن هذه النتائج إنما يتحكم بإيجادها القضاء والقدر. وقد يتفق القضاء والقدر مع إراداتنا التي توجّه حركاتنا فنرى أن النتائج والآثار تحققت، وقد يختلفان فيتحقق مرادُ الله ويخيب ما أردنا.

رابعاً: نلاحظ أن مبدأ التكليف الرباني وتقرير الحساب والجزاء الوارد في الشرائع السماوية؛ لم يتناول غير الإنس والجن فيما نعلم كما أخبرنا الله جلَّ وعلا. وبالبحث عن سرّ

هـذا التكليف لا نرى إلا مـا خص الله بـه هذين النـوعين من الفهم والإرادة الحـرَّة، ذلك أن المخلوقات التي فقدت العقل بالفطرة في أنواعها كالبهائم والعجماوات، والتي لم يكتمـل عقلها كـالذين لم يبلغـوا الحلم من الناس، وكـذلك الـذين سُلِبت منهم العقول من البشر مـع وجـود إرادات لهؤلاء تحـركها الغـرائـز، فـإن الله جـلَّ وعلا لم يخـاطبهـا بتكليف، لأنها لا تعقـل معنى التكليف، وأن المخلوقات التي فقدت الإرادة الحرة التي تحركها الدوافـع والشهوات؛ مع وجود قدرة الفهم لديها كالملائكة، فإن الله جلَّ وعلا لم يضـع أراداتها موضـع الابتلاء والامتحان، إذ إنها مطيعة بالفطرة إطاعة تامة، وليس لديها ما يوجه إراداتها إلى إشباع غرائز وشهوات.

خامساً: نلاحظ أن النصوص الشرعية حول هذا الموضوع فيها صور متعـددة من عرض الحقائق التي تشير إلى واقـع حال الإنسـان؛ يكاد بعضهـا أن يُفْهَمَ منه التعـارض التام بحسب النظر السطحي دون سبْرٍ شامـلٍ وتعمُّقٍ في الفهم والجمع بـين النصوص، ومن ثَمَّ كـان لا بد من التوفيق بينهما توفيقاً تُقِرُّه الشريعة في أصولها العامة بعد التأمل وعمق التفكير.

ففي نصوص الشريعة من الحقائق حول هذا الموضوع ما يلي:

١ ـ تكليف مَنْ تـوافرت لديـه من الناس شـروط التكليف، وهي: العقـل والتـذكـر، وعدم الإكراه والاستطاعة. فإذا ذهب العقل أو حصـل النسيان المعـذور بـه صاحبـه، أو وجد الإكراه أو انتفت الاستطاعة، ارتفـع التكليف وثبت العذر عن تنفيذ المكلَّف بـه.

٢ ـ ترغيب المطيعين بمثوبة الله والجنة، وترهيب العصاة من عقوبته والنار.

٣ ـ إثبات الأفعال للمكلَّفين التي يستحقون عليها الثواب أو العقاب.

٤ ـ إثبات المشيئة للناس.

٥ ـ إثبات أن الله خلق كل شيء.

٦ ـ إثبات أن الله محيط بكل شيء علماً، مما كان وما هو كائن وما سيكـون، ومن ضمن ذلك أفعال الناس التي تؤدي بهم إلى السعادة والتي تؤدي بهم إلى الشقاوة.

٧ ـ إثبـات أن مـا يصيب النـاس من خـير أو شر فبقـدر الله وقضـائـه ﴿قل كـل من عند الله﴾.

٨ ـ إثبات أن الله يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء.

٩ ـ إثبات أن الله لو شاء لهدى الناس أجمعين ولجعلهم أمة واحدة.

١٠ ـ إثبات أن من يريـد الله أن يهـديه يشـرح صدره لـلإسلام، ومن يـريد أن يضله يجعل صدره ضيِّقاً حَرَجاً.

من خلال الملاحظات السابقة، وبعد التدبُّر فيها مجتمعة، نرى حتمية المصير إلى الاحتمال الثاني من الاحتمالات الثلاثة السابقة.

وهو الاحتمال الذي يثبت أن الإنسان ممنوح ـ بسلطة القضاء والقدر ـ إرادة حرَّةً، يملك استطاعة توجيهها، ضمن دائرة استطاعته الفكرية والنفسية والجسدية. كما هو ممنوح ـ بسلطة القضاء والقدر ـ قدرة يستطيع بإرادته توجيهها لتنفيذ بعض مراداته، دون أن يملك نتائج التنفيذ، لأن تنفيذ النتائج إنما يتم بخلق الله جلّ مجده.

وهذا الاحتمال هو الاحتمال الوسط الذي ليس فيه إفراط ولا تفريط؛ فليس فيه تعطيل لمفهوم التكليف، ولا للكثرة الكاثرة من النصوص التي تثبت للناس أفعالاً، وتحقّق لهم عليها الثواب والعقاب. وليس فيه أيضاً تعطيل لجملة من النصوص التي تثبت أن كل شيء بخلق الله، أو تأويلها تأويلاً يُنْكِره الأسلوب العربي المتين.

ولمَّا كان الإنسان ممنوحاً ـ بتقدير الله ـ إرادةً حرة يستطيع أن يوجهها إلى طريق الخير أو طريق الشر؛ دون أن يكون من ورائها قاسر ولا قاهر، كان أهلاً لتوجيه التكليف إليه، ثم محاسبته، ثم مجازاته على ما يكسب من خير أو ما يكتسب من إثم.

والمصير إلى هذا الاحتمال هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في عقيدتهم كما يُفهم من كلام محقّقيهم.

ولا بد لنا من عرض موجز لمذاهب الباحثين في القضاء والقدر، نُجمله فيما يلي:

(٤)
مذاهب الباحثين في أفعال الناس الاختيارية بين يدي القضاء والقدر

إن مذاهب الباحثين في حقيقة أفعال الناس الاختيارية بين يدي القضاء والقدر ثلاثة؛ نوضِّحها فيما يلي:

(أ) فبعض الباحثين تأثّروا بظواهر بعض النصوص، فأخذوا باحتمال سلب الإرادة والاختيار من الإنسان سلباً كاملاً.

ولما صدمت هؤلاء قصة التكليف الرباني للإنسان، ومنافاة ذلك لصفتي عدل الله وحكمته على قولهم بأن الإنسان كالريشة في الهواء، لا إرادة له ولا اختيار، ولا قدرة له على الطاعة المأمور بها! لأن إرادته موجهة بالقضاء والقدر إجباراً لا اختيار معه؛ لما صدمهم كل ذلك خرجوا في مفهوم العدل والحكمة عن كل مفاهيمهما الموضَّحة في مئات النصوص القاطعة؛

بالإضافة إلى المفهوم العقلي القاطع الذي لا يقبل المناقشة أو الاعتراض، كما خرجوا عن صريح النصوص الكثيرة التي تجعل للإنسان جزءاً من الإرادة والاختيار، وتنسب إليه بعض الأفعال، وخرجوا في مفهوم الظلم عن مفهومه الذي دلّت عليه عشرات النصوص.

وهؤلاء هم من يُسَمَّونَ : (بالجبرية) الذين يقولون بالجبر ، وقد خالفوا فيماذهبوا إليه عقيدة السلف الصالح، وقد يقترفون المعاصي الكثيرة، والكبائر الفاحشة، ويتعلّلون بالقضاء والقدر!!

(ب) وبعض الباحثين تأثّروا بفكرة عدل الله وحكمته من الناحية العقلية الصرف؛ دون التماس الحقيقة من خلال نصوص الشريعة، فأخذوا بالاحتمال الذي يجعل الإنسان المكلف ممنوحاً سلطة الإرادة الحرة المطلقة من جهة، وسلطة القدرة المؤثرة في حدود الإمكانات الممنوحة له في أساس الخلق من جهة ثانية.

وهذا الاحتمال من الناحية العقلية البحتة احتمال ممكن، ولكنه يصطدم مع كثير من النصوص التي تكشف عن حقيقة تكوين الإنسان، وأن أعماله التي تصدر عنه مخلوقة لله تعالى.

وقد حاول هؤلاء تأويل جميع هذه النصوص، فارتكبوا في تأويلها شططاً لا يحتمله النص العربي في كثير منها.

وهؤلاء هم من يُسَمَّون: (بالمعتزلة) الذين اعتزلوا منهج أهل السنة والجماعة، وخالفوا عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ويُسمَّوْن أيضاً القدرية، أي: نُفاةَ القدر.

(ج) ووقف المحققون من أهل السنة والجماعة موقفاً وسطاً، فاختاروا الاحتمال الوسط الذي ليس فيه شطط ولا انحراف، والّذي لا يتنافىٰ مع صحّة التكليف ومفهوم العدل والحكمة من جهة، كما لا يتنافىٰ مع النصوص الشرعية من جهة أخرى، ووفّقوا بين ذلك توفيقاً يقبله العقل وتحتمله نصوص الشرع من غير تكلف.

والاحتمال الذي قال به محققو أهل السنة والجماعة هو أن الإنسان مخلوق وهبه الله العقل والإرادة الحرة والقدرة المستعدة للتنفيذ في حدود الإمكان الموهوب له؛ ولكن عمل قدرة الإنسان في آثارها إنما هو عمل الأسباب في مسبَّباتها، لا عمل المؤثرات الحقيقية، إذ إن المؤثّر الحقيقي هو قدرة الله تعالى.

فأفعال العباد إذن مخلوقة لله تعالى بالنظر إلى المؤثّر الحقيقي، وهي أفعال العباد بالنظر إلى صور الأسباب الظاهرة، وقد وجهوا إراداتهم إلى فعلها باختيارهم الحرّ، وبذلك يتم ابتلاؤهم وامتحانهم.

وبـذلـك يصـح في العقـل وفي العـدل أن يتـرتب عـلى أفعـالهم المـدح والثـواب أو الذم والعقاب.

وهذا المذهب الوسط بين المذهبين السابقين هو المذهب الحق، والله أعلم.

* وهـذا المـذهب الـوسط هـو مـا يضـع لـه علماء التـوحيـد عنـوان: **«إثبـات الكسب للمكلَّفين في أفعالهم»**.

ويـذكرون فيهـا أن للمكلفين كسبـاً غير مؤثـر في النتائـج بـالحقيقـة، ولكنـه مقـدارٌ من الاختيار والقدرة على مباشرة التنفيذ مجهولُ التحديد، يصـح معه التكليف عقـلاً، ويصـح معه الابتلاء والامتحان، ونسبة الأفعال إلى المكلفين، وترتيب الثواب والعقاب عليها.

وما يسمونه بالكسب إنما هو مرتبة وسطى بين مرتبتين، فوقها مرتبة ودونها أخرى.

فالمرتبة التي فوق مرتبة الكسب هي «مرتبة خلق الأفعـال»، وهذه المـرتبة هي التي يقـول بها المعتزلة (= القدرية).

والمرتبة التي دون مـرتبة الكسب هي «مـرتبة الجبـر» وهو سلب القـدرة على الفعـل وأي اختيار حرّ له، وهذه المرتبة هي التي يقول بها الجبريون.

وفّقنا الله لإدراك الحق والاطمئنان إليه.

(٥)
خلاصة عقيدتنا في القضاء والقدر من جهة ، وفي واقـع حال الإنسان ـ بين كونه مسيَّراً أو مخيَّراً ـ من جهة أخرى

وبما تقدم نستطيـع أن نلخِّص عقيدَتَنا في القضاء والقدر من جِهة كونِهِ مظهراً من مظاهر صفات الخالق جلّ وعلا، ؛ التي تَتَّسم بكل كمال، وتتنزَّه عن كل نقصان، وعقيدتَنـا في واقـع حال الإنسان بين يدي القضاء والقدر ـ بوصفه صورة من الصور الكثيرة لمخلوقات الله الممتلئة حكمةً وإتقاناً ـ ؛ وذلك فيما يلي:

سنبدأ من جانب صفـات الخالق ونتـدرج حتى ننتهي إلى واقـع حال الإنسـان كما خلقـه الله ؛ وذلك حسب مبلغنا من العلم، والله أعلم.

(أ) علم الخالق:

إن صفة العلم في الخالق جلَّ وعلا صفة من شأنها أن تكشف كل حقيقة على ما هي عليه في واقع أمرها؛ وأن تكشف كل شيء على ما هو عليه في الواقع، دون أن يكون لها تأثير في إيجاده أو إعدامه.

لذلك فهي تكشف الحقائق الإيجابية التي يجب وجودها عقلاً؛ ولا يمكن انعدامها في حال من الأحوال.

وكشفها لهذه الحقائق لا يغيِّر من وضعها شيئاً، ولا يؤثر فيها أي أثر، وذلك ككشفها لذات الخالق ولصفاته الواجبة الوجود عقلاً.

وهي أيضاً تكشف الحقائق السلبية التي يستحيل وجودها عقلاً، ولا يمكن وجودها بحال من الأحوال، وذلك بالعلم باستحالتها وعدم إمكان وجودها.

وكشف صفة العلم لهذه المستحيلات عقلاً لا يغيِّر من وضعها شيئاً، ولا يؤثر فيها أي أثر، وذلك ككشفها استحالة وجود شريك مكافىء للخالق جلّ وعلا، واستحالة كون الخالق حادثاً أو متغيراً أو جسماً محدود الأبعاد، ونحو ذلك من الأمور المستحيلة عقلاً.

وهي أيضاً تكشف الحقائق الممكنات عقلاً، وهي كل ما تُثبتُ حقيقتُه أن الأصلَ فيه عدم الوجود، ولكن يمكن وجوده متى توافرت الشروط المكافئة لإيجاده.

وكشف صفة العلم لهذه الأمور الممكنة عقلاً لا يغيّر من وضعها شيئاً، ولا يؤثر فيها أي أثر، إلَّا أن تتوجه صفة الإرادة في الخالق جلّ وعلا فتختار وجوده، ثم تتوجه صفة القدرة فيه فتنفذ ما اختارته الإرادة، فتوجده على الصورة التي خصّصتها.

فإذا تعلقت إرادة الباري جلّ شأنه بإيجاد ممكن ما في زمن ما، كشفت صفة علمه أن ذلك الشيء الممكن سيوجد لا محالة في الوقت الذي حدَّدته إرادته تعالى؛ مهما كان ذلك الوقت بعيداً في حساب الزمن لدى المخلوقات.

لذلك فصفة علم الباري جلّ شأنه تتناول: الواجب عقلاً، والمستحيل عقلاً، والممكن عقلاً، وما مضى منه وما لم يمضِ، وما هو كائن فعلاً وما هو غير كائن، وما سيكون منه في المستقبل وما سوف لا يكون.

(ب) إرادة الخالق وحكمته:

وفي مجال الأمور الممكنة عقلاً التي لا تتناهى احتمالاتها، والتي هي في الأصل غير موجودة، ولكن يمكن إيجادها متى توافرت الشروط المكافئة لذلك، في هذا المجال تتعلق إرادة الخالق عزّ شأنه.

وبالنظر إلى علم الله المحيط بكل شيء، وبالنظر أيضاً إلى تنزّه الله تعالى عن كل حاجة أو غرض لذاته، فإن إرادته في الخلق لا تكون إلّا موافِقة لكمال الحكمة، ومطابقة لأفضل الاحتمالات الممكنة.

الأمثلة:

١ ــ فتظهر الحكمة في مشيئته تعالى بجانب الخلق والتكوين مطابقةً لأكمل صورة من صور الإبداع الحكيم والإتقان الرائع؛ دون أن يكون مُلْزَماً ولا مُكرهاً على ذلك، وإنما يتمّ بمحض إرادته تعالى.

ولذلك نرى كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى قد خلقه الله بقدرته العظيمة؛ على وفق مشيئته المطابقة لوجه الحكمة من وجوه الاحتمالات الممكنة التي يحيط بها علمه تعالى المحيط بكل شيء. ويدلّ على ذلك نصوص كثيرة، منها قوله تعالى في سورة (النمل ٢٧):

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

٢ ــ وتظهر الحكمة في مشيئته تعالى بجانب امتحان عباده مطابقةً لأكمل صورة من صور الامتحان؛ وذلك بأن يهبهم أولاً الشروط التي تؤهّلهم للامتحان، ثم يكلّفهم بما يدخل ضمن استطاعتهم من جهة، وبما يحقق لهم مصالحهم ومنافعهم من جهة ثانية، دون أن يكون مُلْزَماً بذلك ولا مُكْرَهاً عليه، وإنما يتم بمحض إرادته تعالى. وفي الإشارة إلى ذلك يقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾. ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾.

٣ ــ وتظهر الحكمة في مشيئته تعالى بجانب حكمه على عباده وجزائه لهم مطابقةً لأكمل صور الحكم والجزاء؛ دون أن يكون مُلْزَماً ولا مُكْرَهاً على ذلك، وإنما يتم بمحض إرادته تعالى.

وذلك بأن يكون حكمه وجزاؤه ملائماً لمقتضى علمه وعدله ورحمته وفضله سبحانه. ويدل

على ذلك نصوص كثيرة، منها قوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):
﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.
وقوله تعالى في سورة (النساء ٤):
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.
إلى غير ذلك من نصوص.

فإذا كان واقع حال المكلَّف الهداية، أثبت الله في حكمه أنه مهدي، وإذا كان واقع حاله الضلالة، أثبت الله في حكمه أنه ضال، وهو سبحانه في كلٍّ من الحكمين إنما يحكم بمشيئته دون أن يكون مُكْرَهاً ولا مُلْزَماً، ولكن مشيئته في الحكم قد كانت موافقة للحق. ويمكن في ضوء هذا المعنى أن نفهم أمثال قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾، والله أعلم.

كما تظهر الحكمة في مشيئته تعالى بجانب ذنب المذنب التائب مرافقة لحكمة العفو والغفران؛ وبجانب طاعة المطيع المخلص مرافقة لحكمة الفضل والإحسان بمضاعفة الأجر والثواب.

٤ ـ وتظهر الحكمة في مشيئته تعالى بجانب الهبة والعطاء ـ ونحو ذلك ـ بمظهر الاختيار المحض؛ ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿يختص برحمته من يشاء﴾، على أن اختياره سبحانه في ذلك لا يفارق وجهاً من وجوه المصلحة التي يعلمها هو.

وهذه الحقيقة تعتمد على أصل هام من أصول فهم صفات الخالق جلَّ وعلا، فهي صفات وإن اختلف مفهوم كل منها عن الآخر، لكنها لا يمكن أن تكون فيما بينها متناقضة ولا متنافرة، بل هي وحدة منسجمة انسجاماً تاماً، ومتناسقةٌ في آثارها تناسقاً رائعاً.

وبشيء من التأمل نلاحظ أن صفة العلم أول الصفات التي تهيمن على كل شيء؛ وتحيط بالواجبات والمستحيلات والممكنات، ثم تأتي في جانب الممكنات صفتان متلازمتان هما:

١ ـ صفة المشيئة «الإرادة». ٢ ـ صفة الحكمة.

ثم تأتي عند تنفيذ مقتضى المشيئة الحكيمة صفةُ القدرة، ومتى نفَّذت القدرة ما تعلَّقت به الإرادة الحكيمة تمَّ الخلق بالنسبة إلى الأشياء، وتمَّ القضاء بالعدل، وتمَّ الجزاء بالعدل أو بالفضل، إلى غير ذلك مما يوافق الحكمة في آثار صفات الخالق جلَّ وعلا.

فالمخلوق قد خلقه الله بقدرته الموافقة لمشيئته المطابقة لوجه الحكمة من وجوه الاحتمالات الكثيرة التي يحيط بها علمه تعالى المحيط بكل شيء.

والمأمور به موافق للمصلحة والاستطاعة من ضمن الوجوه الكثيرة التي يتناولها علمه تعالى.

والمقضيُّ بـه موافق للعـدل من ضمن الـوجـوه الكثيـرة التي يتنـاولهـا العلم المحيط بكل شيء.

والجزاء الرباني موافق للعـدل أو للفضل، من ضمن الـوجوه الكثيـرة التي يتناولهـا العلم المحيط بكل شيء.

ويتحصل لدينا مما سبق: أن مشيئته تعالى مشيئة تتصف بكل كمال، وكمالها في موافقتها الحكمة التي يعلمها الله تعالى، وفي موافقتها العدل الذي وصف الله به نفسه.

وهي أيضاً مشيئة مطلقة لا يُكرهها مُكرِه، ولا يُجبرها مجبر، ولكنها مقرونةٌ دواماً بحكمتـه تعالى ورحمته وعدله، لأن من بيده الأمر وكان في مقدوره أن يجانب الحكمة أو يظلم، ثم لم يكن منه ذلك، بل كان منه الإتقان والإحكام والعدل، فإنما كان منه ذلـك بالمشيئـة المطلقـة الموافقـة لمقتضى صفات الكمال الأخرى فيه، فالله جلَّ ثناؤه في كل أمـر يفعل مـا يشاء ويختـار، لا إكراه عليه ولا إجبار.

(جـ) واقـع حال الإنسان بين يدي القضاء والقدر:

وفي مجـال خلق الإنسان تـوجهت إرادته تعـالى أن يجعل هـذا المخلوق في أحسن تقـويم ـ كما أخبرنـا في كتابـه المجيد ـ؛ وذلـك: بأن يمنحـه الأداة التي يستطيـع بهـا أن يعلم بعض حقائق الأشياء وقد وجدنا ذلك في أنفسنا، وبأن يمنحه وسائل المعرفة وهذه أيضـاً ظاهـرة فينا، وبأن يعطيه الإرادة الحرّة ليمتحن اختيارها، وهذه الإرادة الحرة نشعر بها في داخلنـا، وبأن يجعـل بـين يدي إرادتـه الحرة مقداراً يسيراً من القـدرة، لتستعمله في محاولـة تنفيذ بعض مـا تـريـد، مسترشدةً بالحقائق العلمية والوصايا الربانية التي اكتسبتها أداة المعـرفة عنـده بالأدلـة الإنسانيـة الثابتة؛ وهذه القدرة جزء منا ونشعر بها جميعاً.

* وحول هذه الهبات والمنـح الربانية تدور دائرة التكليـف الإلٓهي للمكلّفين.

ونستطيع أن نقول: إننا في هذه الدائرة الصغرى مخيرون، لابتلائنا في هذه الحيـاة الدُّنيـا ضمن حدود هباتنا، وضمن حدود استطاعتنا.

وأن نقول أيضاً: إن إراداتنا الحرة الممنوحة لنـا، وقدراتنـا الموهـوبة لنـا، محدودة بـالمقدار الذي لا يتعارض مع سلطان القضاء والقدر العام في جميـع الأمور التي تتمّ بخلق الله.

كـما توجهت إرادتـه تعـالى أن يجعـل هـذا الإنسـان في معـظم الأمـور الـداخلة في ذاتـه أو الخارجة عنه مغلوباً عـلى أمره؛ مقهـوراً بسلطان القضاء والقـدر: كالحيـاة والموت، وهبـات

الصفات والخصائص، والصحة والمرض، والرزق والتوفيق، والنصر والخذلان، والعز والـذل، ومنـح الإرادة الحرة وعدم منحها، ونحو ذلك. وهذه أيضـاً من الأمور التي نشعـر بأنها تجـري فينا أو علينا دون أن نملك فيها حَوْلاً أو طَوْلاً، ودون أن تؤثر إراداتنا بها أي أثر.

* وحول مختلف هذه الأمور التي لا تحصى تدور دائرة القضاء والقدر الكبرى. ونستطيع أن نقول: إننا في هـذه الدائـرة الكبرى مسيَّـرون لا مخيَّرون، محكـومون بسلطان القضـاء والقدر. ألسنا نشعر بأننا وُلدنا دون إراداتنا، وكبرنـا دون إراداتنا، ووُهِبنـا العقل دون أن يكون لإراداتنا تدخُّل في ذلك، ومُنحنا حرية الإرادة دون أن يكون لنا في ذلـك إرادة، ونحيا ونمـوت دون أن يكـون لنا في ذلـك إرادة، إلى غير ذلـك مما لا يحصى؟! وربمـا لو كـان لنا في كـل ذلك إرادات لاخترنا غير الأوضاع والأحوال التي نحن الآن عليها.

ونحن في هذه الدائرة الكبرى ـ الّتي لا خيـرة لنا فيها، ولا سلطان لنـا عليها ـ لسنـا مسؤولين عما يجري بها؛ ولسنا مكلفين بشيء منها، لأنها فوق استطاعتنا. أما حدود إراداتنا فيها فلا تتناول إلاَّ الرضـا بما يتم بالقضاء والقدر في جانب الـطاعة، أو السخط في جـانب المعصية، ومن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط.

* ونستطيـع أن نمثِّل الإنسان بين يدي القضاء والقدر بالعصفور في قفص راعيهْ.

فالعصفور في القفص متروك له حرية التنقل في أركانه، والأكل والشرب مما يُقـدَّم له من طعام وشراب، ومعاشرة أنثاه إذا قُرِن بينه وبينها في القفص. فإذا حمل العصفـور كأس شـرابه وأراقهـا وكسر زجاجها، أو رمى بطعـامه خـارج القفص، أو نتف ريش قرينتـه وحاول أذاهـا وضرَّها، اعتبره صاحبه مذنباً وعاقبه على ذلك. أما إذا حمله راعيه مع القفص، ووضعه في تيار الهواء البارد، أو غمس به في الماء، أو وضعه في مكان يتعـرض فيه لـلأذى هو أو قفصـه، فإنـه لا يعتبر عصفوره مؤاخذاً مهما ناله من جـرّاء ذلك من مصيبـة أو أذى أو نال قفصـه، لأن راعيه يعلم أن العصفور لا كسب له في شيء من ذلك.

وكذلك أمرنا بين يدي القضاء والقدر:

فـما يجري فينـا أو علينا منـه دون أن يكون لنـا به كسب، يشبـه ما يجـري للعصفـور في القفص إذ حُمل به إلى تيار الهواء، أو غمس به في الماء، أو وضـع هدفاً للصيادين.

وما يجري منا بكسبنا داخلَ دائرتنا يشبه ما يفعله العصفور داخل القفص بإرادته، فنحن مسؤولون عنه ومحاسبون عليه.

ونستطيـع أن نمثل ذلك أيضاً براكب السفينة؛ ذلك أن راكب السفينة له حركـات إرادية حينما يتنقل من موضع إلى موضـع آخر فيهـا؛ ويعتبر مسؤولاً عنهـا، وله حـركات خـارجة عن

نطاق إرادته وذلك حينها تسير به السفينة شرقاً أو غرباً، وحينها تتخبط به أمـواج البحـر من كل جهة، وهذه الحركات الخارجة عن نطاق إرادته لا يعتبر مسؤولاً عنها.

(د) علم الله بما سيقوم به الإنسان من إرادات وأفعال اختيارية :

وبـالإضافـة إلى ما سبق ــ من إحـاطة علم الخـالق جـلّ وعـلا بكشف الـواجب عقـلاً والمستحيل عقلاً؛ وبما مضى أو لم يمضِ من الأمور الممكنـة عقلاً ــ فمن خصـائص علم الخالق جلَّ وعلا أنه يحيط أيضاً بما سيريده الإنسان بإرادته الحرَّة من أمور، وبمـا سيعمله بمـوجب هذه الإرادة من أفعال، ومثل الإنسان غيره من المخلوقات التي وهبها الله حرّية الإرادة.

وعلم الله جلّ ثناؤه بذلك إنمـا كان عـلى سبيل الكشف العلمي الـذي لا يؤثّر في المعلوم أيَّ أثر من خلق أو غيره.

أما كيف يكشف الله جلّ وعلا ذلك؟ فهـو من خصائص الربوبية، مـع العلم بأنـه من الأمور الممكنة عقلاً، التي لا يعتبرهـا العقل من المستحيـلات، فكما أن الله قـادر على أن يخلق من العدم، فهو قادر على أن يعلم ما سيريده أي مخلوق من مخلوقاتـه التي منحها بمحض فضله إرادات حرة.

* ومن هنا تدخل الشبهة على بعض الناس، وهذه الشبهة ناشئة عن عجـزهم عن فهم الوسيلة أو الطريقـة التي يعلم الله بها مـا سيريـده الإنسان بـإرادته الحـرة؛ ولكنّ هؤلاء الناس الذين دخلت عليهم الشبهة من هذا الباب، لا بد أن يؤمنوا ويُسْلِموا متى رجعوا إلى عقـولهم، وعلموا أن عقولهم تعجز أيضاً عن فهم الوسيلة أو الطريقة التي أوجد الله بها الكون من العدم، كما تعجز أيضاً عن فهم كثير من الأمور التي لا يخلو الكون منها على أي احتـمال من الاحتمالات التي يقدرها الفكر.

وبهذه الشبهة انحرف الجبريون متوهمين أن علم الله السابق بما سيختاره الإنســان مؤثر في اختياره؛ ولذلك نفوا الكسب عن الإنسان، وقالوا: هو كالريشة في الهواء، وخالفوا فيـما ذهبوا إليـه مقتضى النقـل في النصـوص الصحيحـة الصـريحـة التي تثبت كسب الإنســان وتكليفـه؛ كما خالفوا مقتضى العقل الذي يثبت حكمة الله البالغة، وعدله التام.

وبهـذه الشبهة أيضـاً انحرف بعض المعتـزلة متـوهمين أن علم الله الســابق بمـا سيختـاره الإنسان مؤثر في اختياره؛ ولذلك نفوا سبق العلم، ليثبتوا الكسب التام للإنسان في الاختيـار، والعمل والتأثير في تحقيق النتائـج، فخالفوا فيما ذهبوا إليه مقتضى النقل في النصوص الصحيحة الصـريحة، مكتفـين بتحكيم العقل المجـرد، وما أكـثر ما يخـطىء العقل في الأمـور الاعتقـاديـة وغيرها، إذا لم تُنِرْ سبيلَه في البحث النصوصُ الدينية الثابتة!!

(هـ) إرادات الله لا تَنَاقُضَ فيها بينها ولا تعارض:

ومتى أثبتنا أن الله جل شأنه قد أراد أن يجعل الإنسان ذا إرادة حرة، وأن يجعله مخيَّراً في بعض أموره، ليمتحنه ويبتليه في الحياة الدنيا، ثم أَتْبَعَ ذلك بتكليفه ضمن حدود استطاعته، استحال في الوقت ذاته أن يريد سلب هذه الإرادة الحرّة عنه، وأن يجعله في الوقت نفسه مسيَّراً كالريشة في الهواء، لا إرادة له ولا اختيار ولا استطاعة، ثم يكلفه في الوقت نفسه بما لا يستطيع، ثم يحاسبه على ما لا كسب له فيه.

ويتضح ذلك لنا إذا لاحظنا الأمور التالية ملاحظة تامة:

الأمر الأول: إرادات الله تعالى لا تَنَاقضَ فيها بينها ولا تعارض.

فإذا تعلقت إرادته تعالى بشيء معين استحال أن تتعلّق في الوقت نفسه بنقيض ذلك الشيء أو بضده؛ بحيث يؤدي إلى جمع النقيضين أو الضدّين في شيء واحد ووقت واحد.

وبناء على ذلك فلا يمكن أن يريد الله مثلاً حياة إنسان في اللّحظة التي يريد فيها موته؛ كما لا يمكن أن يريد الله أن يجعل الإنسان المكلّف حرّ الإرادة أمام عمل من الأعمال في اللحظة التي يريد أن يجعله فيها مسلوب الإرادة أمام ذلك العمل نفسه.

أما أن يريد أن يجعله مخيّراً في دائرة أعماله وكسبه، مجبراً فيما عدا ذلك، فهو من الأمور المقبولة عقلاً التي لا تناقض بينها ولا تعارض، وبذلك يحاسبه على ما اكتسبه في دائرة تخييره.

الأمر الثاني: إرادات الله تعالى لا تكون في واقع حالها إلاّ موافقة لعلمه وحكمته كما سبق بيان ذلك؛ وليس من حكمته تعالى أن يكلّف عبداً من عباده إلاّ في حدود استطاعته، ومَنْ لا إرادة له لا استطاعة له، لذلك فالإنسان المكلَّف لا بد أن يكون ذا إرادة حرَّة تصحِّح تكليفه وفق علم الله وحكمته.

الأمر الثالث: إذا اختار الإنسان أمراً مما جعل الله له فيه سلطة الاختيار؛ فإن اختياره لذلك الأمر لا يعاند إرادة الله في شيء، لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يمنحه هذه السلطة.

كما أنه لا يقتضي أن يكون الله جلّ وعلا راضياً عن كل ما يختاره هذا الإنسان؛ ويظهر لنا ذلك في تجاربنا الإنسانية: فإن مَنْ نمنحه حرِّية التصرف في عمل ما، قد يفعل ما يسرُّنا ويرضينا، وقد يَفْعل ما يسوؤنا ويغضبنا، مع إمكاننا أن نعزله عن ذلك العمل، ونسلُبَه حرية التصرف فيه، ولكننا قد نمدّ له لنمتحنه ونختبره، وقد نوبِّخه ونؤدِّبه، وقد ننذره ونحذِّره، حتى يحين وقت مؤاخذته، ونحن في كل ذلك نشاهد سوء تصرفه. وقد نرى من الحكمة لامتحانه أن لا نعارضه، أو نضع العراقيل في طريقه، أو نكفّه عن العمل الذي منحناه فيه حرّية التصرف. وقد نرى من الحكمة أن نملي له ليصلح من تصرفه ويُقوِّم من سلوكه.

وعلى ذلك فلا يقال: قد وقع مراد المخلوق معانداً لإرادة الخالق، لأنه كيف يتم الجمع بين منح الإنسان حرّية الإرادة بإرادة الله وبين إرادة الله العامة المهيمنة على كل شيء؛ إلاّ بأن يترك الله لهذا المخلوق حرية التصرف في الحدود التي لا تُعارِض القضاء والقدر العام؛ وذلك ليمتحنه ثم ليحاسبه على ما اكتسب؟!

وإنما يقال: إن المخلوق لم تتم له إرادة حتى منحه الله حرية الإرادة، فإرادة الإنسان في أمر من الأمور لا تكون إلاّ بعد أن تتم إرادة الله وقدرته بمنحة هذه السلطة، أي: بمنحه جهاز الإرادة والاختيار. وعلى ذلك يمكن أن نفهم قوله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله﴾، أي: لا تستطيعون أن يكون لكم مشيئةٌ إلاّ إذا منحكم الله السلطة التي بها يكون لكم مشيئة واختيار؛ ضمن الحدود التي قرَّرها الله عزّ شأنه في قضائه وقدره.

(و) فلسفة الربط بين كون الله خالقاً لكل شيء وبين كون الإنسان مخيراً:

وتظل بقعة فكرية غامضة يعسر على كثير من الناس كشف حقيقتها؛ ونحاول فيما يلي إلقاء بعض الكواشف عليها، لإزالة ذلك الغموض.

إن هذا الغموض ناشىء عن الجمع بين الاعتقادين التاليين:

١ ــ الله خالق كل شيء.

٢ ــ الإنسان مخير في حدود أعماله الإرادية، ومن أجل ذلك فهو مكلف ومسؤول.

* ومع الجمع بين الاعتقادين المذكورين يتردَّد في النفس إشكال يُعبَّر عنه بالتساؤل التالي:

(أ) إذا كان الله جلّ ثناؤه خالقاً لكل شيء، فلا بد أن يكون هو الخالق للآثار التي تنجم عن الإرادات الحرة لمن خلق الله فيهم هذه الإرادات الحرة؛ وذلك لأن هذه الآثار هي أيضاً من ضمن الأشياء الموجودة في كونه تعالى، والتي تتم بخلقه المعتمد على إرادته وقدرته جلَّ وعلا.

(ب) وإذا كان الإنسان حرَّ الإرادة مخيراً في الدائرة الصغرى التي منحه الله فيها سلطة الإرادة؛ فلا بد أن يكون هو المؤثّر في إيجاد نتائج الأعمال التي يباشرها بإرادته.

وبناءً على ذلك: فكيف يمكن الجمع بين كون الله خالقاً للأشياء التي نشاهد أنها آثار لإرادات الناس؛ وبين كونها آثاراً ناجمة عن إرادات الناس، مع ظهور التعارض بين الأمرين؟

* وفي كشف هذا الغموض وحلِّ عقدة هذا الإشكال، نطرح فيما يلي بعض الأمثلة التقريبية ولله المثل الأعلى.

المثال الأول: تصوَّر لو أنك جعلت مفتاح المصباح الكهربائي المعلق في غرفتك في مكان خفي لم يطلع عليه طفلك الصغير؛ وجعلته بحيث تستطيع أن تُشعل به المصباح وتطفئه دون أن يشعر بذلك طفلك، ثم أردت أن تجري تجربة امتحانِ إرادةِ طفلك هل يطيعك أو يعصيك، دون أن يفعل شيئاً له أثر ماديٌّ حقيقي، فقلت لطفلك: إياك أن تنفخ على هذا المصباح لئلا ينطفىء، فإذا أطعتني كافأتك، وإذا عصيتني عاقبتك.

ثم أخذت تراقب طفلك دون أن يشعر بمراقبتك، ولكن الطفل رجّح بإرادته الحرَّة جانب المعصية على جانب الطاعة، فأقبل نحو المصباح فنفخ عليه، وفي هذه اللحظة ضغطت أنت ــ سرّاً ــ على المفتاح فانطفأ المصباح.

إن الطفل سيشعر حتماً بأنه هو الذي أطفأ المصباح بنفخته، ولكنك تعلم أنك أنت الذي أطفأته باستعمالك السبب الحقيقي، وأما ما كان من الطفل فلم يكن إلاَّ صورة برهن فيها على عصيانه لك، ومن ثمَّ استحق في نظرك المعاقبة على مخالفته لك ضمن الحدود التي قررتها لامتحانه.

ألا ترى أن هذا المثال التقريبي مشابه لجريمة قتل إنسان ظلماً وعدواناً، إذا لاحظت ذلك منسجماً مع العقيدة التي قرَّرناها؟! فالقاتل إنما يباشر السبب الصوري في عملية الإماتة، لكنّ القتيل لم يمت إلاَّ في أجله المقرّر له في قضاء الله وقدره، وبالطريقة التي قدّرها الله عليه، ولم يكن من القاتل في الحقيقة إلاَّ أنه أقام الدليل على نفسه بما اكتسب من إثم وعصيان بإرادته الحرة الممنوحة له.

ويدل على ذلك قول الله تعالى ــ يعلّم رسوله كيف يجيب الذين انتقدوا خروجه لقتال المشركين في غزوة أحد، متحسِّرين على القتلى من المسلمين في هذه الغزوة ــ وذلك في سورة (آل عمران ٣):

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

ونوسّع المثال فنجعل المصابيح متعدّدةً ملوّنةً ألواناً مختلفة، فنجعل من الألوان ما يحظر نفخه لإطفاء مصباحه، ومنها ما يجب، ومنها ما يُباح، ومنها ما الأفضل إطفاؤه، ومنها ما الأفضل عدم إطفائه.

ونجعل المتحنين متعدّدين، ونبينّ لهم قواعد الامتحان، وقواعد الثواب والعقاب، ونجري الاختبار على هذا الأساس، وكلما نفخ واحد منهم على مصباح ما ضغطنا سرّاً على مفتاح إطفائه. ثم نحاسب كلّ واحد بحسب توجُّه إرادته وحركة سلوكه.

المثال الثاني: كان لملك وزيرٌ ذو نفوذ في رعيته، فخشي الملك أن ينتزع منه الوزير ملكه، فأراد أن يتخلص منه دون أن يُنسب إليه شيء لئلا يثير عليه أنصار الوزير. وكان للوزير عدو لا يألو جهداً في الكيد له، وهذا العدو للوزير خبيث النفس يريد الملك أن ينتقم منه أيضاً. فدبّر الملك أمرين معاً:

الأمر الأول: أنه دسّ السمّ القاتل في طعام الوزير.

الأمر الثاني: أنه مكّن ــ بوسيلة ما ــ لعدوّ الوزير أن يشتمه أمام جمع غفير من الوزراء والقادة والجنود؛ ليغضب الوزير ويشتد انفعاله، في الوقت الذي يكون السم قد دار دورته في جسمه حتى بلغ مقاتله، فإذا مات لم يشكّ أحد بأن موته قد كان بسبب شدة ألمه من تهجم ذلك العدو الخبيث عليه أمام الجمع الغفير.

ومات الوزير، وقتل الملك ذلك الرجلَ الخبيث في مشهد كبير، انتقاماً منه، وعقوبة له على ما جنى، إذ أهان الوزير وشتمه وتسبَّب بموته.

وزعم الناس أن الملك لم يكن هو القاتل الحقيقي لوزيره، وحسبوا أن ذلك الرجل الخبيث هو الذي قتله.

ففي هذه القصة التقريبية ــ مع الفارق الكبير في الجزئيات بينها وبين ما نحن في صدده ــ نلاحظ سببين: سبباً صورياً، وسبباً حقيقياً للأثر الذي تمَّ في شخص الوزير، على أن السبب الصوري قد كان كافياً في إعطائه الدليل التام على ذنب مرتكبه، ولو لم يكن مؤثِّراً أثراً حقيقياً في النتيجة التي ظهرت.

وهناك أمثلة كثيرة نلاحظها في كثير من أعمالنا، تقرِّب إلى أذهاننا حقيقة الفرق ما بين السبب الحقيقي المؤثر بذاته، وما بين السبب الصوري الكافي في تقديم الدليل على طاعة المكلَّف أو معصيته، ومنها ساحة السيّارات الكهربائية في مدينة الألعاب التي تسير بتوجيه قائد الساحة، ولا يملك الأطفال الراكبون في السيارات غير التوجيه ذات اليمين أو ذاتَ الشمال، وباستطاعة قائد الساحة أن يوقف المدد الكهربائي فتتوقف الحركة، أو يكون التوجيه خاضعاً لإرادته لو شاء ترتيب ذلك.

ولله المثل الأعلى، فالكون كلُّه ملكه يخلق فيه بحكمته ما يشاء، يحيي ويميت، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يعز ويذل، بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

وهنا بقي علينا أن نقول لإتمام فلسفة الربط بين كون الله خالقاً لكل شيء وبين كون الإنسان مخيراً:

إن العلم الرباني السابق المحيط بما سيكون ــ مما هو داخل في دائرة القضاء والقدر، ومما هو داخل في دائرة الإرادات الحرة للمخلوقات ــ هو الذي يُحْكِم الربط والملاءمة ما بين مرادات

القضاء والقدر وما بين مرادات ذوي الإرادات الحرة من المخلوقات؛ دون أن يكون لإراداتهم وأعمالهم تأثير في تحقيق النتائج، وذلك بأن يتمَّ سير اتجاه إرادة الإنسان ومباشرة الفعل من جهة، واتجاه إرادة الله وقدرته للشيء نفسه الذي اتجهت إليه إرادة الإنسان وباشر فعله من جهة أخرى، بحيث يظهر للإنسان أنه هو الفاعل، في حين أن النتيجة إنما تتحقق بخلق الله خالق كل شيء، والناظمُ للأمرين هو علم الله المحيط بكل شيء مما كان وما هو كائن وما سيكون، فهو الذي يُحْكِم هذا الالتقاء دون أن يحدث تفاوت أو سبق أو تأخير، مع هيمنة الخالق على كلّ شيء.

عمليّات الخلق الربّانية:

من كلّ ما سبق يتضح لدينا أن عمليات الخلق الربانية من وراء الأسباب الطبيعية مقدّرة بسنن، والأصل في السنن ثباتها، ولا تتخلّف إلاّ بإرادة خاصة، لإظهار آية، أو إكرام عبد صالح.

وكذلك عمليات الخلق الرّبانية من وراء الأسباب الإرادية للمخلوقات؛ تساير ما تتجه إليه إراداتهم، ما دامت خاضعة للسنن الربّانية، وموافقة للعلم الربّاني السابق.

وأمّا خلق الله من وراء حجب الأسباب فيتمّ بأمر التكوين وفق مقتضى الحكمة.

لذلك تجري عمليّات الخلق الربّانية في الخط الذي تجري فيه الأسباب الطبيعية وتطوّراتها؛ وفي الخطّ الذي تجري فيه الأسباب الإرادية للمخلوقات ونتائجها، باستثناء ما لله فيه إرادة خاصة.

فالأعمال السببية للمخلوقين ذات تأثيرٍ بحكمة الله وسننه الثابتة في تحقيق نتائج قدرية تتمّ بخلق الله عز وجل.

أمثلة:

١ ـ الخمر: مادّة حرّم الله شربَها، فمن خالف أمر الله فشربها، أفسد الله عقله بالقانون القدريّ العام، وانصرف عن عبادة الله بقانون الله القدريّ العام، وتعرّض لكبائر أخرى كثيرة بقانون الله القدريّ العام، وأصاب الله كبده وعروقه وجملته العصبيّة بالأوجاع والأمراض والأسقام بقانونه القدريّ العامّ.

٢ ـ الكفر: الذي هو رفض إراديٌّ للإيمان بالحقّ سبب يمارسه المخلوق المكلف بإرادته الحرَّة، فمن كفر بإرادته كان لكفره الإراديّ الاختياريّ نتائج قدرية فيه تأتي ضمن سنن الله الثابتة، وبخلْقِه القدريّ، فمنها:

(أ) أن يَضِيق صدره عن الإسلام والطاعةِ بالقانون القدري، لأنّ انشراح صدره إلى الإسلام والطاعة إنما يكون بعد إيمانه الإراديّ وصِدْقِه في هذا الإيمان.

(ب) أن يعيش في القلق النفسيّ، وألوان من العذابِ في عمقِ ذاتِه بالقانون القدريّ الرّباني، الذي يتمّ بخلق الله عزّ وجلّ.

(ج) أن تنمو في نفسه رغباتُ الشّرِ وممارسةِ الآثام وألوان الفجور، بالقانون القدريّ الرّباني.

(د) أن تتحكّم به وساوس الشياطين، ويُزَيِّنَ له الباطلُ وتَفْسُد مفاهيمه في الحياة، بالقانون القدري الرّبّانيّ.

وكلّ هذه النتائج تتمّ بخلق الله، مع أنّها نتائج أسباب كانت من الإنسان المكلف باختياره الإرادي الحرّ، ولكل سبب يبدؤه الإنسانُ باختياره لوازمُ قَدَريّة قد تكون بدون اختياره.

٣ ـ الإعراض عن داعي الهداية: عمل إرادي يعمله الإنسان المكلّف باختياره الحرّ، فمن أعرض عن داعي الهداية بإرادته الجازمة، كان لإعراضه نتائج قدريّة فيه، تأتي ضمن سنن الله الثابتة، وبخلقه القدري، فمنها:

(أ) انصرافه عن الإيمان، وعدم رؤية دلائله بالقانون القدريّ الربّاني.

(ب) انصراف أدوات المعرفة فيه عن إدراك أدلّة الإيمان بالقانون القدريّ الربّاني.

(ج) اجتيال الشياطين له، بالقانون القدري، وضمن سنن الله الثابتة.

ويسقط كثير من الناس في مفاهيم جَبْرِيَّةٍ لدى تفسيرهم للنصوص بسبب عدم فهمهم لهذه الحقيقة، مع أنّ النصوص تتحدّث عن أمور هي نتائج قدريّة تتمُّ بخلق الله، لأسباب تكون من المكلفين صادرةٍ عن إراداتهم الحرّة التي مكّنها الرَّبُّ الخالق من أن تتصرّف بحريّة، ليبلوهم فيما آتاهم، فلم تتحقّق النتائج بخلقهم، ولم تكن إراداتهم مجبورة، وتمّ بذلك امتحانهم على أفضل وجهٍ حكيم.

ونظير ذلك في المادّيات نقول: من نطح برأسه صخرة صمّاء كسر الله بالصخرة رأسه. ومن وَجَأَ بطنَهُ بسكّينٍ قطّع اللَّهُ أمعاءه بسكينته. ومن تحسّى سمّاً قاتلاً بمقتضى القوانين السببيّة، قتله الله بسمّه. ومن رمى نفسه من شاهق على اليابسة حطّم الله جسده بقانونه القدري. ومن زرع بزرة شجرة شوك أو حنظل أنبت الله بذلك تلك الشجرة. ومن ألقى عود ثقاب على وادٍ من حطب، ألهب الله ذلك الوادي بسبب ما فعل.

إنّ سنة الله واحدة، ذات نظام واحد، في المادّيات، والفكريّات، والنفسيّات، والقلبيات، والعمليّات، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، وعلى متدبّر النصوص أن يكون على بصيرة، وأن يضع هذه الحقيقة في ذاكرته دائماً.

(٦)

صفـوة القـول

فحين يطرح الناشئون السؤال التقليدي التالي: هل الإنسان مسيّر أو مخير؟

فإننا نجيب بما يلي:

لا بد أن ننظر إلى واقـع حال الإنسان من جهة، ثم إلى منطق العقل من جهة ثانية، ثم إلى نصوص الشريعة الإسلامية ومفاهيمها من جهة ثالثة.

(أ) أما واقـع حال الإنسان: فيبدو لنا فيه ــ كما نشعر من أنفسنـا ــ أن أموراً تجـري فيه دون أن يكون لإرادتـه دخل في ذلـك؛ فهو بـالنسبة إلى هـذه الأمور مسـيَّر تمامـاً، خاضـع لسلطان القضاء والقدر خضوعاً كاملاً. ومن هذه الأمور: حياته وموته، وصحته ومرضه، ونماء جسمه وحركة فؤاده، ودورة دمه وهضم طعامه وشـرابه، إلى غـير ذلك من أمـور لا تحصى من الأمور التي لا تتوسط إرادة الإنسان في وجودها وتنفيذها.

ويبدو لنا أنّ أموراً أخرى يعملها الإنسان نتيجة توجُّهِ إرادته لعملها، فإذا توجهت إرادته لعملهـا بتصميم، وتوجَّهت قـدراته التنفيـذية لتحقيق إرادتـه، عملها وهـو يشعر بـأنـه يملك حريته في أن يعملها وفي أن لا يعملها فهو غير مجبر في هذه الأعمال الخاضعة لحرية إرادته عـلى أن يعمل أو لا يعمل، بخلاف ما هـو مجبر فيـه، فإنـه لا يملك من نفسه كَفَّـه ولا إيقافـه. وفي حـدود هذا القسم الـذي يخضـع لسلطان إرادته، يسـتطيـع الإنسان بـإرادته الحـرة أن يعمل الخير أو يتركه، وأن يعمل الشرّ أو يتركه، وأن يعمل المباحات لـه وأن يتركها.

إذن: فالإنسان بالنسبة إلى هذا القسم مخيّر، أخذاً من ملاحظة واقـع حاله.

والنـاس لا يؤاخِـذ بعضهم بعضـاً فيـما يجـري من أمـور خـارجـة عن حـدود إراداتهم؛ فلا يحاسبون إنساناً على ما نزل فيه أو جرى منـه بمحض القضاء والقـدر؛ وإنما يؤاخـذ بعضهم بعضـاً فيما يفعلونـه من أعمـال بـإراداتهم، ويعتبـرون أن المسؤوليـة منـوطـة بـالعمـل الإرادي للإنسان، شعوراً منهم بالفرق الواضـح الكبير بين ما هم مسيَّرون فيه وما هم مخيَّرون فيه.

هذه هي النظرة إلى واقـع الإنسان.

(ب) أما النظرة إلى منطق العقل: فإن العقل يقضي بأن المسؤولية عن العمـل لا بد أن تكون منوطةً باستطاعة الإنسان على الفعل أو الترك؛ أما من لا يملك هذه الاستطاعة فلا يصـح أن تتوجه إليه المسؤولية أصلاً. فالمقذوف بالمنجنيق ــ على سبيل الإكراه ــ إنسان ملجأ لا يملك تغيير وضعه الذي هو فيـه؛ فإذا ارتـطم بإنسـان فقتله، فإنـه غير مؤاخـذ على ذلـك. والمغلول

بالسلاسل الذي يُجَرّ جَرّاً على مجموعة من فراخ الدجاج فيقتلها بثقل جسمه؛ لا يعتبر مسؤولاً عما جرى منه ولا مؤاخذاً عليه، لأن ما جرى منه لم يكن إرادياً له، وحين نؤاخذه على ذلك فإننا نظلمه.

فالعقل يفرّق حتماً بين العمل الإرادي فيجعله مناط المسؤولية، والعمل غير الإرادي فيعفي من جرى به أو صدر عنه من المسؤولية.

(ج) **وأما النظرة إلى نصوص الشريعة الإسلامية ومفاهيمها:** فقد أوضحها مذهب أهل السنّة والجماعة، إذ أثبتوا أن للإنسان كسباً اختيارياً يحاسَب عليه، ويعتبر مسؤولاً عنه، ويتوجه إليه التكليف الشرعي ضمن حدوده، وما ليس للإنسان فيه كسب اختياري فلا مسؤولية عليه فيه، ولا يحاسب عليه، ولا يترتب له أو عليه فيه ثواب ولا عقاب.

فالتقى واقع الإنسان ومنطق العقل مع نصوص الشريعة ومفاهيمها التي هدت أهل السنة والجماعة إلى مذهبهم الوسط الذي ذهبوا إليه؛ وهو يقع بين طرفين متباعدين، مذهب المعتزلة ومذهب الجبرية.

أما المعتزلة: فقد أفرطوا، إذ ذهبوا إلى أن الإنسان يخلق أفعال نفسه، ولا علاقة للقضاء فيها.

وأما الجبرية: فقد أفرطوا في الطرف المقابل، إذ ذهبوا إلى أنّ الإنسان لا كسب له مطلقاً، بل هو كالريشة في الهواء، تصرِّف المقاديرُ أعمالَه على ما تشاء، دون أن يكون لإرادته أية حرية في اكتساب عمله.

وقد وقع هؤلاء وهؤلاء في مخالفة الواقع ومنطق العقل، وأخطأوا في فهم نصوص الشريعة الإسلامية.

فالإنسان وفق المذهب الحق الذي تدلُّ عليه نصوص الشريعة الإسلامية مخيّرٌ ضمن دائرة حدود مسؤوليته، مجبر لا اختيار له في كل ما يجري فيه أو عليه من وراء حدود مسؤوليته.

ووجود الإرادة الحرة في الإنسان لم يتمّ إلاّ بقضاء الله وقدره، ولو شاء الله لسلب منه ذلك.

فلولا أن شاء الله أن يهبنا المشيئة الحرة لم تكن لنا مشيئة، بل كنا كالكائنات الأخرى التي لا مشيئة لها، وإنما تخضع أعمالها لسلطان القضاء والقدر بشكل مباشر.

ويدل على أن الله وهبنا المشيئة الحرة بمشيئته قولُ الله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله﴾.

أما النصوص: ففيها ما يدل على أن الله خالق كل شيء. وفيها ما يدلُّ على أن الله عليم بكل شيء، ما كان وما هو كائن وما سيكون في المستقبل، بما في ذلك أعمال العباد التي يكسبونها في المستقبل باختيارهم الحر. وفيها ما يدل على أن كل شيء بقضاء وقدر. وفيها ما يدل على أن الله لا يكلف نفساً إلاَّ وسعها، وأن مسؤولية الإنسان مرتبطة بأعماله الإرادية التي يعملها باختياره الحر. وفيها ما يدل على أن الله حكيم عادل لا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ وأن كلّ نفس رهينة بما كسبت، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأنه متى كان العمل صادراً عن غير إرادة الإنسان كان غير مسؤول عنه ولا محاسب عليه، وأن أعمال الله وأحكامه منزهة عن العبث.

*** وجمعاً بين هذه المفاهيم المستفادة من نصوص الشريعة الإسلامية الصحيحة؛ تتوضح لنا عقيدة أهل السنة والجماعة بجلاء:**

١ ــ أن الله تعالى قد منح الإنسان إرادة حرة يكسب بها أعماله الاختيارية، ومنح الإنسان ــ بالإضافة إلى ذلك ــ سائر شروط امتحانه، من عقل يدرك به التكاليف الربانية، وقدرة على تنفيذ ما يكلفه من أعمال جسدية أو نفسية، وبذلك تكون مسؤوليته. وحين تختل الشروط اللازمة لامتحانه وتكليفه ترتفع مسؤوليته. ولما توجّهت إرادة الله لمنح الإنسان الإرادة الحرة، استحال في الوقت نفسه أن تتوجه لسلبِ هذه الإرادة وجَعْلِه مجبراً؛ نظراً إلى أنه يستحيل أن تتناقض إرادات الله.

فَمَنْحُ الإنسانِ الإرادة الحرة من خلق الله وبمشيئته، فهي مشمولة بالحقيقة القرآنية التي تدلّ على أن الله خالق كلّ شيء.

٢ ــ اختص علم الله بأنه كاشفٌ لما كان ولما هو كائن ولما سيكون في المستقبل؛ بما في ذلك ما يصدر من الإنسان من أعمال اختيارية يعملها بإرادته الحرة.

والعلم صفة كاشفة للواقع، وليس من الضروري أن يكون العلم مقترناً بالإرادة والخلق: فالله يعلم ذاته ويعلم صفاته، مع أن كلّ ذلك واجب الوجود لم تتعلق به إرادة ولا خلق، ويعلم سبحانه المستحيلات، مع أنها لا تتعلق بها إرادة ولا خلق، ويعلم سبحانه الاحتمالات الممكنة التي لم يختر إيجادها وخلقها وهي من الأمور التي لم تتعلق بها إرادة ولا خلق.

فما كلُ معلومٍ خاضعٌ لسبق إرادة الله وخلقه.

وإذا تساءل إنسان: كيف يعلم الله ما سيريد الإنسان باختياره الحرّ؟ كان جوابنا: هذا من خصائص العلم الرّبّاني.

وضمن هذه الحقيقة تُفهم النصوص التي تُثبت أن ما يعمله الإنسان من خير وشر مكتوب من قبل وجوده؛ أي هو مكشوف بالعلم الرّبّاني، ويؤمر المَلَكُ بكتابة هذا المعلوم، فليس كلّ مكتوب مقضياً مقدّراً، بل قد يكون معلوماً فقط.

وفي هذا نقول:

لقد سبق في علم الله تعالى أنّ هذا الإنسان سوف يعمل بإرادته الحرّة ما فيه سعادته؛ وأن ذلك الإنسان سوف يعمل بإرادته الحرة ما فيه شقاوته.

وعلى أساس عمله الناتج عن إرادته الحرة تكون مسؤوليته ومحاسبته وجزاؤه.

٣ ــ ما يصدر من الإنسان من أعمال ذات آثار في الواقع المادي، لا يمكن أن تتعارض أو تتناقض مع قضاء الله وقدرِه العام، وسَبْقُ العلم الإلّهي بما سيعمله الإنسان وبما قضاه الله وقدّره في كونه هو الذي أحكم الربط والتنسيق بين عمل الإنسان وبين قضاء الله وقدره؛ يضاف إلى ذلك أن قدرة الإنسان على التنفيذ لا تتمُّ إلا بإمداد من الله وإقدار.

وحين لا يكون لله في آثار كسب الإنسان قضاء ولا قدر، فإنّ الله يحوّل قدرة الإنسان عن التنفيذ، أو يسلبها، أو يضع دونها عقبات.

وبناء على هذا نقول:

إن المقتول يموت بأجله الذي قدّره الله وقضاه، وعمليّة القتل قد تمّت بكسب القاتل، فهو مؤاخذ عليه، والذي أحكم التنسيق والربط بين كسب الإنسان وقضاء الله وقدره هو علم الله السابق بما سيفعله الإنسان؛ وبما قضاه الله وقدَّره في كونه.

إذن: فلا يجري من آثار أعمال الناس في كون الله إلاّ ما قضاه الله وقدَّره؛ أو أذن به وسبق في علمه، ولله في كلّ ما يقضي به أو يأذن به حِكَمٌ هو يعلمها، وقد يُطْلِعُ بعض عباده على بعضِ حكَمه.

٤ ــ يقع الإنسان ضمن دائرتين: دائرة كبرى لا كسب له فيها، فهو بالنسبة إليها مسيّر غير مخيّر، ودائرة صغرى له فيها كسب، وهو بالنسبة إليها مخيّر غير مجبر.

فهو بين يدي القضاء والقدر كالعصفور في قفص راعيه، حرٌّ في داخله مما له عليه سلطان، مسلوب الحرّية بالنسبة إلى ما وراء ذلك.

رفض رأي المعتزلة (ويسمون القدرية، أي نفاة القدر):

أما المعتزلة فقالوا: إن العبد موجدٌ وخالق لفعله الاختياري، وإن الله تعالى قد فوّض الأمر إليه، فيفعل ما يشاء، وإن الأفعال تصدر بقدرة العبد فقط.

ورأي المعتزلة هذا رأي متطرف مرفوض، لمخالفته مفاهيم النصوص الثابتة الصحيحة الصريحة التي تثبت أن كل شيء بقضاء وقدر؛ وتثبت سبقَ العلم الإلٓهي بما يكون من أعمال اختيارية، وقد تعسّفوا في تأويل النصوص تعسُّفاً ظاهراً، ولَوَوا أعناقها ليّاً منكراً.

رفض رأي الجبرية:

وأما الجبرية فقالوا: لا كسب للعبد ولا اختيار، وإنه مجبور على الفعل ومقسور على العمل، كالريشة المعلَّقة في الهواء. وعلى مذهبهم لا قدرة للإنسان، وإنما تصدر الأفعال بقدرة الله تعالى فقط.

ورأي الجبرية هو الرأي المتطرف الآخر الذي ذهب إلى نهاية الطرف المقابل؛ فزعموا أنه لا كسب للإنسان في خيرٍ أو شر، فخالفوا في ذلك منطق العقل والمحسّ في الواقع، ومفاهيم النصوص الإسلامية الصحيحة الصريحة. وقد تعسَّف هؤلاء أيضاً في تأويل النصوص تعسُّفاً ظاهراً، وغيَّروا المفاهيم الثابتة للظلم والعدل. ولَمْ يقْدُروا حكمة الله حق قَدْرِها، وأجازوا التكليف بغير المستطاع، مخالفين بذلك قول الله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾، وقوله: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها**﴾.

* **ولنفي رأي الجبرية وإثبات أن الله منح الإنسان حرية الإرادة في كلّ أعماله الإرادية** التي يعتبر مسؤولاً عنها ومحاسباً عليها؛ في كل وجوه نشاطه الذي هو ساحة تكليفه في الحياة، وساحة اختباره، تتضح لنا الأدلة التالية:

أولاً: كل مخلوق يوضع موضع الامتحان لا بد أن يكون حرّ الاختيار بين أكثر من طريق، أو أكثر من عمل، وإلاّ لم يكن للامتحان مغزىً، وكان عبثاً من العبث، ولا يفعل هذا عالِم حكيم، ونحن نعلم من النصوص القرآنية أن الخالق منزه عن العبث.

ثانياً: يستحيل عقلاً أن يتوجّه أمر التكليف الإلٓهي لكائن لا يملك في نفسه القدرة على اختيار الطاعة؛ وذلك لأنّ الله جل وعلا حكيم، ولا يوجِّه أوامر التكليف لمجرد العبث وهو منزه عن العبث.

ثالثاً: ثبت في النصوص القاطعة أن الله لا يكلِّف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلاّ

ما آتاها، ومَنْ لا يملك حرية الإرادة في اختيار عمله لا يكون هذا الاختيار من وسعه، ولا يكون هذا الاختيار مما آتاه الله، فالله لا يكلّفه لو كان كذلك.

ولما ورد التكليف عَلِمْنَا أنَّ هذا الاختيار من وسعه ومما آتاه الله؛ فسقط ادِّعاء الإجبار.

رابعاً: ليس من العدل ولا من الحكمة أن يؤاخذ الله مخلوقاً على عمل لم يكن هذا العمل مظهراً من مظاهر اختيار المخلوق وإرادته؛ ولذلك نلاحظ في النصوص الإسلامية أن المؤاخذة والجزاء مقرونان بالأعمال الإرادية؛ ومتى سُلبت الإرادة عن عمل من الأعمال ارتفع التكليف وارتفعت المسؤولية.

وقواطع النصوص تبين هذه الحقائق:

منها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

أي: يؤاخذكم بما حلفتم من أيمان ناتجة عن كسب قلوبكم، وكسب القلوب هو توجُّه الإرادة، فارتفعت المؤاخذة عما كان من لغو الألسنة ولم يكن من كسب القلوب.

ومنها قول الله تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

ومن هذا يظهر لنا ارتفاع المؤاخذة عن الأخطاء التي تخرج عن دائرة سلطة الإرادة مما لا يملك الإنسان دفعه؛ وأن المسؤولية رهن بما تعمّدت القلوب من أعمال، وما تعمَّدَتْهُ القلوب هو ما توجّهت الإرادة التامّة لفعله.

فإذا أضفنا إلى هذا قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴿٢٨٦﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الطلاق ٦٥):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴿٧﴾﴾.

وقوله الذي تكرر في (الأنعام والأعراف والمؤمنون):

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

تبين لنا أن ورود التكليف يستلزم وجود الاستطاعة حتماً، وأول عناصر الاستطاعة وجود الإرادة الحرة، وتبين لنا أن المؤاخذة ترتفع متى سُلبت الإرادة، لأن التكليف يرتفع حكماً عند سلبها، فلا يمكن أن يُوجد في الواقع تناقض بين مقتضيات المشيئة الإلَهية وبين مقتضيات أمر التكليف الإلَهي، وبين مقتضيات العدل الإلَهي.

والرأي الجبري الفاسد يدّعي سلب الإرادة، مع أن التكليف متوجِّه، وأن المؤاخذة بعد ذلك متوجِّهة.

وهذا ــ كما وضح لنا ــ معارض للنصوص القرآنية، ومعارض لمنطق العقل وبديهته، ومعارض لحكمة الله وعدله ورحمته، وتنزُّه أفعاله وأحكامه عن العبث.

* **ويسأل الجبريون فيقولون:**

هل يفعل العاصي إذن معصيته معانداً لإرادة الخالق أم موافقاً لها؟ ونقول في الجواب: إن تصوير السؤال على هذا الوجه فيه مغالطة، فالقضية لا تقع فقط بين احتمالين اثنين، ولكنّها بين احتمالات ثلاثة، هي:

الاحتمال الأول: توجيه المشيئة الإلَهية لإجبار المخلوق على الطاعة.
الاحتمال الثاني: توجيه المشيئة الإلَهية لإجبار المخلوق على المعصية.
الاحتمال الثالث: توجيه المشيئة الإلَهية لجعل المخلوق ذا إرادة حرة غير مجبرة.

وقد توجَّهت المشيئة الإلَهية فعلاً لاختيار الاحتمال الثالث بالنسبة إلى الناس والجن؛ فاستحال أن تتوجّه إلى أضدادها في الوقت نفسه.

وحينما يختار المخلوق أمراً مما جعل الله له فيه سلطة الاختيار فإن اختياره لذلك الأمر لا يعتبر بحال من الأحوال معانداً لإرادة الله في شيء؛ لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يمنحه سلطة الاختيار ليمتحنه ويختبره، كما أنه لا يقتضي أن يكون الله جل وعلا هو الذي أجبره على أن يختار هذا الاختيار ولا يقتضي أيضاً أن يكون الله جل وعلا راضياً عن كل ما يختاره المخلوق ذو الإرادة الحرة.

ويظهر لنا هذا الموضوع تماماً في تجاربنا الإنسانية، فإنّ مَنْ نمنحه حرية التصرف في عمل

ما، قد يفعل ما يسرّنا ويرضينا، وقد يفعل ما يسوؤنا ويغضبنا، مع إمكاننا أن نعزله عن ذلك العمل ونسلبه حرّية التصرف فيه ولا يكون عمله معانداً لإرادتنا، بل قد نمدّ له، ونبقي له طاقة العمل وساحة التنفيذ بين يديه، لنمتحنه ونختبره، وقد نوبّخه ونؤدبه، وقد ننذره ونحذّره، حتى يحين وقت مؤاخذته، ونحن في كل ذلك نشاهد سوء تصرفه. وقد نرى من الحكمة أن لا نعارضه، وأن لا نضع العراقيل في طريقه، أو نكفّه عن العمل الذي منحناه فيه حرّية التصرف. وقد نرى من الحكمة أن نملي له ليصلح من تصرُّفه ويقوّم من سلوكه، حتى يجتاز مدّة الامتحان بنجاح أو غيره. وعملنا هذا لا شيء فيه من التناقض، بل هو من مقتضيات الحكمة التي تقتضيها ظروف الامتحان الأمثل.

(٧)

نصوص من أقوال أهل السنّة والجماعة في بيان مذهبهم الوسط

١ ـ جاء في شرح «الفقه الأكبر» للإمام أبي منصور الماتريدي:

قال الإمام أبو حنيفة وأصحابه: (الخلق فعل الله، وهو إحداث الاستطاعة في العبد، واستعمال الاستطاعة فعل العبد حقيقة لا مجازاً، فسلِموا بذلك من مذهب القدرية ومذهب الجبرية).

وقال أبو حنيفة: (إن الاستطاعة التي يعمل بها العبد المعصيةَ هي بعينها تصلح لعمل الطاعة؛ وهو معاقَبٌ على صرف الاستطاعة التي أحدثها الله فيه، وأمره بأن يستعملها في الطاعة لا في المعصية، فصرفها إلى المعصية)[1].

قال الشيخ محمد بن إدريس الكاندهلوي في شرح كلام أبي حنيفة هذا: [فهذه الاستطاعة في العبد بخلق الله تعالى وإحداثه، وتسمّى هذه الصفة «إرادة كلية»، لأن من شأنها أن تتعلق بكل واحد غير معين من طرفي الفعل والترك، وصرفُ هذه الاستطاعة الصالحة للطاعة والمعصية إلى جانبٍ واحدٍ هو فعل العبد، المسمّى «بالقصد والاختيار الجزئي»، ويسمّى أيضاً «بالإرادة الجزئية»، لتعلقها بجزئيٍّ معين، ويعبّر عنه بالكسب والعزم المصمّم أيضاً، وهذا الصرف هو مناط المثوبة والعقوبة]. انتهى من «شرح تائيه القضاء والقدر».

(١) كذا في شرح «الفقه الأكبر» للإمام أبي منصور الماتريدي ص «١٠»، نقلاً عن «تائية القضاء والقدر وشرحها» للشيخ محمد بن إدريس الكاندهلوي.

٢ ــ رُوي عن الإمام أبي حنيفة أنه سأل الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما فقال: يا ابن رسول الله هل فوّض الله الأمر إلى العباد؟

فقال: الله تعالى أجلُّ من أن يفوِّض الربوبيّة إلى العباد.

فقال له: هل يجبرهم على ذلك؟

فقال: الله تعالى أعدل من أن يجبرهم على ذلك ثم يعذّبهم.

فقال: وكيف ذلك؟

فقال: بين البين، لا جبر ولا تفويض، ولا إكراه ولا تسليط.

٣ ــ قال العلامة سعد الدين التفتازاني: (والحق ما قاله بعض أئمة الدين: إنّه لا جبر ولا تفويض، ولكنْ أمرٌ بين أمرين).

٤ ــ ذهب الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وإمام الحرمين: إلى أن القدرة الحادثة مؤثِّرة بإذن الله وتمكينه وإقداره، فلا يلزم اجتماع قدرتين مؤثرتين بالاستقلال في محلٍّ واحد.

وقال إمام الحرمين في الرسالة النظامية: (هذا والله هو الحق الذي لا غطاء دونه، ولا مراء به لمن وعاه حقَّ وعيه).

وصرّح فيها بأنّ تأثير قدرة العبد في فعله ــ بإذن الله تعالى ــ إنما هو بالاختيار.

٥ ــ رُوي أن علي بن أبي طالب أجاب السائل عن القدر بقوله: (أمّا إذا أبيت فإنه أمر بين أمرين، لا جبر ولا تفويض).

٦ ــ كتب الحسن البصري إلى الحسن بن علي يسأله عن القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن بن علي رضي الله عنه: (مَنْ لم يؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر. وإن الله تعالى لا يطاع إستكراهاً، ولا يعصى بغلبة، لأنه تعالى مالك لما ملّكهم، وقادر على ما أقدرهم. فإن عملوا بالطاعة لم يَحُل بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما عملوا، فإن لم يفعل فليس هو الذي جبرهم على ذلك ولو جبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو جبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم كان ذلك عجزاً في القدرة، ولكن له فيهم خفيّ المشيئة غيّبها عنهم، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم، والسلام)[1].

---

(١) المرقاة ١/٥٢، نقلاً عن «تائية القضاء والقدر وشرحها».

٧ ــ روى الأصبهاني وابن عساكر: أنه روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (أمر الله تعالى بالخير تخييراً، ونهى عن الشرّ تحذيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطَع مُكْرِهاً، ولم يُملِّك تفويضاً ــ أي لم يُملِّك عباده القدرة على الأفعال تفويضاً ــ، فهو أمر بين أمرين، لا جبر ولا تفويض، والاستطاعة تُملَك بالله الذي إن شاء ملّك)[1].

٨ ــ وروي عن عليّ رضي الله عنه[2] أن شيخاً شامياً سأله بعد الانصراف من صفّين قائلاً: إن المسير إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال عليٌّ رضي الله عنه: (والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئاً، ولا هبطنا وادياً، ولا علونا تلعةً، إلّا بقضاء وقدر).

فقال الشيخ: عند الله أحتسب خطاي، ما أرى لي من الأجر شيئاً.

فقال له: (مَهْ أيها الشيخ، عظّم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مُنْصَرَفِكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مُكرَهين، ولا إليه مضطرين).

فقال الشيخ: كيف والقضاء والقدر ساقانا؟

فقال سيدنا علي: (ويحك، لعلّك ظننت قضاءً لازماً، وقدراً حتماً! لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، فلم تكن لائمة للمذنب ولا محمدة للمحسن، ولما كان المحسن أَوْلى بثواب الإحسان من المسيء، ولا المسيء أولى بعقوبة الذنب من المحسن!! تلك مقالة عبدة الأوثان، وحزب الشيطان، وشهود الزور أهل العمى عن الصواب، وهم قدريَّة هذه الأمة ومجوسها. إنّ الله تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلَّف يسيراً، ولم يكلِّف عسيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطَع مستكرِهاً، ولم يرسل الرسُل إلى خلقه لَعِباً، ولم يُنْزِلِ الكتبَ عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنّ الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار).

فقال الشيخ: وما القضاء والقدر اللّذان ما سرنا إلّا بهما؟

فقال له: (هو الأمر من الله تعالى والحكم بذلك، ثم تلا: ﴿وكان أمر الله قدراً

---

(١) عن «تائية القضاء والقدر وشرحها»، نقلاً عن إشارات المرام، ص ٢٠.

(٢) عن «تائية القضاء والقدر وشرحها»، نقلاً عن الإتحاف شرح الإحياء، ٢/٥٦، ونقلاً عن شرح المقاصد، ٢/١٣٣.

مقـدوراً﴾!). فقام الشيـخ الشـامي مسروراً لِمـا سمـع من المقال، فقـال: فرّجت عني يـا أمير المؤمنين فرَّج الله عنك، ثم أنشأ يقول:

أنتَ الإمـامُ الـذي نـرجـو بـطاعتـهِ	يـومَ الحسـاب من الـرحمن غفـرانـاً
أوْضحتَ من ديننـا مـا كـان ملتبِسـاً	جــزاك ربـي بـالإحســان إحسـانــاً

٩ ــ قـال العلاّمـة الآلوسي في الأجـوبة العـراقية عن الأسئلة الإيـرانية: «إنّ الحق المؤيَّـد بالكتـاب والسنة هـو التوسط بين الجبـر والقدر؛ كمـا أشـار إليـه أميـر المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه للسائل عن القدر: (أمّا إذا أبيتَ فـإنّه أمـر بين أمرين، لا جبر ولا تفويض).

فإنّه إذا انتفى الجبر والتفويض كـان الوسط، إنّ العبـد لـه قدرة، ولكنـه لم يُفوّض إليـه الأمر أن يفعل بها ما يشاء وإن لم يرده الحق، وأن يكفّ نفسه عمّا يشـاء وإن شاء الحق سبحـانه وتعالى فعله؛ بل هو مقيّد بأن لا يفعل بها ما شاء إلاّ إذا شاء الله تعالى، بدليل: ﴿وما تشـاؤون إلاّ أن يشاء الله﴾، ﴿وماهم بضارّين بـه من أحد إلاّ بإذن الله﴾ وغير ذلك من الآيات والأخبار. فلا يكون مستقلاً مفوَّضاً إليه الأمر في الفعل والتـرك كما يـزعمون؛ ولا منفيّـاً عنه القـدرة جملة واحدة كالمرتعش في رعشه كما زعمت الجهمية» انتهى.

١٠ ــ قال الشيـخ ابن عربـي في الباب الثاني والسبعين من «الفتوحـات»: (اتفق النظّار كلّهم عــلى أنّ خلق القـدرة المقـارِنـة للفعــل من العبد لله وحــده؛ وأنها ليست من كسب العبـد ولا من خلقه، فكل إنسان معه اختيار، لا أن لـه من نفسه اختياراً استقلالاً) انتهى.

وقال أيضاً كما جاء في كتاب«اليواقيت والجواهر»للشعراني: (فكل إنسان مختار في أفعاله وحركاته وسكناته، ومجبور في عين اختياره[١]، لأن اختياره ليس من عنده ولا يلزم من هذا أن لا يكون مختاراً في أفعاله، فإن المختار لغـة وعرفـاً من يكون متصفـاً بصفـة الاختيـار، كما أنّ المـوجود من يكـون متصفاً بصفة الوجود، وإن لم يكن وجوده من عند نفسه، ولا خالقاً وموجداً لوجـوده. ألا ترى أن الحقّ سبحانه وتعالى قدير بمعنى أنه متصف بالقدرة الأزلية السرمدية؛ لا أنّه خالق لقـدرته، وموجدٌ لها؟! فالعبـد مختار متصف بصفـة الاختيار، لكنّ اختيـاره وقدرتـه ومُكْنته كلّه بتخييـره تعالى وإقداره وتمكينه؛ كما أنّ وجوده بإيجـاده وتكوينـه، ولا يمكن أن يكون وجـود الصفة أزيـد من وجود الموصوف. فافهم ذلك واستقم، فإنه لطيف ودقيق) انتهى[٢].

---

(١) أي: في كونه مخلوقاً مختاراً، إذ لم يختـر الإنسان في أصـل خلقه أن يكـون مخلوقاً مختـاراً، وإنما خلقـه الله كذلك إجباراً، كما خلق ذاته وكلّ صفاته وخصائصه كذلك.

(٢) عن «تائية القضاء والقدر وشرحها» للكاندهلوي.

١١ ــ وقال الشيخ محمد بن إدريس الكاندهلوي في «سلك الدرر» شرح «تائية القضاء والقدر» له؛ ما يلي:

(أ) ومذهب جمهور الماتريدية أنّ أصل الفعل بقدرة الله عزّوجلّ، والاتصاف بكونه طاعة أو معصية بقدرة العبد.

واختاره أبو بكر الباقلاّني ومن تبعه من المحققين من أهل السنة.

واختاره ابن الهمام في المسايرة، وحاصل كلامه: (أنّ قدرة الله تتعلّق بأصل الفعل، وقدرة العبد تتعلّق بوصفه من كونه طاعة أو معصية، فمتعلّق تأثير القدرتين مختلف. كما في لطم اليتيم تأديباً وإيذاءً، فإنّ ذات اللطمة واقعة بقدرة الله تعالى، وكونه طاعة إن كان للتأديب، ومعصية إن كان للإيذاء واقع بقدرة العبد وتأثيره) انتهى.

انظر ص «١٣٣» من «المسامرة» للكمال بن أبي شريف.

وكذا في شرح الشيخ قاسم بن قطلوبغا على «المسايرة».

(ب) لو كان تعلُّق القضاء وعلم الله القديم بأفعالنا سالباً لقدرتنا، ومبطلاً لاختيارنا، لَلَزِمَ أن يكون مبطلاً لاختياره تعالى أيضاً، فإنه تعالى كما هو عالم بأفعالنا هو عالم أيضاً بأفعاله وما خلقه وما سيخلقه في المستقبل؛ فدلّ ذلك على أنّ تعلّق العلم الأزلي بشيء لا يوجب كونه تعالى غير مختار، على أن العلم الأزليّ قد تعلّق بأفعالنا على حسب ما يقع من اختياراتنا، دون الجبر علينا، فكيف يستلزم الجبر!!

فالله يعلم أفعاله، كما يعلم سائر الأشياء قبل وقوعها وظهورها على منصة الوجود؛ فلم يكن علم الله تعالى بأفعاله مبطِلاً لاختياره القديم، وقدرته الأزلية، ومشيئته القديمة. فقِسْ على هذا علمه بأفعالنا، فإنه أيضاً لا يكون مبطلاً لاقتدارنا، وسالباً لاختيارنا، الممنوح لنا من فيض فضله تعالى.

فاستحالة الوقوع على خلاف علم الله سبحانه ليست بالذات، بل هي بالغير، بسبب استحالة الخطأ في علمه تعالى، وهذه الاستحالة بالغير لا تنافي الإمكان لذاته، فانتفى الجبر.

لقد أزال الله الأعذار بالتمكين والإقدار، فلم يبقَ للناس على الله حجّة، وإنما الحجّة البالغة لله على الناس.

يقولون: لو أتينا بعمل على خلاف مشيئة الله لَزِمَ أن يكون الإلَـه عاجزاً مغلوبـاً!! وهذا الكلام غير لازم، لأن الله قادر على أن يحملكم على الإيمان والطاعة عـلى سبيل القهـر والإلجاء إلّا أنّ ذلـك يبطل الحكمـة المطلوبـة من التكليف، وهـو المـراد من قـولـه: ﴿فلو شـاء لهـداكم أجمعين﴾.

□ □ □

الفصل الثالث

توجيه طائفة من النصوص توجيهاً يتفق مع العقيدة الحقة في القضاء والقدر

(١)
المجموعة الأولى

كَثُر في القرآن الكريم بيان أن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً، ولو شاء لآتى كل نفس هداها، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ومن ذلك:

(أ) قوله تعالى في سورة (السجدة ٣٢):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

(ب) وقوله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

(ج) وقوله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . . . ﴿١١٨﴾﴾.

(د) وقوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ولكي نفهم المراد من هذه الآيات ونظائرها ــ والله أعلم ــ لا بد من أن نمهد لذلك بما يلي:

إذا تأملنا في واقع الأمر تبين لنا احتمالات ثلاثة للمشيئة الربانية، وهي:

١ ــ مشيئة الله تعالى في أن يجعل الناس مجبرين على سلوك طريق الهداية دون أن يستطيعوا غير ذلك.

٢ ــ مشيئته تعالى في أن يجعل الناس مجبرين على سلوك طريق الضلالة دون أن يستطيعوا غير ذلك.

٣ ــ مشيئته تعالى في أن يجعل الناس مخيَّرين، فمن شاء منهم اختار بإرادته الحرة طريق الخير، ومَن شاء منهم اختار بإرادته الحرة طريق الشر.

ومعلوم ــ كما سبق ــ أنه متى تعلَّقت مشيئة الله جلَّ وعلا بأحد هذه الاحتمالات الثلاثة؛ استحال في الوقت نفسه أن تتعلق بغيره من الاحتمالات الأخرى. لكنه مع ذلك يقال: لو شاء أي احتمال آخر منها لفعل، لكنه لم يشأ، لأنه قد شاء بحكمته غيره.

وهنا يخفى على كثير من الباحثين في تفسير الآيات السابقة وأمثالها تصوُّرُ الاحتمال الثالث من الاحتمالات السابقة؛ وحيث خفيَ عليهم ذلك لم يبق لديهم إلا احتمالان، هما: احتمال الإجبار على الهداية، واحتمال الإجبار على الضلالة.

وبناءً على ذلك يقولون: إذا لم يشأ الهداية فقد شاء الضلالة، وبذلك يقعون في الخطأ، لأننا نقول: إذا لم يشأ الإجبار على الهداية فلا يلزم من ذلك أنه شاء لهم الضلالة، لاحتمال أن يكون قد شاء لهم الأمر الثالث، وهو أن يكونوا مخيَّرين، فإما أن يختاروا لأنفسهم طريق الهداية، وإما أن يختاروا لأنفسهم طريق الضلالة، وهذا الاحتمال الأخير هو الاحتمال الذي ينبغي المصير إليه، جمعاً بين مختلف الأدلة العقلية والنقلية، كما سبق بيانه في عقيدتنا حول ركن الإيمان بالقضاء والقدر.

وبعد هذا التمهيد نستطيع أن نفهم الآيات السابقة على الوجه التالي ــ والله أعلم بمراده ــ:

أما آية (السجدة): ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حَقَّ القول منِّي لأملأن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين﴾.

أي: «ولو شئنا» أن تكون الأنفس كلها مفطورة على سلوك سبيل الهداية فقط؛ لسلبناها منحة الاختيار وقدرة الكسب، ولجعلناها أنفساً مجبرة لا اختيار لها، ولو أننا جعلناها كذلك لكان من مقتضى الحكمة أن نؤتي كل نفس هداها و «لآتينا كل نفس هداها»؛ «ولكن» حيث تمت الحكمة بأن توهب هذه الأنفس الاختيار الحرّ والقدرة على الكسب ضمن دائرة التكليف؛

فقد «حق القول مني» الذي يتضمن وعيد المستكبرين المعاندين من الجِنّة والناس، وهو «لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين».

وأما آية (يونس): ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾.

أي: «ولو شاء ربك» لسلب مَنْ في الأرض مِن إنس وجن إراداتهم الحرة وقدراتهم على الكسب، فجعلهم مجبرين مكرهين على الطاعة بالفطرة، ولو كان الأمر كذلك «لآمن من في الأرض كلهم جميعاً»، لأن الله إذا جعلهم مجبرين غير مختارين فلا يختار لهم ــ بحكمته ــ إلا الإجبار على الإيمان والطاعة؛ ولكن لمّا شاء الله لهم أن يكونوا مخيرين في دائرة التكليف التي خصَّصها لامتحانهم؛ فلا بد أن يختار قسم منهم بإرادته الحرة الإيمان، وأن يختار قسم آخر منهم الكفر، وإذا كان الأمر كذلك يا محمد «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»، وقد فطروا مخيَّرين غير مكرهين؟!

وأما آية (هود): ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾.

أي: «ولو شاء ربك» لسلب الناس ما وهبهم من إرادة حرة وقدرة على الكسب؛ و«لجعل الناس» بعد ذلك «أمة واحدة» مفطورة على الهداية فقط، ضرورة أن الله لا يختار فيهم عندئذٍ إلا الهداية، «و» لكن حيث أعطاهم الله الإرادة الحرة فـ«لا يزالون مختلفين» لأن طبيعة منحة الاختيار تؤدي حتماً إلى الاختلاف.

وأما آية (المائدة): ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾.

أي: «ولو شاء الله» أن يجعلكم أُمّة واحدة لم يمنحكم الإرادة التي وهبكم إياها؛ ولجعلكم مجبرين غير مختارين، ولو أنه جعلكم كذلك «لجعلكم أمة واحدة» كما جعل سبحانه وتعالى الملائكة مسوقين بقضاء الله وقدره إلى الطاعة التامة؛ ولكنه آتاكم سلطة الإرادة الحرة ضمن دائرة التكليف التي أراد أن يمتحنكم فيها «ليبلوكم فيما آتاكم»؛ ولو أنه جعلكم أمة واحدة لم تتحقق حكمته تعالى في ابتلائكم وامتحانكم، وإذ تمت حكمته تعالى بتكريمكم بهذه المنحة، ووضعكم موضع الاختبار، فقد كلّفكم أن تتسابقوا في فعل الخيرات ضمن حدود استطاعاتكم، «فاستبقوا الخيرات» لتنالوا الحمد والأجر يوم ترجعون إلى الله: «إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون».

وعلى هذا المنوال يمكن فهم كثير من النصوص القرآنية المقاربة في مدلولاتها لهذه الآيات التي أوردناها؛ والله أعلم بمراده.

(٢)

المجموعة الثانية

أورد القرآن الكريم تعلُّلَ المشركين بمشيئة الله تعالى في إشـراكهم وفي عبادتهم لغـير الله؛ وردّ عليهم تعلُّلهم هذا، وكذَّبهم في ادعـائهم أن الله قد شـاء لهم الشرك وعبـادة غيره تعـالى، وقال لهم: «إن أنتم إلا تخرصون» ــ أي: تكذبون ــ وذلك:

(أ) في قوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

(ب) وقوله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

ونستطيـع بسهولة ووضوح أن نفهم هذين النصين فهماً منسجماً مع العقيدة التي قررناهـا في القضاء والقدر، وإليك الشرح:

إن قول المشركين الذي تحكيه آية(الأنعام): «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء»؛ وقـولهم الذي تحكيـه آية (النحـل): «لـو شـاء الله مـا عبـدنـا من دونـه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء» مستند إلى ادِّعائهم أن الله قد شاء لهم الإشـراك بـه، وشاء لهم عبادة غيره، ولذلك كـانوا مشـركين بـه في عقيـدتهم وفي عبادتهم، وعبّـروا عن هذا المعنى بقولهم: «لو شاء الله ما أشركنا»، وقولهم: «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء»!!

ولذلك كذَّبهم الله في هذا الادِّعاء وأوعدهم بالعذاب، فقال: «كذلك كذب الـذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا» بسبب هذا الكذب الذي كذبوه على الله، وإصرارهم على كفر.

ثم طالبهم بالدليل على ما ادَّعوه، فقال لنبيه ﷺ: «قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعـون إلا الـظن وإن أنتم إلا تخـرصـون»؟! أي هـل عنـدكم من خـبر عن الله يُثْبت مُـدَّعـاكم هـذا؟! فـإنْ كـان عنـدكم شيءٌ من ذلـك تحتجـون بـه فـأخـرجـوه لنـا! ولكنكم في

الحقيقة لا تعتمدون في ادّعائكم هذا على مستند علمي؛ وإنما تتّبعون الظنون الكاذبة التي هي أوهام بعيدة عن الحقيقة!! ولذلك فما أنتم في الحقيقة إلا تخرصون، أي: تكذبون، أو تعتمدون على التخمين التوهُّميّ.

ثم علّم الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: «قل: فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين»؛ أي إن الله قد شاء أن يمنحكم الإرادة الحرة ليمتحنكم في حدود ما وهبكم من استطاعة؛ ولو شاء غير ذلك ـ أي لو شاء أن يجعلكم مجبرين، لا خِيرة لكم فيما تقومون به من أعمال ـ لكانت حكمته تقضي بأن يهديكم أجمعين، وفي هذا حجة عليهم بالغة صميم الحقيقة، وبالغة غاية الإلزام بالحق، ولله الحجة البالغة!!

(٣)

المجموعة الثالثة

ونطالع في القرآن الكريم نصوصاً توضح مشيئة الإنسان الحرة في اختيار الإيمان أو الكفر، ومشيئة الإنسان الحرة في أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، فمنها:

(أ) قوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

(ب) وقوله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦):

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

فقد جعل الله في الآية الأولى مشيئة الإيمان ومشيئة الكفر للإنسان فقال: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، ووضع مشيئته في موضع الحرِّية التامة، ليصح بذلك ابتلاؤه وامتحانه، ولذلك أنذره بسوء عاقبة الظالمين الذين يشاؤون الكفر؛ فقال: «إنا أعتدنا للظالمين ناراً. . .».

كما نسب سبحانه في الآية الثانية إلى الإنسان المشيئة في اتخاذ السبيل إلى الله؛ فقال تعالى: «إنَّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً».

ثم أتبع ذلك بقوله تعالى:

«وما تشاؤون إلاَّ أن يشاء الله»، أي: وما تثبت لكم مشيئة حرة تشاؤون بها (أي: جهاز مشيئة) إلا أن يسبقها مشيئة من الله تحدِّد مَنْحكم هذا الاختصاص؛ ولولا ذلك لم تستطيعوا أن تشاؤوا أية مشيئة، ولكنتم مجبرين غير مختارين. وقد منحكم الله ذلك بمشيئته المقرونة بعلمه وحكمته. «إن الله كان عليماً حكيماً» فمن شاء أن يتخذ منكم إلى ربه سبيل العمل الصالح أدخله الله بفضله في جنته، وإنما يتم ذلك بمحض مشيئته. «يدخل من يشاء في رحمته»، ومن شاء منكم أن ينحرف عن السبيل السويّ فقد ظلم نفسه، ومن كان من الظالمين استحق العذاب الأليم «والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً».

(٤)

المجموعة الرابعة

ونطالع في القرآن الكريم نصوصاً كثيرة تثبت أن الله يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء؛ ويُشْكِلُ فهمُ هذه النصوص على كثير من الباحثين في ضوء صورة الإيمان الحق بالقضاء والقدر، ويذهبون في تأويلها مذاهب شتى!

ولدى تَتَبُّع نصوص القرآن المجيد نلاحظ أنه قد ورد فيها استعمال الهداية والضلالة في أربعة معانٍ، وفيما يلي بيان هذه المعاني مع شواهدها من الآيات القرآنية[١]:

أولاً:

الهداية: بمعنى الدلالة والإرشاد والتعليم.

الضلالة: بمعنى الجهل بالحقيقة والعمى عن طريقها.

وعلى هذا يكون الإضلال: بمعنى الإبقاء في الجهل، أو بمعنى الإغواء الذي يصوِّر الباطل بصورة الحق؛ وهو ما يقوم به الموسْوِسون المضلِّلون من الإنس أو الجن.

ويشهد لذلك نصوص كثيرة، منها ما يلي:

(أ) قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

فكون القرآن هدى للمتقين قد جاء بمعنى الدلالة والإرشاد والتعليم، للذين يتحققون بالنواة الأولى للتقوى، وهو إرادة اجتناب كل ما ينهى الله عنه، وامتثال كل ما يأمر الله به.

---

(١) يمكن الاستفادة من القاعدة «٣٧» من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» حول إسناد الفعل أو ما في معناه إلى فاعله، أو مَن قام به، أو مسبِّبه، أو الآمر به، أو الداعي له، أو المتهم أو الحاكم أو القاضي به، أو واجده والعاثر عليه، والواصل إلى العلم به، أو غير ذلك.

(ب) قوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ في سورة (الضحى ٩٣):

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

أي: ووجدك جاهلاً بالمعارف الدينية فعلمك إياها.

(ج) قوله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

أي: من جعل الشيطان مولاه فإنه يضله، أي: يغويه ويوسوس له، ويصوِّر له الباطل بصورة الحق ويزيِّنه له. ويهديه إلى عذاب السعير، أي: يوصله إلى هذا المصير السيِّىء بسبب ما يوسوس له ويزين لقلبه.

(د) وقوله تعالى ــ حكاية لما يخاطب به المجرمين من بني آدم يوم القيامة ــ في سورة (يس ٣٦):

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤﴾.

جِبِلًّا كثيراً: أي خلقاً كثيراً.

فقوله تعالى: **﴿ولقد أضل منكم جِبِلًّا كثيراً﴾**: ورد في سياق أمر المجرمين يوم القيامة بأن يمتازوا تمهيداً لتعذيبهم في جهنّم.

والظاهر أن ذلك سيكون بعد الحساب وتقرير نتائجه، ومن نتائجه إضلال من كان في دنياه من أهل الضلالة؛ أي إثبات الضلالة له، والحكم عليه بها.

وبناءً على ذلك يمكن فهم الآيات على الوجه التالي:

يقال للمجرمين في آخر موقف الحساب يوم القيامة: «وامتازوا اليوم أيها المجرمون»، أي بعد أن تمّ حسابكم، وثبت تجريمكم.

ثم يخاطب الله تعالى بني آدم عامةً ــ المجرمين منهم وغير المجرمين ــ بقوله: «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط

مستقيم»؟! فكان منكم من أطاع واستقام وكان منكم من عصى وأجرم؟! والمجرمون الكثيرون منكم قد أضلّهم الشيطان بوساوسه ودسائسه.

لذلك يقول لهم سبحانه حينئذٍ: «ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً»؛ مشيراً إلى كُتل المجرمين الذين أمرهم بأن يمتازوا.

ثم يلتفت خطاب الله إلى المجرمين أنفسهم فيقول لهم: «أفلم تكونوا تعقلون» ما عهدت إليكم به في الدنيا على ألسنة رسلي؟! «هذه جهنم التي كنتم توعدون. اصْلَوها اليوم بما كنتم تكفرون»!

ثانياً:

الهداية: بمعنى وجود الشيء والعثور عليه. يقال اهتدى إليه: بمعنى وجده وعثر عليه.

الضلالة: بمعنى الضياع. يقال ضلَّ عنه: أي ضاع عنه، ويقال: أضلّه إذا ضيّعه.

ومنه قوله تعالى ـ حكاية لقول الدهريين ـ في سورة (السجدة ٣٢):

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾.

أي: أإذا ضِعْنا في الأرض وتفتَّتَتْ أجزاؤنا أنخلق خلقاً جديداً؟! ويقولون هذا القول على سبيل الاستغراب والاستبعاد، مستدلين بذلك على نفي البعث!!

ثالثاً:

وتستعمل «هدى»: بمعنى أثبت الهداية وحكم بها، أو نسب غيره إلى الهداية.

وتستعمل «أضل»: بمعنى أثبت الضلالة وحكم بها، أو نسب غيره إلى الضلالة.

ولذلك نلاحظ في نصوص القرآن الكريم ما يتضمن أن الله يهدي من يشاء: بمعنى يثبت لهم الهداية، ويحكم لهم بها. ومشيئته سبحانه لا بد أن تكون موافقة لعلمه وحكمته وعدله.

كما نلاحظ نصوصاً تتضمن أن الله يُضل من يشاء: بمعنى يثبت لهم الضلالة ويحكم عليهم بها.

أو تتضمن أن الله أضلّ فريقاً من عباده: بمعنى أثبت فعلاً أنهم ضالون، وحكم عليهم بهذا الوصف. ولهذا المعنى مستند من اللغة، فقد ثبت في اللغة أن (أضلَّ الرجلَ) تأتي بمعنى وجده ضالاً، ومنه يستعملون «أتى فلان قومه فأضلهم» أي فوجدهم ضالين. وفيما يلي طائفة من النصوص التي يمكن فهم معانيها بالاستناد إلى ذلك والله أعلم:

(أ) قوله تعالى يخاطب المؤمنين في عهد الرسول ﷺ بشأن المنافقين في سورة (النساء ٤):

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

أركسهم: أي نكّسهم وأذلهم بما كسبوا.

ونستطيع أن نفهم المراد من الآية على الوجه التالي ــ والله أعلم ــ:

ظهر النفاق في عهد رسول الله ﷺ على طائفة ممن تظاهروا بالإسلام؛ وخذلوا النبي صلوات الله عليه في غزوة أحد، وكان على رأسهم عبد الله بن أبيّ ابنُ سلول.

فافترق فيهم المؤمنون فرقتين: فرقة كانت تميل إليهم وتذبُّ عنهم، وفرقة عادتهم وحكمت عليهم بالردة والخروج من صفوف أهل الإيمان بعد الذي ظهر منهم من علائم الكفر التي لا مجال لتأويلها؛ إذ خذلوا رسول الله صلوات الله عليه، وتفوّهوا بما يعلن عن حقيقة كفرهم.

فأنزل الله هذه الآية معاتباً الفرقة التي كانت تدافع عنهم من المؤمنين وتريد أن تهديهم ــ أي تثبت أو تَنْسُب لهم الهداية ــ، ومبيِّناً لهم أن ما اكتسبه هؤلاء من إثم في خذلهم لرسول الله كافٍ في معرفة حقيقة كفرهم، ومن كان عنده حقيقة الكفر فلا بد أن يكون قد حكم الله عليه بالضلالة وفق قانون شرعه الذي أمركم بتطبيقه؛ فكيف تحاولون أن تثبتوا لهم الهداية، وتتأوّلوا لهم أعمالهم وقد أثبت الله لهم الضلال، وأعطاكم في شريعته المقياس الذي تقيسون به إيمان الناس وكفرهم من خلال ظواهر أعمالهم؟!

وعلى ذلك يكون تسلسل نظم الآية كما يلي:

«فما لكم في المنافقين فئتين»: فئة عارفة بصيرة تعاديهم لله بعد الذي ظهر منهم من علائم الكفر ودلائله؛ وفئة منخدعة بظواهرهم، تحسن الظن بهم اغتراراً بما يتظاهرون به من إسلام.

«والله أركسهم بما كسبوا» إذْ ارتدُّوا عن تأييد الحق، وانقلبوا رأساً على عقب. «أتريدون» أيتها الفئة المنخدعة بهم «أن تهدوا من أضلَّ الله»، وذلك بأن تثبتوا لهم الهداية أو تنسبوا إليهم أنهم مهديّون بعد أن أثبت الله لهم الضلال، ومكّنكم من الحكم عليهم بذلك استدلالاً بأقوالهم وأعمالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم؟!

«ومن يضلل الله» أي: ومن يثبت الله له الضلالة بموجب أحكام شريعته؛ «فلن تجد له سبيلاً» لتبرئته مما هو عليه من الكفر المحقَّق الذي بدت دلائله في أقواله وأفعاله؛ والله أعلم.

(ب) وقوله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

وفي هذه الآية أيضاً يثبت الله تعالى أن الذين ظلموا إنما ظلموا بسبب اتِّباعهم أهواءهم الطائشة؛ التي لا علم لها ولا تبصر عندها بعواقب الأمور، ثم لم يحكِّموا عقولهم التي وهبهم الله إياها، لتعلَم حقائق الأشياء وتتبصّر بعواقب اتِّباع الأهواء والشهوات والغرائز العمياء، ولو أنهم حكّموا عقولهم وعملوا بما توصلت إليه من علم لاستقاموا واهتدوا، ولكنهم اتبعوا أهواءهم بغير علم فكانوا من الضالين الظالمين لأنفسهم. وإذ قد ضلوا بإراداتهم الحرة فلا بد أن يُضلّهم الله بأن يحكم عليهم بالضلالة، ومتى حكم عليهم بذلك لم يستطع أحد أن يثبت لهم الهداية، واستحقوا بموجب قانون عدله عقاب الظالمين، ومتى استحقوا عقاب الظالمين فما لهم من ناصرين ينصرونهم من عقاب الله.

(جـ) وقوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

إن هذه الآية الكريمة قد جاءت في معرض تحذير النبي والذين آمنوا من أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم.

وهي تدل بوضوح على أن استغفار المؤمنين للمشركين الذين تحقق شركهم معصية تثبت ضلال فاعلها؛ ولكن المؤمنين لـمّا لم يكونوا على علم بالنهي عن ذلك فإنهم معذورون بما فعلوا. ومن البدهي أن الله جلَّ وعلا ليس من شأنه أن يضل قوماً ــ أي يُثْبت ضلالهم ــ بعد إذ هداهم ــ أي بعد إذ أثبت لهم الهداية بسبب ما كسبوه من إيمان وعمل صالح ــ؛ حتى يبين لهم المحرَّمات التي يجب عليهم أن يَتَّقوها ويبتعدوا عن اقترافها، فإن ارتكبوها بعد أن يبيِّنها الله لهم، أضلهم الله ــ أي حكم عليهم بالضلالة لمخالفتهم حكم الله ــ والله أعلم.

رابعاً:

ويأتي التعبير في القرآن الكريم بإسناد الهداية إلى الله بمعنى أنه يوفِّق العبد إلى سلوك سبيل الهداية، بعد أن تصدُق إرادة العبد الحرّة في أن يكون من أهلها وأن يوفِّقه الله إلى سلوك سبيلها.

كما يأتي التعبير بإسناد **الإضلال** إلى الله بمعنى أنه يسهِّل لعبده سلوك سبيل الضلالة ويمدّ له فيها، وذلك بعد أن تتجه إرادة العبد الحرة بشكل جازم إلى سلوك سبل الضلالة، وتتمّ عزيمته على ذلك.

ومما جاء من ذلك النصوص التالية:

(أ) قوله تعالى في سورة (مريم ١٩):

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

ألا نلاحظ أن هاتين الآيتين صريحتان في أمرين هما:

١ ــ أن الله يمدّ لمن كان في الضلالة فيزداد بذلك المدّ ضلالاً، وهذا المدُّ من مقتضى قانون الابتلاء الرباني لعباده.

٢ ــ أن الله يزيد الذين اهتدَوا هدىً، وهذا من فضل الله الذي يساعد به من أراد الهداية وسلك سبيلها على مقدار جزمِ إرادته وتصميمها في ابتغاء مرضاة الله تعالى؟!

(ب) وقوله تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

ونستطيع فهم الآية: بأن من يَحكُم الله عليه بالضلالة فلن يجد مَنْ يثبت له الهداية إثباتاً ينفعه به، ثم إن من وجدهم الله ضالين بإراداتهم التي وهبهم الله إياها ليختاروا سبيل الهداية، فإنه سبحانه يمد لهم ويتركهم في طغيانهم وضلالهم يتردَّدون ويتحيَّرون، وذلك استكمالاً لظروف الابتلاء الأمثل لإراداتهم الحرة، ولعلهم يرجعون عن غيهم!

(ج) وقوله تعالى في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾.

وفي هذه الآية الكريمة نرى أن تثبيت الله للذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنما يكون بعد أن يؤمنوا بإراداتهم الحرة.

وأن إضلال الله للظالمين يمكن فهمه على أحد وجهين:

إما بمعنى الحكم عليهم بالضلالة. وإما بمعنى المدّ لهم في الضلالة بعد أن يكفروا ويظلموا بإراداتهم الحرة، ليشتد عليهم عذاب الله وعقابه، وتدمغهم الحجة بأنهم كانوا ظالمين ضالين. وبهذا المعنى دعا نوح ربه على قومه فقال: «ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً». وهكذا يفعل الله ما يشاء من تثبيت على الهداية أو مدّ في الضلالة، لكن مشيئته تعالى ــ كما علمنا من مختلف النصوص ــ لا بد أن تكون موافقة لحكمته وعدله سبحانه والله أعلم.

(د) وقوله تعالى في سورة (التغابن ٦٤):

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾.

وهذه تتضمن أن المصائب التي تقع ضمن دائرة القضاء والقدر الكبرى التي ليس لإرادة الإنسان عليها سلطان؛ إنما تقع بإذن الله، وذلك في قوله تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله».

كما تتضمن أن من يؤمن بالله ــ وذلك بأن تتجه إرادته الحرَّة إلى الإيمان ــ يهد الله قلبه ــ أي يثبّته ويوفّقه للمزيد من الهداية ــ «ومن يؤمن بالله يهد قلبه».

ثم يختم الله الآية بإثبات علمه المحيط بكل شيء في قوله: «والله بكل شيء عليم».

(هـ) وقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾.

وتبدو هذه الآية في قمة ما يشكل فهمه من النصوص القرآنية على كثير من الباحثين؛

ليتم انسجام النصوص المتعددة انسجاماً لا يرافقه إشكال، متفقاً مع العقيدة الحقة في القضاء والقدر كما قررناها سابقاً.

ولدى التأمل فيها نستطيع أن نفهم منها ما فهمناه من الآيات السابقة دون تعارض.

* وذلك أن الهداية التي تتعلق بها إرادة الله والمعلن عنها في قوله تعالى: «فمن يرد الله أن يهديه»؛ تأتي على عدة احتمالات أظهرها اثنان وهما:

الاحتمال الأول: أن تكون الهداية بمعنى تحقيق النتائج فعلاً.

وقد سبق أن قررنا في عقيدتنا في القضاء والقدر أن تحقيق النتائج بعد اتجاه إرادة الإنسان إنما يتم بقضاء الله وقدره.

الاحتمال الثاني: أن تكون الهداية بمعنى التثبيت والتأييد والتوفيق.

وهذا أيضاً يتفضّل الله به ــ بقضائه وقدره ــ على عباده الذين تتجه إراداتهم الجازمة الصادقة لطلب الحق والإيمان به وسلوك سبيله؛ كما سبق بيانه.

وعلى كلٍّ من هذين الاحتمالين نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى: «يشرح صدره للإسلام» وذلك بأن يشرح الله صدره لإعلان الإسلام وتطبيقه، واتّباع أوامره واجتناب نواهيه، بعد أن تتجه إرادة العبد الحرة الجازمةُ الصادقة إلى الإيمان، فيكون شرح الصدر الذي ينعم به القضاء والقدر توفيقاً إلّـهياً يساعد الإنسان على تحقيق ما اتجهت إليه إرادته الصادقة الجازمة، فإعلان الإسلام وانشراح الصدر له فرع الإيمان الصادق، وأثرٌ من آثاره في قانون النفس الإنسانية. وهذا لازم قدري.

* أما قوله تعالى: «ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد في السماء»: فنستطيع أن نفهم معناه مقابلاً تماماً لمعنى «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»؛ وذلك بأن تكون الضلالة التي تتعلق بها إرادة الله موجَّهة إلى أحد احتمالين هما:

١ ــ أن تكون الضلالة المرادة بمعنى تحقيق النتائج فعلاً، كما ذكرنا في جانب الهداية.

٢ ــ أن تكون الضلالة المرادة بمعنى المدِّ والإمهال، وتيسير سبل الضلال وعدم نصب العقبات فيها.

وإنما يكون ذلك عقاباً من الله يعاقِب به مَنْ تتجه إراداتهم الجازمة إلى إنكار الخالق، والجحود بدينه، والخروج على طاعته، فرفض إعلان الإسلام والدخول فيه فرع عدم الإيمان بالله، وأثرٌ من آثاره في قانون النفس الإنسانية. وهذا لازمٌ قدري.

وعلى كلٍّ من هذين الاحتمالين يمكن بيسر فهم قوله تعالى: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» وذلك بأن يجعله ضيِّقاً حرجاً عن إعلان الإسلام، والسعي لتطبيقه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وإنما يكون ذلك بعد أن تتجه إرادة العبد الحرةُ الجازمة إلى الكفر بالله، وجحود نِعَمِه، والخروج على طاعته. فيكون جعلُ صدره ضيقاً حرجاً نوعاً من العقوبة له على ما سبق منه؛ وأثر من الآثار الطبيعية للسلوك الإرادي، إذ اتجهت إرادته إلى الكفر وصمَّمت عليه، ولذلك نلاحظ أن الله تعالى ختم الآية بقوله: «كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون»؛ إشارة إلى أنّ جعلَ صدورهم ضيقة حرجة نوع من الرجس الذي يعاقِب الله به الذين يستكبرون على الإيمان والطاعة.

(٥)
المجموعة الخامسة

ونلاحظ نصوصاً كثيرة في القرآن والسنة تثبت سَبْقَ علم الله بما سينتهي إليه حال الإنسان؛ سواء ما كان منه داخلاً في كسبه وإرادته ودائرة ابتلائه، أو ما كان منه خارجاً عن دائرة كسبه، وإنما يجري له أو عليه بمحض القضاء والقدر.

وفيما يلي طائفة من النصوص التي تدخل في هذه المجموعة، وتدلُّ على سبق علم الله بكل شيء، وقد عرفنا فيما سبق أن سبق العلم لا يعني ارتباط القدرة والإرادة به في كل الأحوال؛ لأن علم الله يحيط بما هو واجب عقلاً، وما هو مستحيل عقلاً، وما هو جائز عقلاً، ما كان منه فيما مضى وما لم يكن، وما هو كائن فعلاً، وما سيكون مما يختاره الله في مخلوقاته، ومما سيختاره عبيده الذين منحهم بإرادته تعالى سلطة الإرادة والاختيار:

(أ) قوله تعالى في سورة (الحديد ٥٧):

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

فهذه الآية تنص على أنه ما من مصيبة تنزل في الأرض ولا في الأنفس إلا وقد سبق بها علم الله من قبل؛ سواء كانت هذه المصيبة داخلةً في دائرة القضاء والقدر الكبرى، أو في دائرة كسب الإنسان الصغرى. ومعنى كونها في كتاب: أي في علم الله المكتوب في اللوح المحفوظ. والله أعلم.

(ب) قول الرسول ﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود:

«إن أحدكم لَيُجْمَعُ خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسِل الله إليه المَلَكَ فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. فوالذي لا إلّه غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإنّ أحدكم لَيَعْمَلُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

(رواه البخاري ومسلم)

فهذا الحديث يدل بوضوح على سبق علم الله بكل شيء.

ولكن عرفنا أن ما سبق به علمه تعالى ممّا يتعلّق بالإنسان قسمان:

قسم منه يتم بمحض القضاء والقدر، دون أن يكون لإرادة المخلوق تدخُّل فيه، كرزق الإنسان وأجله.

وقسم يدخل ضمن دائرة الابتلاء والاختبار على ما بيَّنا في عقيدتنا بالقضاء والقدر كعمل الإنسان الإرادي.

وإن كتابة هذه الأمور تسجيل للعلم الإلّهي في صحف الملائكة. والله أعلم.

وعلى هذا المنوال يمكن فهم سائر النصوص التي تدخل في هذا الباب.

خاتمة:

هذا ما تحصّل عندنا في هذا الموضوع الشائك، جمعاً بين مختلف الأدلة العقلية والنقلية. واللَّهَ أرجو أن أكون قد وُفِّقت إلى الحق والسداد، إنْ أريد إلا الحق الذي يرتضيه الله لنا اعتقاداً وسلوكاً، وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

□ □ □

الفصل الرابع

(١)
ما تجري به المقادير الربَّانية ممَّا ظاهره شرّ هو في حقيقة أمره خير

لقد علمنا أنّ الله حكيم، والحكيم لا بدّ أن تكون أفعاله حكيمة، ولا بدّ أن يكون قضاؤه وقدره صادرين عن حكمته، والحكمة هي في جانب الخير المطلق دائماً.

ولكن قد يلزم من فعل الأمر الحكيم الذي هو خير، لوازم تبدو في ظاهرها وبحسب تصوّر الناس لها أنّها شرّ، ولدى التحقيق في باطن أمرها يتبيّن أنها خير، والحكم عليها بأنها شرّ هو من قصور نظر الناس، ووقوفهم عند حدود الظواهر التي تخالف ما يحبّون وما يشتهون.

والشرّ الوحيد في الوجود هو ما يصدر من المخلوق حينما يخالف أوامر الله ونواهيه ووصاياه لعباده.

أمّا أفعال الله تعالى فهي بمنظار الحقيقة من قبيل الخير المطلق، وإنْ كان بعضها بالنسبة إلى تصوّر الناس وإدراكاتهم الحسيّة الآنية شرّاً.

ولـمّا وهبَ الله الإنسان في هذه الحياة الدنيا الإرادة الحرّة، ووضعه موضع الامتحان ليختار بإرادته الخلود في النعيم عن طريق الطاعة، وكان هذا خيراً عظيماً منحه إيّاه وشرّفه به، اقتضى ذلك أن يقلّبه على ألوان وصور وأنواع شتى ممَّا يحبّ وممّا يكره؛ ليشكر فيما يحبّ فلا يطغى ولا يكفر، وليصبر فيما يكره فلا يضجر ولا يكفر. وما يكره لا بدّ أن يكون مؤلماً، وهذا المؤلم يراه الإنسان مصيبة، ويراه سوءاً، ويراه شرّاً، ولكنه في الواقع لونٌ من ألوان الامتحان لا بدّ منه وفق مقتضيات الحكمة لتحقيق النجاح الصحيح لمن أراده، وليكون عقبة فشل لمن لم يعبأ بظروف الامتحان.

ولدى البحث العميق في واقع حال النعم والمصائب التي تنزل بالناس بقضاء الله وقدره؛ يتبينّ لنا أنها أمور اقتضتها حكمة الخالق العظيم في عالم الابتلاء؛ وعالم الابتلاء هو الطريق الحتمي لعالم الجزاء، وكلّها لدى الحقيقة مشمولة بقاعدة الخير المطلق.

إنّ ألوان النعم التي يسميها الناس خيراً، وألوان المصائب، التي يسمّيها الناس شرّاً ممّا لا دخل لإرادة الإنسان فيه: لا تعدو أنها مظاهر تكمن فيها حكمة الخالق العظيم، فليس شيء من المصائب الربّانية ـ لدى التحقيق ـ بشرّ لذاته، وإن كان يُسمّى في مفهوم الناس شرّاً، نظراً إلى صورته الظاهرة المؤلمة!! كما يُسمِّي قصير النظر من المرضى عمل الطبيب الجراح الناصح شرّاً، متى شعر بألم من عمله. وكما يُسمِّي الطفل وسائل التربية الحازمة التي يربّيه بها أبوه العاقل العالم الناصح شرّاً، إذا آلمه في شيء أو حَجَر على هوى من أهوائه الجانحة عن سبيل الرشاد. وكما يُسمِّي الطالب قصير النظر وفرة ما يقدَّم له من معارف متعلّقة بمادّة مقرّرة عليه شرّاً، ويسمّي صور الامتحان التي يمتحنه بها مدرِّسه الناصح الأمين ليكتشف مدى تحصيله شرّاً كذلك. وكما يسمّي شدّة ملاحظة المراقبين له شرّاً. مع العلم بأن هذه الأمور كلّها وسائل من وسائل الحياة التي لا يتمّ تحقيق الخير العظيم إلاّ عن طريقها.

* وحين نبحث عن الغايات الحكيمة التي تهدف إليها مقادير النعم والمصائب التي تنزل بقضاء الله وقدره؛ **تتبينّ لنا الغايات التالية:**

الأولى ـ الابتلاء:

وذلك لأنه قد تقضي الحكمة في بعض الأحيان أن يكون الامتحان بالنعمة، وقد تقضي الحكمة في أحيان أخرى أن يكون الامتحان بالمصيبة. وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: نمتحنكم بما تسمّونه شرّاً من مصائب وبما تسمّونه خيراً من نعم.

ومعلوم أن أصل الامتحان هو من قبيل الخير، لأنه هو الطريق إلى نعيم الخلود لمن أراده.

ويقول الله أيضاً في سورة (البقرة ٢):

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

ومن أمثلة الامتحان بما هو مكروه وما هو محبوب في تصرّفاتنا الإنسانية؛ ما يجري من امتحان الطلاب في مختبر الكيمياء، فقد تكون المادّة المطلوب تحليلها كريهة الرائحة منتنة، ولكنها هي الوسيلة المناسبة لنجاح الطالب، وظفره بما ينشده من شهادة. وقد تكون المادّة المطلوب تحليلها طيبةالرائحة، حسنة المنظر، فتشغل الطالب عن واجبه، ثم ينتهي الوقت دون أن يقدّم عملاً يحقق له النجاح المنشود!

فهل إعطاء المادّة الكريهة التي كانت وسيلة لنجاح الطالب خير أو شرّ؟!

الحقيقة أنّ الامتحان خير، لأنّه هو الوسيلة لتحقيق الخير، والامتحان بالمكروه خير، لأنه قد يكون الوسيلة الفضلى للامتحان الأمثل.

الثانية ــ التربية والتأديب:

فقد تقتضي الحكمة أن نربيّ مَنْ نربيه، ونؤدِّب مَن نؤدبه، بما يحبّ تارة، وبما يكره تارة أخرى.

فقد تكون التربية بتحمُّل المتاعب المؤلمة، وبالدخول في المآزق الحرجة، وبمُعاركة المخاوف والمشاق. وقد تكون التربية بالعطاء والتحبب والثناء، ولكلّ منهما حالة ملائمة فيمن نربّيه.

وكذلك يربيّ الله عباده ويؤدّبهم بالمصائب تارة وبالنعم تارة أخرى.

ومن التربية الرّبّانّة للمسلمين بالمصيبة ما أنزل الله بالمسلمين في غزوة أُحُد، وفي غزوة حنين:

فما كان في غزوة أُحدٍ عَلّم المسلمين أنْ لا يخرجوا عن واجب الطاعة للقيادة.

وما كان في حُنين علّم المسلمين أن لا يغتروا بكثرتهم، ولا يستهينوا بعدوّهم.

الثالثة ــ الجزاء المعجَّل:

فقد تقضي الحكمة العظيمة بأن يجازي الله بعض عباده على بعض أعمالهم جزاءً معجلاً على ما عملوا من خير أو شرّ، فيعطيهم شيئاً من ثوابهم على مافعلوامن خير، أو يصيبهم بشيء من المصائب على ما فعلوا من شرّ.

وللجزاء المعجَّل في الدنيا أثر ظاهر في حفز همم أهل الطاعة للاستزادة من فعل الخير؛ وفي تذكير أهل المعصية حتى يتوبوا، وينتهوا عن فعل الشر، وفي كلّ منهما عناية ربّانية جليلة.

والمعجَّل من الثواب في الدنيا أنواع كثيرة لا تحصى من الرغائب المادّية والمعنوية: منها النصر والتأييد، والعزّ والسؤدد، ومنها الشعور بالسعادة والطمأنينة، ومنها اللّذة بفيوض المعرفة الإلّهية.

والمعجَّل من العقاب في الدنيا أنواع كثيرة لا تحصى مادّية ومعنوية: منها العيش الضَنْك، ومنها الفشل والخذلان، ومنها الشعور بالشقاء والقلق، ومنها ضيق الصدر وتبلبل الفكر واضطراب النفس. وقد يكون معجل العقاب تكفيراً وتطهيراً.

خاتمة:

لدى ملاحظة هذه الحقائق يعلم المؤمن أن ما يجري به القضاء والقدر كلّه خير، وليس شيء منه في الحقيقة شرّاً. لذلك يكون المؤمن مستقر النفس، مطمئناً سعيداً في حالتي النعمة والمصيبة، والرخاء والشدة، ولئن كان حسّه الجسديّ في الألم، فإن شعوره الروحيّ والقلبي في الرضا عن الله، والتسليم التامّ له. ولا تكون هذه السعادة القلبية والروحية لغير المؤمنين؛ وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن صهيب: «عجباً لأمر المؤمن! إنّ أمره كلّه له خير ــ وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن ــ: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

(٢)
مسؤولية الإنسان عن أعماله الإرادية

حين يَتمّ للمسلم التصوّر الصحيح لمفهوم القضاء والقدر، وفق الفهم الذي كان عليه السلف الصالح وأدركه أهل السنة والجماعة من بعدهم؛ فإنه لا يخلط بين مواقع المسؤولية الإنسانية وما يجري بمحض القضاء والقدر.

أمّا ما يجري بمحض القضاء والقدر فإنه يستقبله بالتسليم والرضا، ويعلم أنه عين الحكمة التي اقتضتها إرادة الحكيم العليم.

وأمّا ما يقع في دائرة المسؤولية الإنسانية فإنه يباشر فيه الأسباب التي اقتضتها سنة الله في كونه، وأمرت بها شريعة الله فيما أنزل على رسوله. ويحاسب نفسه ويحاسب الآخرين وفق حدود المسؤولية التي ناطها الله بالمكلفين من عباده.

فلا يلقي نفسه في التهلكة اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربّانية، لأنّ هذا من حدود المسؤولية الإنسانية. ولا يترك أسباب الكسب التي أمر بها الله اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربّانية في الرزق، لأنّ مباشرة أسبابِ الكسبِ من حدود المسؤولية الإنسانية. ولا يترك الجهادَ في سبيل الله لنصر دين الله وردِّ كيد أعداء الله، اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربّانية من النصر والهزيمة، لأن القيام بواجب الجهاد في سبيل الله من حدود المسؤولية الإنسانية. ولا يترك إعداد المستطاع من القوّة، اعتماداً على قوّة الله القادر على نصر أوليائه على أعدائه، لأنّ إعداد

المستطاع من القوة لإرهاب أعداء الله وأعـداء المسلمين من حـدود مسؤولية المسلمـين. وهكذا إلى سائر الأسباب التي تقع ضمن حدود المسؤولية الإنسانية.

بهذا الفهم السليم والعمل السببي الذي أوجبه الله عـلى الناس وجعله من سنن كـونه؛ ظفر المسلمون الأولون بالمجد العظيم، واحتلّوا مركز قيادة الناس إلى الحق.

(٣)

التوكّل والاعتماد على الله

بعـد أن يتخذ المسلم مختلف الأسبـاب المادية التي أمـر الله بـاتخـاذهـا لتحقيق النتـائج المطلوبة التي تقـع ضمن دائـرة المسؤولية والتكليف؛ يـلاحِظ أنّ ما يـرجـوه من نتـائج محـاط باحتمالات فشل كثيرة، لا تملك استطاعته سدّ ثغراتها، وتفادي مخاطرهـا، فهو من كـلّ جانب مهـدّد بأن لا تنفعـه أسبابـه ولا وسائله، لـذلك فهـو يباشر الأسبـاب وفق سنن الله في كونـه، وأوامره في شريعته، ويلتجىء بقلبه إلى الله، متوكّلاً عليه، معتمداً على معونته، مستعيناً بقـوته لتحقيق ما يرجوه من نتائـج يبـاشر أسبابهـا على قـدر استطاعتـه؛ ويسألـه تعالى أن يـدفـع عنه العقبات، ويمنـع عنه العراقيل، ويمدّه بالتأييد والتسديد، والتوفيق والمعونة.

فالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والاستعانة بـه، أمور من أعـمال قلب المؤمن، ووظيفة من وظائفـه، فإذ امتلأ بها قلب المؤمن وهو يباشر الأسباب المادية على مقدار استطاعته؛ ازدادت قوته المعنوية في الاندفاع لتحقيق النتائج المرجوّة، ثقةً منه بـأنّ الله يسدّده ويؤيّـده، وسيحقق له ما يرجو إذا علم أنّ فيه الخير.

وحين لا تتحقق النتائج المرجوّة بعد اتخاذ الأسباب المستطاعة؛ يـلاحظ المؤمن أنّ الله قد قضى له ما هو خير، وادّخر له الأفضل والأحسن، فهو يستقبل عدم تحقيق النتائج التي يرجوهـا بمثل استقباله لها فيـما لو تحققت. وهكـذا يكون مـطمئن القلب رضيّاً، ويكـون في أعمالـه باذلاً أقصى ما يستطيع، طاعة لأوامر الله في شريعته وسننه السببيّة في كونه، ويكون مع ذلك متفـائلاً بأن الله لا يقضي له إلاّ ما هو خير.

وهكذا يكون المؤمن سببيّاً في أعماله المادّية، متوكلاً على الله في حركاته النفسية والقلبية، راضياً بما يقضيه الله ممّا يحبّ وممّا يكره.

(٤)

أثر الإيمان بالقضاء والقدر

وهكذا فإن المؤمن العاقل متى صَـحّ فهمه لحقيقة القضاء والقدر، وامتلأ قلبه عقيدة بأن كـل ما يجـري لـه من نعم، وما ينـزل بـه من مصائب، أمـرٌ محتوم مـرسوم، مـرادٌ لله تعـالى،

مقضي بقضائه، محدَّد بتقديره، منفَّذ بقدرته، وراقب مع ذلك صفات الله العظيمة التي منها: علمه وحكمته، ورحمته وعدله، ثم وضع بين عينيه قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾.

إنه متى آمن بهذا وفهمه فهماً صحيحاً اطمأنّ قلبه لكل ما يجري في الكون مما لا كسب له فيه، ورضي بمراد الله مهما كان ذلك الأمر محزناً أو ساراً، وانتقل من الأكوان إلى مكوِّنها، فارتقى في سُلَّم محبة الله والقرب منه.

ولئن صدق القائل إذ يقول لممدوحه: «فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُو ألم»؛ فإن المؤمن الصادق ــ وهو في مقام حبِّه لربه ــ حَرِيٌّ بأن يقول مطمئنَّ القلب: «رضيت بالله رباً، وبقضائه حكماً، إنه وليي، وهو حسبي ونعم الوكيل».

وبذلك يُفْرِغُ الله على قلبه معاني من السعادة لا يجدها في شيء آخر من محابِّ الدنيا ومسرَّاتها.

ولما تحلى المسلمون الأولون بهذه العقيدة كانوا سادة وقادة، وكانوا خير أمة أخرجت للناس، وتحققت لهم السعادة العظمى في الدنيا والآخرة.

ولما وضحت هذه العقيدة في نفس عمر رضي الله عنه قال: «لا أبالي على أيها أصبح أو أمسي: على ما أحب أو على ما أكره، لأنني لا أدري أيهما خير لي»!!

وصدق رسول الله صلوات الله عليه إذ يقول فيما رواه مسلم عن صهيب: «عجباً لأمر المؤمن! إنّ أمره كلّه له خير ــ وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن ــ: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له».

هذا من جهة ما يدخل في دائرة القضاء والقدر الكبرى.

أمَّا ما يدخل ضمن دائرة كسب الإنسان فإن المؤمن الصادق إن وجد من نفسه الاستقامة والطاعة وابتغاء مرضاة الله في أعماله؛ فإنه يحمد الله على توفيقه، ويشكره على ما أنعم به عليه من فضل. وإن وجد من نفسه غير ذلك، عاد عليها باللوم والتثريب والندم، والحزن الشديد على ما فرَّط في جنب الله، ثم يُقْبِل على ربه تائباً منيباً، مستغفراً من ذنبه، ذاكراً قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾.

□ □ □

خَاتِـمَة

وفي خاتمة هذه البحوث نضـرع إلى الله العلي القـدير أن يهبنـا الإيمان العميق الصـادق، والعلم الغزير النافـع، والعمل الصالـح المخلص. كما نسأله تعالى أن يجنِّبنا الجهـل والضلال، والكفر والفسوق والعصيان، إنه كريم منّان.

والحمد لله رب العالمين.

تمَّ الكتاب بعون الله تعالى
والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلم

● ● ●

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع «الإسلام والإيمان»:

الباب الثاني: في الإلهيات

الفصل الأول «الإيمان بالله تعالى»:

الفصل الثاني «صفات الخالق جل وعلا وأسماؤه الحسنى»:

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث: الإيمان بالملائكة والجن

الفصل الأول «الإيمان بالملائكة»:

الفصل الثاني «الجن والاعتقاد بوجودهم»:

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع
الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله

الموضوع	الصفحة

الباب السادس : الإيمان باليوم الآخر

الفصل الأول «الابتلاء والتكليف والجزاء وحدود المسؤولية»:

الفصل الثاني «الإيمان باليوم الآخر»:

الموضوع	الصفحة

الباب السابع: أسباب الضلالات الاعتقادية

الموضوع	الصفحة

الباب الثامن: المكفِّرات

الباب التاسع : الإيمان بالقضاء والقدر

● ● ●


عبد الرحمن حسن حبنكة
الميداني
العقيدة الإسلامية
دار القلم

